

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة / العدد السابع والثلاثون / شتاء / ٢٠٢٢

عمر شبلي	جولة في أقاليم الشعر
د.علي سعيد أيوب	الالتزام وانعكاساته في الشعر العربي عمر شبلي أنموذجاً
د.ريما غانم	أسلوبية التعبير الوصفية وأبعادها الدلالية في شعر نزار قباني
د.أحمد السبع	تداعيات العولمة وتأثيرها على اقتصاد دول العالم الثالث
د.منى يونس	آفاق التنمية الزراعية في لبنان
د.ايلي شديد	التنمية المستدامة في اتحاد بلديات عاليه
د. هيام عيسى	صورة الفن المملوكي في المسجد النبوي الشريف
د.أحمد نصرالله	دور التدريس الإلكتروني في تعزيز مهارات التعليم الذاتي
د.جورجينا شاهين	الصلابة النفسية وعلاقتها بالتوافق النفسي لدى مرضى السكري
د. محمد جابر	السادية والمازوشية
جوزيف جواد المقدسي	أسلوب الاستفهام والأمر في قصائد خليل حاوي
صونيا غانم	الجرم العربي في مرآة الشعر العامي الملتزم
يعقوب شبلي	الأدب القومي في مواجهة الاحتلال: من أرمينيا إلى الوطن العربي
أليسار حسن إبراهيم	الزمان في أدب فؤاد سليمان
رنا ربحان	التعلم عن بُعد وعلاقته بالتحصيل الدراسي عند التلاميذ
رانية مرعي	مراكب الموت (شعر)
غدير نصرالدين	عسك تصير في يوم يسوعي(شعر)

– موقف "المنافذ الثقافية"
من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي
للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدي

مجلة فصلية ثقافية محكمة

المنافذ الثقافية

العدد السابع والثلاثون / شتاء ٢٠٢٢

ISSN 2708-4302



9 772708 430007

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

العدد السابع والثلاثون - شتاء 2022

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

نائب رئيس التحرير
أ. د. درية كمال فرحات

الهيئة الثقافية والإدارية

د. هالة أبو حمدان	أ. د. عماد هاشم	د. علي أيوب
أ. د. عيدا زين الدين	د. زهور شتوح (الجزائر)	د. ندى الرمح
د. منال شرف الدين	د. رضا العليبي (تونس)	د. منى دسوقي
د. سميمة طليس	د. ربي شوكت محسن	أ. رولا الحاج حسن
أ. رثيفة الرزوق	أ. حكمت حسن	أ. مروان درويش
أ. زينب راضي	أ. سوزان زعيتر	

تدقيق لغوي د. فاطمة البزال. أ. سامي التراس / د. إيمان صالح مسؤولة القسم الانكليزي

إلجنة المحكّمة

أ. د. ديزيريه سقال	أ. د. حسن جعفر نور الدين	أ. د. محمد فرحات
أ. د. فؤاد خليل	أ. د. لارا خالد مخول	أ. د. علي حجازي
أ. د. جمال زعيتر	أ. د. مها خير بك ناصر	أ. د. محمد عواد
أ. د. عائشة شكر	أ. د. أحمد رباح	أ. د. يوسف كيال
أ. د. ماغي عبيد	أ. د. سعيد عبد الرحمن	أ. د. درية فرحات

تصميم المجلة وإخراجها: دار النهضة العربية
المدير المسؤول: علي حمود

ISSN 2708-4302

موقع المجلة الإلكتروني – www.al-manafeth.com

تطلب المجلة من دار النهضة العربية – بيروت – شارع جامعة بيروت العربية
للمراسلات: 00961 1 833 270
darnahdainfo@gmail.com

الاشتراكات السنوية:
لبنان للأفراد 100 ألف ليرة لبنانية – للمؤسسات 150 ألف ليرة لبنانية

باقي الدول العربية:
للأفراد 100 دولار – للمؤسسات 200 دولار
للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

- جولة في أقاليم الشّعر
عمر شبلي 5
- الالتزام وانعكاساته في الشّعر العربيّ عمر شبلي أنموذجًا
د.علي سعيد أيّوب 9
- التّربية الوجدانيّة والقيميّة للتّربية الوطنيّة بين حدّين: النّوع الاجتماعيّ
والذّين والطّائفة المواطن اللبنانيّ نموذج عن المواطن العربيّ
أ.د. ندى حسن أبو علي 43
- أسلوبيّة التعابير الوصفية وأبعادها الدلاليّة في شعر نزار قبّاني
د.ريما غانم 83
- تداعيات العولمة وتأثيرها على اقتصاد دول العالم الثّالث
د.أحمد السبع 101
- آفاق التّنمية الزراعيّة في لبنان
د.منى يونس 121
- التّنمية المستدامة في اتّحاد بلديات عاليه
د.إيلي شديد 137
- صورة الفنّ المملوكي في المسجد النبويّ الشّريف (-923 648 / -1250 1517)
د. هيام عيسى 163
- دور التّدريس الإلكترونيّ في تعزيز مهارات التّعليم الذّاتيّ لدى الطّلاب الجامعيّين
د. أحمد رضوان نصر الله 180
- جهود الطّائفت والفساد
د. يوسف زلغوط 207
- الصّلاية النفسيّة وعلاقتها بالتّوافق النّفسيّ لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني دراسة
وصفيّة على عينة من مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس شمال لبنان
د.جورجينا شاهين 230
- السّاديّة والمازوشيّة
د. محمد جابر 275
- أسلوبا الاستفهام والأمر في قصائد خليل حاوي
جوزيف جواد المقدسي 298
- واقع تعلّميّة اللّغة العربيّة في المرحلة الابتدائيّة بين الصّعوبات في تعليمها والحلول المُعالجة
إيليان أبي سليمان أ.د. نمر فريحه 316
- الجرح العربيّ في مرآة الشّعر العاميّ الملتزم طلال حيدر وتميم البرغوثي أنموذجين
صونيا غانم 326
- واقع المصمم بين التّصميم والتّطبيق على فايس بوك (التّجربة اللبنانيّة أنموذجًا)
فاطمة محمد فرحات 346
- واقع المؤسّسات الصغيرة والمتوسطة الحجم في لبنان: الصّناعات الغذائيّة
لينا صوايا 391
- الأدب القوميّ في مواجهة الاحتلال: من أرمينيا إلى الوطن
العربيّ («باروير سيفاك» ونسيب عريضة» أنموذجين)
يعقوب شبلي 403

435.....	الزّمان في أدب فؤاد سليمان أليسار حسن إبراهيم
466.....	المدرسة والتّربية في فكر جون ديوي خضر عيسى
484.....	التّعلّم عن بُعد وعلاقته بالتّحصيل الدّراسي عند التّلاميذ رنا ربحان
499.....	كورونا والإعلام المتحوّر مها مراد
508.....	مراكب الموت (شعر) رانية مرعي
510.....	عساك تصير في يوم يسوعي (شعر) غدير نصر الدّين
511.....	عطش الأمانى (شعر) دلال مهنا الحلبي
514.....	«يا أناي» (شعر) ناصرية بغدادي العرجة

- Impact de la pandémie de COVID 19 sur l'émergence du Burn out chez les professionnels de santé à l'hôpital gouvernemental à Ftouh Keserwan
Dr Rita Haykal Hassoun Atallah1
- Le cheminement initiatique d'une jeunesse perdue dans Beyrouth la nuit de Diane MAZLOUM
Dr Ghina EL SAYED30
- Digital Architecture A New Era that Leads the Future
Hadil Chazbek49

جولة في أقاليم الشعر بقلم عمر شبلي

للشعر في الداخل الإنساني أقاليم، وهذه الأقاليم هي جغرافية الزمن الداخلي في الإنسان، وفيها مطر وعواصف وبروق ورعود، وفيها تفتُّح الداخل الإنساني بما ترزعه الأمطار فينا، وما تجلبه العواصف معها من مناطق تكوينها، وقتها يكون البرق صلة صورة المرايا الداخلية برؤيا الشاعر، والتي هي في جوهرها محاولة انتقال الشاعر من واقعه إلى العالم الذي يريده، وهذا العالم يقوم على الانفصال عن الماضي للانتقال إلى عالم جديد يخلقه هو، وبهنا تكون مهمة الشعر التمرد المتمثل بالثورة والانقلاب على واقعية المعطيات الجاهزة لخلق أكوام أخرى تتسم بالجدّة والدهشة والمجيء من عوالم نائية، وهكذا يكون الزمن الشعري غير متوفر وغير محصور في حدود الآنيّة، إنه دائماً في الزمن الذي يأتي وحين يطؤه الشاعر يهرب إلى الأمام، وبهذا يكون الشعر نوعاً من النبوة لأنه يكون دائماً في جغرافيته النائية التي تتكون فيها بروقه كما يشاء المطر الهاطل على مناطقه الداخلية، وفيها يرى ما لا يُرى، وعدم اكتشافه المسبق يحتم على الشعر أن يكون آتياً من مناطق نائية مسكونة بالتعجب والدهشة والمغامرة، وهذا يعني أن الشعر الحقيقي هو جديد باستمرار، حتى ولو كان مكتوباً من أقدم العصور، وبهذا تكون حداثة الشعر تغييراً وإضافة، والزمن في الشعر ليس تاريخاً، وإنما هو طبيعة الفصول الداخلية للنفس الإنسانية، وما تُنتج من عطاء، وجدّته هي ما تجعله ثورة، وسمته التغييرية هي دائماً تهدف إلى التغيير، والتغيير في الشعر يقوم على الهدم والبناء في آن، والهدم يكون جميلاً بمقدار ما يهدم من خرائب يسكنها أناسٌ تغلّفهم ظلمات لا ترى الشمس، ولو عرفت طبيعة الفصول كلها، والتغيير هو الطبيعة الثورية التي يحملها الشعر. ولعظمة الشعر ودوره البطولي يكون مرتبطاً بالأسطورة، فإذا كانت الأسطورة فعلاً خارقاً فإنها تتسم بالبطولة التي يخلقها الشاعر، والأسطورة هي دائماً من أهم سگان جغرافية الشاعر، لأنه يخلق البطل حين يكتب الشاعر الشعر النابع عن إرادة التغيير لتتنظم كينونة الحياة، وبتجاه الآتي المتخيّل، ولتكون مستساغة ومناقضة لجمودية التقليد وخلوه من دفته الإبداعي.

كانت النار في الأولمب جغرافية غير مسموح لها بالتمدد، إنها مستعمرة لآلهة الأولمب، ولكبير الآلهة «زوس»، ولا يُسمحُ التجول فيها لغير آلهة الأولمب، ولكنها

أصبحت جغرافية لا حدود لها إلا مواعد الفقراء، وامتلاكهم حق التصرف بإشعالها وإطفائها عندما سرقتها سيزيف وأعطاهما للفقراء لتصبح ناراً مقدسة. لقد كانت النار ثورة حين وصلت إلى بلاد الفقراء، إنها كائن جديد بينهم ولها سمة التغيير والحرق. إنها سلاح ثورة، وبهذا صارت شعراً حين جلس حولها الفقراء يغنون لتحولاتها، دون أن ينسوا الدعاء لـ«سيزيف» الذي حُكِم عليه بأزلية العذاب، وحمل الصخرة باتجاه جلجلة لا يمكن الوصول إليها. والنار القصيدة كانت وليدة المعاناة، وكانت ثورة للتحويل وعدم الاستقرار في موقد واحد، وبهذا الإدراك المتحول لا يكون الشعر شعراً إذا لم يكن سيزيفياً وحاملاً نار الثورة، ولو كرهت آلهة الأولمب وصبت عليه غضبها عبر طرق جلجلتها التي لا تنتهي. فالشعر ثورة لاشتراكهما بسمة التغيير والتمرد وتحويل حطب جبل الأولمب إلى رماد، والشعر وقتئذ يتحول إلى عشب يدل الرعاة على مواقعه، وثرورية الشعر هي عمل أخلاقي، لأن التغيير والتحول اللذين يُحدثهما الشعر يجعلان الإنسان غائباً في رؤاه دائماً. ومن سمات الشعر التغييرية أنه يخلق الجمال في عالم الواقع القبيح، والجمال في هذه الحالة خلق، والخلق يتسم بالجدة والدهشة وتغيير جغرافية الحياة الساكنة، وبالشعر يناضل الشاعر للوصول إلى العالم الذي يريده، إنه اغتصاب جغرافية لم تطأها قدم قبله، إنه نهر لا يعرف السكون أبداً، ولا يسمح لك أن تنزل فيه مرتين.

والشعر لا يكون خلقاً إلا إذا كان ناتجاً عن المعاناة، وحدة المعاناة تجعل الشعر أقدر على اختراق الآخر واحتلال مناطق عذراء في وجدانه. والمعاناة تكون باعثاً للشاعر في إبداعه، واقتناص الفرائد. ويُذكر أنّ أحد أصدقاء أبي نواس قال له: هل ترثيني إذا متُّ؟ فأجابه أبو نواس: بلى أرثيك، فطلب منه صديقه أن يتصوره ميتاً ويرثيه، فأنشده أبو نواس أبياتاً لم تعجبه، فقال له: هذا ليس جيداً، فأجابه أبو نواس: أين الباعث؟ ولعل الموت أعلى بواعث الشعر الخالد المتسم بالخلود، وقد سئل أعرابي: لمَ مرثيكم أجمل شعركم؟ فأجاب: لأننا نقوله وقلوبنا محترقة. ومن عناصر الإثارة في شعر الرثاء رؤية الميت، أو رؤية آثاره. لقد كان الشاعر متمم بن نويرة يبكي كلما رأى قبراً، لأن رؤية القبر كانت تذكره بأخيه مالك بن نويرة، وله في ذلك شعر يفجر أعماق ما في النفس الإنسانية من مشاعر:

وقالوا: أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَه لقبرِ ثوى بين اللوى فالدكادِكِ
فقلتُ لهم: إنَّ الأسى يبعث الأسى دعوني، فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

ولعلّ الوقوف على الأطلال في الشعر الجاهلي هو رثاء لموتها، ومحاولة لإعادة الحياة لها، لأنها كانت توقظ في الشاعر موت أو رحيل أهل هذه الأطلال في العصور الخوالي، وكانت الأطلال تخرج من طليتها حين يخاطبها الشاعر، محاولاً خلق الزمن الذي كان ماضياً ولكن الشعر ينفي الماضي فيه يقول امرؤ القيس:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العُصر الخالي

وحين لا يكون الشاعر حاضر الانفعال والمعاناة يكون مجدباً، ويصعب عليه قول الشعر حتى ولو كان شاعراً مجيداً، فالانفعال وقود الشعر، ويحضرني في هذا المجال قول للشاعر الفرزدق معبراً عن هذه الحال: «قد تمرُّ بي الساعة والساعات، وقلع ضرس من أضراسي أهون عليّ من قول بيت من الشعر». إن الفرزدق نفسه قال، وهو يرد على من تجاهل معرفة الإمام علي بن الحسين، وبما يقارب الارتجال نتيجةً للانفعال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيئُ يعرفه والحلُّ والحرمُ

الانفعال ينقذ الشاعر من عاديّة الأداء، واستواء النتاج على كرسى واحد، ولذا فقد تتفاوت طبقات الشعر عند الشاعر نفسه انقياداً لحالاته الوجدانية، وانجراراً وراء عواصف زمنه الداخلي. إن شعر المتنبي، على سبيل المثال، يتفاوت لمعان بروقه وزئير عواصفه المستبدة بأقاليمه الداخلية من قصيدة لأخرى تبعاً لمناخاته الداخلية، وصهيل خيوله في جغرافية قلقه وغضبه الداخليين، في مجلس سيف الدولة الأخير كانت انفعالاته عالية التأثير على قصيدته الخالدة: «واحرّ قلباه ممن قلبه شبم»، وفي هذه القصيدة يشير بعمق إلى تأثير عواصفه الداخلية وإلى راحته العميقة حين بلغ الإعجاز بعد أن شفت القصيدة غليله من مصبات سيول الغضب في صدره، وبوصوله إلى مرحلة التفرغ الهادر فيه، وهو يقول:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلقُ جرّاهُ ويختصمُ

لقد ارتاح حين قال في حضرة القصيدة والخصوم: «وأسمعت كلماتي من به صمم»، ولكن المتنبي نفسه يعترف بأن عملية الإنجاز الشعري تحتاج لمصارعة حالات عصية عن الاستجابة لإنسان يطاعن «خيلاً من فوارسها الدهر». أقر المتنبي بقدرة البديهة، وعصيان الانقياد للإبداع بسهولة، فقد تحرن القوافي ويصعب اصطياها في معركة الوجدان والكلمات، يقول المتنبي:

أَتُنَكِّرُ ما نطقتُ به بديهاً
وليس بمنكرٍ سبقُ الجوادِ
أراكضُ مُعَوِّصاتِ الشعرِ قسراً
فأقتلها، وغيري في الطرادِ

والشعر رغم كونه إلهاماً داخلياً، إلا أنه يحتاجُ دُرْبَةً وثقافة، والثقافة هنا ليست عملاً عقلياً بحتاً، وإنما هي يقظة روح تعتبر الثقافة سائلاً ينهل من معينها، والثقافة في الإنجاز الأدبي لا تتير إلا إذا كان الوجدان كتابها، والشاعر الحقيقي هو مثقف بالفطرة، لأن الشعور هو أهم كتاب يرى فيه الإنسان حقيقة داخله، لأن داخله هو مصنع ثقافته وكتابها، حين نقرأ شعر قيس بن الملوح ندرك أنه مثقف، وثقافته تملئها عليه تجربته، وليس كتاب المدرسة، ولتأكيد ما نذهب إليه نقرأ لقيس بن الملوح:

فلم أشرف الأيفاع إلا صباباً
ولم أنشد الأشعار إلا تداوياً

في هذا الشعر عمق ثقافي دلالي ينبع من تجربة حب عميق. ولمع ثقافة الحب لا يبلغها كتاب، مهما كانت ثروته العقلية عالية وغنية، قيس هنا يتداوى بالشعر، والكلام حين ازدحام النفس بالأحاسيس يساعد على راحة النفس، حتى لكأنه دواء. وإلا لم يبث الشاعر نجاواه وأحاسيسه في الكلام، الكلام يخفف توتر الشحنات الداخلية ويريح النفس، وأحياناً يكون البكاء أعلى حالات الكلام إراحةً للنفس..

ولا بد من التأكيد على الدربة لحيازة الشعر البديع، ونقله من منطقة النظم إلى منطقة الشعر، والدربة في الشعر هي نمو العمل الشعري في ذات الشاعر الداخلية، وانتقاله إلى الكلام، يقول الحطيئة: «الشعر صعبٌ وطويلٌ سلْمُهُ/ إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه/». أن تعلم منطقة الشعر فيك عليك أن تكون ناقد نفسك أولاً.

والشاعر كالطبيعة نفسها يحتاج إلى تكثيف ذاته داخلياً قبل هطول مطر الشعر منها. لا بد من فترة بين إبداع وإبداع، تماماً كالطبيعة التي تترك زمناً بين إطلاق عواصفها غالباً،

ولا بد من اختيار الوقت للكتابة كما جاء في وصية أبي تمام للبحثري: «واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيءٍ أو حفظه في وقت السحر؛ وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم»

الالتزام وانعكاساته في الشعر العربي

عمر شبلي أنموذجاً

الدكتور علي سعيد أيوب⁽¹⁾

ماهية الالتزام:

يعدُّ الالتزام، مشاركة الشاعر الناس في همومهم الاجتماعية والسياسية ومواقفهم الوطنية، والوقوف بحزم قي مواجهة ما يتطلبه ذلك، إلى حدِّ إنكار الذات في سبيل ما التزم به الشاعر: «ويقوم الإلتزام في الدرجة الأولى على الموقف الذي يتَّخذه المفكّر أو الأديب أو الفنان فيها. وهذا الموقف يقتضي صراحة ووضوحاً وإخلاصاً وصدقاً واستعداداً من المفكّر لأن يحافظ على التزامه دائماً ويتحمّل كامل التبعة التي يترتّب على هذا الالتزام».⁽²⁾

التعريف اللغوي لكلمة الالتزام:

«لزم الشيء يلزمه لزماً ولزوماً، ولازمه ملازمة ولزماً، والتزامه، وألزمه إياه فالتزمه، ورجل لُزِمَ يلزم الشيء فلا يفارقه. واللّزام: الملازمة لشيء الدوام عليه، والالتزام الاعتناق».⁽³⁾ و«لزم الشيء: ثبت ودام، لزم بيته: لم يفارقه، لزم بالشيء: تعلّق به لم يفارقه، التزمه: اعتنقه، التزم الشيء: لزمه من غير أن يفارقه، التزم العمل والمال: أوجبه على نفسه».⁽⁴⁾

والالتزام كما ورد في معجم مصطلحات الأدب: «هو اعتبار الكاتب فنّه وسيلة لخدمة فكرة معيّنة عن الانسان، لا لمجرد تسلية غرضها الوحيد المتعة والجمال».⁽⁵⁾ وقد جاء في الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَائِهِمْ يَبْتَغُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَائِهِمْ يَبْتَغُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَائِهِمْ يَبْتَغُونَ﴾⁽⁶⁾ أمّا سارتر فقد عرّف الأدب الملتزم فقال: «مما لا ريب فيه أنّ الأثر المكتوب واقعة اجتماعيّة، ولا بدّ أن يكون الكاتب مقتنعاً به عميق اقتناع، حتى قبل أن يتناول القلم. إنّ عليه بالفعل، أن يشعر بمدى مسؤوليته، وهو مسؤول عن كلّ شيء، عن الحروب الخاسرة

(1) أستاذ مساعد في الجامعة اللبنانية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

(2) أحمد أبو حاقّة. الالتزام في الشعر العربي. بيروت، دار العلم للملايين، لا ط، 1979م، ص 14.

(3) ابن منظور. لسان العرب. بيروت، دار صادر، ط5، 1956م، مج15، ص 541-542.

(4) الفيروز آبادي. القاموس المحيط، دار المأمون، ط4، 1983م، ج4، باب الميم، ص 175.

(5) مجدي وهبة. معجم مصطلحات الأدب. بيروت، مطبعة دار القلم، ط1، 1974م، ص 79.

(6) القرآن الكريم. سورة الفتح. الآية 26.

أو الراححة، عن التمرد والقمع. إنّه متواطئ مع المضطهدين إذا لم يكن الحليف الطبيعي للمضطهدين⁽¹⁾ «ويشير سارتر إلى الدور الكبير الذي يلعبه الأدب في مصير المجتمعات، فالأدب مسؤول عن الحرية، وعن الاستعمار، وعن التطور، وكذلك عن التخلف. فالشاعر ابن بيئته، والناطق باسمها، وكلمته سلاحه، فعليه تحديد الهدف جيدًا، وتصويبها عليه بدقة، ف «الكاتب بماهيته وسيط والتزامه هو التوسط»⁽²⁾

وهنا يبرز هدف الالتزام في جِدّة الكشف عن الواقع، ومحاولة تغييره، بما يتطابق مع الخير والحقّ والعدل عن طريق الكلمة التي تسري بين الناس «فتفعل فيهم على نحو ما تفعل الخميرة في العجين»⁽³⁾ على ألا يقف الالتزام عند القول والتنظير، فالفكر الملتزم في أساس حركة العالم الذي يدور حوله على قاعدة المشاركة العملية لا النظرية إذ: ليس الالتزام مجرد تأييد نظري للفكرة، وإنما هو سعي لتحقيقها، فليست الغاية أن نطلق الكلمات بغاية إطلاقها .

ويرى رثيف خوري أنّ الكاتب مطالب بمسؤوليّة مجرد أن يكتب وينشر لمجتمعه، فهو يجب أن يعبر عن آلامها وآمالها ونضالها وليس «كفعل القلم اجتماعي وتاريخي بكل ما تتطوي عليه كلمة اجتماعي من شؤون الأمّة، والشعب، والقوم، والوطن، والانسانية ... وعلى القلم المسؤول أن ينفي عنه أول شيء اعتبار عامل الكسب. فذلك هو الشرط المبدئي لصحة الرأي ونزاهته»⁽⁴⁾

وظروفنا الاجتماعية الحالية، الحافلة بالقلق، والمليئة بالمشكلات، تدعو وبشدة إلى الأدب الملتزم. وحتى يكون الأدب صادقًا، لا بدّ وأن يتكلم عن الواقع الذي يعيشه الأديب، والظروف التي تحيط به، وتؤثر على نفسيته وعلى يراعه، فتخرج حينئذ الكلمات نابضة بالصدق، وتأخذ طريقها مباشرة إلى فكر القارئ ووجدانه.

أمّا معنى الالتزام فعريق في الأدب، قديم مثل كلّ أدب أصيل، وكلّ تفكير صميم، ذلك أنّ الالتزام في الأدب لا يعدو في معناه الصحيح أن يكون الأدب ملتزمًا الجوهرية من الشؤون، منصرفًا عن الزخرف اللفظي وعن الزينة الصورية التي هي لغو ووهم وخداع، والالتزام هو أن يكون الأدب مرآة جماع قصّة الانسان وخلصا مغامراته وتجربته للكيان، وزبدة ما يستنبطه من عمق أعماقه وأطف أحشائه من أجوبة عن حيرته

(1) جان بول سارتر. الأدب الملتزم. ترجمة جورج طرابيشي. بيروت، منشورات دار الآداب، ط2، 1967م، ص45-44.

(2) جان بول سارتر. الأدب الملتزم. ص 46.

(3) أحمد أبو حاقّة. الالتزام في الشعر العربي. ص14.

(4) رثيف خوري. الأدب المسؤول. بيروت، دار الآداب، ط1، 1968م، ص49-48.

وتساؤلاته، وهو أن يكون الأدب «رسالة يستوحىها من الجانب الإلهي من فكره وروحه، ومن هذا الوجدان أو الحدس الإلهي، الذي هو الفكر وما فوق الفكر، والعقل وما فوق العقل، والخيال مع العلم والمعرفة، مع الانطلاق مجرباً في كليته وشموليته»⁽¹⁾ فالأدب الملتزم هو سابق على محاولات المحدثين، وقد وجدنا قديماً الأدب يتجسد في مشاركة الأديب الناس، همومهم الاجتماعية والسياسية، ومواقفهم الوطنية، والوقوف بحزم، لمواجهة ما يتطلبه ذلك، إلى حدّ إنكار النفس في سبيل ما يلتزم به الأديب شاعراً كان أم ناثراً. واطلعنا على أدبنا القديم وشعرائه، يعرفنا أنهم كانوا في العهود والأعصر العربية، في الجاهلية والإسلام كافة، كانوا أصوات جماعاتهم. كذلك قبل كلّ واحد منهم أن يعاني من أجل جماعته التي ينطق باسمها، إلى حدّ أنك إذا سمعت صوت أحدهم وهو يرتفع باسم جماعته أو قومه، لا يمكنك إلا أن تحسّ هذا الالتزام ينساب عبر الكلمات، يصوّر هذا الإيمان وتلك العقيدة من دون أن يساوره أدنى شكّ أو حيرة أو تردّد في تحديده للمشكلات التي يواجهها، والتي تتعلّق بمصيره ومصير سواه من أبناء قومه في القبيلة أو الحزب أو الدين، يدفعه إيمان راسخ بضرورة حلّ إشكالية القضايا التي كان يواجهها في حينه.⁽²⁾

معالم الالتزام في الشعر العربي منذ بداياته:

لابدّ من تحديد معنى الالتزام في الفكر الإنساني قبل تحديده في الأدب، والشعر تحديداً، وقبل ولوجنا في تبيان آثاره في شعر عمر شبلي، لنحدد متى يكون الالتزام حاملاً للمعنى الأعلى، الالتزام المرتبط بقضايا الإنسان العليا، الحب، والحرية، والحلم، والدفاع عن حق تقرير المصير الذي تتطلع إليه الأمم والأفراد. بهذا المعنى الذي يحوّل الكلمة موقفاً نقول: إن الالتزام هو موجود وشامل كلّ قضايا الإنتاج الإنساني الفكري والأدبي، فنحن حين نكتب ما في داخلنا لا نكتب للأحجار، ولا لما هو مجرد من قضية أو موقف، أو تطلّع لما هو أعلى، فالنتائج التزام من الأدنى إلى الأعلى في الإنسان وقضاياها وتطلعاته وهواجسه وآماله وآلامه. وهنا لا بدّ من التفريق بين الالتزام الأدنى، والالتزام الأعلى، كما قدّمنا. فالالتزام الأدنى هو أن يُلزم الإنسان نفسه بالدفاع عن موقف غير صحيح يتناقض مع كل المبادئ الإنسانية العليا، كأنّ يدافع شاعر أو مفكّر عن قصف بيوت فقراء في حروب طاحنة، دون أن يكون لأصحاب هذه

(1) محمود تيمور. مجلّة القصة. القاهرة، السنة الخامسة، العدد الخامس، 1965م.

(2) يونس فقيه. معالم الالتزام القومي في شعر نزار قبّاني. لبنان، دار بركات للطباعة والنشر، ط1، 1998م، ص21.

البيوت يد في هذه الحروب، أو كأن يدافع شاعر بريطاني عن عنصرية نظام بلاده الذي كان مفروضاً بالقوة في الجنوب الإفريقي، وعن حق هذا النظام العنصري في سجن إنسان لأكثر من عشرين عاماً، هو نلسون مانديلا، لأنه طالب بحرية شعبه، ورفض العنصرية، نعم هذا التزامٌ متدنٍ لأنه متناقض مع حرية الآخر، ومتناقض مع حقه في تقرير مصيره، ومن أخطأ أنواع الالتزام المتدني هو دفاع الشاعر الصهيوني العنصري عن حق صهيونيته في اقتلاع شعب من أرضه، ومحاولة إلغاء جغرافية وجوده المكاني والزمني، بمعنى أن يكون الإنسان الفلسطيني غير موجود، وغير صاحب حق في أن يكون موجوداً. إن كل التزام متناقض مع حرية الفرد والجماعة هو تدنٍ لتناقضه مع حقائق الكون التي خلق الإنسان مفطوراً عليها، فالحرية فطرة وجدت في الإنسان منذ وجوده، وهي لا تُؤخذ ولا تُعطى، وإنما تولد مع الإنسان. وقد صدق عمر بن الخطاب حين اقتصَّ للقبطي في مصر من فاتح مصر عمرو بن العاص، وقال له مؤنباً: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

وقد يكون الالتزام مقبولاً حيناً، ومرفوضاً حيناً، كانتصار الشاعر لقبيلته في ظروف الحياة الصحراوية القاسية. لقد كانت طبيعة الصحراء أمراً لسلك ساكنيها وأخلاقيتهم وحمية التناحر على منابع الماء ومنابت الكلاً، يقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى مبيناً حكمة أن تبقى حياً في الصحراء:

ومن لم يذُ عن حوضه بسلاحه يُهدم، ومن لا يظلم الناس يُظلم⁽¹⁾

وحماية حوض الماء تستدعي حضور قوة القبيلة كلها، وبهذا تصبح حياة الفرد جزءاً من حياة القبيلة، ويغدو التزام الفرد بأخلاقية قبيلته سبباً لاستمرار حياته، وهذا التزام فرضته الحياة نفسها، على الفرد والقبيلة في آن، كان على الفرد أن يستجيب لنداء القبيلة ظالمة ومظلومة. إنها إرادة الحياة في الظروف القاسية التي تنسج فيها الطبيعة الصحراوية أخلاقيات ساكنيها، يقول الشاعر قريظ بن أنيف حاجياً قومه، لأنهم تخلوا عن نصرته:

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبخِ إليّ بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا⁽²⁾

أما بنو مازن فإنهم ينصرون أخاهم حين يندبهم:

(1) زهير بن أبي سلمى. الديوان، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1، 1415/1995، ص116.

(2) قريظ بن أنيف التميمي. من كتاب الحماسة لأبي تمام. مصر، مطبعة التوفيق، 1322/2001، ص3.

لايسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا (1)
 لم تسمح الصحراء القاسية لأبنائها أن يخرجوا من قساوتها، بل جعلت قساوتها
 التزاماً أخلاقياً لأبنائها، فقد غدا القتل مفخرة لارتباطه في النهاية بالدفاع عن الحياة
 العامة التي تُضمّر الحياة المفردة، أما الموت العادي فقد غدا سبباً، والفخر كل الفخر
 أن تموت في المعركة قتلاً، يقول السمومل بن عادياء مفتخراً بمن يموت قتلاً من
 قبيلته:

ونحن أناس لا نرى القتل سبباً إذا ما رأته عامز وسلو
 تسيل على حدّ الظبابة نفوسنا وليست على غير الظبابة تسيل
 وما مات منا سيدٌ حقتْ أنفه ولا طُلّ منا حيث كان قتيل (2)

لقد كانت الصحراء قاسية بكل ما تُنتجه، فتطابت قساوتها قساوة سلوك ساكنيها
 لاستمرار الحياة فيها. هنا يكون التزام الفرد بسلوك القبيلة مقبولاً لارتباطه باستمرار
 حياة الفرد نفسه. ظل الغزو التزاماً مقبولاً رغم كل آثام هذا الالتزام الذي جعل الغزو
 سلوكاً أخلاقياً مقبولاً، وظلت كلمة الغزو تحمل معنى أخلاقياً وقاتلياً في الشعر
 الإسلامي نفسه. يقول حسان بن ثابت الأنصاري:

وكنا متى يغزى النبي قبيلةً نصل حافتيه بالقنا والقنابل (3)

ولتأكيد معنى قبول كلمة الغزو فقد ذُكرت في القرآن الكريم، مع ملاحظة أن القرآن
 حمل الكلمة معنى عقيدياً مضافاً إلى معناها السابق المتعارف عليه. يقول سبحانه
 وتعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في
 الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعل الله ذلك حسرةً في
 قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير» (4).

وهذا يعني أن ظروف الحياة وظروف التطور الإنساني وظروف ما يستجد على
 أرض الواقع تلغي وتثبت حسب حاجة التكوين الحياتي المتطور في مسيرة التاريخ
 الإنساني، وحتمياته التي تفرض ذاتها، يقول ول ديورانت في «قصة الحضارة»: «كل

(1) قريط بن أنيف التميمي. من كتاب الحماسة لأبي تمام. ص4.

(2) السمومل بن عادياء. من كتاب الحماسة لأبي تمام. ص25-24.

(3) حسان بن ثابت. الديوان. بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1414/1994، ص187.

(4) القرآن الكريم. سورة آل عمران. الآية 156. ص70.

رديلة كانت يوماً ما فضيلة ضرورية في تنازع البقاء، ولم نسمّها رديلة إلاّ لأنها تلكأت في وجودها بعد زوال الظروف التي كانت تستلزم وجودها»⁽¹⁾ وهذا يعني أنّ «الأخلاق هي مجموعة أهواء المجتمع» كما يقول أناطول فرانس.

لقد كان دريد بن الصّمّة من هوازن، وهو من المعمرين في الجاهلية وعاش زمنًا بعد ظهور الرسالة الإسلامية، وكان من حكماء الجاهلية وفسانها وشعرائها الكبار، وفي معركة أدرك أنّ قومه سينهزمون إذا لم يأخذوا بتوجيهاته، ولكنهم خالفوه، وسلخوا مسلّكاً أدى إلى هزيمتهم، ورغم كل هذا اضطرّ أن يسير كما شاؤوا، وكانت الهزيمة، وقال مبيّنًا التزامه بالموقف الخاطيء ليكون مع قومه وفيهم:

وهل أنا إلاّ من غُزِيّةٍ إن غوثٌ غويثٌ، وإن ترشُدْ غزِيّةٌ أرشِدْ⁽²⁾
جوهر الحياة هو الذي ألزمه ما لا يلزم، إنّها قساوة الصحراء التي لا يمكن مواجهتها بقوة منفردة، أو برأي منفردٍ مهما كان صائبًا.

لقد تمرّد شعراء وصعاليك على قسوة الانضباط القبلي وطاعته المتناقضة أحيانًا كثيرة مع الجوهر الإنساني الصافي من الحقد والعدوان، ولكنهم عانوا كثيرًا، وعاش بعضهم مع الوحوش في الفلاة، لقد كان حضور القبيلة أعلى من قدرتهم على التحمّل، فراح يحاول تأمين عيشه منفردًا فهلك، كما قالت أم الصعلوك السليك بن السلكة في رثاء ابنها القتيل:

طاف يبغي نجوةً من هلاكٍ فهلك⁽³⁾
الشنفري تمرّد على أخلاقية القبيلة القاسية، فنفى نفسه، وجعل الوحوش أهلاً له، وتبرأ من ظلم القبيلة ليمارس حرية لا تقبل القبيلة إناءً ومقرًا لها، ومرجعًا لسلوكها، يقول الشنفري معبرًا عن التزامه المتمرّد الخارج على ضوابط القبيلة، وهو يخاطب قومه متبرّئًا منهم:

ولي دونكم أهلون سيّد عمّلس وأرقط زهلون وعرفاء جيال

- (1) ول ديورانت. قصة الحضارة. بيروت، دار الجيل، لاط، لات، مج1، ص 48.
(2) دريد بن الصّمّة. من كتاب الحماسة لأبي تمام. ص 242.
(3) يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي. شرح ديوان الحماسة. بيروت، دار القلم، لاط، لات، ص 379.

هُمُ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدِعَ السِّرِّ ذَائِعٌ لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَلُ (1)
أَمَّا تَمَرْدُ طَرْفَةِ بِنِ الْعَبْدِ فَقَدْ جَعَلَهُ عَرْضَةً لظَلَمِ ذَوِي قَرِيْبَاهِ، الَّذِي كَانَ أَشَدَّ وَقَعًا
عَلَيْهِ، وَأَشَدَّ مُضَاضَةً «عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقَعِ الْحَسَامِ الْمَهْنَدِ»، وَجَعَلَهُ مَعْرُوضًا عَنِ
عَشِيرَتِهِ، يَقُولُ طَرْفَةَ:

إِلَى أَنْ تَحَامَتَنِي الْعَشِيرَةُ كُلَّهَا وَأَفْرَدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمَعْبُدِ (2)
الْخُرُوجِ عَلَى ضَوَابِطِ الْقَبِيلَةِ وَأَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا، كَانَ يَحْمِلُ بَعْدًا أَخْلَاقِيًّا مُتَجَاوِزًا زَمْنَ
الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَدْ كَانَتْ النَّزْعَةُ الْفَرْدِيَّةُ عَالِيَةً الْحُضُورِ فِي شَعْرِ الصَّعَالِيكِ، وَكَانَ شَعْرُهُمْ
يَحْمِلُ بَرُوقَ الشَّعْرِ الْمَلْتَرَمِ الْحَقِيقِيِّ، وَلَكِنَّ هَذَا التَّمَرْدَ كَانَ لَهُ ثَمَنٌ عَالِيٌ الْكَلْفَةِ، وَلَيْسَ
هَنَّاكَ تَمَرْدٌ بَلَا ضَرْبِيَّةِ ثَقِيلَةِ الْوَقْعِ عَلَى الذَّاتِ الْمَتَمَرِّدَةِ، فَلَنَسْتَمِعْ إِلَى الشَّنْفَرِيِّ، وَهُوَ
يَقُولُ:

أَدِيمُ مُطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أُمَيْتِهِ وَأَضْرَبَ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فَأَذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كِي لَا يَرَى لَهُ عَلِيٌّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مَتَطَوَّلُ (3)
إِنَّهُ يَمَاطِلُ الْجُوعَ لِيَقْنَعَهُ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ، وَيَنْتَصِرُ عَلَيْهِ بِنَسْيَانِهِ، وَحِينَ يَعْضُّهُ الْجُوعُ
بِقَسْوَةٍ كَانَ يَسْتَفُّ التُّرَابَ، وَيَأْبَى أَنْ يَنَالَ طَعَامَهُ مِنْ صَاحِبِ مَعْرُوفٍ. إِنَّ أَكْلَهُ التُّرَابَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَطَاوَلَ عَلَيْهِ امْرُؤٌ، إِنَّهَا النَّفْسِيَّةُ الَّتِي يَصْبِحُ تَمَرْدُهَا نَقْطَةً انْتِطَاقًا
لِلنَّفُوسِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَخْلُقُ مَدَى لِأَجْنَحَةٍ رَفَضَهَا مَهْمَا كَانَتْ التَّكْلِفَةُ عَالِيَةً.
كَانَتْ الْحَرِيَّةُ وَقُودَ هَذَا التَّمَرْدِ، وَكَانَ الْوَصُولُ إِلَيْهَا يَمُرُّ بِمَرَاكِلِ صَعْبَةٍ وَذَاتِ أَثْمَانٍ
عَالِيَةٍ، لَقَدْ وَصَلَ الصَّعَالِيكِ إِلَى حَرِيَّتِهِمْ فِي قَبَائِلٍ تَشْبَهُ السُّدُودَ أَمَامَ عَوَاصِفِ الْأَرْوَاحِ
الْمَتَمَرِّدَةِ، وَكَانَ الْحَصُولُ عَلَى تَاجِ الْحَرِيَّةِ يُصْنَعُ فِي مَعَامِلِ الذَّاتِ الَّتِي تَأْتِي مَا لَا
يَتَلَاءَمُ مَعَ طَمُوحِهَا وَتَطْلُعَاتِهَا الَّتِي تَشْتَبِكُ بَعَادَاتِهَا بِأَلِيَّةِ تَحَاوُلِ كِبْحِ جَمَاحِ الرُّوحِ
الْمَلَأَى بِبَرُوقِ الْحَرِيَّةِ. لَقَدْ كَانَ عَنْتَرَةُ بِنِ شَدَادِ عَبْدًا فِي قَوْمِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ حَرًّا فِي
رُوحِهِ وَعَقْلِهِ وَسُلُوكِهِ، وَكَانَتْ حَرِيَّتُهُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ تَغْلِي فِي وَجْدَانِهِ، وَقَدْ اسْتِطَاعَ نَيْلُهَا
بِبَطُولَتِهِ، وَكَانَ يَشْعُرُ بِوُجُودِ تَاجِ الْحَرِيَّةِ عَلَى رَأْسِهِ حِينَ يَسْتَنْجِدُ بِهِ الْأَبْطَالُ:

(1) رضي الدين محمد بن الحسن الاسترأبادي. شرح كافية ابن الحاجب. قَدَمَ لَهُ الدُّكْتُورُ إِمْبِلُ بَدِيْعُ يَعْقُوبُ، بِيْرُوتَ، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، لَاطَ، 1390/1971، ص 451.

(2) طرفة بن العبد. الديوان. الهند، مطبعة برطرنند، لاط، 1319/1900، ص 27.

(3) الشنفرى. الديوان. بيروت، دار الكتاب العربي، ط 2، 1417/1996، ص 62.

ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقمها قيلُ الفوارس: ويكُ عنترُ أقدم (1)
 كان هذا النوع من الالتزام يسكن في النفوس الكبيرة، وعلى مرّ العصور كلّها،
 وبهذا المعنى يكون الالتزام موقفاً داخلياً في الذات يترجم عنه الكلام. وهو أرقى أنواع
 الالتزام، لأنه نابع من فيوض الحرّية في الذات، واقتلاعها كلّ السدود التي تحاول
 كبح اندفاعها.

لقد عرف الشعر الجاهلي ثلاثة أنواع من الالتزام، ونستطيع أن نبرزها عبر النتائج
 الشعري الجاهلي، وهي:

أ- التزام الفرد بالقبيلة وأخلاقها وسلوكها ظالمة أو مظلومة استجابة لطبيعة الحياة
 القاسية في ظروف اقتصادية واجتماعية، وقد تكلمنا على هذا الالتزام.
 ب - الالتزام المتقدم الذي مارسه الصعاليك وآخرون استجابة للحرّية التي جعلتهم
 ترجمة لإيقاعاتها الداخلية.

ج - التزام العربي في جاهليته بالقيم العليا، والتي كانت أعلى من قدرته على تحمل
 تكاليفها، كالكرم رغم الجوع، وإغاثة الملهوف، ونصرة الضعيف والوفاء بالعهود.
 وسنضرب بعض الأمثلة على ذلك، ومن أبرز هذه الأمثلة قصيدة الحطيئة:
 «وطاوي ثلاثٌ عاصب البطن مرملٍ». هذه القصيدة التي تمثّل قصة بدوي ساكن
 مع زوجته وأطفاله: «ببيداء لم يعرف بها ساكن رسماً»، وأبنائه:

حُفَاةٌ عُرَاةٌ ما اغتذوا خبز مَلَّةٍ ولا عرفوا للزَّيرِ مذ خُلِقوا طعماً (2)
 هذا البدوي جاءه ضيف في ليلة صعبة، واحتار كيف يؤمّن الطعام لضيفه، لأنّه
 سيصبح سبّة بين العرب إن لم يطعم ضيفه. وقتها استيقظت القيم العربية في ابنه:

وقال ابنُهُ لما رآه بحيرةٍ أيا أبتي اذبحني ويبيّر له طُعماً
 ولا تعتذُرْ بالعُدْمِ علّ الذي طرا يظنُّ لنا مالاً فيوسعنا دَمًا
 فرؤى قليلاً ثم أحجم برهَةً وإن هو لم يذبح فتاهُ فقد همّا (3)
 ومثل هذا الموقف كان موقف السمومل، الذي قال لأسر ابنه: «أقتل أسيرك إنني

(1) عنتره. الديوان. بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1912/1992، ص.184.

(2) الحطيئة. الديوان. بيروت، دار الكتب العلمية. ط1، 1413/1993، ص.178.

(3) الحطيئة. الديوان. ص.178.

مانعٌ جاري»، وقصته معروفة في «الأبلق الفرد».

هذه المواقف العجيبة بدلالاتها كانت تحدّيًا لقساوة الصحراء، فالوضع الصعب يخلق ردات فعل صعبة، وكل هذا كان استجابة لقساوة الصحراء، وتحديًا لها في السلب والإيجاب. إنّ الذي يعيش على الأقصى يتصرّف على الأقصى أيضًا، والأقصى له حضور في الذات عالٍ دائمًا رفضًا وقبولًا. هذه المواقف الداعية إلى الغزو والقتل من أجل العيش هي نفسها المواقف التي تشكّل النقيض باندفاعها الأخلاقي للكرم والإيثار والجدود بالابن من أجل الوفاء بالعهد ودفع العار في صحراء، وقودها الجوع والقتال والكرم والوفاء والتلاؤم بين النقيضين.

وبمجيء الإسلام وانتشار العقيدة الدينية، وقيام الدولة السياسية بدأ الشعر ينحو منحى دينيًا وسياسيًا، وظل محافظًا على طبيعة تكوين النفس العربية في جاهليتها. لقد دخل العرب في الدين الجديد، وحاول الإسلام تسفيه الشعر، وشبهه بالقبح في جوف الإنسان ثم اضطر لقبوله، لأنّ الشعر كان لصيقًا بالنفسية العربية إلى مرحلة، لا تعطي أمرًا لتجنّب الشعر وحذفه من أرواح العرب وأخلاقهم وأحداث حياتهم. مما اضطرّ الرسول العربي إلى اعتماد حسان بن ثابت الأنصاري للذود عن الرسالة الجديدة، وبهذا انتقل حسان بن ثابت إلى شاعر سياسي أيديولوجي مهمته الدفاع عن الدين الجديد، ورغم تركيز حسان على الدفاع عن قيم الدين الجديد إلاّ أنّه هجا قريشًا بأنسابها، والأغرب أنّ الرسول طلب من أبي بكر الصديق أن يدلّه على مثالب قريش وهناتها ليهجوها، وهذا يعني أنّ الرسول فهم دور المفهوم القبلي الذي كان دينًا في جاهلية العرب، ولم يستطع الإسلام نسخه. لم يستطع الإسلام رغم رسالته الروحية والأخلاقية أن يلغي القبيلة وخصائصها من النفسية العربية، وكان هذا المفهوم حاضرًا بقوة بين الفئات الإسلامية التي تناحرت سياسيًا.

وأدرك الأمويون ذلك منذ بداية استلامهم الخلافة، فغدّوا هذه النزعة بقوة بين القيسية واليمينية، وصارت العصبية القبلية أقوى حضورًا في الصراع السياسي، فلنستمع إلى الطرماح بن حكيم الطائي، وهو يبيّن فضل قبيلته في تثبيت الخلافة الأموية:

فبِعَزْمِنا نُصِرَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ
وبنا تثبّت في دمشق المنبرُ (1)

وكان هذا الإدراك العميق لقبلية الفكر العربي الدور الفاعل في قوة الأمويين الذين

(1) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الطبري. الرياض، بيت الأفكار الدولية، لاط، 310/224، الجزء 5، ص 284.

لم يتتقروا للإسلام، ولكنهم أدركوا أنّ الولاء القبلي كان شديد الحضور، ومؤثراً في فهم نظرية وعي الواقع التي تضع الدين جانباً عندما يتناقض مع مصالح الطبقات العليا الحاكمة والمستفيدة، ولذا غدّى بنو أمية النزعة القبلية، واستفادوا منها . ولكنهم لم يكونوا هم خالقيها. فالإسلام نفسه كان مزاحماً من الفكر القبلي. والحروب التي حدثت بين المسلمين في صدر الإسلام تثبت ذلك.

ومع ذلك فقد ظلّ بعض الشعراء ينتمون لرسالة الإسلام قولاً وسلوكاً. كان معاوية بن أبي سفيان يأمر حاجبه، واسمه سعد، أن ينادي الناس بقبائلهم للدخول عليه، فنادى سعد: من الباب من الخزرج فليدخل. فلم يدخل أحد، فنادى ثانية: من الباب من الأوس فليدخل، فلم يدخل أحد. فقال له معاوية: نادِ من الباب من الأنصار فليدخل، فدخل الأوس والخزرج معاً، وقال شاعرهم النعمان بن بشير أمام معاوية:

يا سعدُ لا تُعِدِ النداءَ فما لنا
نسبُ تَخَيَّرَهُ الإله لقومنا
نسبٌ نجيبٌ به سوى الأنصارِ
أثقلُ به نسباً على الكفارِ
إنّ الذين ثوّوا بيدٍ منكم
يومَ القليب هم وقودُ النار⁽¹⁾

كان هذا هجاء قاسياً لمعاوية وللأمويين، ولكنّ معاوية بحلمه الرائع لم يغضب، وقال: ما كان أغنانا عن هذا.

ونتيجة للصراع على السلطة كان لكل فئة شعراء يلتزمون مواقفها، ويدافعون عن أفكارها وسلوكها، وكان الالتزام أحياناً كثيرة يقوم على الارتزاق، وأحياناً كان استجابة لقناعة يدافع عنها الشاعر بصدق وإيمان، فقد كان للخوارج شعراء يدافعون عن مواقفهم وعقيدتهم بصدق وإيمان، ويلتزمون بما كان الخوارج يمارسونه، ومن شعراء الخوارج الطرماح بن حكيم الطائي، وكان يقول في وصف الخوارج:

إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى
وصاروا إلى موعود ما في المصاحف⁽²⁾
وكان الشاعر القرشي عبيد الله بن قيس الرقيات يدافع عن حركة مصعب بن الزبير ضد الأمويين، ويقول في مصعب بن الزبير:
إنما مصعبٌ شهابٌ من الله
تجلّت عن وجهه الظلماء⁽³⁾

(1) أبي الفرج الأصفهاني. الأغاني. بيروت، دار الكتب العلمية، لاط، لات، مج14، ص3.

(2) الطرماح. الديوان. بيروت، دار الشرق العربي، ط2، 1414/1994، ص60.

(3) عبيدالله بن قيس الرقيات. الديوان. بيروت، دار صادر، لاط، لات، ص91.

ويهجو بني أمية قائلاً:

أنا عنكم بني أمية مُزورٌ
إنّ قتلى بالطفٍ قد أوجعتني
وأنتم في نفسي الأعداء
كان منكم لئن قُلتنم شفاء (1)
وكان الكميت بن زيد يدافع عن حق الهاشميين بالخلافة:

يقولون لم يورث ولولا تراثه
فإن هي لم تصلح لقومٍ سواهم
لقد شركت فيه بكيلاً وأرحبُ
فإن ذوي القربى أحق وأقرب (2)
وكان الفرزدق ينتصر لأهل البيت ضد الأمويين:

هذا ابنُ فاطمة إن كنت تجهله
وجدته أنبياءُ الله قد حُتموا (3)
وظل شعراء في العصر العباسي يلتزمون حق أهل البيت في الخلافة. وظلّ الالتزام مرافقاً مسيرة الشعر رغم أن شعراء كثيرين كان التزامهم بالهبات والتقرّب إلى الخلفاء وذوي السلطة.

وقد ربط المتنبي بين الالتزام والأعمال النبيلة التي ترفع الإنسان وتخلّده بما ينجز من فضائل، وبصرف النظر عن سلوك المتنبي الشخصي في حياته فقد أصاب حين قال في سيف الدولة الحمداني مبيّناً معنى الالتزام الحقيقي في القول والسلوك:

أحبك يا شمسَ الزمانِ وبدوهُ
وذاك لأن الفضلَ عندك كاملٌ
وإن لأمني فيك السُهيّ والفرأدُ
وليس لأنّ العيشَ عندك باردٌ (4)
إنّه يمدحه لفضله، وليس لجوائزه السنوية. وليؤكّد هذا الاتجاه راح يلقي على سيف الدولة الصفات العليا التي يؤمن بها مجتمعه، فسيف الدولة ليس ملكاً يهزم ملكاً، وإنّما هو فكرة تهزم فكرة:

ولست مليكاً هازماً لنظيره
ولكنك التوحيدُ للشركِ هازمٌ (5)

(1) عبيدالله بن قيس الرقيات. الديوان. ص96.

(2) عبدالقادر القط. في الشعر الإسلامي والأموي. بيروت، دار النهضة العربية، لاط، 1407 / 1987، ص275.

(3) الفرزدق. الديوان. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1407/1987، ص511.

(4) المتنبي. الديوان. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1418 / 1997، مج1، ص285.

(5) المتنبي. الديوان. مج3، ص413.

أما الالتزام بمفهومه التنظيري الحديث فقد عُرفَ باستنتاج ما هو موجود سابقًا في كلِّ الآداب الإنسانية، وكان جان بول سارتر أول من أعطاه مفهومه النظري المُستنتج من تجربة الإنسان مع الحياة وأحداثها، وأوضح أنَّ الالتزام هو تعبير عن انحياز الأديب لقضايا الإنسان المحقة. ورأى أنَّ الأدب ليس مهمته محصورة بقضايا الفرد الخاصة. وإنَّما هو انحياز لموقف عادل لفرد أو لجماعة، ولو غلا ثمن هذا الانحياز. والانحياز هو نتاجٌ وسلوكٌ في آن. والالتزام في حقيقته هو موقف فكري، وقد يتحوَّل إلى سلوك، وأعلى أنواع الالتزام هو انخراط الكلمة في ممارسة أثرها في قضايا الإنسان العليا في الحرية والحلم والثورة على الظلم، وحق الإنسان في أن يكون إنسانًا كامل الحضور في الانتماء والتصرّف والانحياز. ويضيف سارتر أنَّ التزام الإنسان بقضية يحتمُّ عليه تحمُّل المسؤولية، لأنَّه خيار حر، ومن هنا يصبح الالتزام خيارًا حرًا في موقف الإنسان وسلوكه، وحرية الاختيار تصبح في النهاية موقفًا أخلاقيًا. وهذا يعني أنَّ الالتزام يمارس الصراع ضد الظلم والفقر والاستعمار بكل أشكاله التاريخية.

ورغم ارتباط الالتزام نظريًا بالتعريف السارترى لكنَّ شيوع مصطلح الالتزام على يد سارتر يجب ألا ينسبنا إعادة مفهوم الالتزام إلى أدبيات المذهب الواقعي الاشتراكي الذي يقوم على ربط النتاج الأدبي بالبنية التحتية (الاقتصادية - الاجتماعية)، والتي اعتبرتها الماركسية التعبير الحقيقي عن مفهوم الأدب الملتزم الذي يجعل وظيفة الأدب محصورة في سبيل التغيير من أجل الحياة الكريمة والتي تنتج للإنسان مستقبلًا أفضل، وتحوَّل هذا المفهوم إلى ما سميَّ بالواقعية الاشتراكية.

وقد توسَّع هذا المفهوم ليخرج عن حصرية الواقعية الاشتراكية، ليلتزم بثورات الشعوب ضد الاستعمار، وحركات التحرر العالمية، والنضال ضد الأنظمة العنصرية كما حصل في جنوب إفريقيا، ولا يزال يتسع مداه في فلسطين بكفاح شعبي كبير ضد أبشع أنواع الاستعمار في التاريخ، وضد عنصريته الحاقدة المتناقضة مع كل المبادئ الأخلاقية والإنسانية.

ورغم حداثة مصطلح الالتزام فإنَّه لا ينفي أسبقية الالتزام بمعناه الوجودي الممارس على التعريف الاصطلاحي، فقد عرفت الآداب الإنسانية من فجر تكوينها الأدب الملتزم الذي تحوَّل إلى موقفٍ سلوكي، وإلاَّ ما معنى أن يُصلبَ نبي من أجل فكرة، وأن يقول محمد بن عبد الله لعمه أبي طالب: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في

يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك
دونه». هذا الكلام ناتج عن موقف، حتى ولو نظرت إليه من جانب إنساني خارج
المفهوم الديني. محمد هنا ملتزمٌ ومجاهرٌ بالتمزاه، وهذا انتصارٌ لإنسانيته، ولرسالته
العليا. الجوهر الإنساني يبقى نقيًا ومتناقضًا مع ظلمات الواقع الحياتي، ولذا يكون
الالتزام موقفًا إنسانيًا مطلوبًا لدحر ظلم، وانتصارًا لشعوب تناضل ضد الاستعمار،
وحمل السيف لقتل وحش الجوع، وبهذا يغدو أبو ذر الغفاري صاحب رسالة وموقف
حين قال: «عجبت لمن يموت من الجوع ولا يخرجُ شاهرًا سيفه فيقتل الناس». هذا
كلام ملتزم تحوّل إلى موقف في «الربذة»

ويجب التأكيد على أنّ الالتزام الحقيقي في الأدب يتناقض مع سطحية النتائج،
فالأدب الملتزم يجب أن يكون عميقًا بأفكاره وصياغته ومبتدعًا عن الشعارات السطحية
الجوفاء التي تؤذي الالتزام، حتى ولو نادى به. والأدب الملتزم عليه أن يكون منتميًا
لقضايا عصره ومنحازًا بعمق للدفاع عن العدالة والحرية والإنسان. وهذا يعني أن
تكون الممارسة مرتبطة بالأخلاق لأنها هي صورة المجتمع في كلّ توجهاته.

وقد رأى مفكرون أنّ خلق الجمال في الأدب، وتحديدًا في الشعر هو التزام أيضًا، لأنّ
الجمال يصعد بالإنسان إلى الأعلى ويُثَقِّيه من بقع القبح التي تحاول ردع الجمال في
النفوس، وهذا يؤدّي إلى إخصاب الفعل الجميل الصادر عن الجمال، وإذا كان النتائج
الجميل يرقى بالإنسان فإنّه التزام، لأنّه يرفع الإنسان إلى منطقة عليا في الرؤية
والرؤيا. وعلينا أن نعي أنّ الجمال له علاقة تكوينية بنقل الفعل الإنساني والإحساس
الإنساني إلى ما هو أرقى وأسمى. وكثيرًا ما انتصر الجمال على الفعل الذي يؤذيه.
والجمال في جوهره شكل وروح. وقد تكون لوحة فنية أو قصيدة تكشف عن نزعة الشر
في الإنسان وتصوير معالم هذا الشر، وهذا في غاياته القصوى تذكير بروعة الجمال
الذي يدعو للانتصار على القبح ومعالمه، وكل ما يفرزه. وحين يبرز القبح وتُصوّر
معالمه بروعة جمالية تكون مهمتها التنفير من القبح، ويكون الجمال حاضرًا حتى
في اللوحة أو القصيدة التي تصوّر الشر ومدى إيذائه الوجود. وبهذا تمتد آفاق الجمال
لإنقاذ الوجود نفسه من كل انهياراته المدمرة. وأرى أنّ الجمال هو المعلم الأول الذي
جعل الإنسان يدرك رمزيته العالية. كان «دوستوفسكي» يقول: «إنّ الجمال بيكيني»
، والبكاء هنا هو غسل النفس وجعلها منحازة لكل ما يعارض روح الجمال. فالإبداع
هو ناقل الجمال من المضمّر إلى المعلن، لأنّه يُنقّر من الشر ويساعد على دحره.

لأن معرفة القبيح بعمق هي مادة المعراج إلى نقيضه بضرورة خلق الجمال. ولذا ربط كثير من المبدعين الجمال بالعصمة لقدرته على الاختراق والنقاء وصون الشكل والمضمون من الانحراف. وربط آخرون بين الجمال وتناقضه مع العنف، ورأى نيتشه أنّ «الجمال لا يستسلم لأبناء العنف» لأنهما نقيضان لا يمشيان معاً على درب واحد. وفصل كثيرون مفهوم الالتزام عن جمالية الشعر ليترقى، وليصبح قضية إنسانية. وثبت خلال مسيرة الحياة أنّ جمالية النتائج عاشت في الوجدان الإنساني مثل أهم القضايا الإنسانية العادلة، وهذا يعني أنّ الجمال مذهب أخلاقي أيضاً.

الالتزام وكثافة التجربة في شعر عمر شبلي

عمر شبلي شاعر عربي كبير، سيقراً القادمون شعره غير مُفرّقين بين كلمته وسلوكه، لقد أنقذ الكلمة من العيش خارج الوجدان، وأمن بها رسالة وسلاحاً، وأعطاهما عمره، حتى أنك تستطيع بقراءته معايشة الحدث كما يراه إنساناً نظيفاً «الوجه واليد واللسان». سيُقبل الناس على قراءة هذا الشعر بنهمٍ روحي عميق، وبنهم ثقافي يجعل قارئيه تواقين إلى تقصي شاعرية هذا الشاعر المبدع الذي كان شعره دُفق روحه في الكلمة، وكان هو شعره في كل عواصفه وصخبه وألمه وأمله، إن لحن الطائر الغريد جزءاً من الطائر، وأنت ترى روحه حين تسمع تغريد الشجي. لم يبع عمر شبلي شعره يوماً في سوق الكساد، وفي حوانيت الواجبات المغطاة بالأقنعة المشبوهة، إنّ شعر عمر شبلي هو صدى ذاته المملوءة بالإنسان، ويخطئ من يحدد شعر عمر شبلي بالسياسة، فالسياسة قشرة في نتاجه، ولن تجد في صوته سوى أصداء إنسانيته التي لامست حتى أولئك الذين خاصمهم وخاصموه، إن العمق الإنساني في شعر عمر شبلي هو الذي يدفع بالسياسة دائماً إلى الخلف. ومن يقرأ شعره بتأنٍ يدرك ذلك، المهم في شعر عمر شبلي هو الذي يحدث في داخله، وليس ما يفد ويأتي من السياسة. لقد أعطى عمر شبلي الانتماء السياسي أبعداً أرقى وأعمق من محدودية الانتماء بمعناه الضيق. العروبة في شعر عمر شبلي إنسانية بعمق، لا عنصرية فيها ولا تمذهب، ولا انزياحٍ عدائيٍّ لمخالفه في الرأي والموقف والسلوك. ومن يقرأ قصيدته «إخوة يوسف» يدرك عمق الرمز الملتزم، ويدرك ضرورة وجوده أيضاً، فالرمز دليل حين تختلط الأشياء. إن خيانة إخوة يوسف أخاهم ورميه في الجب تنزع عنهم في رأيه صفة الكواكب الممنوحة لهم: إنني رأيت أحد عشر كوكباً. الرمز هنا ينفذنا من التصريح المبهوت والفارغ من الدلالة والأصالة التي تحملها الدلالة.

كان شعر عمر شبلي صداه في أزمنة الغربة والمنفى والوحدة، والعذاب. لقد عانى من ألم تعجز الكلمة عن نقله كما هو إلى الكلمة، فالكلمة في النهاية هي مرآة الشيء، وليست الشيء نفسه. كان عميقاً إلى مستوى إحساسه بضرورة مساعدة اللغة على الحضور الكلي في النتاج، ولعجز الكلمة الخالقة والمخلوقة في آن كان لا بدّ من إلباس الشعر أرويةً تساعده على نقل الدفق الروحي المتمرد على قاموسية الكلمة إلى خارج جسده الحزين في شعاب النفي والتشرد والعذاب أسيراً وحرّاً في آن. في شعر عمر شبلي ترى عذاباً عميقاً بعد خروجه من الأسر، حتى وكأنه كان يحمل سجنه معه إلى خارج زنزانته، ورغم كل هذا الحزن العميق ظلت أضواء روحه تسطع حتى وكأنه «شمس منيرة سوداء» كما يقول المتنبي. وفجأة أومضت في ذهني كلمة النّفري المتصوف «كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة». فعندما يحجب الظلام رؤية الدنيا وأشياءها عن المُغلّف به يلجأ هذا الإنسان المُغلّف بظلام الخارج إلى أضوائه الداخلية، تلك التي عنونَ بها عمر شبلي أحد دواوينه الشعرية «الضوء الأسود يسرقني»، حين قال بلسان أبيه الروحي العارف الرائي: /يا ولدي/ لا تبحث عن ضوءٍ لا يوجدُ فيك/ فالضوء عميقٌ كالإيمان/. هكذا إحساس يحتاج إلى أوانٍ غير الكلمات القاموسية لنقله، إنه يحتاج إلى الرمز الموحى بالكشف والرؤيا. كلما ادلهمّ الظلام بأعبائه على النفوس الكبيرة أضاءت، حتى وكأنها خالقةٌ كينونةٌ للضياء الذي يتحدى ظلام الخارج ببروق الروح الداخلية. كان لا بدّ من الرمز لنقل ما يقوله الشعر، لأن مهمة الشعر أبعد من وضوح الكلمات/ المرايا/، حتى ولو لم تكن المرايا داكنة. يقول الشاعر «ت س إليوت» في تبيان المعنى الإيحائي والدلالي للرمز: «إنّ الشعر وسيلة اتصال حتى قبل أن يُفهم». إذن لا بدّ من التدخل في وقار الكلمة والاستعانة بالرمز موحياً بانعكاسات الداخل. كان الرمز في شعر عمر شبلي لغةً في اللغة. كان لا بدّ من الإيحاء لنقل أحاسيس الروح المسجونة في الجسد/ الوعاء/. أحياناً يقودك قصور اللغة إلى بلوغ مرحلة البكاء كالأمهات. لا بدّ من العثور على وسائل أخرى لوصف ارتخاء الكلمات أمام زخم واندفاع المشاعر. إن لا بدّ من تورية الفكرة تورية غير تورية البلاغة، لا بدّ من الرمز الذي يجبر الكلمات على نقل البكاء. والكلمات التي تُضيع صوتها لاتستطيع أن تتكلم إلا إذا لامست تلك القلوب المسجونة، والتي تحوّل عروقتها النابضة إلى أوتارٍ نحاس.

الشاعر المبدع يدرك تماماً أنّ الشعر البديع يسبق اللغة الواضحة في ذات الشاعر

قبل تحوُّله إلى كلمات، أي أنه كان حاليًّا خارجاً عن اللغة، وهذا يعني أسبقية الرمز على الكلمة، ولأسبقيته يكون حالة شعورية خارج أواني اللغة، وتكون اللغة لاحقة، وما سبقها يرمز لتكوُّنها، فالرمز مرتبط بالتصور أولاً. ولكن لا بدّ من الانفعال لإيقاظه، وبهذا يكون الانفعال وقود الشعر ومقدمة للرمز المتكون في صورة لغوية. ولا قيمة لشعرٍ لا ينفجر من مسارب الانفعال. ولقوة الانفعال يلجأ الشاعر إلى اكتشاف واقعه الداخلي بطرائقه الخاصة، والرمز هو أبرز هذه الطرائق لأنه هو نوع من القناع. والقناع ليس دائماً مرذولاً، وليس هو في الشعر تغطية للحقيقة، لأنّ إدراك الحقيقة شعرياً غير إدراكها فلسفياً. وكثيراً ما تكون الأقنعة في الشعر هي الحقيقة نفسها، فقناع الخجل في الإنسان هو صدقٌ لرغبات مكبوتة وحبسية، وتتوضح هذه الرغبات عبر قناع الخجل. وقد يكون المجنون في مسرحية أبلغ مُعبّر عن الحقيقة من أقرانه على خشبة المسرح. إنّه يصبح أوضح، وهو يلبس قناع الجنون ويرمز به عن الفكرة الأبعد والموقف المطلوب.

«سيزيف» وحَمَلُه الصخرة إلى الجبل في شعر عمر شبلي هو قناع يكشف انتصار عمر شبلي للفقراء وتقديم روحه لهم، تماماً كما قدّم سيزيف نفسه ثمنًا لجلب النار إلى البشر من جبال الأولمب، يوم كانت النار ملكاً لآلهة الأولمب وهدمهم. لقد تعرض سيزيف لظلم «آلهة الأولمب» يوم سرق النار من جبال «الأولمب»، وقدمها للناس ليصطلوا بها وليطهوا عليها أطعمتهم. النار المسروقة من جبال الأولمب هي نفسها القصيدة التي يكتبها عمر شبلي انتصاراً لشعبه وأمتة ضد الظلم والطغيان. إن قصيدة «الملك القاتل» في شعر عمر شبلي تحكي بلسان النعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك المناذرة الذي مات أسيراً في إيران مأساةً عمر شبلي في أسره. إنّ قناع النعمان أضاف بعداً تاريخياً للرمز وجعله أدنى إلى قرّاء قصيدة «الملك القاتل» وأدنى إلى ملامسة وجدانهم.

يستعين الرمز الملتزم في شعر عمر شبلي كما في شعر مبدعين آخرين بالحدس والتاريخ والأسطورة والدين والمُجسّدات لنقل فكر منحاز لقضية، ولا قيمة لشعرٍ غير منحاز، بشرط أن يكون هذا الانحياز حاملاً قيماً علياً منتصرة للقضايا الكبرى، كالحرية ومقارعة الظلم والحب والحلم والخبز وبناء إنسانية الإنسان. ومثال هذا الانحياز قصيدة عمر شبلي «ما لم نقله شهرزاد للملك السعيد». إنها تحارب الطغاة وتنتصر للقضايا الخالدة، تنتصر لمقارعة الظلم وتنتصر للحب، وتظل في النهاية

رمزًا لمحاربة كل الطغاة والمستبدين والظالمين في العالم وعلى امتداد التاريخ. وتصبح الحاجة إلى الرمز أعلى كلما انفعَل الشاعر أكثر. وقتها لا يكون الرمز ترفًا، ولا أناقة في القصيدة، وإنما يغدو هو القصيدة.

ومن الرموز التاريخية الملتزمة في شعر عمر شبلي قصائده المعنونة بـ «خماسية حرب البسوس»، و«قصيدة «من الضفة الأخرى يبدأ صقر قريش»، واستعار رمزية أبي رغال تشخيصًا للخيانة التي تدمر الإنسان نفسه قبل كل شيء. واستعان برمزية الرسول العربي محمد بن عبد الله رمزًا للإنسان الذي استطاع برسالته العظيمة أن يبني حضارة إنسانية لا يدركها الهرم مهما انحدر أبنائها، لأن عظمة هذه الرسالة تتبع من صحتها وأصالتها. ورمز بشخصية السيد المسيح لانتصار الحب على الكراهية، ولانتصار الجرح على المسمار، ولانتصار الروح على قاتليها. ورمز بشخصية الإمام «الحسين بن علي شاهدًا وشهيدًا» لانتصار الدم على السيف، وانتصار المبادئ على السياسة، وانتصار الشهادة على القتل.

واستعان بالرمز الأدبي الملتزم في أكثر من موقع، فقد رمز بالمتنبي إلى فكر الأمة الرائع والمقاوم في شعر هذا الشاعر الذي «ملأ الدنيا وشغل الناس»، واعتبر شعره معجزة العرب، ولكنه أخذ عليه انحداراته السياسية في أكثر من موقع. ولكنه وقف بإكبار أمام نتاج شاعر أجبر التاريخ على أن يصنع له تمثالًا، والذي ترك «في الدنيا دويًا كأنما تداؤلُ سمع المرء أنملهُ العشرُ». ورمز بقصيدة «الراهب الأحمر» لتجربته في المعتقل بكلامه على الشاعر التركي «ناظم حكمت» الذي عانى من تجربة السجن لأكثر من عشر سنوات في تركية، ورمز في قصيدته «سيمفونية الحياة والموت في جسد مسلول» إلى تجربة الأديب الخالد «جبران خليل جبران» في ثورته الفكرية على جمود الشرق وعدم يقظته من موته.

وأبرز الرموز الأسطورية الملتزمة في شعر عمر شبلي رمزان هما «أوليس» بطل «الأوديسة»، و«جلجامش» الباحث عن الخلود في ملحمة هي من أعظم ما أنتجه الفكر الإنساني محاولة الحصول على «نبته العيش» لإلغاء الموت، والدخول في محفل الآلهة التي كتبت الموت لبني البشر والخلود لها. كانت عودة «أوليس» من حرب طروادة صورة عن عودة الشاعر عمر شبلي إلى وطنه بعد معاناة استمرت عشرين سنة، وهي المدة نفسها التي قضاها «أوليس» في العودة إلى «إيتاكا» ووطنه. رمز عمر شبلي في شعره بإمكانة قضى فيها سنين طويلاً، ذكر «برندك» و«رينا»

و«دماوند» وغيرها وهي أماكن موجودة في إيران قضى فيها أسيراً زمنًا طويلًا، وهي ترمز لعواصفه الداخلية، ولشوقه للعودة إلى وطنه. تلك الأماكن أصبحت في شعره أكثر من كونها معسكرات أسرى، لقد واجه فيها أقدارًا، هي أقسى أقدارٍ واجهها في حياته، وتركت أحداث هذه الأمكنة في داخله آثارًا لا تستطيع السنون محوها، لقد خرجت فيه يوم خرج منها عائدًا إلى وطنه. وتقاس الأمكنة في الذات الإنسانية ليس بالجغرافية المكانية. إنّ هذه الأمكنة لها جغرافية أخرى في النفس الإنسانية، لأن ما يحدث في الداخل الإنساني هو الذي يفرغ على المكان معناه، ويصنع منه جغرافية لا يراها الآخرون. إن جبل «دماوند» في إيران هو أعلى الجبال، ولكنه في شعر عمر شبلي الحالّ فيه يصبح مخلوقًا ذا قسوة وجبروت، ويكلمه عمر شبلي رائيًا إياه شخصًا قاسيًا، ويحاوره بكل ما تحمله جغرافية الداخل: يا دماوندُ ترَجَّلْ/ إنّ حزني شاق مثلك لا تصعدُهُ حتى الرياح/ سيدي من «جبل الشيخ» إلى قمّة «أشنو»/ وأنا أحصي بلادي في عيون القتالين/. المكان هنا رمز للمكان المتحول إلى كائن حيّ يخاطبه الشاعر بما تركه الجبل فيه. إنّ الرمز لا يمكن أن يُحصَرَ في قالب نقدية. إنّ النفس البشرية تصنع رموزها ممّا يعصف فيها ويستقر.

عمر شبلي شاعر ذو ثقافة عميقة جذورها أفرعت من تراث أمته في تجربتها الحضارية، وأخصبَتْها تجربة حادّة التأثير، وكان يعتقد أن الحرف حين يكون مشتعلًا وحادًا ومسجونًا في الصدر يحمل طبيعة السكّين. وعمر شبلي ذو حافظه غير عادية تذهلك بحضورها، وأعتقد أنه لا يقل حفظًا عن أولئك القدماء الذين نقلوا إلينا بحفظهم تراثنا الشعري. إنه يحفظ دواوين شعرية بكاملها، وأخاف أن تُتهم بالمبالغة، ولكنك لو جالست هذا الإنسان لشعرت أنك في مكتبة. وهو مُلِمٌ يتقافات إنسانية واسعة، وقد ترجم إلى العربية بعد خروجه من الأسر حافظ الشيرازي كله، وقد أصرّ على ترجمته شعرًا بالعربية، وهو إضافة ثرية للثقافة العربية.

وكان للثقافة المشتعلة بالتجربة والغائصة في التاريخ الإنساني دور كبير في تحوُّله التعبيري الذي أسعفه في تفجير الكلمة القاموسية لتأخذ معنى أبعد من حرفيتها المعجمية، لقد لجأ إلى الرمز بتأثير هذه الثقافة الخصبة، وبفعل التجربة المؤلمة التي أجبرته باللجوء إلى الرمز معتبرًا إياه لغة أخرى، ولغةً في اللغة. والرمز في حقيقته هو سَفَر في اللغة. وكان التراث العربي والتراث الإنساني مُسَعِّفِين له في اصطلياد الشوارد البعيدة التي أخصبت وعيه وروحه، وكان ذلك لا يستجاب له إلا بالرمز بمعناه

الأوسع الذي خلق في شعره جمالاً خاصاً به، يجعلك دائماً تتيقن أن تجربته المؤلمة في الحياة هي من أهم روافد شاعريته الفذة، يقول بودلير: «لا أعرفُ ضرباً من الجمال ليس فيه شقاء». يبدو أن الطبيعة لا تعطيك حتى تأخذ منك.

عمر شبلي شاعر مؤمن بالانتصار لقضايا أمته وتحررها من التخلف والتبعية والعمى الحضاري، وإيمانه هذا نابعٌ من إيمانه بالإنسانية التي لا عنصريات فيها ولا جاهليات، وهذه هي رسالة أمته. إنه مؤمن بقضايا أمته لأنها قضايا إنسانية قبل كل شيء، حقنا أن نكون أحراراً من الاستعمار الخارجي والداخلي، وأحراراً من الاستبداد والمستبدين، وحقنا أن نرى الشعب الفلسطيني في أرضه حرّاً مالِكاً أرضه ومصيره، وحرّاً في قراره في طرد العنصرية السوداء التي تلبس أفضة وهمية الضياء. حق أمتنا أن تتخلص من الظلم والظالمين، ومن الفساد والمفسدين. حقنا أن ننتمي للضوء وليس للظلام. قرأت في قصة الحضارة لـ «ول ديورانت» من خطبة ألقاها حكيم صيني اسمه «دوق جو» سنة ثمان مئة وخمس وأربعين قبل الميلاد بين يدي الملك لي والح ما يلي: «يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان الشعراء أحراراً في قرص الشعر، والناس أحراراً في تمثيل المسرحيات، والمؤرخون أحراراً في قول الحق، والوزراء أحراراً في إسداء النصح والفقراء أحراراً في التذمر من الضرائب، والطلبة أحراراً في تعلم العلم جهرةً، والعمال أحراراً في مدح مهاراتهم وفي السعي إلى العمل، والشعب حرّاً في أن يتحدث عن كل شيء، والشيخ أحراراً في تخطئة كل شيء.» ما أوجنا اليوم عرباً للعمل بما قيل قبل الميلاد بثمان مئة وخمس وأربعين سنة.

ويبقى السؤال: هل استجاب الرمز لشاعرية عمر شبلي وصعد بها، وهل عبّر عن القضايا التي قال شعره فيها؟. أنا أقول نعم، لقد كان الرمز في شعر عمر رائعاً، ورفعته إلى مصاف الشعراء الخالدين. وأتمنى أن نقرأ أجيالنا شعر عمر شبلي لتتعلم «العناد في زمنٍ مكسور» ولتعرف «أن الخلود متاعٌ سعره الجسد»، وأن يتوكأ الإنسان على جرحه ليصل كما فعل شاعرنا الكبير عمر شبلي.

حتى هذا حاملٌ شهادةٍ حقّ في إنسان مبدعٍ ملتزم، كما أرى وكما أعلم، وكما أحس، وهذه الشهادة بمقدار حقيقتها تظلُّ تُدين الزمن الذي أطفأ أمانيه إنساناً مطروداً من جنة محتها سنوات الغربة والتشرد. هي شهادة على عصره أيضاً لكثرة ما أصابته سهام عصره، وجعلته دريئةً ليحافظ على ما يحمله من إنسانية أعلى من السياسة،

وأعلى من الأحزاب. إنّه شاعر تتجلى إبداعيته باستمرارية حضور شعره في وجدان المتلقي، والاستمرارية في خلود الشعر تتولّد من المعاناة وكيفية التعامل معها. إنّ الشعر الخالد هو الذي يحوّل المعاناة إلى نتاج لا يلحقه التقادم، ولا يأتي عليه، لأنّه مرتبط بالأعمق في الإنسان وبوجعه تحديداً، ولذا يتميز باستمرار تأثيره على مدى حضور الإنسان، لأنّ الوجد له قدرة عالية في التأثير على الآخر المتلقي، وهذه طبيعة الإنسان منذ كان الإنسان فـ «الأسى يجلب الأسى». شاعرنا الحامل الوجد الإنساني، هو الشاعر عمر شبلي الذي أساءت إليه الحياة إنساناً، وأحسنّت إليه شاعرًا من الطراز الأول في تراثنا الشعري العربي. والذي خلّد معاناته هو أنّه يمتلك موهبة نادرة التكرار، وأنت حين تجلس إليه محاوراً تدرك أنّ لا فرق بينه وبين القصيدة الباسطة روحها على آفاق إنسانيته الرحبة، يملؤها الحنين لكلّ ما حرّمته الحياة منه، وفجأة يعتريك إحساسٌ عجيب، فتتساءل، كيف غطّت الحياة هذه الموهبة المضيئة بأحداثها القاسية، ولماذا عرفناه، ونحن لسنا على مقاعد الدراسة. إنّه أسئلة تجيب عليها تجربة حياته التي جعلته «يدخلُ من قتامٍ في قتام» كما يقول المتنبي. لقد ارتكب عمر شبلي جريمة يستحق عليها أقسى العقوبات، وجريمته هي أنّه أحب وطنه وأمته إلى درجة الحلول فيهما، وجعل سلوكه ترجمة لما يؤمن به، لم يكن عمر شبلي في يومٍ من الأيام من الذين آمنّت ألسنتهم وكفرت قلوبهم. أحب وطنه حتى أصبح وطنه وثنه وقبلته التي يدير إليها وجهه في بلاد الغربة والصقيع ولهيب المشاعر والأحاسيس، في بلاد أكلت عمره وحاصرت أمانيه أكثر من حصار الزنزانة التي لا تختلف عن القبر كثيراً. أحب عمر شبلي إنسانية أمته إلى حدّ الاستشهاد من أجل هذه الإنسانية التي حملت القيم العليا التي يؤمن بها الأحرار في كلّ العصور، وفي كلّ المواقع، لقد جعل فكره ومشاعره وأحلامه سلوكاً مُضنياً في حياته التي لم تترك له يوماً يرتاح فيه، سجن من أجل فلسطين، لأنّها كانت قضيته المركزية، ودافع عن العراق، وسُجن من أجل عروبه أجمل سنوات حياته متقلّباً بين ظلام الزنازين وبروق الأمل بانبعاث أمته. كان يسير، ولا يكلّ، وكان يؤمن في مسيرته العنيدة أنّ النضال من أجل انتصار القضايا العادلة لا إجازة فيه، يجب إكمال المسيرة مها قست الطرق وضائق مسالكها، وكان يؤمن بانتصار الأقدام المؤمنة على وعشاء المسيرة وإراءات الراحة. كان يُسمِعُ رجليه حين تطلب منه التوقف عن المسير: «تشكو الدروبُ وليس تشكو الأرجلُ». وكان عناده في الزمن المكسور موعداً لانتصار العناد على خذلان

الواقع وجفاف ينابيع المشوار الطويل، وكان يصرخ، وهو يسير على الطرق الطويلة التي لا نهاية لها، والتي لا يلمع فيها غير السراب:

يطغى السرابُ على من لا غمامَ له ويهزمُ الرملُ من في ساقِه خللُ
معًا نسيرُ وإن طالَت مسيرتُنَا يموت من ليس في صحرائه جَمَلٌ (1)
لا بدّ من جمل المحامل حين تكون في الصحراء، وتكون القافلة على مشارف المساء، وكانت كلمة جمل المحامل قد دخلت وجداننا من تاريخ أهلنا وكذبهم وعذابهم من أجلنا. كل ذلك كان في زمن صعبٍ، حيث كان هذا الزمن الصعب قاسيًا في أقداره وأحكامه. ولكن لا بدّ من اجتيازه على الرغم من مخاطر الطريق ووعثاء السفر، والسراب الذي لا يتحوّل ماء، يعود عمر شبلي ليستحضر جمل المحامل الذي يرمز به لنفسه وصبره على صعوبات الطريق:

نخبُ بين صلال الوادِ رامضةً فلا نجور، ولا نشكو، ولا نَجِلُ
حسب الجنازة أن يمشي القتيلُ بها وحسبُ منسَمِكِ الصحراءِ تُخْتَزَلُ
وحسبنا أننا نمشي لغايتنا وحسبنا أن نعاني أيّها الجملُ
وقد نجوعُ وقد نعري ولا نَصِلُ لكننا لن نُضِيعَ الدربَ يا جملُ
وقد تكونُ أمانينا مصائبنا وقد تضجُّ بصدرينا وتقتلُ
وليس يُسَمَحُ أن نعبي ولو أكلتُ أقدامنا ناطحاتُ الرملِ يا جملُ
معًا نسيرُ معًا نحيا معًا نَصِلُ معًا نحاولُ أن لا يُقْتَلَ الأملُ (2)

كان هذا الزمن يفرض على صاحب القضايا الكبرى أن يخلع صاحبه، وأن يؤدّن في الخابية، وإن أراد أن يؤدّن على السطح فعليه أن يزيل من أذانه وجع النداء، ويصلي الفجر وراء راية نظيفة، ولا يتنازل عن رفعها والذود عنها، مهما غلا الثمن. وهنا لا بدّ من التأكيد على أنّ الدفاع عن القيم العليا، والراية النظيفة مكلفٌ، ومؤلمٌ أحيانًا كثيرة، وبخاصة حين تلتبس الدروب والمسالك وانكشاف ما يناقض نظافة الراية، وتُبلّ المقصد، وقتها يكون الإيلام أعلى وأثقل على النفس، لأنّ قوّة تخرج منك، وحين تخرج منك هذا القوّة تتناكب تساؤلات مريّة، وتشعر بالانكسار الذي لم تستطع

(1) عمر شبلي. على أيّ جرح توكأت حتى وصلت. بيروت، دار الطليعة، ط1، 1427/2007، ص55.

(2) عمر شبلي. على أيّ جرح توكأت حتى وصلت. ص57-59.

صعوبات المرحلة إنجازَه، ولكن أن يحدث الانكسار في داخلك نتيجة خلل السياسة، وخلل المواقف، وقتها حقّ لشاعرنا أن يصرخ بألم يمزق كثيرًا من قماشة الرؤية النظيفة التي رفعها بيدٍ بُترت، ثم رفعها باليد الثانية، ثم اكتشف الخلل الذي لا يليق بنظافة الرؤية. الصراخ وقتها يقرب من محاولة الانتحار لشدة المعاناة، ولشدة وضوح الخلل الذي تخلقه السياسة خارج القيم وباسمها. عمر شبلي من الذين دفعوا أعمارهم لتكون الرؤية معبّرة عن المحتوى الذي رفعت من أجله، وراح يتأمل جمل المحامل الذي كانه، ليرى كيف صارت الصحراء تأكله، والسراب هو الماء الوحيد لجمل المحامل، ومن هذه الفجيرة صار يتفجّر فيه حزنٌ مرٌّ يوازي كبرياءه، ويجرحها أحيانًا كثيرة، وما أصعب الهزائم التي تكون في سبيل حماية أقنعة تخفي وراءها أقنعة أخرى، يقول عمر شبلي مخاطبًا جمل المحامل الذي هو هو:

ما في سنامك للصحراء تطعمه وأنت تأكلُ عشبَ الصبر يا جملُ
هل الذين وهبناهم مناكبنا يرون ما لا يراه الذئبُ والحملُ
وهل تأكدت أن غير السراب لنا وهل تأكدت أن الدرب تتصل
وهل تأكدت أن الشوك يطحنه ضرسٌ بحلقك لا سوسٌ ولا عِلُّ (1)

وتستوقفك كبرياء الشاعر التي تأبى أن تنهار، ولكنها تظهر حزنًا حادًا الوجع، وهو مضطر أن يحافظ على كبريائه، حتى ولو سقطت كبرياء الآخرين أمام صعوبات الدرب، وبين الكبرياء التي تشكّله كلاً، والحزن الذي تفجّره التجربة يسيل من أعماقه حزنٌ يهيمن عليه، وتحسّ وجع الدموع التي تأبى أن تخرج من المآقي، لأنه لا يريد أن يكشف نفسه أمام نفسه:

ليت الطريق التي تغتال حكمتنا تدري لماذا يصون الدمعة الرجلُ
يسلسل الرملُ أنهارَ السراب لنا ويكذبُ الرملُ لا ماءً ولا وشلُّ (2)

لقد سلبته الحياة كلّ هناة، ولكنها لم تستطع أن تسلبه صبره وتصميمه وحزنه النبيل الذي كان يرافق مسيرته، ولكن حزنه رغم عمقه كان يجلسه على أرائك الكبرياء، حتى وهو في حضرة الموت. كان يؤمن بأنّ التضحية وقود انتصار القضايا الكبرى، وكان

(1) عمر شبلي. على أي جرح توکأت حتى وصلت.ص.54.

(2) عمر شبلي. على أي جرح توکأت حتى وصلت.ص.54

يؤمن بالرسالة التي يحملها حتى ولو خذلها النصر. كان عناده في زمنه المكسور نابغاً من أصالة التكوين الفكري والروحي فيه، وكانت كبرياؤه لا تخذله في المواقف الصعبة، وهذه صفة يتسم بها كل من حمل قضية سامية، كان يدرك الثمن الغالي الذي يجب أن يدفعه ثمناً لصيانة هذه الكبرياء. لنستمع إليه وهو يخاطب أحد رفاقه في المحنة:

يا رفيقي: نحن لم نصرخُ أمام الآخرين

لا لأننا لا نحسُّ القيدَ، أو لا نتألمُ

إنما، لا بدُّ للإنسان في محنته من أن يكابر⁽¹⁾.

ظلّ الشعر رفيق درب شاعرنا عمر شبلي في غربته التي نزعت عنه ثيابه القديمة الحميمة ورؤية الشمس والحببية، وذكريات أمه التي قال فيها: «للتّي أجلتُ موتها مرتين لتحضر عرسي»، ولكنّ الغربة بكل مآسيها عجزت عن إقامة الحواجز بينه وبين الشعر، والشعر الذي رافق مسيرة شاعرنا كان أقوى من الألم، وكان أكثر حضوراً من المحقق هناك تحت الأقبية المرعبة، والليالي التي لا قعر لها. وكانت روح شعره من النقاط الأساسية التي جذبتني لدراسة شعر هذا الشاعر المفعم بالخصوبة والتفرد. إنّ التجربة الصعبة حين ترافقها موهبة أصيلة يكون نتاجها متقدماً بانتقاله من صخب التجربة إلى صخب الكلمات، وكما قال الناقد الفرنسي الشهير «سانت بيف»: «الأدب صياغة فنية لتجربة بشرية»، إنّ الألم الناتج عن المعتقل والغربة والعذاب تحوّل إلى كلمات هي بمستوى الحياة نفسها. لم يبلغ الألمُ أمله، بل ظلّ متفائلاً بالشعر الذي لا يعترف بالأبواب المغلقة والأقفال السميكة. وهكذا يصبح الشعر مادة حياة أكثر من كونه كلاماً شعرياً منظوماً. لقد قتل قدامة بن جعفر الشعر حين رأى أنه: «كلامٌ موزون مُفقى». الشعر روح تسكن في الكلمات، وما أصعب معاناة الكلمات حين تعجز عن نقل الرؤيا إلى رؤية، كما قال النّفري: «كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة»، ولذا قد يكون البكاء أفصح لغة لتبيان آلام الروح التي تمرّق الكلام لعجزه عن الإحاطة بتدفق مجاريه التي تصبح في النهاية دموعاً. قضى عمر شبلي في منفاه الانفرادي مدة عشرين عاماً، وكان يجالس في هذه المدة ماضيه وحنيه لأهله ووطنه. كان يسمع أصوات ذاته القابعة في دهاليز وحدته العجيبة. لقد أعطته هذه التجربة تفرداً إبداعياً عالياً، وجعلته ينصت لصخب الزمن الذي كان يصخب

(1) عمر شبلي. الحجر الصبور. بيروت. دار الطليعة، ط1، 1426/2006، ص133.

ويتمادى في صخبه، ولكن دون أن يمشي. وما أصعب الإنصات إلى صخب زمن لا يمشي. وسقّدم شاعرنا بكلام صادق ومعبر عن قصة شاعر سجين، أعطى عمره وقلمه لأتمته وشعبه، وحاول بالشعر أن يلامس وجدان أمته وآلامها وآمالها، وحكى تجربته الانسانية، وموقفه أمام الحياة والموت، وعانى مأساة انهيار ما كان يحلم به على مستوى الفرد والجماعة، وقضى أيام شبابه في المعتقلات مؤمناً أنّ نضال شعبه هو جزء من نضال الإنسانية لانتصار قيم الحق والجمال والحرية. وكان حزنه غامراً وطاغياً عندما رأى الراهية تتمزق تحت حوافر خيل الغزاة في لبنان وفلسطين والعراق وعلى امتداد خارطة هذا الوطن العربي المزدهم بالفقراء والمناضلين، وراح يتساءل في ألم ووحدة: لم انهزم الفقراء والمناضلون، ولم سقطت الراهية؟. وفي فرحة طفل راح يهتف للمقاومين في لبنان وفلسطين والعراق، ويقول: «يا ليتني كنت معكم». كان يعتبر أنّ نضال شعبه هو جزء من نضال الإنسانية ضد الظلم والجوع والقهر والتخلف.

لقد كانت آلامه وأحزانه كبيرة لأنّ آلامه وأحلامه كانت كبيرة، وحكى عن ضعفه وقوته، وعن يأسه وأمله، وظلّ واحداً لم يتناثر، ولم يهن أبداً وهو يعاني الغربة والظلام في الزنازين والأقبية، لقد كابر وتكبّر على الجرح، حتى لكأن الجرح الضماد⁽¹⁾. إننا بحاجة إلى مبدعين يزرعون الأمل بقتل الألم. كان عمر شبلي يملك ذاكرة نادرة، وكان كما ذكر في أكثر من موقع يكتب بلا قلم، كانت ذاكرته قلماً، ومن الصعب أن تجد اليوم إنساناً يحفظ دواوين شعريّة بكاملها، وحافظاً آلاف الأبيات من الشعر القديم. قد يكون هذا الحفظ الغزير محدود القيمة إذا لم يكن محاذياً موهبة مدهشة لا تُداني، كان ينسج الشعر ويردده فيستنقر في رأسه، لقد وصل إلى بيروت بعد غربته الطويلة، وهو يحمل في رأسه ثلاثة مجلدات شعريّة، وكانت عناوينها: «العناد في زمن مكسور»، و«إنّ الخلود متاعٌ سعره الجسد» و«الحجر الصبور». ومنذ اليوم الأول بدأ بنقلها من ذهنه إلى الورق، ثم دفعها تباعاً إلى المطبعة لتدخل في أرقى حالات الشعر الملتزم.

عمر شبلي من الذين سمت أخلاقهم سموّاً يعلو على الشعر. إنك تذهل وأنت تقرأ شعره، وما حوى من قيم عالية، ولكنك تصاب بالذهول أكثر حين تجالسها، وتعاشره، وتأخذ من خلقه ومن أدبه، لا يبخل عليك بمعرفة ولا نصيحة، وتظلّ معونة الآخرين

(1) عمر شبلي. أيّ خبز فيك يا هذا المطر. بيروت، دار العودة، ط1، 1434/2014، ص6-5.

أبرز صفاته، حتى «كأنك تعطيه الذي أنت سائله» كما يقول أبو تمام. من عرفه أدرك أن شعره مرآة ذاته الفيّاضة بالعطاء، وأحياناً تشعر أنك تتعبه بحضورك، ولكنك تراه أكثر فرحاً كلما حاولت ورود ينابيعه الفكرية والروحية. سئل البحري يوماً عن أبي تمام، فقال: «لو رأيت أبا تمام لرأيت أكمل الناس عقلاً وأدباً، وعلمت أن أقلّ شيء فيه شعره». هذا ما يقال أيضاً في عمر شبلي، على الرغم من أنّ شعره يترجم لك روحاً عصرتها الحياة فزادت إبداعاً وتألقاً وحضوراً داخلياً يوازي انتشار شعره في وجدان قارئيه .

شعر عمر شبلي ينقذ الشعر من كثير من المهايوي التي وقع فيها بسبب خواء التجربة وافتعالها بكثير من التمويه اللفظي الذي أحال القصيدة إلى ضباب، وإن شئت جعلها عملاً ثقافياً خالياً من اللهب والمعاناة. وأكد أنّ على الشاعر أن يكون مثقفاً، ولا مفرّ من ذلك، ولكنّها الثقافة التي تخلقها المعاناة والتجربة حين تتحوّل إلى عملٍ شعري. والثقافة الشعريّة تصنعها التجربة والمراس والاختلاط بنتاج المبدعين، وهي عامة وخاصة في آن. والثقافة في الشعر يجب أن تتميز بحضور القلب قبل كل شيء. ولنأخذ مثلاً على معنى الثقافة في الشعر قول قيس بن الملوّح:

فلم أشرف الأيفاع إلاّ صبايةً ولم أنشد الأشعار إلاّ تداويا⁽¹⁾

لم يكن قيس بن الملوّح خريج جامعة، ولكنّه كان خريج ليلى وجبل التوباد، ولشدة ازدهامه بالمعاناة استيقظ قلبه، ودلّه على وسيلة لتخفيف أساه، وأمره أن يحوّل معاناته شعراً لتخرج من صخب الذات إلى أواني الكلمات. لقد أنشد الأشعار تداوياً من حرقة القلب ولهب المشاعر، والنفس الإنسانية ترتاح حين تبوح، وهذه ثقافة، ولكنّها ثقافة الشعر الذي يعتبر حضور القلب مادة حياته. يقول عمر شبلي:

ولا معنى لكونك في مكانٍ وقلبك لا يكون من الحضور⁽²⁾

لقد أثرت اختيار هذا الشاعر المنتمي لكل ما يرفع الإنسان، ورحلت أبحاث في ينابيعه، وأفتش عن عبقريته، وتلك عملية ليست سهلة على من يبدأ طريق البحث

(1) قيس بن الملوّح. الديوان. بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1 ، 1420 / 1999، ص122.

(2) عمر شبلي. الحجر الصبور. ص212.

عن الينابيع العميقة في تجربة الفكر الإنساني، فترسّم خطى النابيين والكشف عنهم يحتاج إلى معركة ومجاهدة وبحث شاق طويل حتى تتمكن من الوصول إلى مبتغاك، والأصعب أن تكتشف عبقرية ذات نتاج غزير في زمن متأخر، وفي زمن ساعد فيه الزمن كثيرًا من المبدعين، فمنهم من ظهرت كنوزها، وبرزت إبداعاتها، فعرفه القاصي والداني، ومنهم من خبا نوره، وظلت إبداعاته حبيسة الرفوف تنتظر من يزيل عنها غبار الإهمال، ومنهم الشاعر « عمر شبلي » الذي أساءت إليه الحياة إنسانًا، وأحسنت إليه شاعرًا جعل الشعر موقفًا وسلوكًا ومعاناة..

وعلى الرغم من قدراته الفنية ومواهبه الذاتية، وتميز إبداعه، وتنوع مضامينه الشعرية، فإن النقد تجاهل مسيرته لأسباب لم تعد خافية على الذين درسوه بعمق، ورأوا في شعره بروقًا عالية الانتشار والحضور والتأثير انطلاقًا من هموم الذات وعذابها إلى هموم وطنه وأمتة وإنسانيته التي كانت أشد لمعانًا وبروقًا من أي برق آخر. ولأن برقه لم يكن خلبًا فقد احتفى به الدارسون وقرأوا إنسانيته الموجودة في كل نتاجه. هذا على الرغم من كل العذاب الذي اعتصره ليجعله في الضفة القتلة، ولكنّه لم يفعل.

ونسير مع الشاعر وهو يحكي لنا تجربته ومعاناته لتأكيد معنى تحوّل الكلمة إلى فعل ملتزم: «وكان يرى في الكتابة الملتزمة بقضايا الإنسان العليا إعادة بناء العالم وتهديمه في آن. فالشعر بهذا المعنى ثورة وحرارة مستمرة، وكان يرى أنّ الشعر واحة وارفة الظلال والمياه في تربة الحضارة الإنسانية. كان يضخّ في شعره حنينه وحلمه وتوقه إلى المرأة والضياء والحرية في جوف الزنزانة، ولذا لم يحوّل جفاف الزمن من الحلم المتحرك إلى صحراء قاحلة، لأنّ المرحلة الأولى من الموت هي موت الذكريات والأحلام، كان الحلم عقارًا مهدئًا، لأنّ الغربة تبدأ حين تتأكد، وأنت قابع في زنزانتك، أن ليس ثمة شيء آخر سوى حلول المساء. وكانت أصوات الطائرات الحربية تفهمني أنّ الحرب ما زالت قائمة، وهذا يعني أنّ البحث عن ينابيع ما زالت بعيدة الغور، أو لا وجود لها، وحيث الانتهاء يصير ابتداء، وبهذا المعنى يُلغى الزمن من وجودك تمامًا، ويصبح الماضي وحده هو الموجود، حيث لا زمن للعمر القاحل الخالي من الحدث والمفاجأة، كنت متأكدًا أنّ الزنزانة مأواي، أما روحي فلم أكن أستطيع السيطرة عليها، وكانت متمردة ولاهثة وراء ما يشبه السراب، كان الحنين يجبرها على الملاحقة، وربما

أصبح السراب ماءً، وكانت تقنعني باستمرار أنّ القلب أكثر حضورًا ووعيًا من العقل، وكيف يستطيع الإنسان التوفيق بين زمن ساكن وقلب مضطرب لا يستقر على حال! لقد كانت العواصف تجأر في أودية «رينا» السحيقة وفي ذرا «دماوند» الشاهقة، وكانت عواصف مثلها تجأر في داخلي، والزمن جاثم لا يتحرك. وفي الزلزلة انقطعت علاقتي بالسماء لأنني لم أعد أراها، وصرت أعتقد أنني لن أراها أصلاً بسبب طول غيابي عن التجول تحت سقفاها. وبدأت كثافة الكآبة تتحوّل إلى فعل جسدي، وهكذا لم أكن وحدي حزينًا، فالجسد الذي كنت مقيمًا فيه صار حزينًا أيضًا، وصار وجهي قاحلاً كصحراء ليس فيها زمان ولا ينابيع ولا حُداة ولا آثار قوافل»⁽¹⁾.

إن الإنسان قد تظلمه الحياة حتى شاعرًا، وهذا ما أصاب نتاج عمر شبلي بسبب ندرة الدراسات النقدية التي تناولته بالدراسة والبحث، حيث أن ما كتب عنه لا يفي بما قدّم وأبدع. إن بروق الإبداع يجب أن يتيسّر لها فضاء لتلمع في وجدان الآخر، فالإبداع تكتمل إضاءته حين يدخل في الآخر، ويحقق الغاية القصوى من وظيفة الإبداع، الذي هو وحده منقذ الحضارات من الاندثار.

إن الجديد الذي رأيته في نتاج الشاعر عمر شبلي، والذي يستحق دراسة متأنية وموضوعية، هو خصب المضمون الشعري، الناتج عن سنوات الأسر الطويلة، فالشاعر خلال هذه المدة تناول جوانب متعددة بعضها ذاتي وغائص في التجربة الفردية نتيجة معاناته، وبعضها عام يتناول أحداث الأمة من خلال ما كان يصل إليه في ظلموت السجن. والذي يجب أن نذكره هنا أن المضمون الذاتي لم يبلغ الأبعاد الأخرى التي كان الشاعر ملتزمًا بها، أعني هموم أمته وما يدور من أحداث في هذه البلاد المتحركة باستمرار باتجاه توكيد ذاتها، عبر أصالة تمتد من جاهليتها وحتى عصرنا الحاضر على الرغم من كثرة النكبات التي جثمت على صدر هذه الأمة.

صدق الالتزام ورمزيته في شعر عمر شبلي:

حين يكون الالتزام قاسيًا، ومتعبًا، وطويلاً كعمر الإنسان نفسه يكون الرمز وقتئذٍ لغة في اللغة، لأنه بصراوته يكون أعلى من قدرة اللغة على استيعاب حركة الإنسان الداخلية، ولأن حياة شاعرنا وشعره كانا عمره كله، ولأن الالتزام اتسع بمقدار ما أخذ من ذات شاعرنا كان الرمز حالة تواكب الفكرة والسلوك. وصار يحتل الرمز معظم نتاج «عمر شبلي»، ويتمادى هذا الرمز ليشمل كل تفاصيل حياته الداخلية

(1) عمر شبلي. أيّ خبز فيك يا هذا المطر. ص 6-7.

والخارجية. وفي كل حالاته لا يكون الرمز إلا إفساحًا عن كوامن الإنسان الداخلية ومنطلقاته الفكرية والروحية، وهو يحاول باستمرار نقلها إلى الخارج اقتناعًا بها، ونقل روحه وأدبه إلى كل رموزه حتى لكأنها هو، بمعنى أنه لا ينقل الرمز نقلًا دينيًا أو تاريخيًا، أو أسطوريًا، بل يتفاعل بهذا الرمز تفاعلًا إيجابيًا يجعله قادرًا على إسباغ ذاته على ما استعمله رمزًا. ولأجل هذا اصطبغت رموز «عمر شبلي» في كل نتاجه بمنطلقاته الفكرية والروحية، وكان هو في كل حالاته، وكانت رموزه نقل حياته إلى الكلمة، واستطاع أن يوظف الرمز توظيفًا حداثيًا يخدم واقعه، ويدعو للتغيير الهادف، مستندًا إلى الرمز الذي يخرج من وجدان التاريخ إلى وجدان الفرد والأمة. وبهذا لا يبقى الرمز ترفًا، وإنما يتحوّل وظيفة أخلاقية وروحية واجتماعية، تتميز في كل اتجاهاتها بقناعات الشاعر، ومنطلقاته الفكرية والنظرية، فكأن رموزه هي المتحدثة عن هواه وميوله ومعتقداته.

وهذا ما نراه في رمزه الديني والتاريخي والأسطوري والأدبي، الذي يتجلى في شعره، في أكثر من شخصية دينية. والذي يجب أن نؤكد هنا هو أنّ الرمز الديني عند «عمر شبلي»، يتخذ بعدًا إنسانيًا أبعد من حصرية دين، أو مذهب بعينه، وسوف نرى ذلك في النماذج التي سنتناولها، ومن رموزه: شخصية الرسول العربي إنسانًا عظيمًا، استطاع إحداث ثورة روحية عميقة في الإنسان. ومن رموزه «المسيح عيسى بن مريم»، الذي صلب دفاعًا عما يعتقد، ودفاعًا عن قيم الإنسان العليا المتعدّية حدود الزمان والمكان، إنّ الشاعر عمر شبلي يستمد من شخصية السيد المسيح رمزًا مؤثرًا، لا يزال له حضور عميق في الروح الإنسانية التي تسعى لخلاص الإنسان من ظلموت داخله بالحب والتسامح.

وهذا الاستعمال الإنساني للرمز الديني يفتق الرتق المذهبي، الذي حاكته العقول المتعصّبة حول صحة ما تعتقده، ونفي الآخر.

ومن هذا المنطلق سنتناول بالدرس والتحليل الرمز في شعر عمر شبلي لأنّ إضاءة الرمز هي إدخال المتلقي إلى أعماق الذات المبدعة، حيث تتعطل لغة الكلام المباشر ليغدو الإحساس المتسرّب من الرمز مولد الإشعاع، والإشعاع في دلالاته الحقيقية هو خبز الأرواح التي غفها الظلام وحجز نورها، وجعل الحنين إلى الضوء تعبيرًا عن سعي الإنسان إلى الخلاص من الطين وشغفًا بالتضحية، والتخلّص من عبء الموت. وهذا الذي يراه الشاعر «عمر شبلي» محفورًا في وجدانه، بإيمان عميق

لا يتزعزع. ولسنا نستغرب في سبيل هذا المعتقد إذا رأينا أنّ شاعرنا يطلق على أحد كتبه عنوان «إنّ الخلود متاع سعره الجسد»، هذا يعني أنّ الموت في سبيل المبادئ هو انتصار لا يتزعزع، وإن اصطبغ بالفجيعة والدم.

عمر شبلي شاعرًا ملتزمًا :

الالتزام في شعر عمر شبلي مادة الحياة وسر تحوله إلى كثافة الرمز الناتج من هموم تجربته التي طالت كعمره نفسه. فطول التجربة في حياة الإنسان يحوله إلى رمز وبذلك يكون الرمز مرآة لعوالمه الداخلية. وهذا سبب جودة الرمز في شعر عمر شبلي. لقد كانت رموزه الشعرية صورة وتعبيرًا عن تجربته. مثلاً تتكرر في شعر عمر شبلي صورة صقر قريش، وإذا حاولنا تحليل هذا الرمز في شعره وانعكاسه على تجربته نرى أن الصعوبات التي مرّ بها صقر قريش وهو يغادر الفرات باتجاه الأندلس حيث كان ينام نهارًا ويمشي ليلاً، وهذا الصبر أتاح له أن يؤسس ملكًا في الأندلس استمر ثمانية قرون، وبهذا المعنى يصبح الرمز حالة ابداعية وليس حالة انهزامية. فالذي يقضي عشرين عامًا في السجن ويخرج ممتلئًا بالحياة وانتمائه لأمتة لا يمكن أن يكون حاملاً فكرًا انهزاميًا. وهذا تحليل لوجود صقر قريش في شعره على سبيل المثال، وكذلك رمزية أوليس وهو يعبر مياه الموت العميقة على امتداد عشرين عامًا ليصل إلى إيتاكا وطنه.

من هنا نجد أنّ الرمز يحضر بكثافة في شعر «عمر شبلي»، فلا تمرّ على قصيدة له إلّا وترى فيها رمزًا أو شيئًا من الرمز، وفي رأينا أنّ خصب الرمز في شعر «عمر شبلي» عائد إلى ثقافته الموسوعيّة التي تذهلك، وأنت تحاول أن ترى أبعادها ومراميتها النهائية، وثقافة «عمر شبلي» ليست ثقافة مجردة عن التجربة الإنسانية، إنّ ثقافته نابعة من احتكاكه الخشن مع الحياة وتجاربها، فالرمز عنده «مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعانها الشاعر، والتي تمنح الأشياء مغزى خاصًا»⁽¹⁾، وربما يلجأ الشاعر إلى الرمز أحيانًا لظروف قاسية في معتقل أو وطن محتل أو تحت سيطرة أنظمة قاسية. لكنّ عمر شبلي لم يأبه بالظروف التي حاصرت جسده، والتي لم تستطع أن تحاصر مشاعره واندفاعاته الروحية العالية.

ولعلّ التجربة السياسية التي خاضها «عمر شبلي» مقتنعة بمراميتها وأبعادها الأخلاقية والقومية، كانت قد جعلته يمارس ثقافته ممارسة ميدانية على أرض الواقع.

(1) عز الدين اسماعيل. الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنيّة والمعنوية. بيروت، دار العودة، 3، 1401/1981، ص16.

وحين تنزل الثقافة إلى معاشة الواقع، تحاول أن ترقى به وتشدّبه من عيوبه. لقد كانت تجربة «عمر شبلي» مملوءة بالمعاناة والألم والتفجّع، حيث قضى معظم سني شبابه في الأسر والمعتقلات، ولا يُغني الشعر ويخصبه شيء أكثر من تجربة السجن حاجز الحرية والشمس والفضاء. في السجن قضى زمنًا يتقلّب فيه بين مرارة الواقع والحنين إلى الحرّية والأهل والوطن، ولو حاولنا أن نلخّص «عمر شبلي» لقلنا إنّه إنسان مقيم في منطقة القتل بين الحرية والمعتقل. فالشعر عند «عمر شبلي» هو موقف من الكون و«الشاعر الحق فاعل لا يخاف المواجهة»⁽¹⁾

لقد صقل الشاعر أحاسيسه وشدّبها ونقّأها من كل ما هو مظلم، فانقلب ظلام السجن إلى ضوء معرفي وشعوري يفيض بالمحبة والحلم والتوق إلى الحرية. ومن طبع الأسي غسل النفوس من أدرانها. وهو الذي يغسل حقد القلوب ويمحوها. فإذا كان الشعر ضوءًا فهو أبعد ما يكون عن الحقد والحسد لأنهما ظلام مشتبك بظلام. إنّ الكبار الذين تصقلهم التجارب تنمي إنسانيتهم وتجعلها فيأضة ودافقة في نفوس الآخرين، فإذا كان المتألم شاعرًا، فإنّ شعره يحتمّ عليه نقل الألم إلى الكلمة ونقل الإحساس إلى المفردة، وعندها تصبح الكلمات مرايا، حتى ولو كانت محرقة كالشظايا، وإذا نقلنا الكلام على تجربة «عمر شبلي» منّا إليه، نراه يقول في تجربته: «السجن حالة متناقضة مع فطرة الإنسان وكيونته، ولذا تنقص إنسانية الإنسان في السجون. وبمقدار ما يتحفز فيه وعيه لنقضه يتحفز فيه وعي آخر عميق كإنسانيته لاسترداد ما سلب منها، وخلق إنسانية أخرى بلا حفر مظلمة فيها وبلا عاهات ترافقه طوال فترة سجنه، وبمعنى آخر يكون نضالاً إنسانياً مشروعاً بمقدار سمو الفكرة التي سجن من أجلها، ومع الوقت تغدو الحرية هي الغاية لأنها تضمّر الموجود الأبهى كلّهُ. كان الفضاء ضروريًا، وكانت الشمس إغراءً شهياً، والخروج من الزنزانة/ القبر، خروج من الظلمات التي تحتل الروح قبل المكان، وقتها بدأت أعي لماذا اقترن الحزن بالسواد، ولماذا نلبس الأسود في المآتم، وكأننا نقول للناس: إننا في منطقة الحزن فأخرجونا منها بمواساتكم. في السجن تدرك معنى الحرية كوجود، وليس كشعار سياسي، تدرك أنّ اعتقال الحرية يعني حذف الإنسان وإلغاء ارتباطه بحقه في كينونة مكتملة غير منقوصة. ومن هنا تدرك حدّة الانتماء للحياة عند السجين وحدّة نضاله

(1) ميشال سليمان. السمو في الشعر. مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، 1401/1981، العدد العاشر، ص 25.

من أجلها»⁽¹⁾.

لقد أسهبنا في الكلام على تجربة «عمر شبلي»، ومعاناته واحتكاكه الخشن بالأشياء التي عرفها في حياته، وناضل وسجن من أجلها، وهذا يفسر لنا حاجة الشاعر إلى ما هو أبعد من وضوح الحدث العادي، لا بدّ من الرمز ليخالط الإحساس صورة الرمز العاكسة داخل الشاعر. فكلما غاص الإحساس في النفس أكثر وصعب نقله إلى الكلمة، أصبحت اللغة أعجز في نقله إلى الآخر المتلقي، وهذا ما يفسر لنا اللجوء إلى الرمز بكثافة وغازلة في شعر «عمر شبلي»، وبهذا يغدو الرمز لوحة بصريّة مأخوذة من التاريخ أو الدين أو الأسطورة، وتكون الغاية تحطيم الفواصل بين الحواس لتستطيع نقل الحال، ومع طول مدّة الاعتقال تصبح الرؤيا أعمق من الرؤية «يجثم الزمن كالفيل على إحساس الشاعر ويمنعه من استنشاق الهواء. الزمن يُلغى في السجن سوى زمنك الخاص الذي تحاول خلقه باستمرار عبر اللحم، وبكثافة تكرر اللحم تدخل في يوغا من نوع يجعل الواقع ملغى ويصبح اللحم هو الواقع، وتكون قدرة الإنسان في تفوقه بقتل الواقع وخلق الزمن الآخر، حتى لكأنك فيه. وتحس وأنت تمارس حلمك أنك تشارك الله في الخلق عبر «فراديسك المفقودة». يبدو أن الذي يشدنا للحياة هو الشوق لمعرفة الآتي بشكل متجدد، فإذا كنت سجيناً، ولا تعرف مدة «سجنك»، تموت لديك الرغبة في الحياة لأنك تعي تماماً أنّ اليوم كالغد، وهذه السنة كالسنة القادمة، وهكذا يتحوّل الزمن إلى رماد جاثم فوق وعيك وإحساسك، وبانقطاعك عن الناس تشعر أن الزمن واقف، وتصبح مشتاقاً لاجتيازه، ولو عبر الموت، والزمن الذي يخلو من المفاجأة هو موت في حياة لا يتحرك فيها شيء، ومتى تدخل في اللحم تدرك أنك تجتاز الظلمات وجزر الساحرات، وتدرك أنك في مقبرة مهددة بالحياة»⁽²⁾.

لقد كانت رموزه مرآيا وإضاءات تعكس هذه المرآيا، ومحاولة تبيان كل الظلمات والمرارات التي عرفها في أحاسيس تحكي بلغة أخرى أبجديتها الإحساس، وكأنّها أحوال صوفية تعتمد المزج بين الكلمة والحال، وقتها يكون الرمز لغة تحكي وتتربص خلفها إحياءاتها الكثيرة، فالرمز هو عجين اللغة بالإحساس، وهو تعبير عن محدودية اللغة التي تعجز عن كشف المناطق المخفية، وما يدور فيها من أحاسيس أثناء

(1) فاطمة رسلان. مجلة شؤون جنوبية ، 19/12/2009. الموقع الإلكتروني janoubia online..

(2) فاطمة رسلان. مجلة شؤون جنوبية. الموقع الإلكتروني janoubia online..

تجربة الحياة القاسية. وهكذا كما قلنا يغدو الرمز لغة اللغة، لأنه يساعدها على الكشف ولو إحياء وجدسًا، فالإحياء بغموضه النسبي يعطي مجالاً للنفس، ونختاره لترتاد المناطق القصية في النفس الإنسانية.

«الحلم هو الحياة الحقيقية في المعتقالات الطويلة الزمن، والضيق المكان. كانت الغربة تتسع في داخلي، وبدأت أغترب أكثر عن وعيي الخارجي، وبخاصة في سنوات الانفرادي التي كنت فيها وحدي والتي استمرت عشر سنين، أما سنوات الأسر الأخرى التي قضيتها مع الأسرى فقد كانت شيئاً مختلفاً تمامًا، لقد شعرت وأنا أدخل في معسكر الأسرى بعد عشر سنوات من الانفرادي أنني لست سجيناً. فالآخر ضرورة حتمية لاستمرار الوجود الحقيقي للإنسان. لا يمكن للإنسان أن يعي أهمية الوطن وشدة التصاقه بالعمق الإنساني إلا في حالة فقد الوطن وهروبه من تحت قدميك ومن محيطك اللاحيوي الذي تتنفس فيه الغربة باستمرار ومن روحك التي لا يشبهها إلا تفاصيل الوطن. ولشدة احتياجي إلى وطن، رحت أؤسس وطنًا في اللغة، ولم يعد الوطن رمزياً لشدة كثافة إحساسي بحضوره:

«يا غيم مرّ على البقاع عشيةً أهلي منازلهم على الليطاني
يا غيم كيف ثرى» الصورة» بعدنا والبرق يغمزه من «السلطان»
وغدًا، إذا هدأت رياح مراكبي وتمددت روحي على الشطان
فلسوف أحكي للموانئ كلّها ما دار بين الريح والقرصان»⁽¹⁾

ورحت أصرّ على تنمية خيالي عبر تدفق الحلم بعد ممارسات روحية عميقة، وكنت متأكدًا أن الخيال المهزوم لا ينفذ، ولا يجعلك قادرًا على اجتياح المساحة الزمنية المرعبة التي تحيط بك. وسيجعني جثة في قبر غير جميل»⁽²⁾.

(1) عمر شبلي. ان الخلود متاع سعره الجسد. بيروت، دار الكنوز الأدبية، ط1، 1421 / 2001، ص60-57.

(2) فاطمة رسلان. مجلة شؤون جنوبية. الموقع الإلكتروني janoubia online.com.

الخاتمة

في النهاية، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الالتزام الأدبي بمفهومه الواسع تلقى رفقاً عظيماً من نتاج المناضلين ضد الظلم والاحتلال والاستبداد في أنحاء مختلفة من العالم، ومن أدباء ثورات التحرر الوطني والاجتماعي. حتى رقد مفهوم الالتزام الطوعي بدفاق من تجارب الأدب القومي والوطني والاجتماعي، وما يشوب هذا الأدب من عاطفة مسرفة وتعلّق آني بالمناسبة، ويمكن القول: إنّ أفضل مثل قدّم في هذا الباب هو أدب الالتزام الوطني، الذي نجح قسم كبير من الشعراء في توفير الموقف الملتمزم ذاتياً، والإبداع الجمالي ولو نسبياً، إضافة إلى استعمال الأفق الإنساني الرحب المتمثّل بثقافة الإنسان الشاعر وعمق تجربته، وصدق التزامه.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أبو حاقّة، أحمد. الالتزام في الشعر العربي. بيروت، دار العلم للملايين، لاط، 1979م.
- الأسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسن. شرح كافية ابن الحاجب. قدّم له الدكتور إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتب العلمية، لاط، 1390/1971.
- الأصفهاني، أبي الفرج. الأغاني. بيروت، دار الكتب العلمية، لاط، لات، مج14.
- ابن أبي سلمى، زهير. الديوان، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط1، 1415/1995.
- ابن ثابت، حسان. الديوان. بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1414/1994.
- ابن الصمّة، دريد. من كتاب الحماسة لأبي تمام.
- ابن عاديء، السمّول. من كتاب الحماسة لأبي تمام.
- ابن العبد، طرفة. الديوان. الهند، مطبعة برطرنند، لاط، 1319/1900.
- ابن الملوّح، قيس. الديوان. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1420/1999.
- ابن منظور. لسان العرب. بيروت، دار صادر، ط5، 1956م، مج15.
- اسماعيل، عزالدين. الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنيّة والمعنوية. بيروت، دار العودة، ط3، 1401/1981.
- التبريزي، يحيى بن علي بن محمد الشيباني. شرح ديوان الحماسة. بيروت، دارالقلم، لاط، لات.
- التميمي، قريط بن أنيف. من كتاب الحماسة لأبي تمام. مصر، مطبعة التوفيق، 1322/2001.
- تيمور، محمود. مجلّة القصّة. القاهرة، السنة الخامسة، العدد الخامس، 1965م.
- الحطيئة. الديوان. بيروت، دار الكتب العلمية. ط1، 1413/1993.

- خوري، رثيف. الأدب المسؤول. بيروت، دار الآداب، ط1، 1968م.
- رسلان، فاطمة. مجلة شؤون جنوبية ، 19/12/2009. الموقع الإلكتروني. janoubia online ..com
- الرقيات، عبيدالله بن قيس. الديوان. بيروت، دار صادر، لاط، لات.
- سارتر، جان بول. الأدب الملتمزم. ترجمة جورج طرابيشي. بيروت، منشورات دار الآداب، ط2، 1967م.
- سليمان، ميشال. السمو في الشعر. مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، 1401/1981، العدد العاشر.
- شبلي، عمر. إن الخلود متاع سعهه الجسد. بيروت، دار الكنوز الأدبية، ط1، 1421 / 2001.
- شبلي، عمر. الحجر الصبور. بيروت. دار الطليعة، ط1، 1426/2006.
- شبلي، عمر. على أي جرح توكأت حتى وصلت. بيروت، دار الطليعة، ط1، 1427/2007.
- شبلي، عمر. أي خبز فيك يا هذا المطر. بيروت، دار العودة، ط1، 1434 / 2014.
- الشنفرى. الديوان. بيروت، دار الكتاب العربي، ط2، 1417/1996.
- الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الطبري. الرياض، بيت الأفكار الدولية، لاط، 310/224، ج5.
- الطرماح. الديوان. بيروت، دار الشرق العربي، ط2، 1414/1994.
- عنتر. الديوان. بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1912/1992.
- الفرزدق. الديوان. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1407/1987.
- الفيروز آبادي. القاموس المحيط، دار المأمون، ط4، 1983م، ج4، باب الميم.
- فقيه يونس. معالم الالتزام القومي في شعر نزار قبّاني. لبنان، دار بركات للطباعة والنشر، ط1، 1998م.
- القط، عبدالقادر. في الشعر الإسلامي والأموي. بيروت، دار النهضة العربية، لاط، 1407 / 1987.
- المتنبّي. الديوان. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1418 / 1997، مج1.
- ول ديورانت. قصة الحضارة. بيروت، دار الجيل، لاط، لات، مج1.
- وهبة، مجدي. معجم مصطلحات الأدب. بيروت، مطبعة دار القلم، ط1، 1974م.

التربية الوجدانية والقيمية للتربية المواطنة بين حدّين: النّوع الاجتماعيّ والدين والطائفة

المواطن اللبنانيّ نموذج عن المواطن العربيّ⁽¹⁾
أ.د. ندى حسن أبو علي _ كلية التربية (الجامعة اللبنانية)
nada.a.a.h.lu@gmail.com

المقدمة

لبنان، بلد تعدّدية الأديان والطوائف، ومتلقّف التطوّر والحضارة والعصرنة من فسيفساء دول العالم، أخذ التربية المواطنة اقتراح حلّ ضمن الإصلاحات التي نُصّت في اتّفاق الطائف، للخروج بلوحة فسيفسائية من نتاج منهج مادّة «التربية الوطنية والتنشئة المدنيّة» (1997) لبناء وطن ينتظم فيه المواطن الذكر والأنثى، والمسلم والمسيحي، بحدود مفضّلة وليست فاصلة بينهم، ليخرجوا إلى واقع وطن مؤطّر بحدود النّوع الاجتماعيّ والدين والطائفة، وغيرها من المحدّدات التي تنتج فواصل التمايز. إذ تهتمّ التربية المواطنة بكلّ «عمل أو نشاط فكري ومهاري وقيمي... مقصود تقدّمه المدرسة لطلابها، أو تعطيهم الفرصة للقيام به ضمن مناهجها الدراسية، أكان هذا الأمر داخل الصفّ أو خارجه» (فريحة، 2017، ص 21-20) بما يجعل منهم متعلّمين/مواطنين ذوي ثقافة وكفاءة ومسؤولية (الغصيني، 2004). ويشاطر السيد حسين (2013) وأبو بكر القادري (2006) فريحة (2017) والغصيني (2004) اعتبار التربية المواطنة عملية مكتسبة. لكنّ نصر (2004) يعرض لوجهتي نظر آخرين في هذا الخصوص، فيبيّن أن ثمة من يعتبر أن «المواطنة وضع موروث وملزم، وهي ليست خياراً بل مكتسبة مع الولادة، وليس من خلال الكسب المباشر أو من خلال استحقاقات» (ص 8)، في حين أن المدرسة المواطنة، وتحديدًا المدرسة الجمهورية، ترى المواطنة عملية انتقال من وضع موروث ومن إشكالية الواجبات إلى ممارسة فعّالة، حيث تأتي المواطنة بالتربية عليها (نصر، 2004، ص 10). ونحن نهتمّ بالقول إنّها عملية يجب أن تكون مستمرة ومستدامة، يتشارك فيها أولياء الأمور المسؤولين عن التوريت، والمؤسّسات التّعليميّة وغيرها من مؤسّسات التنشئة في التربية الوطنية.

(1) هذه المقالة عُرض مضمونها في المؤتمر العلمي الثامن (الحدود في المجتمعات العربية) 29 - 30 تشرين الثاني - كانون الأول 2019- تونس.

أولاً- أهمية البحث

يرى فريحة (2002، ص25) أن الشريحة العمرية للمستهدفين بالبحث من متعلّمي الصفوف الثلاثة في المرحلة الثانوية تمتاز بخصائص تتبلور فيها أفكارهم الاجتماعية والسياسية، إذ «يبدأون بتكوين قناعات واتجاهات فكرية وأدبية وإيديولوجية، لذلك يكون تأثير هذه المرحلة فعالاً في رسم سلوكيات الطالب/المواطن». من هنا تكمن أهمية هذا البحث الذي يعرض للتربية الوجدانية والقيمية للتربية الوطنية للمتعلّم/المواطن اللبناني كنموذج عن المواطن العربي، ويتابع تباين الإجابات أو تقاربها بين حدّين أساسيين متمثّلين بالنوع الاجتماعيّ أو الدّين والطائفة، اللذين من المفترض غيابهما في إجابات المتعلّمين، خصوصاً إذا أخذنا بالاعتبار أن التمايز نزاعيه في عملية التعليم والتعلّم للتربية على الوطنية ولا ننتظره في نواتجها.

ثانياً- أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى:

- الكشف عن تأثير اختلاف النّوع الاجتماعيّ للمتعلّمين/المواطنين اللبنانيين، كنموذج عن المواطنين العرب في الصفوف الثلاثة من المرحلة الثانوية، على التربية الوجدانية والقيمية المحصّلة من منهج مادّة «التربية الوطنية والتّنشئة المدنيّة» 1997.
- الكشف عن تأثير اختلاف الدّين والطائفة للمتعلّمين/المواطنين اللبنانيين، كنموذج عن المواطنين العرب في الصفوف الثلاثة من المرحلة الثانوية، على التربية الوجدانية والقيمية المحصّلة من منهج مادّة «التربية الوطنية والتّنشئة المدنيّة» 1997.

ثالثاً- مشكلة البحث وإشكاليته

يترتّب المتعلّمون، مستقبل لبنان ورأسماله البشري، منذ العام 1997 على منهج «التربية الوطنية والتّنشئة المدنيّة» الطامح إلى تحقيق «الوحدة والانصهار الوطنيين» لإزالة الفوارق في فكر الناشئة، أيّاً تكن متغيراتها، لتوحيد الرؤيا نحو لبنان الغد بين الذكر والأنثى والمسلم والمسيحي و.... هكذا تسعى «التربية الوطنية والتّنشئة المدنيّة» لكسر الحدود، لكن واقع الوطن الذي تعمل فيه رباح التمايز قد تأتي بما

لا تشتهي سفن التّربيّة الوطنيّة.

أمام هذا الواقع، نطرح السّؤال الآتي:

هل تتأثّر نواتج التّربيّة الوجدانية والقيمية للتّربيّة الوطنيّة على منهج 1997 بتمايز النّوع الاجتماعيّ والاختلاف في الدّين والطائفة؟

رابعاً- أسئلة البحث

ويتفرّع من السّؤال الأساسي السّؤالان الفرعيان الآتيان:

- هل تتباين نواتج التّربيّة الوجدانية والقيمية للتّربيّة الوطنيّة على منهج مادة « التّربيّة الوطنيّة والتّنشئة المدنيّة » تبعاً للنوع الاجتماعيّ في الصفوف الثلاثة من المرحلة الثّانويّة في التعليم العام؟
- هل تختلف نواتج التّربيّة الوجدانية والقيمية للتّربيّة الوطنيّة على منهج مادة « التّربيّة الوطنيّة والتّنشئة المدنيّة » باختلاف الدّين والطائفة في الصفوف الثلاثة من المرحلة الثّانويّة في التعليم العام؟

خامساً - فرضيات البحث

ينطلق البحث ليؤكد أو يدحض الفرضيتين الآتيتين :

- تتجاوز الإناث حدود التمايز وفقاً للنوع الاجتماعيّ في اكتساب تربية وجدانية وقيمية من التّربيّة الوطنيّة على منهج مادة « التّربيّة الوطنيّة والتّنشئة المدنيّة» في الصفوف الثلاثة من المرحلة الثّانويّة في التعليم العام.
- تتأثّر نواتج التّربيّة الوجدانية والقيمية للتّربيّة الوطنيّة على منهج مادة «التّربيّة الوطنيّة والتّنشئة المدنيّة » بحدود الدّين والطائفة في الصفوف الثلاثة من المرحلة الثّانويّة.

سادساً- منهجية البحث

يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي والتحليل الكمي لنتائج ثلاثة وعشرين (23) سؤالاً تمّ اختيارها من ثلاث استمارات استهدفت متعلّمين من الصفوف الثلاثة للحلقة الرابعة - المرحلة الثّانويّة في نهاية العام الدراسي 2017-2108. أمّا الأسئلة التي حملتها الاستمارة المركّبة من الاستمارات الثلاث فكانت من محاور كتب مادة

«التربية الوطنية والتنشئة المدنية» لصفوف المرحلة الثانوية الثلاثة في التعليم العام غير المرتبطة بتربية مواطنة للوطن البلد فحسب، وإنما تتصل بالمواطن اللبناني كنموذج عن المواطن العربي.

استهدف البحث عينة طبقية غير تناسبية (Non Stratified Sample) تُعتبر الأكثر ملاءمة لهذا البحث، إذ تقسم المجتمع إلى طبقات أو فئات وفقاً لخاصية أو متغير معين، ومن ثم يأخذ الباحث عدداً متساوياً من العناصر من كل طبقة أو فئة من فئات مجتمع البحث بطريقة عشوائية بسيطة، من دون الأخذ بالاعتبار التفاوت بين حجم كل من هذه الطبقات أو الفئات (الحمداني وآخرون، 2006م - 1426هـ).

وقد تمّ اختيار العينة الطبقية من مجموعة شملت المدارس الآتية:
جدول رقم (1) توزع مدارس المجموعة على المنطقة التربوية والدوام ومتغيرات البحث

المدرسة	المنطقة التربوية	الدوام	النوع الاجتماعي	الدين أو الطائفة
ثانوية الغبيري الثانية الرسمية للبنات	ضواحي بيروت المباشرة الجنوبية	قبل الظهر	إناث	مسلم شيعي
ثانوية كفرشما الرسمية المختلطة	ضواحي بيروت القريبة الوسطى	قبل الظهر	مختلطة	مسيحي
ثانوية حسين مكتبي	ضواحي بيروت القريبة الجنوبية	قبل الظهر	ذكور	مسلم شيعي
ثانوية عرمون الرسمية فرع الشهيد رفيق الحريري	ضواحي بيروت البعيدة عالية	قبل الظهر	مختلطة	مسلم سني
ثانوية حسين مسعود الرسمية	عالية	قبل الظهر	مختلطة	مسلم درزي
راهبات الدومينيكان الدليفيراند	ضواحي بيروت القريبة الوسطى	قبل الظهر	مختلطة	مسيحي

أنترناسيونال لسنغ سكول	ضواحي بيروت البعيدة عالية	قبل الظهر	مختلطة	مسلم شيوعي
الإيمان النموذجية (عرمون)	ضواحي بيروت البعيدة عالية	قبل الظهر	مختلطة	مسلم سنّي
مدرسة مار يوسف الشويفات	ضواحي بيروت البعيدة عالية	قبل الظهر	مختلطة	مسلم درزي

يبلغ عدد مدارس المجموعة تسعة مدارس، اخترناها من بقعة جغرافية تحت مسمّى « جبل لبنان (ضواحي بيروت)» بحسب التوزيع الجغرافي المعتمد من المركز التربوي للبحوث والإنماء ضمن دليل المدارس للتعليم 2015-2016، ما خلا ثانوية واحدة «حسين مسعود الرسمية - بشامون» ضمن المنطقة التربوية «عالية»، وهي الثانويّة الأقرب الى مدارس وثانويات المجموعة التي حلّت محلّ « ثانوية الشويفات الرسمية المختلطة» ضمن المنطقة التربوية «ضواحي بيروت البعيدة عالية» (المركز التربوي للبحوث والإنماء ، دليل المدارس للتعليم العام 2015-2016)، وتفصل بين هاتين الثانويتين مسافة حوالي 2 كم هوائي، أو حوالي 5 كم سيرًا بالسيارة، وتضم شريحة من المتعلمين تتماثل لجهة متغير النوع الاجتماعي (مختلطة) وإلى حدّ بعيد لجهة الانتماء الديني والطائفي (غالبية دروز)، إضافة إلى أننا ركّزنا في توزيع الاستثمارات على المستهدفين من طائفة الدروز فيها فقط.

وتوزّعت عينة المتعلمين (480 متعلّمًا) في المرحلة الثانويّة بالتساوي وفقًا لمغيرات النوع الاجتماعي والقطاع التعليمي والدين أو الطائفة على الشكل التالي:

جدول رقم (2): توزع عينة المتعلمين في صفوف المرحلة الثانوية بحسب متغيرات البحث

المجموع	الدين أو الطائفة				النوع الاجتماعي		الصف
	مسيحيون	دروز	سنّة	شيعة	إناث	ذكور	
480	40	40	40	40	80	80	الثانوي الأول
	40	40	40	40	80	80	الثانوي الثاني
	40	40	40	40	80	80	الثانوي الثالث
					480		المجموع

يبين الجدول رقم (2) توزع العينة بالتساوي في كلّ من الصفوف الثلاثة في المرحلة الثانوية (160 متعلماً)، وبالتساوي وفقاً لمتغيري النوع الاجتماعي (80 ذكور، 80 إناث) والدين أو الطائفة (40 شيعة، 40 سنّة، 40 دروز، 40 مسيحي) في كلّ من هذه الصفوف.

وانطلقنا في بحثنا من الملاحظة المباشرة التي توفرت لنا من تعليم وتنسيق مادة «التربية الوطنية والتنشئة المدنية» في القطاع الرسمي ضمن العامين 2000 و2014، في منطقتي «برج البراجنة» و«الليلكي» اللتين يجمع بين معظم القاطنين فيهما ظروف عيش متشابهة، يعانون فيها الفقر والتهميش وانخفاض في نوعية الحياة ومستوى المعيشة، من الممكن أن تجعل تحقيق التربية الوجدانية والقيمية للتربية الوطنية يتأثر بحدّي النوع الاجتماعي والانتماء الديني أو الطائفي، وتتباين المكتسبات وفقاً لهما. وهذا التباين الذي سمحت لنا الملاحظة المباشرة بملاحظته لدى المتعلمين في المدارس نتابعه في أسئلة الاستمارات الثلاث (أحد عشر سؤالاً للثانوي الأول، ثلاثة أسئلة للثانوي الثاني، تسعة أسئلة للثانوي الثالث) التي جرى اختيار أسئلتها المرتبطة بالإجابة عن سؤال البحث الأساسي وأسئلته الفرعية والتحقق من فرضياته. وقد بدأ توزيع الاستمارات في النصف الثاني من شهر أيار 2018، وانتهى في الأسبوع الأول من شهر حزيران من السنة عينها.

ونلفت إلى أنّ مجموع الأسئلة التي اخترنا منها الأسئلة التي سنعرضها في الملاحق

أنظر الملحق رقم (1) والملحق رقم (2) والملحق رقم (3) كانت قد خضعت للتحكيم⁽¹⁾.
سابعاً: الأدبيات النظرية والدراسات السابقة

1 - الأدبيات النظرية

1 - 1 التربيّة الوجدانية والقيمية والتميز في النوع الاجتماعي والدين والطائفة

1 - 1 - 1 التربيّة الوجدانية والقيمية

تهتمّ العملية التعلّيميّة والتعلّمية لأية مادة تعليمية بالعمل على ثلاثة مجالات: المعرفي، والوجداني القيمي، والمهاري، لكنّ هذا البحث يركّز على المجال الوجداني من تعليم وتعلّم مادّة «التربيّة الوطنية والتنشئة المدنيّة» بحسب منهج 1997. فالمجال الوجداني يهتمّ بالأهداف التعلّمية التي تستهدف التعديل أو التغيير في الميول والاتجاهات والقيم: فالميول تعني الرغبة والاهتمام الذي يتولّد لدى المتعلّمين نحو الأنشطة ويُقاس بالملاحظة، وتُترجم الاتجاهات بشعور المتعلّم نحو موضوع أو مسألة ما سواء أكان الشعور إيجابياً أو سلبياً فيظهره في موقف، في حين أنّ القيم هي حالة داخلية يترجمها المرء بانفعالات متعلّمة ومفاهيم مجرّدة ومعايير وأسس تحكم المواقف والنشاطات، يضعها المجتمع للحكم على سلوك الأفراد المنتمين إليه وتصرفاتهم وأدائهم الفعلي (عواضة، 2018 والحيلة، 2016 و Jarolimek 1993). ويقصد فريحة (2005) بالتربيّة الوجدانية بناء القيم والمواقف والاتجاهات لدى المتعلّمين، ويعتبرها مكوناً أساسياً للتربيّة الوطنية والمدنيّة والأخلاقية، إذ يؤكّد أنّ المعارف والمهارات تمتلك أهمية كبرى في التربيّة الوطنية لكنها لا تبني متعلّماً يفتخر بانتمائه للوطن، ويبدل نفسه للمساهمة في بنائه، ويضحّي في سبيله. فعملية التعليم والتعلّم تستهدف المتعلّم بكلّه من عقل (المجال المعرفي) ووجدان (المجال الوجداني) وجسد (المجال النفس - حركي)، و«التربيّة الوطنية والتنشئة المدنيّة» شأنها شأن المواد كافة تتوجّه إلى الإنسان ككلّ، لكن لكلّ منها مجالاً تركّز العمل عليه بالدرجة الأولى، وتسخر له المجالين الآخرين.

ويشير الحيلة (2016) Wadsworth (1989) إلى صعوبة صياغة أهداف هذا المجال وصعوبة تقويمها الذي لا يُحقّق إلا بملاحظة سلوك المتعلّم أو سؤاله مباشرة. هذا الواقع في عملية التقويم، المرتبط أصلاً بصياغة الأهداف، دفع بالمعلّمين إلى

(1) جرى تحكيم الاستمارة من قبل: د. أسية المهتار قيس أستاذة مساعدة في قسم الاجتماعيات (الجامعة اللبنانية - كلية التربية)، الأستاذ ليون كلزي المنسق العام وخبير مؤلف في تطوير منهج المادة (2015) وعضو مشارك في لجنة امتحانات المادة في شهادة الثانوية العامة، والأستاذة وفاء القاضي رئيسة لجنة الامتحانات الرسمية للمادّة في شهادة الثانوية العامة وخبيرة مؤلّفة في تطوير منهج المادة (2015).

الابتعاد عنها، والتركيز على الأهداف التي تنتمي إلى المجال المعرفي. لكن خبرتنا في هذا الإطار تؤكد أن السؤال غير المباشر يُخرج أيضًا من المتعلم مواقف شفافية أكبر، ويحكم على القيم التي يحملها بصورة أوضح، ويكشف عن اتجاهاته بشكل أدق.

تتمايز الأديان بفروقات بينها وتتلاقى بفروقات بين الجنسين. والتمايز تبعًا للنوع الاجتماعيّ مبدأ ذو مقاربتين متناقضتين: تقرّه الأديان وعلوم التربية، وترفضه الدساتير والاتفاقيات والمواثيق والقوانين الدولية، وعلى رأسها القانون الدولي الذي هو «منظومة من القواعد الدولية المصمّمة لحماية وتعزيز حقوق الإنسان للجميع. وهذه الحقوق، الطبيعية لدى بني البشر كافة، بصرف النظر عن جنسيتهم أو مكان إقامتهم، أو نوع جنسهم، أو أصلهم القومي أو العرقي، أو لونهم، أو ديانتهم، أو لغتهم، أو أي مكانة أخرى، حقوق مترابطة ومتداخلة وغير قابلة للتجزئة» (الأمم المتحدة لحقوق الإنسان والأمم المتحدة لحقوق الإنسان، مكتب المفوض السامي، 2011، ص5). وتتلاقى المواطنة مع رفض التمايز الذي تقرّه الاتفاقيات والقوانين الدولية، حيث تهتم بالتأكيد على الممارسة الكاملة للحقوق والواجبات المدنية والسياسية، والمشاركة في وضع القوانين والقواعد والنظم التي ترعى هذه الحقوق وتنظّم القيام بالواجبات، من دون أي تمييز يرتبط بالنوع الاجتماعيّ أو العرق أو الطائفة بين المنتمين إلى الوطن الواحد (القاعي، 2004).

2-1-1- التمييز في النوع الاجتماعيّ

لقد انتشر مفهوم النوع الاجتماعيّ كبديل عن الهوية الجنسية (الجامعة اللبنانية، والجامعة اللبنانية - معهد العلوم الاجتماعيّة، وصندوق الأمم المتّحدة للسكان - حزيران 2018)، وبدأ استخدام مصطلح «الجنس» و«النوع الاجتماعيّ» منذ ما يقارب الثلاثة عقود إننيًا، ويُقصد به «اختلاف الأدوار (الحقوق والواجبات والالتزامات) والعلاقات والمسؤوليات والصور، ومكانة المرأة والرجل التي يتمّ تحديدها اجتماعيًا وثقافيًا عبر التطور التاريخي لمجتمع ما، وكلها قابلة للتغيير». ويُعتبر استخدام مصطلح النوع الاجتماعيّ خطوة أساسية في السعي لتحقيق المساواة بين المرأة والرجل، من خلال زيادة مشاركتها في المجتمع (صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة والمكتب الإقليمي للدول العربية 2001). وهذا التبدّل المفهومي يضعنا أمام مقاربات فلسفية شديدة التأثير في عملية تغيير مستقبل الإنسان والمجتمعات المعاصرة. (الجامعة اللبنانية،

والجامعة اللبنانية - معهد العلوم الاجتماعيّة، وصندوق الأمم المتّحدة للسكان - حزيران 2018).

يلتزم لبنان الأجندة التنموية 2030 والهدف التنموي في العام 2030 لصندوق الأمم المتحدة للسكان المتمثل بالمساواة بين الجنسين «من خلال سعيه الى تخطّي الوظيفة البيولوجية...الى الجوهرية الفعلية كإنسان» (الجامعة اللبنانية، والجامعة اللبنانية - معهد العلوم الاجتماعيّة، وصندوق الأمم المتّحدة للسكان - حزيران 2018، ص4).

وانطلاقاً من التزام هذه الأجندة أكّد بيان حكومة 2016 على الالتزام بالعمل على «تعزيز دور المرأة في الحياة العامّة... والحرص على تعزيز مشاركة المرأة، في الحياة السياسية، كما العمل على إنجاز خطة استراتيجية لشؤون المرأة تشمل إطلاق ورشة عمل لتنزيه القوانين بهدف القضاء على التمييز ضدّها، والتقدم بمشاريع قوانين جديدة تحقيقاً للعدالة والمساواة بين الجنسين، وتنفيذاً للتعهدات التي التزم بها لبنان» (الجامعة اللبنانية، والجامعة اللبنانية - معهد العلوم الاجتماعيّة، وصندوق الأمم المتّحدة للسكان - حزيران 2018، ص22). ويرى التقرير الذي أعده معهد المواطنة وإدارة التنوّع ومؤسسة أديان عن حوار المجتمع المدني حول المواطنة في لبنان وأبعادها أنّ «التمتية لا تتحقق بمفهومها العلمي والشامل، وبعدها المحلي والوطني، إلا من خلال مشاركة جميع العناصر الفاعلة في المجتمع» (2016، ص58). والمشاركة الفاعلة في المجتمع تقتضي البعد عن الإقصاء حيث يمكن المشاركة بفعالية، وتكامل الأدوار حيث يصعب القيام بالعمل ذاته والوصول إلى مستوى الفعالية نفسها في العمل.

إنّ القضاء على التمييز ضدّ المرأة يستوجب المشاركة التي تعني «الاعتراف بالحقوق المتساوية للجماعات والأفراد على السواء، وعلى القبول بالآخر والتعامل معه بوصفه متكافئاً ومتساوياً مع جميع نظرائه، بصرف النظر عن الجنس أو الدّين أو العرق» (شرف الدّين، 2004، ص128). وهذا القضاء على التمييز قد يقف بوجهه ما أظهرته الأبحاث العلمية في القرن الحادي والعشرين، ويتناقض مع نتائج البحوث في السبعينيات من القرن الماضي من عدّة نواحٍ نذكر منها: إنّ القيام بالعمل نفسه يجعل خلايا مختلفة في دماغ كلّ من الرجل والمرأة تعمل، هذا الأمر يعني أنّ طريقة عمل الدماغ لدى الرجل مختلفة عن المرأة. كما أنّ تخزين المعلومات في الذاكرة البعيدة المدى مختلفة بين المرأة والرجل وأقوى عند الأخير، بينما يتعكس

الأمر بالنسبة للذاكرة القصيرة المدى، ونسبة الإبداع عند الرجل أعلى من المرأة، ودماع الرجل أثقل من دماغ المرأة في الوزن بنسبة 10 % إلى 20 % في بعض الأحيان، لكن نسبة هذا الوزن لدى المرأة أكبر منه لدى الرجل، وأن خلايا الدماغ لدى الرجل تضرر بسرعة أكبر منها لدى المرأة. (الكحيل، لا تاريخ). ومهما تكن نتائج الأبحاث فإنه ليس من مهمة البشر محاسبة المرأة أو الرجل أو كليهما عن كيفية الأداء، بل عن النتيجة التي تظهر للعيان، حيث يضحى غياب المساواة جرماً وتمييزاً وليس تمايزاً.

تعتبر الحلو (2004، ص17) أن «المشرع اللبناني أعطى المرأة حقوقها السياسية كاملة غير منقوصة عام 1953». لكن الثغرات التي شهدتها قوانين الانتخاب وقوانين الأحوال الشخصية في لبنان تحول دون تطبيق المساواة الفعلية بينها وبين الرجل. وهذه الوقائع قد تتلاقى مع ما أشار إليه مخايل (2014، ص16) بأنه «يمكن تسجيل تقدّم ملحوظ لوضع المرأة العربية خلال فترة 2006-2013 في مجالي التعليم والصحة، غير أن ما حقّفته من مكاسب لم يترافق مع تقدّم مماثل في مجالي العمل والسياسة»، ومع ما أشار إليه لاحقاً تقرير معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية وصندوق الأمم المتحدة للسكان (حزيران، 2018) بأن التمييز في النوع الاجتماعي بدأ يتحسن لصالح المرأة، لكنّه مازال واضحاً لصالح الرجل في نواحي الحياة الثقافية والمعيشية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنصوص القانونية. لكن شرف الدين (2014، ص128) تؤكد أن واقع مشاركة المرأة في صنع القرار «أعقد كثيراً مما يظهر على السطح أو تبرزه المظاهر، هو واقع يتناقض مع كلّ ادعاءات الحداثة الشكلية التي تغلف الحياة اللبنانية».

إنّ هذا الواقع للتمييز في النوع الاجتماعي الذي يأتي لصالح الرجل مقابل المرأة العربية عموماً والمرأة اللبنانية خصوصاً يتأثر بوضعها ومكانتها والتمييز بينها وبينه بالعادات والتقاليد (بدران، 2017). ويشير اشتي (2015) إلى أنّ توزيع الأدوار في المجتمع قام على التمييز بين المرأة والرجل، بحيث اكتسب الأخير الأولوية والنفوق نتيجة مهمته المحددة بالإنتاج خارج المنزل، في حين اتّسم وضع المرأة بالانكسار من خلال حصر مهمّتها بإنجاب أطفالها وتربيتهم والخضوع لزوجها. كما يعتبر اشتي (2015) أنّ الموروثات الثقافية في لبنان وفي العديد من الدول العربية تشهد «الكثير من الأحداث والوقائع والسلوكيات التي تعكس نوعاً من العدائية الصارخة تجاه المرأة،

إلى درجة تكاد تنفي وجودها ككائن بشري“ (ص14). وتشاطره الحسيني (2015م/1436هـ) القول بعرض ما أشارت إليه الحركة النسائية في لبنان عن تقسيم الأدوار، واختلال التوازن في تربية الذكر والأنثى، والتحوّل في الدور التقليدي للمرأة من عمل منزلي وتربوي إلى مطلب التعليم وإلزاميته الذي بدأ منذ الربع الأول من القرن العشرين، ولم يكتمل بشكل نهائيّ حتى مع إقرار التعليم الإلزامي والمجاني في نهاية القرن العشرين، نتيجة المعوقات السياسية وغياب التخطيط على المدى القصير والطويل، ناهيك عن هدر الموارد المخصّصة لتمويل حقّ التعليم الإلزامي المجاني. وهنا يتساءل حطب ومكي (1978) منذ نهاية السبعينيات من القرن العشرين حول سبب بقاء النساء ضمن دائرة رقابة الأسرة والعائلة بالرغم من تعلّمهنّ ومزاولتهنّ للعمل. لكنّ الواقع الذي نعيشه اليوم لا بدّ أنه يتبدّل ويتّفق مع الوقت حيث إنّ كلّ جيل يحمل بعضاً من أفكار تجاوزه لقيود النّوع الاجتماعيّ إلى الجيل اللاحق.

وتؤكّد منظمة العمل الدولية في دليل تفتيش العمل والمساواة في النّوع الاجتماعيّ وعدم التمييز (2014، ص21) أنّه «لا تزال الأطر القانونية في الدول العربية ضعيفة من حيث المساواة بين الجنسين وعدم التمييز». وهنا يُفترض على المرأة أن تدخل فعلياً للعبة السياسية للنجاح فيها، لكنّ مقوماتها كامرأة لا تؤهلها للمشاركة في الدورة السياسية التقليدية (فياض، 2004) ما يؤثّر على مشاركتها في الشأن العام بقوة، ويقلّل من مستوى الوصول إلى مشاركة فعّالة وشاملة. ويعتبر حطب (2004) أنّ الواقع المتردّي الذي تعيشه المرأة اللبنانية، لجهة ضعف مشاركتها في الحياة العامّة أو المواقع التي تحتلها في المجتمع، أو ضعف مشاركتها وهامشية تمثيلها، لا يرجع إلى الشؤون الإدارية وإتّما يعود لمسار تاريخي طويل عاشت المرأة خصائصه ولم تقاومها. وعلى الرّغم من التزام الحكومة (2016) في بيانها على تعزيز دور المرأة في شتى الميادين، فإنّنا نرى أنّ هذه المهمة تسعى إليها النساء بأنفسهن وليس الحكومة والسياسة.

3-1-1- التمييز في الدين أو الطائفة:

يعطي الدستور اللبناني (1990) في مادته العاشرة الطوائف الدّينية الحق بإنشاء مدارسها الخاصّة.

فالدستور اللبناني المعدّل 1990 وفق وثيقة الوفاق الوطني ساوى بين المواطنين أمام القانون، لكنّ الواقع أنّ المساواة مفقودة إذا كان الأفراد ينتمون إلى طوائف

مختلفة، واللبنانيون ما زالوا يتمرغون في وحل حقوق الطوائف، إذ إنّ اللبناني ملتصق بدينه وممارسته للتدين عبر طائفته (عواضة، 2005).

يعرّف فريحة (2002، ص34) الطائفة «بأنّها جماعة منظمة من الناس يمارسون معتقداً دينياً بوسائل وطرائق وفنون معينة. فهي تجمع ديني في الأصل والممارسة والغاية». إذ إنّ الشعور الديني فطريّ، وهذه الميزة أكسبتها هيمنة تقبلها من الملزمين باستسلام، ولا غرابة أنّ التخصّص في هذه المسألة دفعت بمفكرين ومنهم ماركس إلى إطلاق مقولته الشهيرة «الدين أفيون الشعوب» (شريف، 1432هـ-2011م).

فالطفل يرث بالمبدأ معتقد أولياء أمره، وهؤلاء يختارون له مؤسسة تعليمية تتماهى أهدافها العامة مع هذا المعتقد إذا سمحت لهم ظروفهم الاقتصادية بالاختيار (عواضة، 2005). إذ تؤكد إحصائيات المركز التربوي في العام 2009 أنّ هناك 70 % من المتعلمين في لبنان يلتحقون بمدارس خاصّة أنشأتها أو تديرها الطوائف التي ينتمون إليها (خليفة، 2014). هكذا يتبين أنّ النظام التعليمي مصنع لإنتاج الطائفية.

ويرى نصّار (2005، ص21) أنّ الدولة التي تتعدّد فيها الانتماءات العقائدية لأفرادها وتعرّف المواطن بانتماؤه الإيماني والعقائدي تنتج في بعض الأحيان فئتين: «فئة المواطنين من الدرجة الأولى، وفئة المواطنين من الدرجة الثانية، وفي أحوال أخرى إلى العيش في خضم القهر والحدق المكبوت واللاإستقرار». لكن فريحة (2017) لا يرى أنّ الانتماء إلى دين وطائفة أو أي انتماءات أخرى يشكّل أية مشكلة على المواطنة إلا إذا أضحي هذا الانتماء أهمّ من الانتماء إلى الوطن، في حين يشير إلى أنّه « لا بدّ من القول أنّ النظام التربوي الحرّ، وحتى المتقلت في لبنان، سمح لنسبة من المدارس بتشجيع الطائفية لدى طلبتها، من خلال تصوير الآخرين من مذهب أو دين آخر بأنهم خونة، أو كفرة، أو غير ذلك. كذلك تعكس المدارس اللبنانية بحسب انتماءاتها الدينية الاختلاف حول هويّة الوطن» (ص36).

يُسهّم نظام التعليم في لبنان في إنتاج المجتمع الطائفي من خلال مؤسساتها التعلّيمية. وترتّب هذه المؤسسات التعلّيمية أجيالاً أسيرة العصبية الدينية الطائفية والمذهبية، ومنقادة وراء تبعياتها السياسية الدينية بعيداً عن الانتماء الوطني (خليفة 2014). ويرى هوارى (1435هـ/2015م) أنّ الخلل في النظام التربوي اللبناني الحالي ليس وليد مرحلة الاستقلال بل وريث النظام الطائفي الذي تركه العهدان العثماني والفرنسي، فصبغ التعليم العامّ الخاصّ بصبغة نظامه السياسي المتبع في البلدان

الخاضعة لسلطته آنذاك. وفي هذا المجال يتابع فريحة (2017، ص31) أن « تجذّر الطائفية لدى أجيال اللبنانيين كان وما زال عامل تقنيت لمجتمع الدولة الحديثة، فضعت مقومات المواطنة لصالح المجتمعات الشخصية كالأُسرة والطائفة».

فقد أظهرت إحدى الدراسات أن مواجهة التعصب (14 %) هي أقل القضايا التي يتقيّد بها اللبنانيون إلى حدّ النزول إلى الشارع، والمساواة بين الرجل والمرأة (25 %). (المركز اللبناني للدراسات، 2004). ويرى تقي الدين (2004، ص29، 30) أن اللبنانيين « لم يبلوروا الكثير من المشتركات التي قد تكون أساساً لوحدة المجتمع نظراً إلى هذه التجزئة التي يفرضها النظام الطائفي التي تمثل مصادر أساسية لخلخلة الوحدة الوطنية وتعرضها للاهتزاز». وهنا تأتي « التربيّة على قبول الآخر المختلف أفضل حصانة لنا، وهي من مقومات بناء مواطنتنا، ومن شروط الأمن الداخلي والاستقرار والازدهار والإبداع في كلّ ميادين حياتنا الشخصية والجماعية. (مغيزل نصر، 2004، ص88). كما أن «مؤسسات الدولة حتى الآن لم يتم بناؤها كمؤسسات وطنية، بل هي ما زالت أدوات لتنظيم التوازن السياسي الجديد بين الطوائف، وليس لتنظيم الدولة والمجتمع» (تقي الدين، 2004، ص30).

ويلفت فريحة (2017) إلى أن « تقديم لبنان كنموذج لمجتمع طائفي لا يعني أن باقي الدول العربية لا تعاني من هكذا مشكلة. لكن الفرق أن الطائفية قديمة في لبنان ومتجذّرة» (ص36) في حين أنها حديثة العهد في الدول العربية الأخرى بما يشكّل إضعافاً للمواطنة وترتباً بالآخر المختلف. وهكذا يكون من الممكن الكلام عن المواطن اللبناني كنموذج عن المواطن العربي.

1 - الدراسات السابقة

إنّ الأبحاث الميدانية والدراسات السابقة ذات العلاقة بالتربيّة المواطنة أضحت عديدة، ومعظمها لحظت دراسة تباين النتائج وفقاً لاختلاف جنس المستهدفين من العيّنة، والقليل منها لحظ التباين باختلاف المناطق، وما يستتبعه من اختلاف الانتماءات أو التصنيفات الاجتماعية ذات التأثير على التربيّة المواطنة. كما كانت المقاربات في قراءة نتائج هذه الأبحاث وتلك الدراسات تنطلق من النوع الاجتماعي، والانتماء المناطقي أو العرقي أو المناطقي كمتغيّر من المتغيرات تتباين النتائج للموضوعات المطروحة وفقاً للاختلاف في النوع الاجتماعي والانتماء، وليس الانطلاق من الموضوعات التي يتأثر التباين فيها بحدود النوع الاجتماعي أو الانتماء.

وعليه، فالأبحاث ذات الارتباط بجانب أو بأخر من جوانب بحثنا أضحت كثيرة العدد، ولا يصلح هذا المقال لعرضها ما جعلنا نقتصر في هذا المجال على الدراسات ذات الارتباط بالتربية الوطنية والتأثير فيها لجهة دراسة تأثير حدي النوع الاجتماعي والانتفاء الديني.

1-2-الدراسات العربية

هدفت دراسة فيصل (2015) إلى الكشف عن طبيعة العلاقة بين التدين والمواطنة لدى الطالب الجامعي في الجزائر وفقاً لمتغيري النوع الاجتماعي والتخصص. واعتمد الباحث المنهج الوصفي. وتوزعت أداة البحث المتمثلة بمقياسين، لم يرفقهما الباحث بالبحث، على عينة من 13 طالباً و29 طالبة من جامعة سطيف، تراوحت أعمارهم بين 19 و55 عاماً. وأكدت النتائج وجود علاقة ارتباطية إيجابية ذات دلالة إحصائية بين سلوك التدين وسلوك المواطنة من دون أن يكون لمتغيري النوع الاجتماعي والاختصاص تأثير على النتائج.

تمحورت إحدى جلسات ورشة عمل في العام 2009 حول عرض نتائج دراسة إحصائية قام بها خليفة بهدف الكشف عن الانتفاء الجماعي، كما يعبر عنه 936 متعلماً من 22 ثانوية جرى اختيارها عشوائياً من مدارس رسمية وأخرى خاصة علمانية أو خاصة تابعة للطوائف المسيحية أو الإسلامية (خليفة، 2018). وقد استخدم الباحث الاستمارة. وكشفت الدراسة عن تشابه في إجابات المتعلمين عن السؤال المرتبط بشعور الانتفاء الجماعي، وأن شعور الانتفاء الوطني أعلى في المدارس الرسمية؛ في حين أن الانتفاءات ما فوق الوطنية أو ما دونها أعلى في المدارس الطائفية المسيحية أو الإسلامية، إضافة إلى تأثير فئة المدرسة على التزام المتعلمين في الحاضر والمستقبل بالجمعيات أو الأحزاب أو النوادي المختلفة.

دفت دراسة فريحة (2002) التي يبدو أنها اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي إلى قياس مستوى توافر العناصر الأساسية للتربية الوطنية لدى متعلمي الصف الثانوي الثالث في المدارس اللبنانية، وقد تم اختيارهم بشكل عمدي لمعرفة ما اكتسبوه من عناصر المواطنة المتمثلة بالمعارف، والمهارات، والمواقف، والالتزام بالمجتمع والوطن وقضاياها. وقد استخدم الباحث الاستمارة كأداة للبحث، وقد شملت الاستمارة 6 أسئلة تفرّعت إلى بنود وصلت بعدد الأسئلة إلى 111 سؤالاً توزعت من حيث الشكل، على أنواع عديدة من الأسئلة تقيس معارف المتعلمين من مستويات معرفية متعدّدة،

وغيرها من الأسئلة التي هدفت إلى استطلاع الآراء وكشف المواقف والقيم، والتعرّف على مدى مشاركتهم بأنشطة وشؤون الجماعة التي ينتمون إليها... إذ بلغت العينة التي تمّ احتساب نتائجها 1205 متعلّماً، توزّعوا بشكل متفاوت بحسب متغيرات النوع الاجتماعي والقطاع والذين على 15 مدرسة خاصة و26 مدرسة رسمية موزّعة على المحافظات الخمس في لبنان. وقد بيّنت النتائج أنّ اكتساب المعرفة عند المتعلّمين يتأثر بمتغيرات النوع الاجتماعي والقطاع التعليمي، والدين، وثقافة الأهل، وأن مواقف المتعلّمين السياسية تتأثر إيجابياً بمعارفهم. ولم تتباين المواقف السياسية وفقاً لجنس المتعلمين، لكن المواقف الاجتماعية والدينية شهدت اختلافاً بين النوع الاجتماعي فكانت الإناث أكثر إيجابية من الذكور. وقد تأثرت النتائج بالخلفية الاقتصادية ما نتج عنه تمايزاً وفقاً لمتغير القطاع لصالح المدرسة الخاصة. كما أن المواقف الإيجابية نحو الانتماء والشعور الديني تتأثر بمستوى الأهل. كما طلب فريحة في هذه الدراسة التي أجراها في العام 1997 الإجابة عن أحد أسئلة الاستمارة أن «رتب بحسب الأفضلية لك المفاهيم التالية: الوطن، الحزب، العائلة، الطائفة، والمنطقة الجغرافية». وكانت الإجابات في دراسة (2017، ص36-35) مفاجئة إذ احتلت العائلة الأفضلية الأولى لدى الطلبة بنسبة 48.5 %، تليها الطائفة 33.5 %، ثم الوطن بنسبة 10.5 %، وبعدها (ص35) المنطقة 5.5 %، وأخيراً الحزب السياسي بنسبة 2 %.

نشرت خضر (2000) دراسة هدفت إلى التعرّف على دور التعليم في تعزيز مفهوم الانتماء في مرحلة التعليم الأساسي في مصر والعوامل المؤثرة فيه، في محاولة لوضع رؤية حول كيفية تعزيزه. وقد أعدت الباحثة مقياسين؛ أحدهما يقيس الاتجاه نحو الانتماء والآخر يقيس الموقف منه. وقد شملت عينة البحث عشر مدارس (3 رسمية، 4 خاصة، 3 معاهد أزهريّة)، وبلغ عدد أفرادها 615 متعلّماً ومتعلّمة من الصف الثالث في الحلقة الثانية بمحافظة القاهرة. واستخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي. وقد بيّنت النتائج أن الغالبية يميلون نحو الالتزام بالقوانين واللوائح والنظم والولاء بالسلوك والممارسة مع غياب إدراكهم لمفهوم القدوة وافتقادها في ممارسات الكبار معهم، و80 % قالوا بالانتماء على مقياس الموقف من الانتماء.

2-2- الدراسات الأجنبية:

هدفت الدراسة النوعية التي قام بها كينغ مان شو King Man Chong

(2012) إلى الكشف عن إدراك المشاركين لهويتهم الوطنية، وتطور هويتهم الوطنية قبل العام 1997 وبعده، وإدراكهم للتربية الوطنية، وأهدافهم وطرائقهم وتقويمهم في تعليم التربية الوطنية لعشر نماذج قسدية من معلمي المدارس الثانوية في هونغ كونغ في العام الدراسي 2009-2010؛ باعتبار أن هذه المرحلة تحضر المتعلمين ليكونوا الشباب المواطنين. وقد تنوع المستجوبون وفقاً لمتغيرات الدعم المالي والدين والمنطقة. وكشفت النتائج عن تباين في إدراك المعلمين لهويتهم الوطنية، وأن الزيادة في الإحساس نحو الهوية الوطنية الصينية لا تستبعد الإحساس بالهوية الوطنية لهونغ كونغ، كما تأثرت الهوية الوطنية والتعبير المدني والقانونية بالعرق والمنطقة الجغرافية والثقافة، وبالجوانب الشخصية والسياسية والاجتماعية، كما تنوعت بينهم الأهداف وأصول التربية والطرائق والتقويم في تعليم التربية الوطنية.

هدف بحث كل من شانك Schunke وكروفس Kropfs (1982) إلى الكشف عن نقل المعرفة للمتعلمين بالقيم الاجتماعية في المرحلة الابتدائية في مدارس فلوريدا. وشملت العينة عشرة متعلمين من كل صف طلب إليهم ترتيب القيم التي قدمت لهم حسب أهميتها، مع إعطاء تعريف لها ومثال عنها. وقد استخدم الباحثان المنهج الوصفي التحليلي. وأكدت الدراسة وجود دلالات بين المتعلمين في مختلف الصفوف في ترتيبهم للقيم الاجتماعية، مع غياب ترتيبها من حيث الأهمية في الصف الواحد، وغياب الدلالات في ترتيبها بين السود والبيض.

قام ألبرتو ف. كابريرا Alberto F Cabrera وآخرون (2002) ببحث شملت عينته 2050 طالباً موزعين على 23 معهداً. وقد تداخلت في اختيار أفراد العينة متغيرات القطاع والنوع الاجتماعي واللون (السود) والاختصاص (من أولئك القادمين من صف freshman في العام 1992) صرحوا أنهم قد درسوا الثانوية العامة في ثانويات مختلطة لجهة العرق واللون الأبيض وأهاليهم ممن تلقوا بعض التعليم في الثانويات. وقد أظهرت النتائج التأثير الإيجابي للتعلم التعاوني على التحصيل التعليمي، والانفتاح على التنوع.

يتضح من الدراسات السابقة العربية والأجنبية أن جميعها استخدم المنهج الوصفي التحليلي، ومعظمها استخدم الاستمارة كأداة، ومعظمها توجه بالبحث للمتعلمين كعينة، وبعضها جمع بين متغيري النوع الاجتماعي والدين والطائفة في البحث، وبعضها استهدف الانتماء العرقي. لكن التمايز الذي يتصف به هذا البحث يتمثل في العينة

والحيّز الزمني والحيّز المكاني المتمثّل بالمنطقة الجغرافية، ومقاربة قراءة النتائج وتحليلها لجهة تأثير النّوع الاجتماعيّ والدّين والطائفة كحدّين أساسيين وحيدين على التّربيّة الوجدانية والقيمية للمتعلّمين/ المواطنين في المرحلة الثّانويّة.

ثامناً - نتائج البحث الميدانية: التّربيّة الوجدانية والقيمية للتّربيّة المواطنة بين حدّين: النّوع الاجتماعيّ والدّين والطائفة

تعرض نتائج البحث الميدانية لصفوف السنوات الثلاث التي تشكّل المرحلة الثّانويّة والحلقة الرابعة والأخيرة من التعليم التعليم العام. إذ تسمح المعالجات الإحصائية بالكشف عن وجود دلالات إحصائية أو غيابها أيّا كانت الإجابة، وسنقتصر على عرض نتائج المعالجات الإحصائية للأسئلة التي كشفت عن وجود دلالة إحصائية وفقاً لحدّي النّوع الاجتماعيّ، والدّين والطائفة، من ثمّ تأتي الجداول الإحصائية لتكشف إجابات المستجوبين، وتبيّن نوعية التّربيّة الوجدانية والقيمية للتّربيّة المواطنة. ولا يعنينا في الإجابات ما يتّصل منها بالمجال المعرفي، بل ما يُبنى عليه من قيم واتجاهات ومشاعر تعكس التّربيّة الوجدانية والقيمية للتّربيّة المواطنة.

1 - الثّانوي الأوّل

تضمّ استمارة الثّانوي الأوّل أحد عشر سؤالاً من المحاور السبعة لكتاب صف السنة الأولى، والتي تشكّل جذعاً مشتركاً للمتعلّمين جميعهم الوافدين من السنة الأساسية التاسعة والناجحين في شهادة المتوسطة الرسمية، أو أولئك الذين لم يوفّقوا في اجتياز الثّانوي الأوّل في العام السابق.

1 - 1 نتائج المعالجة الإحصائية

جدول رقم (1) نتائج المعالجة الإحصائية للصف الثّانوي الأوّل

المحور	السؤال	الدّين أو الطائفة	
الثّانوي	هل أنت منتسب (ة) إلى إحدى الجمعيّات الأهلية؟	كأي تربيع	قيمة الدلالة (SIG)
		9.045	0.029
			مستوى الدلالة
			0.05

أظهر السّؤال المرتبط بإذا كان المستهدف (ة) منتسب (ة) إلى إحدى الجمعيّات الأهلية دلالة إحصائية وفقاً للطائفة والدّين من دون أية دلالة وفقاً للنوع الاجتماعيّ، ربّما لارتباط معظم المؤسّسات الأهلية بخلفيات ذات انتماء ديني أو طائفي. أما الأسئلة الأخرى فلم تحمل دلالات إحصائية سواء لجهة الاختلاف في النّوع الاجتماعيّ أو

الدين والطائفة، ما قد يعود إلى أن مؤسسات المجتمع المدني الممكن لهذه الشريحة العمرية الانتساب إليها تتمثل بجمعيات الكشافة المرتبطة معظمها، إن لم نقل جميعها، بخلفيات دينية.

1 - 2 نتائج الجداول الإحصائية
جدول رقم (2) نتائج أسئلة محور حرية الرأي والتعبير والفائدة منها وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة

المحور	السؤال	النوع الاجتماعي		الدين والطائفة			
		ذكور	إناث	شيعي	سني	درزي	مسيحي
حرية الرأي والتعبير والفائدة منها. المحور الأول	هل توافقي (بن) على أن حرية الرأي والتعبير يجب أن تكون مقيدة بضوابط وقيود؟	نعم	67.5	73.8	65	80	65
		كلا	32.5	26.2	35	20	35
	هل ترى (بن) فائدة من التعبير عن رأيك بشأن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية؟	نعم	63.8	59.5	65	75	55
		كلا	36.2	40.5	35	25	54

لم تكشف المعالجات الإحصائية دلالات لهذين السؤالين وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة، لكن النتائج التي يبينها السؤال رقم (1) تبين ثقافة مدنية معقولة لكنها ليست عالية، وهي أعلى لدى الإناث (73.8%) مقارنة بالذكور (67.5%). هذه الإجابات لا نراها تتناقض مع التربية والثقافة الموروثة حيث اعتادت الإناث على تقييد الحريات، بما فيها حرية الرأي والتعبير (حطب ومكي، 1978 واشتي، 2015 والحسيني، 2015)، وإذ نجدها تنفع إذا كان منطلق الإجابة يأتي من باب أن الحرية لا تعني الفوضى، لكنها لا تنفع إذا كانت قد أتت من عقول تربت على الطاعة العمياء. وإذا نظرنا إلى الإجابات عن السؤال الثاني المرتبط برؤية المستهدفين فائدة من التعبير عن الرأي، نجد أن ثقل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأداء السياسي ينعكس مجتمعاً بشكل سلبي على الشأن الثقافي ما أوصل المستهدفين بالنسب الدنيا لكنها بالبارزة (36.2% ذكور، 40.5% إناث) إلى اليأس من رؤية فائدة من التعبير عن رأيهم بشأن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية. فالتربية الوجدانية والقيمية المحصلة من التربية الوطنية لا يحدها النوع الاجتماعي أو الدين والطائفة لغياب الدلالة الإحصائية، لكن النسب المبيّنة في

الجدول الإحصائية لا ترتقي إلى المستوى المؤمل في هذا المجال. وما نحن نشهد في هذه الأيام حراكًا مطلبياً يشارك فيه هؤلاء المتعلمون، وي طرحون في أبرز مطالبهم تعديل المناهج التي لا تكسبهم المواطنة الحقيقية. وفي الواقع ليست المناهج هي تلك العقبة الأساسية، بل عملية التعليم والتعلم لهذه المادة بكافة متطلباتها، ومقاربة طرحها على المتعلمين.

جدول رقم (3) نتائج أسئلة محور المشاركة في الشأن العام ومؤسسات المجتمع المدني وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة

	المحور	السؤال	النوع الاجتماعي		الدين والطائفة				
			ذكور	إناث	شيعي	سني	درزي	مسيحي	
المحور الثاني	المشاركة في الشأن العام ومؤسسات المجتمع المدني	كيف تنظر(ين) إلى المشاركة في الانتخابات الخاصة والعامّة؟	حق	34.2	43	27.5	38.5	56.4	32.5
			واجب	7.6	6.3	7.5	10.3	2.6	7.5
			حق واجب	58.2	50.6	65	51.3	41	60
			نعم	18.8	15	30	10	7.5	20
			كلا	81.2	85	70	90	92.5	80
		هل أنت منتسب (ة) إلى إحدى الجمعيات الأهلية؟							

ليست المشاركة في الانتخابات الخاصة والعامّة من الناحية المعرفية ما تعيننا من عملية تعليم وتعلم هذه المادة، بل ما يتأسس على هذه المعارف من أن الانتخاب حق وواجب؛ ونظرة المستهدفين إليها بما يعكس التربيّة الوجدانية والقيمية التي يحملونها وتبينها إجاباتهم. ونلاحظ في النسب المبيّنة أنها تكاد تصل إلى المناصفة بين من ينظر إلى الانتخاب كحق وواجب (58.2% ذكور، 50.6%) ومن تتوزّع إجاباتهم إما على اعتباره حقًا، أو اعتباره واجبًا، ما يبيّن معرفة مشوّهة تنعكس ممارسة ناقصة لهذا الحق، وتؤثر في تبنّي اتجاهات إيجابية، فكيف الحال لمن لا يعي أن الانتخاب حقّ له، يشارك من خلاله في إدارة الشأن العام، وواجب عليه يتوجّب القيام به تجاه وطنه للمساهمة في دعم المرشّحين الصالحين لبناء الوطن، لتمثيله في إدارة الشأن العام وأن تكون مشاركته فعّالة؟

ولا نلاحظ في توزّع الإجابات على السؤال الثالث وفقاً للدين والطائفة ما يختلف عن توزّعها وفقاً للنوع الاجتماعيّ ما خلا النسبة المتدنية عن النصف للدرز (41%) ممّن يعتبرون الانتخاب حقًا وواجبًا مقابل الآخرين (65% شيعية،

51.3 % سنّي، 60 % مسيحي).

ويأتي السؤال الرابع وحده ضمن أسئلة استمارة الصف الثانوي الأول ليحمل دلالات إحصائية وفقاً للدين والطائفة، ولا يحملها وفقاً للنوع الاجتماعي؛ حيث يتبين أنّ الثقافة المدنية لجهة الانتساب إلى إحدى الجمعيات الأهلية، بما يحمله من مساهمة في بناء المجتمع والوطن والتربية على «التربية الوطنية والتنشئة المدنية»، ضعيفة جداً لا تتخطى 18.18 % ذكوراً و 15 % إناثاً.

ولا تأتي الصورة أفضل بما تحمل من تباين ذي دلالة إحصائية وفقاً للدين والطائفة، حيث نجد أن النسب الدنيا، وبشكل بارز، من المستهدفين منتسبين إلى إحدى الجمعيات الأهلية لكن المستهدفين من المتعلمين الشيعة هم النسبة الأعلى (30 %) الذين ينتسبون إلى كشافة، يليهم المسيحيون (20 %)، ومن ثمّ السنة (10 %)، فالدرّوز (7.5 %). هذه النتائج قد تعكس واقع التعبئة الدينية المرتبطة بمؤسسات أهلية كالكشافة، تحمل من ضمن أهدافها ما يسهم في بناء المجتمع المحلي.

جدول رقم (4) نتائج أسئلة محور مقاومة الظلم والاستبداد والاحتلال والعدوان وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة

الدين والطائفة		النوع الاجتماعي		السؤال		المحور
مسيحي	درزي	سني	شيعي	إناث	ذكور	مقاومة الظلم والاستبداد والاحتلال والعدوان
47.5	45	30	44.7	40	43.6	ما هو الشكل الأمثل برأيك لمقاومة الظلم والاستبداد؟
30	35	50	42.1	41.2	37.2	
22.2	20	20	13.2	18	19.2	
22.5	27.5	12.5	35	31.2	17.5	ما هو الشكل الأمثل برأيك لمقاومة الاحتلال والعدوان؟
65	52.5	75	37.5	50	65	
5	7.5	0	10	6.2	5	
7.5	12.5	12.5	17.5	12.5	12.5	

لم تحمل المعالجة الإحصائية دلالة على السؤال المرتبط بالشكل الأمثل برأي المستهدفين لمقاومة الظلم والاستبداد. وتبدو الفوارق في نسب الإجابات بين الذكور والإناث غير ملحوظة، لكن الإناث يتوجّهن بنسبة أعلى قليلاً إلى المحاكم بما يتلاقى مع تكوينهن الخلقي والخلقي (اللجوء الى المحاكم: 41.2 % إناث، 37.2 % ذكور) مقارنة بالذكور الذين يتوجهون أكثر إلى التظاهر (43.6 % ذكور، 40 إناث) أو حتى العصيان المدني (19.2 % ذكور، 18 % إناث).

أمّا الشكل الأمثل برأيهم لمقاومة الاحتلال والعدوان، فلا تبيّن معالجته الإحصائية دلالة لجهة الدين والطائفة، لكن ما يثير الاستغراب هو أن الشيعة الذين يقودون في البلد مقاومة عسكرية بوجه الاحتلال الإسرائيلي لا يحتلون المراتب الأولى في المقاومة العسكرية، بل الأخيرة وفقاً لمتغير الدين والطائفة بالنسب العليا (37.5 %) بل نلاحظ أنّ السنة يسجلون المرتبة الأولى لخيار المقاومة العسكرية (75 %) ويليهم المسيحيون (65 %) ومن ثمّ الدرّوز (52.5 %). هذه النسب ربّما تعود إلى حالة من الضبابية في النظر الى مكتسبات الآخرين، إذ قد يرى من ينتمي إلى الطائفة التي تمتلك قوة عسكرية ميدانية هلاكاً كبدها الكثير في حين ترى الأطراف الأخرى أن القوة العسكرية هي السبيل الأمثل. هذه النتائج تبيّن أن التربيّة الوجدانية والقيمية للتربيّة المواطنة ليست واحدة، بل يفصل فيها حدّ الدين والطائفة، ويضعفها ويقلّل من فاعليتها في توحيد رؤيا المستهدفين نحو القضايا المشتركة التي يقوم عليها الوطن، حيث نكاد أن نصل إلى فروقات ذات دلالة إحصائية إذا تابعنا احتساب الفارق في النسبة العليا للطائفة التي سجّلت المرتبة الأولى في الإجابة، وتلك التي سجّلت المرتبة الأخيرة.

جدول رقم (5) نتائج أسئلة محور الدولة وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة

المحور	السؤال	النوع الاجتماعي		الدين والطائفة			
		ذكور	إناث	شيعي	سني	درزي	مسيحي
المحور الرابع	الواجبات التي ترى بأدائها مساهمة لك في بناء الوطن	76.9	77.2	86.8	87.5	72.5	61.5
		53.8	36.7	47.4	57.5	42.5	33.3
		52.6	50.6	42.1	57.5	50	56.4

تتقارب الإجابات في الجدول رقم (5) بين الذكور والإناث على خيارات الواجبات التي يرى المستهدف بأدائها مساهمة له في بناء الوطن إلى حدّ بعيد، ما خلا خيار دفع الضرائب (53.8% ذكور، 36.7% إناث) من دون أية دلالة إحصائية لجهة النوع الاجتماعي، لكن ما يلفت الانتباه هو أن طاعة القوانين هي الواجب الذي حصد النسب الأعلى (76.9% ذكور، 77.2% إناث) ووصلت النسب إلى نصف عدد المستهدفين تقريباً لخدمة العلم (52.6% ذكور، 50.6% إناث). ولا ريب أن مثل هذا الواقع يبشّر بالخير، فلا يقف عند حدود النوع الاجتماعي لكنه يبقى دون الإجماع.

وعلى الرغم من أن هذا السؤال لا يحمل دلالة إحصائية، فإنّ الأرقام المبيّنة تسجّل تفاوتاً بين النسب التي تسجّلها الطوائف الإسلامية الثلاث في الخيارات الثلاثة للواجبات التي يرون في أدائها مساهمة لهم في بناء الوطن الذي يبدو أنهم مؤمنون به، وبالتالي المساهمة في بنائه من خلالها. أمّا المسيحيون فتقلّ نسبة اختيارهم للواجبات التي يسهمون من خلالها في بناء الوطن، لكنهم كالمسلمين يعطون خيار طاعة القوانين النسب الأعلى (86.8% شيعي، 87.5% سني، 72.5% دروز، 61.5% مسيحي) ما يبشّر بالخير المشروط والمنقوص إذا تتبّنا أن دفع الضرائب أو خدمة العلم لا تسجّلان نسباً عالية. تبيّن هذه النتائج أنّ حدّ الدين والطائفة يكاد يرقى إلى مستوى يفصل بين المستهدفين لجهة التربيّة الوجدانية والقيمية للتربيّة الوطنية التي تجعل المسيحيين يكادون لا يؤمنون بأداء الواجبات التي يسهمون من خلالها في بناء الوطن، ربّما لأنهم يرون أنّ الوطن لا يقدم لهم الحقوق التي تمايزوا بها على مرّ التاريخ في عيشهم المشترك مع أشقائهم في الوطن.

جدول رقم (6) نتائج أسئلة محور الشراكة بين الجنسين وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة

المحور	السؤال	النوع الاجتماعي		الدين والطائفة			
		ذكور	إناث	شيعي	سني	درزي	مسيحي
المحور الخامس	هل أنت مع المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات كافة؟	نعم	88.8	96.2	92.5	92.5	92.5
		كلا	11.2	3.8	7.5	7.5	7.5
	هل تؤيد(ين) شراكة المرأة للرجل في التربيّة البيئية وشؤون الأسرة؟	نعم	93.8	93.8	92.5	95	90
		كلا	6.2	6.2	7.5	5	10

لم تحمل الإجابات عن السّؤالين المرتبطين بالشراكة بين الجنسين دلالة إحصائية تقف عند حدّي النّوع الاجتماعيّ أو الدّين والطائفة. وتبيّن النّسب حالة من المدنيّة والانقلاب على العادات والتقاليد التي كان يتأثّر بها وضع المرأة في لبنان (بدران، 2017) أو توزيع الأدوار بينهما (اشتي، 2015) ، وما نراه من فارق في النّسب (7.4%) بين الذكور (88.8%) والإناث (96.2%) يبدو أكثر من طبيعي، ويشرّ بجيل يتّجه نحو بناء مجتمع تسوده الشراكة وفقاً للنوع الاجتماعيّ، ما يتناقض كلياً مع وضع المرأة في بدايات القرن العشرين (الحسيني، 2015).

كما أنّ ما يثير الاستغراب أن أكثر النّسب العليا كسرت حدّ الدّين والطائفة، فهي تشجّع المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات كافة، وهي متساوية لدى المستهدفين جميعهم على اختلاف الدّين والطائفة (92.5%).

وتتساوى النّسب (93.8%) بين الذكور والإناث لجهة تأييد شراكة المرأة والرجل في التربيّة البيئية وشؤون الأسرة لدى الجيل الصاعد، تحت وطأة ضغوط الحياة ومستلزماتها التي حدت بالذكور لتأييد هذه المساواة، ورغبة الأنثى بكسر القيود والعادات والتقاليد والموروثات الاجتماعيّة (بدران، 2017 واشتي، 2015 والحسيني، 2017)، وربما لا يبقى مبررٌ للسؤال المطروح من حطب ومكي (1978) حول سبب بقاء النساء ضمن دائرة رقابة الأسرة والعائلة بالرّغم من تعلّمهن ومزاولتهنّ للعمل مع هذه الشريحة التي سترسم مستقبل الوطن.

إذا تابعنا الإجابة عن هذا السّؤال وفقاً للدّين والطائفة نجد أن النّسب العليا والبارزة جداً مقارنة بالدنيا تتّجه لتأييد هذه الشراكة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات كافة، فيأتي المسيحيون (97.5%) في المرتبة الأولى، يليهم السنّة في المرتبة الثانية بفارق بسيط (95%)، ومن ثمّ الشّيعية بفارق عن السنّة يساوي الفارق بين السنّة والمسيحيين (92.5%) ومن ثمّ الدّروز (90%) في المرتبة الأخيرة بفارق عن الشّيعية يساوي الفارق بين الأخيرين والسنّة. وهذا التفاوت في النّسب لا نعتقد أنه يعود للدّين والطائفة أكثر منه للبيئة الاجتماعيّة والاقتصادية المصبوغة بالدّين، أو الصابغة له في التربيّة القيمية والوجدانية التي يمتد تأثيرها إلى التربيّة الوطنيّة، رغمًا من غياب فوارق بارزة بين النّسب واتّجاه النّسب العليا، وبشكل بارز لتجاوز حدّ الدّين والطائفة في هذه المسألة الأساسيّة المتوقّع أن تشكّل تجاذباً في الإجابات وتبايناً وفقاً للدّين والطائفة.

جدول رقم (7) نتائج أسئلة محور الأسرة والعلاقات بين أفرادها والحوار مع الآخر وطرائق حل النزاعات معه وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة

الذين والطائفة			النوع الاجتماعي		السؤال		المحور	المحور السادس
مسيحي	درزي	سني	شيعي	إناث	ذكور		الأسرة والعلاقات بين أفرادها والحوار مع الآخر وطرائق حل النزاعات معه	
8.1	20.5	13.2	8.8	9.6	16	الثأر والانتقام	الطريقة الأكثر ملاءمة لحل النزاعات	
0	10.3	7.9	11.8	4.1	10.7	العنف		
62.2	64.1	78.9	61.8	71.2	62.7	تنظيم عريضة وطنية للمطالبة بحق الاعتصام		
32.4	23.1	18.4	38.2	20.5	34.7	المراقبة الضاغطة		
27	17.9	18.4	29.4	19.2	26.7	مقاطعة السلطة		

إنّ النظر إلى النّسب المسجّلة للخيارات يبيّن لنا أنّ الإناث أكثر بعداً عن خيار الثأر والانتقام (16 % ذكور، 9.6 % إناث) والعنف (10.7 % ذكور، 4.1 % إناث)، وأنهنّ أكثر من الذكور اتّجهاً نحو الطرق السلمية، كتتنظيم عريضة وطنية للمطالبة بحق الاعتصام (71.2 % إناث، 62.7 %) ما يتلاقى مع طبيعة التكوين الخلفي والخلفي للمرأة وتربيتها مقارنة بالذكور. وإذا تابعتنا الإجابات والنسب للخيارات، وجمعنا الخيار السلمي الناعم المتمثّل بتنظيم عريضة وطنية للمطالبة بحق الاعتصام، أو ما يقترب من الخيار السلمي لكنه ليس بالناعم كالمراقبة الضاغطة (34.7 % ذكور، 20.5 %)، أو مقاطعة السلطة (26.7 % ذكور، 19.2 % إناث) نجد أنّ جيل لبنان الصاعد وهذه الشريحة العمرية تتمايز فيما بينها وفقاً للنوع الاجتماعي، من دون أن تصل إلى فوارق ذات دلالة إحصائية، لكنها تتّجه نحو اختيار الطرق السلمية والمدنيّة لحلّ النزاعات، ما يبيّن تربية وجدانية وقيمية تؤسس لتربية مواطنة في هذا الإطار، من دون أن ترقى إلى المأمول والمتوقع في حجم النّسب.

إذا راقبتنا الإجابات والنسب المسجّلة للطريقة الأكثر ملاءمة لحل النزاعات نجد أنّ توزّعها (تنظيم عريضة وطنية للمطالبة بحق الاعتصام: 61.8 % شيعية، 78.9 % سنة، 64.1 % دروز، 62.22 % مسيحيون) لا يتلاقى مع الإجابات والنسب للشكل الأمثل برأي المستهدفين لمقاومة الاحتلال والعدوان، لكنه يتلاقى مع التحليل الذي خرجنا به لجهة القول أنّ المستهدفين ينظرون إلى ما يمتلكه الآخر في الوطن فيجعل منهم المحرومين.

جدول رقم (8) نتائج أسئلة محور حماية الدولة الوطن أو حماية العالم وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة

المحور		السؤال		النوع الاجتماعي		الدين والطائفة			
				ذكور	إناث	شيعي	سني	درزي	مسيحي
المحور السابع	حماية الدولة الوطن أو حماية العالم	هل ترى (بن) نفسك جزءاً من عالم تتعاون (بن) مع أفرادها على حمايته أم تفضل (بن) أن تعمل (بن) على حماية محيطك؟	أحمي محيطي	35	36.2	57.5	42.5	50	56.4
			أحمي العالم	65	63.8	42.5	57.5	50	43.6

إنّ المستهدفين لا يزال حوالي ثلثهم من الذكور (35 %) والإناث (36.2 %) يؤثرون العمل على حماية محيطهم، مقابل الانفتاح على عالم يعتبرون أنفسهم جزءاً منه، فيتعاونون مع أفرادها لحمايته ما يحتاج إلى المزيد من الجهد في التربيّة المواطنة تصل بالمستهدفين جميعهم إلى الانفتاح على العالم من دون الانصهار فيه. وإذا تابعتنا الإجابات وفقاً للدين والطائفة نجد أنّ السنّة (42.5 %) في المرتبة الأخيرة من الاقتصار على حماية المحيط، بل يتجهون بنسبة أعلى ليكونوا جزءاً من العالم (57.5) والعمل على حمايته، ومن ثمّ الدروز (50 % أحمي محيطي، 50 % أحمي العالم)، فالمسيحيون (56.54 % أحمي محيطي، 43.6 % أحمي العالم) والشّيعية (57.5 % أحمي محيطي، 42.5 % أحمي العالم). هذه النتائج قد تعود بأسبابها إلى الماضي السياسي والاقتصادي والاجتماعي لطوائف لبنان التي ربّما مازالت تلقي بأنقالها على حاضرهم، وتحمل تأثيراً على إجابات المستهدفين ممّن يؤثّر تكثيف الجهود على حماية محيطه في ظلّ المكتسبات الجديدة لينتقل بعدها للعالم، أو ممّن حضّرت ثقافة ماضيه لهذا الانفتاح أو دفعه تقلّص مكتسبات طائفته إلى الاتجاه أكثر نحو حماية العالم.

2- الثاني الثاني

تضمّ استمارة الصف الثاني ثلاثة أسئلة، من جملة أسئلة الاستمارة التي غطّت محاور منهج هذا الصف، ونعتقد باختلاف مقاربة الإجابة عنها وفقاً للنوع

الاجتماعي أو الدين والطائفة. وينقسم هذا الصف إلى فرعين (علمي وأدبي) لم يميز بين المنتسبين إلى كل منهما، باعتبار أنّ المتعلمين يدرسون المنهج ذاته وفي الكتاب ذاته.

2-1- نتائج المعالجة الإحصائية
جدول رقم (9) نتائج المعالجة الإحصائية للصف الثانوي الثاني

الدين أو الطائفة			السؤال	المحور
مستوى الدلالة	قيمة الدلالة (SIG)	كأي تربيح	هل توافق(ين) على أن التعاون العربي أداة حماية للدول العربية ومنها لبنان؟	العلاقة مع الدول العربية الرابع
0.05	0.012	16.44		

يبين الجدول رقم (9) أنّ المعالجة الإحصائية، للسؤال المرتبط بإذا كان المستهدفون يوافقون على أنّ التعاون العربي أداة حماية للدول العربية ومنها لبنان، تحمل فوارق ذات دلالة إحصائية ($0.05 > 0.012$) وفقاً للدين والطائفة. وقد تعود هذه النتائج إلى تباين انتماءات الطوائف اللبنانية للدول العربية، وقبولها بهذا الانتماء وتماهيها معه بمستوى عالٍ.

2-2- نتائج الجداول الإحصائية
جدول رقم (10) نتائج أسئلة محور العلاقة مع الدول العربية وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة

الدين والطائفة				النوع الاجتماعي		السؤال		المحور
مسيحي	درزي	سني	شيعي	إناث	ذكور			العلاقة مع الدول العربية الرابع
77.5	92.5	82.5	52.5	82.5	71.2	نعم	هل توافق(ين) على أن التعاون العربي أداة حماية للدول العربية ومنها لبنان؟	
22.5	7.5	17.5	47.5	17.5	28.8	كلا		
32.5	42.5	40	20	41.2	30.2	نعم	هل ترى(ين) مستقبلاً مشرقاً للطموحات العربية؟	
67.5	57.5	60	80	58.8	69.8	كلا		

على الرغم من أنّ الفارق بلغ (11.3%) بين النسبة المسجلة من الذكور (71.2%) والإناث (82.5%) فإنه لم يسجل دلالة إحصائية، لكنّه بين أنّ الإناث ربّما تكون أقلّ انفعالية في الإجابة من الذكور تجاه ما يحمله الحاضر من عثرات وتخبّط في إنجازات العرب المشتركة خلال هذه المرحلة، كما أنّهم أكثر أملاً وواقعية بأنّ لبنان يحتاج ليكون

مع كتلة ينتمي إليها، ويتبادل مع مكوناتها الدعم والقوة.

أما حدّ الدّين والطائفة فيحمل الفوارق في نسب الإجابات عنه دلالة إحصائية، ويقف سداً منيعاً ينعكس في إجابات المستهدفين وتحديدًا الشّعبة منهم الذين لا يوافقون وبفارق نسبة بارزة جدًّا (52.55) مقابل المستهدفين من دين وطائفة أخرى (82.5 % سني، 92.5 % دروز، 77.5 مسيحيون) على أنّ التعاون العربي أداة حماية للدول العربية ومنها لبنان. وهذه النتائج قد تكون بسبب اعتبار طائفة الشّعبة أنّ مصدر دعمها يخرج في حساباتها عن الدول العربية، نتيجة الانتماء الطائفي الذي لا يتلاقون فيه مع الشّريحة الأوسع من العرب. وهذا الواقع يبرز المطالبة من الدول العربية قاطبة أن تسعى بمبادرات أوسع تطال هذه الشّريحة لرفع مستوى الانتماء العربي لديهم، ومن المعنيين على مستوى الشأن المحلي أن يبلوروا الفوائد الكبيرة التي حصدها لبنان من أشقائه العرب في حقول وميادين مختلفة.

وإذا تابعتنا إجابات المستهدفين نجد أنّ النسب الدّنيا من الإناث (41.02 %) وأقل من الذكور (30.2 %) ترى مستقبلًا مشرقًا للطموحات العربية، بما يتلاقى مع ما ذهبنا إليه في أنّ الإناث أقل انفعالية أو ربّما أقل اهتمامًا بهذه الشؤون من الذكور، لكن ما يلفت الانتباه هو تدنّي النسبة لمن يرى من الجنسين مستقبلًا مشرقًا للطموحات العربية، ويستدعي من الدول العربية أن تعيد النظر في سياساتها تجاه بعضها لبناء ثقة الأجيال الصاعدة بتعاونها ووحدتها. وتتفي النسب العليا للمستهدفين أيضًا على اختلاف الدّين والطائفة رؤية مستقبل مشرق للطموحات العربيّة، ما يؤكّد الحاجة إلى إعادة النظر في رسم العلاقة بين الدول العربية لضمان الحفاظ على الهوية العربيّة بمكوناتها الجامعة للعرب.

جدول رقم (11) نتائج أسئلة محور الاتجاه نحو العلاقة مع دول العالم وفقًا للنوع الاجتماعي أو الدّين والطائفة

الدّين والمذهب				النوع الاجتماعي				العلاقة مع دول العالم.	المحور الخامس
مسيحي	درزي	سني	شيعي	إناث	ذكور				
61.5	46.2	69.2	50	55.7	57.7	نعم	هل حقّق لبنان دعماً ومكتسبات من انضمامه إلى هيئة الأمم المتّحدة؟		
38.5	53.8	30.8	50	44.3	42.3	كلا			

لم تحمل المعالجة الإحصائية للسؤال المرتبط بإذا كان لبنان حقّق دعماً ومكتسبات من انضمامه إلى هيئة الأمم المتحدة دلالة إحصائية. كما تتقارب النسب المبيّنة في الجدول رقم (11) بين الجنسين، وتكاد تتقارب بين الإيجاب (الذكور 57.5 % والإناث 55.7 %) والنفي (42.3 % ذكور 44.3 % إناث).

ولا تختلف النتائج وفقاً للدين والطائفة، لكن السنّة والمسيحيين يحملون نظرة أكثر إيجابية (69.2 % سني، 61.5 % مسيحي) مقارنة بالشّيعية (50 %) والدروز (46.2 %). هذه النتائج تتطلّب جهوداً أكبر من هيئة الأمم المتحدة نحو لبنان، خصوصاً وأنّ الإيجابية في النظر إلى دورها الداعم للبنان ومكتسباته من الانضمام إليها ما زالت دون طموحات الجميع من أبناء الطوائف، بمن فيهم طائفة الشّيعية الذين ينظرون إليها بمستوى نظرتهم لتكتلهم مع الدول العربية.

3- الثاني الثالث

يتوزّع المتعلّمون في الصف الثاني الثالث على أربعة فروع (علوم الحياة، علوم عامّة، آداب وإنسانيات، واجتماع واقتصاد). وقد توزّعت الاستثمارات المحدّدة في العينة دون التمييز بين المتعلّمين وفقاً للفرع الدراسي. وتضمّنت هذه الاستثمارات المنتقاة أسئلتها العشرة من مجموع أسئلة غطّت محاور منهج المادّة للصف الثاني الثالث، ذات المنهج الواحد والكتاب الواحد للشعب الأربع التي استهدفتها الاستثمارات من دون تمييز بينها.

1-3 نتائج المعالجة الإحصائية

جدول رقم (12) نتائج المعالجة الإحصائية للصف الثاني الثالث

المحور	السؤال	الدين أو الطائفة	
		كأي تربيعة	قيمة الدلالة (SIG)
		مستوى الدلالة	
الخامس	هل تطالب (ين) بأن تشمل خدمة العلم الإناث؟	10.83	0.01
			0.05

يحمل السؤال المرتبط بالمطالبة بأن تشمل خدمة العلم الإناث فروقات ذات دلالة إحصائية (0.01) عند مستوى الدلالة (0.05) وفقاً لاختلاف الدين والطائفة.

2-3- نتائج الجداول الإحصائية
جدول رقم (13) نتائج أسئلة محور الممارسات على البيئة وحمايتها وفقاً للنوع الاجتماعي أو
الدين والطائفة

	المحور	السؤال	النوع الاجتماعي		الدين والطائفة				
			ذكور	إناث	شيعي	سني	درزي	مسيحي	
الثاني	الممارسات على البيئة وحمايتها	هل تمارس(ين) دورك كرفيق وشريك في قوة ضاغطة لحماية الاعتداءات على البيئة؟	نعم	37.5	50.6	35	40	50	51.3
			كلا	62.5	49.4	65	60	50	48.7

إن ممارسة المتعلمين دورهم في الرقابة والشراكة، كقوة ضاغطة لحماية الاعتداءات على البيئة، لا يرقى البتة إلى المستوى المطلوب، وهو عند الذكور (نعم 37.5 %، كلا 62.5 %) أقل من الإناث (نعم، 50.6 %، كلا، 49.4 %)، وهذا التفاوت في النسب بين الجنسين يبشّر بدور فعّال أضحت تخطّ الإناث معالمه وتتطلق فيه من المنزل والاهتمامات المنزلية إلى خارجه.

ولا نلاحظ فوارق بارزة وفقاً لاختلاف الدين والطائفة إلا إذا نظرنا إلى النسب الدنيا التي تبين الاهتمام للشيعية (35 %) والسنة (40 %) مقابل الدروز (50 %) والمسيحيين (51.3 %)، ما قد يعكس البيئة وينعكس عليها في معظم المناطق التي تسكنها الغالبية من أبناء هذه الطوائف.

جدول رقم (14) نتائج أسئلة محور المشاركة في الشأن العام وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة

المحور	السؤال	النوع الاجتماعي		الدين والطائفة				
		ذكور	إناث	شيعي	سني	درزي	مسيحي	
المشاركة في الشأن العام	كيف تنظر(ين) إلى المشاركة في الانتخابات الخاصة والعامّة؟	حق	37.3	24.7	30.8	37.1	26.3	30
		واجب	16	14.3	7.7	22.9	15.8	15
	أيهما يستحق مشاركتك أكثر؟	حق وواجب	46.7	61	61.5	40	57.9	55
		الانتخابات النيابية	15.8	18.2	26.3	13.5	10.3	17.9
	الانتخابات البلدية والاختيارية	كلاهما	60.5	67.5	63.2	67.6	59	66.7
		كلاهما	23.7	14.3	10.5	18.9	30.8	15.4

إنّ السؤال المرتبط بالنظر إلى المشاركة في الانتخابات العامّة يبيّن أنّ الإناث أضحين أكثر وعياً (61 % حق وواجب)، بفارق عن الثانوي الأول (50.6 % حق وواجب) الذي طرّح في استمارته السؤال ذاته، على خلاف الذكور في الثانوي الثالث (46.7 % حق وواجب) مقابل زملائهم في الثانوي الأول (58.2 %). كما نجد أنّ نسبة من يعتبر الانتخاب حقاً، والتي تأتي في المرتبة الثانية من حيث حجم النسب، انخفضت في الثانوي الثالث للإناث، وارتفعت قليلاً للذكور (37.3 % ذكور، 24.7 % إناث) مقابل الثانوي الأول (34.2 % ذكور، 43 % إناث)، في حين بقي اعتبار الانتخاب كواجب في الثانوي الثالث (16 % ذكور، 14.3 % إناث) مقابل (7.6 % ذكور، 6.3 % إناث). هكذا تبين النتائج والنسب أنّ الإناث أكثر وعياً من الناحية المدنيّة من الذكور؛ لكن كلا الجنسين يبقيان دون مستوى الوعي المدني الذي يرقى بالتربيّة الوجدانية والقيمية للتأسيس لتربية مواطنة، بينها الجيل الصاعد على اختلاف النّوع الاجتماعيّ، ونقرأها في الإجابة على هذا السؤال. ولا يخرج توزّع النسب لأي المناسبات أحقّ بالمشاركة بين الذكور والإناث عن التوزع الذي شهده السؤال السابق، حتّى في حجم النسب التي اختارت المناسبات الثلاث النيابية والبلدية

والاختيارية للإناث (67.5%) اللواتي ارتفعت نسبة اختيارهن للخيار الأنسب مقابل الذكور (60.5%)، لكن كليهما لم يرتقيا إلى النسب التي يؤمل في حجمها للقول بتربية وجدانية وقيمية تؤسس لبناء وطن.

جدول رقم (15) نتائج أسئلة محور الأجهزة المسؤولة عن أمن الوطن الداخلي والخارجي وفقاً للنوع الاجتماعي أو الدين والطائفة

المحور	السؤال	النوع الاجتماعي		الدين والطائفة			
		ذكور	إناث	شيعي	سني	درزي	مسيحي
المحور الخامس والأجهزة المسؤولة عن أمن الوطن الداخلي والخارجي	هل تطالب(ين) بأن تشمل خدمة العلم الإناث؟	56.2	63.8	65	60	40	75
	هل سبق أن قمت أم تخطط(ين) للمشاركة في أعمال تطوعية لخدمة المجتمع؟	56.4	55	66.7	57.5	46.2	52.5
	كلا	43.8	36.2	35	40	60	25
	كلا	43.6	45	33.3	42.5	53.8	47.5

لا تبدو الفوارق واضحة بين الذكور (56%) والإناث (63.8%) لجهة المطالبة بأن تشمل خدمة العلم الإناث، لكن الإناث يبدون متحمّسات أكثر قليلاً من الذكور في هذا المجال، ما لا يتناقض مع روح الانفتاح والاستقلالية، وكسر حدّ النوع الاجتماعي الذي تسعى إليه الإناث. وعلى الرغم من ذلك فلا نجد أن النسب العليا التي تطالب بهذا الأمر تحمل فارقاً ملحوظاً عن تلك التي ترفضه ما يبيّن أنّ ثقافة المواطنة أو حتى ثقافة المساواة ما زالت لم تختمر أو تتضح بالشكل الكافي في بعض الموضوعات لدى الجنسين.

أمّا حدّ الدين والطائفة في المطالبة بأن تشمل خدمة العلم الإناث، فلا يحمل الفوارق الواضحة في النسب بين الشيعة (65%) والسنة (60%) وحتى المسيحيين (75%)؛ وإنّما تبرز الفروقات التي حملت دلالة إحصائية لتأثير الدين والطائفة على هذه المطالبة عند الدروز (40%)، ما قد يعكس جانباً من ثقافة هذه الطائفة المرتبطة بخصوصيات ثقافية واجتماعية انعكست في إجابات المستهدفين (اشتي، 2015).

وتأتي النسب الموزعة لإجابات المستهدفين عن السؤال الخامس، (انظر: الملحق رقم (3): استمارة الثانوي الثالث) في الثانوي الثالث، لتبيّن ضعف المشاركة أو التخطيط للمشاركة في أعمال تطوعية لخدمة المجتمع لهذه الشريحة العمرية من

الذكور (56.4 %) والإناث (55 %).

وإذا تابعتنا النسب للإجابات الموزعة وفقاً للدين والطائفة، لا نجدنا تحمل فوارق واضحة للمستهدفين الذين شاركوا أو يخططون للمشاركة في أعمال تطوعية تخدم المجتمع (شيعة 66.7 %، سنة 57.5 %، دروز 46.2 %، مسيحيون 52.5 %). هكذا، لا نجد أنّ المشاركة أو التخطيط للمشاركة في القيام بأعمال تطوعية تخدم المجتمع يقف عند حدّي النوع الاجتماعيّ أو الدين والطائفة أو يتأثر بهما بشكل بارز، بقدر ما يقف عند ثقافة مدنية ووطنية، وتربية وجدانية وقيمة للتربية المواطنة، غير ناضجة أو مكتملة لدى المتعلمين من هذه الشريحة العمرية التي تخطت مرحلة الطفولة والعمر المحدد لمن يتمّ اعتبارهم أطفالاً بحسب الأمم المتحدة، والذين يُعوّل عليهم بناء وطن المستقبل ليس بشعارات وطنية وإنما بأفعال تخدم المجتمع. جدول رقم (16) نتائج أسئلة محور قدرات الشباب في بناء المستقبل وفقاً للنوع الاجتماعيّ أو الدين والطائفة

	المحور	السؤال	النوع الاجتماعيّ		الدين والطائفة				
			إناث	شيعي	سني	درزي	مسيحي		
المحور السابع	قدرات الشباب في بناء الحياة الخاصة والعامة	هل تعتقد (ين) أنّ الشباب يمكن أن يلعبوا دورًا مؤثراً في الشأن العام؟	نعم	93.4	91.4	92.3	92.5	92.3	92.5
			كلا	6.6	8.6	7.7	7.5	7.7	7.5
	هل تؤمن (ين) أن الشباب عامل أساسي في تحقيق التنمية المستدامة؟	نعم	92.5	87.2					
		كلا	7.5	12.8					
	أي من المجالات يسهم الشباب في إحداث تطوّر فيها؟	التنمية الاجتماعية	التنمية الاجتماعية	62.8	69.2	68.4	74.4	59	62.5
			التنمية الاقتصادية	51.3	43.6	50	46.2	64.1	30
			التنمية الثقافية	50	50	44.7	51.3	56.4	47.5
			التنمية السياسية	23.1	25.6	28.9	17.9	33.3	17.5

يبدو من النسب المسجّلة في الجدول رقم (16) أنّ الجنسين (93.4 % ذكور،

91.4 % إناث) يعتقدان بأن الشباب يمكن أن يلعب الدور المؤثر في الشأن العام ما يبشّر بالخير للوطن.

ويؤكّد المستجوبون، بالنسب العليا، على اختلاف الدّين والطائفة (92.3 % شيعة، 92.5 % سنّة، 92.3 % دروز، 92.5 %) الاعتقاد بقدرة الشباب على لعب الدور المؤثر في الشأن العام، بما يبيّن غياب تأثير النّوع الاجتماعيّ أو الدّين والطائفة. وتؤكّد الغالبية والنسب العليا من الجنسين (92.5 % ذكور، 87.2 إناث) أن الشباب عامل أساسي في تحقيق التنمية المستدامة، مع فارق بسيط بينهما يعود لطبيعة بعض الإناث اللواتي إمّا يتأثرن بالتربيّة التي مازالت تؤثر فيهن بعض ترسباتها المرتبطة بتوزيع الأدوار، أو أنهنّ يطرحن وجهة نظرهنّ الخاصة.

وإذا تابعنا النسب العليا للمجالات التي يرى الشباب أنهم يسهمون في إحداث تطوّر فيها، نجد أنّ الفوارق في النسب بين الجنسين لا تحمل إشارات تلفت النظر. لكن الإجابات التي أتت بالمرتبة الأولى للتنمية الاجتماعيّة (62.8 % ذكور، 69.2 %) بالتنمية الاقتصادية (51.3 % ذكور، 43.6 %) من ثمّ التنمية الثقافيّة (50 % ذكور، 50 % إناث) للتنمية السياسيّة (23.1 % ذكور، 25.6 % إناث) تبين الأحوال التي يعيشها معظم اللبنانيين من النواحي الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة الظاهرة أو الطائفة على السطح. هكذا نجد أنّ المجالات التي يجد الشباب أنهم يستطيعون أن يسهموا في إحداث تطوّر فيها يتراجع فيها المجال السياسي، ربّما لغياب وعيهم أنّ هذا المجال هو الأكثر تأثيراً بين المجالات الأخرى وعليها، أو ربّما لياسهم من المجال السياسي في الإسهام بالتطوّر أو قدرتهم على الدخول إليه والتغيير من خلاله، أو لانسياقهم إلى المنظومة الناظمة للسلطة وشخصياتها في الوطن.

وإذا استثنينا الفارق الذي تحمله نسبة الدّروز (59 %) للمجال الاجتماعيّ الممكن للشباب إحداث تغيير فيه ربّما لالتزام أبناء هذه الطائفة أكثر من غيرهم بثقافتهم الاجتماعيّة، نجد أن لا فوارق بارزة وفقاً للدين والطائفة بين الشيعة (68.4 %) والسنة (74.4 %) والمسيحيين (62.5 %)، في حين نجد الدّروز (64.1 %) يتجهون بشكل لافت وبالنسب العليا وبفارق بارز عن المسيحيين (30 %) وأقلّ بروزاً مع السنة (46.2 %) وأقلّ أكثر مع الشيعة (50 %) إلى اعتبار أنّ الشباب يمكن أن يحدثوا التغيير والتطوّر في المجال الاقتصادي ربّما لنمط الحياة لكلّ من أبناء هذه الطوائف، وتتقارب النسب وفقاً للدين والطائفة فيما يتعلق بالمجال الثقافي (44.7 % شيعة،

51.3 % سنّة، 56.4 % دروز، 47.5 % مسيحيون).

الخاتمة

لبنان يشدّ عضده في القرن الحادي والعشرين، ويتلاقى بحكومته وشعبه مع تطّاعات الأجنحة التنموية 2030 لصندوق الأمم المتّحدة، فالحكومة تلتزم التنمية بشكل عام، وما يتعلّق منها بشؤون المرأة بشكل خاص، بعد حقبة من التربيّة المتأثّرة بالموروثات والعادات والتقاليد التي بدأت الإناث تتفض غبارها، بما يجعل من رواسبها قليلة الحجم وضيّقة المجال في التأثير على الإناث اللواتي بدأن يكسرن حدود النّوع الاجتماعيّ. والنظام اللبناني يدعم حقّ الطوائف في التعليم، ومؤسسات التعليم تبني أهدافها العامّة انطلاقاً من عقيدتها ودينها وطائفها، بما يؤسّس لمجتمع طائفي في وطن وجب على التربيّة الوطنية أن تربي المتعلّمين فيه على كسر حدود الدّين والطائفة، واكتساب تربية قيمية ووجدانية تتجاوزها إلى الإيمان بوطن واحد للجميع. ويبدو من النتائج المحصّلة في هذا البحث أننا بدأنا نأمل بكسر حدود النّوع الاجتماعيّ في القضايا المشتركة، والمساهمة في مشاركة حقيقية للمرأة في المجتمع، لكن قيود الدّين والطائفة ومن خلفها السياسة ما زالت تقف سدّاً منيعاً بوجه التربيّة الوطنية.

هذا الواقع يحتاج إلى أكثر من «تربية وطنية وتنشئة مدنية» تضجّ بمثاليّاتها الكتب، وينقلها المتعلّمون، وينقلها المعلّمون مع صبغة الدّين والطائفة التي توطّر خلفياتهم، وبالتالي خلفيات المنطقة التي يعلّمون فيها، وحكماً التي ينتمون إلى دينها وطائفها، وسياسة أتباع هذا الدّين وتلك الطائفة. كما يحتاج إلى حوار حقيقي وانفتاح حقيقي على الآخر، ومعالجة واقعية للقضايا يشارك فيها الجميع على اختلاف الدّين والطائفة، خصوصاً بعد هذه الإجابات التي كشفت تشوّه الصورة عن الآخر، أو ربّما الإصرار في الإجابة عن السّؤال بما لا يبيّن المستهدف ما يمتلكه وإنّما ما ينقصه، مقابل ما يراه عند الآخرين.

قائمة المراجع:

المراجع العربية:

- اشتي، شوكت (2015). **الست نظيرة جنبلاط: من حدود العائلة إلى ربوع الوطن**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: دار النهار.
- الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، مكتب المفوض السامي (2011). **الحماية القانونية الدولية لحقوق الإنسان في النزاع المسلح**. منشورات الأمم المتحدة.
- تقي الدين، سليمان (2004). «المواطنة وتجاوز الطائفية في لبنان». **في: قضايا المواطنة في لبنان: أبعاد وتحديات**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز اللبناني للدراسات.
- الجمهورية اللبنانية، مجلس النواب. **وثيقة الوفاق الوطني - اتفاق الطائف**. 9 صفحات. استرجع من الموقع الإلكتروني
- <https://www.un.int/sites/files/lebanon>
- بتاريخ 12/11/2018.
- الحسيني، ليندا مرتضى (2015م/ 1436هـ). **الحركة النسائية: وإسهاماتها التربوية والوطنية والاجتماعية في لبنان والعالم العربي**، النصف الأول من القرن العشرين. الطبعة الأولى. عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- حطب، زهير (2004). «العوامل السوسولوجية لضعف مشاركة المرأة». **في: قضايا المواطنة في لبنان: أبعاد وتحديات**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز اللبناني للدراسات.
- حطب، زهير ومكي، عباس (1978). **السلطة الأبوية والشباب: دراسة ميدانية اجتماعية نفسية حول طبيعة السلطة وتمثلها**. الطبعة الأولى. بيروت: دار الإنماء العربي.
- الحلو، مارغريت (2004). «مشاركة المرأة: سبيل لتعزيز المواطنة والمساواة». **في: قضايا المواطنة في لبنان: أبعاد وتحديات**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز اللبناني للدراسات.
- حمادة، نجلاء (2004). «دور الأنظمة التربوية في صناعة المواطن اللبناني». **في: قضايا المواطنة في لبنان: أبعاد وتحديات**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز اللبناني للدراسات.
- خليفة، علي (2014). **ما هي المواطنة وكيف نتربّي عليها؟** الطبعة الأولى. بيروت - لبنان: ألف ياء للنشر والتوزيع.
- السيد حسين، عدنان (2013). **المواطنة: أسسها وأبعادها**. لا طبعة. بيروت: دائرة المنشورات في الجامعة اللبنانية.
- شرف الدين، فهمية (2004). «مشاركة المرأة اللبنانية في الحياة العامة: إرهابات قيد التحوّل». **في: قضايا المواطنة في لبنان: أبعاد وتحديات**. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز اللبناني للدراسات.
- شريف، عمر (1432هـ-2011م). **رحلة عقل**. الطبعة الرابعة. مصر الجديدة: مكتبة الشروق الدولية.
- عواضة، حسن (2005). «حرية المعتقد والحق في الاختلاف في ضوء القوانين الوضعية والأعراف الطائفية اللبنانية». في *Annales de philosophie et des sciences hu-maines*، جامعة الروح القدس.

- العيصيني، رؤوف (2004). « دور البرامج المدرسية في بناء المواطنة » في: قضايا المواطنة في لبنان: أبعاد وتحديات . الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز اللبناني للدراسات.
- فريحة، نمر (2006). التربية الوطنية: منهاجها وطرائق تدريسها. الكتاب الأول. مسقط - عمان: لا ناشر.
- فريحة، نمر (2002). فعالية المدرسة في التربية الوطنية: دراسة ميدانية. الطبعة الأولى. بيروت - لبنان: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.
- فريحة، نمر منصور (2017). المواطنة العالمية والمواطنة الرقمية وما بينهما. طبعة أولى. بيروت ومسقط: دار سائر المشرق ودار الزقاق.
- فياض، منى (2004). « مشاركة المرأة اللبنانية في الحياة السياسية: العوامل المساعدة أو المُعيقَة ». في: قضايا المواطنة في لبنان: أبعاد وتحديات. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز اللبناني للدراسات.
- القادري، أبو بكر (9-10 جمادى الثانية 1427 / 6-7 يونيو 2006). « الوطن والمواطنة، وآفاق التنمية البشرية ». في: ندوة لجنة القيم الروحية والفكرية - الوطن والمواطنة وآفاق التنمية البشرية. الرياض: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية - سلسلة « الندوات».
- نصر، سليم (2004). « مقدمة ». في: قضايا المواطنة في لبنان: أبعاد وتحديات. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز اللبناني للدراسات.
- القاعي، عبده (2004). « المواطنة وإشكالية الطائفية في لبنان ». في: قضايا المواطنة في لبنان: أبعاد وتحديات. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز اللبناني للدراسات.
- الكحيل، عبد الدائم (لا تاريخ). « وليس الذكر كالأُنثى: رؤية علمية جديدة. موسوعة الكحيل؛ الجزء 25. استرجعت بتاريخ 10 / 10 / 2019 من الموقع الإلكتروني: www. ALKA-HEEL.com? ».
- مخايل، إيلي (2016). الأسرة العربية: تحديات وأولويات التنمية المستدامة. الطبعة الأولى. بيروت - لبنان: دار الفرات للنشر والتوزيع.
- معهد المواطنة وإدارة التنوع ومؤسسة أديان (2016). تقرير عن حوار المجتمع المدني حول المواطنة في لبنان وأبعادها: من الإشكاليات الى التحول المرتجى. الطبعة الأولى. بيروت - لبنان: مؤسسة أديان.
- مغيزل نصر، ندى (2004). « المدرسة وبناء المواطنة ». في: قضايا المواطنة في لبنان: أبعاد وتحديات. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المركز اللبناني للدراسات.
- منظمة العمل الدولية، المكتب الإقليمي للدول العربية (2014). دليل تفتيش العمل والمساواة بين النوع الاجتماعي وعدم التمييز. الطبعة الأولى. منظمة العمل الدولية.
- نصّار، ناصيف (2005). في التربية والسياسة: متى يصير الفرد في الدول العربية مواطنًا؟. الطبعة الثانية (مزيدة). بيروت - لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- هوارى، زهير (1436هـ/ 2015). مشاهد التعليم في العهدين العثماني والفرنسي: «هاجوج» الإرساليات و« ماجوج» الطوائف. الطبعة الأولى. الرياض وبيروت: منشورات ضفاف.

• المراجع الأجنبية:

- Cabrera , Alberto F(2002). Collaborative Learning on College Students' Development and University. **Journal of College Students' Development**
- Jarolimek, J and Parker, W.(1993). Social Studies in Elementary. New York: Macmillan.
- Wadsworth, Barry J(1989). Piaget 's Theory Of Cognitive And Affective Development, Fourth Edition, New York & London: Longman.
- Chong, King Man(March 2012).**Perceptions and Teachings of National Identity and National Education: Case Studies of Hong Kong's Secondary School Teachers. Phd (Education).The University of York.**

ملحق رقم (1)

استمارة الثانوي الأول

1 - هل توافق(ين) على أن حرية الرأي والتعبير يجب أن تكون مقيّدة بضوابط وقيود؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

2 - هل ترى(ين) فائدة من التعبير عن رأيك بشأن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

3 - كيف تتظر(ين) إلى المشاركة في الانتخابات الخاصة والعامّة؟

حق واجب حق وواجب غير ذلك، حدّد:

4 - هل أنت منتسب (ة) إلى إحدى الجمعيات الأهلية؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

5 - ما هو الشكل الأمثل برأيك لمقاومة الظلم والاستبداد؟

التظاهر اللجوء إلى المحاكم العصيان المدني غير ذلك، حدّد:

6 - ما هو الشكل الأمثل برأيك لمقاومة الاحتلال والعدوان؟

مقاومة ثقافية مقاومة عسكرية مقاومة اقتصادية غير ذلك، حدّد:

7 - الواجبات التي ترى بأدائها مساهمة لك في بناء الوطن:

طاعة القانون دفع الضرائب
خدمة العلم

8 - هل أنت مع المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات كافة؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

9 - هل تؤيد(ين) شراكة المرأة للرجل في التربيّة البيئية وشؤون الأسرة؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

10 - اختار (ي) الطريقة الأكثر ملاءمة لحلّ النزاعات:

الثأر والانتقام العنف تنظيم عريضة وطنية للمطالبة بحق الاعتصام
والمراقبة الضاغطة مقاطعة السلطة غير ذلك حدّد:

11 - هل ترى (ين) نفسك جزءاً من عالم تتعاون (ين) مع أفرادهِ على حمايته أم تفضل
(ين) أن تعمل (ين) على حماية محيطك؟

أحمي محيطي أحمي العالم غير ذلك، حدّد:

ملحق رقم (2)

استمارة الثانوي الثاني

1 - هل توافق (ين) على أن التعاون العربي أداة حماية للدول العربية ومنها لبنان؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

2 - هل ترى (ين) مستقبلاً مشرفاً للطموحات العربية؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

3 - هل حقّق لبنان دعماً ومكتسبات من انضمامهِ إلى هيئة الأمم المتّحدة؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

ملحق رقم (3)

استمارة الثانوي الثالث

1- هل تمارس (ين) دورك كركيب وشريك في قوة ضاغطة لحماية الاعتداءات على
البيئة؟

1 - كيف تنظر (ين) إلى المشاركة في الانتخابات العامّة والخاصّة؟

حق واجب حق وواجب غير ذلك، حدّد:

2 - أيهما يستحقّ مشاركتك أكثر؟

الانتخابات النيابية الانتخابات البلدية والاختيارية كلاهما
غير ذلك، حدّد:

3 - هل تطالب (ين) بأن تشمل خدمة العلم الإناث؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

4 - هل سبق أن قمت أم تخطّط (ين) للمشاركة في أعمال تطوعية لخدمة المجتمع؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

5 - هل أنت منتسب(ة) أو تخطّط (ين) للانتساب لأحد مجالات الخدمة (الدفاع

المدني أو الصليب الأحمر) للمساهمة في أداء مهمّات إنسانية؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

6 - هل تعتقد (ين) أنّ الشباب يمكن أن يلعبوا دورًا مؤثّرًا في الشأن العام؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

7 - هل تؤمن (ين) أنّ الشباب عامل أساسي في تحقيق التنمية المستدامة؟

نعم كلا غير ذلك، حدّد:

8 - أيّ من المجالات يسهم الشباب في إحداث تطوّر فيها؟

التنمية الاجتماعية التنمية الاقتصادية التنمية الثقافية التنمية
السياسية

غير ذلك، حدّد:

أسلوبية التعابير الوصفية وأبعادها الدلالية

في شعر نزار قبّاني

د.ريما غانم

إنه نزار قبّاني، الشّاعر المميّز برقّة شعره وجاذبيّة صورته التعبيريّة التي لا تخلو منها أيّ قصيدة من قصائده. فهو، كما يقال، شاعر المرأة، وهو أيضاً شاعر الوطن العربيّ الذي حمل همومه في حياته الواقعيّة وفي حياته الفنيّة، ولم يكن يوماً بعيداً عن هموم هذا الوطن، إذ كان لا يتأخّر في التعبير عن حبه أو حزنه أو استيائه ممّا يحدث في أيّ بلد من البلاد العربيّة.

وإذا أمعنا القراءة في مجمل أشعاره، فإننا نقع على كمّ هائل من الصور التعبيريّة التي نقل من خلالها معاناته، وما يشعر به، وما يحلم، وما يتمنّى. وصوّر نفسه معشوق النساء، وحمّامي العروبة، ومدافعاً عن القوميّة العربيّة. ولم يترك موضعاً يتعلّق بالمجتمعات العربيّة إلاّ وتحدّث عنه في شعره، وانتقده بكلّ جرأة وشفافيّة، وعبر عن رأيه بكلّ صراحة ومن دون مواربة. فالشّاعر، كما قيل قديماً، هو لسان الأمّة، يحمل بيدٍ مشعل الحرّيّة، وباليد الأخرى مشعل المعرفة والبناء. وقد وصفه الكاتب المصريّ نجيب محفوظ بأنّ حياته كانت ملكاً لمعشوقتين: «المرأة والقوميّة العربيّة»، يقول: «إنّه شاعر وهب حياته لمعشوقتين؛ المرأة والقوميّة العربيّة، حيث كتب فيهما أجمل الأشعار التي وصلت إلى قلوب الجماهير»⁽¹⁾. وكذلك قيل عنه: «هو أشهر الشعراء العرب في النصف الثاني بلا منازع، وكانت لغته الشعريّة سهلة بسيطة، ومن فرط بساطتها ورقتها، تشعر بأنك يمكنك أن تكتب الشعر»⁽²⁾.

إنّ نظرة معمّقة إلى صورته الفنيّة تكشف إلى أيّ مدى كان الشاعر مهتماً بلغته، ينتقي ألفاظه بدقّة، ويرسم معانيه بأحاسيسه وبمشاعره، فلا تفوته صورة اجتماعيّة إلاّ وصّب عليها قدرته الشعريّة، وحسّه الفنيّ، وطاقته الإبداعيّة. وهذا ما حدانا إلى أن نستعرض في بحثنا هذا بعض هذه الصور التعبيريّة التي أضفت على أشعاره تلك المسحة الجماليّة، وجعلت منه شعراً مميّزاً بكلّ ما للكلمة من معنى، وأن نحلّل هذه الصور في ضوء منهج الأسلوبية التي تدرس وقائع التعبير اللّغويّ من ناحية

(1)- انظر : <http://www.horytna.net>

(2) - المرجع نفسه

مضامينها الوجدانية، ومن ناحية الحساسية المعبر عنها لغويًا، على اعتبار أن الواقع اللغوي أو الخطاب ينقسم إلى قسمين، منه ما هو حامل لذاته وغير مشحون بشيء، ومنه ما هو حامل للعواطف والانفعالات. وموضوع الأسلوبية، في رأي شارل بالي (1)، هو هذا الجانب الوجداني، العاطفي في الخطاب، أي في شتى الاستعمالات اللغوية المؤثرة وجدانيًا على المستمع أو القارئ (2). وسنبحث هذا الأمر انطلاقًا من ثلاثة أبعاد دلالية رأيناها تطغى على القسم الأكبر من دواوين نزار قباني، وهي: البعد الاجتماعي الإنساني، والبعد الوطني السياسي، والبعد النفسي.

أولاً- البعد الاجتماعي - الإنساني

ما من شك في أن أبرز الموضوعات الاجتماعية التي ظهرت في شعر نزار قباني هي صورة المرأة العربية في كل أشكالها، كمعشوقة وكأم وأخت، وما كانت تمثله في إطار العادات والتقاليد الاجتماعية العربية. فالمرأة بالنسبة إليه كانت الأمل الذي يجد من خلاله فرحه وسعادته واطمئنانه، ولهذا امتلأت دواوينه بصورة المرأة، وبخاصة تحت باب الغزل الذي أبدع فيه، وأبرزه بشكل ملفت للنظر، معتمدًا على ما يملك من طاقة فكرية ونفسية وحسية .

إذاً، المرأة كعنصر اجتماعي أساسي احتلت رقعة كبيرة في دواوينه، فوصفها بأجمل الأوصاف، وتغزل بها بأجمل الكلمات، وعبر عن احترامها بأسمى الصور، واعترف بأنها تملك قدرة لا يملكها الرجل بحد ذاته. وحينما كان يصفها ويتغزل بها كان أسلوبه اللغوي حاضرًا ليخط له الطريق في إنجاح تعبيره الفنية وصوره الجميلة. يقول في إحدى صورته المعبرة:

ويمنحني ثغرها موعدا

فيخضّر في شفثيها الصدى

وأمضي إليها .. أنا شهقات القلوع

تغازل لون المدى ..

وأين القرار ؟ سبقت الزمان

سبقت المكان .. سبقت غدا

(1) - شارل بالي Charles Bally هو لغوي سويسري، ولد في جنيف عام 1865 وتوفي عام 1947. له كتاب في الأسلوبية الفرنسية.

(2) - عن مجلة آداب، البصرة، العراق، العدد 56، 2011

أخوض في الصبح .. ملء طريقي
أريج .. وملء قميصي ندى .. (1)

تتغمس الأسلوبية هنا في بحر الألفاظ التي يختارها الشاعر رقيقة حساسة، لكي تنقل الصورة الجميلة عن المرأة. فالمرأة هي عنصر اجتماعي شغل حيزاً مهماً في الأدب العربي القديم والحديث؛ وهي عند نزار قباني تتخذ شكلاً جذاباً لا يفهم كنهها إلا هو، فلهذا نراه يصف حبه لها من خلال صور تعبيرية متعددة. وهنا، في هذا الشاهد، يصفها من بايين أساسيين هما: المكان والزمان. فتأثير قبلتها له صدى عميق يرتبط بالمدى البعيد.

الأنا، في هذا الشاهد، حاضرة في ثنايا كلماته، ومن خلال الفعل المكرر (سبقت) الذي أراد من خلاله أن يبرز قدرته في محاكاة الزمن قديماً وحاضراً ومستقبلاً. فاستخدم من أجل ذلك كمّاً من الألفاظ التي تعبّر عن هذه الصورة، والتي تمنحها مسحة من الجمال. فاستعمل ألفاظاً للزمان مثل: الزمان - غدا - الصبح . وألفاظ المكان مثل: القلوع - المدى - المكان - طريقي... كل ذلك لكي يعبر عن أنّ حبه مرتبط بالمكان والزمان، وليس أيّ مكان، بل استعان بالمكان البعيد من خلال لفظة المدى، وهذه الكلمة تدلّ على المكان الذي لا حدود له. هنا تكمن اللعبة الأسلوبية في تضافر الألفاظ وأبعاد معانيها، إذ باتت الحبيبة بالنسبة إلى شاعرنا عنصراً اجتماعياً مرتبطاً بحدود المكان والزمان.

وإلى جانب المرأة، هناك صورة الأم كعنصر اجتماعي أساسي مسؤول عن الأسرة، وعن رعاية الأطفال، وعن الاهتمام بالمنزل، فكان الحنين إليها صورة معبرة أرادها الشاعر أن تحمل في طياتها الكثير من المعاني، لنسمعه يقول :

أيا أمي ... أنا الولد الذي أبحر
ولا زالت بخاطره تعيش عروسة السكر
فكيف .. فكيف يا أمي

غدوتُ أباً ... ولم أكبر؟ (2)

فهذه الأم التي لم تغادر صورتها ذاكرة الشاعر تبقى الصورة الموحية له، وأهم ما يتذكره من خلال هذه الصورة معنيان مهمّان: المعنى الأول محصور بعروسة السكر

(1) - قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت، ط13، 1993

(2) - قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، م. س.

التي كانت أمّه تلقّها له وهو صغير، فلم تغادر خاطره، والمعنى الثاني صورته حين أصبح أباً، ولكنه ما زال يشعر بأنّه صغير يحتاج إلى حضن أمّه. هنا يكمن جمال الصورة المعبرة، إذ استطاع الشّاعر أن يجعلنا نشعر معه بأنّ الأمّ تبقى الأمل حتّى ولو غابت تحت التراب، إذ يحرك ذاكرتنا، ويدفعنا إلى تذكّر هذه الأمّ التي لا تغيب، إذ تبقى، في نظر الشّاعر، المحرك الذي يجعله يشعر بطفولته. واللافت في أسلوبية هذا الشاهد أنّ الشاعر استعمل التكرار في التعابير الآتية (أيا أمي) و(كيف). وهذا التكرار هو الذي أعطى لكلماته بعداً دلاليّاً معيّناً قوامه العودة إلى الطفولة، والعودة إلى حنان الأم. فالتكرار في النصّ الأدبيّ ما هو إلاّ منبّه لتدعيم الوظيفة الشعرية وتقوية النسيج اللغوي⁽¹⁾، إذ يمكنه أن يولد المتعة التي يشعر بها كلّ من يقرأ نصّاً أدبيّاً ذا مواصفات إبداعية⁽²⁾. فالتكرار هو إحداث أصوات تتكرّر بطريقة معيّنة في البيت الشعريّ الواحد، أو في مجموعة من الأبيات الشعرية، وهو ظاهرة أسلوبية يستعملها الشّاعر لتجسيد مختلف المعاني وإثبات ما يريد الوصول إليه من أغراض⁽³⁾. وإلى جانب الحبيبة والأم كصورتين اجتماعيتين، لم ينس الشّاعر أن يأخذنا إلى المجتمع الغربيّ ليرينا صورة اجتماعية أخرى، يقول وهو يخاطب حبيبته :

لو كنت في مدريد في رأس السنة

كنا سهرنا وحدنا

في حانة صغيرة، ليس بها سوانا

تبحث في ظلامها عن بعضها يدانا⁽⁴⁾

في هذه الصورة ينقلنا الشّاعر إلى حالة اجتماعية كانت ولا تزال معروفة في المجتمع الغربيّ، وهي السّهر في الحانات الصغيرة وبخاصّة في رأس السنة، حيث تنتشر عادات السّهر حتّى الفجر. وكأنّه أراد أن يُصوّر لنا حياته الاجتماعية الخاصة حين يجتمع مع الحبيبة، بعيداً عن مشاكل النّاس ومشاكل السياسة، وجلّ همّه أن يكون منفرداً بها على طاولة في زاوية تلك الحانة الصغيرة. وهو، وإن صوّر لنا هذه الحالة الاجتماعية السّائدة، فقد استعمل أسلوباً لغويّاً مميّزاً، حين لجأ إلى استعمال

(1) - ريفاتير، ميكائيل، معايير تحليل الأسلوب، ترجمة: حميد الحمداني، دار النجاح، الدار البيضاء، 1993، ص 70

(2) - بارت، رولان، لذة النصّ، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاريّ، دمشق، لات.، ص 77

(3) - عبد الحميد محمد، في إيقاع شعرنا العربيّ وبيئته، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2005، ص 56

(4) - قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، م.س.

حرف التّمني (لو) إلى جانب الفعل (كنا) الذي يدلّ على الماضي، بحيث يكشف الإصرار على أن يكون معها في هذا الوضع الاجتماعيّ المعين، في رأس السنة وفي مدريد بالذّات، حيثُ يعيش السّكان في هذا التاريخ مجتمعين مع بعضهم في لحظات جميلة، وهم يستقبلون العام الجديد في المقاهي. وكانت أمنية شاعرنا أن يستقبل هذه السّنة برفقة من يحبّ، وفي إحدى حانات مدريد، حيث يستمتع بلحظات الظلام حين تلتقي يدها بيدي الحبيبة، ويعيش معها أجمل لحظات العمر. والأجمل من كلّ ذلك أنّه تمنّى أن يكون معها في هذه اللحظات، ليستعيد الماضي حين كانت الجلسات على طاولات المقاهي تنقله إلى براءة الحياة الريفيّة القديمة، حيثُ تتغلّب الرومانسية والجلسات الحميميّة على كلّ ذلك.

وفي صورة اجتماعية أخرى نراه يصوّر الأطفال في فلسطين المحتلّة وهم يقاومون الأعداء بالحجارة، ليعبّر عن إعجابه بهم وعن تأييده لهم، لأنّه يشعر بمعاناتهم، يقول :

أطفال الحجارة بهروا الدنيا..

وما في يدهم إلّا الحجاره ..

وأضأوا كالفناديل، وجأؤوا كالبشاره

قاوموا.. وانفجروا.. واستشهدوا..

وبقينا ديبًا قطبيّةً

صفحت أجسادها ضدّ الحراره..

قاتلوا عنا إلى أن قتلوا..⁽¹⁾

لم يكن الشّاعر ليتعافل عن القضية الفلسطينيّة التي كانت قضية سياسيّة واجتماعيّة؛ فهذا الشّعب الذي عانى الكثير من سيطرة وظلم الاحتلال، استطاع أطفاله أن يقاوموا بالحجارة، وهي صورة أراد الشّاعر أن يعبّر من خلالها عن إعجابه بهؤلاء الأطفال الذين سبقوا الرجال في مقاتلة المحتلّين. وهو بذلك يكون شاعرًا يحمل قلبًا إنسانيًا كبيرًا، يأبى أن يرى الأطفال إلّا مقاومين ومستشاهدين في سبيل القضية. هذا الوضع الاجتماعيّ والإنسانيّ الذي نقله إلينا نزار قباني يدلّ على مدى اهتمامه بكلّ ما يمتّ بصلة إلى المجتمع العربيّ في أيّ زمان وفي أيّ مكان.

لقد استطاع شاعرنا بأسلوبه المميّز أن يركّز كلامه على الأفعال الدالّة على

(1) - قباني، نزار، الأعمال الشعريّة الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت، ط13، 1993

الهمة والنشاط والمقاومة، مثل : قاوموا- انفجروا - استشهدوا - قاتلوا.. وهي أفعال استعملت بأسلوب إيقاعي جميل، بحيث أتى الإيقاع الموسيقي بين (قاوموا وقاتلوا وانفجروا) ليثير فينا المشاعر والأحاسيس، وبخاصة أن ترتبته استعمال هذه الأفعال (المقاومة والانفجار والاستشهاد) أزكت جمالية الشاهد الشعري بدلالات الإنسانية . وليس هذا فحسب، فقد بين أيضاً أن الأطفال هم الذين يقاتلون لكي يجلس بقبية الحكام مرتاحين كدبيب قطبية. وهي صورة ساخرة، ولكنها أضفت جمالية أسلوبية على الصورة الشعرية التي أرادها الشاعر تعبيراً عن غضبه من هؤلاء الحكام، وبخاصة إذا تتبعنا (واو الجماعة) في نهاية الأفعال التي أضفت هي الأخرى مكانة تأثيرية وإيقاعية في أسلوبية الشاهد الشعري، ودعت بالتالي بنية الصورة التعبيرية كما في الأفعال : أضاءوا، جاءوا، بهروا، قاوموا، وانفجروا، واستشهدوا. وهذا يكشف لنا الإيقاع النبري الذي أتت به هذه الواو، فالتبر له مكانة إيقاعية في الصور الشعرية التعبيرية، لأنه يحمل في أبعاده الدلالية حالات نفسية معينة ينوي الشاعر أن يخفيها داخل كلماته. فهذه الظاهرة في نهاية الأفعال قد تمت بفعل عامل النبر الذي وقع على المقطع الأخير من الأفعال، أي دون سواه، فأعطاه مزيداً من القوة والوضوح (1).

وفي مكان آخر نرى صورة الاجتماعية والإنسانية تتكشف في كثير من قصائده، يقول في إحداها:

أنا عاملٌ من دمشق .. فقيزٌ

رغيفي أغمسه بالدماء ..

شعوري بسيط... وأجري بسيط

وأؤمن بالخبز والأولياء ..

وأحلم بالحب كالآخرين ..(2)

ينقلنا الشاعر، هنا، إلى صورة اجتماعية وإنسانية، وهي صورة الفقر والبؤس ، صورة العامل الدمشقي الفقير والتعيس الذي يعمل جاهداً ليحصل على رغيف خبز مجبول بالدماء، فإيمانه مركز على هذا الخبز، وعلى أجره البسيط، وهو بالكاد ينال ما يحلم به. فالشاعر أراد من خلال هذه الصورة أن يُرينا كم يتعذب هذا الأجير الذي يعمل بكل ما أوتي من قوة، لينال ما يحلم به هو وأولاده.

(1) - الزين، عبد الفتاح، قضايا لغوية في ضوء الألسنية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط1، 1987، ص51

(2) - قباني، نزار، الاعمال الشعرية الكاملة، م.س.

هذه الصورة التعبيرية عن واقع مأساويّ تتضمّن، في بنيتها اللغويّة، عناصر أسلوبية جميلة استطاعت أن تهبها تلك الحيويّة المعهودة في أشعار نزار قباني، وذلك حين حوّل الكلام إلى شخصيته هو، كاستعماله (الأنا) أداة حوّلت الصورة إليه، فبات هو العامل الفقير الذي يحلم برغيف الخبز، ويحلم بالحبّ كالآخرين. وخصوصًا في التّعابير الآتية : أغمسه - أوّمن - أحلم... وهي تعابير تناولت في أبعادها ثلاث صور معًا : صورة (التعب) وصورة (الإيمان) وصورة (الحلم).

فالعامل الفقير يتعب، ويؤمّن بالحصول على ما يتعب من أجله، وفي النهاية لديه حلم أن يكون مثل الآخرين، يحبّ ويعيش بحريّة. فهذا التناغم بين الأفعال التي تحمل الأنا في طبيّتها له فاعليّة دلاليّة مهمّة، إذ يمتلك سمة من سمات اللّغة الشعريّة التي يلجأ الشعراء إليها من أجل استثمار دوافع نفسيّة وفنيّة، لأنّه في المجال الشعريّ يمكن أن يتّخذ معنى الإلحاح التعبيريّ الدالّ على معنى شعوريّ بارز يُفصح عن المواقف الشعريّة التي يعايشها الشّاعر عند نظم القصيدة (1).

إضافةً إلى أنّ الوزن الموسيقيّ في القصيدة يمنحها قوّة إيقاعيّة وتعبيريّة، فالموسيقى الداخليّة هي المسؤولة عن تناغم الحروف وتوافقها الإيقاعيّ، لأنّ الشّاعر يستعمل أدوات اللّغة الثانويّة بوسيلة فنيّة خاصّة، ما يهيئ جرسًا نفسيًّا خاصًّا يكاد يعلو على الوزن العروضيّ ويفوقه (2).

هذا على صعيد البعد الاجتماعيّ الإنسانيّ الذي نقله الشّاعر في بعض قصائده، أمّا البعد الوطنيّ - القوميّ فكانت له، أيضًا، مظاهره المتعدّدة في دواوينه، إذ عبّر عنه بأسلوبية لفظيّة معيّنة، فكيف كان ذلك؟

ثانيًا - البعد الوطنيّ والقوميّ

لم يكن الوطن بعيدًا عن دواوين نزار قباني، ولم تكن الأمّة العربيّة غريبةً عنها، فهو شاعر عرف كيف يدافع عن الوطن العربيّ بالكلمة التي كانت مسموعة في كلّ مكان. فهو لم يتجاهل أيّ قضية تهّمّ وطنه وأمّته، بل كان من أوائل المدافعين عن الحريّة والاستقلال، ودحر المعتدين، فالوطن بالنسبة إلى نزار قباني هو أمّه الثانيّة التي يرهاها بأهداب جفونه، يقول في إحدى قصائده مخاطبًا حبيبته :

لماذا أتحدّث عن المدن والأوطان

(1) - السعدي، مصطفى، البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1992، ص 172

(2) - رجاء العيد، التجديد الموسيقي في الشعر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص 15

أنتِ وطني .. وجهك وطني .. صوتك وطني
تجويف يدك الصّغيرة وطني

وفي هذا الوطن ولدت.. وفي هذا الوطن أريدُ أن أموت (1)

تخفي هذه الكلمات حبّ الشّاعر لوطنه، وتعلّقه به. وهو من شدّة حبّه للوطن، بات يرى وطنه في وجه كلّ امرأة تمثّل بالنسبة إليه الحبيبة والأم والأخت. فهذا التّكرار لكلمة (وطني) وكلمة (وطن) يجعلنا نكتشف ذلك الاحترام العميق الذي يكتّنه الشّاعر لوطنه، حتّى أنّه اعترف بأنّ هذا الوطن الذي ولد فيه، يودّ مشتاقاً أن يموت في أحضانه. وهو نراه في البداية يتساءل عن المدن والأوطان، فلا يهتمّ بها بقدر ما يهتم بوجه هذه الحبيبة البريئة، ويدها الصّغيرة التي جعلته يشعر بقيمة الوطن، ويستذكر ماضيه، ويتوق إلى الموت في تربته. فالوطن، عند كثير من الشعراء، لا يتحدّد بموقعه الجغرافي ولا بشعبه، بقدر ما يتمثّل بوجه امرأة أو بوجه طفل أو بوجه أمّ. يقول في مكان آخر مخاطباً دمشق التي يحبّها كحبيبة له:

فرشْتُ فوقِ ثراكِ الطّاهرِ الهدُبا

فيا دمشقُ لماذا نبدأ العتبا؟

حبيبتِي أنتِ.. فاستلقي كأغنيةٍ

على ذراعي ولا تستوضحي السّبا

أنتِ النساءُ جميعاً ... ما من امرأةٍ

أحببتُ بعدك، إلاّ خلتها كذبا

يا شامُ إنّ جراحي لا ضفاف لها

فامسحي عن جبیني الحزنَ والتعبَ (2)

يخاطب الشّاعر وطنه من خلال مدينة الشّام التي صورها امرأة يعشقها ويتوق إليها. فالوطن بات بالنسبة إليه تلك الحبيبة التي تنام على ذراعيه كأغنية، ولا يمكن أن يحبّ غيرها، فهي الوحيدة القادرة على مسح الحزن والتعب عنه. وهذا يدلّنا إلى أيّ مدى بلغ تقرب الشّاعر من وطنه. فهو لا يذكره في دواوينه إلاّ من خلال حبّه للمرأة، حتى باتت الصّورة الوطنيّة لديه تجمع الوطن بالمرأة. ولا غرو في ذلك، فالوطن بالنسبة إلى أيّ مواطن هو الأم التي تحنو عليه، والتي تجذبه من أقاصي الأرض في

(1) - نزار قبّاني، ديوان مئة رسالة حبّ، منشورات نزار قبّاني، بيروت، لبنان، 2005، ص 186

(2) - قبّاني، نزار، الأعمال الشعريّة الكاملة، م.س.

حال هاجر وابتعد عنها، وهو الحبيبة التي يضمها إلى صدره، وتنام على ذراعيه. فالصورة التعبيرية، هنا، اعتمدت على عنصرين لغويين بارزين، الأول استخدامه للضمير المنفصل (أنتِ)، والثاني استخدامه ضمير المخاطبة المرتبط أساساً بالضمير (أنتِ). فألحقه بما يأتي : حبيبتي، استلقي، تستوحي، امسحي. وهذا الاستعمال للضميرين جعل الشاهد الشعري يرتبط بدمشق كأنثى أحبها الشاعر وخاطبها بأن تبتعد عن معاتبته، وتنسى أنها مدينة وتنام بين ذراعيه. فاستعمال ضمير المخاطبة المؤنث يفرض أن تكون له العناصر اللفظية المرتبطة به، فإذا كان الكلام موجّهاً للأنثى، فحكماً ينبغي أن يتضمن النص ألفاظاً كثيفة تعود إليها. وهذا ما يؤدي إلى التوازن اللفظي، والتوازن الإيقاعي للنص الشعري. يقول معبراً أيضاً، عن حبه لبلاده :

أنا لبلادي .. لنجماتها

لغيماتها .. للشذا .. للندى

سفحت قوارير لوني نهوراً ..

على وطني الأخضر المفتدى⁽¹⁾

هذا الحب لبلاده لا يتوقف عند حدود العاطفة فقط، والتعبير عن مشاعره ومكنونات صدره إزاء الوطن الذي يحب، ولكنه يتوجّه إلى جمال بلاده، وما تحويه من طبيعة خلابة ومناخ لطيف واخضرار دائم. حبه للوطن شامل، لكل شيء يحويه، فالغيمات تثير مشاعره، والشذا يحرك فيه عاطفة الالتصاق بأرض الوطن، والندى يبلمس جراحه العاطفية، ويجعله ملتصقاً من دون هوادة بما يحب وينعم ببلاده.

ولكن ما يثير انتباهنا في هذا الشاهد أنّ شاعرنا عبّر عن حبه هذا بأسلوب لغوي بديع، إذ استعمل حرف الجرّ (اللام) التي دخلت على الأسماء (بلادي - نجماتها - غيماتها - شذا - ندى) وذلك ليكون حاضرًا في كلّ عنصر من عناصر الطبيعة الجميلة. فأجمل ما يسلب لبه تلك العناصر التي أدخل اللام عليها، ليدلنا على أنه مأخوذ بها، ومستعدّ أن يضحي في سبيلها. فهذه اللام تحمل دلالة الاستسلام والخضوع. وهو حين يقول أنا لبلادي، هذا يعني اعترافاً منه بأنه خاضع لها، وكذلك بالنسبة إلى بقية الأسماء. فالخضوع للوطن، هو خضوع لكلّ جزء فيه.

وإلى جانب حبه للوطن، كان لنزار قبّاني مشاعر تجاه الأمة العربية، وما تمثله من قومية تربط أبناء البلاد العربية بوشائج التعاطف الوطني، فهو إذ أحبّ وطنه،

(1) - المصدر السابق .

فقد أحبّ الوطن الكبير الذي ينتمي إليه وطنه، أيّ الوطن العربيّ. لهذا نراه يحمل هموم هذه الأمة وما تعانیه من اعتداءات ومن تسلّط الحكّام عليها، حتّى نراه ينبري مدافعاً عن الشعب المقهور والمنسحق تحت نير السلطة الغاشمة، وليس هذا فحسب، فأيّ قضية عربيّة تكون مسرحاً على الساحة الدوليّة وساحة العروبة بالذات، كان نزار قبّاني يهبّ مدافعاً عنها بالكلمة الحرّة، ويعبّر من خلالها عن غضبه بأسلوب لغويّ، وخصوصاً حين تعرّض العرب لاعتداء إسرائيلّي، يقول: « لم يبق بعد حزيران للشاعر سوى حصان واحد يمتطيه هو الغضب... صعب عليّ أن أرسم حدود غضبي، فطالما أنّ هناك سنتيمتراً واحداً من أرضي تحتلّه إسرائيل وتذلّه وتقيم عليه مستعمراتها، فإنّ غضبي بحر لا ساحل له »⁽¹⁾، يقول:

يأتي حزيران ويذهب ...

والفرزدق يغرز السكين في رثتي جرير

والعالم العربيّ شطرنج

وأحجار مبعثرة

وأوراق تطير⁽²⁾

الشاعر، هنا، يعبّر عن غضبه من عدم رؤية الأمة العربيّة متفكّة فيما بينها، إذ بات كلّ بلد عربيّ بعيداً عن الآخر، والحكّام العرب لا يجتمعون ولا يتضامنون، بل يتناحرون ويتخاصمون. فالشاعر أبي أن يرى هذا الخصام يعمّ العرب، وهو الذي يتوق إلى رؤيتهم متفقين ومتآخين من أجل الأمة جمعاء، الأمة التي يتوق الشاعر أن يراها مشعشعة في كلّ العالم، فراح ينتقد الحكّام وعدم تأديتهم الواجب كما ينبغي، لقد باتوا مبعثرين كأحجار الشطرنج، يتطايرون في الهواء كأوراق ممزّقة.

إنّ مهمّة الشعر، كما يراها نزار قبّاني، هي مهمّة لصالح الشعب العربيّ، وهي بذلك تصبح ذات طابع تصادمي مع الحكومات العربية، ولم يكن نزار مخترعاً لهذه المهمة أو مؤلفاً لها، فالوظيفة الكفاحيّة للأدب يمكن أن تتّجه نحو تحقيق الأهداف السياسيّة والاجتماعيّة للمجتمع⁽³⁾. ويقول شاعرنا معبراً عن مفهومه للوطن:

«إنّ مفهومي للوطن مفهوم تركيبّي وبانوراميّ، وصورة الوطن عندي تتألّف كالبناء

(1) - نزار قبّاني، الأعمال السياسيّة الكاملة، ص 72

(2) - قبّاني، نزار، الأعمال الشعريّة الكاملة، م.س.

(3) - حبيبة محمدي، القصيدة السياسيّة في شعر نزار قبّاني، ص 29

السفونويّ من ملايين الأشياء... ابتداء من حبة المطر، إلى ورقة الشجر، إلى رغيف الخبز، إلى مزارب الماء، إلى رائحة الكتب إلى طيّارات الورق، إلى حوار الصراصير الليلية، إلى المشط المسافر في شعر حبيبتني، إلى سجادة صلاة أبي، إلى الزمن المحفور على جبين أبي من هذه الشرفة الواسعة، أرى الوطن وأحتضنه وأتوحد معه..(1)

والأجمل من كلّ ذلك أن نزار أحبّ وطنه الثاني لبنان، وعاش فيه مدة زمنيّة معيّنة حتّى ارتبطت روحه بكلّ جزء من هذا الوطن العربيّ الذي رآه ساحة للحرية، ومعبراً للراحة النفسية والاطمئنان الروحيّ، وكثيراً ما كان يغضب إذا تعرّض هذا البلد لإهانة، وبخاصّةً من قبل إخوانه العرب، فما هو يقول غاضباً حينما تعرّض هذا الوطن الصغير لبنان للحرب الأهلية:

كان لبنان لكم مروحةً

تتشرّ الألوان والظلّ الظليلا

كم هريتم من صحاريكم إليها

تطلبون الماء... والوجه الجميلا (2)

يعاتب نزار قباني العرب على إهمالهم لبنان، وتركه يتمزّق من داخله دون أن يساعده على إيقاف النزيف الدمويّ السائد فيه، حين قامت الحرب الأهلية تمزّق ما تبقى من هذا الوطن العربيّ. ويذكّرهم بأن «لبنان» كان لهم مروحة يأتون إليه ليستظلوا بطبيعته الخضراء، ويتنعموا بمناخه الصحيّ المنعش بعيداً عن شمس صحرائهم، فهو حينما يعاتب العالم على إهماله لبنان يعبر، في الوقت نفسه، عن شعوره الإنسانيّ والوطنيّ والقوميّ في آن. فهو يعتبر كل بلد عربيّ جزءاً من كيانه وأحاسيسه. فنزار قباني يمدّ نظرتّه نحو جميع البلاد العربيّة، ليحمل همومها ويدعو إلى نصرة كلّ بلد يعاني أو ينوء تحت عذاباته.

إنّ آراء نزار قباني الوطنيّة لا تغوص إلى أعماق الفكر، لكنّها نظرات تأملية تعتمد على النظرة الواعية بيّنها في تراكيب سهلة بسيطة بعيدة عن التّعقيد، يلحقها بالصورة المناسبة والفكرة التي يريد إيصالها. لذا نراه يعتمد على الأشياء البديهية، فلا يستغرق في النظر العقليّ، ولا يشطح في تأملاته، بل يسبح مع فكره على أرض الواقع،

(1) - نزار قباني، قصتي مع الشعر، ص 173

(2) - نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، ص 625

ويبقى همّه أن يحمل هموم الناس ومشاعرهم ولا يدور إلا في فلكهم⁽¹⁾. فالوطن، في نظره، بات مرسومًا في كلّ فاصلة، في كلّ رشّة حبر يتركها الأديب على الورق... رائحة الوطن هي رائحة مدادنا.. وشواطئه وجباله وأقماره ونجومه وعيون نسائه هي بعض أبجديتنا... بلادنا مجموعة كلمات⁽²⁾.

هكذا كان شعور نزار يخفي أبعادًا وطنيّة وقوميّة عربيّة، إذ في كلّ لفظة كان يقولها، نشعر بقيمة حبّه للوطن، فالكلمات في قصائده تتضح بهذا الحبّ العميق. وإلى جانب هذا البعد، هناك البعد النفسيّ، فكيف تجلّى هذا البعد في شعره؟

ثالثًا - البعد النفسيّ

الشّعر صورة معبّرة عن الإنسان، لأنه وسيلة كلاميّة يعبرّ الشاعر من خلاله عن حالته، وعن وضعه، وعن فرحه وحزنه، وعن آلامه وأمانيه، وعمّا يطمح إليه. لهذا كان الشّعر عند نزار وسيلة تريح نفسه المتألّمة، وتهبه نوعًا من الرّاحة والفرح؛ يقول:

شراعٌ أنا .. لا يطيق الوصول

ضياحٌ أنا .. لا يريد الهدى

حروفي ، جموع السنونو ، تمدّ

على الصّحو معطفها الأسودا

أنا الحرف . أعصابه . نبضه .

تمرّقه قبل أن يولدا ..⁽³⁾

اعتراف الشّاعر، في هذه الكلمات، ينحصر في إطار مفهومين: مفهوم الذات التائهة، ومفهوم الذات الممزّقة. في المفهوم الأوّل، يصور نفسه شراعًا تائهًا لا يودّ الوصول، بل يودّ أن يبقى في وسط البحر، لا يعرف أن يتوقّف، وهو شعور يخفي إحساسًا بالقلق والضياع. والمفهوم الثّاني يخفي إحساسًا بالضعف حين تتدخّل أعصابه لتمزيق الحرف قبل أن يولد، وما الحرف إلا صورة عن ذات الشّاعر المتألّمة، التي صوّرت حروف كلماتها كأنّها جموع السنونو تمدّ معطفها الأسود لتغطّي السّماء. فالصّورة هذه تخفي، في طيّاتها، وبعدها الدّلاليّ شكلاً من أشكال التشاؤم والسّوداوية. والأهمّ من كلّ ذلك، أنّ نزار قبّاني اعتمد ألفاظًا خاصّة بهذا المعنى، من خلال

(1) - العشماوي، محمّد زكي، أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنيّة، دارالمعرفة، الإسكندرية، 1997م

(2) - قبّاني، نزار، الشعر قنديل أخضر، منشورات نزار قبّاني، بيروت لبنان، ط 16، ص 170

(3) - قبّاني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، م.س.

كلمتي (شراع وضياع). ومن المعروف أن الشراع يرتبط بالسفينة المعرضة أن تضيع في مساحات البحار الشاسعة، فضلاً عن استخدامه لكلمة الحرف والحروف التي ربطها بأعصابه وبنبضه، ما يعني أنّ الحرف لا يصدر عن فكره إلاّ مجبولاً بنبضه وبتوتر أعصابه. فالصورة التي ينقلها هنا تعبّر عن الحالة المضطربة التي يعانها الشاعر. يقول في مكان آخر:

أيا امرأة تمسك القلب بين يديها

سألتك بالله لا تتركيني

لا تتركيني

فماذا أكون أنا إذا لم تكوني

أحبك جداً وجداً وجداً (1)

ينادي الشاعر حبيبته، المرأة التي يعشقها، راجياً إيّاها ألا تتركه، خوفاً من الذوبان والاختفاء، فهو يخسر كلّ شيء من دونها، حتّى الأنا/الذات، لا يصبح لها أي وجود في حال تخلّت عنه الحبيبة. هكذا نلاحظ أنّ نزار قبّاني إذا أحبّ، فحبّه يتحوّل إلى حالة استسلام وخضوع للمرأة، حتّى الذوبان، فهي إنّ رحلت عنه، لم يعد له وجود، بل يصبح لا شيء في هذه الحياة. إنّ هذه الصورة التعبيريّة تكشف لنا إلى أي مدى يمكن للشاعر أن يصله في حال اعتناقه الحبّ كقوّة تمسك بقلبه حتّى الثمالة.

وما نلاحظه في هذا الشاهد، اعتماد الإيقاع الموسيقيّ المتأثريّ من خلال حرف

النداء (أيا). فهو لم يقل (يا امرأة) إنّما أصرّ على استخدام (أيا)، لكي يهبّ شعره

الإيقاع المناسب المعبّر عن حالتين:

- حالة واقعه النفسيّ المضطرب، والذي يحتاج إلى لمسة المرأة.
- حالة الاعتراف الشديّد بحبّه، من خلال تكرار كلمة (جداً)، والتي كرّرها ثلاث مرات للتأكيد على حبّه العميق لها.

إذاً، نزار قبّاني صريح في تعابيره ولا يخفي الخداع، وهو حين يعبّر عن حبّه، فإنّما ذلك يكون صادراً من أعماق عاطفته. لنسمعه يقول في إحدى قصائده :

مبلل . مبلل

قلبي . كمنديل سفّر

كطائر ..

(1) - قبّاني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، م.س.

ظلّ قرونًا ضائعًا تحت المطر ..

زجاجة ..

تدفعها الأمواج في بحر القَدْر

سفينة مثقوبة

تبحث عن خلاصها ،

تبحثُ عن شواطئ لا تُنْتَظَرُ (1)

يعبّر، هنا، عن حالة الضياع التي يعيشها، وهي حالة تكشف إلى أيّ مدى يعترف نزار قبّاني بكلّ ما يعتمر قلبه وكيانه، أكان فرحًا أم حزنًا أم تعاسة أم ضياعًا، وهنا لم يتوان من أن يعترف أمام الجميع وأمام قرّائه، بأنه بات شبيهًا بطائر ظلّ ضائعًا قرونًا تحت المطر، وشبيهًا بزجاجة مرمية في البحر، تتقاذفها الأمواج وتتلاعب بها كأنها ضعيفة، واهنة، لا قوة لها. وليس هذا فحسب، فهو أيضًا صوّر نفسه سفينة مثقوبة الجدار تبحث عن خلاصها قبل أن تغوص في قاع البحر.

هذه الصوّر التعبيريّة التي جاءنا بها الشاعر كصورة عن حالته، تتضمن ثلاثة عناصر أساسيّة: العنصر الأول هو الطائر الضائع تحت المطر، يبحث عن مكان يأويه قبل أن تغرقه الأمطار؛ والعنصر الثّاني الزجاجة التي تدفعها الأمواج؛ والعنصر الثالث السفينة المثقوبة التي تبحث عن خلاصها، كأنّها لا تزال متأمّلة بالوصول إلى شاطئ الأمان. نلاحظ إذًا من خلال صورة الطائر حالة الضياع، ومن خلال صورة الزجاجة حالة الاستسلام، ومن خلال صورة السفينة حالة الانتظار والترقب بالوصول إلى شاطئ الأمان. والرّسيمة الآتية تكشف جماليّة الصورة التعبيريّة:

الصورة التعبيريّة	الحالة	البعد النفسي
الطائر	ضائع تحت المطر	الارتباك والاضطراب
زجاجة	تدفعها الأمواج	الاستسلام والخضوع
سفينة مثقوبة	تبحث عن خلاصها	الانتظار والأمل

يقول شاعرنا منشدًا :

قلبي يا صديقتي !

مدينة مغلقة ..

(1) - قبّاني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، م.س.

يخاف أن يزورها ضوء القمر
يضجر من ثيابه فيها الضجر ..
أعمدة مكسورة

أرصفة مهجورة يغمرها الثلج وأوراق الشجر .. (1)
يظهر الشاعر في هذا الشاهد كأنه سجين المدينة، فيستخدم ألفاظاً تدل على حالته
التعب والقلق، مثل:

مغلقة - يخاف - يضجر - مكسورة - مهجورة... فهذه الألفاظ تنطوي على
بعد دلاليّ يحمل في ثناياه قلق الشاعر وخوفه من الوحدة، لأنّ الصورة التعبيريّة
التي أرادها كانت تقوم على عناصر أساسيّة من المدينة، وهي الأعمدة والأرصفة.
فالأعمدة هي صورة للصمود والقوة والدّعامّة، والأرصفة هي صورة للحركة والحيويّة
والأمان. فالرّصيف لا يوضع إلاّ لحماية المارّة، وللسترحة، ولكنّ الشاعر أراد أن
تكون هذه الأرصفة مهجورة، فارغة، لا أحد يمرّ عليها، وهذا يعني أن الشاعر المعتاد
على الأصحاب وعلى الناس بات يرى في هذه الأرصفة شبيهاً به، بأنّه وحيد يعاني
القلق والخوف، لأنّ قلبه قد هجر الحبيبة، وبات يشعر بضجر الوقت والأيام. وهذا
الفراغ في قلبه، دفعه لأنّ يعترف للحبيبة بأنّه بات بحاجة إليها، يقول:

علمني حبك .. أن أحزن
وأنا محتاج منذ عصور
لامرأة تجعلني أحزن
لامرأة أبكي بين ذراعيها
مثل العصفور ..

لامرأة .. تجمع أجزائي

كشظايا البللور المكسور (2)

هذا الاعتراف الذي يمثّل الخضوع للمرأة يبرز لنا إلى أيّ مدى وصل الشاعر بحبّة
المرأة، حتّى بات يستجدي منها الحزن، وليبكي بين ذراعيها كأنّه طفل صغير. فهذا
الاستجداء لعاطفة المرأة ما هو إلاّ صورة تعبيريّة تكشف عن متانة تعلق الشاعر

(1) - قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، م.س.

(2) - قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، م.س.

بالمرأة، وجعلها وسيلة لبيت لها معاناته، واشتياقه إلى الحزن والبكاء، راجياً منها أن تجمع أجزاءه التي تناثرت كشطايا البلور المكسور. فكل كلمة من كلمات هذا الشاهد تنطوي على الحالة النفسية للشاعر، وهي حالة الانكفاء والخضوع للمرأة، والاستسلام لقوى العاطفة وليس للقوى العقلية. نحن نعلم أنّ الرجل الضعيف هو الذي يبكي بين ذراعي حبيبته، فما بال شاعرنا يعترف لنا بضعفه أمام المرأة، هل لأنّها ملكت حياته وأسرت قلبه، أم أنّه يجد سعادته في أن يبكي أمامها وفي حضنها كطفل صغير. ولكنّه في مكان آخر نراه يستعيد قوته، ويقول لها :

حاذري أن تقعي بين يديّ
 إنّ سمّي كلّه في شفقتي
 إنني أرفض أن أبقى هنا
 رجُلٌ كرسّيّ .. وتمثالاً غيبياً
 حاذري أن ترفعي السوط .. ألم
 تركبي قبل .. حصاناً عربياً
 نخزةً منك على خاصرتي
 تجعل الحقد بصدري بربرياً
 أنا شمشون .. إذا أوجعتني (1)

يتبدّى الشاعر في هذا الشاهد، صريحاً إلى أبعد الحدود، فهو يهدّد، والتهديد لا يتأتى إلاّ من شخص يعاني اضطراباً، أو حالة يائسة تدفعه إلى التعبير عما يجول في رأسه. والأغرب في هذا التهديد أنّ الشاعر يصوّر نفسه كأنّه شخص لا يُستهان به، في حال تخلت عنه الحبيبة أو حاولت أن تسيء إليه، وأن تعامله كتمثال غيبّي. فغضبه قد يحوِّله إلى شخص بربريّ يعشق العنف والأذى، أو قد يتحوّل إلى شمشون المعروف بقوة شعره، وبأنّ حبيبته خدعته وقصّت شعره، حتى ثارت ثائرتة، وهدم الهيكل على الجميع.

إنّ شاعرنا في هذه الصورة التعبيرية، نقل إلينا ثلاث صور متعاقبة تمثل العنف: الصورة الأولى تمثلت بالأفعى السامة التي تنفث سمّها القاتل، والصورة الثانية تمثلت بالبربريّ الحاقد، والصورة الثالثة بشمشون المدمّر. وفي هذه الصور تهيمن حالة

(1) - المصدر نفسه

الحقد الدفين الذي يكته للتي تسخر منه، أو تهينه، أو تجعله رجل كرسى تتحكّم به. فكرامته تأبى أن يكون ذليلاً، ويصعب عليه أن تتحكّم المرأة به وترفع السوط في وجهه. ولكن الغرابة أنّ رفضه هذا لم يكن ينم عن سلوك هادئ أو متزن، وإنّما كان سلوكاً تهديدياً عنيفاً للدلالة على نفسه المحطّمة التي سببتّها له المرأة.

ولقد استطاع نزار قبّاني أن يستعمل الألفاظ بدقّة متناهية، وذات إيقاعية موسيقية، ودلالات معبرة: فاستعمل الكلمات الآتية بشكل مهنيّ دقيق : السمّ، السوط، رجل الكرسى، التمثال الغيبي، الحقد، شمشون. ويستعمل أيضاً فعل الأمر مرتين (حاذري أن) للدلالة على تأكيد ما يودّ قوله، أو تأكيد تهديده في حال خالفت ما يقول. «فالتكرار لا يقتصر على تكرار الأصوات فقط، بل يتعدّها إلى تكرار الكلمات من الأسماء والأفعال وغيرها، فترديد الشاعر لكلمة معيّنة يكون لها غاية دلالية أو بلاغية أو إيقاعية، فهدف التكرار، إذًا، لا ينحصر فقط بالتأكيد، وإنّما في خلق جوّ موسيقيّ يشيع دلالات معيّنة»⁽¹⁾. لأنّ الشّعر يكون أكثر تعبيراً عن النفس حينما تعزّيه النغمات والإيقاعات الموسيقية، وكلما اقتربت الموسيقى من كلمات القصيدة كلّما استطاع الشاعر أن يعبر عن أحلامه وأمنيّاته، ويفجّر طاقته النفسية بكلّ حرية وسهولة.

الخاتمة

هكذا لاحظنا أنّ الشّاعر نزار قبّاني هو شاعر المرأة بامتياز، ولكنّه شاعر الوطن أيضاً، وشاعر الفقراء والبؤساء، يحمل همومهم في ثنايا أشعاره، ولا يترك ساحة أو قضية اجتماعية إلا وتطرّق إليها، وعبر عن تأييده لها في حال كانت لمصلحة الإنسان والوطن، وعن انتقاده لها في حال خالفت الأصول وتعدّت على الحقوق. فالشواهد الشعرية التي أشرنا إليها في سياق هذا البحث تضمّنت بعضاً من آراء الشّاعر ومواقفه إزاء الوطن العربيّ والقومية العربية، وإزاء المجتمع العربيّ عموماً والإنسانيّ خاصّة، إذ وجدناه لا يتوانى عن ملاحقة أيّ موضوع يثير فيه حمية العروبة أو حمية الدفاع عن الإنسان. والأمر المثير أنّ المرأة كانت دومًا حاضرة في هذه القضايا، فإذا تناول المجتمع وما يعانیه من صعوبات، كانت المرأة حاضرة في

(1) - مصطفى السعدني، البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربيّ، مرجع سابق، ص 187

تثايا الصور الاجتماعية المعبرة، وهو إذا تناول قضية الوطن والعروبة، كانت المرأة أيضاً حاضرة في ذلك.

واللآفت في تحليلنا لهذه القضايا، أن نزار قبّاني، مثله مثل أيّ إنسان يعاني القهر والعداب، أو يشعر بالفرح والسعادة، يحزن ويتألم، يفرح ويضحك، يقلق ويضطرب، حتى بات شعره متنفساً له، يبيث من خلاله معاناته وأفراحه. ولهذا رأينا في بحثنا هذا أنه كان إنساناً يغضب ويحقد إذا مُسّت كرامته أو كرامة أيّ وطن عربيّ، ويثور بعنف إزاء المرأة المتسلّطة، ويهدأ ويخضع للمرأة التي تشاطره الحبّ والحنان...

فهرس المصادر والمراجع

1. بارت، رولان، لذة النصّ، ترجمة: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، لا ت.
2. حبيبة محمدي، القصيدة السياسية في شعر نزار قبّاني، موفيم للنشر، جامعة أوهايو، 2001 .
3. ريفاتير، ميكائيل، معايير تحليل الأسلوب، ترجمة: حميد الحمداني، دار النجاح، الدار البيضاء، 1993
4. الزين، عبد الفتاح، قضايا لغويّة في ضوء الألسنية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط1، 1987
5. السعدني، مصطفى، البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1992
6. العشماوي، محمّد زكي، أعلام الادب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنيّة ، دارالمعرفة، الإسكندرية، 1997م
7. العيد، رجاء، التجديد الموسيقي في الشعر، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2001
8. قبّاني ، نزار ، الأعمال السياسيّة الكاملة، منشورات نزار قبّاني، بيروت لبنان، لا ت.
9. قبّاني ، نزار ، قصتي مع الشعر، منشورات نزار قبّاني، بيروت لبنان، 2000
10. قبّاني ، نزار ، الاعمال الشعرية الكاملة، منشورات نزار قبّاني، بيروت، ط13، 1993
11. قبّاني ، نزار ، الشعر قنديل أخضر، منشورات نزار قبّاني، بيروت لبنان، 1985
12. قبّاني ، نزار ، ديوان مئة رسالة حب، منشورات نزار قبّاني، بيروت، لبنان، 2005،
13. مجلة آداب، البصرة ، العدد 56 ، 2011
14. محمد، عبد الحميد ، في إيقاع شعرنا العربي وبيئته، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2005

تداعيات العولمة وتأثيرها على اقتصاد دول العالم الثالث د. أحمد علي السبع

مقدمة

لعلّ موضوع العولمة يكون من المواضيع الأساسية والمهمّة التي يتطرّق إليها الباحثون خاصّة في دول العالم الثالث على مرّ الزمن، ويتمثّل في الانبهار بالثورة التكنولوجيّة القائمة على قدم وساق في العالم الغربيّ، لدرجة أنّه بات يرى فيها القدرة على حلّ المشكلات أيّاً كان نوعها، وهو تاليّاً يجري وراءها بوعي أو من دون وعي، فمن يعاني من نقص رأس المال يستوي مع من لديه فائض منه من العمل بكلّ الطّرق الممكنة على استيراد أحدث الصّيحات التكنولوجيّة في عالم الصّناعة وغيرها، فما يكاد يظهر في الغرب تقدّم تكنولوجي حتّى تجد من يحاول الحصول عليه في العالم الثالث. وما يكاد يحصل عليه حتّى يظهر في الغرب ما يفوقه تقدّمًا وحدائثه، يجعله متخلّفًا من النّاحية التكنولوجيّة وغيرها التي يعدها العالم الغربيّ أسواقًا لتصرف إنتاجه والسيطرة على أسواقها وأرزاقها من خلال الهيمنة على الأيديولوجيّة الإنسانيّة كسبيل خلاص لها للتقدّم والتّطور والنّهوض الاقتصاديّ.

إنّ العولمة أصبحت مصطلح العصر الحالي، وكثير الحديث عنها في مختلف الأوساط الجامعيّة والإعلاميّة والتّيّارات الفكرية والسياسيّة وبالإضافة إلى من يلقي الضّوء على الأديان السّماويّة المختلفة التي لم تكن تحصر في عرق من الأعراق أو بلد من البلدان لأنّها تُعنى بما تحمله النّفس الإنسانيّة من قيم أخلاقيّة على مختلف أبعادها الإلهيّة، وكثيرًا ما يرتبط مفهومها في أذهان كثير من الناس بالتقدّم والرّقي والانفتاح الاقتصاديّ لأنّه من أبرز مظاهرها، ولكن في واقع الحال تشمل العولمة كلّ الميادين الإنسانيّة الثّقافيّة الاجتماعيّة السياسيّة الاقتصاديّة والدينيّة فهي تسيطر في إدّعاءاتها ومناوراتها الفكرية على مختلف هذه الأبعاد الإيديولوجيّة.

والجدير ذكره هنا، أنّ مصطلح الإيديولوجيّة دخيل على اللسان العربي وسعى بعض الكتّاب العرب إلى إيجاد مقابل لهذا المصطلح مثل إقراح كلمة "أدولجه" على وزن "أفعولة"، وهي ترجمة وجيهة تحافظ على المنظور الإشكالي للمفهوم، دون النّظر فقط إلى المعنى اللغوي⁽¹⁾.

(1) تومي، عبد القادر، العولمة فلسفتها، مظاهره، تأثيراتها، كنوز الحكمة، 2009م، ص 59.

وعليه يمكن تعريف الإيديولوجية بحسبانها نظامًا من الأفكار المشتركة والعقائد الموحدّة والمعايير والقيم المرشدة يتم القبول بها كحقائق من قبل مجموعة معيّنة من النّاس⁽¹⁾.

وتستخدم العولمة خطابًا أيديولوجيًا يعبر عن هيمنة القوى الكبرى على بقية العالم، متّخذة من شعار "البقاء للأقوى" منهجًا للتعبير عن سياسة هذا النّقوّق. وتأتي سيطرة الولايات المتحدة الأميركيّة اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا لتصبّ في هذا السّياق، اعتمادًا على الدّور الذي تقوم به أكاديميًا من خلال مفكرين وكتّاب، وإعلاميًا من خلال دور الإعلام، بالإضافة إلى دور الإنترنت في التّرويج للإنتاج الأمريكي عبر مختلف الصّفحات الإعلاميّة⁽²⁾.

لم يظهر مصطلح العولمة بشكل مفاجئ، ولكنه نتاج متراكم، ويعدّ العرب المساهم الأول في انتشار العولمة قديمًا، وذلك من خلال التّجارة حيث كان يسافر العرب إلى بلدان مختلفة لبيع منتجاتهم التّجاريّة التي كانت تنقل معها ثقافتها العربيّة، بالإضافة إلى تعلّمهم ثقافات مختلفة مثل ثقافة الفرس والروم قديمًا.

يعدّ بداية ظهور العولمة بشكلها الحالي، بعد الحرب العالميّة الثانية، فور تحقيق الدّول الأوروبيّة لانتصارات متعدّدة في الحرب على دول المحور بفضل حصولها على دعم من الولايات المتحدة الأميركيّة، مما أدى إلى تمكين الولايات المتحدة من التّدخل الاقتصادي والتّكنولوجي إلى جانب الدول الحليفة لها، والمحاربة على أراضٍ أخرى لتحقيق السّيطرة على العالم، ونشر ثقافتها لدول العالم المختلفة، وحقّقت إنتصارات في تلك الحروب، والتي انعكست على كافة المجالات المختلفة حول العالم⁽³⁾.

مفهوم العولمة

إزداد حجم التّجارة العالميّة بشكل كبير في ظل خدمات البنوك متعدّدة الجنسيّات وتدفّق البضائع عبر الدّول البحريّة، وسهولة تداول العملات الرئيسيّة وتسهيل تجارة البضائع ذات أهميّة خاصّة، كما ظهرت أسماء ماركات تجاريّة شهيرة «مثل كوكا كولا وسنجر» التي تمّ ترويجها من خلال الحملات الدّعائيّة عبر الحدود من أجل زيادة المبيعات. ولم يكن ذلك ممكنًا لولا الابتكارات الهائلة في وسائل النّقل البريّة

(1) محسن، حاتم حميد، الموجز في العولمة، كيوان للطباعة والنشر، ط1، 2008م، ص 89.

(2) تومي، عبد القادر، العولمة فلسفتها، مظهره، تأثيراتها، مرجع سابق، ص 40-42.

(3) طايح، منى، تعرّف على مفهوم العولمة ونشأتها.. وأهدافها.. وإيجابيتها وسلبيّتها، أخذت بتاريخ 27/11/2020

من موقع كلمتين <https://bit.ly/3gfgaLO>

والبحرية والجوية، وإلغاء الحواجز الجغرافية وتأسيس بنية تحتية عالمية بالإضافة إلى التطور في العلوم التكنولوجية التي ساهمت في تطوير وسائل الإتصال التكنولوجية مما أدى إلى ظهور شركات إتصال لنقل المعلومات بسرعة على كافة أنحاء الكرة الأرضية والتقارب السريع والترابط الشديد بين مختلف شعوب العالم⁽¹⁾.

وقد ذهب معظم الباحثين الى أن المعنى المجرد لمصطلح عولمة هو «تعميم شيء معين في العالم أجمع، أو السيطرة على العالم كله بجعله يجري على نسق واحد».

عرفت العولمة لغة بأنها لفظ مشتق من كلمة عالم، ومصدرها عوالم، وتعني حرية انتقال وتدفق المعلومات، والأفكار، والسلع، ورؤس الأموال، والمنتجات الثقافية، والإعلامية، والبشر أنفسهم، بين جميع المجتمعات الإنسانية حيث تجري الحياة في العالم كمكان واحد أو قرية واحدة صغيرة ترفع الشركات العملاقة شعار العولمة لتستطيع التداخل بين جميع الدول بلا قيد.

أما العولمة إصطلاحاً فلا يوجد تعريف محدد، أو ثابت لمفهوم العولمة إصطلاحاً، وذلك لأن الغرض الأساسي منها له علاقة بالرأسمالية، ولذلك إتجه العديد من الكتب إلى ربط العولمة بنموذج الحضارة الغربية والأمريكية، ويمكن تعريفها على أنها توحيد العالم بصبغة واحدة، تشمل جميع النواحي الاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، بغض النظر عن الدين أو العرق، أو اللون، أو الجنس، أو الثقافة⁽²⁾.

لفظة العولمة هي ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Globalization) وبعضهم يترجمها بالكونية، وبعضهم يترجمه بالكوكبة، وبعضهم بالشوملة، إلا إنه في الآونة الأخيرة اشتهر بين الباحثين مصطلح العولمة وأصبح هو أكثر الترجمات شيوعاً بين أهل السياسة والاقتصاد والإعلام. وتحليل الكلمة بالمعنى اللغوي يعني تعميم الشيء وإكسابه الصبغة العالمية وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله.

ويمكن تقسيم هذه التعريفات إلى ثلاثة أنواع⁽³⁾: ظاهرة اقتصادية، وهيمنة أمريكية، وثورة تكنولوجية واجتماعية.

(1) محسن، حاتم حميد، الموجز في العولمة، مرجع سابق، ص 33-30.

(2) محسن، حاتم حميد، الموجز في العولمة، المرجع نفسه.

(3) بقنه، مبارك عامر، مفهوم العولمة ونشأتها، أخذت من موقع صيد الفوائد بتاريخ 30/11/2020، <https://bit.ly/2ITZ94y>

1- العولمة ظاهرة اقتصادية:

عرّفها الصندوق الدولي بأنها: «التعاون الاقتصادي المتنامي لمجموع دول العالم والذي يحتمّه إزدياد حجم التّعامل بالسلع والخدمات وتتوّعها عبر الحدود إضافة إلى رؤوس الأموال الدوليّة والانتشار المتسارع للتقنيّة في أرجاء العالم كله.

وعرفت بأنّها: «العملية التي تملّي على المنتجين والمستثمرين التّصرف وكأنّ الاقتصاد العالمي يتكوّن من سوق واحدة ومنطقة إنتاج واحدة مقسّمة إلى مناطق اقتصاديّة وليس إلى اقتصاديّات وطنية مرتبطة بعلاقات تجاريّة وإستثماريّة».

فضلاً عن أنّها « تعني بشكل عام إندماج أسواق العالم في حقول التجارة والإستثمارات المباشرة، وانتقال الأموال والقوى العاملة والثّقافات ضمن إطار من رأسمالية حرية الأسواق، وتالياً خضوع العالم لقوى السوق العالميّة، مما يؤدي إلى اختراق الحدود القوميّة وإلى الإنحسار الكبير في سيادة الدولة، وأنّ العنصر الأساسي في هذه الظاهرة هي الشركات الرأسمالية الضخمة متخطية القوميات. بهذا التّعريف للعولمة ركّز على أنّ العولمة تكون في النّواحي التجاريّة والاقتصاديّة التي تجاوزت حدود الدولة مما يتضمّن زوال سيادة الدولة، حيث أنّ كلّ عامل من عوامل الإنتاج تقريباً ينتقل من دون جهد من إجراءات تصدير واستيراد أو حواجز جمركية، فهي سوق عولمة واحدة لا أحد يسيطر عليها كشبكة الإنترنت العالميّة.

2- العولمة هيمنة أمريكية:

العولمة هي «العمل على تعميم نمط حضاريّ يخص بلدًا بعينه، وهو الولايات المتحدة الأمريكيّة بالذات، على بلدان العالم أجمع»، فهي بهذا التعريف تكون دعوة إلى تبنّي إيديولوجية معينة تعبّر عن إرادة الهيمنة الأمريكية على العالم.

3- العولمة ثورة تكنولوجيّة واجتماعيّة:

العولمة «علاقة بين مستويات متعددة للتّحليل: الاقتصاد، السياسة، الثّقافة، الإيديولوجيا، وتشمل إعادة تنظيم الإنتاج، تداخل الصناعات عبر الحدود، إنتشار أسواق التمويل، تماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول، نتائج الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة». وعرّفها بعضهم بأنّها: «الاتجاه المتنامي الذي يصبح به العالم نسبياً كرة اجتماعيّة بلا حدود. أي أنّ الحدود الجغرافية لا يعد بها حيث يصبح العالم أكثر اتّصلاً مما يجعل الحياة الاجتماعيّة متداخلة بين الأمم».

فهو يرى أنّ العولمة شكل جديد من أشكال النّشاط، فهي امتداد طبيعي لانسياب

المعارف ويسر تداولها يتم فيه الانتقال بشكل حاسم من الرأسمالية الصناعيّة إلى المفهوم ما بعد الصناعيّة للعلاقات الصناعيّة.

وهناك من يعرفها بأنّها: «زيادة درجة الإرتباط المتبادل بين المجتمعات الإنسانيّة من خلال عمليات انتقال السلع ورؤوس الأموال وتقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات».

أنواع العولمة

من الطّبيعي أن تختلف مفاهيم العولمة باختلاف أبعادها وتجلياتها، ويمكن أن تظهر وتتنوّح في الأبعاد الأساسيّة التالية، البعد الاقتصاديّ، البعد السّياسيّ، البعد الثّقافيّ، البعد الاجتماعيّ والبعد الاتصاليّ، هذا ما يعطي معه عدة أنواع للعولمة حسب أبعادها.

1- العولمة الاقتصاديّة

ترتكز العولمة الاقتصاديّة على مفهوم إقتصاد السوق، فهي عملية سيادة مذهبية السوق وقوانينه على كافة الكرة الارضيّة لتجعل العالم منطقة تجارة موحّدة⁽¹⁾، يدخل إليها الأغنياء والفقراء حيث تكون معايير السوق، أي العرض والطلب، هي الفاصل في تحديد القرارات، وعدم تدخل الحكومات في النّشاط الاقتصاديّ وربط إقتصاد الدول النّامية بالإقتصاد العالمي⁽²⁾، فالعالم يتفتّح على بعضه ومعه تزداد سرعة النّقل والمواصلات، وتتّسع حدود السوق حيث تزول الحواجز أمام السلع والخدمات والأشخاص ورؤوس الأموال، فالعولمة الاقتصاديّة تدعو إلى تعميم الإقتصاد والتّبادل الحر كنموذج مرجعيّ، وإلى قيم المنافسة والإنتاجيّة، وهي تعد العالم بالتّطور والرّفاه⁽³⁾.

وتظهر العولمة الاقتصاديّة أساسًا في نمو وتعميق الاعتماد المتبادل بين اقتصاديّات الدول الوطنيّة، وفي وحدة الأسواق الماليّة، وهذه التّجليات الاقتصاديّة برزت بوضوح من خلال التّكتلات الاقتصاديّة العالميّة، بالإضافة إلى تنامي دور ونشاط الشركات

(1) يحيواوي، سمير، العولمة وتأثيرها على تدفق الإستثمار الأجنبي المباشر إلى الدول العربيّة حالة الجزائر، رسالة ماجستير في العلوم الاقتصاديّة، تخصص التحليل الاقتصادي، كلية العلوم الاقتصاديّة وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2004م/2005م، ص 13.

(2) زايد، فهد خليل، رمان، محمد صلاح، العولمة الاقتصاديّة، الأردن، دار الإعصار العلمي للتوزيع والنشر، ط1، 2014م، ص 14.

(3) يسين، السيد وآخرون، العرب والعولمة، بيروت، مركز الدراسات الوحدة العربيّة، ط1، 1998م، ص 44.

المتعددة الجنسيات، والمؤسسات المالية الدولية⁽¹⁾.
ففي الوقت الذي يروج فيه بأن العولمة الاقتصادية تعود بالرفاه والتقدم على الجميع، فإن مشكلاتها كثيرة ومنها:

- المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي تعانيها بلدان المركز الرأسمالي، فمثلاً يبلغ مستوى البطالة في الإتحاد الاوروبي أكثر من 20 %، ففي فرنسا مثلاً 12 %، وألمانيا 10 %⁽²⁾.

- الأزمة المالية لبلدان شرق آسيا، وتوالي مضاعفاتها السلبية واحتمال إنتقال هذه الأزمة إلى بلدان أخرى.

- تطوّر الأزمة التّنمويّة في البلدان النامية.

وتتأثر بالنسبة إلى التّجليات الاقتصادية للعولمة الإشكالات التالية:

- صلاحية نظام حرية السوق ليكون أساس التّنمية في مختلف بلدان العالم.
- المخاطر التي يمكن أن تتجم عن التّنمية الوحيدة البعد، والتي تركز على الجانب الاقتصادي فقط.

- مدى تأثير العولمة في مفهوم السيادة الوطنية ومصير الدولة من ناحية تأكيده أو تغيير صورته.

2- العولمة السياسية

لا تزال العولمة السياسية في بواكرها الأولى، وهي من الظواهر الجديدة التي تحتاج للمزيد من البحث والدراسة، فرغم تداول المصطلح إلا أنه لم يتم تعريفه بدقة أو وضع تحديد شامل لعناصره⁽³⁾.

والعولمة السياسية تركز على تعويم الرؤية الغربية للديمقراطية والتعددية الحزبية وحقوق الإنسان والحريات الفردية على النطاق الكوني.

فمفهوم الديمقراطية منذ أن ظهر في الفلسفة اليونانية يعني حكم الشعب نفسه بنفسه، فهي لم تعد اليوم شكلاً من أشكال الحكم فقط، بل أصبحت منهاجاً للتفكير وأسلوب للحياة داخل المجتمع.

(1) السيسي، صلاح الدين حسن، الاقتصاد الدولي، العولمة والتحوّلات الاقتصادية الدولية، القاهرة، دار الكتاب الحديث، ط1، 2013م، ص 64.

(2) عبد الله، إسماعيل صبري، كلمة العولمة مضللة، في العولمة، هيمنه منفردة في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، مصر، دار جهاد للنشر والتوزيع، ط1، 1999م، ص 47.

(3) زبيدي رمضان، العولمة والبنى الوظيفية الجديدة للدولة، مركز الكتاب الاكاديمي، عمان، ط1، 2012م، ص 25.

أما التّعديّة السياسيّة فهي تعبّر عن الحرّيّة السياسيّة، وما تتطلّب من زيادة المشاركة الشعبيّة لتوسيع ممارسة الديمقراطيّة. والحرّيات الفرديّة تشمل حرّيات الأفراد والجماعات في التّعبير عن آرائها كما يعتبر مبدأ احترام حقوق الإنسان من أهمّ الشروط الأساسيّة للرقيّ الاقتصاديّ والاجتماعيّ، وتتمثل في الحقوق المدنيّة والسياسيّة، كالحق في الحياة، وعدم الخضوع للتّعذيب، وحقّ الانتخاب.. ، وفئة الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، كالحق في العمل والحق في التّعليم والصّحة والحق في الضّمانات الاجتماعيّة⁽¹⁾، وتظهر العولمة السياسيّة في سقوط الشموليّة والسلطويّة، والنزوح نحو الديمقراطيّة والتّعديّة السياسيّة واحترام حقوق الإنسان⁽²⁾، حيث ظهر إتجاه غالب يؤكّد على عالميّة حقوق الإنسان، وتمّ اجتياح الديمقراطيّة لأغلب مجتمعات المعمورة، وأصبحت بالتالي حقوق الإنسان وحرّياته أهمّ الشعارات المتداولة على الصّعيد العالمي، وهذه التّجليات السياسيّة تظهر بوضوح من خلال التّجمعات والمؤتمرات والحوارات العالميّة، كالمؤتمر العالمي لحقوق الإنسان المنعقد في فيينا سنة 1993م ، والمؤتمر العالمي للمرأة في بكين سنة 1995م⁽³⁾.

ففي الوقت الذي تبشر فيه العولمة السياسيّة بالديمقراطيّة وحقوق الإنسان، نجد أنّ هذه القيم تُنتهك في كثير من بلدان العالم، إمّا بسبب المصالح التّجاريّة أو تحت غطاء الشّرعية الدّوليّة.

وتثار بالنسبة إلى تجلّيات العولمة السياسيّة الإشكالات التالية:

- مدى صلاحية الديمقراطيّة الغربيّة لتكون نموذجاً سياسياً وحيداً في مختلف دول العالم.
- مشكلة ازدواجيّة المعايير في تطبيق قواعد حقوق الإنسان في العالم ككلّ والتّوظيف السّياسي لها من قبل الأطراف المهيمنة على العلاقات السياسيّة الدّوليّة.
- مدى إمكانية أن تصبح الحرّيات الفرديّة اللّغة المشتركة للإنسانيّة جمعاء.
- ويبقى التّنويه أنّ العولمة السياسيّة مرتبطة بعولمة الاقتصاد، حيث تهدف الديمقراطيّة إلى بناء نظام اقتصاديّ يسمح بإشباع حاجات الأفراد بعيداً عن تدخل الدولة من

(1) يوسف، محمد فهميم، عولمة حقوق الإنسان أم عولمة الفهم الغربي لحقوق الإنسان، مجلة المستقبل العربي، عدد 235، 1997م، ص 64.

(2) عمار، عبد الحليم، العولمة الاقتصاديّة، سوريا، دار أبي الفداء العالميّة للنشر والتوزيع والترجمة، 2013م، ص 28.

(3) عماد، عبد الغني، سوسيولوجية الثقافة المفاهيم والإشكالات من الحداثة الى العولمة، بيروت، ط2، 2008م، ص 276.

خلال المبادرة الفردية، حيث تم إقرار حقوق الإنسان من أجل وضع الفرد في مواجهة الدولة وتقليل احتمال نشوء أنظمة دكتاتورية، ولهذا فإن العولمة السياسية تهدف الى تعميق الديمقراطية في البلدان النامية والإشراك سابقاً، والضغط على بعض الأنظمة الباقية كالصين وكوبا.. ، من أجل إيجاد فضاء للحرية التي تحقق المزيد من الإنفتاح الكلي للاقتصادات المحلية على الاقتصاد العالمي بما يخدم المصالح الإستراتيجية للاقتصاديات القوية في العالم⁽¹⁾.

3- العولمة الثقافية

ترتكز العولمة الثقافية على مفاهيم تعويم أنماط الحياة وأساليب الإستهلاك الغربية، عن طريق قبوله الذوق والمأكّل والملبس، أي محاولة توحيد القيم والأفكار وأشكال السلوك في ثقافة عالمية واحدة تتمحور حول الذات الغربية، ولقد دخلت الثقافة بوصفها منتج اجتماعي، ميدان العملية الاقتصادية وأصبحت سلعة مثل السلع المادية تتداول في سوق يسودها الأقوى تكنولوجيا، الأمر الذي يفرض القول بأنّ التبادل الثقافي العالمي الجاري في ركاب التجارة الحرة، تبادل غير متكافئ ولا يعبر عن أي إمكانية لتحويل العولمة الثقافية إلى مستوى متوازن بين الثقافات والشعوب والمجتمعات⁽²⁾.

وتظهر العولمة الثقافية من خلال عملية استبدال الثقافة المكتوبة بالسمعي البصري، أي سيادة ثقافة الصورة كأداة للنظام الثقافي الجديد الذي أصبح مصدر إنتاج القيم والأذواق، فالصورة اليوم هي المادة الثقافية التي يجري تسويقها في العالم، حيث تمكنت من تحطيم الحاجز اللغوي وصنع الذوق الاستهلاكي (الإشهار التجاري) والرأي السياسي (الدعاية الانتخابية)، فالعولمة الثقافية تشمل الموسيقى والسينما والتلفزيون والرّي والطراز، وهي تسعى إلى فرض أزياء معينة حتى أصبح خبراء الأزياء يحتلون مرتبة علماء الطاقة النووية، فهم يعملون لهندسة وقولبة الأفكار والأذواق وصناعة أسباب الجاذبية في عصر الصورة والإعلام السمعي البصري الذي يؤثر على النموذج الاستهلاكي للمجتمع من خلال أثر المشاهدة⁽³⁾.

ففي الوقت الذي تروج فيه العولمة الثقافية بتقافة عالمية موحدة، نجد أن مشكلات

(1) يحيواي، سمير، العولمة وتأثيرها على تدفق الإستثمار الأجنبي المباشر إلى الدول العربية حالة الجزائر، مرجع سابق، ص14.

(2) عمار، عبد الحليم، مرجع سابق، ص30.

(3) الوالي، عبد الجليل كاظم، جدلية العولمة بين الإختيار والرفض، الإمارات العربية المتحدة، دار الكتاب الجامعي، 2010م، ص40.

الإختراق الثقافي هي في دول الجنوب والشمال على حد سواء، ففي الجنوب تهدد العولمة الثقافية العادات والتقاليد والهويات والقيم، أما في الشمال فتعاني الكتلة من هيمنة النموذج الأمريكي، وتسعى الدول المتقدمة لمواجهة ذلك في إطار الإحتماء بالتكتلات الاقتصادية، ومن بين الأدلة على ذلك هو أن أحد القوانين المعمول بها أوروبياً يفرض أن تكون نسبة 51% من المواد المعروضة تلفزيونياً من إنتاج أوروبي، كذلك فإن الحكومة الفرنسية تدفع أموالاً معتبرة كل سنة دعماً لكل من ينتج أفلاماً ناطقة بالفرنسية وذلك لمواجهة الأفلام الأمريكية في فرنسا، ومن خلال ذلك يتبين أن دول الإتحاد الأوروبي تصرّ على أن تكون لها هويتها الثقافية الخاصة بها لمواجهة خطر الدوبان في الهوية الأمريكية.

وتثار بالنسبة للتجليات الثقافية للعولمة الإشكالات التالية:

- مدى إمكانية وجود ثقافة عالمية واحدة.
- العدوان على الخصوصيات الثقافية للمجتمعات من خلال التغريب للمواطنين عن مجتمعاتهم.
- تحطيم الشعور بالانتماء لأمة أو وطن، مع إحلال أفكار جديدة من نوع الفردية العالمية والاعتماد المتبادل.

العولمة الثقافية مرتبطة بعولمة الاقتصاد، حيث تحاول فرض نموذج معين للثقافة الاستهلاكية في مواجهة أساساً لدعم العامل الاقتصادي والتجاري، كما أن عولمة الاقتصاد لن تكون من دون العولمة الثقافية، فهي ثقافة إخبارية إعلامية سمعية بصرية⁽¹⁾، تؤثر في الأفكار والسلوك فتحدث تغييرات في التكوين الثقافي والأخلاقي والفلسفي للأمم والشعوب، بشكل يجعل نمطها الإستهلاكي مرتبطاً بالمنتجات السلعية والخدمية التي تقدمها الاقتصادات المتقدمة.

4- العولمة الاجتماعية

ترتكز العولمة الاجتماعية على مفهوم المجتمع المدني العالمي أو ما يعرف بالشعب العالمي المهموم بمشكلات وقضايا عالمية جعلت المجتمعات تنظر إلى نفسها بمزيد من الإرتباط والتواصل والتقارب والاهتمام ببعضها والإحساس بالمسؤولية المشتركة إزاء الأخطار التي تواجه الكوكب الأرضي، فالمشاكل والمعضلات التي تطرحها هذه

(1) الجابري، محمد عابد، العولمة والهوية الثقافية، بيروت، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، عدد 228، 1998م، ص 312.

الظاهرة ليست محصورة بقطر أو قارة واحدة بل إنها ذات طابع كوني شامل، وتتطلب فعلاً إنسانياً وسياسات سليمة إزائها مما أفضى أيضاً إلى عولمة الآمال والطموحات ونشوء الحاجة إلى عولمة الفعل والتحرك المشترك لشعوب العالم أجمع نحو أهداف مشتركة ومحددة⁽¹⁾.

وتظهر العولمة الاجتماعية من خلال بروز قضايا مشتركة لها صفة العالمية كقضية حماية البيئة والصحة العالمية، وقضية الانفجار السكاني وانتشار الفقر والجوع وتحركات سكان الأرض، وقضية الجريمة المنظمة ومخاطر التسلح النووي الشامل، وقضية انعدام المساواة الاقتصادية والتباين الواسع في توزيع الفرص على مستوى المعمورة. هذه المشكلات التي بدأت تأخذ طابعاً عالمياً بعد أن ازداد تفاقمها وتُحتم إجراء تعاون عالمي.

وتثار بالنسبة إلى التجلّيات الاجتماعية للعولمة الإشكالات التالية:

- مدى إمكانية تحقيق مجتمع عالمي.
- مدى تأثير بروز الشعب العالمي في الشعب الخاص بالدولة والذي يمثل إحدى مقومات الدولة الأساسية.
- الدور الذي تؤديه مؤسسات المجتمع العالمي كالمُنظمات غير الحكومية.

5- العولمة الاتصالية

ترتكز العولمة الاتصالية على مفهوم القرية الكونية كوصف مقبل للكرة الأرضية في عصر إعجاز الاتصالات والتواصل، وهي ترفع شعار المعلومات في كل وقت وفي كل مكان ولكل الناس⁽²⁾، فالتطور الحاصل في ثورة الاتصالات جعل من العالم قرية واحدة من حيث تداول المعلومات المكتوبة والمرئية والمسموعة.

وتظهر العولمة الاتصالية من خلال دور أجهزة الاتصال وأدواته المتمثلة في الأقمار الصناعية التي تمكّن من رؤية الأحداث التي تتم في إحدى مناطق المعمورة بعد أو في لحظات وقوعها، ويأتي الإرسال التلفزيوني كترجمة لرسائل الأقمار الصناعية، بينما تقف وراء كل ذلك الإحتكارات العالمية الكبيرة المتمثلة في وكالات الأخبار الفضائية مثل وكالة رويترز البريطانية ووكالة الأنباء الفرنسية وغيرها. فضلاً عن شبكة الإنترنت التي تعد تجسيداً فعلياً لتسمية القرية الكونية الالكترونية،

(1) سرو، أحمد فتحي، العالم الجديد بين الاقتصاد والسياسة والقانون، مصر، دار الشروق، ط2، 2005م، ص 34.

(2) علي، نبيل، ثورة المعلومات، بيروت، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط1، 1997م، ص 117.

حيث تسمح بنقل المعلومات في المجال العلمي وإرسال البيانات في الجانب الاقتصادي، حيث تحوّل المعارف إلى خدمات معلوماتية، فعدد مستخدمي الإنترنت يتزايد بشكل رهيب، وأصبحت هذه الوسيلة فعّالة لتنشيط السوق التجارية العالمية، عن طريق الفرع الجديد المسمى «التجارة الإلكترونية».

بالإضافة إلى الحواسيب الإلكترونية فالإنسان الذي يملك جهاز حاسوب وخط هاتف رقمي وإشتراك في شبكة الإنترنت، يمكنه أن يصل إلى بنوك المعلومات التي يريدها من أحوال للطقس ومواعيد الرحلات المختلفة وحجز للمقاعد و...

ففي الوقت الذي تروّج فيه العولمة الاتصالية بحق الإنسان في المعلومة، فإنها تخفي جانب آخر، حيث تعمل على تعميق الهوة بين الذين يملكون والذين لا يملكون، فوضعية التدفق الإعلامي غير متوازنة، فنحن نعيش أكثر عصور إحتكار المعلومات قوّة، وهذا عكس ما يدّعيه منظرو العولمة⁽¹⁾.

وتثار بالنسبة إلى التّجليات الاتصالية للعولمة الإشكالات التالية:

- هدف العولمة الاتصالية هو جمع المعلومات بغرض إعلام الناس فقط أم لغرض السيطرة على محتواها.

- عملية تداول المعلومات هل هي شاملة ومحادية، أم هي متحيّزة وموجهة!!

- المخاطر التي يمكن أن تتجم عن الاعتماد على وكالات الأنباء العالمية الكبرى المسيطرة على المعلومة.

ترتبط العولمة الاتصالية بعولمة الاقتصاد، حيث أنّ صناعة الإتصال هي التي تقود الاقتصاد اليوم، فهذا القطاع يقوم بتصنيف وتوزيع المعلومات من المالية إلى الترفيهيّة، ومن

الخدمات الإعلامية والتّعليميّة إلى الاستشارات القانونية والطبيّة، كما تستخدم الإنترنت في إطار التّسويق والدّعاية الإعلامية، فالبائع يرى فيها وسيلة للإعلان عن سلعة، في حين المشتري من خلالها يستطيع إختيار السلع وكذا الإطلاع على أسعارها ومحتوياتها والنّصائح الصّادرة بخصوصها وبهذا فقد وفّرت شبكة الإنترنت لأول مرة وسيلة فعّالة لسرعة نفاذ المعلومة وانتشارها وتوظيفها، وأبرزت أنّنا بصدد وضع اقتصادي جديد هو عصر اقتصاد المعلومة.

(1) عمار، عبد الحليم، مرجع سابق، 35.

6- العولمة الأخلاقية

تعود بدايات هذه المرحلة التاريخية إلى انهيار الأنظمة الشيوعية والتوسع السريع لنظام السوق الحرة الذي ينتشر حالياً في أنحاء العالم كافة. وأهم نتائج هذا التحول ترابط متزايد للأنظمة الاقتصادية والاجتماعية وانتشار لمثل فلسفية وأخلاقية جديدة مؤسّسة على أطر جديدة للعمل وللحياة.

تشكّل عولمة الاقتصاد معطى معقداً يتطور تطوراً سريعاً. ومن تجلياته إلغاء الحواجز التي تعوق تنقل الأشخاص والثروات. إنّها، أي عولمة الاقتصاد، بشكل من الأشكال، إنتصار لمنطق السوق الحرة، مع ما يتبعها من تحولات سريعة وموجعة في الأنظمة الاجتماعية والحضارية. فالمهمشون في دول العالم أجمع همّ الضحايا الأولى لهذه التحولات: إذ إنّهم يتلقون هذا التغيير كأمر فُرض عليهم فرضاً، وليس كتطور لهم في تحقيقه دوراً فاعل.

النقاش في محاسن العولمة وسيئاتها غالباً ما انحصر وينحصر في البعد الاقتصادي لهذه الحركة، متجاهلاً الأبعاد الأخرى التي لا تقل أهمية عنه. فتطور هذه الحركة يتخطى بكثير الإطار الاقتصادي ليشمل الأبعاد الإنسانية كافة ويدفع في إتجاه إيجاد حضارة عالمية بكل ما للكلمة من معنى. ولكي تكون هذه الحضارة عادلة، أي لكي لا تنتصر لمصالح أفراد أو جماعات على حساب فئات أخرى، عليها أن تُعنى بتوثيق الترابط الصحيح بين الشعوب المبني على التواصل والتعارف في جوٍّ من الاحترام المتبادل.

في الوقت الذي تتخرب الإنسانية تدريجياً في سياق العولمة، لا يمكن لها أن تستغني عن شرعة أدبية عامّة تنظّم هذا التطور وتكون مقبولة ومعترفاً بها من الجميع. وفي سياق البحث عن هذه المبادئ، علينا أن نتنبّه إلى خطرين أو إلى حلين متطرفين:

- الأول يقوم على فرض الحضارة المسيطرة نظامها الاقتصادي والاجتماعي وقيمها ومقاييسها على باقي الحضارات.

- أما الخطر الثاني فهو أن يؤدي إغفال العوامل والقيم الأخلاقية الأساسية التي تجمع الحضارات كلّها إلى نوع من النسبوية المطلقة التي تسخّف القيم كلّها وتلغي أي ضابط أدبي يحدّد تصرف الإنسان المعاصر.

لذلك تجدنا اليوم في حاجة ماسّة إلى استنباط تلك القيم الإنسانية العامة وإلى تبيانها، تلك القيم الموجودة، ولو في أشكال مختلفة، في الحضارات كلّها، التي يُعوّل

عليها لكي تكون رافعة كلِّ تطور أو تقدم.

تستمد الآداب أسبقيتها من حاجة جوهرية عند الشخص وعند البشرية جمعاء. لكن ما كل الإتجاهات الأخلاقية سامية أو جديرة بهذا الاسم: فبعضها، كالمنفعية، لا يتعدى كونه عائدًا من العولمة ليس إلّا، بحيث إنه يجعل من منفعة الفرد أو مجتمع ما معيارًا للسلوك. لذلك ليس للتكنولوجيا أو للتقنيات الحديثة التي تبحث دائمًا عن فاعلية أقوى ومردودية أوفر أن تحدّد القيم الأخلاقية العامة التي يجب أن تُبنى فقط على طبيعة الشخص البشري أو أن تفرض هذه القيم. فالأخلاقية لا يمكن لها أن تقوم على تبرير نظام اجتماعي ما أو تشريع، بل عليها أن تكون ضمانة لكل ما هو إنساني في هذه الأنظمة، وعليها أيضًا أن تعمل على تطويع النظام بحسب حاجات الإنسان، لا أن تضحي بالإنسان في خدمة النظام. عمليًا، يجب أن تتمتع اللجان الأخلاقية التي أنشئت وتتشأ في القطاعات كافة باستقلالية تامة عن المصالح المالية والأيديولوجية وعن التجاذبات السياسية⁽¹⁾.

7- العولمة والعالمية الدينية

الإسلام دين إنساني عالمي لم ينحصر في عرق ولا إقليم ولا حقبة من الزمن، دين جاء لهداية البشرية كلها، ولتفاعل مع كل قضاياها، وما أكثر ما خاطب القرآن البشر كلهم دون تمييز أو تخصيص، بدليل قول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [النساء، 1]، وضع الإسلام لنا كليات وقواعد بها نهتدي، وعلى أساسها نحتكم، منها إن ساحات المباح أرحب من ساحات المحظور، فالأصل في المعاملات الإباحة. والمصلحة مصدر من مصادر التشريع. ولا تناقض في الدين بين نقل صحيح وعقل صريح. والحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق الناس بها. ودرء المفاسد مقدّم على جلب المصالح. ولا ضرر ولا ضرار. ولا إكراه في الدين.

فضلاً عن أنّ الإسلام دين الحق، لا يتحرّب لفئة ولا طائفة، فهو يدعو إلى كل علم نافع، ويبتهج بكل إنجاز معرفي وصناعي تهتدي إليه الإنسانية مما فيه خيرها ورفاهيتها. وفي الوقت نفسه فإن الإسلام يحارب كل علم ضار وينفّر منه، ويحمل كل من سنّ سنة سيئة إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة، ويدخل في ذلك كل

(1) بو رعد الأنطوني، الأب جوزيف، المسيحية والعولمة، تحدي إعادة صوغ الهوية الدينية، أخذت من موقع

معايير الإلكتروني بتاريخ 12/2020 /1 <https://bit.ly/3mYMAAn6>

من ابتدع علماً ضاراً أو ابتكر ابتكاراً مخرباً.

يجمع المفكرون على التمييز بين منطلقات العولمة ومنطلقات الإسلام وأيضاً بين القيم المحركة لكل منها، فلا بد من التفريق بين مفهوم العولمة ومفهوم العالمية، فالمفهوم الأول يعنى الإختراق الثقافي، ويعتمد هذا الإختراق على القوة المادية ويستهدف نواة الثقافة المغايرة بهدف القضاء عليها نهائياً. وعليه فإن مواجهة الإختراق لا تكون بالاعتماد على استراتيجية الحصانة السلبية. وعلى أي حال فالإنغلاق الثقافي أمر غير ممكن من الناحية العلمية، وإنما يتم بالتحصين الإيجابي وذلك عن طريق البناء السليم للفرد. وذلك هو جوهر التحدي الثقافي الذي يجب أن نهتم به إهتماماً بالغاً. أما المفهوم الثاني يحمل معنى يفيد الإنفتاح ورغبة التعرف على الآخرين، ليس بدافع النفي ولكن برغبة التفاعل والتكامل كما ورد في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات، 13].

فالعالمية تعني أن أبناء هذا العالم بمختلف قبائله وشعوبه ولغاته يعيشون على هذه الأرض، فلا بد أن يتفاهموا فيما بينهم، تمهيداً للتعاون الدائم على خير الجميع، ولا مانع من أن يأخذ بعضهم من بعض. ولا يجوز أن يفرض بعضهم على بعض لغته أو دينه أو مبادئه أو موازينه. فالاختلاف في هذا الإطار طبيعي جداً، والتعاون ضروري أبداً، لمنع الصدام والحروب والعدوان. وهذه العملية العالمية قد تسمى بالتناقف الحضاري بين الشعوب والأمم، وهي واقع البشرية منذ أقدم العصور إلى اليوم، فاللغات تلاحقت والمجتمعات تعاونت والحضارات عبرت من مكان إلى مكان⁽¹⁾. والحروب والمظالم التي قامت ويمكن أن تقوم بين أبناء البشرية، تستنكرها العقول السليمة، ومبادئ الأديان الحقة، والمصالح المشتركة. لأن سعادة البشرية مطلوبة لذاتها، والتعاون فيما بينها على الخير من أعظم الفضائل التي تقرها وتشجع عليها القيم الفاضلة، التي أجمع عليها البشر في هذه الحياة.

إن تحديد مفهوم العولمة الدينية يجب أن يكون على دلالة واحدة بالنسبة إلى الديانات السماوية كافة فمثلاً الصلاة موجودة بأشكالها المختلفة بين الأديان وإن اتخذت لها أوقاتاً محددة وأياماً معلومة في الصلوات الجامعة كالأحد عند المسيحية

(1) يونس، محمد، العولمة وعالمية الإسلام، مجلة البيان الإلكترونية، نشرت بتاريخ 7 نوفمبر 2002م، أخذت بتاريخ

<https://bit.ly/2ZdKeK2>، 15/10/2021م

والجمعة عند المسلمين، فهذا يوحي فكرة العبادة الجماعية بمجرد اجتماع الناس عليها وبأنّ هذا الالتقاء يدل على النوايا الحسنة والأعمال الصالحة التي يسبقها الطهارة بالجسد ويتبعها الطهارة بالروح.

خصائص العولمة

هي مجموعة من السمات المهمة والرئيسية التي تتّصف بها ظاهرة العولمة والتي تميّزها عن غيرها من الظواهر الاقتصادية وسنحاول ذكرها من خلال مايلي:

- سيادة آليات السوق والسعي لاكتساب القدرات التنافسية التي تعدّ من أهم ما يميّز العولمة من سيادة آليات السوق واقتنائها بالديمقراطية، واتّخاذ القرارات في إطار التنافسية من خلال الإستفادة من الثورة التكنولوجية وثورة الاتصالات والمواصلات والمعلومات، وتعميق تلك القدرات المتمثلة في الإنتاج بأقل تكلفة ممكنة، وبأحسن جودة ممكنة وبأعلى إنتاجية، والبيع بسعر تنافسي على أن يتم في أقل وقت ممكن⁽¹⁾، ومما لا شك فيه أنّ هذه السيادة التنافسية وسيادة آليات السوق مغشوشة وتخضع إلى سيطرة وهيمنة الدول الكبرى التي تستعملها لخدمة مصالحها الواسعة.

- ديناميكية مفهوم العولمة حيث يتّضح ذلك من خلال التعريفات المختلفة التي أوردناها أعلاه، وتتأكد يوماً بعد يوم بدليل احتمال تبديل وقلب موازين القوى الاقتصادية القائمة حالياً، وهذا نتيجة التطوّرات الحاصلة والممكنة الحصول في المستقبل، كما أنّها مستعملة في جميع المجالات الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

- تزايد الاتجاه نحو الاعتماد الاقتصادي المتبادل الذي يظهر جلياً من خلال التحوّلات التي شهدتها حقبة الثورة التكنولوجية والمعلوماتية، كما ينطوي مفهوم الاعتماد المتبادل على معنى تعاضم التشابك بين الأطراف المتاجرة، وهو عكس التبعية الاقتصادية، حيث أنّه يعني وجود تأثير وتأثر من الطرفين ويكون كلاهما تابعاً ومتبوعاً في الوقت نفسه.

وقد ترتب على زيادة درجة الاعتماد الاقتصادي المتبادل ظهور آثار عديدة على الساحة الدولية لعل أهمها مايلي: زيادة درجة التّعرض للصّدمات الاقتصادية الوافدة من الخارج، سرعة انتقال هذه الصدمات عبر أنحاء العالم، تزايد أهمية التجارة الدولية

(1) عبد الحميد، عبد المطلب، العولمة وإقتصاديات البنوك، الإسكندرية، الدار الجامعية، 2001م، ص 23.

كعامل من عوامل النمو وزيادة القدرة التنافسية في الاقتصاد العالمي ((1)).

- وجود أنماط جديدة من تقسيم العمل الدولي نظراً لتعاظم دور الشركات المتعددة الجنسيات في ظل العولمة، بالإضافة الى حدوث الثورة التكنولوجية والمعلوماتية والاتصالات، ظهرت أنواع جديدة لتقسيم العمل الدولي منها، تقسيم العمل داخل الصناعة الواحدة، وداخل السلعة الواحدة ((2)).

- تعاظم دور الشركات المتعددة الجنسيات التي تعدّ في كل معانيها أحد أهم السمات الأساسية للعولمة، فهي تؤثر بقوة على الاقتصاد العالمي، من خلال ما يصاحب نشأتها من نقل التكنولوجيا والخبرات التسويقية والإدارية، وتأكيد ظاهرة العولمة في كافة المستويات الإنتاجية والمالية والتكنولوجية والتسويقية والإدارية، ويلاحظ أنّ هناك العديد من المؤشرات الأخرى الدالة على تعاظم دور الشركات المتعددة الجنسيات العالمية النشيط في تكوين وتشكيل العولمة ولعل أهمها السيطرة على مصادر التمويل الدولية، والاستحواذ على نسبة كبيرة من الإنتاج العالمي، تسيطر على جزء كبير من حجم التجارة الدولية حيث لها دور القيادة في الثورة التكنولوجية والمعلوماتية، وتزايد دور المؤسسات الاقتصادية العالمية في إدارة العولمة ((3)).

- التكتلات الإقليمية الاقتصادية إنّ التطورات التي وصلت إليها البشرية في الوقت الحالي، بفضل الثورة التكنولوجية والمعلوماتية، وما صاحب ذلك من توسيع الأسواق وتحرير التجارة الدولية، بدأت الدول تفكر في حماية نفسها وذلك من خلال تكوين تكتلات اقتصادية إقليمية، وأحسن مثال على المستوى العالمي هو الاتحاد الأوروبي الذي سار بخطى ثابتة وبغزيمة كبيرة حتى وصل إلى وضعيته الحالية، حيث أنّه يهدف إلى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية من الناحية الاقتصادية، مع تكوين قوة يستطيع بها أن يسيطر على القارة الأوروبية ثم الانتقال إلى خارج أوروبا ((4)).

إيجابيات العولمة وسلبياتها

أدت بعض العناصر الأساسية إلى العولمة من خلال تدفق الاستثمارات الأجنبية

(1) بن طاهر، حسين، مدخل الى الوقائع الاقتصادية، الجزائر، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط1، 2010م، ص 21.

(2) عبد المجيد، عبد المطلب، العولمة وإقتصاديات البنوك، مرجع سابق، ص 26.

(3) يحيوي، سمير، العولمة وتأثيرها على تدفق الإستثمار الأجنبي المباشر إلى الدول العربية حالة الجزائر، مرجع سابق، ص 17.

(4) مقدادي، محمد، العولمة رقاب كثيرة وسيف واحد، بيروت، المؤسسة العربية للتوزيع والنشر، ط2، 2002م، ص

المباشرة بتحرير أسواق النقد العالمية من القيود والثورة العالمية في الاتصالات الناجمة عن الوسائل والأدوات التكنولوجية الجديدة كانا السببين الرئيسيين في تحويل أنشطة البنوك التقليدية إلى بنوك شاملة، تعتمد على إيراداتها من العملات المكتسبة من الصفقات الإستثمارية، ومن خلال تحرير التجارة الدولية التي يقصد بها تكامل الاقتصاديات المتقدمة والنامية في سوق عالمية واحدة، مفتوحة لكافة القوى الاقتصادية في العالم وخاضعة لمبدأ التنافس الحر.

كذلك من خلال الثورة المعرفية التي تتمثل في التقدم التكنولوجي والعلمي الذي جعل العالم أكثر إندماجاً وسهّل حركة الأموال والسلع والخدمات والأفراد، بالإضافة إلى تعاظم دور الشركات المتعددة الجنسيات التي تعدّ من العوامل المهمة للعولمة، فهي مدعومة بصورة قوية من دولها ولها تأثير كبير في النشاط الاقتصادي العالمي بقدرتها على إستغلال الفوارق بين الدول في هبات الموارد ومرونتها الجغرافية (1). لقد تمكّنت العولمة من الانتشار في هذه السرعة المذهلة والمفاجئة وبصورة فاعلة من القوى الرأسمالية ذات النزعة الاستعمارية كان لها أثرها بالتصويب والتقدم الإيجابي بالإضافة إلى النواحي السلبية التي كان لها أثرها الظاهر بين شعوب دول العالم الثالث.

لذلك تعدّ العولمة ظاهرة مثل باقي الظواهر الأخرى الموجودة، تتميز بوجود إيجابيات، ولها أيضاً سلبيات، أهمّها:

أولاً: إيجابيات العولمة

- وجود أسلوب جديد للحوار والنقاش بين مختلف شعوب العالم.
- تعزيز التبادل الاقتصادي، والتجاري بين مختلف الدول على مستوى العالم.
- إلغاء الحدود بين دول العالم.
- إحداث ثورة علمية كبيرة، على المستوى الديني.

ثانياً: سلبيات العولمة

- الانحدار الأخلاقي في الشعوب والمجتمعات العربية، نتيجة للاختلاط بثقافات وعادات غربية دخيلة، ونتيجة لغياب القيود الأخلاقية في ظل العولمة.
- استغلال الثروات الطبيعية في الدول النامية، والهيمنة على اقتصاد تلك الدول والتحكم فيه.

(1) الرقب، صالح، أنعرّف على العولمة، دار البحار للطباعة والنشر، ص 14.

- غياب دور المؤسسات الحكومية في بعض الدول، والاعتماد بشكل كلي على المؤسسات متعددة الجنسيات.
- انتشار البطالة في الدول النامية، وذلك لعدم قدرتها على لستقطاب الشركات المشهورة.
- توسيع الفجوة بين الطبقة الغنية والفقيرة، وتلاشي واختفاء الطبقة المتوسطة تدريجياً مما سيؤدي على المدى الطويل لفقدان تماسك المجتمعات وتربطها الإنساني⁽¹⁾.

الخاتمة

إن الحرية جزء من الفطرة البشرية، وتركز العولمة في خطابها على الحرية بحسبانها تعبيراً عن حالة التحرر من مختلف القيود التي تكبل الطاقات الإبداعية والإنتاجية للإنسان، سواء أكانت قيوداً مادية أو قيوداً معنوية. فيصبح الاختلاف بين الأديان في هذا الإطار طبيعياً جداً والتعاون ضروري لمنع الصدام والحروب والعدوان بين البشرية عامة من مسلمين ومسيحيين، والتعايش في مجتمع تقوم فيه العلاقات الداخلية والخارجية على أساس العدل والإنصاف والاعتراف بالآخر بما يفيد الإنسان وينفعه.

من هنا تتطابق العولمة المسيطرة عالمياً اليوم مع استراتيجية إحياء الليبرالية الاقتصادية الكلاسيكية . وتتخذ العولمة شكل التطبيق الحرفي لبرنامج العولمة الليبرالي القائم على تأكيد أسبقية المنطق الاقتصادي في إعادة تنظيم العلاقات الدولية، وفاعليته في تحقيق الانسجام بين مصالح الجماعات والشعوب. هو ما يتجلى في محور المداولات والمفاوضات الدولية حول مسألة تحرير التجارة وبناء السوق العالمية، وتعميم سياسات التخصيص والإصلاحات الهيكلية التي تتوافق وجذب الاستثمارات وتنشيط حركة التجارة الدولية. وبقدر ما يستدعي تطبيق برنامج العولمة الليبرالي إعادة بناء العلاقات الدولية من منطلق تسهيل حرية التجارة وجعل الحدود السياسية شفافة لها، وتقليص سيطرة الدولة على التوجهات الاقتصادية، يدفع في الوقت نفسه إلى إعادة هيكلة اقتصادية وسياسية واجتماعية داخل الحدود الوطنية نفسها. وهو ما يعني إعادة بناء المعادلة الوطنية الاجتماعية على أسس جديدة تضعف من وزن القوى الاجتماعية الشعبية والفقيرة ومن منطق إرضاء الحاجات الاجتماعية لصالح تأكيد

(1) طابع، منى، تعرّف على مفهوم العولمة ونشأتها.. وأهدافها.. وإيجابيتها وسلبياتها، مرجع سابق.

أسبقية منطق التجارة الخارجية وجذب الاستثمارات والتشجيع على توطينها. كما تهدد الديمقراطية. بقدر ما تنتزع من الشعوب سيادتها لصالح سيادة المؤسسات والشركات والتكتلات ما فوق الوطنية (1).

فذلك لا بدّ من الاستفادة من العولمة بكافة إيجابياتها وتخفيف سلبياتها عن طريق دفع كلّ علم ضار فيه فساده أو هلاكه وإثارة الشرّ في سلوك أعضاء المجتمع وذلك من أجل الرقيّ بين النّاس في دينهم وأخلاقهم وقيمهم لمواجهة الظلم والاستكبار الغربيّ على حساب الشّعوب الفقيرة التي ابتدعت علومًا ضارّة واخترعت ابتكارات ضارّة للأخلاق ومفسدة للإنسان والتي يعدّ غزوها للعالم قائمًا على التّعصّب العنصري والمصالح الاقتصادية.

ونرى أنّ صراع الحضارات لم يكن إلّا صراعًا على السّلطة والثروة ، وإن اتّخذ الدّين غطاء له، وما نشهده اليوم من حركات أصوليّة سواء أكان ذلك في الديانات السماويّة أو حتّى في الديانات الأخرى غير السّماوية ما هو إلّا نموذج من الصراع الإيديولوجي الذي لا تقرّه الأديان التي تسعى بمفهومها المعتدل إلى نبذ العنف والأحقاد، ولكن القيمين عليها يصبحون أداة طيعة في يد الحكّام الذين من مصلحتهم شدّ العصب الدّيني وإرهاب الأتباع بإخافتهم من مواطنيهم كي يصوّتوا لهم في الانتخابات أو يدعموهم في بناء دولة جديدة.

نُبت المصادر والمراجع

- 1- بقره، مبارك عامر، مفهوم العولمة ونشأتها، أخذت من موقع صيد الفوائد بتاريخ <https://bit.ly/2JTZ94y>، 30/11/2020
- 2 - بورعد الأنطوني، الأب جوزيف، المسيحيّة والعولمة، تحدّي إعادة صوغ الهويّة الدّينيّة، أخذت من موقع معابر الإلكتروني بتاريخ 1/12/2020، <https://bit.ly/3mYMA6>
- 3 - بن طاهر، حسين، مدخل الى الوقائع الاقتصادية، الجزائر، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط1، 2010م.
- 4- تومي، عبد القادر، العولمة فلسفتها، مظاهره، تأثيراتها، كنوز الحكمة، 2009.
- 5- الجابري، محمد عابد، العولمة والهوية الثقافية، بيروت، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، عدد 228، 1998م.
- 6- الرقب، صالح، أتعرف على العولمة، دار البحار للطباعة والنّشر.

(1) Jean-Marie Ghehno, La Fin de la démocratie, Flammarion, 1995. Jean-Paul Fitoussi, La Démocratie et le marché, Grasset et Faquelle, 2004 ; Naser Mansouri-guilani, La mondialisation et l'usage des citoyens, éd. Ateliers, Paris, 2004.

- 7- زايد، فهد خليل، رمان، محمد صلاح، العولمة الاقتصادية، الأردن، دار الإعصار العلمي للتوزيع والنشر، ط1، 2014م.
- 8- زبيري رمضان، العولمة والبنى الوظيفية الجديدة للدولة، مركز الكتاب الاكاديمي، عمان، ط1، 2012م.
- 9- سرو، أحمد فتحي، العالم الجديد بين الاقتصاد والسياسة والقانون، مصر، دار الشروق، ط2، 2005م.
- 10- السيسي، صلاح الدين حسن، الاقتصاد الدولي، العولمة والتحوّلات الاقتصادية الدولية، القاهرة، دار الكتاب الحديث، ط1، 2013م.
- 11- طايح، منى، تعرّف على مفهوم العولمة ونشأتها.. وأهدافها.. وإيجابيتها وسلبياتها، أخذت بتاريخ 27/11/2020 من موقع كلمتين <https://bit.ly/3gfqaLO>
- 12- عبد الحميد، عبد المطلب، العولمة واقتصاديات البنوك، الإسكندرية، الدار الجامعية، 2001م.
- 13- عبد الله، إسماعيل صبري، كلمة العولمة مضللة، في العولمة، هيمنه منفردة في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، مصر، دار جهاد للنشر والتوزيع، ط1، 1999م.
- 14- علي، نبيل، ثورة المعلومات، بيروت، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط1، 1997م.
- 15- عماد، عبد الغني، سوسيولوجية الثقافة المفاهيم والإشكالات من الحداثة الى العولمة، بيروت، ط2، 2008م.
- 16- عمار، عبد الحليم، العولمة الاقتصادية، سوريا، دار أبي الفداء العالمية للنشر والتوزيع والترجمة، 2013م.
- 17- محسن، حاتم حميد، الموجز في العولمة، كيوان للطباعة والنشر، ط1، 2008م.
- 18- مقدادي، محمد، العولمة رقاب كثيرة وسيف واحد، بيروت، المؤسسة العربية للتوزيع والنشر، ط2، 2002م.
- 19- الوالي، عبد الجليل كاظم، جدلية العولمة بين الإختيار والرفض، الإمارات العربية المتحدة، دار الكتاب الجامعي، 2010م.
- 20- يحيوي، سمير، العولمة وتأثيرها على تدفق الإستثمار الأجنبي المباشر إلى الدول العربية حالة الجزائر، رسالة ماجستير في العلوم الاقتصادية، تخصص التحليل الاقتصادي، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2004م/2005م.
- 21- يسين، السيد وآخرون، العرب والعولمة، بيروت، مركز الدراسات الوحدة العربية، 1998م.
- 22- يوسف، محمد فهيم، عولمة حقوق الإنسان أم عولمة الفهم الغربي لحقوق الانسان، مجلة المستقبل العربي، عدد 235، 1997م.
- 23- يونس، محمد، العولمة وعالمية الإسلام، مجلة البيان الإلكترونية، نشرت بتاريخ 7 نوفمبر 2002م، أخذت بتاريخ 15/10/2021م، <https://bit.ly/2ZdKeK2>
- 24- Jean-Marie Ghehno, La Fin de la démocratie, Flammarion, 1995.
Jean-Paul Fitoussi, La Démocratie et le marché, Grasset et Faquelle, 2004 ; Naser Mansouri-guilani, La mondialisation et l'usage des citoyens, éd. Ateliers, Paris, 2004.

آفاق التنمية الزراعيّة في لبنان د. منى محمد يونس⁽¹⁾

الملخص:

عرف الإنسان حرفة الزراعة منذ القدم، ومارسها لتأمين جزء من غذائه، وتحولت هذه الحرفة بفعل تطور الحياة وتعقدتها إلى نشاط اقتصادي مهم اذا قامت السلطات المحلية في المجتمعات بتنميته.

يعد لبنان من البلدان التي تمتلك مقومات زراعية كثيرة ، لكنه للأسف لم يستطع استثمارها بشكل صحيح، اذ عرف في فترة ما بعد الإستقلال تطوراً في القطاع الزراعي ما لبث ان تراجع لصالح تقدم القطاع السياحي والخدماتي. ولما كان القطاع السياحي مهتز ويتأثر بالظروف الأمنية والسياسية التي يعاني منها لبنان او محيطه الجغرافي، فإن السياحة عرفت انتكاسة كبيرة في فترة الحرب الأهلية ، كما تهاوت بشكل كبير بفعل جائحة كورونا التي احاطت بالعالم اجمع، واستمرت في التراجع بسبب الأزمة الاقتصادية التي بدأت في وطننا ولا زالت مستمرة حتى الآن.

هذا التراجع الكبير الذي عرفته القطاعات الخدماتية دفع بالعديد من الاقتصاديين والباحثين إلى الحث على العودة للقطاعات الإنتاجية كخطة طوارئ، لا سيما تنمية القطاع الزراعي، باعتماد سياسات زراعية قائمة على رفع الإنتاج كمّاً ونوعاً، توفير الغذاء والمحافظة على استمرارية المقومات الطبيعية ، وزيادة انتاجيته، بذلك يتحقق الاكتفاء الذاتي الذي يستطيع وقف التبعية الاقتصادية للخارج اذا احسن استثماره، فينعكس ايجاباً على الاقتصاد اللبناني ويقلل الآثار السلبية للأزمة الاقتصادية. **المصطلحات:** القطاعات الإنتاجية، جائحة كورونا، التنمية الزراعيّة، الأمن الغذائي.

(1) أستاذ معيد في كلية التربية، الجامعة اللبنانية، الفرع الاول.

Abstract:

Man knew the craft of agriculture since ancient times, and practiced it to secure a portion of his food. This craft was transformed by the development of life and its complexity into an important economic activity if the local authorities in the societies developed it.

Lebanon is considered one of the countries that possesses many agricultural ingredients, but unfortunately it was not able to invest properly, as in the post-independence period, it witnessed a development in the agricultural sector, which soon deteriorated in favor of the progress of the tourism and services sector.

And since the tourism sector was shaken and affected by the security and political conditions that Lebanon or its geographical environment suffers from, tourism experienced a major setback in the period of the civil war, as it deteriorated greatly due to the Corona pandemic that surrounded the whole world, and continued to decline due to the economic crisis that began in our homeland and not Still going on so far.

This significant decline in the service sectors has led many economists and researchers to urge a return to the productive sectors as an emergency plan, especially the development of the agricultural sector, by adopting agricultural policies based on raising the quantity and quality of production, providing food, maintaining the continuity of natural ingredients, and increasing its productivity, thus achieving Self-sufficiency, which can stop the economic dependence on the outside if it makes good investment, will reflect positively on the Lebanese economy and reduce the negative effects of the economic crisis.

keywords: productive sectors, Corona pandemic, agricultural development, food security.

المقدمة :

تُعد الجغرافيًا علم يدرس المجال وكيفية تنظيم الانسان أو المجتمع لهذا المجال، تلبيةً ل حاجاته ومعتقداته وأحلامه. وعدّ النشاط الزراعيّ من الانشطة التي أسهمت في تنظيم المجال الجغرافيّ. إذ مارس الإنسان الزراعة منذ القدم، وطورها فانقلت من كونها حرفة لتصبح قطاعًا اقتصاديًا مهمًا يُسهم في رفعة الدّول وتطورها، او تراجعها وازدياد تبعيتها للخارج.

ولما كانت الجغرافيًا البشريّة تهتم بنشاطات الإنسان وأفكاره وحياته، فإنها من صلب اهتماماتها التّمية الاقتصاديّة التي تعتبر استراتيجية مهمة لتطوير الدّول وارتقائها . وقد برزت أهمية تنمية القطاعات الاقتصاديّة وتطورها بصورة واضحة بعد الحرب العالميّة الثانية في دول عالم الجنوب الفقير، بعدما عرفت هذه الدّول استقلالها الاقتصاديّ عن الدّول التي كانت مسيطرة عليها، ومع تردي الأوضاع الاقتصاديّة دعت الضرورة في تلك الدّول إلى إجراء تغييرات سريعة في الجانب الاقتصاديّ⁽¹⁾ تهدف التّمية الاقتصاديّة إلى تعزيز اقتصاد الدّول؛ من خلال تطبيق عدد من الإستراتيجيات الاقتصاديّة الناجحة، والاستفادة من الموارد المتوفرة في بيئات هذه الدّول، من أجل تطوير قطاعاتها الاقتصاديّة وتحسينها،⁽²⁾ وتقع التّمية الزراعيّة من صلب إهتماماتها لأنها تؤدّي دورًا بارزًا ولها أهمية خاصة في تحقيق التّمية المستدامة، ودعم الاقتصاد وذلك عن طريق التنوع في الصادرات، و عدم الاعتماد على مصدر واحد في توليد الدخل القومي .⁽³⁾

كما تُعدّ الزراعة أحد القطاعات الإنتاجيّة، واحدى ركائز التّمية الاقتصاديّة والاجتماعيّة في العديد من الدّول، تشكل مصدرا للغذاء، ويعمل هذا القطاع الاولي على تشغيل الكثير من اليد العاملة الريفية، كما يسهم في الصادرات من السلع الزراعيّة، كان لا بد من تناول تنميته لإظهار أهميته بالنسبة إلى الدّولة اللّبنانيّة بعد ما عصفت بوطننا لبنان الازمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وقد اصبحنا على قاب قوسين من الانهيار.

(1) غانم، نبيه، صفحة النشرة على الانترنت، (11 ايلول 2014)، مقالة بعنوان : الزراعة في لبنان واقع المشكلة وآفاق الحلول ، (تم تصفحها في 2020-7-14)

(2) Economic development, Cambridge Dictionary, Retrieved 2-1-2017. Edited.

(3) السالم، احمد جابر(2010)، واقع التنمية الزراعيّة المستدامة ومتطلباتها في العراق، رسالة ماستر غير منشورة، جامعة القادسية، العراق، ص5 و6.

يمتلك لبنان كما العديد من الدول العربية مقومات زراعية كثيرة ، لكنه للأسف لم يستطع استثمارها بشكل صحيح، إذ عرّف في فترة ما بعد الإستقلال تطوراً في القطاع الزراعي ما لبث ان تراجع لصالح تقدم القطاع السياحي والقطاعات الخدمائية، خاصة بعد إتفاق الطائف. كما يعد القطاع السياحي غير ثابت لتأثره بالظروف الأمنية والسياسية التي يعاني منها لبنان او محيطه الجغرافي، وقد عرفت السياحة انتكاسة كبيرة في فترة الحرب الأهلية، كما تهاوت بشكل كبير بفعل جائحة كورونا التي أحاطت بالعالم أجمع، واستمرت في التراجع بسبب الأزمة الاقتصادية التي ذكرت سابقاً.

ولما كانت التنمية الزراعية استراتيجية قومية، اقتصادية وسياسية وجب على الدولة اللبنانية أن تسير بها لتجاوز الحصار الاقتصادي والمشاكل الاجتماعية لتخطي الجوع والتبعية الغذائية⁽¹⁾.

انطلاقاً من ذلك تم طرح الإشكالية التالية: «ما أهمية التنمية الزراعية في لبنان؟ هل يمتلك لبنان مقومات تنمية زراعية تساعد في تجاوز أزمته الاقتصادية وتحسين وضعه الاقتصادي؟ ما التحديات والصعوبات التي تواجهها عملية التنمية الزراعية في لبنان؟

أولاً : أهمية التنمية الزراعية وواقع القطاع الزراعي اللبناني في الفترة الممتدة من بداية سنة 2019 حتى الآن.

يشكل القطاع الزراعي محوراً أساسياً في القضاء على الفقر والجوع في الدول الفقيرة، كما يساعد على ازدهار النمو الاقتصادي ، ويسهم في الحصول على موارد مالية من خلال عائدات الصناعات الغذائية، إذ يستفاد منه كمادة اولية للعديد من الصناعات الغذائية⁽²⁾، وله أهمية كبرى في تأمين مسألة الأمن الغذائي للسكان.

اما القطاع الزراعي في لبنان فإنه يعد ضعيفاً نسبياً إذ تبلغ نسبة مساهمته في الدخل الفردي حوالي 11% بينما تبلغ نسبة العاملين فيها حوالي 13 بالمئة⁽³⁾، وقد تصل هذه النسبة في بعض المناطق الريفية إلى 25 في المئة حيث تساهم الزراعة

(1) غانم، نبیه، النشرة، (1 ايلول 2014)، مقالة بعنوان : الزراعة في لبنان وواقع المشكلة وآفاق الحلول ، (تم تصفحها في 2020-7-14)

(2) منشورات المعهد العربي للتخطيط سنة 2016، علاقة الزراعة بالتنمية- <http://www.arab-api.org/ar> (تم الاطلاع في 2020-7-13)

(3) images economiques 2019 , p.238

بنسبة مرتفعة من الناتج المحلي. إذ يتزايد العمل في القطاع الزراعي في المناطق الريفية، كما لزال عدد كبير من ابنائها يعتاش من الزراعة، بشكل مباشر او غير مباشر، على الرغم من ان الزراعة لم تعد القطاع الرئيسي الذي يُعتمد عليه من قبل معظم الريفيين، كما تداخلت القطاعات الاقتصادية الأخرى مع القطاع الزراعي مثل الصناعات الخفيفة وال عمران ما أدى إلى قضم الاراضي الزراعية وتقلص المساحات الخضراء.

ذلك يعد لبنان مستوردًا أساسيًا للمواد الغذائية اذ بلغت قيمة الواردات الزراعية لعام 2016 نحو 3 مليارات دولار أميركي (17 في المئة من إجمالي الواردات، فيما بلغت إجمالي الصادرات الزراعية حوالي 700 مليون دولار)⁽¹⁾.

وبالعودة إلى التنمية الزراعية التي تعدّ محور هذه المقالة، فإن مفهوم التنمية الزراعية يتوقف على عدة معايير، ايكولوجية، اقتصادية، اجتماعية وثقافية، ومن منظور أشمل فهي العملية التي يتم عبرها⁽²⁾ :

- تأمين الحاجات الغذائية الاساسية للأجيال الحالية والمستقبلية .
- معرفة كيفية استثمار الموارد الطبيعية بشكل علمي مدروس وصيانة قدراتها الإنتاجية للحفاظ على استمراريتها.

- العمل على تقليل المخاطر وإزالة الصعوبات التي يواجهها القطاع الزراعي سواء بالنسبة للعوامل الطبيعية أو للعوامل البشرية الاقتصادية المؤثرة فيه والمتأثر بها. من جهة أخرى، يرى بعض الاقتصاديين بأنّ التنمية الزراعية هي عبارة عن الحل الأمثل لاستخدام الموارد الزراعية، وتحقيق زيادة في الإنتاج والإنتاجية، بهدف رفع معدل الزيادة في الدخل القومي وتحقيق مستوى معيشة مرتفع خاصة للريفيين العاملين في القطاع الأولي، ثم لسائر أفراد المجتمع.

لذلك ينبغي أن تكون هناك إستراتيجية واضحة للتنمية الزراعية موضوعة من قبل مؤسسات الدولة اللبنانية وأهداف قابلة التحقيق من خلال ما هو متوفر من موارد متاحة، ولابد من الإشارة هنا إلى أنّ عملية الوصول إلى الأهداف المرجوة قد تختلف من دولة إلى أخرى في ضوء العديد من المتغيرات، كطبيعة ونوعية النشاط

(1) المصدر السابق نفسه

(2) التقرير السنوي للتنمية الزراعية في الوطن العربي سنة 2007، ص. 18، الموقع :

تم الاطلاع في (13-7-2020) <https://www.aoad.org/devreport2007.pdf>

الاقتصاديّ، وطبيعة المرحلة الاقتصادية والظروف الاجتماعية. انطلاقاً من ذلك يمكن حسابان الأمن الغذائي جزءاً لا يتجزء من الأمن القومي وجب على الدول والحكومات الاهتمام به والعمل على تحقيقه، اذ لا يمكن حسابانه من مسؤولية وزارة الزراعة حصراً، إنّما يعني كل الوزارات وتتداخل فيه كافة القطاعات الاقتصادية في الدولة. كما تؤثر التنمية الزراعيّة على الموارد الطبيعية في الدولة من تربة، مياه، غابات وتنوع بيولوجي وفقاً للممارسات الزراعيّة المستخدمة ومدى مراعاتها للتنمية المستدامة. كذلك يعد القطاع الزراعيّ الأكثر استخداماً للمياه، حيث تقدّر احتياجات مياه الري بحوالي 810 مليون متر مكعب بالسنة. وتراوحت موازنة وزارة الزراعة خلال السنوات الاخيرة بين 70 و100 مليار ليرة لبنانية (اقل من 1 % من اجمالي الموازنة العامة، وهي نسبة منخفضة جدا مقارنةً مع الدول العربية التي لا تمتلك مقومات زراعية مثل لبنان وتصل في اكثرها إلى 5%).

ولبنان كما العديد من الدول العربية يمتلك مقومات تنموية مهمة لتحقيق التنمية الزراعيّة، منها الطبيعيّة ومنها البشريّة الاقتصادية سيتم توضيح بعضها.
ثانياً: مقومات تنموية كثيرة تساهم في عملية التنمية الزراعيّة في لبنان.
1-1. العوامل الطبيعيّة :

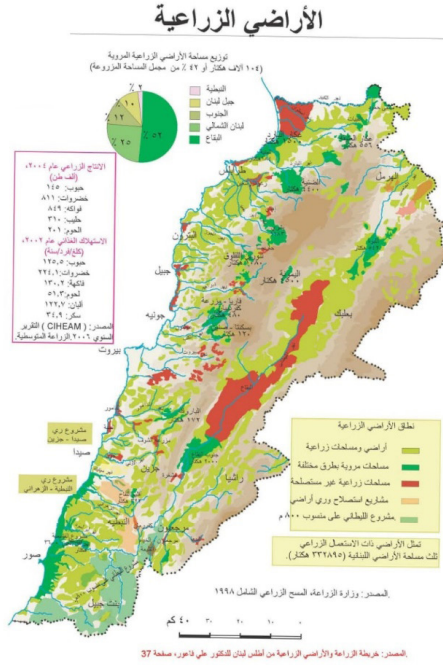
تتوفر للتنمية الزراعيّة في لبنان الكثير من المقومات الطبيعيّة المتمثلة في موقعه على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، ما يعني تنوع في الظروف المناخية التي تتميز بإعتدال الحرارة وغزارة الامطار شتاءً، وبرطوبة عالية وارتفاع الحرارة صيفاً، وبمدى حراري منخفض مناسب للزراعة، من ثم لا تتعرض اجزاء الساحل اللبّانيّ لحدوث التجمد أو الصقيع إلا في حالات نادرة، بعكس بعض المناطق الجبلية والداخلية البعيدة عن الساحل، لذلك فإن فترة الانبات الملائمة تكون في الفصلين الأكثر اعتدالاً الربيع والخريف. كما أنّ طبيعة هذا المناخ تتلاءم مع زراعة الخضار والأشجار المثمرة من حمضيات وموز واكيدنيا على السواحل، وأشجار التفاح والإجاص والخوخ والمشمش في المناطق الجبلية، وزراعة الحبوب خاصة القمح والشعير في سهل البقاع، إضافةً إلى تداخل بعض الأشجار المثمرة مع هذه الزراعات في هذه المنطقة الداخلية الأكثر اعتماداً على الزراعة في لبنان. كما تؤدّي الظروف المناخية دوراً مهمّاً في تعيين الحدود الجغرافيّة التي تزرع في داخلها المحاصيل.

يعد المناخ أحد العوامل المهمّة التي تؤثّر في الإنتاج الزراعيّ بطريقتين مباشرة

كما ذُكر سابقاً، وغير مباشرة⁽¹⁾ إذ يؤثر المناخ بدوره على التربة التي تؤثر بدورها في الزراعة.

إضافةً للمناخ، يوجد عوامل طبيعية أخرى مناسبة لتنمية القطاع الزراعي في لبنان، منها التربة الخصبة الكستنائية الغامقة، السوداء أو البنية وهي تربة صلصالية وغنية بالمواد العضوية⁽²⁾ المتوفرة بشكل رئيسي في منطقة البقاع الاوسط والجنوبي وسهل مرجعيون، والتربة الرسوبية الخصبة في معظم السهول الساحلية، بينما تنتشر التربة المتوسطة الخصوبة مثل الكستنائية الفاتحة وبعض الترب الرمادية على الهضاب المطلة على المنطقة الساحلية وبعض السفوح الجبلية المطلة على سهل البقاع.

الخريطة رقم (1) :



تبيّن الخريطة رقم (1) كثرة الموارد المائية في لبنان، وقد عُدّ وطننا لفترة طويلة خزان مياه في منطقة بادية الشام والمشرق العربي بسبب غناه بهذه الثروة الطبيعية،

(1) جابر، محمد مدحت، (2006)، جغرافية العمران الريفي والحضري، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، صفحة 105.

(2) ساسين، وفرام، اطلس لبنان 1997

وتوفر انهار مائية دائمة الجريان فيه مثل نهر الليطاني الذي يعد شريانًا حيويًا للزراعة في المنطقتين الداخلية والساحلية الجنوبية، إضافةً إلى اهمية نهر العاصي الذي يروي اراضي البقاع الشمالي الشبه صحراوي، والكثير من الانهار الساحلية الموسمية التي يمكن استثمار مياهها بشكل مكثف في التنمية الزراعيّة بإعتماد اساليب ري حديثة. بعد ما تم التطرق إلى العوامل الطبيعية، لا بد من تناول المقومات البشرية - الاقتصادية المؤثرة في التنمية الزراعيّة .

المقومات البشرية والاقتصادية المؤثرة في الزراعة :

تتنوع العوامل البشرية المؤثرة في عملية التنمية الزراعيّة، وتتصل بالنواحي الاقتصادية، الأحوال السياسية والاجتماعيّة⁽¹⁾، كما تمتاز بانها متداخلة. من هذه العوامل: القوى العاملة المتوفرة للقطاع الزراعيّ اللبناني، منها الماهرة ومنها العادية، مع الإشارة إلى أنّ عددًا منها غير لبناني منها اليد العاملة الفلسطينية والسورية، كذلك منها المتخصصة القليلة نسبيًا، ومنها العادية التي اكتسبت هذا النشاط من دون تعليم أو تأهيل وإنما بفعل الخبرة.

إضافةً إلى الطاقات البشرية المتوفرة في لبنان، تحتاج عملية التنمية الزراعيّة إلى رساميل عالية لتحقيقها، تتوفر نسبة ضئيلة من رؤوس الاموال يمكن ان تُستثمر في القطاع الزراعيّ بشكل رأسي (أو عمودي) مثل استخدام الوسائل الحديثة، والتقنيات المتطورة، أو أفقي كزيادة المساحات المزروعة، ما ينعكس على المجال الزراعيّ اللبناني، إذ تزيد الاستثمارات من معدل الإنتاجيّة الزراعيّة وترفع في امكانية تحقيق التنمية الزراعيّة، كما تؤثر بشكل غير مباشر على تنمية القطاعات الاقتصادية الأخرى.

تجدر الإشارة إلى توفر النمط الزراعيّ المتطور في بعض المناطق الساحلية اللبنانيّة وفي البقاع الاوسط، على الرغم من اعتبار انتشاره محدودًا مقارنةً بالانماط التقليدية التي تهيمن على المشهد الزراعيّ اللبنانيّ.

إضافةً إلى الرساميل يستطيع النظام الاقتصاديّ اللبنانيّ الحر أن يؤدي دورًا اساسيًا في عملية التنمية الزراعيّة اذا تبنتها الدولة اللبنانيّة بأكملها، وأصدرت المؤسسات الرسمية التشريعية قوانين تحفيزية لحث المواطنين على الرجوع للإستثمار في القطاع

(1) فايد، يوسف عبد المجيد، (1989)، جغرافية المناخ والنبات، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، صفحة 212 .

الزراعي، الذي اهتم لفترات طويلة، خاصةً حين تتوفر في لبنان مجموعة كبيرة من المؤسسات الوطنية الرسمية والخاصة قادرة على مواكبة الخطط التنموية المختلفة.

وكما ذكر د. ربيع المهتار (عميد كلية الزراعة في الجامعة الاميركية في لبنان) في أثناء مقابلة تلفزيونية على إحدى المحطات اللبنانية بتاريخ 7-19-2020 ، «أن الاستراتيجية الزراعية تقوم على عنصرين أساسيين هما: الحفاظ على سبل العيش للمجتمعات المحرومة، وتوفير إنتاج السلّة الغذائية الاساسية...» وكلاهما غير متوفر في لبنان حتى اليوم على الرغم من توفر العديد من المقومات التي تم تناولها.

انطلاقاً من ذلك، يمكن القول بأن الرغبة الشعبية الملحّة في تحسين الأوضاع الاقتصادية تدفع بالتنمية الزراعيّة قُدماً على امل وضع استراتيجيات لتنفيذها كي لا تبقى حبراً على ورق رغم الكثير من المعوقات والصّعوبات التي تعترضها في لبنان كما في سائر دول العالم النامي، وهذا ما سيتم تناوله في الفقرة التالية.

ثالثاً: التحديات والصّعوبات التي تواجهها عملية التنمية الزراعيّة في لبنان.

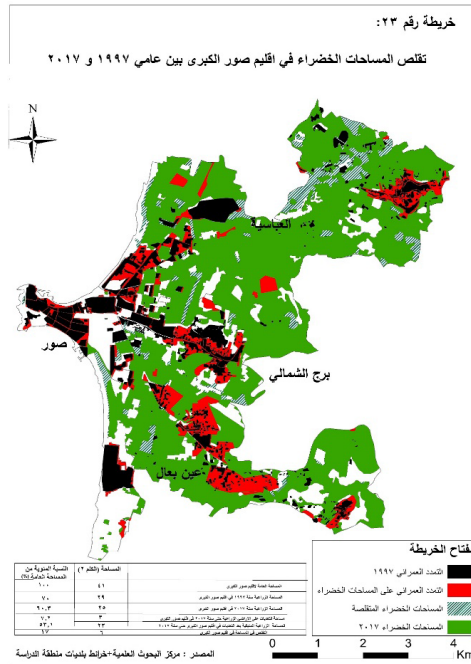
يعاني لبنان مثل معظم الدّول العربية ودول عالم الجنوب من العجز الغذائي والتبعية الغذائية للخارج ، ويعود هذا الامر إلى عدة صعوبات تواجهها عملية التنمية الزراعيّة، ويمكن ايجاز البعض منها بالنقاط التالية:

- تناقص مساحة الأراضي الزراعيّة بشكل كبير، واتجاه الناس إلى البناء على الأراضي الزراعيّة بدلا من الأراضي الوعرة والمصنفة للبناء، إضافة إلى الإهمال، التقهقر والتبوير الذي عرفته نسبة كبيرة من الاراضي الزراعيّة، ما أدى إلى تناقص الإنتاج ، وضعف دخل بعض الأسر الريفية العاملة في الزراعة، وتحول عدد كبير من المزارعين نحو القطاعات الأخرى لا سيما قطاع الخدمات الأكثر دخلاً من الزراعة والخريطة رقم (2) خير دليل على صحة استنتاجنا، إذ عرفت منطقة صور في جنوب لبنان قضم الكثير من أراضيها الزراعيّة وتحويلها إلى جزر سكنية خاصةً في الأرياف المحيطة بمدينة صور والتي تقع ضمن نطاق المدينة الجغرافي، وتسارعت عملية العمران بعد حرب تموز 2006، وارتفعت وتيرتها بعد سنة 2016 بسبب الخسائر الفادحة التي لحقت بالمزارعين ما أدى إلى تبوير أراضيهم.

- الزحف العمراني على الأراضي الزراعيّة سبب مشاكل عديدة، منها: تناقص

الإنتاج الزراعي، وضعف الأمن الغذائي للدولة⁽¹⁾، وبالتالي اضطرار الدولة إلى استيراد المواد الغذائية، والمحاصيل الزراعية من الخارج لتوفير الغذاء لمنطقة ما، مما يحملها الكثير من الأعباء والديون⁽²⁾، إذ أنّ القضاء على الأراضي الزراعية وانتشار العمران يساعد بدرجة أو بأخرى على تمهيد الطريق أمام التصحر⁽³⁾ الذي يعيق عملية التنمية الزراعية ويفشلها أيضًا، والنمو العشوائي للمساكن يساعد على التلوث والإخلال بالنظام البيئي، والقضاء على الغطاء النباتي الذي تميز به لبنان، وإزالة الأحراج الذي يلحق الأذى ببيئتها وسكانها.

الخريطة رقم (2)



المصدر: يونس، منى (الباحثة)، 2018، أطروحة دكتوراه غير منشورة، غزو المدينة للريف المجاور، نموذج مدينة صور الجنوبية، الجامعة اللبنانية، بيروت، لبنان.

● ضعف التخطيط الاستراتيجي وفقدان التكامل بين القطاعات الاقتصادية اللبنانية

(1) PELLETIER J, 2000, ville et urbanisme dans le monde , 4ème édition.Paris,Armand colin, p 224.

(2) Tissot P, Mars-avril 1947,L'Agriculture libanaise : son présent et son avenir, In: Revue internationale de botanique appliquée et d'agriculture tropicale, 27^e année, bulletin n°293-294., pp. 110-119.

(3) الجمهورية اللبنانية، مجلس الامماء والاعمار،(2015)، الخطة الشاملة لترتيب الاراضي في لبنان، القطاعات الاجتماعية والاقتصادية، العدد تشرين الاول 2015 .

وبين القطاعين العام والخاص، اي ان الحكومات اللبنايية المتعاقبة لم تضع سياسة واضحة لتنمية القطاع الزراعي، يضاف إلى ذلك الرسوم والضرائب العالية التي تضعها الدولة على مستلزمات الإنتاج الزراعي من بذور ، اسمدة ، مبيدات، ..الخ، وارتفاع تكاليف البنية التحتية الضرورية للمزارع من مياه ،كهرباء، طرقات ونقل ... لا ننسى منافسة الإنتاج الاجنبي للمنتجات المحلية ،اغراق الاسواق بالمنتجات التي تفوق الحاجة وعدم دعم الصادرات المحلية ما أدى إلى ضعف التسويق الزراعي محليا وعالميا.

- قلة الأيدي العاملة في القطاع الزراعي سواء أكانت عادية أو متخصصة بفعل التحول الاقتصادي اللبناني الذي شهده بعد اتفاق الطائف بشكل خاص ، حيث نزحت العمالة من القطاع الزراعي نحو القطاعات الخدمائية، حتى أنّ عدداً منها تحوّل من العمل في القطاع الزراعي نحو قطاع البناء الأكثر ربحاً ، حيث استثمر بعض مالكي الاراضي الزراعية بساتينهم بعد فرزها ، في العمران، لا سيما في المنطقة الساحلية من لبنان، ولا ننسى غياب تأمين المزارعين عن أية خسائر خارجة عن الارادة وبفعل العوامل الطبيعية .
- استعمال الانماط الزراعية التقليدية في بعض المناطق الزراعية اللبنانية مثل وسائل الري والمحراث... وغيرها ومحدودية الطرق الزراعية الحديثة بسبب تفتت الملكيات الزراعية الكبرى وتناقصها خاصة الأراضي الخصبة ذات المساحات الواسعة في سهول الشمال والجنوب الساحلية والبقاع الاوسط، وهذا ما يبرزه الجدول رقم (1).

- يبيّن هذا الجدول إنخفاض نسبة الاسر التي تمتلك حيازات زراعية كبيرة في بلدة مشغرة في البقاع الجنوبي الغربي، على الرغم من توفر بساتين متسعة للأشجار المثمرة وارض زراعية يستثمر بعضها في زراعة القمح⁽¹⁾. ان الخسائر التي تكبدها مالكو الاراضي الزراعية أدى إلى اهمالها وتبويرها ومن ثمّ تجزئتها وبيعها. كما أنّ عامل الوراثة يؤدي دوراً اساسياً في تفتت الملكيات الكبرى، وهذا ما أدى إلى تقهقر القطاع الزراعي، ما انعكس سلباً على عملية التنمية الزراعية اللبنانية ، وأدى إلى تخفيض كمية الإنتاج الزراعي.
- الجدول رقم (1) : الحيازات الزراعية التي تملكها الاسرة بحسب مساحتها

(1) مشغرة : التاريخ الحلم، 2007، سلسلة دراسات تناول المدن والبلدات والقرى اللبنانية، مؤسسة الصادق للدراسات والإمضاء، ص 182

حجم الحيازات الزراعيّة بال (دونم)	نسبة الاسر التي تمتلك الحيازات الزراعيّة (%)
عشر دونمات او اكثر	10
8-10	4
8-6	5
6-4	23
4-2	36
اقل من 2 دونم	22

المصدر : مشغرة : التاريخ الحلم، 2007، سلسلة دراسات تتناول المدن والبلدات والقرى

اللبنانيّة، مؤسسة الصادق للدراسات والإنماء، ص 182.

بروز مشكلة أخرى تمثلت بمحدودية الموارد المائية، إذ لم تُقَم الحكومات المتعاقبة بإنشاء السدود على عدد من الانهار لاستخدامها في ري الاراضي لزيادة الإنتاجيّة، فاقتصر الامر على سد القرعون وسدود أخرى صغيرة اقل اهمية ولا يزيد عددها على اصابع اليد الواحدة، كما أنّ مراحل تنفيذ مشروع الليطاني مثل الري على منسوب 800 متر لم تستكمل حتى اليوم⁽¹⁾، ولا ننسى الاطماع الاسرائيلية بالمياه اللبناييّة لاسيما مياه نهر الحاصباني، كما لا يُكتفى بمياه نهر الليطاني والعاصي في البقاع والجنوب للري، إنّما ايضًا تم حفر الكثير من الآبار الارتوازية بشكل عشوائي ما يؤدي إلى القضاء على المياه الجوفية... ومما لا شك فيه ان الاعتماد على الزراعات البعلية غير مجدٍ لأنّها لا تكفي لسد الحاجات الغذائية.

رابعًا: الحلول المقترحة والتوصيات .

بعد ما تقدم، نعرض بعض التوصيات، على أمل ان تلقى آذان صاغية، ويعرف القطاع الأولي تطورًا إيجابيًا:

- تفعيل دور مراكز الأبحاث العلمية للبحوث الزراعيّة لتشمل جميع جوانب الإنتاج الزراعيّ، وتوفير الكوادر العلميّة لها مع الاستعانة بالخبرات المتوفرة في كلية الزراعة في الجامعة اللبناييّة الوطنية والجامعات الخاصة مثل AUB وال USG....، العمل على استحداث قاعدة بيانات data واضحة وشفافة عن القطاع الزراعيّ، تشمل تفاصيل حقيقية وجديّة عن الأراضي الزراعيّة -المياه

(1) http://www.litani.gov.lb/wp/?page_id=802

-التربة - والمناخ.. النشاطات والبيانات، خرائط البيئة، الخرائط العامة...)
وإشراك الطلاب والمواطنين العاديين في إعداد هذه البيانات وتغذيتها، لإستعمالها
في تحقيق التنمية الزراعيّة إضافةً إلى الجهات المعنية لا سيما وزارة الزراعة ووزارة
الاقتصاد....

- تطوير الاستراتيجيات المستخدمة في الإنتاج الزراعيّ وزيادته بشكل أفقي، زيادة مساحة الأرض الزراعيّة لا سيما في منطقة البقاع حيث التربة الخصبة...، نظراً لاتساع مساحة الاراضي المصنفة زراعية⁽¹⁾، لكنها غير مستثمرة بالقطاع الزراعيّ. ورأسي عبر إدخال التكنولوجيا الحديثة والمكننة في القطاع الزراعيّ وذلك من خلال دعم الدولة للمزارعين وفق قوانين معينة بمساعدة المشروع الاخضر والتعاونيات الزراعيّة، لاستخدام وسائل حديثة، وأسمدة كيميائيّة ومبيدات حشريّة في الزراعة بهدف زيادة الإنتاجيّة.
- توفير تدريبات وإرشادات فعّالة للمزارعين لإعداد يد عاملة متخصصة من خلال المعاهد التّقينيّة، والكليّات الجامعيّة، وتأهيل اليد العاملة بهدف رفع الإنتاجيّة وتحسين المحاصيل من قبل التعاونيات والمؤسّسات والجمعيات الخاصة والرسمية.
- وضع سياسات وطرائق بهدف تحسين التربة سيما في منطقة البقاع الشمالي، حيث تعاني التربة من ضعفها بالمواد العضوية، واستصلاحها وتخليصها من الملوحة وتأمين الري المناسب لها، وذلك من خلال تطوير وصيانة قنوات الري والتوزيع والمحافظة عليها من الهدر من خلال تطوير السدود المقامة فعلاً، والعمل على بناء سدود جديدة لمنع هدر المياه، وإنشاء بحيرات صغيرة كأحواض لتربية الأسماك خاصةً على ضفاف الانهار فضلاً عن استغلالها كمناطق سياحية مما يوفر الكثير من فرص العمل لا سيما بعد تنظيف بحيرة القرعون من التلوث.
- تشجيع المزارعين على الإنتاج وذلك من خلال تبني الدولة مجموعة من البرامج تتحمل بموجبها جزءاً من التكاليف لمدة زمنية معينة تحدد وفق متطلبات المرحلة الراهنة للأزمة الاقتصادية، وتتعهد الدولة كذلك بشراء المحاصيل الزراعيّة بأسعار تشجيعية من خلال المحافظة على العرض والطلب.
- المحافظة على المقومات الطبيعية والغطاء النباتي لاستغلالها بشكل علمي

(1) الجمهورية اللبنانية، دليل المعايير التخطيطية للأمناء، (2009)، وزارة الداخلية اللبنانية.

مدروس بهدف زيادة الإنتاج الزراعي ليتناسب مع الحاجات الغذائية المطلوبة، ولكن ضمن حدود هذه المقومات من خلال إدامة قدراتها الإنتاجية⁽¹⁾ وتمكينها من المساهمة في تحقيق التنمية الزراعية المستدامة.

- توفير التشريعات المناسبة لتشبيك القطاع الخاص والاستثمارات الاجنبية بالمؤسسات الرسمية اللبنانية، وإصدار قرارات سليمة بشأن ترشيد استخدام المواد سواء كانت الكيماوية أو التعقيمية أو غيرها، واستثمار الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة، بما يتناسب مع فلسفة وأهداف السياسات الحكومية للبنان. وبذلك تصبح الزراعة أكثر فاعلية إذا دخل في استثمارها القطاع الخاص لما يمتلكه من رساميل، ويد عاملة متخصصة، بشرط ألا تؤثر على استغلال الموارد الطبيعية، وذلك من خلال خلق توليفة مثلى لتزواج القطاعين معا من أجل تحقيق تنمية زراعية مستدامة.

الخاتمة :

تحقق التنمية الزراعية دوراً بارزاً في تحقيق التنمية الاقتصادية عموماً، لذلك ينبغي أن تعطى المؤسسات الرسمية في الدولة اللبنانية أهمية كبيرة لما لها من نتائج ايجابية في تجاوز الأزمة الاقتصادية المستجدة.

وتكمن أهمية التنمية الزراعية عموماً في أنها تتناول قضية مهمة ومعاصرة وذات تأثير اقتصادي واجتماعي وسياسي، وذلك لأنها حاجة وطنية لايقبل التفریط والمساومة بها، لأنّ وطننا لبنان يتعرض حالياً إلى ضغوط سياسية واقتصادية واجتماعية.

إنّ تحقيق التنمية الزراعية سوف يقود إلى تحقيق الأمن الغذائي للسكان، وتوفير المواد الأولية للصناعات الوطنية ويخلصنا من التبعية الغذائية والاقتصادية والمالية، ويساعد على تخفيض الفاتورة المرتفعة لاستيراد المواد الغذائية وتخفيض العجز في الميزان التجاري وميزان المدفوعات الذي بدأ يشكل عبئاً ثقيلاً على الموازنة العامة للدولة، بهدف تخليصها من طابعها المصرفي، فضلاً عن إعادة لبنان إلى عهوده القديمة، وبذلك نستعيد تسميته بلبنان الاخضر.

(1) السالم، احمد جبر، 2010، واقع التنمية الزراعية المستدامة ومتطلباتها في العراق، جامعة القادسية، ص31

لائحة المصادر والمراجع :

❖ لائحة المصادر :

1. الجمهورية اللبنانية، مجلس الإنماء والإعمار، 2015، الخطة الشاملة لترتيب الأراضي في لبنان، القطاعات الاجتماعية والاقتصادية، العدد تشرين الأول.
2. الجمهورية اللبنانية، دليل المعايير التخطيطية للإنماء، 2009، وزارة الداخلية اللبنانية.
3. التقرير السنوي للتنمية الزراعية في الوطن العربي سنة 2007، ص. 18، الموقع : <https://www.aoad.org/devreport2007.pdf>
4. ساسين، وفرام، أطلس لبنان 1997.
5. منشورات المعهد العربي للتخطيط سنة 2016، علاقة الزراعة بالتنمية.

❖ لائحة المراجع :

1. السالم، احمد جبر، 2010، واقع التنمية الزراعية المستدامة ومتطلباتها في العراق، جامعة القادسية، العراق.
2. الدليمي، حسين خلف، 2009، تخطيط الخدمات المجتمعية والبنية التحتية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الاردن.
3. الموسوي، هاشم وآخرون، 2005، التخطيط الحضري، دراسة نظرية تطبيقية حول المشاكل الحضرية، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، الاردن .
4. فايد، يوسف عبد المجيد ، 1989، جغرافية المناخ والنبات، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر .
5. جاب، محمد مدحت، 2006 ، جغرافية العمران الريفي والحضري، مكتبة الانجلو المصرية، مصر .
6. مشغرة: التاريخ الحلم، 2007، سلسلة دراسات تتناول المدن والبلدات والقرى اللبنانية، مؤسسة الصادق للدراسات والإنماء، بيروت، لبنان .

❖ لائحة المراجع باللغة الأجنبية:

1. CHIHA Michel, 1965 “ Propos d’Economie Libanaise”. Publication de la Fondation Michel Chiha, Editions du Trident, Beyrouth.
2. PELLETIER J, 2000, ville et urbanisme dans le monde , 4ème édition. Paris, Armand colin.
3. Tissot P, Mars-avril 1947, L’Agriculture libanaise : son présent et son avenir, In: Revue internationale de botanique appliquée et d’agriculture tropicale, 27^e année, bulletin n°293-294.

4. images economiques 2019.

❖ الأطاريح والأبحاث:

1. يونس، منى، 2018، أطروحة دكتوراه غير منشورة، غزو المدينة للريف المجاور، نموذج مدينة صور الجنوبية، الجامعة اللبنانية، بيروت، لبنان.

❖ عناوين على الإنترنت:

1. <https://www.ecomena.org/agricultural-development-ar/2019>
2. <http://www.arab-api.org/2012/>
3. http://www.litani.gov.lb/wp/?page_id=802
4. غانم، نبيه، النشرة، (1 ايلول 2014)، مقالة بعنوان : الزراعة في لبنان واقع المشكلة وأفاق الحلول .
5. www.ministryinfo.gov.lb/494

التنمية المستدامة في اتحاد بلديات عاليه

د. إيلي شديد⁽¹⁾

الملخص:

ينقسم اتحاد بلديات عاليه إلى قسمين، قسم ريفي يغلب عليه النشاط الزراعي والسياحي وهو ذو كثافة سكانية منخفضة، وقسم مديني ذو كثافة سكانية مرتفعة يعتمد بشكل أساسي على النشاط التجاري كنشاط اقتصادي رئيسي للمنطقة. ومن مميزات هذه المنطقة موقعها الوسطي بين سائر مناطق الجبل، وسهولة الوصول إليها والخروج منها وقربها من العاصمة وطريق الشام، فضلاً عن قربها من مراكز الاصطياف والترفيه.

وعلى الرغم من هذه الميزات الإيجابية التي قد تكون وسيلة تطور للمنطقة، نراها لا تزال تعاني من الحرمان. ورؤيتنا في ما يتعلق بعملية التنمية في هذه المنطقة يجب أن تحصل عبر اتحاد تتم من خلاله عملية التنمية المحلية بمشاركة بلديات عدّة تنتمي إلى وحدة جغرافية بتضاريس واضحة ومحدّدة نظراً لأهمية استعمال الأراضي في مخطّط التنمية. ومن الصعب على البلديات الريفية وسلطاتها ومؤسساتها مواجهة التحديات والمشكلات بمفردها، وتتعاظم قدرتها في المعالجة على قاعدة التنمية إذا ما وحدت الإمكانيات وجمعت القدرات مع غيرها من البلديات التي تزرع تحت وطأة المشكلات المتشابهة.

الكلمات المفتاحية: اتحاد بلديات، التنمية المستدامة

Le développement durable dans l'union des municipalités de Aley

Le résumé :

L'union des municipalités de Aley se divise en 2 parties, une partie rurale où l'activité agricole et l'activité touristique dominant avec une faible densité de population et une partie urbaine avec une densité de population élevée où domine l'activité commer-

(1) الجامعة اللبنانية- كلية التربية - الفرع الثاني-

ciale considérée comme activité économique principale dans cette région. Cette région se caractérise par son site central entre le reste des régions montagnardes, la facilité d'y entrer et d'en sortir et sa proximité de la capitale, de l'autoroute de Damas de même sa proximité des lieux d'estivage et de divertissement.

Malgré les avantages de cette région qui peuvent être un moyen qui contribue à son développement, nous remarquons qu'elle souffre toujours de privation. Notre vision concernant le développement de cette région doit être établi par « une union » à partir de laquelle le processus du développement local s'effectue avec la participation de plusieurs municipalités appartenant à une unité géographique au relief claire et bien précis, compte tenue de l'importance de l'utilisation du sol dans le plan du développement. Il est très difficile pour les municipalités montagnardes, ses autorités et ses entreprises de faire face aux défis et au problèmes seules. Leurs capacités de traitement augmenteront sur la base de développement si elles unifient leurs compétences avec les autres municipalités qui souffrent de problèmes similaires.

Mots clés: developpement durable, union des municipalités.

1- المقدمة:

تاريخياً، عاش سكان المنطقة، مثل معظم سكان باقي مناطق جبل لبنان منذ أوائل القرن التاسع عشر، على الزراعة الموسمية وإنتاج الحبوب والبقول والعنب، إلى جانب زراعة التوت لتربية دود القز المنتج للحريز، والذي كان يصدر إلى أوروبا. غير أن افتتاح قناة السويس أدى إلى فتح الطريق أمام الحرير الهندي الرخيص إلى الأسواق الأوروبية مما أضر على صناعة الحرير في جبل لبنان وتسبب في إقفال كرخانات الحرير لفقدان الأسواق⁽¹⁾. وقد كان البدء بتسويق الحرير الصناعي في العام 1920

(1)-سعيد، عبدالله (2003) : تطور الملكية العقارية في جبل لبنان في عهد المتصرفية « دار المدى » بيروت .

نهاية لصناعة الحرير في الجبل وأدت بالتالي إلى اقتلاع أشجار التوت واستبدالها بأشجار الفاكهة⁽¹⁾. وقد انسحب هذا الأمر على منطقة الدراسة حيث تمّ غرس الآلاف من أشجار التفاح والكرز.... بدءاً من منتصف الأربعينيات في القرن الماضي. وقد ساهمت هذه الزراعة إسهاماً فعالاً في إنماء المنطقة حيث اشتهرت هذه المنطقة في حينها وبصورة خاصة بإنتاج التفاح.

إلى جانب الزراعة، اشتهرت المنطقة بنشاط الاصطياف، حيث استقطبت بعض القرى والبلدات، المصطافين من لبنان والدول العربيّة المجاورة منذ أربعينيات القرن الماضي⁽²⁾. وقد نمت عملية الاصطياف في الإطار التقليدي معتمدةً على المصطافين الذين جذبهم المناخ المعتدل وجمال طبيعة المنطقة.

وقد أسهمت هذه السهولة في التعامل، إلى جانب التطور الملحوظ في العلاقات الاجتماعية بين المصطافين وأهل المنطقة، في اكتساب المنطقة سمعة جيدة في الضيافة والانفتاح⁽³⁾. وقد استمر هذا الانفتاح على هذا النحو حتى اندلاع الحرب اللبنانية عام 1975 رغم الضعف الشديد في مقومات البنية التحتية المطلوبة للسياحة، وهذا يعود إلى السمعة الجيدة التي امتاز بها أهل هذه المنطقة. غير أنّ اندلاع الحرب اللبنانية أدى إلى الانهيار التام والشامل للاصطياف في المنطقة.

كان تأثير الحرب الأهلية السلبي واضحاً على المنطقة التي تتميز بالتنوع المذهبي والطائفي. لكن تداعيات مشكلة تهجير قسم كبير من سكان المنطقة أثناء الحرب ما زالت تؤثر سلباً في الإبقاء على النسبة القليلة للسكان المقيمين بشكل دائم في المنطقة، ذلك لأنه برغم إنجاز عودة المهجرين بشكل كبير إلى قراهم وبيوتهم في المنطقة، تظلّ هذه العودة ناقصة وذلك بسبب انخراط النازحين والمهجرين في الدورة الاقتصادية والمعيشية في المناطق التي انتقلوا للسكن فيها. يضم اتحاد بلديات عاليه القرى التالية: عاليه، عين الجديدة، بحدون المحطة، بحدون القرية، بخشتيه، عين الرمانة، بتاتر، بمكين، عين السيدة، شانيه، منصورية بحدون، بطلون، صوفر، شارون، القماطية، بدغان، الرجمة، سوق الغرب، المشرفة ومجدلبعنا.

2- أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى الإضاءة على الواقع التتموي في قرى

(1)- سعيد، عبدالله : مرجع سابق

(2)- الدراسة الميدانية

(3)- الدراسة الميدانية

اتّحاد بلديات عاليه، وتحديد الإمكانيات والعوائق التي تتحكم بعملية التّميّة في هذه المنطقة.

3- مشكلة الدراسة: تواجه هذه القرى مشكلة تنموية كبيرة نتيجة تراجع القطاعات الإنتاجية في المنطقة نتيجة الحرب اللبنانية التي قضت على معظم القطاعات الإنتاجية فضلا عن نزوح وهجرة قسم كبير من سكان القرى نتيجة الأعمال العسكرية التي حصلت في المنطقة.

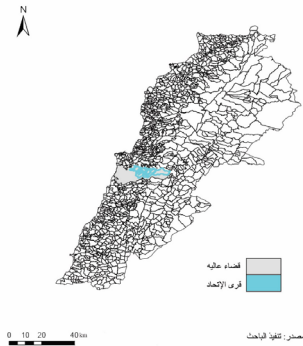
4- منهجية العمل: تم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي في وصف الأوضاع السكانية، والاجتماعية والاقتصادية ومحاولة تفسير ديناميتها وتحديد العوامل المتحكمة بها.

أولاً: الخصائص الطبيعية:

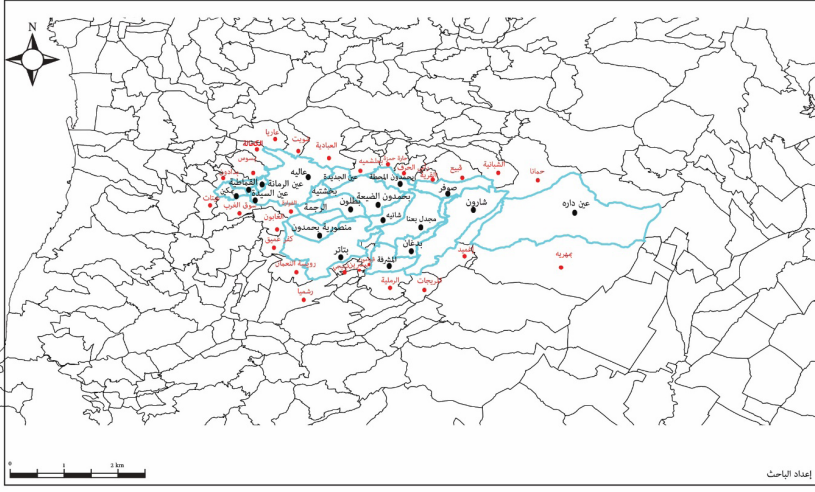
أ- الموقع:

يمتد اتّحاد بلدات عاليه ما بين الساحل غربا والجرد شرقا. ويضم 20 قرية وبلدة ومدينة وتوزع ما بين الساحل والجرد. يحدها من جهة الشمال طريق الشام أما من جهة الجنوب فتحدها قرى الرملية ورويسة النعمان ومعصرتي، غربا قرى كيفون، بيصور ومجدليا، أما من جهة الشرق عين داره، العزونية، مشكيتي وإغمد. أما القرى التي يتألف منها الاتّحاد فهي: بتاتر، شارون، عاليه، مجدل بعنا، صوفر، المشرفة، عين داره، منصورية بجمدون، بدغان، سوق الغرب، بتالون، بجمدون المحطة، شانيه، الرجمه، بمكين، بخشتيه، القماطيه، عين الرمانه وعين السنديانة.

خريطة رقم (1): موقع قرى الاتّحاد بالنسبة إلى قضاء عاليه ولبنان



خريطة رقم 2 : قرى الاتحاد والقرى المجاورة.



حدود الإتحاد
قرى ضمن الإتحاد
قرى مجاورة للإتحاد

ب- الحرارة والأمطار والرياح

بالنسبة لمجموع الأمطار بلغت كميتها 1000 ملم 80 % منها ما بين شهري تشرين الثاني وآذار وتتفاوت درجات الحرارة بين 3 درجات مئوية تحت الصفر شتاء وأقصاها 33 درجة مئوية صيفا كما تسود المنطقة الرياح الجنوبية- الغربية⁽¹⁾. بلغ معدّل هطول الأمطار على الساحل 957 ملم سنويًا في مقابل 1180 ملم على مرتفعاته⁽²⁾. بحيث أن متوسط الأيام الماطرة سنويًا هو 73 يومًا على ساحل الإتحاد في مقابل 66 يومًا على المرتفعات. تتعرض منطقة الدراسة إلى عدد من الرياح المتنوعة⁽³⁾ ، أهمها:

- الرياح الغربية التي تهب في فصل الشتاء من البحر المتوسط حاملةً الأمطار الغزيرة والثلوج

- الرياح الموسمية الباردة المعروفة بالرياح الشمالية الآتية من المناطق القارية من أوروبا وسيبيريا، تهب هذه الرياح خلال فصل الشتاء وهي ذات رطوبة منخفضة وحرارة شديدة الانخفاض فتحبس الأمطار وتتسبب بموجات من الصقيع والبرد تشل حركة السكان وتستمر في غالب الأحيان إلى عدة أيام .

(1)- أطلس لبنان المناخي (1977)، المجلد الأول، الطبعة الثانية

(2)- المرجع نفسه

(3) - المرجع نفسه

ج- التركيبة الجيولوجية:

تتوزع الصخور على منطقة الدراسة وفق الشكل التالي⁽¹⁾:
 الطبقة الأولى أو طبقة الكريتاسي الأسفل⁽²⁾ (c1 - gres de base) ، هذه الطبقة تتميز بكونها طبقة رملية خالية تماماً من الكلس وينتشر هذا النوع من الصخور في شمال المنطقة وهو قليل الانتشار وتتراوح سماكة هذه الطبقة ما بين 100 و 200 متر.
 الطبقة الثانية والتي تعرف باسم طبقة (c2 - aptien) وتقسم إلى طبقتين أساسيتين هي c2a ، c2b . فبالنسبة لـ c2a فانتشاره قليل ويتواجد في الأقسام الجنوبية الشرقية للمنطقة غير أن طبقة c2b تنتشر في قسم كبير من البلدة ولا سيما في الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية والجهة الشمالية.

الكريتاسي الأوسط ويتألف من:

الطبقة الثالثة ((c3- albien) وهي عبارة عن طبقات من الصخور المارنية الخضراء وتصل سماكة هذه الطبقات إلى 100 متر في بعض الأماكن وتنتشر في القسم الجنوبي من المنطقة

الطبقة الرابعة (c4-cenomanien) التي تقسم بدورها إلى ثلاثة أقسام c4a, c4b, c4c . فبالنسبة لطبقة c4a تتألف بمعظمها من أحجار الحوارة وتصل سماكة هذه الطبقة إلى 100 متر أما طبقة c4b فتتألف من أحجار المارن وسماكتها 150 متر أما طبقة c4c فتتألف من الصخور الكلسية والحوارة وتصل سماكتها إلى 450 متر.

د- الغطاء النباتي:

تبلغ المساحات الحرجية⁽³⁾ 948 هكتاراً منها 177 من الغابات الكثيفة و178 هكتاراً من الغابات المتفرقة، و593 من المساحات الحرجية المختلفة. وتتمتع بلدات شارون، بدغان والمشرفة بأراض حرجية. أما في محيط بلدات عين السيدة، عين الرمانة، بمكين، سوق الغرب وصولاً إلى عاليه فهناك أحراج صنوبرية ما زال بعضها ملغماً منذ الحرب اللبنانية ولم تعمل السلطات الرسمية على إزالة الألغام بعد. وتعد إزالة الألغام وكذلك إعادة تأهيل الحرج وتحريجه مطلباً حيويًا ومشاركًا لـ 6 بلدات هي : عاليه، عين

(1)- الخريطة الجيولوجية للبنان- ورق بيروت- دوبرتريه- مقياس/50000

(2) - المرجع نفسه

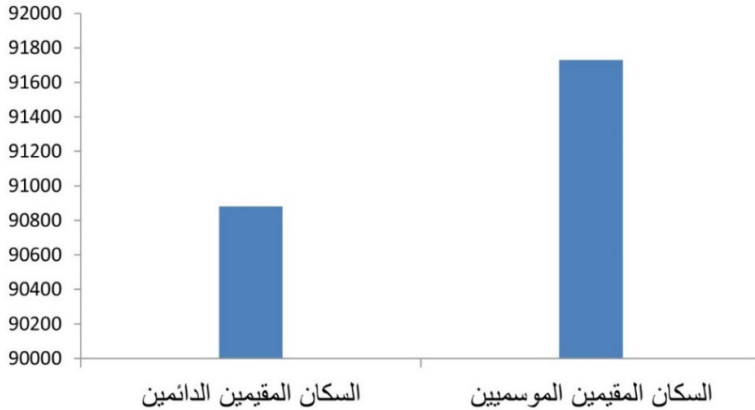
(3)- نظم المعلومات الجغرافية-

الرمانة، القماطية، عين السيدة، بمكين وسوف الغرب .
هـ- الموارد المائية:

إن مصدر المياه في المنطقة هي ينابيع القرى والبلدات، خاصة في المشرفة، الرجمة وعين الرمانة، فهي غزيرة ومخصصة لمياه الشفة، ومنها ما يستخدم للزراعة. أما في ما يتعلق بالمياه الجوفية، فإن آباراً عميقة قد حُفرت للإفادة منها في عدد من البلدات الزراعيّة (المشرفة، عين الجديدة، مجدلبعنا وصوفر) في المدن والبلدات غير الزراعيّة ولمياه الشفة كما في عاليه، بحمدون وسوق الغرب.

ثانياً: الخصائص البشرية أ- التمرکز السكاني

يقدر عدد السكان المقيمين في منطقة الدراسة 90880 أما عدد المقيمين الموسميّين فهو 91730 نسمة بالإضافة إلى عدد المقيمين الدائمين⁽¹⁾. الأمر الذي يشير إلى أهمية هذه الظاهرة في حياة أهل المنطقة. فالاعتماد على الاصطياف أساسي بالنسبة لأهل الاتّحاد على المستويين التجاري والاقتصادي. غير أن الوجه الآخر للظاهرة المذكورة يتمثل بالانتقاه المؤقت لسكان المنطقة خلال موسم الاصطياف والذي يشهد انحساراً حقيقياً خلال الأشهر التسع الأخرى من السنة، ما يعني ذلك ركود اقتصادي وضمور في النشاط التجاري.



(1)- الدراسة الميدانية

رسم بياني يبين التفاوت بين المقيمين الدائمين والمقيمين الموسمين⁽¹⁾

2-1- التركيبة السكانية:

1-2-1: التركيب العمري للسكان:

أ- فئة فتيان متوسطة الحجم (14-0 سنة):

الميزة الأساسية لهذه الفئة أنها غير منتجة فعلياً كون معظمها في المدارس أو في المعاهد المهنية، يبلغ عدد أفراد هذه الفئة (نكورا وإناثا) 25213 نسمة أي ما نسبته 27.8 %⁽²⁾ من مجموع السكان في كل الفئات العمرية وتعتبر هذه النسبة منخفضة جداً إذا ما قورنت مع الفئة العمرية نفسها بالنسبة إلى لبنان للعام 1970 حيث بلغت هذه النسبة 42.9 % و 29.3 % للعام 1996 وقريبة 27.3 % للعام 2004⁽³⁾، وبما أن هذه القرى تنتمي إلى محافظة جبل لبنان فإننا نرى أن نسبة هذه الفئة العمرية قريبة للرقم المسجل على مستوى المحافظة وهي 26 %⁽⁴⁾. بينما تتفاوت هذه النسب بين المحافظات إذ تم تسجيل أعلى المعدلات في محافظة الشمال 34.7 و 32.8. وفي محافظة البقاع نلاحظ أنها تنخفض إلى 21.9 %.

ب- فئة بالغين مهيمنة (64-15):

تعدّ هذه الفئة العمرية هي المحرك الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي للأسرة بمعنى آخر هي الفئة المنتجة والتي يقع على عاتقها إعالة الأسرة ولا سيما الفئات العمرية غير المنتجة (دون 15 سنة وما فوق 64 سنة) ، يبلغ عدد أفراد هذه الفئة 54911 نسمة أي ما نسبته 60.4 % أي ما يقارب الثلثين وتعتبر هذه النسبة أدنى مع معدل هذه الفئة بالنسبة لمحافظة جبل لبنان والبالغة 66.9 % وكذلك بالنسبة إلى لبنان حيث بلغت هذه النسبة عام 2004 65.2 %⁽⁵⁾ ونلاحظ أيضاً أن هذه النسبة تشهد تفاوتاً بين المحافظات إذ تصل إلى 69.1 % في بيروت وتنخفض في الشمال إلى 59.3 %. تمثل القوى العاملة جزءاً مهماً من فئة البالغين، وتعمل الفئات الأخرى التي لا تعمل كالفتيان والطلاب وربات الأسرة والمتقاعدين والعاطلين

(1)- تنفيذ الباحث استناداً إلى الدراسة الميدانية

(2)- الدراسة الميدانية

(3)- د.فاعور، علي (2007) - اطلس لبنان ص 71 - دار المؤسسة الجغرافية

(4)- نتيجة مسح المعطيات الإحصائية للسكان والمسكن ، عام 1996

(5)- أطلس لبنان: مرجع سابق

عن العمل وغيرهم.

ج- رفئة مسنين مرتفعة (65 وما فوق)

وهي فئة غير منتجة وقد بلغ عدد أفرادها 10756 نسمة أي ما نسبته 11.8 من مجموع السكان وتعتبر هذه النسبة مرتفعة وذلك يعود إلى التطور الطبي الحاصل من جهة ، وانخفاض نسبة الولادات من جهة أخرى وإذا قمنا بمقارنة هذه النسبة مع محافظة جبل لبنان نرى أنها نسبة مرتفعة حيث تبلغ هذه النسبة في المحافظة المذكورة أعلاه 7 % وكذلك تشهد تفاوتًا بين المحافظات إذ تصل إلى 9 % في بيروت لتتخفف إلى 6 % في الشمال و7.5 % بالنسبة إلى لبنان ككل⁽¹⁾.

جدول رقم (1): توزيع السكان حسب الفئات العمرية الكبرى⁽²⁾

%	العدد	
27.8	25213	0-14
60.4	54911	15-64
11.8	10756	+64
% 100	90880	المجموع

ثالثاً - المؤسسات والخدمات العامة

يتوزع عدد من المؤسسات الرسمية على بعض قرى وبلدات ومدن الاتحاد. ففي عاليه، سرايا حكومي فيه مركز القائمقامية والمحكمة والمالية ومكتب لوزارة المهجرين، إضافة إلى مركز للأحوال الشخصية. كما أن هناك دوائر رسمية مختلفة في القماطية، شارون، عين الجديدة وجمدون الضيعة .

تتوزع بدورها مراكز الشرطة على عاليه، سوق الغرب وصوفر. أما مراكز التتمية المحلية التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية فهي متوفرة في عاليه، القماطية وعين الجديدة. نشير أيضًا إلى مراكز ومستوصفات الصحة العامة، والتي يتبع بعضها وزارة الصحة، وهي موجودة في عاليه، القماطية، شارون، بتاتر، جمدون، المشرفة وبدغان. كما نشير إلى وجود مكتب للضمان الاجتماعي في مدينة عاليه. أي أن الاتحاد عمومًا، يستفيد من سلسلة مراكز ذات المنفعة العامة تتوزع ما بين وسطه

(1)- أطلس لبنان، مرجع سابق

(2) الدراسة الميدانية-

وجبله، تؤمن الخدمات بحدّها الأدنى المقبول لسكان الاتّحاد .

رابعاً- البنى التحتية

أ- مياة الشفة

مصادر المياه في منطقة عاليه، هي مياه نهر الباروك ومياه الينابيع وبعض الأنهر والتي بمعظمها موسمي. عملياً، هذه المياه بشقيها لا يستفاد منها كما ينبغي. وفي حال الاستفادة، فإن تدفق المياه من الصنابير المنزلية لا يأتي متساوياً لكل المناطق. ولا تستفيد معظم القرى والبلدات من خدمات مصلحة مياه الباروك سوى مرتين في الأسبوع. كما أن بعض القرى لا يستفيد منها سوى مرة واحدة في الأسبوع (المشرفة أو شارون مثلاً). إضافة إلى أن انقطاع الماء رائج خلال فصل الصيف في غالبية القرى والبلدات، أو يتم التقليل من عدد ساعات تأمينها، بحيث يصل إلى أربع ساعات مرتين في الأسبوع بدلاً من يومين كاملين في الأسبوع.

أما مشكلة مدينتي عاليه وبحمدون مع المياه فكبيرة، بسبب تواجد المصطافين فيهما خلال أشهر الصيف، الأمر الذي دفع بمصلحة مياه الباروك إلى مضاعفة تغذيتها لهذين المصيفين الكبيرين. معظم بلدات الاتّحاد تعاني من شح المياه فيها باستثناء بلدة صوفر لغزارة يناعيها. لذا لجأت بعض البلدات إلى حفر آبار عميقة للاستهلاك المنزلي أو لري الأراضي. هذا وترتبط مشكلة المياه بشكل عام بكيفية الاستفادة منها وسوء إدارتها وتعرضها للتلوث الذي يسببه الصرف الصحي. كما لا بدّ هنا من الإشارة إلى أن قساطل خزانات المياه التي تغذي بلدة صوفر، والوافدة من جبل الكنيسة، أضحت قديمة وغير صالحة، فبناؤها يعود لعام 1953 وهي متصدّعة.

ب- شبكة الكهرباء

يعتبر وضع شبكة الكهرباء مقبولاً حسب ما أفادنا الأهالي والمسؤولون البلديون لدى إجراء المسح الميداني. غير أن ما يشكو منه الجميع هو عدم انتظام التغذية خاصة خلال فصل الشتاء، الأمر الذي ينعكس سلبيّاً على المنازل والأعمال. ولعل ازدهار السياحة خلال فصل الصيف، يضع قرى الاتّحاد على خارطة أولويات التغذية لشركة كهرباء لبنان، ويبقى أن وضع الكهرباء عمومًا مرتبط بالمشاكل المزمنة التي تعانيها شركة الكهرباء.

ج- الطرقات

وضعها إما متوسط الحال أو سيء، بحسب ما أفادنا به سكان القرى المدروسة.

فقط في عاليه، بحدود المحطة، عين الجديدة وعين الرمانة اعتبرت الطرقات وخاصة الرئيسية منها في حال جيدة. وبما أن الاتحاد، وخاصة في وسطه وساحله، يعتبر ذا هوية سياحية، فإن البلديات تطالب بتعبيد الطرقات وصيانتها بشكل دائم. مقارنة مع أهمية الطرقات العامة، فإن الاهتمام بالطرقات الزراعيّة ضئيل جدًا. فلا وجود لطرقات زراعية في عاليه، بحدود، عين الرمانة، عين السيدة وصوفر، علمًا أن جميع مدن وبلدات وقرى الاتحاد محاطة بالبساتين والمشاعات التي لا يتم استثمارها بما فيه الكفاية لأسباب عدّة، أهمها يعود إلى تحولات جهة استعمال الأراضي وإلى المضاربات العقارية بدلًا من الزراعة. ويزيد غياب الطرقات الزراعيّة فيها من رسم الهوية الجديدة للأراضي، علمًا أن هذه الطرقات ضرورية إذا أردنا أن نبرر ونلبّي الهوية الريفية الزراعيّة للاتحاد والتي لا تقل أهمية عن هويته السياحيّة - الاصطيافية.

د- الصرف الصحي

مشكلة الصرف الصحي في المنطقة هي أولوية مطلقة عند كل البلديات والبلديات الجاري البحث عليها، فهي التي تعيق السياحة وهي التي تعيق الزراعة، وهي التي تعيق إمكانية وجود بيئة سليمة. قليلة جدًا هي البلديات التي تتمتع بشبكة للصرف الصحي في الاتحاد (كمدينة عاليه حيث أنجز 80 % من شبكة الصرف الصحي لديها)⁽¹⁾، حيث نجد أن هناك 6 بلدات لا وجود لشبكة صرف صحي فيها (بخشتيه، الرجمة، عين الجديدة، بتاتر، المنصورية وبدغان)، و3 بلدات معظمها حفر صحية (سوق الغرب، شارون وبطلون)، و4 بلدات نصفها مغطى بشبكة ونصفها يعتمد الجور (المشرفة، عين الرمانة، شانيه وعين السيدة) والباقية تمتلك شبكات صرف صحي بحدود 80 %. بالتالي هناك حوالي ثلث البلديات بحاجة إلى شبكة صرف صحي أو استكمال لتلك الشبكة. ولكن المشكلة ليست بالشبكة فحسب، فالشبكة تحسن الوضع البيئي داخل البلديات، وقد تمنع تلوث الينابيع والآبار حيث وجدت، لكنها تسيء بشكل مضاعف إلى الوضع البيئي للأراضي. ذلك أن البديل المحلي المعتمد حاليًا لشبكة الصرف الصحي هو شبكات محلية في كل بلدة أو قرية، ينتهي بها المطاف إلى الأودية ومجاري المياه فتسبب في تلوث البيئة. لذلك فإن المطلوب العام في الاتحاد، والذي يشدّد عليه الجميع وبالحاح، هو إيجاد شبكة عامة ومشاركة

(1) الدراسة الميدانية-

للمجاري تنطلق من أعلى الأتحاد وتصل إلى ساحله. والمطلب الثاني لدى السلطات المحلية في الأتحاد ولدى السكان إنشاء معامل تكرير للمياه المبتذلة تحمي الأراضي والمشاعات في كل القرى والبلدات⁽¹⁾.

إذن ما زالت تعتمد الجور الصحية كما ذكرنا، وهي جور فردية أو عامة (لبنائية أو لحي صغير). يتم تفريغ هذه الجور على نفقة الأفراد والأهلين، علمًا أنه غالبًا ما يتم التفريغ هذا في جوار أو في مشاعات القرى والبلدات، الأمر الذي ينتج عنه مشكلة بيئية تسيء إلى سكان الأتحاد بمقيمه ومصطافيه على حدّ سواء.

هـ - جمع النفايات

تهتم البلديات في معظم القرى والبلدات بجمع النفايات المنزلية من خلال تلزيمةا لشركة خاصة. إلا أنه ورغم ملاءمة هذا الحل على المدى القصير، يبقى أن نشير إلى أن كلفة هذا الحل تبقى مرتفعة حيث تتقاضى الشركات الخاصة مقابل أعمالها أموالاً تعود إلى البلديات من الصندوق البلدي المستقل، وذلك بعيدًا عن إشراف البلديات التي تجهل الكمية الحقيقية للنفايات التي تنتجها كل بلدة. وهذه الكلفة ستكون بلا شك أقل بكثير فيما لو عمدت البلديات إلى التعاون فيما بينها لإدارة وجمع ونقل نفايات المنطقة. أما فرز النفايات، فغير موجود عمليًا، إذ تكتفي شركة التنظيفات بجمع النفايات كلها مع بعضها البعض ثم نقلها إلى المكبات .

ولا بد من الإشارة هنا إلى اتفاق التعاون الذي قام مؤخرًا بين الأتحاد الأوروبي ووزارة التّميّة الإدارية بهدف تنفيذ مشروع جمع النفايات الصلبة ونقلها بمشاركة البلديات. ويقضي هذا المشروع بتمويل البلديات المشاركة لشراء معدات جمع ونقل وتكفل البلديات بإدارة النفايات الصلبة.

و - الخدمات الصحية

يوجد في مدينة عاليه مستشفيان هما المستشفى الوطني ومستشفى الإيمان، وتقتصر خدمات هذين المستشفيين على معالجة الحالات الطارئة وعلى الولادة، ويرتاها عمومًا ذوو الدخل المنخفض من سكان الأتحاد. كما نشير أيضًا إلى وجود مستشفى النجدة الشعبية في صوفر، مع أنه متوقف حاليًا عن العمل.

ويلاحظ في الأتحاد كثافة الخدمات التي تقدمها المستوصفات، إذ انها أكثر انتشارًا. ففي عاليه مثلاً مستوصف للصليب الأحمر اللبناني يستضيف، كمتوسط

(1)- مقابلة مع مختير ورؤساء البلديات

عام، 450 مريضاً في الشهر. وكذلك يستضيف مستوصف وزارة الصحة في المشرفة 40 مريضاً في الشهر. أما مستوصف وزارة الشؤون الاجتماعية في بتاتر فيستضيف شهرياً 75 مريضاً. ويستضيف مستوصف اتحاد النساء التقدمي في بدغان 30 مريضاً شهرياً، إلى جانب مستوصفات خيرية أخرى تستضيف عدداً من المرضى منها على سبيل المثال في شارون 100 مريض شهرياً، وفي بحمدون المحطة 50 مريضاً، وفي سوق الغرب 200 مريض، وأخيراً مستوصف في مجدلبعنا. أما القرى والبلدات الخالية من أي مستوصف فهي بمكين، صوفر، عين الرمانة، المنصورية- عين المرج، القماطية، شانيه، عين السيدة، الرجمة، عين الجديدة، بخشتيه وبطلون (جدول رقم 2). ويتراوح عدد الأطباء الذين يتناوبون على معالجة المرضى في هذه المستوصفات ما بين 2 (مجدلبعنا) و 20 (سوق الغرب).

جدول رقم 2: المستوصفات العاملة في بلدات الاتحاد *

اسم البلدة	عدد الأطباء	عدد المرضى	الاختصاصات المتوفرة
المشرفة	6	40	أمراض قلب، طب عام ، ، توليد ، طب أطفال
عاليه	4	450	توليد، طب أطفال، امراض جلدية، صحة الأم والطفل
بدغان	5	30	طب أطفال، طب عام، طب عظام
بحمدون المحطة	4	50	طب عام، طب أسنان، طب أطفال
بتاتر	4	75	طب عام، أمراض داخلية، مختبر، صحة الأم والطفل
شارون	10	100	طب عام، امراض قلب، طب اطفال توليد.
مجدلبعنا	2	أقل من 10	طب عام، توليد
سوق الغرب	20	200	جميع الاختصاصات
بحمدون الضيعة	3	20	صحة عامة ، طب أطفال، طب نسائي

ز - التعليم

يستقطب التعليم الرسمي بمختلف مراحلها ما يزيد عن ربع تلاميذ اتحاد عاليه (27,4%) . أما التعليم الخاص غير المجاني فيستأثر بالقسم الأكبر من التلاميذ (63%)، تاركاً للخاص المجاني نسبة عامة لا تتعدى العُشر. إلا أن ما أفادنا به سكان الاتحاد ومجالس بلدياته، فإن هذه النسبة المذكورة أعلاه قد تغيرت في السنوات

العشر الأخيرة، بحيث ازدادت نسبة الطلاب في مدارس التعليم الرسمي، وتعود هذه الزيادة إلى أسباب عدة أهمها تدني مستوى الدخل لدى سكان الاتحاد. كما أنه لا بد من الإشارة أيضًا، بحسب المصدر نفسه⁽¹⁾، إلى أن أغلبية مدارس الاتحاد عاليه تعتمد اللغة الإنكليزية (68 %)، مقابل 11 % تعتمد الفرنسية، في حين أن 21 % تعتمد اللغتين معًا. وأشارت دراسات سابقة إلى طغيان التعليم الخاص على التعليم الرسمي مردّه إلى بحبوحة معينة في الاتحاد، مقارنة مع الأفضية الطرفية والفقيرة من لبنان حيث يطغى التعليم الرسمي، إلا أنه مع ازدياد نسبة الطلاب في التعليم الرسمي يصبح هذا الاستنتاج بحاجة إلى إعادة دراسة وتصويب.

لا بد من الإشارة رغم ذلك، إلى المنحى المدني العام للاتحاد حيث السعي للحصول العلمي الخاص يتماشى مع رغبة في الانخراط في مهن وأعمال القطاع الخاص. وتشهد السنوات الأخيرة، كما ذكرنا سابقًا، عودة إلى التعليم الرسمي بسبب الأزمة الاقتصادية التي يعيشها البلد، ولا يشذ الوضع في قرى الاتحاد عن المنحى العام على هذا المستوى. يقع أبرز مركز للتعليم في الاتحاد في مدينة عاليه، حيث تحصى أكثر من 16 مدرسة رسمية وخاصة يتوافد إليها التلاميذ من مدينة عاليه والاتحاد على حدّ سواء. كما أن العديد من أهالي عاليه والبلدات والقرى المجاورة يرسلون أولادهم إلى مدارس منطقة الجمهور، سعيًا منهم لإلحاقهم بمدارس للإرساليات، ذلك أن مدارس الإرساليات التي كانت موجودة في الاتحاد قبل 1975، قد أغلقت أبوابها بسبب الحرب بعد هذا التاريخ (في بحدون، سوق الغرب وعاليه مثلًا). وتشير الإحصاءات الرسمية أيضًا إلى أنه لا توجد في الاتحاد أي مدرسة مهنية رسمية، في حين أنه توجد 14 مدرسة مهنية خاصة يتابع فيها 1605 تلاميذ تكوينهم المدرسي والمهني في آن، علمًا أن التعليم المهني هو حجر أساس في عملية مواكبة الطفرة السياحية القائمة وفي أي نشاط تنموي تطمح إلى إدخاله خطة التّميّة المحلية هذه. أما البلدات الخالية من المؤسسات التعليمية فهي عين الرمانه، بخشتيه، بطلون، عين السيدة، الرجمة، بحدون الضيعة والمنصورية- عين المرج.

ح- الخدمات الاجتماعية والثقافية

إن الطابع العام للجمعيات في الاتحاد هو خيري واجتماعي. فنادرة هي الجمعيات التي تعنى بالشأن الثقافي، ذلك أن هذا الأخير تابع عموماً للنشاط الاجتماعي الذي

(1)- مقابلة مع مدراء المدارس في الاتحاد

تظله، عن بعد، الأحزاب السياسية.

تتمركز اهم الجمعيات في مدينة عاليه، وقرى شانيه، مجدلبعنا، المشرفة، بدغان وشارون. أما الجمعيات التي أُنشئت بعد الحرب فهي، بشكل أساسي، جمعيات اجتماعية وخيرية وبيئية. من الجمعيات الاجتماعية نذكر: نادي الأحمديّة في شارون (2004) الذي يُعنى بالنشاطات الخيرية والاجتماعية، وجمعية حاملات الطيب الخيرية والاجتماعية، في سوق الغرب (2001)، وجمعية النهضة الاجتماعية في شانيه.

نشير أخيراً إلى أن الاتحاد يستضيف مقاهٍ للإنترنت، ففي عاليه أحصي وجود 15 مقهى للإنترنت و3 في القماطية و4 في بجمدون المحطة و2 في بتاتر و3 في شارون و1 في مجدلبعنا. ولا بد من الإشارة إلى أن عدداً من الجمعيات، في الجرد كما في الوسط، يلقي دعماً من البلديات المحلية لمواصلة نشاطاته وتوزيعها.

خامساً: الواقع الاقتصادي والإداري في المنطقة

أ- الزراعة:

إن أراضي الاتحاد ليست كلها ممسوحة مسخاً نهائياً حتى اليوم، كما أن هناك أراضٍ ومشاعات تقع في عين الرمانة، عين الجديدة، المنصورية، عاليه، بدغان، بخشتيه، بطلون، بتاتر، شارون والرجمة غير ممسوحة. وتحتاج هذه المشكلة إلى معالجة وبإمكان البلديات أن تساهم في تحريكها على المستوى الرسمي العام. تبلغ مساحة الأراضي الزراعيّة⁽¹⁾ في قرى وبلدات ومدن العينة المدروسة 1879 هكتاراً، نصفها مروي ونصفها مطري. أما الزراعة تحت البيوت البلاستيكية فلا تبلغ سوى 0,3 هكتاراً فقط⁽²⁾. نشير أنه، إلى جانب هذه الأراضي المستصلحة والمنتجة في قرى العينة، هناك مساحة 3919 هكتاراً، أي حوالي ضعفي المساحة المزروعة قابل للاستصلاح الزراعي، ولكنه مهمل في الوقت الحالي. مما يعني بوضوح أن هناك إمكانية موضوعية واسعة لتفعيل النشاط الزراعي في الاتحاد من خلال توسيع رقعته وتنويع أصنافه. ومما لا شك فيه، أن تقنيات الزراعة بحاجة إلى تحسين. فبعض أقدية جرّ المياه إلى البساتين لا يزال على سبيل المثال ترابياً، إلا أن البلديات التي تتميز بنشاط زراعي مثل المشرفة، بدغان، شارون ومجدلبعنا قد بدأت باستخدام الأنابيب

(1)- اتحاد بلديات عاليه

(2)- المرجع نفسه

البلاستيكية والمعدنية الخاصة مما يحد من هدر المياه. ولا بد من التركيز على دور البلديات في صيانة الأقنية المصنوعة من الإسمنت التي ما زالت تتبع كوسيلة ري، وذلك بغية الإفادة القصوى من مصادر المياه المتوفرة في الأتحاد. كذلك من المهم العمل على تقنيات ريّ جديدة مثل التنقيط، وعلى وجوب اعتماد سياسة زراعية جديدة، والاهتمام بالدراسات المتعلقة بتحسين جودة التربة وترشيد استعمال المياه، كذلك إدخال الزراعة العضوية والبديلة ذات القيمة المضافة.

أما الأصناف الزراعيّة فهي عمومًا الزيتون والخضار والفاكهة. وينتشر الزيتون على مساحة 970 هكتارًا⁽¹⁾. فالزيتون والتين والعنب منتشر في مجدلبعنا، الرجمة، شارون، بتاتر وبدغان، والنقاح والدراق في عين الجديدة، بتاتر، المشرفة وصوفر. كما تنتشر المزروعات الصيفيّة (بندورة، خيار، كوسا، بذنجان، الخ...) في مختلف القرى والبلدات. وهنا نشير أيضًا إلى إدخال زراعة الفستق الحلبي حديثًا إلى بتاتر وإلى البدء في مشاريع إنتاج النبيذ في كل من بطلون وبحمدون علمًا أن نتائجها لم تظهر بعد. أما بالنسبة للثروة الحيوانية فيتبين لنا أنها ضعيفة في مختلف بلدات الأتحاد، باستثناء بلدة شارون حيث يعد حجم الإنتاج الحيواني ملحوظًا مقارنة مع باقي بلدات الأتحاد (100 بقرة حلب و250 من الماشية الصغيرة) كما يشير الإحصاء إلى وجود 40000 طير داجن في بخشتيه مع إنتاج وفير للبيض و50000 طير في المشرفة. ويلاحظ مؤخرًا وجود توجه لتنمية المواشي في القماطية حيث يوجد 35 بقرة حاليًا وفي عين الجديدة 60 بقرة⁽²⁾. يبقى أنه، في ما عدا إنتاج الفروج والبيض، لا يتوفر إنتاج كافٍ من الحليب والألبان والأجبان في مستوى الأتحاد، بسبب ضآلة عدد المواشي. كما أن عدد المناحل ضعيف (حوالي 250 منحلّة منها حوالي 100 منحلّة في شارون و100 منحلّة في المشرفة)، لكنه قابل للتطوير بسهولة، لمصلحة الإنتاج الزراعيّ ككل، عبر تلقيح الأزهار في الأشجار المثمرة، وإنتاج العسل ومشتقاته مثل غذاء الملكات. وهنا نشير إلى أن جميع القرى والبلدات الزراعيّة تستورد بذارها وأعلافها من الخارج، أما بالنسبة للقوى العاملة الزراعيّة فإنها تشكل نسبة 5%⁽³⁾ من مجمل القوى العاملة في الأتحاد.

(1)- وزارة الزراعة : المسح الشامل للأراضي الزراعية-2010

(2)- اتحاد البلديات

(3) - الدراسة الميدانية

ب - الصناعات الحرفية

يبلغ عدد⁽¹⁾ القوى العاملة في هذا القطاع 19 % من مجمل القوى العاملة أما على مستوى الصناعات، فيشير الإحصاء في قرى الاتحاد إلى وجود صناعات تحويلية في كل من: عين الرمانة، مجدلبعنا، شارون، بتاتر وبطلون، وأيضًا معامل للبلاط في عين الرمانة، بخشتيه، بتاتر ومجدل بعنا أما محترفات الحدادة فنجدها في عين الجديدة، عاليه، بدغان، بخشتيه، بتاتر وصوفر، كذلك مناشر الخشب في مجدلبعنا. لكن عدد العمال في كل من هذه المحترفات لا يتعدى العشرة عمال كحد أقصى. إضافة إلى توفر صناعات خفيفة مثل معامل الخياطة والنابلون. أما في عاليه، فيوجد عدد كبير من مصانع الألمنيوم ومحترفات لإنتاج مدافئ الحديد ومصنع للمفروشات ومعمل للمواد التجميلية وآخر للأدوات الصحية. وفي حين تعمل جميع هذه المؤسسات الإنتاجية لتلبية السوق المحلية، فإن مصنع المفروشات ومعمل المواد التجميلية ومصنع الأدوات الصحية في عاليه تعمل لأسواق الخليج والأسواق العربية والإفريقية عمومًا.

وما هو ملفت للانتباه أيضًا، وجود جمعيات نسائية تعمل بشكل فردي لإنتاج حرفي على مستوى عال من الجودة يتنوع بين شراشف الطاولة المطرزة والملبوسات التقليدية المحلية. وهذا يعني أن المهارات الصناعية والحرفية متوفرة في الاتحاد، الأمر الذي يسهل تميمتها وتطويرها من قبل البلديات. إلا أنه في غياب أي تعاونيات تدعم وتحمي هذا الإنتاج وفي غياب أي خطة تسويقية له، يبقى مردود الإنتاج ضئيلاً ولا يكفي احتياجات المنتج. وفي السياق نفسه، لا بد من الإشارة إلى وجود عدد لا بأس به من ربّات المنازل اللواتي يعملن على إنتاج بيتي للمربيات الفاخرة والكشك والمخللات، في معظم قرى الاتحاد، علماً أن تصريف هذه المنتوجات يتم غالبًا محليًا، أو على أقصى حدّ في أسواق بيروت، وبمجهود فردي. يضاف إلى هذا الإنتاج، العسل، الفاكهة المجففة الكشك، الخل، النبيذ، العرق، المقطرات، الصابون والزيت....

ج- الخدمات والتجارة

يتوافر في اتحاد عاليه، عدد كبير من المحلات التجارية تتواجد في المدن خاصة، وأيضًا في بلداته وقد بيّن الإحصاء في قرى الاتحاد وجود ما يقارب 850 محل تجاري.

(1)- الدراسة الميدانية

جدول رقم 3: المحلات التجارية في الاتحاد⁽¹⁾

اسم البلدة	المحلات التجارية	محطات الوقود
صوفر	92	3
بحمدون المحطة	203	2
بطلون	1	0
بخشتيه	6	1
شانيه	40	2
بمكين	7	2
بدغان	6	1
المشرفة	8	1
شارون	50	3
بحمدون الضيعة	6	3
سوق الغرب	30	1
عين السيدة	5	0
المنصورية	6	1
عين الجديدة	5	2
مجدلبعا	30	4
القماطية	40	2
بتاتر	10	2
عاليه	330	11

يشار أيضًا إلى أن بحمدون المحطة، عاليه، شارون وسوق الغرب تستضيف أسواقًا دائمة، على مدار أشهر السنة. أما في البلديات الأخرى، فإن الأسواق موسمية. هذا يعني أن النشاط التجاري مزدهر في الاتحاد، علمًا أن مشكلته الأساسية تكمن في أنه يقوى في فصل الصيف ويضعف في فصل الخريف والشتاء والربيع، أي عندما يغيب المصطافون. ونشير هنا مثلًا إلى أن 75% من المحلات التجارية في بحمدون

(1)- دراسة ميدانية من قبل الباحث

المحطة (والتي يبلغ مجموعها 200 محل) تقفل خلال فصلي الخريف والشتاء. كذلك ينزح سكان بعض البلديات خلال فصل الشتاء مثل بطلون، بجمدون المحطة، عين السيدة، عين الرمانه وسوق الغرب، حيث يمتلك أو يستأجر معظمهم منازل أخرى في المناطق الساحلية وفي العاصمة. ولعل الحل المنطقي يكون في خلق دينامية على مستوى الأتحاد خلال الأشهر التي تضعف فيها الحركة السياحية والاصطيافية، لتحفيز الحياة الاقتصادية عبر خلق دورة كاملة من الأنشطة خلال فصلي الخريف والشتاء وإن كانت أقل كثافة من فصل الصيف، بحيث تضمن استدامة الحياة الاقتصادية.

د- السياحة

إن السياحة تشكّل في الحقيقة القلب النابض لقسم كبير من القوى العاملة في الأتحاد والاعتماد عليها أساسي. ولتلبية حركة السياحة الوافدة إلى الأتحاد، تجهزت مدن وبلديات الأتحاد ببنية تحتية من الفنادق والمطاعم والملاهي حيث جعلت إلى حدّ ما مدينة عاليه خلال الصيف مقصدًا للسياح يضاهاي بأهميته مدينة برمانا مثلاً.

غير أنه لا بدّ من الإشارة، إلى أن النشاط السّياحيّ في الأتحاد، لا يزال ضعيفا. فبصمات الحرب لا زالت ماثلة فيه، حيث أن الفنادق التي اشتهرت بها بلدة سوق الغرب قبل الحرب (أوتيل صليبا، اوتيل كامل، اوتيل نادر، اوتيل سرسق، أوتيل شبلي، أوتيل حجار) والتي هُدمت كليًا أو جزئيًا خلال الحرب، لم تقم بعد من بين أنقاضها. كما أن فنادق صوفر وقصورها التراثية وبعضًا من فنادق عاليه لم تنهض أيضًا من ركودها. لذلك نلاحظ أن النشاط الاقتصادي والسّياحيّ ينحصر في الأتحاد في مدينة عاليه (التي عملت بسرعة على محو جميع آثار الحرب فيها بفضل عمل مجلسها البلدي الدؤوب والإمكانيات المتوفرة لديه) وفي بلدة بجمدون المحطة، ويعتبر هذا النشاط مختلفًا نسبيًا عما كان عليه قبل الحرب. من ناحية أخرى تبين، أن هناك 2930 شقة مفروشة للإيجار وكذلك 2775 منزلًا للإيجار في الأتحاد. الأمر الذي يشير إلى أهمية الإقامة الوافدة إلى الأتحاد والدور المتقدم الذي تلعبه في الحياة الاقتصادية لأهله. يُشار هنا أيضًا إلى إحصاء 86 مطعمًا في قرى الأتحاد، إضافة إلى 50 « سناكا » وفرنًا للوجبات السريعة أغلبها يقفل في فصل الشتاء. كما أنه، في فصل الصيف، يفتح 24 مطعمًا إضافيًا في عاليه وبجمدون لتلبية الزبائن والسياح والمصطافين⁽¹⁾. أما السياحات البديلة المقترحة، والتي بإمكانها أن تساهم في إبقاء النشاط قائمًا صيفًا شتاء فهي

(1)- الدراسة الميدانية

السياحة البيئية والصحية والثقافية الدينية. إن خلق سياحات بديلة في المنطقة يحتاج إلى شروط هامة منها توفر بنى تحتية ملائمة وخدمات مؤهلة وكاملة ويحتاج أيضًا إلى تأهيل الخدمات الصحية ودعمها وتوزيعها. كما إن السياحة الثقافية والبيئية تحتاج إلى إبراز المواقع الأثرية والطبيعية الموجودة، والتي لم تحظ بأي اهتمام يذكر حتى اليوم.

جدول رقم (4) : توزع اليد العاملة على القطاعات الاقتصادية⁽¹⁾

القطاعات الاقتصادية	العدد	%
الزراعة	1768	5
الصناعة	6797	19 %
التجارة والخدمات	27107	76 %
المجموع العام	35672	100 %

هـ - البيئة

بما أن المنطقة تعتمد على الاصطيفات كمورد اقتصادي فهو بالتالي ملزم بتوفير بيئة نظيفة وجذابة وسليمة لرؤاده الذين يقصدونه لهذه الغاية. ما من شك أن الرغبة في الاهتمام بالشأن البيئي موجود عند المسؤولين البلديين كافة، إلا أن تعاملهم معه غير كاف وذلك لغياب أي سياسة بيئية وطنية عامة وواضحة في لبنان. فمشكلة الصرف الصحي، التي يطالب الجميع بحلها عن بُعد، لم تتحول إلى خطة سياسية شاملة ومنهجية تتوفر فيها فرص النجاح. ورغم أن هذه المشكلة هي على رأس أولويات الاتحاد من بلديات وسكان، فلا متابعة حقيقية في الوزارات المعنية لملف شبكة المجاري العامة. أما النفايات الصلبة، فتجمعها شركة خاصة متعاقدة مع البلديات، إلا أن بعض المناطق التي لا تصلها سيارات الشركة لا زالت تتخلص من نفاياتها عبر رميها في الجبال والمناطق غير المأهولة. كذلك فإن الدواليب المستعملة ترمى حيناً في الأودية وحيناً آخر تُجمع من قبل شركة خاصة. أما البطاريات المستعملة فمصيورها إما البيع كخردة أو الرمي مع بقية النفايات. من ناحيتها، لا تشهد بقايا المصانع والمحترفات الصناعية في الاتحاد، خاصة في محيط عاليه، معالجة مناسبة، بل تكدس في جوار المصانع في معظم الأحيان.

وحدها النفايات الحيوانية، في مزارع الدواجن والأبقار، تجد طريقها إلى التحويل، على

(1)- الدراسة الميدانية

شكل أسمدة زراعية. فتفيد البساتين والحقول في كل من المشرفة، شارون وبدغان. نشير أخيراً إلى أن المياه المستعملة في معاصر زيت الزيتون، تُرمى في الأودية أو في قنوات مياه الشتاء. أما زيوت السيارات، فإنها بعد استعمالها، تشهد مصيراً مشابهاً لمصير مياه زيت الزيتون على مداخل ومخارج بعض القرى والبلدات. إلا أن بعضها يستعمل للتدفئة بعد خلطه مع نشارة الخشب وجيف الزيتون.

و- الإدارة البلدية

تضم منطقة الدراسة 19 قرية ومدينة فيها مجالس بلدية. تعاني البلديات وكما تبين في الجولات الميدانية والمقابلات مع المسؤولين البلديين، من ضعف شديد في القدرات الإدارية والتنظيمية والمالية، كما تعاني هذه البلديات من ضعف في التنظيم الإداري ومعظم البلديات فارغة من الملاكات وغير قادرة أصلاً على دفع رواتب موظفين جدد، ويقوم بالأعباء الإدارية أعضاء منتخبون في المجلس البلدي. أما بالنسبة للشأن المالي، وهو عصب العمل البلدي، فالوضع بحاجة إلى معالجة جديّة. إن أبسط قواعد العمل المالي، كالفصل بين التحقق والحماية وإصدار جداول تكليف غير موجود أصلاً. كما لا تمتلك البلديات محاسباً مختصاً لإعداد الموازنة والتقارير المطلوبة ودفعها سنوياً لديوان المحاسبة، كما أن عدداً من البلديات لا تجبي أياً من الرسوم المتوجب جبايتها بسبب الوضع الاقتصادي السيء من جهة وغياب الجهاز البشري اللازم لإعداد جداول التكليف وتحصيلها. أما بالنسبة للعلاقة مع المواطنين، فتفتقر البلديات لآليات التواصل مع المواطنين والجمعيات غير الحكومية. إن غياب القدرة على تطوير العلاقة بين المواطنين والسلطات المحلية عبر تسهيل العبء الإداري على المواطنين وتعزيز الشفافية في العمل البلدي يساهم في إضعاف دور البلدية كمؤسسة تعبر عن توجهات المجتمع المحلي وتعزز قدرته الذاتية على إدارة شؤونه. لا يمكن أن يستند أي مشروع على البلديات كأساس للتنمية المحلية إلا أن يأخذ بعين الاعتبار تقوية العمل البلدي وبناء قدرات الموظفين البلديين في العمل البلدي والتخطيط والتواصل من أجل التنمية.

القسم الثالث: اقتراحات تنمية

أ- الزراعة

تشكل الزراعة المورد الرئيسي لعدد من الأهالي، فتنمية هذا القطاع وتوفير الشروط اللازمة للنهوض به وتطويره يعتبر أمراً ملحاً للحد من تفاقم المشاكل الزراعيّة في المنطقة. تتوفر لهذا القطاع عناصر قوة تتمثل بالأرض الغنية بالتربة والصالحة للزراعة،

وفرة المياه السطحية وتنوع الغطاء النباتي. ورغم كل ما يتعرض له هذا القطاع من مشاكل على مستوى التجديد النوعي، انخفاض المردودية، ارتفاع الأكلاف، صعوبة التسويق وغياب السياسات الوطنية الداعمة لهذا القطاع، يبقى من غير الممكن إغفال هذا القطاع الذي يعتبر مع الثروة الحرجية الموجودة في المنطقة من أهم ركائز التنمية المستدامة. فتنمية قطاع الزراعة كماً ونوعاً، تعتبر أمراً حيوياً ومجدياً نظراً لقرب الأسواق الاستهلاكية من المزارعين. ويتطلب تطوير القطاع الزراعي عدة عناصر منها: توسيع المنتوجات الزراعيّة المتوافرة في هذه القرى وتنويعها لتتطال زراعات جديدة وعضوية أو أنواعاً أخرى من الزراعات التي يمكن أن تدخل إلى السوق اللبناني من خضار وفواكه، وحالياً يتضاعف الاهتمام في لبنان بالأمن الصحي والغذائي وبتزايد الطلب على المنتوجات الغذائية الصحية. من هنا تُرشح الزراعة العضوية والطبيعية لانتشار أكثر، فهذه القرى مدعوة للاهتمام بهذا النوع من الزراعة الخالية من المواد الكيميائية والتي تقدم منتجاتاً محليةاً ووطنياً وعالمياً والطلب يفوق العرض في حينه. وتحتاج هذه الزراعة إلى اكتساب مهارات وإلى معرفة الأنواع المطلوبة وطرق الإنتاج والتوضيب والعرض بعلاقات تجارية أو ماركات (label) تحمل اسم المنشأ الجغرافي في البلاد. كما أن التكامل بين إنتاج الثروة الحيوانية والزراعة العضوية أمر مطلوب وكذلك التكامل بين إدارة الغابات والإنتاج الزراعي والعضوي ضروري ومطلوب.

ب- الحرف والصناعة

إذا استثنينا مدينة عاليه، التي يتركز داخلها مجمل النشاط الصناعي الحديث والحرفي على السواء، وحيث يتركز مجمل النشاط التجاري على تنوعه، ومجمل النشاط الصحي والتربوي، فإن باقي بلدات الأتحاد تفنقر بشكل كبير إلى النشاطات الصناعية والتجارية ذات المردود الاقتصادي.

ومن أبرز المشاكل التي تواجه الصناعة في هذه القرى هي ارتفاع كلفة التصنيع، وعدم اهتمام الدولة بالبنى التحتية الصناعية كما يحتاج العمل الصناعي إلى توفير الدعم المادي والمالي كتأمين القروض والتسليفات التي تعزز الأعمال الصناعية وتوجه أفراد السكان نحو صناعات جديدة أكثر إنتاجية. أما الخطوات الضرورية لتطوير القطاع الصناعي والتي من المرجح أن يقوم الأتحاد بها هي اعتماد سياسة محلية ترتكز على إيجاد منطقة صناعية تخدم جميع القرى بمواصفات عالية وشروط بيئية وتكون جاذبة لمحيطها وتراعي ذوي الإمكانات المحدودة، وربط الحرفيين والزراعيين بمؤسسات

إقراضية، تشجيع المنشآت التي تتطلب يد عاملة نسائية (المطبخ الصناعي، المونة)، تسهيل عمليات الاستثمار في القطاع الصناعي وتأمين البنى التحتية الملائمة وبأقل كلفة ممكنة، وتنمية الصناعات الخفيفة والمتوسطة والحرفية لتساهم بالنواتج الإجمالي للبلاد.

ج- التجارة والخدمات

إنّ تطوّر عدد السكان في هذه القرى دفع بالحاجة إلى تأسيس عدد من المحلات التجارية والخدماتية لتأمين احتياجات السكان المقيمين المختلفة، من مواد غذائية وخضر وغيرها من السلع. أمّا اليوم ومع التوسع العمراني والسكاني للبلدة، أصبح من الحاجة تطوير النشاط التجاري المحلي الذي أخذ يشمل مختلف السلع والخدمات والمطاعم إضافة إلى محلات صيانة السيارات ومحطات المحروقات وغيرها.

لا مجال حقيقةً للمقارنة، بين مدينة عاليه في هذا المجال وبين بلدات وقرى الاتحاد الأخرى، عدا ما يتعلق ببلدة بجمدون المحطة. فخلال موسم الصيف تعمل عاليه لتلبية حاجات نفسها وقرى وبلدات الاتحاد والمصطافين والسياح. فيكون النشاط عارمًا. أما خلال المواسم الأخرى، فيضعف النشاط دون أن ينقطع.

أما في الجرد، فإن الحركة تتمحور حول الزراعة وصناعاتها أساسًا، وتصريفها يحتاج إلى نقل السلع إلى المدن والبلدات. والمقاربة الأفضل تكون في إنشاء حركة تجارية كحدّ أدنى في البلدات والقرى المنتجة زراعيًا، في مجالات المونة والمواد الغذائية (في المشرفة، شارون، بتاتر، بدغان ومجدلبنا) دون التسبب بإضعاف الحركة التجارية في عاليه، التي هي عصب الحياة في هذه المدينة عمليًا. بل على العكس، تؤدي هذه الحركة إلى تكامل وثيق بين المنطقتين خاصة على الصعيد التجاري. فتعزيز شراء منتجات المونة اللبنانية التقليدية أمر جدير بالعمل على تحقيقه لمصلحة قرى وبلدات جرد الاتحاد واستقرار أهاليها فيها وتعزيز مواردهم.

د- السياحة

يعتبر القطاع السياحيّ من أهم القطاعات الاقتصادية لعدد كبير من الدول وهو ينمو بصورة متواصلة مما دفع الكثير من المؤسسات والأفراد للاستثمار فيه. إن علاقة السياحة مع البيئة هي علاقة حساسة. إذ يمكن أن تلعب دورًا إيجابيًا في المحافظة على الموروث البيئي والحيوي، إذا أحسن التخطيط لها، كما يمكن أن تنتج آثارًا سلبية كثيرة وكبيرة على البيئة. من هذا المنطلق، يجب التطلع إلى السياحة المسؤولة وهي

محاولة التقليل قدر الإمكان، من الآثار السلبية للسياحة التقليدية على البيئة وعلى سلامة التراث الثقافي مع الحفاظ على المواقع البيئية والتاريخية لتساهم السياحة في رفع المستوى الاقتصادي لهذه القرى وتحقيق التنمية المستدامة. ومن خلال الدراسة الميدانية التي تم تنفيذها يتبين لنا أن هذه القرى تتميز بمقومات لا بد من الاستفادة منها لتطوير هذا القطاع وتنميته، ومن هذه المقومات:

- أ- طبيعة متنوعة وغنية تكثر فيها المناظر الخلابة، إضافة إلى مناطق أخرى مختلفة تصلح لأن تكون محميات، كما تتميز هذه القرى أيضًا بأوديتها الخضراء.
- ب- ذهنية السكان وما يبذونه من حسن الضيافة وحبهم للحياة واعتزازهم بانتمائهم إلى قراهم من مقيمين ومغتربين، يفخرون بما لديهم ويشاركون في النشاطات التي يتم إحيائها ويدعون معارفهم وأصدقاءهم إليها.
- د- ميزة وسمعة المطبخ المحلي المقصود المنتشر في جزء من قرى التجمع والذي يقصده الناس من خارج المنطقة وداخلها.
- هـ - موقع الاتحاد وقربه من العاصمة بيروت مما يسهل عملية الوصول إلى هذه القرى.

جميع هذه المقومات تؤهل هذه القرى وخاصة المنطقة الجبلية منها كمنتزه طبيعي مناطق العمل على تنظيمها في مشروع متكامل يساهم في التنمية المستدامة ويرتكز على حماية التراث والإرث الطبيعي والثقافي وذلك بمشاركة المجتمعات المحلية. ومن أهم أهدافه حماية الثروات الطبيعية وإدارتها، تطوير القرى اقتصاديا واجتماعيا، نشر المعلومات وتحسين المجتمع لقضايا البيئة والثقافة، إقامة بحوث وتجارب مرتبطة مباشرة بطبيعة الأرض والبيئة⁽¹⁾.

من هنا التفكير بإيجاد أماكن لهو بيئية - سياحية، في الهواء الطلق، قد يكون مفيدًا، لجذب فئات جديدة من السياح على مدار أشهر السنة. كما يكون مفيدًا التفكير بإنشاء غابات نموذجية في الاتحاد، يمارس فيها السياح المشي والرياضة والتسلق والتخييم. ويبدو أنه مفيد أيضًا خلق شبكات أو تعاونيات تعمل على دعم المزارع وإيجاد أسواق عبر إنشاء سوق دائم للمنتجات الزراعية البلدية، في قرى الجرد، يرتاده أهل الاتحاد كما أهل العاصمة بيروت. كذلك دعم الإنتاج الحرفي من أشغال وتطريز وحياسة، وأعمال حرفية يقوم بها أفراد لا يجدون دائمًا الفرص لتسويق إنتاجهم. ولا بد من الاهتمام

(1) - الخطة المبسطة للتنمية المحلية - وزارة التنمية الإدارية ص 13

بشبكة المواصلات في الاتحاد وكذلك بالنظافة العامة. فالناس هنا أيضًا شركاء في الوعي والالتزام مع المسؤولين البلديين والسياحيين عمومًا.

د- البيئة

المشكلة الكبرى على المستوى البيئي، تكمن في غياب الوعي البيئي. فالوعي البيئي ووعي مكتسب ومعاصر. بحيث أن الدخول العام إلى المشاريع الإنمائية يشترط دخولاً فردياً إلى الوعي البيئي، عند المسؤولين البلديين أولاً، ثم عند عموم أهالي المدن والقرى والبلدات. من هنا ضرورة البدء بتعميم الوعي البيئي وفهمه بشموليته، كي يغدو شأننا يهم الجميع في واقع الحياة اليومية والعملية، حيث أن إجراء دورات تثقيفية، على صعيد واسع، بمشاركة المسؤولين البلديين، وعلى يد أخصائيين، هو السبيل الأنجح للدخول الجاد إلى هذا الموضوع.

هـ- الطرقات

إن الطرقات الرئيسية في الاتحاد تسمح بمرور سيارتين في اتجاهين، لكنها تحتاج إلى صيانات متعددة لاسيما لجهة تعبيدها التي تعود إلى بدايات العقد الأخير من القرن الماضي، وإن كان قد جرى عليها تعبيد جزئي متقطع لبعض أقسامها أو ترقيع للحفر فضلاً عن تدعيم بعض جوانبها بالباطون المسلح، لذا وجب تزويدها بمقومات البنى التحتية كحفر وبناء الأقبية لتصريف المياه الشتوية وهذا ما نلاحظه في الطريق الرئيسية في الاتحاد. أمّا فيما يخص الطرقات الفرعية، فهي في غالبها على درجة متقدمة من التجهيز بالبنى التحتية الضرورية كالتعبيد وجدران الدعم والإنارة والأقبية، كما أنها على اتساع معقول يفي بحركة وسائل النقل.

وقد تكون هذه الخطوات المذكورة أعلاه في سبيل تدعيم مقومات التنمية الريفية في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والخدماتية محاولة جدية للتخفيف من الفجوة القائمة في توزيع الخدمات من حيث التباين بين الريف والمدينة كما أنّها تخلق فرصة حقيقية لثبات المواطن واستقراره في ريفه.

المراجع:

- 1- مديرية الشؤون الجغرافية في الجيش اللبناني.
- 2- الخريطة الجيولوجية للبنان- لويس دوبرتيه 1/50000 سم.
- 3- اتحاد بلديات عاليه.
- 4- نظم المعلومات الجغرافية.

كتب باللغة العربية

- 1- أطلس لبنان المناخي (1977). المجلد الأول، الطبعة الثانية.
- 2- سعيد، عبدالله (2003). تطور الملكية العقارية في جبل لبنان في عهد المتصرفية « دار المدى» بيروت.
- 3- الخطة المبسطة للتنمية المحلية (2004). وزارة الشؤون الإدارية.
- 4- د. فاعور، علي (2007). أطلس لبنان، دار المؤسسة الجغرافية.
- 5- وزارة الزراعة (2010). المسح الشامل للأراضي الزراعيّة.

المقابلات:

- 1-مقابلات مع السلطات المحلية في منطقة الدراسة.
- 2- مع ابناء البلدة المسنين (المقيمين والنازحين).
- 3- مع اصحاب المحلات التجارية والخدماتية في البلدة.

صورة الفنّ المملوكي في المسجد النبوي الشريف
(648 - 923 / 1250 - 1517)

د. هيام عيسى

ملخص البحث

ظهرت آثار الفنّ المملوكي، ومعالمه في إعادة ترميم المسجد النبوي الشريف، نظرًا للأهمية الدينية التي تميّز بها. وتتمثّل العمارة الإسلاميّة والفنون خلال عصر المماليك في المباني الدينية كالمسجد والمدرسة والخانقاه، وفي العمارة المدنيّة كالقصور والدور الخاصّة والخانات والوكالات والمشافي.

بدأ اهتمام المماليك ورعايتهم للمسجد النبوي الشريف خاصّة في أثناء احتراق المسجد، فأعادوا بناءه وإصلاح ما خرب منه، وأحدثوا فيه أمورًا لم تعرف فيه قبل ذلك.

ونستطيع القول: بحق إنّ الفن الإسلاميّ بثنتي أشكاله وفي مختلف عصوره، وجد في المسجد المكان الآمن فأثر الملاذ إليه والإخلاق فيه.

كلمات المفاتيح المسجد النبويّ، الفن، المماليك، الناصر محمد، قيتباي

Résumé de la recherche

Titre de la recherche

L'image de l'art mamelouk dans la Mosquée de l'honorable prophète

(648- 923/ 1250- 1517)

Des traces de l'art mamelouk et de ses caractéristiques sont apparues dans la restauration de la mosquée du Noble prophète, en raison de son importance religieuse, qui s'en distingue, qui est représentée dans l'architecture et les arts islamiques à l'époque mamelouke dans des édifices religieux tels que la mosquée, le l'école et la khanaqah dans l'architecture civile, comme les palais, les maisons privées, les khans, les agences et les hôpitaux.

L'intérêt des Mamelouks et leurs soins pour la mosquée du prophète ont commencé, en particulier lors de l'incendie de la mosquée, alors ils l'ont reconstruite et ont réparé. Et ils ont créé des choses qui n'étaient pas connues auparavant.

Nous pouvons dire : Vraiment, l'art islamique sous ses diverses formes et à ses diverses époques a trouvé dans la mosquée un endroit sûr, il ya donc été immortalisé.

Mots –clés: Mosquée du prophète, art, les Mamelouks, Al Nasir Muhammad, Qaytbay.

مدخل

عرف الفن قديماً، وهو تطبيق عملي لقواعد نظريّة، تتعلّق بحرفة، أو مهنة، أو نشاط اجتماعي. لقد اتخذ الفنّ طابعاً مميّزاً، منذ نشأته الأولى، فعرفه الآشوريون، والبابليون، والفرس، وفراعنة مصر، وكذلك عرفه أيضاً عرب الجاهليّة. أمّا الفنّ الإسلاميّ فله ميزة رفيعة بين المسلمين، تجلّى في فنّ العمارة، لما له من دور رئيسي في بناء المساجد، حيث قطع أشواطاً بعيدة، حقق فيها التنوع الرائع، والانسجام الجميل.

هذا وظهرت آثار الفنّ المملوكي، ومعالمه في إعادة ترميم المسجد النبويّ الشريف، نظراً للأهميّة الدينيّة التي تميّز بها. وتتمثّل العمارة الإسلاميّة والفنون خلال عصر المماليك في المباني الدينيّة كالمسجد والمدرسة والخانقاه، وفي العمارة المدنيّة كالقصور والدور الخاصّة والخانات والوكالات والمشافي.

وقد احتل المسجد النبويّ الشريف مكانة عظيمة، وأهميّة كبيرة في التاريخ والحضارة الإسلاميّة عامة، وفي تاريخ المدينة المنورة والعمارة الإسلاميّة خاصة. فضلاً عن ذلك يُعدّ المسجد النبويّ الشريف ثاني المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال والصلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، ومن هنا حظي بالعديد من الدّراسات في شتى المجالات، غير أنّ الذي يعنينا منها، هي تلك الدّراسات التي تتبعت عمارة هذا المسجد الشريف، وتجديده ومراحل تطوره، وتوسعته والزيادة فيه.

وعلى الرّغم من أنّه لم يتبق أي أثر من عمارة المسجد الشريف فيما قبل العصر المملوكي، إلا أنّ هذه الدراسات قد اعتمدت بصفة رئيسيّة على العديد من المصادر التاريخيّة المتنوعة التي دونت وسجّلت كل صغيرة وكبيرة في المسجد خلال المراحل التاريخيّة المتعاقبة، ومن هذه المصادر كتب تاريخ المدينة ومسجدها، وكتب المناسك والمنازل، فضلاً عن كتب الرّحالة، وكتب الحوليات وغير ذلك.

وبما أنّني لم أجد سوى القليل من الدّراسات، والبحوث العلميّة، وانطلاقاً من مواكبة تجديد عمارة المسجد النبويّ الشريف. اخترت بحثاً بعنوان: **صورة الفنّ المملوكي في المسجد النبويّ الشريف (648 - 923/1250 - 1517)**، بغية التعرف إلى تجديد عمارة المسجد النبويّ الشريف ودور سلاطين المماليك ورعايتهم ذلك لكن الأمر، يحتاج إلى طرح بعض التساؤلات التي تدور في محور التجديد والتوسيع

المملوكي منها.

- على ماذا تدل مشاركة النبي محمد ﷺ في بناء المسجد النبوي؟
 - هل تميّز اهتمام سلاطين المماليك بالمسجد النبوي عن سواهم من الحكّام السابقين؟
 - هل الحريق الذي تعرض له المسجد النبوي الشريف كان سبباً في إسراع سلاطين المماليك إلى ترميم وإصلاح وتجديد المسجد النبوي الشريف؟
 - هل ظهرت بصمات الفن المملوكي على المسجد النبوي؟
- هذه التساؤلات سأحاول الإجابة عليها، من خلال هذا البحث، والسعي إلى إيجاد مقاربة تاريخية قدر المستطاع، لا سيّما أنّ فنّ العمارة كان معروفاً قديماً، عبر العصور، ونال رعاية الخلفاء والحكام، إضافة إلى اهتمام الشعوب به، رغم تنوع جنسياتهم وأديانهم.

أولاً - التعريف بالمسجد أ- المسجد لغة

قال ابن سيده سجدة يسجد سجوداً وضع جبهته بالأرض والمسجد الذي يسجد فيه، وفي الصحاح واحد المساجد وقال الزجاج كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد وقال المسجد بالفتح جبهة الرجل يصيب ندب السجود.⁽¹⁾

ب- المسجد اصطلاحاً

المسجد هو بيت الله، وهو أيضاً بيت الجماعة، وإن كان الذي بناه هو الخليفة أو السلطان أو الدولة.⁽²⁾ والمسجد هو المكان الذي تقام فيه الصلاة مهما كان هذا المكان بسيطاً، فهو مساحة من الأرض صغيرة كانت أو كبيرة تنظف وتسوى وتطهر، ثم يتم فيها تعيين القبلة وتخصص للصلاة.

ج- المسجد شرعاً

المسجد هو كل موضع من الأرض لقول النبي ﷺ: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وهذا من خصائص هذه الأمة لقول القاضي عياض: ونحن خصصنا بجواز الصلاة في جميع الأرض إلا ما تيقنا بنجاسته، ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة اشتق اسم المكان منه، ثم أنّ العرف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلاة الخمسة.⁽³⁾

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص 204.

(2) حسين مؤنس، المساجد، ص 30.

(3) محمّد بن عبد الله الزركشي، أعلام المساجد بأحكام المساجد، ص 27؛ عاصم محمّد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ص 282.

وقد يختلط على الباحث التفرقة بين اسم المسجد والجامع، فالمسجد هو الذي تقام فيه الصلوات الخمسة فقط ويعرف بمسجد الخمسة، أما الجامع فاصطلاح أكبر حجماً من المسجد فهو الذي تؤدي فيه الصلاة الجامعة (الجمعة والعيدان) ويسمى جامع الخطبة أو الجامع الكبير. (1)

د-مكانة المسجد في الإسلام

إنَّ أوَّل عمل قام به الرسول ﷺ بعد الهجرة هو بناء مسجد قباء ثم المسجد النبوي الشريف، ولعل في ذلك إشارة واضحة لأهمية وجود المسجد في المجتمع الإسلامي الناشئ. من هنا تأتي مكانة المسجد في الإسلام.

إنَّ حضارة الإسلام التي أقامها النبي ﷺ لا تقوم إلاَّ على المسجد، ولا تصلح إلاَّ بالمسجد، ولا يكون لها دور إلاَّ بالمسجد. فقد انطلقت معالم الإسلام من المسجد الذي كان أوَّل شيء فعله بعد الهجرة. الدور الأوَّل والأساسي للمسجد هو كونه داراً للعبادة، لأداء الصلوات الخمس والجمع. غير أنَّ ذلك ليس الدور الوحيد للمسجد، وإنما أدواره شاملة لمجالات أخرى عديدة في حياة الناس (2).

ومن مهمات المسجد النبوي في عهده أنه أصبح داراً للقضاء، حيث كان الرسول ﷺ أوَّل من تولى وظيفة القاضي.

والراجح كان المسجد أوَّل مدرسة جماعية منظمة عرفها العرب لتعليم الكبار والصغار، ولتربية الرجال والنساء.

ثانياً- تأسيس المسجد النبوي في عهد رسول الله ﷺ

تألقت المدينة المنورة بما احتوته من المعالم الدينيَّة، كمسجد رسول الله ﷺ المعظم الذي نال اهتمام الملوك والخلفاء والسلاطين، منذ أن وضع فيه رسول الله ﷺ حجر الأساس، ولهذا، نجد لزماً علينا أن نتطرَّق إلى موقعه ونشأته التاريخيَّة.

برز المسجد النبوي الشريف في تاريخ العمارة الإسلاميَّة عامة، وفي عمارة المساجد بخاصَّة، حيث كان النموذج الأوَّل الذي انتقل إلى أنحاء العالم الإسلامي.

يتوسط المسجد النبوي المدينة المنورة، والمدينة المنورة هي ثاني الحرمين، وهي حرم رسول الله ﷺ، ومن الأحاديث النبويَّة التي تناقلها المسلمون على لسان الرسول ﷺ: إنَّ

(1) سعد فويال، المساجد الأثرية لمدينة الجزائر، ص 7.

(2) محمَّد حسنين هيكل، في منزل الوحي، ص 480-487.

مكة حرم الله حرمها إبراهيم، وإنَّ المدينة حرمي ما بين لا بتيها لا يعضد شجرها⁽¹⁾.
 عندما هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، نزل على بني النجار بدار أبي
 أيوب الأنصاري⁽²⁾، لوضع حجر الأساس للدولة الإسلامية، وكانت أول خطوة اتخذها
 رسول الله ﷺ هي بناء المسجد، لأنَّ المسجد هو حجر الأساس في هذه الدولة، وفيه
 يتلقى الناس تعاليم الإسلام، وفيه تعقد الألوية للحروب والغزوات، وفيه تتم كل الأمور
 الخاصة بهذه الدولة الناشئة، وأول شي تم لبناء هذا المسجد هو اختيار الموقع⁽³⁾.
 وقد شارك رسول الله ﷺ مع أصحابه في بناء المسجد، فعمل معه المهاجرون
 والأنصار ودأبوا في العمل. وكان الهدف من وراء مشاركة رسول الله ﷺ حث المسلمين
 على العمل⁽⁴⁾.

وكان المسجد على مساحة محددة مؤلفاً من حرم في الشمال محدد بعضادات من
 جذوع النخل، ومغطاة بسعف وغصون.
 وأصبح للمسجد قبلة مبنية من اللبن، كانت تتجه إلى بيت المقدس، وحولها الرسول
 ﷺ بعد سبعة عشر شهراً من الهجرة إلى الكعبة بعد نزول الآية الكريمة، بالاتجاه إلى
 الكعبة، المسجد الحرام⁽⁵⁾. ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾⁽⁶⁾ وقد أقيمت
 مظلة ثانية في المسجد من جهة الكعبة، وبقيت المظلة الأولى مكاناً لأهل الصفة⁽⁷⁾،
 وكان ما بين المظلتين رحبة واسعة، ولهذا سمي المسجد بمسجد القبلتين⁽⁸⁾.

(1) البخاري، صحيح البخاري، مج 1، ج 3، ص 21.

(2) W.M. Watt, "Al Madina", EI2, vol.V, p. 991.

(3) اختيار الموقع: ذكر السمهودي: «أن رسول الله ﷺ عندما قدم إلى المدينة أخذ أعيان بطونها بلجام ناقتة حتى
 ينزل عليهم، ولكن رسول الله ﷺ قال لهم: دعوها فإنها مأمورة، وأرعى الزمام لها فبركت في مكان كان مريداً
 لغلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، وقال رسول الله ﷺ حين بركت راحلته: هذا إن شاء الله المنزل، وقال:
 اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين، ثم دعا الغلامين فسأومهما بالمربد ليتخذ مسجداً، قال: بل نهبه لك
 يارسول الله ﷺ فأبى أن يقبله هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، السمهودي، وفاء الوفا، ج 2، ص 230.

(4) أحمد رجب محمّد علي، المسجد النبوي بالمدينة المنورة، ص 20:

Mohamed Lyes Abdelghani, *Histoire de la Mosquée honorée du prophète*, p.3

(5) عفيف البهنسي، الفن الإسلامي، ص 138.

(6) سورة البقرة، 2/144.

(7) أهل الصفة: هم المساكين والفقراء والغرباء، ممن لا مأوى لهم ولا أهل، كانوا ينزلون بمظلة أعدت لهم في
 مؤخرة المسجد حتى يراهم الأغنياء والموسرون، فيجودون عليهم دون أن يعرضوهم للسؤال، أحمد رجب محمّد
 علي، المسجد النبوي بالمدينة المنورة، ص 21.

(8) السمهودي، وفاء الوفا، ج 1، ص 258.

تجدرة الإشارة إلى أنّ الاتجاه إلى القبلة، هو المحور الأساسي الذي يتخذ نقطة الارتكاز في إنشاء البناء. فجدار القبلة هو الجدار الرئيسي، وبناء على تحديده تحدد المعالم الأخرى. من تقسيم المسجد إلى حرم، وضحن فجدار القبلة دائماً هو صدر الحرم. أما جدار القبلة فينبغي أن يخلو من الأبواب. وهذا يعني أنّ الأبواب تشرع في المسجد من جهاته الثلاثة غير جدار القبلة.

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب. باباً خلفياً في الجدار الجنوبي، وباباً في الجدار الشرقي، وهو الذي كان يدخل منه، وباباً في الجدار الغربي، ولم يجعل له باباً في الجدار الشمالي، لأنّ اتجاه القبلة إليه، حتى لا يكون الدخول منه قاطعاً للصفوف أثناء الصلاة (1).

أما وجود ثلاثة أبواب فذلك أمر ضروري بالنسبة لبناء عام يرتاده عدد غير محدد من الناس، وفي أوقات معينة. حيث يكون اجتماع الناس للصلاة في وقت متقارب ويكون انصرافهم كذلك. فتعدد الأبواب يسهل عملية الدخول وكذلك الخروج. تلك هي صورة المسجد النبوي، فما كان يحدث شيء إلاّ عند الشعور بالحاجة إليه. وإذا كانت صورة هذا المسجد بهذه البساطة، فهل كانت المهمات المنوطة به كذلك، ومدى تحقيقه لتلك المهام؟

كان المسجد النبوي بمثابة مركز اجتماعي، ومحكمة، ومدرسة دينية. وفيه تقام الصلوات الخمس كل يوم، و صلاة الجمعة في يومها. وهو مكان التعلم حيث حلقات الإرشاد والوعظ وتعليم القرآن. وفيه يتم لقاء الوفود والسفراء. وفيه تعقد رايات الجهاد لتنتقل منه جحافل الحق. وهو مجلس القضاء ومكان الشورى.

ثالثاً- تطور حركة بناء المسجد النبوي بعد النبي محمد ﷺ

مرّ المسجد النبوي عبر تاريخه الطويل بالعديد من الزيادات والإضافات، إذ إنّ مكانة هذا المسجد في قلوب الناس، جعلت الحكام والخلفاء والسلاطين يهرعون إلى إجراء المزيد من الرعاية والاهتمام، والإصلاحات والترميمات، بهذا المسجد.

فلما استخلف أبو بكر، لم يحدث في المسجد النبوي شيئاً. وفي زمن عمر بن الخطّاب، كانت توسعة للمسجد النبوي الشريف مراعية ما عليه المسجد في عمارة الرسول ﷺ، من مواد البناء، والشكل الخارجي والداخلي، حتى في الأبواب والأعمدة

(1) صالح أحمد الشامي، الفن الإسلامي، ص 289 - 290.

وغيرها⁽¹⁾. حصلت زيادة في المسجد فأُنزل أساطين الخشب، وجعل مكانها أعمدةً مرتبةً من اللبن.

ولما استخلف عثمان بن عفان بعد مقتل عمر بن الخطاب قام بتوسعة المسجد وعمارته سنة 29/649. وكانت الزيادة في كل من جهة القبلة والشمال والغرب، فزاد من جهة القبلة رواقًا، وزاد من جهة الغرب رواقًا، وزاد من جهة الشمال عشرة أذرع.⁽²⁾ وهكذا أصبح المسجد النبوي الشريف مقرًا للحكم في عهد النبي محمد ﷺ، والخلفاء الراشدين، وملتقى أهل الرأي والشورى، وكان للمجالس العلمية والحلقات الدينية التي تعقد في المسجد النبوي الشريف أثر كبير لجعل المدينة المنورة المركز الديني المتميز في العالم الإسلامي⁽³⁾.

وفي العصر الأموي ظلّ المسجد النبوي بعد زيادة عثمان بن عفان سنة 29/649 بدون زيادة، حتى كان عهد الوليد بن عبد الملك، وكان عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة ومكة، فبعث الوليد إلى عمر بن عبد العزيز بمال، وقال له: من باعك فأعطه ثمنه، ومن أبى فاهدم عليه، وأعطيه المال فإن أبى أن يأخذه فاصرفه إلى الفقراء⁽⁴⁾.

وقد استعمل عمر بن عبد العزيز صالح بن كيسان على هدم المسجد وبنائه، فهدمه في سنة 710 / 91، وبناه بالحجارة المنقوشة، وعمله بالفسيفساء والمرمر، وعمل سقفه بالساج وماء الذهب⁽⁵⁾.

والراجح أنّ العمل الذي قام به الوليد بن عبد الملك، بتكليف عامله عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد وإعادة بنائه، يظهر مدى حرص ورعاية واهتمام الخلفاء بالمسجد النبوي الشريف، مما يعطي صورة واضحة لها قيمتها الدينية والمعنوية، ساهمت في تعزيز مكانة المسجد النبوي الشريف العلمية والاجتماعية لدى المسلمين.

(1) ناجي محمد الأنصاري، عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف، ص 90.

(2) غالي الشنقيطي، الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين، ص 91؛

Lyes Abdelghani, *Histoire de la Mosquée honorée du prophète*, p. 33. Mohamed

(3) رجب عمر فاروق السيد، المدينة المنورة، ص 193 - 194.

(4) السمهودي، وفاء الوفا، ج1، ص 363.

(5) أحمد رجب محمد علي، المسجد النبوي، ص 49؛

Mohamed Lyes Abdelghani, *Histoire de la Mosquée honorée du prophète*, p. 34.

رابعًا - الإصلاحات التي تمت في المسجد خلال العهد العباسي

بقي المسجد النبوي الشريف على حاله بعد عمارة الوليد بن عبد الملك له 88-710/91-707 والتي كانت العمارة الوحيدة في العصر الأموي، فلما تولى العباسيون أمر البلاد وآلت الخلافة إليهم هم أبو جعفر المنصور بتوسعة المسجد النبوي الشريف إلا أنه توفي ولم يزد فيه⁽¹⁾. إلا أنه لما قدم إلى المدينة المنورة سنة 140/758 أمر بوضع ستور لصحن المسجد، فوضعت على عمد لها لتقي الناس من حر الشمس، فكانت الريح تدخل بينها وتسقطها على المصلين، فأبدلها بستور أقوى موثقة بحبال أكثر متانة، وبذلك يكون المنصور أول من قام بتظليل رحبة المسجد⁽²⁾. وعندما ولي الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب المدينة في شهر رمضان سنة 150/768، غير المرمر قبالة المنبر، وعمله ووسعه من جوانبه كلها حتى أحقه بالسواري⁽³⁾. ولما تولى المهدي الخلافة وحج سنة 160/777، زار المدينة المنورة، ورأى ما عليه المسجد النبوي الشريف، فأمر بالزيادة فيه⁽⁴⁾. وبدأ العمل بالتوسعة سنة 161/778 وكانت مدة العمل خمس سنوات، وشملت زيادة المهدي بعض الدور التي أدخلت بالتوسعة، وقد هدم المهدي زيادة الوليد الشماليّة، وأعادها مع زيادة قدرت بخمسة وخمسين ذراعًا، وأدخل تعديلات كثيرة على هذا الجزء من المسجد، ونقشه بالفسيفساء⁽⁵⁾. وسنة 193/809 في عهد الخليفة هارون الرشيد، أجرى أبو البحتري بن وهب والي المدينة، إصلاحًا في سقف المسجد من جهة القبر النبوي الشريف، كما جعل بين القبلة والصحن حجارة مربعة لمنع مياه الأمطار من التسرب داخل المسجد⁽⁶⁾. كذلك سنة 202/817-818 في عهد الخليفة المأمون بن هارون الرشيد، أجريت إصلاحات وترميمات في بعض أجزاء المسجد النبوي الشريف⁽⁷⁾.

(1) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 536.

(2) ابن النجار، أخبار مدينة الرسول المعروف بالدرّة الثمينة، ص 105؛ محمّد حميدة، عمارات المسجد النبوي وتوسعته عبر التاريخ، ص 20.

(3) ابن شبة النميري، تاريخ المدينة المنورة، ج1، ص 18؛ السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 344.

(4) ناجي محمّد الأنصاري، عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ، ص 111.

(5) محمّد السيد الوكيل، المسجد النبوي عبر التاريخ، ص 135؛

Mohamed Lyes Abdelghani, *Histoire de la Mosquée honorée du prophète*, p. 36.

(6) صالح لمعي مصطفى، المدينة المنورة تطورها العمراني، ص 78.

(7) ابن النجار، أخبار مدينة الرسول المعروف بالدرّة الثمينة، ص 105.

وأيضًا سنة 246 - 247/860 - 861 في عهد الخليفة المتوكل على الله، عملت وزرة رخام بارتفاع 1,75م وتبليط الأرض بالرخام الأبيض، وتكسية بعض الحوائط بالفسيساء، مع ترميم هذه الحوائط، وأشرف على هذه الأعمال إسحاق بن مسلمة . وأجريت سنة 282/895 في عهد الخليفة المعتضد بعض الإصلاحات في الواجهة الشرقية المطلّة على الصحن⁽¹⁾.

وسنة 548/1153 في عهد المقتفي، جدد وزير بني زكي جمال الدين الأصفهاني، وزرة الرخام التي كانت على جدران القبر الشريف الخارجيّة، وكان ذلك في ولاية قاسم بن مهنا الحسيني على المدينة⁽²⁾.

وأيضًا سنة 566 - 575/1170 - 1180 في عهد الخليفة المستضيء أتم حسين بن أبي الهيجاء كسوة الحوائط الخارجيّة للقبر النبوي الشريف بالرخام⁽³⁾.

أمّا في عهد الخليفة الناصر لدين الله، فجدد سنة 576/1180 الحائط الشرقيّ للمئذنة الشمالية الشرقية، وعملت قبة في وسط الصحن لحفظ الذخائر مثل المصحف العثماني، والكتب المهمة⁽⁴⁾. وفي عهد الخليفة نفسه جدد المنبر سنة 593 / 1196 - 1197⁽⁵⁾.

هكذا تنافس الخلفاء العباسيون في عمارة المسجد النبوي الشريف، حيث ساهم معظمهم في إعادة إصلاحه، وترميمه، وتجديده، وزيادة مساحته، ومازالت بصماتهم محفورة في كل جزء من بنائه، حتى اندلع الحريق ليلة الجمعة أول شهر رمضان سنة 654/1256. هكذا، كانت صورة المسجد النبوي الشريف حتّى مجيء المماليك.

خامسًا - المسجد النبوي الشريف بإشراف سلطنة المماليك البحريّة

(656 - 1382 - 784/1258)

- الحريق الأوّل للمسجد النبويّ

ظلّ المسجد النبويّ على حاله بعد توسعة المهدي، حتى كانت ليلة الجمعة أول شهر رمضان من سنة 654/22 سبتمبر سنة 1256 في أول الليل، إذ شبّ حريق لم يستطع أهل المدينة إطفائه، وظلت النار تلتهم المسجد حتّى أتت على جميع ما فيه. فأسهّم في عمارته عدد من الخلفاء والقادة المسلمين، وكان أول من ساهم في

(1) ناجي محمّد الأنصاري، عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ، ص 78.

(2) صالح لمعي مصطفى، المدينة المنورة تطورها العمراني، ص 78.

(3) صالح لمعي مصطفى، المدينة المنورة تطورها العمراني، ص 78.

(4) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 600 - 603.

(5) ظل المنبر قائمًا في المسجد حتى احترق في الحريق الأوّل في سنة 654/1256، السمهودي، وفاء الوفا، ج2، 648 - 654.

ذلك آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله فأرسل من بغداد المؤن والصناع، وبدأ في عمارة المسجد سنة 655/1257، إلا أن هذه العمارة لم تتم بسبب غزو التتار واستيلائهم على بغداد سنة (1) 656/1258.

غير أنه في هذه العمارة قد استصلح سقف الحجرة الشريفة، وامتد إصلاح السقف من الشرق إلى الحائط الذي به باب جبريل، ومن الغرب حتى المنبر، ومن الجنوب إلى حائط القبلة(2).

وبعد ذلك أصبح العمل من واجبات السلطان المملوكي في مصر، فتولى هذه المسؤولية السلطان نورالدين بن عزالدين أيبك الصالحي (656/1258). واستمر الإصلاح والتعمير بالمسجد النبوي الشريف على النحو التالي: سنة 656/1258، أرسل ملك اليمن المظفر شمس الدين منبراً إلى المسجد النبوي بدلاً من المنبر الذي احترق(3). وقد استمر العمل في هذه الفترة حتى باب السلام بالحائط الغربي.

وسنة 657-658/1259-1260 في عهد السلطان سيف الدين قطز، أكمل العمل بالجهة الجنوبية، أي في جناح القبلة من باب السلام وباب الرحمة بالجهة الغربية إلى باب جبريل وباب النساء بالجهة الشرقية(4).

ورغبة في إضفاء الشرعية على الخلافة العباسية التي أحيها الظاهر بيبرس تحت كنفه في مصر، فقد اهتم بإكمال ما تبقى من عمارة سقف الحرم النبوي الشريف في سنة 661/1264، وجددت المآذن والأبواب والمخازن وجميع الأثاث بالمسجد، وكانت الأموال ومواد البناء تصل تباعاً إلى المدينة المنورة كلما دعت الحاجة إلى ذلك(5).

أما أهم الأحداث في المسجد النبوي في تلك الفترة هو إقامة الظاهر بيبرس مقصورة سنة 666/1267-1268، حيث أرسل منبراً للمسجد. وعمل مقصورة من الخشب بارتفاع 3,5 م بها ثلاثة أبواب، وضعت حول القبر النبوي. وما يعرف ببيت فاطمة.

(1) الخليفة المستعصم بالله، أبو أحمد عبد الله بن منصور ولد في بغداد سنة 609/1212-1213. تولى الخلافة في جمادى الأولى والثانية سنة 640/ نوفمبر 1242، استمر في الخلافة لحين استيلاء المغول على بغداد في 4 صفر سنة 656/ 10 فبراير 1258، حيث قتل بعدها بيومين، ثم توالى الأحداث بعد ذلك حيث انتهت بموته الدولة العباسية، وبدأ عصر المماليك البحرية، ثم المماليك الجراكسة. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج4، ص 140.

(2) صالح لمعي مصطفى، المدينة المنورة تطورها العمراني، ص 79.

(3) المطري، التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، ص 32؛

Mohamed Lyes Abdelghani, *Histoire de la Mosquée honorée du prophète*, p.37- 38.

(4) السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ج2، ص 604.

(5) المطري، التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، ص 32.

وذلك سنة 668/1269 - 1270⁽¹⁾. وإنما صنع السلطان الظاهر بيبرس ذلك تعظيمًا للبقعة الشريفة.

وأيضًا سنة 678/1279 في عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، أُبدل بسقف الحجرة الشريفة قبة عالية لأول مرة بقصد حماية الحجرة من نزول المطر إليها⁽²⁾. وفي عهد السلطان زين الدين كتبغا، أكملت المقصورة الخشبية سنة 694/1294 - 1295 بشكل شباك بينها وبين السقف⁽³⁾.

وحظي المسجد النبوي الشريف في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، بالعديد من الإصلاحات والإنشاءات، فأصلح الناصر سقف الروضة سنة 701/1301، وفي المدّة من سنة 705 - 706/1305 - 1307، جدد سقف الأروقة الشرقية والغربية على الصحن وجعله سقفًا واحدًا على منسوب السقف الشمالي الذي عمل في عهد بيبرس، وسنة 729/1329 في عهد هذا السلطان أيضًا زيد في الجزء المسقف من مظلة القبلة بعقود لم يسبق استخدامها في المسجد من قبل⁽⁴⁾.

وتتسم الأعمال التي قام بها السلطان الناصر قلاوون في المسجد النبوي الشريف بسمات لا يشاركها فيها أعمال سلطان سابق، فهي لا ترتبط بزمن واحد، ولا تتصف في مراحلها المختلفة بصفة واحدة.

واستمرت عناية السلاطين بالحرم النبوي الشريف فجددوا القبّة، ووضعوا فوقها ألوان الرصاص وقد حدث ذلك مرتين: مرة في عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة 755 - 762/1354 - 1361 وأما المرة الثانية فكانت في عهد السلطان شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون سنة 765/1363⁽⁵⁾.

ويبدو أنّ هذه الأعمال التي قام بها السلطان شعبان هي خاتمة الأعمال في العصر المملوكي البحري في المسجد النبوي الشريف.

سادسًا - المسجد النبوي الشريف في عهد سلطنة المماليك الثانية الجركسية (1517-784-923/1382)

منذ بداية العصر المملوكي الجركسي والاهتمام بإعمار المسجد النبوي الشريف

(1) المطري، التعريف بما آنتست الهجرة من معالم دار الهجرة، ص 32.

(2) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 608 - 609.

(3) المرآغي، تحقيق النصر، ص 85.

(4) المرآغي، تحقيق النصر، ص 85.

(5) المرآغي، تحقيق النصر، ص 181؛ صالح مصطفى لمعي، المدينة المنورة تطورها العمراني، ص 81.

مستمرًا. فقبل عمارة المسجد من قبل السلطان الأشرف قايتباي اكتفى سلاطين المماليك الجراكسة بالمحافظة على العمارة التي أنجزها أسلافهم من سلاطين المماليك البحرية. وأخذوا يتعهدونها بالرعاية والعناية والترميم والتجديد كلما دعت الحاجة إلى ذلك. أمّا أهم الأعمال التي قاموا بها، فهي:

1- سنة 797/1394، في عهد السلطان برقوق أول سلاطين الجراكسة، أرسل منبرًا إلى المسجد النبوي الشريف سنة 798/1395.

2- وسنة 820/1417 في عهد السلطان المؤيد أبو نصر شيخ المحمودي أرسل منبرًا آخر حل محل منبر برقوق (1).

3- وتم في عهد برسباي سنة 831/1428 إصلاح الرواقين المطلين على الصحن، واللذين أضافهما في السابق الناصر محمد بن قلاوون، جناح القبلة، بالإضافة إلى إصلاح جزء من سقف الجناح الشمالي بجوار المنذنة الشماليّة الشرقيّة (2).

4- واحتاج المسجد النبوي الشريف في عهد السلطان جقمق سنة 852/1449 لعمارة أخرى، فقام جقمق بتجديد سقف المسجد وخاصة منطقة الروضة الشريفة، كذلك عمل بابًا بالجهة الشماليّة بالمقصورة الخشبيّة، التي وضعها بيبرس البندقداري، وعمل أعلاه رفرف وأرضه رخام حتى الصحن (3).

5- وأقام طوغان شيخ الأحمدي في عهد الأشرف إينال سنة (4) 861/1457 محرابًا خاصًا لاتباع المذهب الحنفي، أقيم على يمين الروضة الشريفة.

6- تلك أهم الأعمال التي قام بها سلاطين الجراكسة، قبل مباشرة عمل قايتباي بعمارة المسجد النبوي الشريف.

أ- عمارة قايتباي الأولى للمسجد النبوي الشريف (879- 881/1474 - 1475)

بين سنوات 879- 901/1474- 1486 قام الأشرف قايتباي (5) قبل وبعد الحريق

(1) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 408.

(2) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 605.

(3) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 574؛ محمّد هزاع الشهري، عمارة المسجد النبوي، ص 295.

(4) طوقان شيخ الأحمدي، ولي نظر المسجد الحرام، توفي سنة 881/1476، السخاوي، التحفة اللطيفة، ج1، ص 474.

(5) الأشرف قايتباي: قايتباي المحمودي، أبو النصر سيف الدين، سلطان الديار المصريّة، من ملوك الجراكسة، استمر بالحكم إلى أن توفي سنة 901/1496 بالقاهرة. وفي أيامه تعرضت سلطنة المماليك لأخطار خارجيّة أشدها ابتداء العثمانيين بمحاولة احتلال حلب وما حولها فأنفق أموالًا جسيمة على الجيوش لفتالهم، الزركلي، الأعلام، ج5، ص

.P.M. Holt, "Mamlûks", EI2, p. 308 :188.

الذي أصاب المسجد النبوي بعمارة كبيرة للمسجد النبوي الشريف. احتاج المسجد النبوي الشريف إلى عمارة كبيرة بدأت في سنة 879/1474 إلى سنة 880/1475-1476، حيث هدمت العقود المطلة على الصحن بالجهة الشرقية ثم أعيدت الأعمدة مع الرصاص، كما هدم الحائط الشرقي من بعد المنذنة الشمالية الشرقية من أساسه وأعيد بناؤه، كما عملت إصلاحات في أساس تلك المنذنة، وكانت الأعمال تسير وفق طرائق جديدة للبناء⁽¹⁾. وقد أسند أمر العمارة إلى شمس الدين بن الزمن⁽²⁾ ثم توقفت الأعمال لمدة سنة لاختلاف الآراء حول تجديد الحجرة الشريفة. وبدأت مرة أخرى في جمادي الأولى سنة 881/1476. فشرعوا بإشراف ابن الزمن أيضاً في تجديد سقف الروضة المطهرة، وقبة القبر النبوي⁽³⁾، كذلك أصلحت بعض أجزاء سقف الجناح الشمالي⁽⁴⁾. وقد استقر رأي مشرف العمارة على هدم السقف القديم للحجرة الشريفة، واستبدال قبة صغيرة بها بنيت بالأحجار البازلتية⁽⁵⁾. وبعد هذه الأعمال الإصلاحية للمسجد النبوي الشريف أجريت أعمال جمالية بالمسجد، فقد جدد رخام الحجرة النبوية باستعمال الرخام الأبيض والأحمر كذلك جدد رخام القبلة، والطرز الذي يعلو الرخام المذكور، كما جددت أيضاً المقصورة الخشبية حول القبر النبوي الشريف⁽⁶⁾.

ب- عمارة قايتباي الثانية للمسجد النبوي الشريف 886 - 889/1481 - 1484

ظلّ المسجد النبوي الشريف محتفظاً بعمارة قايتباي الأولى التي جدها ابن الزمن له في نهاية سنة 881/1475، حتى فترة وجيزة حيث احترق المسجد كلياً مرة أخرى بسبب صاعقة أصابت المنذنة الجنوبية الشرقية وكان ذلك سنة 1481/886⁽⁷⁾. ويشير السمهودي إلى أنه لم يسلم من الحريق غير القبة الداخلية على القبر النبوي

(1) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 605-606.

(2) شمس الدين محمد بن الزمن، كان من مشاهير التجار، في سعة من المال، وله برّ ومعروف، أقام المدرسة الزمنية بالمدينة المنورة، تولى إصلاح وعمارة المسجد النبوي الشريف قبل وبعد الحريق سنة 886/1481. توفي في نهاية سنة 897/1492، ابن إياس، بدائع الزهور، ج3، ص 293.

(3) صالح لمعي مصطفى، المدينة المنورة تطورها العمراني، ص 83؛ محمد هزاع الشهري، عمارة المسجد النبوي، ص 299-301.

(4) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 606-608.

(5) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 629.

(6) هذه المقصورة احترقت أيضاً في الحريق الثاني للمسجد سنة 886/1481، السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 612.

(7) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 617.

الشَّريف، حيث احترق المنبر والمقصورة وسقطت أكثر عقود المسجد وأعمدته، وما بقي منها فهو آيل للسقوط⁽¹⁾.

هذا وقد بدأ العمل في إعمار المسجد النبويِّ الشَّريف بهدم المئذنة الجنوبيَّة الشرقيَّة إلى أساسها. وأعيد بناؤها على هيئة المآذن المملوكيَّة.⁽²⁾ وعمل للمئذنة المذكورة باب في الحائط الغربيِّ بعد أن كان بابها الأول في الحائط الشمالي، كذلك عملت قبتان أمام باب السلام داخل المسجد، وكسي الباب المذكور بالرخام الأبيض والأسود، وزخرف زخرفة بديعة، وعمل محراب في مكان المصلى النبويِّ، وكذلك كسي محراب القبلة بالرخام الملون⁽³⁾.

وعندما قاربت الأعمال على الانتهاء عمر السلطان قايتباي رباطاً ومدرسة ملاصقين للحائط الغربيِّ للمسجد بين باب السلام وباب الرحمة وعمل مئذنة صغيرة عرفت بعد ذلك بمئذنة باب الرحمة⁽⁴⁾.

وقبل الانتهاء من هذه الأعمال تبين وجود شرخ في القبة العلويَّة للقبر الشَّريف، وكذلك بالمئذنة الجنوبيَّة الشرقيَّة فهدمت القبة وأعيد بناؤها، وهدمت المئذنة إلى أساسها، وكان العمل في سنة 891 - 892/1486 - 1487، وأشرف عليه كبير خدم المسجد النبويِّ في ذلك الوقت شاهين الجمالي⁽⁵⁾.

وفي 19 صفر سنة 898/10 ديسمبر 1492 أصابت صاعقة جانباً من هذه المئذنة تناثر منها بعض الحجارة، وقد أمر السلطان قايتباي بإصلاح الأضرار التي أصابها في ربيع الثاني 898/18 فبراير 1493⁽⁶⁾.

وتعتبر هذه التوسعة خاتمة الأعمال في عهد الأشرف قايتباي بل في عهد سلطنة المماليك الجراكسة التي انتهت على يد العثمانيين سنة 923/1517. وتجدر الإشارة إلى أن سلطنة المماليك البرجية على الرِّغم من استمرارها قوَّة عظمى، في القرن التاسع الهجريِّ/ الخامس عشر الميلاديِّ، كانت تعاني تدهوراً اقتصادياً وعسكرياً منذ أمدٍ طويل⁽⁷⁾.

(1) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 636.

(2) صالح لمعي مصطفى، المدينة المنورة تطورها العمراني، ص 84.

(3) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 640؛ صالح لمعي مصطفى، المدينة المنورة تطورها العمراني، ص 84.

(4) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 644.

(5) السمهودي، وفاء الوفا، ج2، ص 646.

(6) صالح لمعي مصطفى، المدينة المنورة تطورها العمراني، ص 86؛ محمّد هزاع الشهري، عمارة المسجد النبوي، ص 321.

(7) P.M.Holt, "Mamlûks", EI2, p. 308.

خاتمة

من النتائج التي توصلت إليها في البحث مرحلة بناء المسجد النبوي الشريف على يدي رسول الله ﷺ في السنة الأولى للهجرة والخطوات التي اتخذها النبي محمد ﷺ في بناء المسجد لتجهيز الموقع وإعداد مواد البناء، ومشاركة الرسول ﷺ في بناء المسجد. هذا وتواصل اهتمام الخلفاء والحكام والسلاطين في ترميم وإصلاح وتحسين وتجديد عمارة المسجد النبوي الشريف، في فترات متعاقبة على مر العصور، لاسيما زمن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان اللذان تمثّلا بالرسول ﷺ في زيادة مساحة المسجد النبوي الشريف، تلبية لنمو المجتمع الإسلامي مع محافظتهما على بقاء معالمه المشهورة. واستمر العمل في زيادة مساحة المسجد، حيث كانت زيادة الخليفة المهدي في العصر العباسي.

ليبدأ بعد ذلك اهتمام المماليك ورعايتهم للمسجد النبوي الشريف خاصة أثناء احتراق المسجد، فأعادوا بناءه وإصلاح ما خرب منه، وأحدثوا فيه أمورًا لم تعرف فيه قبل ذلك، فأقام الظاهر بيبرس مقصورة حول القبر الشريف، وعمل الناصر محمد بن قلاوون قبة فوق القبر، وأنشأ مبيضة عند باب السلام، وأما السلطان قايتباي فقد بنى المسجد كله بعد الحريق، وأوقف على المسجد وأهل المدينة أوقافًا عظيمة.

وجدير ذكره أنّ المسجد النبوي الشريف، هو أول مبنى تشهده المدينة المنورة العاصمة الأولى للدولة الإسلامية. وعلاوة على ذلك يُعد المسجد النبوي الشريف الثاني من بين المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، والصلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، كما أنّه محط آمال تتجذب إليه قلوب المسلمين من كل حذب وصوب طمعًا في الأجر والثواب، ورغبة في التعرف على أهميته التاريخية والحضارية والعمرانية.

هذا، ومما ينبغي ملاحظته، أنّ المسجد النبوي الشريف في كل أدواره، تميز دائمًا: بالتناسق والبساطة. كان ذلك واضحًا في الانتظام والائتلاف بين الجدران والسقف والأرضية، وبين شكل البناء والمواد المستعملة فيه.

ونستطيع القول: بحق إنّ الفن الإسلامي بثتى أشكاله وفي مختلف عصوره، وجد في المسجد المكان الآمن فأثر الملاذ إليه والإخلاق فيه.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

- ابن إياس، محمد بن أحمد (930/1524)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، الطبعة الثانية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1402/1982 - 1404/1984، خمسة أجزاء.
- ابن شبة النميري، عمر (262/877)، **تاريخ المدينة المنورة**؛ تحقيق فهد شلتوت؛ الطبعة الثانية، جدة؛ طبعه ونشره حبيب محمود أحمد، دار الأصفهاني، 1402 هـ. أربعة أجزاء.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (711/1311)، **لسان العرب**، الطبعة الثالثة، بيروت، دار صادر، 1414 / 1994. خمسة عشر جزءًا.
- ابن النجار، الحافظ محمد بن محمود (647/1249)، **أخبار مدينة الرسول المعروف بالدرة الثمينة**؛ تحقيق صالح محمد جمال، مكة المكرمة، مطبعة الرسالة، 1946 م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (870 / 256)، **صحيح البخاري**، القاهرة، المطبعة الأميرية ببولاق، 1896 / 1314، مجلدان، تسعة أجزاء.
- الزركشي، محمد بن عبد الله (794/1392)، **أعلام المساجد بأحكام المساجد**، الطبعة الرابعة، القاهرة، وزارة الأوقاف، 1997.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (902/1497)، **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، 1414/1993، جزآن.
- السمهودي، علي بن أحمد (911/1505)، **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتب العلمية، 1393 هـ. أربعة أجزاء.
- المرآغي، زين الدين أبي بكر بن الحسين (816/1413)، **كتاب تحقيق النصر بتلخيص معالم دار الهجرة**؛ تحقيق محمد الأصمعي، الطبعة الثانية، المدينة المنورة، المكتبة العلمية، 1401 هـ.
- المطري، محمد أحمد (1340/1921)، **التعريف بما آنتت الهجرة معالم دار الهجرة**؛ تحقيق محمد الخيال، المدينة المنورة، الناشر أسعد درايزوني، 1372/1952.

المراجع

- الأنصاري، ناجي محمد حسن عبد القادر، **عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ**؛ مراجعة وتقديم عطية محمد سالم، الطبعة الأولى، المدينة المنورة، نادي المدينة المنورة الأدبي، 1416/1996.
- البهنسي، عفيف، **الفن الإسلامي**، الطبعة الأولى، دمشق، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1986.
- حميدة، محمد، **عمارات المسجد النبوي وتوسعته عبر التاريخ**، مؤسسة المدينة العدد 77، 1410/1982.
- رزق، عاصم محمد، **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة مدبولي، 2000.

- الزركلي، خيرالدين، الأعلام، الطبعة الخامسة عشرة، بيروت، دار العلم للملايين، 2002، ثمانية مجلدات.

- السليمان، علي بن حسين، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، القاهرة، طبع ونشر الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، 1393/1973.

- السيد، رجب عمر فاروق، المدينة المنورة، جدة، دار الشروق، 1399/1979.

- الشامي، صالح أحمد، الفن الإسلامي التزام وابتداع، الطبعة الأولى، دمشق، دار القلم، 1410/1990.

- الشنقيطي، محمد غالي الأمين، الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين، الطبعة الثانية، جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، 1410 هـ.

- علي، أحمد رجب محمد، المسجد النبوي بالمدينة المنورة ورسومه في الفن الإسلامي، الطبعة الأولى، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 2000.

- فويال، سعاد، المساجد الأثرية لمدينة الجزائر، لا طبعة، دار المعرفة، 2010.

- مرزوق، محمد عبد العزيز، الفن المصري الإسلامي، لا طبعة، القاهرة، دار المعارف للطباعة والنشر بمصر، 1952.

- مصطفى، صالح لمعي، المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، الطبعة الأولى، بيروت، دار النهضة، 1981.

- مؤنس، حسين، المساجد، الكويت، عالم المعرفة، 1981.

- هيكال، محمد حسنين، في منزل الوحي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1957م.

- الوكيل، محمّ السيّد، المسجد النبوي عبر التاريخ، الطبعة الأولى، جدة، (موسوعة المدينة المنورة التاريخية رقم4)، دار المجتمع للنشر والتوزيع، 1409/1988.

المراجع الأجنبية

- Abdelghani, Mohamed Lyes, Histoire de la Mosquée honorée du prophète, Beyrouth, Dar al-Kotob al-ILmiyah,1424/2003.
- Holt, P. M., « Mamlûks », Encyclopédie de l'Islam, (nouvelle édition), Leiden Paris, Brill – Maisonneuve et Larose, 1991, vol. VI, p. 305 – 315.
- Watt, W. M., « Al Madîna », Encyclopédie de l'Islam (nouvelle édition), Leiden – Paris, Brill – Maisonneuve et Larose, 1986, vol.V, p. 989–993.

دور التدريس الإلكتروني في تعزيز مهارات التعليم الذاتي لدى الطلاب الجامعيين
دراسة ميدانية على عينة من طلاب الجامعة اللبنانية في مدينة صيدا خلال مدة
الانتشار الأول لوباء كورونا
د. أحمد رضوان نصرالله

شكّلت جائحة كورونا الحالية دافعاً كبيراً للجامعات والمؤسسات للعمل على تطبيق التعليم الإلكتروني أو ما يسمى بالتعليم عن بعد، وذلك كرديف للتعليم الحضوري، والخروج من نمط التعليم التقليدي إلى الافتراضي كمتطلب كان يجب أن يواكب التحوّل الرقمي قبل أن يكون استجابة اضطرارية لمواجهة انعكاسات جائحة كورونا على نواحي الحياة المختلفة.

ولما كان التعليم الإلكتروني بشتى مسمياته يشير إلى الاعتماد على التقنيات الحديثة في تقديم المحتوى التعليمي بطريقة فاعلة وممارسات تدريبية تتميز باختصار الوقت والجهد والتكلفة الاقتصادية، وبإمكانيات كبيرة تصل لعدد أكبر مما هو متصور من المتعلمين، إضافة إلى توفير بيئة تعليمية مشوقة يتم من خلالها التخلص من محددات الزمان والمكان (آل مزهر، 2006: 32)، فقد دعت العديد من الدراسات في العالم العربي خلال السنوات السابقة إلى ضرورة تبني هذا النوع من التعليم، فقد أثبتت دراسة أبو غبن (2012) دوره في تعزيز الميزة التنافسية للجامعة، كما أشارت دراسة حناوي (2018) فاعليته في تحسين اتجاهات الطلبة نحو التعلم الذاتي، وأثبتت دراسة عساف (2019) أهميته في تعزيز ممارسة الجامعات لاستراتيجيات التعلم المنظمة.

يعدّ التعلم الآن وبفضل التطور التكنولوجي عملية متطورة ومتجددة باستمرار، وعليه لم يعد من المقبول أن تقتصر غاية التعليم سواء (التقليدية أو الإلكترونية) على نقل المعلومات والمعرفة، بل ينبغي أن تنمو باتجاه البحث عن المعرفة وتعلّم كيفية التعلّم (أحمد، 2012) لذا، فقد أكدت نظريات التربية جميعاً على أنّ التعلّم مسألة فردية، لا بد أن يستخدم فيها المتعلّم طريقته في التفكير الذاتي وبذلك سيكون التعليم الإلكتروني أكثر حاجة من التعليم التقليدي إلى متعلّم قادر على توجيه تعلمه ذاتياً، وإدارة مصادر المعرفة والتنظيم والضببط والتحكّم والتقويم الذاتي، بحيث يكون مدرّكاً لدوره لناحية اختيار الاستراتيجيات التي تمكّنه من تجاوز التحديات (Song & Hil 2007: 31).

لقد فرضت كورونا تحديًا كبيرًا أمام الجامعات والطلاب من حيث الصعوبات التي تواجه عملية التعليم، وبخاصة الجامعات التي لم تكن تعتمد التعليم الإلكتروني، اذا أصبحت تواجه صعوبات ضبط الجودة، وتدريب أعضاء هيئة التدريس، ومحو الامية التكنولوجية لدى الطلاب وتوظيف البرامج الخاصة وآليات التقويم والاعتماد، وكذلك على مستوى الطلبة لناحية توفر أو توفير الإمكانيات والمتطلبات، وضرورة دمج المهارات البحثية والعلمية مع الإدارة القوية وإدارة الوقت.

وعليه، أصبح التعلّم المنظم ذاتيًا أمرًا حاسمًا لتحقيق النجاح الأكاديمي لأنّ الطالب الجامعي أصبح يتحمل مسؤولية تعلّمه وإدارة مصادره، وتحديد أهدافه وانجازها، وهو ما أكدته العديد من الدراسات مثل دراسة شحروري (2013) ودراسة علي (2012) وبيل وآخرون (2008, Bail & Others)

مشكلة الدراسة:

يظهر واقع التعليم العالي بصفة عامة، التركيز على الطريقة التقليدية في التدريس، والمعتمدة بشكل أساسي على التلقين (المتمركز حول المعلم) حيث تكون المعرفة غاية في حد ذاتها، دون النظر إلى نشاط وفاعلية الطالب وطريقة تفكيره، وكيفية اكتسابه للمعلومات، الأمر الذي زاد من إتساع الفجوة الرقمية بين مهارات الخريجين، ومتطلبات سوق العمل، وبذلك أصبح التعلّم المنظم ذاتيًا ضرورة لتعليم الطلاب (كيف يتعلمون؟) أكثر من (ماذا يتعلمون؟) وأن يكون الطلبة أكثر حرية وفردية في اتخاذ القرارات وتحمل المسؤولية في التعلّم، واستخدام أنماط متنوعة من التفكير.

لقد أدت الاستجابة السريعة للجامعات للبنائية لتداعيات جائحة كورونا بما يضمن تحقيق الحد الأدنى من جودة التعليم، إلى ضرورة اعتماد الممارسات الالكترونية بغض النظر عن المستويات الثقافية والإمكانيات المادية ومستوى الجهوية، الأمر الذي استدعى التأكد من دورها في تعزيز مهارات التعليم المنظم ذاتيًا، في ظل انعدام التعليم الحضوري، كاجراء احترازي لمنع انتشار فيروس كورونا، واعتماد التعليم الإلكتروني، كتدبير قسري لابد منه، حيث أثبتت العديد من الدراسات الأثر الإيجابي للتعليم الإلكتروني الاختياري على مهارات التعلّم المنظم ذاتيًا، ومن هذه الدراسات دراسة الرشيدي (2013) وشاهين وريان (2013) وحناوي (2018).

بناءً على ما تقدم يمكن تحديد مشكلة الدراسة الحالية من خلال الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

ما دور الممارسات التدريسية الالكترونية في الجامعة اللبنانية في تعزيز مهارات التعليم المنظم ذاتياً خلال جائحة كورونا ؟

ويتفرع عن هذا السؤال، الاسئلة الفرعية الآتية:

- ما درجة تقدير طلبة الجامعة اللبنانية لدور الممارسات التدريسية الالكترونية في تعزيز مهارات التعليم المنظم ذاتياً لديهم خلال جائحة كورونا ؟

- هل توجد فروق ذات دلالة احصائية عند مستوى $(\alpha \leq 0,05)$ بين متوسطات درجات تقدير أفراد العينة لدور الممارسات الالكترونية في تعزيز مهارات التعليم ذاتياً تعود إلى المتغيرات: (الجامعة -الكلية).

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة الحالية إلى ما يلي:

- التعرف إلى درجة تقدير عينة من طلبة الجامعة اللبنانية لدور الممارسات التدريسية الالكترونية في تعزيز مهارات التعليم المنظم ذاتياً لديهم خلال جائحة كورونا.

- الكشف ما إذا كان هناك فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى $(\alpha \leq 0,05)$ بين متوسطات درجات تقدير أفراد العينة لدور الممارسات الالكترونية في تعزيز مهارات التعليم ذاتياً لديهم تعزى إلى المتغيرات (الجامعة - الكلية).

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية الدراسة الحالية متزامنة مع حساسية دور الجامعات والتحول في آدائها خلال جائحة كورونا، وإظهار مدى قدرتها من خلال الممارسات الالكترونية في تحقيق جودة التعليم، في وقت اتسعت فيه سطوة تأثير فيروس كورونا على مجمل مجريات الحياة العامة. كما تبرز أهمية هذه الدراسة من خلال استجابتها لدعوات تعزيز مهارات التعلم ذاتياً الذي يُعد كاشفاً عن الامكانات التي يمتلكها المتعلمون من خلال دمج المهارة مع الإدارة، خاصة بعد أن فرضت جائحة كورونا (التعلم عن بعد).

كما يمكن أن يستفيد من نتائج هذه الدراسة كل من الأكاديميين وإدارة الجامعات، وذلك من خلال تقييم الممارسات التدريسية الالكترونية، والسعي نحو التطوير خلال او بعد الجائحة، كما أنه يستفيد من نتائجها طلبة الدراسات العليا والباحثين من خلال اقتراح دراسات جديدة ذات علاقة بالممارسات الأكاديمية الالكترونية، حيث

أن هذه الدراسة، قد ترفد مكتباتنا بنوع جديد من الدراسات المتعلقة بدور الممارسات الالكترونية في ظل جائحة كورونا في تعزيز مهارات التعلم ذاتيًا.

مصطلحات الدراسة:

-الممارسات الأكاديمية الالكترونية: يعرفها الموسى (103: 2008) بأنها: «مجموعة الاجراءات التي تعتمدها المؤسسة التعليمية كطريقة للتعلم باستخدام آليات الاتصال الحديثة عبر الانترنت والوسائط المتعددة وآليات البحث والمكتبات الالكترونية سواء كان عن بعد أو في الفصل الدراسي».

ويمكن تعريفها إجرائيًا بأنها: (الاجراءات التي يستخدمها أعضاء هيئة التدريس، وتقدم للطلبة عبر نظام (المودل أو اليوبنار) من أسئلة وتعيينات واختبارات، ومضامين محوسبة ومحاضرات مسجلة بهدف تقويمهم وتحفيزهم على التعلم عن بعد).

مهارات التعلم المنظم ذاتيًا: تعرفها الرويلي (182: 2018) بأنها: «العمليات القائمة على أنشطة المتعلمين الذاتية، والذين يقومون من خلالها بتخطيط التعليم ووضع الاهداف، وتقويم الاداء وإدارة المصادر المختلفة في بيئة مشجعة على التعلم».

ويعرفها علي (154: 2012) بأنها: «عملية بنائية نشطة متعددة الأوجه، يكون المتعلم فيها محور النشاط في استخدام استراتيجيات (المعرفة، ما وراء المعرفة، إدارة المصادر) بهدف الحد من الصعوبات التي تواجهه».

ويمكن تعريفها إجرائيًا بأنها: (العمليات التي تتفاعل فيها محددات الطالب الشخصية البيئية والسلوكية، وتمكنه من توظيف استراتيجيات (المعرفة- ما وراء المعرفة - إدارة المصادر - وإدارة الجهد والوقت) وربط خبراتهم السابقة بالأهداف، والمراجعة الذاتية بغرض جعل التعلم أكثر فائدة وأقل صعوبة).

- الجائحة Pandemic: تعرفها منظمة الصحة العالمية (2020) بأنها: «أعلى درجات انتشار المرض وفق الطبيعة الجغرافية بحيث أنه لا تكاد تخلو منطقة من التأثير المباشر منه، مما يتطلب تدخلات مباشرة وإشراف من قبل المنظمات الدولية وخاصة منظمة الصحة العالمية لمتابعة الإجراءات الوقائية وتحديد السياسات الصحية العالمية، على حساب أن المنظمة تمثل اليد العليا في رسم ملامح التعاطي مع الجائحة على الصعيد العالمي».

- فيروس كورونا المستجد COVID-19: تعرفه منظمة الصحة العالمية (2020)، بأنه: « الفيروس السادس من فصيلة الفيروسات التاجية المسبب لمتلازمة الجهاز

التنفسي الشرق أوسطي، يسبب مرض مُعد سريع الانتشار يحمل أعراض الحمى والسعال الجاف والتعب والتهاب الحلق وضيق التنفس، ظهر لأول مرة في مدينة ووهان الصينية في كانون اول 2019».

حدود الدراسة: تتحدّد الدراسة الحالية بمجموعة من المحددات:

- حد الموضوع: تقدير دور الممارسات التّدرسيّة الإلكترونيّة في تعزيز مهارات التّعليم المنظم ذاتيًا لدى الطلاب خلال جائحة كورونا في المجالات التالية:المهارات المعرفيّة، مهارات ما وراء المعرفة، مهارات إدارة المصادر، مهارات الجهد الدافع.

- الحد البشري: عينة من طلبة السنة الثالثة الجامعية من المسجلين للفصل الدراسي الثاني 2019-2020، ولعل ما يبرر هذا الاختيار قدرتهم على المقارنة بين الممارسات الإلكترونيّة والممارسات التّدرسيّة التقليديّة.

- الحد المكاني: الجامعة اللبنانيّة وكلياتها في مدينة صيدا: كلية الآداب، كلية الصحّة، كلية التكنولوجيا، كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية، معهد العلوم الاجتماعية.

- الحد الزمني: تم تطبيق القسم الميداني من هذه الدّراسة في نهاية الفصل الدراسي الثاني خلال الفترة الممتدة (15 أيار - 15 حزيران) 2020.

الدّراسات السابقة:

يبدو أن الدّراسات التي تناولت الممارسات الإلكترونيّة أو التّعليم الإلكتروني متنوعة، وكذلك تلك المتعلقة بمهارات التّعلّم المنظم ذاتيًا، الا أنه قد يكون من المفيد أن أعرض الدّراسات التي جمعت بين متغيرات الدّراسة الحالية بشكل مباشر، وتلك المتعلقة بالتّعليم العالي على وجه الخصوص والتحديد.

- دراسة الرشيدي (2020): هدفت التّعرف إلى أثر التّعليم في تحسين مهارات التّعليم الذاتي لدى طلبة مساق تقنيات التّعليم في جامعة حائل، ولتحقيق ذلك اتبعت الدّراسة المنهج الوصفي بتطبيق استبانة مكونة من (45) فقرة على (60) طالبًا وطالبة، وأظهرت النتائج وجود أثر ذو دلالة احصائية للتّعليم باستخدام التّعليم الألكتروني على تحسين مستوى مهارات التّعليم الذاتي، ووجود فروق ذات دلالة احصائية في تحسين المهارات تعزى لمتغير الجنس وذلك لصالح الذكور.

- دراسة أرنوط وآخرون (2019) هدفت التعرف إلى مستوى استراتيجيات التّعلم المنظم ذاتيًا وعلاقته باليقظة العلميّة لدى طلبة الدّراسات العليا في ضوء متغيرات

(الجنس - البرنامج الدراسي)، ولتحقيق ذلك اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي بتطبيق أستاذات على عينة قوامها (118) طالبًا طالبة، وقد أظهرت النتائج مستوى متوسط لكل من مهارات التعلّم المنظم ذاتيًا واليقظة العلميّة، حيث بلغ معامل الارتباط (0,553) وأنه لا توجد فروق ذات دلالة احصائية بين متوسطات درجات التقدير لمهارات التعلّم المنظم واليقظة العلميّة تعزى لمتغير الجنس لكن وجدت تبعًا لمتغير البرنامج وذلك لصالح (الدكتوراه).

-دراسة الرويلي (2018) هدفت التعرف إلى درجة امتلاك طالبات السنة التحضيرية بجامعة الحدود الشمالية لمهارات التعلّم المنظم ذاتيًا في ضوء متغيري (الكلية - معدل الثانوية) ولتحقيق ذلك اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي بتطبيق استبانة مكوّنة من (48) فقرة على عينة قوامها (155) طالبة، وأظهرت النتائج مستوى متوسط لدى أفراد العينة من مهارات التعلم المنظم ذاتيًا، جاء خلالها مجال (المهارات المعرفيّة) في المرتبة الأولى، وأنه لا توجد فروق ذات دلالة احصائية في مستوى المهارات تعزى إلى متغير الكلية أو المعدل في الثانوية العامة.

-دراسة حناوي (2018) هدفت التعرف إلى واقع استخدام الطلبة لنمط التعلّم الإلكتروني المنظم ذاتيًا، ولتحقيق ذلك اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي بتطبيق استبانة على عينة عشوائية بسيطة من جامعة القدس المفتوحة مكونة من (146) طالبًا وطالبة، وقد أظهرت النتائج ان استخدام الطلبة للهاتف النقال والبوابة الإلكترونية ساعدهم على إدارة المصادر بنسبة كبيرة، لكنهم بحاجة إلى مزيد من التوعية والارشاد في جوانب التعلّم الإلكتروني، وأنه لا توجد فروق دالة احصائية بين متوسطات درجات تقدير أفراد العينة لواقع الاستخدام تعزى لمتغير الجنس، لكن توجد فروق تعزى لمتغير متابعة صفحة المقررات الإلكترونية لصالح (المتابعة اليومية).

-دراسة الجهني (2017) هدفت تحديد دور المقررات الإلكترونية المفتوحة وأسعة الانتشار في دعم الدافعية واستراتيجيات التعلّم المنظم ذاتيًا ولتحقيق ذلك اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي بتطبيق استبانة على (763) طالبًا وطالبة من المسجلين في منصة (رواق) للتعلم عن بعد، وقد أظهرت النتائج أن دور المقررات في دعم الدافعية والتعلّم المنظم ذاتيًا كان كبيراً عند وزن نسبي (79,5%) وأنه لا توجد فروق دالة احصائيًا بين متوسطات درجات تقدير أفراد العينة لهذا الدور تعزى

للمتغيرات (الجنس - المؤهل الدراسي).

-دراسة لتيلجون وآخرون (2016, littlejohn others) هدفت الدراسة إلى استكشاف استراتيجيات التعلّم المنظم ذاتيًا التي يطبقها المتعلّمون عبر المقررات والممارسات الالكترونية ولتحقيق ذلك أتبعَت الدراسة المنهج الوصفي بتطبيق استبانة على (788) طالبًا وطالبة. أظهرت الدراسة وجود اختلاف في السلوك المرتبط بعملية التعلّم المنظم ذاتيًا بين الطلبة ذوي التحصيل المرتفع وذوي التحصيل المنخفض حيث ان الطلبة ذوي التحصيل المرتفع يرون في المقررات فرصة للتعلّم المهني والتعلّم المنظم ذاتيًا ولا توجد أي اختلافات تعزى لعامل (الجنس، الكلية).

-دراسة شاهين وريان (2013) هدفت التعرف إلى اتجاهات طلبة جامعة القدس المفتوحة نحو التعيينات الالكترونية وعلاقتها بمهارات التعلّم المنظم ذاتيًا، ولتحقيق ذلك أتبعَت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي بتطبيق أستبانتين على عينه عشوائية بسيطة مكونة من (353) طالبًا وطالبة، وقد أظهرت النتائج اتجاهات ايجابية نحو التعيينات الالكترونية، وأنه لا توجد فروق ذات دلالة احصائية في هذه الاتجاهات تعزى إلى المتغيرات: (الجنس - البرنامج الدراسي) وأنه توجد علاقة ارتباطية موجبة دالة بين اتجاهات الطلبة نحو التعيينات الالكترونية ومهارات التعلّم المنظم ذاتيًا حيث بلغ معامل الارتباط (0,34).

-دراسة صالح (2013): هدفت إلى اقتراح نموذج اجرائي لمهام الويب لتقديم أنشطة تعليمية ضمن إطار إرشاديّ موجه لاكساب الخبرات التي تنمي تعلّم الطلبة ذاتيًا، وتحديد العلاقة بين انماط التوجيه بمهام الويب والتعلّم المنظم ذاتيًا لدى طلبة الدراسات العليا، ولتحقيق ذلك أتبعَت الدراسة المنهج الوصفي بتطبيق استبانة على (45) طالبًا وطالبة، وأظهرت النتائج أن أنماط التوجيه المباشر تعزّز استراتيجيات التعلّم المنظم ذاتيًا بدرجة كبيرة (%85,7) وأتاح التوجيه عبر الويب فرصة للطلاب بالتعمق وفهم الموضوعات بطريقة أشمل ليصبح أكثر قدرة على الاستكشاف عبر الانترنت.

-دراسة تزوهاو (Tzo-Hua؛ 2011) هدفت التعرف إلى استراتيجيات التعلّم المنظمة ذاتيًا في نظام تقييم متعدد الاختبارات (على الانترنت) باستخدام نظام تحليل الاختبارات (WATA) حيث بلغت العينة (123) طالبًا. وقد أظهرت النتائج أنّ الطلبة أكثر استعدادًا ورغبة في الخضوع للتقييم المعتمد على الانترنت، كما أنّها

تساعد في تسهيل استخدام المتعلم لسلوكيات التّعليم المنظم ذاتيًا وذلك من حيث الاستعداد، والبحث عن المعلومات بدرجة متوسطة.

- دراسة دورن وآخرون (2010, Doorn & others) هدفت إلى تعرف اتجاهات الطلبة نحو الواجبات والامتحانات الالكترونية لمقررات في الاقتصاد لطلبة جامعة مانيسوتا الامريكية، ولتحقيق ذلك اتبعت الدّراسة المنهج الوصفي التحليلي بتطبيق استبانة على عينة مكونة من (687) طالبًا وطالبة، وقد أظهرت النتائج أنّ الممارسات والمقررات الالكترونية تساعد في تعلّم المحتوى التّعليمي بنسبة (85,4 %) وأن درجة تقدير جودة عملية التّقييم من قبل الطلبة جاءت متوسطة عند وزن نسبي (55%) وانها ساعدت في تعزيز مهارات إدارة المصادر بدرجة متوسطة، وأنه لا توجد فروق دالة احصائيًا في اتجاهات أفراد العينة تعزى إلى متغير (الجنس - الكلية).

التعقيب على الدّراسات:

تعددت الدّراسات ذات العلاقة بمجال الدّراسة الحالية، وقد أتفقت في بعض الجوانب مع بعضها واختلفت في جوانب أخرى، فمن حيث الهدف العام أتفقت الرشيدي (2020)، وحناوي (2018)، والجهني (2017)، ودراسة دورن (2010)، دراسة ليتجون وآخرون (2016) وهو التعرف إلى دور التّعليم الالكتروني في تعزيز مهارات واستراتيجيات التّعلّم المنظم ذاتيًا.

واختلفت مع دراسة الرويلي (2018) وأرنوط وآخرون (2019) التي هدفت التعرف إلى مستوى المهارات المنظمة ذاتيًا، وقد تعمدت الاطلاع على الدّراسات المتوافقة مع الدّراسة الحالية من العينة (طلبة الجامعات) والمنهج (الوصفي التحليلي) واستخدام الأدوات (الاستبيانات) ما عدا دراسة تزوها (2011) التي استخدمت تحليل الاختبارات ولعل ما يميز الدّراسة الحالية عن ما سبقها أنّها جاءت لتبحث في دور الممارسات الأكاديمية الالكترونية التي جاءت كاجراء اضطراري لاستمرار العملية التّعليمية بعد انتشار جائحة كورونا، وقد ساهمت الدّراسات السابقة في تأصيل فكرة الموضوع موضع الدّراسة، وتصميم الأداة وتفسير النتائج واتباع المنهج الملائم، إضافة إلى تحديد الأسباب المنطقية التي أدت إلى اجراء هذا البحث وتناول الموضوع الحالي من خلال الكشف عن الاستقصاءات حول المشكلة ومدى تشابها مع مشكلات أخرى.

الخلفية النظرية للدراسة:

باتت الأزمات الناجمة عن جائحة كورونا جزءًا من حياة الناس، ومصدر قلق للمسؤولين نتيجة صعوبة السيطرة على الفيروس، وعدم الوصول إلى علاج له حتى اليوم. ولما كانت الجامعات كغيرها من المؤسسات، فأنها حتمًا ستتأثر بتحولات عميقة قد تحدث شرخًا في وظائفها لا يمكن اصلاحه، اذا لم تتعامل مع انعكاساتها بما يتطلب من دقة في اتخاذ القرارات، وفي جمع المعلومات والاحتفاظ بها وتحديد كيفية توظيفها أكاديميا واداريا. لقد أحدثت كورونا صدمة ليست بالسهلة، ليس فقط على المستوى المحلي، بل أيضًا على المستوى العالمي، وهو ما كان له بالغ الأثر في تغيير شكل العمل الأكاديمي وأوليياته، فعلى المستوى الفعلي، لم تقم معظم الجامعات سوى برقمنة مصادر التعلّم من محاضرات وكتب ومراجع دون أن يصاحب ذلك تطوير وتوظيف للنظريات التربوية في مجال الاستفادة من التقنية والادوات التفاعلية في اثناء تجربة المتعلّم. لأنّ التعلّم الإلكتروني كممارسة حقيقية يحتاج وقتًا أكبر في التخطيط وتوفيرًا لوسائل تصميم المواد التعلّيمية وآليات التقييم.

وتبعًا لذلك، يجب أن ندرك أن هذا التحول الطارئ قد سبب أزمة كان لها تبعات عميقة، فقد تحول العبء إلى أعضاء هيئة التدريس والطلبة على حد سواء، فعوض هيئة التدريس أصبح مطالبًا بشكل استثنائي بضرورة التحول السريع نحو التعلّم الافتراضي (عن بعد)، وتعلّم البرامج والتطبيقات اللازمة، وهو جهد مضمّن لمن أراد أن يخلص في التعلّم والتقييم والمتابعة (المالكي، 2020: 29)

ورغم ما فرضته جائحة كورونا من تحول في رؤية رسالة الجامعات، من خلال اعتماد التعلّم عن بعد كأساس للحفاظ على الحد الأدنى من جودة التعلّم، إلا أنه من الواجب اعتبار أن استخدام التقنيات الحديثة والوسائط الإلكترونية في عملية التعلّم والتعلّم لم يعد ترفًا، بل ضرورة يتطلبها مواكبة عصر المعلومات عن طريق استخدام البرامج والممارسات والمقررات الإلكترونية بصورة جزئية او كلية (Miller, 1996: 66) ولضمان نجاح هذه الممارسات فإنّ الامر يتطلب مجموعة من المهارات، أبرزها قدرة المتعلم على توجيه تعلمه ذاتيًا حيث يتضمن الأمر التفاعل مع الآخرين، والمراقبة والتحكّم والتّقييم، وهذا بطبيعة الحال يتطلب من المتعلّم أن يكون مدركًا لدوره من حيث اختيار المصادر والاستراتيجيات التي تمكنه من تجاوز ما يواجهه من تحديات (Songs & Hill, 2007:31) لقد أصبحت الممارسات التدرّسية الإلكترونية عبر

الأنترنزنت من خلال المنصات الجامعية أمرًا لا مفر منه بعدما فرضت جائحة كورونا اغلاق الجامعات والتباعد الاجتماعي، ولكن الأمر واجه العديد من الصعوبات، خاصة وأن معظم الجامعات النظامية وطلبتها لم يكونوا مهياين لاستخدام مثل هذا النوع من التدريس والتعلم.

ورغم ما أثبتته العديد من الدراسات من فعالية التعليم الإلكتروني في مساعدة المتعلم على التكيف مع الحياة لمواجهة مشاكلها، واستخدام الحويلة المعرفية في التفكير واتخاذ القرارات الآنية والمستقبلية مثل دراسة الجهني (2017) ودراسة الرشدي (2020)، ودراسة عبد الحميد (2011)، الا ان مستوى الافادة يكون غالبًا مرتبط ب جودة التدريس والتقويم، وهو ما أكدته دراسة حناوي (2018)، ودراسة شاهين وريان (2013)، حيث ان الأمر المتعلق بالتعليم الإلكتروني أو التعليم عن بعد، لم يأخذ حظه بعد من التدريب والانتشار وكان التوجه نحوه مفاجئًا، لم يتعدى رقمنة المحتوى أو الاختبارات الالكترونية أو التكاليف والتعيينات البسيطة.

يشير مفهوم التعلم ذاتيًا إلى مجموعة الاجراءات الذاتية التي يقوم بها المتعلم متأثرًا بالكفاءة الذاتية والعوامل المعرفية، والقدرة على توظيف استراتيجيات التعلم والتأمل للحصول على مستوى متقدم من الانجاز، حيث أثبتت الدراسات أن تدريب الطلبة على مهارات التعلم المنظم ذاتيًا أو تعزيزها لديهم يحسن من مستوى تحصيلهم ويجعلهم يتحملون مسؤولية نتاج التعلم، ومن هذه الدراسات، دراسة القيس (2011)، ودراسة صناوي (2018)، علي (2012)، الرويلي (2017)، ودراسة (Bail & oth-ers, 2008) و(Saks, 2014).

ورغم تعدد مفاهيم التعلم المنظم ذاتيًا، ألا أن جميعها يجمع على أنه يمتاز بمبادرة المتعلم، حيث تقترض نظريات التعلم المنظم ذاتيًا بأن الطلبة قادرون وبشكل شخصي أن يطوروا قدراتهم من خلال اختيارهم لاستراتيجيات تعلمهم وزيادة دافعيتهم وتحفيزهم، ولتحقيق تعلم فعال ومفيد، وتنظيم الوقت وادارته، والتفاعل والرقابة الذاتية، وتحديد بيئة التعلم ومصادره (حناوي، 2018: 108)

وقد أشار شحروري (2013) والرشدي (2020) إلى أن التعلم المنظم ذاتيًا يعد أمرًا حاسمًا لتحقيق النجاح الأكاديمي خاصة في مرحلة التعليم العالي، اذ يساعد الطلبة على متابعة مهامهم التعليمية بفاعلية، وتحديد جوانب القوة والضعف في مستواهم. وتؤكد دراسة السعايدة (2015) أن طلبة التعلم المنظم ذاتيًا يوصفوا بأنهم

نو دافعية عالية، لأن لديهم استعدادات أكبر للمشاركة لفترة زمنية أطول عند اداء المهام التعليمية كما أنهم يمارسون خبراتهم التعليمية بكفاءة وبطرق مختلفة، ولديهم مخزون واسع من الاستراتيجيات المعرفية وما وراء المعرفة، ولديهم القدرة على اعادة ترتيب وتنظيم أنفسهم، وتحديد أهدافهم.

لقد أجمع الأدب التربوي على أن مهارات التعليم المنظم ذاتياً، تتحدد من خلال مجموعة من الاستراتيجيات، وأهمها:

- 1 - الاستراتيجيات المعرفية: وتشمل كما يرى عبد الحميد (1999: 27) كل من:
 - التسميع: وهي العملية التي يتبعها المتعلم بغرض تخزين المعلومات في الذاكرة، اما بتكرارها بصوت مرتفع أو منخفض في حالة المعلومات البسيطة أو القوانين الرياضية.
 - التنظيم: وهو الطريقة التي يرتب المتعلم فيها معلوماته حتى يتمكن من فهمها أو تقديمها بشكل أكثر فاعلية.
 - التوسيع أو الاتقان: وهي تعني التوسيع إلى الاجراءات التي يستخدمها المتعلم في بناء اطار لاضافة معنى أو توضيح معلومات جديدة ودمجها مع معرفة سابقة، لتخزين المعلومات في الذاكرة طويلة المدى.

- 2- استراتيجيات ما وراء المعرفة: وتشمل كما يرى عبده (2005:119)
 - استراتيجية التخطيط: وهي تعني تحديد الأهداف من المهارات بما يدفع باتجاه تحمل المسؤولية تجاه التعلّم.
 - استراتيجية المراقبة الذاتية: وتشمل تركيز الانتباه والمراجعة واختيار الذات من خلال مراجعة مدى فهمه للمعلومات.
 - استراتيجية تعديل الذات: وتعني التناغم الجيد والتوافق المستمر لأنشطة الطالب المعرفية وتصحيح السلوك المتبع في انجاز المهمة، وهي استراتيجية ذات علاقة باستراتيجية المراقبة.

- 3- استراتيجية إدارة المصادر: وتشمل كما يرى علي (2012:161)
 - إدارة الوقت: ويقصد بها جدولة وتنظيم وقت الدراسة.
 - استراتيجية طلب العون: وهي تشير إلى جهود الطالب في أن يلتمس المساعدة من زملائه.

إدارة الجهد: تتعلق بقدرة الطالب على ضبط الجهد والانتباه ازاء المشتتات والمهام غير الممتعة.

4- استراتيجيات الجهد الدافع: وتشمل معتقدات المتعلم واتجاهاته المؤثرة على نمو مهارات متقدمة متعلقة بالكفاءة الذاتية، وإدارة الجهد في انجاز المهام والمثابرة على الأداء في حال غياب الضبط الخارجي المتمثل في المعلم (الجهني، 2017: 237). بناء على ما تقدم يمكن القول أن التعلّم المنظم ذاتياً واحدة من الاستراتيجيات العلميّة الهادفة إلى اعادة التوازن بين المعلم والمتعلم، في الوقت الذي يرى فيه، علماء النفس والتربية أن الطالب قادر على توجيه حياته وتصحيح سلوكه باختياره الأفضل وفق الامكانيات والقدرات، ومستوى المهارات.

ولما كان التعلّم والممارسات الالكترونية ضرورة وخيار لا بديل عنه في ظل جائحة كورونا، فان الأمر أصبح يتعلق بأن يكون التعلّم ذاتياً حاضراً من خلال التخطيط وتحديد هدف التعلم، وإدارة المعلومات بصورة أكثر فاعلية، والمراقبة الذاتية من خلال الوعي بالممارسات التعليمية، وتحليل الأداء بما يضمن الجودة والفائدة.

اجراءات الدّراسة الميدانية:

منهج الدّراسة: جرى اتباع المنهج الوصفي التحليلي، لملائمته موضوع وأهداف الدّراسة، وهو الذي يدرس ظاهرة أو حدثاً أو قضية موجودة حالياً يمكن الحصول منها على معلومات تجيب على اسئلة البحث دون تدخل الباحث فيها (الأغا، 2002:80)

- مجتمع الدّراسة والعينة:

تكون مجتمع الدّراسة من جميع طلبة السنة الثالثة من مرحلة الاجازة (السنة الأخيرة) في الجامعة اللبنانيّة ضمن نطاق مدينة صيدا، وقد تم تحديد عينة الدّراسة بالطريقة العشوائية نظراً للظروف الاستثنائية التي تمر بها المجتمعات لناحية الحجر المنزلي وما شابه، حيث تم اعداد استبانة الكترونية باستخدام تقنية (Google doc). وتوزيعها إلكترونياً عبر مواقع التواصل الاجتماعي خلال الفترة الممتدة (10 حزيران - 30 حزيران) وقد تم استرداد ما مجموعه (500 استمارة)

أداة الدّراسة: بعد الاطلاع على مجموعة من الدّراسات السابقة ذات العلاقة، تم تصميم استبانة تقدير طلبة الجامعة اللبنانيّة لدور الممارسات التدريسيّة الالكترونية خلال جائحة كورونا في تعزيز مهارات التعلّم المنظم ذاتياً لديهم، والتي قسمت إلى قسمين رئيسين:

الأول: البيانات الشخصية (الجامعة، الكلية)
 الثاني: يتكون من (40) فقرة موزعة على أربعة مجالات (المهارات المعرفية، مهارات ماوراء المعرفة، مهارات إدارة المصادر، مهارات الجهد الدافع).
 استخدمت الاستبانة مقياس ليكرت الخماسي (Likert Scale) المكون من خمس رتب تتراوح بين كبيرة جداً إلى ضعيفة جداً لتحديد درجة الأحتياج بحيث أعطيت درجة معينة لكل أستجابة كما يظهر في

جدول رقم (1)

التوافر	كبيرة جداً	كبيرة	متوسطة	ضعيفة	ضعيفة جداً
الدرجة	5	4	3	2	1

اعتمد في هذه الدراسة الوسط الحسابي للمقياس بحيث تشير الدرجة المنخفضة إلى تدني الموافقة على ماجاء في الفقرة من وجهة نظر أفراد العينة، بينما تدل الدرجات المرتفعة على ارتفاع درجة الموافقة، وتحدد درجة التقدير من خلالها مدى تدرج ليكرت الخماسي وهو (4= 1 - 5)

صدق الاستبانة:

صدق المحكمين (الظاهري): تم عرض الاستبانة في صورتها الأولية على (5) من المتخصصين عبر حساباتهم على مواقع التواصل الاجتماعي، حيث قاموا بأبداء آرائهم وملاحظاتهم حول مدى مناسبة الفقرات والمجالات، ومدى انتماء الفقرات إلى كل مجال، وكذلك وضوح صياغتها اللغوية، وفي ضوء تلك الملاحظات، وحذف بعض الفقرات خرجت الاستبانة في صورتها النهائية.

صدق الاتساق الداخلي / جرى التحقق من صدق الاتساق الداخلي بتطبيقها على العينة الأستطلاعية البالغ عددها (100) من خارج أفراد العينة الأصلية وتم حساب معامل ارتباط بيرسون (Pearson's Correlation Coefficient) بين درجات كل مجال والدرجة الكلية، ومعامل الارتباط بين كل فقرة من فقرات الاستبانة والدرجة الكلية للاستبانة.

طريقة التجزئة النصفية (Split –Half Coefficient):

تم ايجاد معامل ارتباط بيرسون بين درجة الفقرات فردية الرتبة ودرجة الفقرات زوجية الرتبة لكل بعد، وقد تم تصحيح معاملات الارتباط باستخدام معامل ارتباط

سبيرمان بروان للتصحيح (spearman – Brown Coefficient) حسب المعادلة:
معامل الثبات = $2 / (1 + r)$. حيث r معامل الارتباط، والجدول رقم (2) يبين أن
هناك معامل ثبات كبير نسبياً لفقرات الاستبانة.

جدول رقم (2) معامل الثبات (طريقة التجزئة النصفية)

م	المجال	عدد الفقرات	معامل الارتباط	معامل الارتباط المصحح
الأول	المهارات المعرفية	10	0,790	0,881
الثاني	مهارات ماوراء المعرفة	11	0,770	0,870
الثالث	مهارات إدارة المصادر	10	0,685	0,809
الرابع	مهارات الجهد الدافع	9	0,902	0,946
	جميع المجالات	40	0,925	0,960

طريقة كرونباخ ألفا Cronbachs Alpha:

تم استخدام معامل كرونباخ ألفا لقياس ثبات الأستبانة كطريقة ثانية لقياس الثبات
ويبين جدول رقم (3) أن معامل الثبات مرتفعة.

جدول رقم (3)

م	المجال	عدد الفقرات	معامل ألفا
الأول	المهارات المعرفية	10	0,860
الثاني	مهارات ما وراء المعرفة	11	0,884
الثالث	مهارات إدارة المصادر	10	0,805
الرابع	مهارات الجهد الدافع	9	0,925
	جميع المجالات	40	0,943

يتضح من الجدول السابق أن معامل الثبات الكلي للأستبانة (0,943) وهذا يدل
على أنها تتمتع بدرجة عالية من الثبات يمكن الأطمئنان إليها عند التطبيق.

المعالجات الإحصائية:

تم جمع وإدخال البيانات إلى الحاسب الآلي حسب مقياس ليكرت الخماسي (قليلة
جداً، قليلة، متوسطة، كبيرة، كبيرة جداً) ولتحديد فترة مقياس ليكرت (الحدود الدنيا
والعليا) المستخدم في مجالات الدراسة وتم حساب المدى (5 - 1 = 4) تم تقسيمه

على عدد فترات المقياس الخمسة للحصول على طول الفقرة، أي $(0,7 = 4/5)$ ، وبعد ذلك تم إضافة هذه القيمة إلى أقل قيمة في المقياس وذلك لتحديد الحد الأعلى للفترة الأولى، وهكذا...

نتائج الدراسة والتفسيرات الممكنة:

السؤال الأول: « ما درجة تقدير طلبة الجامعة اللبنانية لدور الممارسات التدريسية الالكترونية خلال جائحة كورونا في تعزيز مهارات التعليم المنظم ذاتيًا لديهم؟ »
 للجابة عن هذا التساؤل تم استخدام المتوسط الحسابي والانحراف المعياري والوزن النسبي والترتيب، واختبار T لعينة واحدة والجدول التالي يوضح ذلك:
 جدول (4) المتوسط الحسابي والانحراف المعياري لكل مجال من مجالات استبانة (المواطنة الرقمية)

المجال	المتوسط الحسابي	الوزن النسبي	الترتيب	قيمة الاختبار	القيمة الاحتمالية
المهارات المعرفية	3,39	66,20	1	7,90	0,000
مهارات ما وراء المعرفة	3,10	60,40	4	2,02	0,022
مهارات إدارة المصادر	3,34	65,70	3	6,70	0,000
مهارات الجهد الدافع	3,35	69,90	2	6,38	0,000
الدرجة الكلية	3,32	66,50		6,65	0,000

يتضح من الجدول أعلاه أن درجة أفراد العينة لدور الممارسات التدريسية الالكترونية خلال جائحة كورونا في تعزيز مهارات التعليم المنظم ذاتيًا لديهم كانت متوسطة عند وزن نسبي (66,50 %) وهو ما يتفق مع ما جاءت به دراسة (Tzo, 2011)، والرويلي، (2018)، وأرنوط وآخرون، (2019)، ويختلف مع دراسة الرشيد (2020) والجهني (2017) وشاهين والريان (2013) التي أثبتت دورًا إيجابيًا كبيرًا للتعليم الالكتروني في تعزيز مهارات التعليم المنظم ذاتيًا، وقد تعزى درجة التقدير المتوسط إلى أن الزخم الكبير في استخدام هذه الممارسات جاء حديثًا رغم ان الاعتراف بها كريف للتعليم الحضوري كان قديمًا، وذلك بسبب الظرف الأضطراري الذي خلفته جائحة كورونا والمتعلق بالتباعد الاجتماعي واغلاق الجامعات، حيث برز مستوى المقبولية لهذه الممارسات وجودتها وفعاليتها متفاوتًا من قبل الطلبة وأعضاء هيئة التدريس.

جاء مجال (المهارات المعرفية) في المرتبة الأولى بوزن نسبي (66,20) بدرجة

كبيرة أقرب إلى المتوسطة، ومجال (مهارات ماوراء المعرفة) في المرتبة الأخيرة بوزن نسبي (60.40 %) بدرجة متوسطة، وهو ما يتفق مع ما جاءت به دراسة الرويلي (2018) ويختلف مع دراسة حناوي (2018) ودراسة صالح (2013).

وربما يعود السبب في حلول مجال (المهارات المعرفية) في المرتبة الأولى إلى أن هذه المهارات والتي ظهرت من خلال فقرات الاستبيان لمجالها، متحققه بشكل مقبول خلال قدرة الطلبة على توظيف منصات التعليم الإلكتروني للجامعات على اختلاف أنواعها، والتي راعت قي تصميمها اتقان الطالب الجامعي لهذه المهارات مما يساعد على التعامل معها بنجاح (الاختبارات القصيرة - الواجبات - المحاضرات المسجلة... وغيرها)

وقد يُعزى السبب في حلول مجال (مهارات ما وراء المعرفة) في المرتبة الأخيرة إلى أن هذه المهارات تتعلق باستراتيجيات تفكير عليا لم يعتاد عليها الطلبة في نظام التعليم التقليدي، كما أن أغلب استجابات الطلبة لهذه الممارسات الإلكترونية جاءت في اطار الوفاء بمتطلبات النجاح في المسابقات المطروحة دون التمعن في أثر التعلم أو الحاجة إلى الربط بالخبرات السابقة أو التنبؤات المبنية على البيانات وهو ما أكدته دراسة الرشيدى (2020)، و (2016, Littlejohn & others)

المجال الأول: المهارات المعرفية

جدول (5) التكرارات والمتوسطات والانحرافات المعيارية لكل فقرة من فقرات المجال الأول.

م	الفقرة	المتوسط الحسابي	الوزن النسبي	قيمة الاختيار	القيمة الاحتمالية	الترتيب
1	ساعدتني التعينات الإلكترونية على استخدام خرائط المفاهيم الذهنية	2,95	58,45	-0,35	0,355	7
2	زادت الاختبارات الإلكترونية من رغبتني في الاعتماد على ذاتي	3,18	65,06	2,80	0,003	5
3	منحتني التقنيات الإلكترونية الفرصة للحصول على التغذية الراجعة	2,95	60,45	0,30	0,385	7

6	0,441	-0,15	58,70	2,90	ساعدتني المحاضرات المسجلة على تحديد المفاهيم غير المألوفة وتدوينها	4
1	0,000	5,24	69,79	3,34	دفعتني المحاضرات المسجلة إلى تكرار حفظ المفاهيم الصعبة عدة مرات قبل الإجابة	5
4	0,000	3,60	66,64	3,25	منحتني فرصة إعادة المحاولة في حال اخفاقي في احد الامتحانات	6
10	0,005	2,62	53,50	2,79	زادت من قدرتي على التعرف إلى خطوات حل الامثلة التي تساعد في حل الاسئلة	7
2	0,000	4,80	65,65	3,36	نوعت الممارسات الالكترونية من نماذج التقييم	8
9	0,296	0,55	60,4	2,93	ساهمت في زيادة فرص التعاون والتفكير المشترك مع الزملاء	9
3	0,000	4,35	65,6	3,25	زادت من بقاء أثر التعلم من خلال تكرار سماع المحاضرات	10

يتضح من الجدول (5) أن درجات التقدير في هذا المجال تراوحت ما بين (-53,50- 69,79%) حيث جاءت فقرتا المرتبة الاولى والاخيرة على النحو الآتي:
 الفقرة (5) دفعتني المحاضرات المسجلة إلى تكرار حفظ المفاهيم الصعبة عدة مرات قبل الإجابة. في المرتبة الأولى بوزن نسبي (69,79) وبدرجة كبيرة اقرب إلى المتوسطة، وقد يعود السبب في ذلك إلى أن خاصية المحاضرات المسجلة على المنصة الالكترونية للجامعات توفر فرصاً لتحميلها ومن ثم سماعها أو مشاهدتها أكثر من مرة ومن ثم تدوين بعض الاسئلة وارسالها إلى مدرس المساق أو تكرار المفاهيم إلى حين استيعابها أو مشاركتها مع الزملاء، وهو ما أتفق مع ما اشارت اليه دراسة

الجهني (2017)، (Little John & others, 2016)، الفقرة (7) (زادت من قدرتي على التعرف إلى خطوات حل الامثلة الي تساعدني في حل الاسئلة المتشابهة في الامتحان) في المرتبة الاخيرة بوزن نسبي (53,50%) وبدرجة متوسطة، وقد يعود السبب في ذلك إلى أن الامتحانات الالكترونية بأشكالها لم تتجاوز نمط (الاختبارات المقالية) وبخاصة في العلوم الانسانية، وهو ما أكدته دراسة (Doorno & others, 2010)

المجال الثاني: مهارات ما وراء المعرفة:

جدول (6) التكررات والمتوسطات والانحرافات المعيارية لكل فقرة من فقرات المجال الثاني.

الترتيب	القيمة الاجمالية	قيمة الاختيار	الوزن النسبي	المتوسط الحسابي	الفقرة	
4	0,000	6,20	69,20	3,45	ساهمت في تعزيز قدراتي على تحديد الافكار الرئيسية للمحتوى	1
3	0,000	14,08	81,00	4,00	عززت لدي القدرة على تحليل معطيات التكليف الالكتروني	2
2	0,000	13,65	80,08	4,06	منحتني الفرصة في التحكم الذاتي لممارساتي الأكاديمية	3
11	0.215	0,79	60,35	3,05	ساعدتني في القدرة على اكتشاف أخطاء الاجابة ذاتيًا	4
6	0,000	4,00	69,75	3,42	زادت من مهاراتي في تطوير التنبؤات المبنية على البيانات	5
5	0,000	6,45	67,90	3,43	زادت من رغبتني في التدريب على ادراك المحتوى من حيث الامثلة والمعلومات	6

7	0,000	3,99	65,97	3,30	أثار لدي استخدام استراتيجية تسجيل الملاحظات (التفكير بصوت مرتفع)	7
7 م	0,000	3,90	62,95	3,25	ساعدتني على تخطيط الاجابات والمدخلات ذهنياً	8
9	0,013	2,20	60,29	3,20	عزّزت لدي القدرة على استنتاج الفروق في وحدات المقرر للتنبؤ بالاجابات الصحيحة	9
12	0,000	5,71	50,75	2,50	حفزتني على التفاعل أكثر مع استاذ المساق.	10
10	0,118	1,15	60,75	3,10	عززت لدي فرصة الممارسة لأنواع متعددة من مهارات التفكير العليا.	11
1	0,000	18,91	81,79	4,09	أكدت لدي حقيقة أن على المتعلم تحمل مسؤولية تعلمه	12

يتضح من الجدول أعلاه أن درجات التقدير في هذا المجال تراوحت ما بين (50,75-81,79 %) بين كبيرة ومتوسطة، حيث جاءت فقرتا المرتبة الأولى والاخيرة على النحو الآتي: الفقرة (12) «أكدت لدي حقيقة أن على المتعلم تحمل مسؤولية تعلمه في المرتبة الأولى بوزن نسبي (81,79 %) وبدرجة كبيرة، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن قناعة أفراد العينة بمستوى الجهد الكبير الذي يبذله في استخدام المحتوى الرقمي والمواد المحوسبة للحصول على المعرفة، اضافة إلى حقيقة فلسفة التعليم الإلكتروني والقائمة على الجهد الذاتي الموجه في البحث، أكثر من التعليم التقليدي الذي يكون الوصول للمعلومات أسرع وأقل جهدًا بواسطة المعلم، وهو ما أشارت اليه دراسة أرنوط وآخرون (2010,Doorn & others).

الفقرة (10)«حفزتني على التفاعل أكثر مع استاذ المساق» في المرتبة الاخيرة بوزن نسبي (50,75%) وبدرجة متوسطة، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن الممارسات الالكترونية الحالية في الجامعات موضوع الدراسة لا تستلزم التواصل المباشر مع

المدرّس، وأنها مجرد ارسال واستقبال الاجابة والسؤال والاستفسارات عبر الرسائل في اوقات محددة، أو انشاء مجموعات للمسابقات على (الوتس آب) يعين لها المشرف لإدارة عملية التواصل.

المجال الثالث: مهارات إدارة المصادر

جدول (7) التكرارات والمتوسطات والانحرافات المعيارية لكل فقرة من فقرات المجال الثالث

م	الفقرة	المتوسط الحسابي	الوزن النسبي	قيمة الاختيار	القيمة الاجمالية	الترتيب
1	عززت لدي القدرة على تنظيم الوقت من خلال جدولة المهام على الموديل أو النظام الإلكتروني	3,65	72,83	3,9	0,001	1
2	ساعدتني على التقييم الذاتي لعملية التعلم قبل الحصول على الاجابات أو الدرجات من النظام.	3,31	66,45	4,24	0,000	7
3	ساهمت في تحسين قدرتي على التحكم الذاتي بانفعالاتي	3,21	65,4	2,97	0,002	10
4	منحتني فرصة البحث عن بدائل متعددة للاجابة عن التكاليف أو الواجبات المطلوبة	3,32	65,61	4,74	0,000	6
5	ساعدتني على ضبط المشتتات التي تعرقل تنظيم المعرفة خلال حل التعيينات.	3,55	70,33	7,55	0,000	2
6	أتاحت فرصاً متعددة للحصول على معدل النجاح المطلوب.	3,43	68,95	6,52	0,000	5
7	عززت لدي المقبولية لنظام التقييم الجديد	3,41	68,34	7,17	0,000	4
8	جعلتني أتصرف مع الواجبات وكأني جزء من المعرفة.	3,25	65,13	3,08	0,001	9
9	أسهمت في تعزيز امكانياتي وثقتي بنفسني	3,47	70,51	6,83	0,000	3
10	زادت من قدرتي على التمييز بين المهم والثانوي من المقرر	3,26	65,31	2,97	0,002	8

يتضح من الجدول أعلاه أن درجات التقدير تراوحت ما بين (65,4 - 72,83 %) وبدرجات كبيرة، حيث جاءت فقرتا المرتبة الأولى والأخيرة على النحو الآتي:

الفقرة (1) « عززت لدي القدرة على تنظيم الوقت من خلال جدولة المهام على الموديل أو النظام الإلكتروني » في المرتبة الأولى بوزن نسبي (72,83%) وبدرجة كبيرة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن نظام المنصات الإلكترونية للجامعات يعتمد على تقسيم المحاضرات والواجبات والاختبارات الإلكترونية حسب جدول زمني مقسم إلى أسابيع خلال الفصل الدراسي، بحيث يستطيع الطالب من خلال صفحته التعرف إلى المواعيد والتواريخ ذات العلاقة بالمهام، وهذا ما ساعد أفراد العينة على جدولة مهامهم وتنظيم الوقت، وهو ما أكدته دراسة الجهني (2017)، ودراسة (Little John & Others, 2016) الفقرة (3) « ساهمت في تحسين قدرتي على التحكم بانفعالاتي». في المرتبة الأخيرة بوزن نسبي (65,4%) وبدرجة كبيرة أقرب إلى متوسطة، وقد يعزى السبب في ذلك إلى تدني مستوى الخدمات الإلكترونية في بداية الجائحة من حيث (الضغط على مصادر الانترنت) أو تدني سرعة الانترنت، انقطاع التيار الكهربائي.... الخ، وهذا زاد من توتر الطلاب، خاصة فيما يتعلق بتقديم الاختبارات وتسليم الواجبات والمهام، الأمر الذي قلل من قدرة أفراد العينة على التحكم ذاتيًا بالأنفعالات أو تراجع مستوى الضبط العصبي.

المجال الرابع: مهارات الجهد الدافع

م	الفقرة	المتوسط الحسابي	الوزن النسبي	قيمة الاختبار	القيمة الاحتمالية	الترتيب
1	دفعنتي إلى ابتكار طرقًا ممتعة لجعل الدراسة أكثر متعة	2,91	58,64	0,84	0,200	9
2	ساعدتني في التعرف إلى ملاءمة المادة الدراسية لقدراتي ودوافعي الشخصية	3,52	70,01	7,40	0,000	5
3	عززت لدي القدرة على بذل الجهد لربط ما أتعلمه بميولي الشخصية	3,20	65,72	2,91	0,002	6

1	0,000	7,81	71,81	3,68	ساعدتني على بذل الجهد لتحسين أدائي في الدروس التي لا أحبها	4
8	0,004	2,65	63,78	3,18	أثارت لدي الدافع نحو تسجيل عدد ساعات أكثر خلال الفصل	5
7	0,002	2,96	64,58	3,24	زادت من دافعتي نحو الانجاز	6
1	0,000	8,4	72,61	3,61	تشجعتني على التحضير المسبق للدراسة	7
3	0,000	7,39	71,21	3,57	حفزتني على الاستفسار الدقيق حول محتوى المقرر	8
4	0,000	8,87	71,08	3,55	ساعدتني على التوقع الدقيق لمستوى صعوبة الامتحان النهائي	9

يتضح من الجدول أعلاه أن درجات التقدير في هذا المجال تراوحت ما بين

(58,64 - 72,61 %) وبدرجات بين متوسطة وكبيرة، حيث جاءت فقرتا المرتبة

الأولى والاخيرة على النحو الآتي:

الفقرة (7) تشجعتني على التحضير المسبق للدراسة في المرتبة الاولى بوزن نسبي 72,61 % وبدرجة كبيرة، وتؤكد هذه النتيجة ما جاء في المجال السابق لناحية تحمل المتعلم مسؤولية تعلمه، والتحضير من قبله لاتمام تلك العملية، فيبذل كل ما في وسعه لتحسين أدائه في الدروس التي يحبها، من خلال اثاره روح الفضول والرغبة في والرغبة في الاستكشاف لديه.

الفقرة (1) « دفعنتي إلى ابتكار طرقاً ممتعة لجعل الدّراسة أكثر متعة». في المرتبة الاخيرة بوزن نسبي (58,64 %) وبدرجة متوسطة، وقد يعود السبب في ذلك إلى شعور أفراد العينة بالقلق والتوتر جراء حداثة الممارسات وأنعكاساتها على الطلاب حيث جاء اعتمادها من قبل الجامعة اللبنايية مفاجئاً بالنسبة لهم، الأمر الذي اضطرهم إلى التعامل معها في ضوء المعرفة التكنولوجية التي يملكونها.

السؤال الثاني:

ينص على: هل توجد فروق ذات دلالة احصائية عند مستوى دلالة ($a > 0,05$) بين متوسطات درجات تقدير أفراد العينة لدور الممارسات التدريسية الالكترونية خلال جائحة كورونا في تعزيز مهارات التعليم المنظم ذاتيًا لديهم تعزى إلى المتغيرات بحسب الكلية؟

وللأجابة عن هذا السؤال تم التحقق من الفرضيات التالية:

الأولى: لا توجد فروق ذات دلالة احصائية عند مستوى دلالة ($a \geq 0,05$) بين متوسطات درجات تقدير أفراد العينة لدور الممارسات التدريسية الالكترونية خلال جائحة كورونا في تعزيز مهارات التعليم المنظم ذاتيًا لديهم تعزى إلى متغير الكلية: (كلية الآداب، كلية الصحة، كلية الحقوق والعلوم السياسية، كلية التكنولوجيا، معهد العلوم الاجتماعية). وللتحقق من صحة الفرضية تم استخدام اختبار تحليل التباين الأحادي (One Way ANOVA) وقد اظهرت نتائج الدراسة القيمة (ف) المحسوبة لجميع المجالات أكبر من قيمة (ف) الجدولية والتي تساوي (3,05) وهي دالة عند مستوى الدلالة (0,05)، وبذلك تدحض الفرضية الصفرية باعتبار أنه توجد فروق ذات دلالة احصائية عند مستوى دلالة ($a \geq 0,05$) بين متوسطات درجات تقدير أفراد العينة لدور الممارسات التدريسية الالكترونية خلال جائحة كورونا في تعزيز مهارات التعليم المنظم ذاتيًا لديهم تعزى إلى متغير الكلية، وهو ما يتفق مع ما جاءت به دراسة (Little John & others, 2016)، ودراسة شاهين وريان (2013)، وقد يعزى السبب في ذلك إلى أن الممارسات التي أتمتها الجامعات كانت شاملة لجميع الطلبة مع الاختلاف في طريقة العرض أو التقويم من كلية إلى أخرى، لكنها منصة تعليم واحدة، وطريقة تواصل واحدة.

الخاتمة: في ضوء نتائج الدراسة، اقترح التوصيات الآتية:

- تضمين برامج تدريب أعضاء هيئة التدريس استراتيجيات التعلم المنظم ذاتيًا، على المستوى الشخصي والمهني، وبما يضمن التنوع في المحتوى الإلكتروني، وآليات التقييم والمتابعة.

- تصميم برامج خاصة للطلبة كمتطلبات جامعية، في مجال استراتيجيات التعلم المنظم ذاتيًا، كخطوة مستقبلية لاعتماد التعليم الإلكتروني.

- تصميم آليات حديثة في اطار مفاهيم المواطنة الرقمية لتبسيط عملية التواصل بين الطالب وعضو هيئة التدريس.

- زيادة توعية طلبه الجامعات بوسائل الارشاد والتوجيه التي ترافق تطبيق نمط التعليم الإلكتروني المنظم ذاتيًا، من خلال اللقاءات الافتراضية، والأدلة المصورة.

- زيادة تفعيل خدمة الهاتف المحمول (مجموعات المساقات) لتحسين قدرة الطلبة على التحكم الذاتي بالأنفعالات وتنظيم الوقت.

اضافة إلى ما تقدم، لكي تكون عملية التعلّم عن بعد عملية فعالة على الطالب أن يكون متمكناً من مهارة الثقافة التكنولوجية، ليتمكن من استخدام الوسائل الرقمية في تلك العملية كذلك يجب أن تستغل هذه المدة قبل البدء بالفصل الأول من العام الجامعي 2020-2021 لتدريب كل من المعلمين والطلاب على استخدام الوسائل الأفضل لانجاح عملية التعلّم الإلكتروني، وخاصة أننا لا نزال في معركتنا المفتوحة مع وباء كورونا.

كما أن العامل الأساس في انجاح هذه العملية هو توفر التكنولوجيا المناسبة لها، وهذا ما جعل عملية التعلم عن بعد متاحة في بعض الدول ومستحيلة في أخرى، لذلك، على الموكل اليهم تطوير برامج التعليم العالي التنبه إلى ضرورة تضمين هذه البرامج ما يساهم في تنمية مهارة التعلّم الذاتي للطلبة.

ونتيجة لوفرة ما نشهده من تدفق للمعلومات المتاحة عبر المواقع الإلكترونية فمن المهم جداً تنمية مهارة الثقافة المعلوماتية لدى الطلبة، ليتمكنوا من انتقاء المعلومات ذات المصدر الموثوق، وهذا بدوره أيضاً يحتاج إلى تنمية مهارة التفكير الناقد لديهم. وأخيراً نحن اليوم أمام تحدّ كبير يكمن في توفير الوسيلة المناسبة لهذه العملية، فضلاً عن كيفية تطويرها لنتناسب مع المواد النظرية والمواد العلميّة التطبيقية، ومع امكانية اتاحتها للجميع، كون التعلّم هو حق للجميع وليس حكراً على أحد.

قائمة المصادر والمراجع العربية والاجنبية

أ-المصادر والمراجع العربية:

- 1-أبو غبن، أحمد، دور التّعليم الإلكتروني في تعزيز الميزة التنافسية في الجامعات الفلسطينية، رسالة ماجستير، الجامعة الاسلامية، غزة، 2012.
- 2-أحمد، ربهام، توظيف التّعليم الإلكتروني لتحقيق معايير الجودة في العملية التّعليمية، المجلة العربية لضمان جودة التّعليم الجامعي، 9(10)، 2012-20-1.
- 3-أرنوط، بشرى وآل معدي، خديجة والقديمي، فاطمة، استراتيجيات التّعليم المنظم ذاتياً وعلاقتها بالليقظة العلميّة لدى طلبة الدراسات العليا، مجلة الأستاذ 58(1)، 2019.
- 4- الأغا احسان، البحث التربوي وعناصره، منهجه وادواته، الجامعة الاسلامية، غزة، 2002.
- 5-آل مزهر، سعيد، أثر التّعليم الإلكتروني في التّعليم العام بالمملكة العربية السعودية، نموذج تطبيقي مقترح (رسالة دكتوراه)، جامعة الملك سعود، الرياض، 2006.
- 6-الجهني، ليلي، المقررات الإلكترونية المفتوحة واسعة الانتشار ودورها في دعم الدافعية واستراتيجيات التّعلم المنظم ذاتياً، مجلة الجامعة الاسلامية للدراسات التربوية والنفسية، 25(4)، 257 - 228، 2017.
- 7-حناوي، مجدي، واقع استخدام الطلبة لنمط التّعليم الإلكتروني المنظم ذاتياً واتجاهاتهم نحوه في جامعة القدس المفتوحة، مجلة العلوم التربوية والنفسية، 91 (1)، 137-103، 2018.
- 8- الرشيدى، بندر، أثر التّعليم الإلكتروني في تحسين مهارات التّعلم الذاتي لدى طلبة تقنيات التّعليم والاتصال في جامعة حائل، مجلة الجامعة الاسلامية للدراسات التربوية والنفسية، 28(1)، 161 - 141، 2020.
- 9- الرويلي، ميسرة، درجة امتلاك طالبات السنة التحضيرية بجامعة الحدود الشمالية لمهارات التّعلم المنظم ذاتياً، مجلة الجامعة الاسلامية للدراسات النفسية والتربوية، 26(3)، 159-186، 2018.
- 10-الزبيدي، بيان، مستوى القابلية للتّعلم الذاتي لدى طلبة كلية العلوم التربوية في الجامعة الأردنية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، 2013.
- 11-السعيدة، منى، أثر التدريس باستخدام تقنية الحاسوب اللوحي في التحصيل وتنمية مهارات التّعلم الذاتي لدى طلبة الصف السادس الأساسي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 2015.
- 12- شاهين، محمد وريان، عادل، اتجاهات طلبة جامعة القدس المفتوحة نحو التّعينات الإلكترونية وعلاقتها بمهارات التّعلم المنظم ذاتياً، المجلة الفلسطينية للتّعليم المفتوح، 4(7)، 11-48، 2011.
- 13-شحروري، عماد، درجة امتلاك مهارات التّعلم الموجه ذاتياً لدى طلبة المرحلة الجامعية في مدينة الرياض، مجلة دراسات (العلوم التربوية)، 40(2)، 944-927، 2013.

- 14-صالح، ايمان، أثر أنماط التوجيه بنظام الويب على تنمية التّعليم المنظم ذاتيًا لدى طلبة الدراسات العليا بكلّيات التربية، مجلة دراسات عربية في التربية (1)44، 169-216، 2011.
- 15- عبد الحميد، عبد العزيز، أثر تصميم استراتيجيّة التّعلّم الإلكتروني على التحصيل التعلّمي وتنمية مهارات التفكير التأملي، مجلة كلية التربية، 75(2)، 249-316.
- 16- عبد الحميد، عزت، دراسة بنية الدافعية واستراتيجيات التعلّم، مجلة كلية التربية، جامعة الزقازيق، 33(2)، 25 - 50، 1999.
- 17-عبد، ربيع، توجيهات أهداف الانجاز والمعتقدات الذاتية وعلاقتها بالتعلم المنظم ذاتيًا، رسالة دكتوراه، جامعة قناة القاهرة، 2005.
- 18-عساف، محمود، دور التّعليم الإلكتروني في تعزيز ممارسة جامعتي الأزهر والاسلامية لالتّعلّم الذاتي، المجلة العربية لضمان جودة التّعليم الجامعي، 12(40)، 2019.
- 19- علي، نجوى، مدى فاعلية برنامج تدريب قائم على التّعلّم المنظم ذاتيًا في تقدير الذات والتحصيل الأكاديمي لدى طالبات كلية التربية في جامعة القصيم، مجلة العلوم التربوية، 20(2)، 2012.
- 20-القيس، لما، أثر التّعلّم المنظم ذاتيًا على تحصيل طلبة جامعة الطفيلة التقنيه، مجلة كلية التربية، عين شمس، 35(2)، 536 - 512، 2011.
- 21- المالكي، فيصل، الجامعات في زمن الكورونا، مجلة كلية التربية، عين شمس، 16 - 20، 2020.
- 22- منظمة الصحة العالميّة، المصطلحات الطبية المتعلقة في فيروس كورونا، 2020.
- 23- الموس، عبد الله، التّعليم الإلكتروني، الأسس والتطبيقات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2008.
- 24- وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (أنروا)، دليل توعوي صحي شامل حول فيروس كورونا، 2020.

ب- المصادر والمراجع الأجنبية

1. Bail, F., others, Effects of Self – regulated Learning Course on the academic performance and graduation rate of college students, journal of college Reading and Learning ,(1),54-739 2008.
2. Doon, D., Students attitudes and approaches to online homework, International journal for the scholarship of T.Ol.,4(1),1-20,2010.
3. Littejohn, A., and Others, Learning in MOOCs, the Internet and Higher Education ,29(1) , 40 – 48 , 20016.
4. Miller, B, The Internet resource directory for k-12 teachers and librarians, En-Glenwood, 46 (1), 51-70, 1996.
- 5” Saks, K, Leijen, A, Distinguishing self-directed and self regulated learning, social and behavioral sciences journal, 112 (3), 190-198, 2014.
6. Song, L. & Hill, J. , A conceptual model for understanding self-directed learning in online environment, journal of instructionl online learning , 6 (1), 27-42, 2007.
7. Tuz-Hua, W. , Deve
loping web-based assessment strategies for facilitating Junior High School students to perform self-regulated learning in an E-learning Environment, Departement of Education, National Hinchey University of Educatin, 57 (2), 180-181 (2), 2011.

عهود الطائف والفساد د. يوسف زلغوط

مفهوم الفساد

الفساد هو فساد ما صلح، والإصلاح هو إصلاح ما فسد، وعليه لا يمكن علمياً وواقعياً، البحث في أحدهما دون الآخر، الفساد هو التهافت إلى أخذ الرشوة والهدايا والمال من قبل الموظف لإتمام واجبه ما يجعل المواطن بدوره فاسداً ومرتهناً لأهل السلطة. «والفساد هو التّغاضي عن الغشّ والتّزوير والسّرقات والاختلاسات والصّفقات والسّمسرات والوساطات من قبل أهل السّلطة. والفساد يؤدي إلى اتّساع الهوة بين واقع الإدارة العامة وحاجات المواطنين ومتطلباتهم. فالفساد هو غياب المواطنة والأخلاقيّة عند الموظف وعند المواطن على حدٍ سواء»⁽¹⁾ والفساد ساد في لبنان خاصةً ما بعد اتفاق الطائف وقد اتخذ أشكالاً متنوعة. وفقاً لتعريف موسوعة العلوم الاجتماعيّة، الفساد هو سوء استخدام النّفوذ العام لتحقيق أرباح خاصة، كما أنّه خروج عن القانون والنظام العام وعدم الالتزام بهما من أجل تحقيق مصالح سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة للفرد أو الجماعة المنتفعة.

إشكاليّة البحث وفرضياته

يمثل الفساد نمطاً خطيراً من أنماط الجريمة الأكثر انتشاراً في العالم ولا يستثني طبقة اجتماعيّة معيّنة، وللفساد أسباب وظروف متعددة ومتنوعة، لكنّه غالباً ما يعود إلى طبيعة النّظام السائد إذ استخدمت المراكز والسلطة والنّفوذ لتمرير المنفعة الشّخصيّة على حساب الصّالح العام. فالفساد هو أعمال غير نزيهة يقوم بها الأشخاص الذين يشغلون مناصب في السّلطة، مثل الوزراء والمديرين، والمسؤولين الحكوميين وغيرهم، وذلك لتحقيق مكاسب خاصة. ويصنّف الفساد ضمن الإطار العام للجرائم الشائعة في العصر الرّاهن إذ إنّ «السّلك الإنسانيّ المنحرف الذي يمثل اعتداءً على حقّ أو مجموعة من الحقوق والمصالح التي يحميها الشّرع أو القانون ويُعدّ من السّلوكيّات التي يترتب عليها ضرر للمجتمع»⁽²⁾. كما أنّ الفساد الإداريّ والماليّ والسّياسيّ

(1) - راشيل بحصلي- الفساد أزمة مزمنة عبر تاريخ لبنان منذ العثمانيين - جريدة الأنوار 10/3/2006.

(2) - بن حمزة، حورية: العولمة صيغ الفساد وتداعيات الفقر (مقالات وأبحاث اجتماعية -المجتمعات الجزائرية

والعربية) 16/3/2011

وغيره من أنواع الفساد هو شكل بارز للانحراف وهو صورة من صور سوء تكيف الإنسان مع الأنظمة الاجتماعية التي يعيش في إطارها، ويترب عليه سلوكيات مخالفة غير معتادة وبعيدة عن تقاليد وأعراف المجتمع مثل الكذب والرّشوة والسّرقة، وخروجاً عن القانون المدني، وضمن هذا الفهم وفي هذا السياق فقد تقام الفساد في لبنان خاصةً مع عهود اتفاق الطائف حيث استشرى الفساد في كل مفاصل الدولة ومؤسساتها وإداراتها، وسلطاتها الدستورية (السلطة التشريعية- السلطة التنفيذية- السلطة القضائية) ووجد هذا الفساد المهول احتضاناً طائفيًا وسياسيًا وسكوتًا شعبيًا بحجة حماية حقوق الطائفة وتماشيًا مع خطابات شدّ العصبية الطائفية. أمام هذا الواقع المأزوم في بنية النظام والمجتمع اللبنانيين رأينا أنه من المفيد تسليط الضوء على هذا الواقع في محاولة لفهمه وتفسيره وللوقوف على أبرز أسبابه خاصةً في ظل عهود وحكومات اتفاق الطائف الذي كان الرّهان عليه ليس بإنهاء الحرب الأهلية فحسب، بل بالتأسيس لدولة عصرية حديثة، دولة القانون والمؤسسات، دولة المواطنة والعدالة والمساواة، إلا أنّ تجربة دولة الطائف والتي مضى على حكمها ما يزيد على ثلاثة عقود، هي حقة كافية للحكم على فشل هذه التجربة المثقلة بالفساد بكل الأوجه وعلى مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمالية والإدارية...ومن هذا المنطلق نطرح التساؤلات الآتية.

هل الفساد في لبنان هو وليد الحرب الأهلية واتفاق الطائف أم له جذور تاريخية تعود إلى نشأة هذا الكيان؟ ولماذا استشرى الفساد بشكلٍ فاضح في عهود وحكومات الطائف؟ وكيف أثر الفساد في لبنان على بناء دولة عصرية؟، ولماذا وجد الفساد بيئة حاضنة طائفيًا وسياسيًا؟ ومن ثمّ هل هناك إمكانية لإصلاح ما فسد؟ تلك أسئلة مشروعة وهي تراود كل إنسان فرد يتألّم، وكل جماعة مسؤولة، وكل مواطن حريص وطموح. وهذا ما سنحاول الإضاءة عليه في سياق البحث الذي سنعالج فيه الفرضيات المطروحة.

فما لا شك فيه أنّ طبيعة النظام السياسي اللبناني الطائفي هو نظام منتج للفساد ومتجذر في بنيته وحامٍ له. ثم إنّ سياسة المحاصصة التي سادت عهود الطائف قد أسست للفساد، وجذّرت في مختلف إدارات الدولة ومؤسساتها وحالت دون وصول أصحاب الكفاءة إلى المواقع الإدارية، ومن ثمّ اندثرت فرص الإصلاح. وكلما كان الفاسدون محميين طائفيًا وسياسيًا استشرت مظاهر الفساد أكثر وتعطلّ تطبيق القوانين

وساد الظلم وتعثرت فرص بناء الدولة العصرية. وإنّ تعطيل أجهزة الرقابة وغياب التشريعات والقوانين التي تفرض المسائلة والمحاسبة، قد عزز الفساد بكل أشكاله ومستوياته ما أوصل البلد إلى إزمات تهدد الدولة بالتفكك والمجتمع بالانحلال .

واقع الفساد

إذا اتّبعتنا التعريف الوارد في موسوعة العلوم الاجتماعية من حيث أنّ الفساد هو سوء استخدام النفوذ العام لتحقيق أرباح خاصة فإنّه يشتمل وبوضوح على جميع أنواع الرشاوى للمسؤولين المحليين أو الوطنيين أو السياسيين⁽¹⁾. وتتعدد أسباب الفساد وعوامل انتشاره وتتراوح بين أنظمة وقوانين مطاطة تسمح بالالتفاف عليها إلى غياب التشريعات والقوانين التي تفرض المسائلة، إلى تعطيل عمل أجهزة الرقابة وعدم وضوح النظام الضريبي وانخفاض في مستويات دخل الموظفين في القطاع العام، وعدم وجود بيئة قانونية وتشريعية تحكم المؤسسات الحكومية وانعدام استقلالية القضاء .

يترتب على الفساد آثار وتداعيات كبيرة قد تطل أفراداً في المجتمع، وتؤثر عليهم بشكل مباشر وعلى مصالحهم ومراكزهم وصولاً إلى تأثير هذه الظاهرة على مجمل النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والتعليمية للمجتمع، فقد تحوّل الفساد إلى نظام وإلى نمط حياة في كثير من الدول النامية لا سيما في لبنان حيث دمر الإدارات العامة، والمؤسسات الحكومية وأدى إلى انهيار مالي وإلى أزمات اقتصادية وإلى مشكلات اجتماعية، إضافة إلى ارتفاع المديونية العامة للدولة والتي تجاوزت التسعين مليار دولار أميركي .

ولتبيان مدى خطورة الفساد على المجتمعات، استُهل بيان الدورة 58 *للأمم المتحدة وضمن اتفاقية مكافحة الفساد بالعبارة الآتية «الدول الأطراف في هذه الاتفاقية تقلقها خطورة ما يطرحه الفساد من مشاكل ومخاطر على استقرار المجتمعات وأمنها ما يقوّض مؤسسات الديمقراطية وقيمها والقيم الأخلاقية فيها والعدالة، ويعرض التنمية المستدامة وسيادة القانون للخطر»⁽²⁾. إنّ ما تضمنه هذا البيان ينطبق على لبنان، فعلى نحو دائم ومنذ نشأته كدولة مستقلة يعاني لبنان من انتشار الفساد، وآثاره قد

(1) - بن حسين، ناجي : الفساد : أسبابه وآثاره واستراتيجيات مكافحته - استاذ مساعد ،جامعة منتوري، قسنطينة وعضو فرقة بحث حول الحد من الفساد

(2) - قرار إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد /الدورة 85 عام 2003 -البند 108 من جدول الأعمال

تضخمت منذ بداية التسعينيات أي بعدما وضع اتفاق الطائف موضع التنفيذ. فمنذ إقرار هذا الاتفاق والذي أنهيت بموجبه الحرب الأهلية غرق لبنان في أنواع الفساد كافة، وبات عقبة رئيسة أمام كل فرص الإصلاح والتنمية والاستثمار، وعلى الرغم من أنّ كلّ الحكومات المتعاقبة والأحزاب والشخصيات تضع مكافحة الفساد في سلم برامجها الانتخابية والسياسية والاجتماعية وتعلن بشكل دائم أنه من أولوياتها. وعلى الرغم من وجود قوانين تنص على المساءلة وعلى المحاسبة إلا أنّ العبرة تبقى في تطبيق تلك القوانين حيث تتقدم الحماية الطائفية والمحسوبيات السياسية والزبائنية الشخصية على القوانين وعلى النصوص وتتفوق أيضاً على مؤسسات وأجهزة الرقابة المعنية لا سيما القضاء حتى أصبح الفساد في لبنان السمة الغالبة لأداء السياسيين والموظفين والاقتصاديين والتجار فتحول الفساد من فساد طبقي إلى فساد مجتمعي. نشرت الجمعية العامة لتعزيز الشفافية «لا فساد» في كانون الأول 2014 دراسة أظهرت نتائجها تصنيف لبنان في المرتبة 136 من بين 175 بلداً وفي المرتبة 13 من بين 19 بلداً عربياً ضمن البلدان الأكثر فساداً، إذ ينغمس في الفساد رجال دولة من أرفع المناصب، فيطال كل المجالات الاقتصادية والسياسية والإدارية والتربوية والاجتماعية والمؤسسات العامة، وينخر هياكل هذه المؤسسات وأجهزتها كافة الأمر الذي أدى إلى انحلال بنية الدولة والمجتمع على حد سواء .

ويشير تقرير البنك الدولي عن التنمية لعام 2005 إلى مئات المليارات التي تتعرض للنهب والفساد في العالم العربي ككل أما في لبنان فيمكن رصد الآثار والتداعيات على كل الأنشطة ما ينتج تأثيراً مباشراً على المجتمع بفئاته كافة.

ويعدّ كارل ماركس أنّه لا يمكن فهم الدولة من دون دراسة أساسها الاقتصادي والاجتماعي فهي ليست بناءً مؤسستياً معزولاً عن الصراعات، أمّا هيغل فيرى أنّ الدولة هي أعلى تجلٍ أخلاقيّ في المجتمع وتتولى إدارة المصلحة العامة وتقدمها على المصالح الخاصة، ويرى غرامشي أنّ الدولة أداة للترشيد وللعقلنة الاقتصادية وتمثل أداة تثقيفية وتعليمية رئيسة في المجتمع. ويعطي هنتغتون أهمية كبرى للمؤسسات في إدارة المجتمعات إذ إنه يربط التنظيم المؤسستبي بنجاح الدول في إدارة مجتمعاتها، كما يشير إلى أنّ للمؤسسات السياسية أبعاداً أخلاقية فهي تحتاج أن تكون قوية لكبح الإفراط في الرغبات الشخصية والأنايية الضيقة ومن دونها لا يمتلك المجتمع الوسائل الكافية لتحديد وتحقيق مصالحه المشتركة وخلق المصالح العامة التي تتطابق مع

القيم والمبادئ الأساسية والمثالية ومع العدالة والمنفعة العامة⁽¹⁾.

في أسباب الفساد

أدى تكريس الطائفية في الدستور وفي القوانين اللبنانية منذ نشأة الكيان حتى وقتنا الراهن إلى نتائج ملتبسة وإلى تناقضات على مستوى المبادئ العامة، والقواعد التي تحكم اللبنانيين وذلك من خلال تمتين الوضعية الطائفية على صعيد التشريع والتطبيق⁽²⁾، الأمر الذي شكل تهميشاً جدياً لشخصية الدولة وصلحياتها المتعارف عليها في القانون وفي التعريفات الفلسفية .

فإذا كان النظام اللبناني برلماني يكرس مبدأ الفصل بين السلطات وتوازنها وتعاونها، إلا أن نجاحه يرتبط بالمحافظة على التوازن الطائفي في السلطة حيث شكلت الطائفية السياسية في لبنان وسيلة للإقطاع السياسي لضمان الحفاظ على مصالحه وامتيازاته، كما شكلت عائقاً كبيراً في العمل على قيام دولة القانون والمؤسسات. إن استمرار الطائفية السياسية في النظام يعود إلى العقلية السياسية التي كانت سائدة عند الحكام ولا تزال، وقد رأت في استمرار النظام الطائفي داعماً أساسياً لها لاستمرار هيمنتها على الدولة حمايةً لمصالحها بحجة تمثيلهم للطوائف والدفاع عنها، من هنا أصبحت الدولة محكومة من قبل مجموعة من الأقطاب الذين ينتمون إلى طوائف وممل مختلفة ينطقون باسم جماعات وليس باسم الوطن، ويُسخرون الوطن والمواطنين للعبة المصالح متواطئين مع أصحاب رؤوس المال ومع وسائل إعلام تخصهم ومع المراجع الدينية التي تغطيهم، ويغطونها محولين أي أمر معيشي أو مطلبّي أو سياسي إلى طائفي، مختبئين وراء مبدأ «التوافقية» أو «صيغة العيش المشترك» وخوف الوقوع في الفتنة، مبقين على الوطن والمواطن رهينة لمصالحهم الدائية حائلين بذلك دون قيام دولة حديثة في لبنان تنهض على أسس العدل والمساواة بين جميع المواطنين .

إن الطائفية في لبنان تشكل الغطاء المتين للفساد حيث حوّلت مؤسسات الحكم في الدولة إلى محميات مفصلة على قياس مصالح زعماء الطوائف، وقوضت مفاهيم الديمقراطية والمواطنة وما تحمّلان من قيم الحرية والعدالة والمساواة، وحوّلت وظيفة الدولة من ركيزة للعدالة والديمقراطية إلى مجرد هيكل فارغ يُغلفه الفساد ويحميه

(1) - صمويل هنتنغتون، النظام السياسي في مجتمعات متغيرة، ترجمة حسام نايل، دار التنوير، ط1، 2017 - ص53

(2) - العميد حبيب، كميل-د.اسماعيل، عصام : وقائع المؤتمر السنوي الاول-الدستور اللبناني بين النص والتطبيق

الإقطاع السياسي المتمثل بزعماء الطوائف وأزلامهم ومحبياتهم. وأدى ذلك إلى خلق بيئة ملائمة وظروفاً مثالية لانتشار الفساد من حيث تركيز السلطة بيد صناع القرار وانعدام الشفافية وضعف المساءلة وغياب الرقابة فانتشرت الرشاوى والابتزاز واعتمدت المحاصصة كمبدأ لتعيين كبار الموظفين في الدولة، واقتصر تزيم المشاريع الحكومية على مجموعة محددة من الممولين ورجال الأعمال لقاء خدمات متبادلة، وغابت الكفاءة وارتفع معدل الوساطة في كل المواقع والوظائف العامة .

ففي المجتمعات المتغيرة العناصر الكثيرة التعقيد كالمجتمع اللبناني يفترض وجود اجتماع مؤسساتي للحفاظ على الإجماع العام والمصلحة المشتركة (1) لتنظيم الخلافات التي تنتج عن هذا التعقيد وهو ما عملت كل القوى السياسية المتعاقبة على الحكم في لبنان على منع قيامه لإبقاء مصالحها فوق كل اعتبار وإبعاد أي احتمال للمحاسبة والمساءلة .

لقد بات واضحاً ومعلومًا أنّ التشكيلة السياسيّة اللبنانيّة التي تدير منظومة الفساد ذات هرميّة اجتماعيّة قوامها عصبية المجموعة الدينيّة وعصبيات المذاهب وكل منهما له حصته في المواقع وفي الفساد حسب حجم مشاركته السياسية، والأكثر أهميّة هو أنّ الغالبية مشاركة في هذه المحاصصة وفي الفساد بحيث لا تستطيع فئة اتهام فئة منافسة لها لأنّ الجميع يتساوى بصفة الفساد بصرف النظر عن حجمه.

إنّ السلوك السياسي في لبنان رسخ ويرسخ منطق السلطة المتحكمة بالنظام وشكل أدواتها وجعل من العرف نمطاً معتمداً ومعمولاً به . هذا الأمر ما كان ليستمر لولا قبوله من كل المكونات الطائفية والأحزاب المتحالفة مع البرجوازيات المحلية مما أنتج هيكل دولة مفصلة على مقاس أطراف السلطة الحاكمة بتنوعها الطائفي والطبقي التي أدارت البلاد منذ الاستقلال وأعدت تجديد نفسها مع إتفاق الطائف بوجوه جديدة، وهو الإتفاق الذي أعاد تكريس المحاصصة الطائفية والمذهبية كبنيان أساسي لمنظومة الفساد السياسي والإداري والمالي بكل أشكاله.

وإذا كانت الدولة ومؤسساتها التنفيذية والتشريعية تشكل شرطاً مسبقاً للتنمية ولتطور المجتمع فمن الواضح أنّ غياب هذه المؤسسات وتخليها عن دورها قد أرخى بتداعيات

(1) - صمويل هنتنغتون، النظام السياسي في مجتمعات متغيرة ، ترجمة حسام نايل، دار التنوير ، ط1، 2017 - ص 57

كبيرة وخطيرة على هذا المجتمع⁽¹⁾. من هنا فإننا عندما ننظر إلى تأثير الفساد على الناحية الاجتماعية لا يمكننا أن نغفل الآثار الاقتصادية التي لا بد وأن تتعكس سلبيًا على الواقع الاجتماعي لوجود ترابط وثيق بين الجانبين فضلاً عن تأثير الفساد أيضًا على القضاء ما يطال بشكل أو بآخر الشق الاجتماعي.

فبما أن المجتمع بمؤسّساته المختلفة هو مدرسة تكوينية لإنتاج الأفراد، فكلما كانت هذه المدرسة نزيهة وأخلاقية كلما أنتجت أفرادًا يتصفون بالأخلاق والمبادئ المثالية، أضف إلى أن مدى تقبل الأفراد للسلوك يتعلق أساسًا بدرجة انتشار هذا السلوك داخل الجماعة ولعل نظرية الامتثال الاجتماعي تعد تلخيصًا مثاليًا لهذه الظاهرة، فالإنسان يرضخ في الغالب لعادات وأخلاق عامة وقد يناقض مبادئه من أجل مسايرة عرف أو جماعة. وبناءً عليه أدى الفساد خلال حكومات الطائف إلى انهيار شديد في بنية الكيان وفي ركائز المجتمع اللبناني، وأثر ذلك على أساليب التعامل الحياتية ما ينذر بتهديد النسيج الاجتماعي لهذا المجتمع الذي تسوده المظالم وتخفي فيه شيئًا فشيئًا السلوكيات القويمة كتنقل الآخر والتضامن والتكامل الاجتماعيين، وتنتشر فيه سياسات التحريض والكراهية وبث الفرقة والكيدية والتقلت من القيم والأصول الاجتماعية. أضف إلى أن التفاوت الكبير بين مستويات الدخل ينجم عنه تفاوت طبقي صارخ أدى ويؤدي إلى اختلال التركيبة الاجتماعية المتوازنة، أمام هذه المشهدية التي رسمتها سياسات الحكومات المتعاقبة في عهود الطائف قد وضعت الدولة والمجتمع على فوهة التفكك والانحلال.

نجد بأن هناك قطيعة ما بين الدولة ومن يجسدها والمجتمع بكل مكوناته الثقافية والاجتماعية والدينية، وما نشاهده من انهيار لشرعية النّخب الحاكمة ولتفاهم فسادها والذي بدأ مع بدايات عهود الطائف عام 1991 وصولاً إلى العام 2021 حيث برز إلى العلن الانهيار المالي والاقتصادي والاجتماعي الشامل للدولة وللمجتمع معاً وانكشف زيف المؤسّسات المالية لا سيما القطاع المصرفي وعلى رأسه مصرف لبنان، ما أدى إلى انهيار العملة الوطنية أمام الدولار الأميركي بشكل لم يشهد له مثيل من قبل وانهارت معها القطاعات الاقتصادية بشكل دراماتيكي خاصة الصناعة والتجارة والخدمات، واحتجزت أموال المودعين وترافق ذلك مع أزمات اجتماعية لا سابق

(1) - سلام هيفا، قاسم دياب حسين، أبو رضا، حسين، التنمية المجتمعية في نظام سياسي لمجتمع متعدد (لبنان من إيرفد الى ماكنزي)، دار النهضة

لها فرص من العمل ما يزيد على 35 بالمئة من الموظفين في القطاع الخاص وارتفعت أسعار السلع الغذائية عشرة أضعاف فازدادت الطبقات الفقيرة فقرًا وزادت نسبة الأسر المحتاجة ما يعادل 60 بالمئة من الشعب اللبناني، وسادت الاحتكارات وتهريب المواد الغذائية المدعومة والأدوية والمحروقات إلى بعض الدول العربية والأوروبية، وأحبطت كل طروحات الإصلاح والمحاسبة من قبل الطبقة المتحكمة بمجمل مفاصل الدولة ومواقعها الإدارية والمرافق والمؤسسات العامة لا سيما السلطة القضائية، والقوى الأمنية، وحاكمية مصرف لبنان، والمصارف والوكالات الحصرية والمرافق البحرية و...

ففي أجدديات الحكم كل سلوك له قواعد وظروف مثالية يظهر ويتنامى فيها، والفساد تجذر وساد نتيجة الغياب التام للرقابة الذاتية المتمثلة في الضمير والمبادئ من جهة وغياب الرقابة العامة والمحاسبة المتمثلة في القوانين والضوابط من جهة ثانية والتي تعنى بالدولة بالسهر على تطبيقها . وهذا ما يظهر جلياً أنّ السلطات الفاسدة لا يمكن أن تضمن وجودها وتحافظ عليه إلا في مستنقع مجتمعات فاسدة . فالفساد مؤامرة منهجية ومكافحته تحتاج إلى دور الضمير والأخلاق كرادع فردي وإلى قوانين شفافة وحازمة وقضاء قوي ومستقل كرادع قانوني وإرادة سياسية مسؤولة ومؤسسات فاعلة وشعب يحاسب بعيداً من التعصب الطائفي والسياسي وهذا غير متوفر في الواقع اللبناني العام .

أنواع الفساد

الفساد ظاهرة اجتماعية مذمومة في المجتمع وممنوعة في القوانين والأنظمة الوضعية خاصةً الحديثة منها ، والتي يُعاقب فيها المفسدون، والفساد من سمات الدول المتخلفة وفقاً لاتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد /الدورة 85 عام 2003 - البند 108 من جدول الأعمال الدول المتخلفة ثقافياً وسياسياً واجتماعياً ، وهو يؤدي إلى مشكلات اقتصادية واجتماعية كما يؤدي إلى فوضى في النظام السياسي وإلى تهشيم في المؤسسات والإدارات العامة ، وإلى أزمات سياسية، وإلى نشوب الصراعات، ما يؤدي إلى تهديد لبنان الدولة بأكملها. والفساد يتمظهر بعدة أنواع نورد في هذا البحث بعضاً منها، علنا نفهم ظاهرة الفساد التي سادت في لبنان ما بعد الطائف ومدى انعكاسها على نصوصه الإصلاحية التي لم تبصر النور بفعل الأداء السياسي لأهل الحكم الذين تجذروا بالفساد وشرعوه طائفيًا وسياسيًا وإداريًا، والذين صادروا

دور القضاء وأجهزة الرقابة من أن تمارس صلاحياتها في مكافحة الفساد ومحاكمة المفسدين .

أ- الفساد السياسي:

إنّ التّدخل السياسيّ المنافيّ للدستور في أعمال الإدارة العامة، التي يستغلها السياسيّ لخدمة مصالحه الشخصيّة ومصالح أفرقائه وحاشيته يتعارض مع مفهوم الدولة الحديثة، ويضرب منطقتها في سيادة القوانين والأنظمة، واحترامها وهذا ما ساد دولة الطائف في لبنان، إضافةً إلى عدم تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص في التوظيف ما بين المواطنين الذي ضربت به سلطات الطائف عرض الحائط، حيث أتخمت مؤسسات الدولة بأزلام النافذين في السّلطة من دون احتساب الكفاءة والنزاهة، فكرست حكومات الطائف المحاصصة السياسيّة والطائفية في الوظائف العامة من دون مراعاة لأية معايير وشروط الوظيفة العامة، وهي قد تجاوزت بسياساتها قانون التوظيف الذي ينصّ على تعيين الموظفين عن طريق المباراة عبر مجلس الخدمة المدنيّة كمؤسسة وطنية أنشئت لرفد مؤسسات الدولة بالكادر الإداري الكفوء. إن «السّلطة المنبثقة من نظام الطائف تشكلت في غالبيتها من موروثات الميليشيات التي سيطرت على البلاد في حقبة الثمانينات، والتي خاضت الحرب الأهلية حيث قدمت التوازن الطائفي والمذهبيّ على الكفاية العلميّة في الوظيفة العامة ما تسبّب في خرق للدستور من جهة، ومن تكديس الموظفين غير الأكفاء مكان الموظفين الأكفاء» من جهة ثانية. وأمام هذا الواقع «ساد شعور عارم بين عامة الشعب اللبناني أنّ الانتماء الطائفيّ والسياسيّ هما الشرطان الأساسيان لدخول الوظيفة العامة، ما يعني أنّ ولاء الموظفين إلى طائفهم وإلى أحزابهم وإلى زعمائهم الطائفيين سيبقى متقدماً على ولائهم الوطنيّ والمؤسّساتي». وبات موضوع التّوظيف من الحاجب حتى المدير العام يعني كل وزير وكل نائب وكل مسؤول فسادت الفوضى في الدولة من جهة، ما زاد التّطيف في المجتمع من جهة ثانية، وهو الواقع الذي أفرزه إتفاق الطائف في عهد ما سمي بالجمهورية الثانية.

- المحاصصة الطائفية في الوظائف الإدارية: تعدّ المحاصصة الطائفية في الإدارات العامة مبدأ اعتمدهت حكومات الطائف، ما أتخمت المؤسسات الرسميّة، بجيوش من الموظفين الذين حشاهم السياسيون في دوائر الدولة وإداراتها، وهو دليل على أنّ حكومات الطائف قد أجهضت إمكانية تطبيق النصوص الإصلاحية للإدارة العامة

التي أوصى بها اتفاق الطائف. إنَّ كلَّ حضور طائفيّ يستند إلى مكونات ومقومات عدة ديمغرافية وسياسية واقتصادية وجغرافية، ولا يُمكن تغييب الثقل الديمغرافيّ عن التأثير السياسيّ، كما لا يُمكن إغفال تأثير التنوع الدينيّ والاجتماعيّ على السياسة، وهذه عوامل مؤثرة ومساعدة، لكن يجب ألا تكون محددة، إذ إنَّ تحديد حقوق الطوائف وأدوارها يجب أن يتمّ في إطار التزام الدستور وأحكامه ومبادئه بالإضافة إلى الهوية والمصالح الوطنية⁽¹⁾، فالمحاخصة الطائفية والسياسية في وظائف الدولة التي طبعت عهد الطائف تُعطي الأولوية للمصالح الطائفية والسياسية على المصلحة الوطنية، وبالتالي فإنَّ مفهوم دولة المؤسسات في لبنان ليس له أيّ قيمة واقعية عند من نصّبوا أنفسهم أمناء على تطبيق الطائف.

من مظاهر المحاخصة الطائفية في الوظائف العامة: إنَّ منطق المحاخصة الطائفية التي أرسى دعائمها أركان السلطة في دولة الطائف برزت بشكل نافر وطنياً وأخلاقياً وإدارياً وظهرت معها أولوية الاعتبار الطائفيّ على المصلحة الوطنية والعامة، وهذا ما أنتج الصراعات على الوظائف ما بين أهل سلطة الطائف المفترض بأنهم مؤتمنون على تطبيق بنوده الإصلاحية. وإذ بهم يعيشون في الدولة وفي المجتمع أبشع صور الفساد والشّواهد على ذلك عديدة ومتنوعة، فعلى إثر شغور منصب مدير بورصة بيروت، «اقترح الرئيس رفيق الحريري أسماً سنياً، إلا أنَّ الرئيس الهراوي، اقترح تعيين ماروني على أساس أنّ هذا المركز هو من حصة «الموارنة» حسب الجدول الموضوع والذي اعتمد في التّعيينات السابقة للفئة الأولى»⁽²⁾، وفي عهد حكومة الحريري بلغ عدد الوظائف الخالية في الفئة الأولى عشرون وظيفة، فاقترح أن توزّع على سبع طوائف. وأدى الخلاف في المحاخصة الطائفية والسياسية إلى إيقاف التّعيينات ومن ثمّ تعطيل مصالح المواطنين، لأنَّ المصالح الطائفية والسياسية لأركان الحكم في الدولة تتقدم على أيّ مصلحة مهما علا شأنها. وأعلن «الرئيس نبيه بري مراراً أنّه يرفض تعيين أيّ موظف رسمي من الطائفة الشيعية إلا بإذنه حتى ولو كان حاجباً على باب إحدى الإدارات»⁽³⁾ ما يعني أن مفهوم الدولة ومفهوم المجتمع المدني في حكومات ما بعد الطائف لا يروق لرؤساء المؤسسات الدستورية، إذ إنهم

(1) - أنظر: علي فياض - السفير بتاريخ 4/10/2007.

(2) - أنظر: جريدة السياسة الكويتية- العنوان السابق نفسه- تاريخ 27/3/1995.

(3) - جريدة السياسة الكويتية - العنوان السابق نفسه - تاريخ 27/3/1995.

قد مارسوا صلاحياتهم في السّلطة وفقاً لمنطق المحاصصة الطائفية والسياسية وحتى الشخصية، فكانت بداية التأسيس لمفهوم سلطة المنافع لا دولة القانون والمؤسسات التي حرص اتفاق الطائف على تأسيسها .

إنّ المحاصصة الطائفية في نظام الطائف أدت إلى تكريس نوعية الوظائف للطوائف من دون المسّ بها، حتى أنّ مبدأ التدوير والمداورة في الوظائف هو خط أحمر لا يُمكن تجاوزه طائفيًا، ومنها، حصرية قيادة الجيش للموارنة، ومدير عام الأمن العام للشيعية، ومدير عام قوى الأمن الداخلي للسنة، ورئيس أركان الجيش للدروز...! ولم تنحصر المحاصصة الطائفية في وظائف الفئة الأولى فحسب، بل تعدّتها إلى مختلف الفئات الوظيفية الدنيا، فالتطوع في الجيش وفي قوى الأمن الداخلي وفي جهاز الأمن العام وصولاً إلى الوظائف في الإدارات المدنية والمؤسسات العامة كلها باتت خاضعة للمحاصصة الطائفية في دولة الطائف. ما يعني أن السّلطة السياسية ما بعد الطائف قد أغلقت كلياً على أية محاولة لبناء دولة عصرية مدنية، بل على أية محاولة إصلاحية في بنية النظام الطائفي.

- فساد أهل الحكم في دولة الطائف والاتهامات المتبادلة: إنّ مستوى الفساد المالي الذي بلغه أهل الحكم في عهد الطائف بلغت حدًا خطيرًا لجهة ترسيخ شرعية الفساد من خلال التوافق عليها في ما بينهم فتفتشت هذه الظاهرة في المجتمع وفي إدارات الدولة ومؤسساتها وهو ما كشف عنه تقرير للأمم المتحدة نشر في شباط من العام 2001 جاء فيه «إنّ الفساد الإداري في لبنان يتسبّب بهدر أكثر من مليار دولار سنويًا، والظاهرة ملتصقة بالطبقة السياسية سواء في السّلطة أم خارجها، وهي تستنزف موارد الحكومة المالية وتحبط الكفاءات الجديدة، وتوسّع الهوة بين الفقراء والأغنياء.. وتحفّز على مزيد من الهجرة، ويضيف التقرير، إنّ الفساد الكبير الذي يُمارسه المسؤولون الكبار في الدولة ورجال السياسة على المستوى الوطني، وبالتواطؤ مع أفراد وشركات أو مؤسسات وطنية أو متعددة الجنسيات»⁽¹⁾. إنّ هذا السلوك الذي أنتهجه السياسيون قد دمّر الاقتصاد الوطني وحوّل الدولة إلى مزرعة لنقاسم الغنائم، وتشريع الفساد وحماية المفسدين وعدم محاسبتهم، وقد استهلّ العام 1995 بملفات قضائية وسياسية ضخمة بعنوان الفساد السياسي والإداري وسط أزمات وعواصف سياسية كادت تطيح بالحكام، وربما ب«اتفاق الطائف» أو تؤدي إلى تعديله. »

(1) - أنظر مجلة الأسبوع جريمة الهدر في لبنان - مليار دولار في الفساد الإداري تاريخ 5 آذار 2001.

فَتكشفت معالم نوعيّة الطبقة السّياسيّة الحاكمة المُعنة في الفساد وعدم قدرتها على تغطيته نظرًا لحجمه وأنغماس غالبيّة الطبقة السّياسيّة فيه ما دفع رئيس الجمهورية إلياس الهراوي (الرئيس الأول في عهد الطّائف بعد رينيه معوض الذي اغتيل بعد شهر من انتخابه) إلى الاعتراف فيه وصولاً إلى إعلانه لأسماء شخصيات سياسية بارزة متورّطة بالفساد، ومنها ما شغل مناصب عليا في الدّولة. فاتهم حسين الحسيني (رئيس المجلس النيابي الأول الذي أتى به اتفاق الطّائف والمنظر الأساسي للطائف وللتطبيقه) بتسجيل قطعة أرض اشتراها في بعلبك بثمانية ملايين دولار أميركي، بغير سعرها الحقيقي، فخسرت الخزينة مردودًا ماليًا كبيرًا من عملية التّسجيل لا تقل عن نصف مليون دولار، كما اتهم الهراوي رئيس الحكومة الأسبق عمر كرامي (أول رئيس حكومة في عهد الطّائف) أنّه سجّل شقة اشتراها في الرملة البيضاء في بيروت بـ 700 ألف دولار أميركي وسجلها بستة آلاف دولار كي يتهرّب من دفع الضرائب، كما اتهم الهراوي نائب رئيس مجلس النواب إيلي الفرزلي والنواب إلياس سكاف وخليل الهراوي ونايلة معوّض بتعاونهم لتمرير قانون إعفاء الإرث من الضرائب. بالمقابل وجّهت اتهامات إلى رئيس الجمهورية إلياس الهراوي بالفساد المالي، وصلت إلى حد تحدي عمر كرامي له عقد مناظرة تلفزيونيّة لبيّن للناس من أين له هذا؟ في إشارة إلى القصر الذي يُشيّدُه رئيس الجمهورية في منطقة الحازميّة...

إن سبحة الاعترافات بالفساد طالعت معظم القوى والشخصيات السّياسيّة الضالعة فيه ما أدّى إلى انفجار الوضع السّياسيّ في لبنان بعد حديث الوزير وليد جنبلاط في 24 أغسطس من العام 1994 وإعلانه عن شراء أرض في إقليم الخروب لبناء مساكن لائقة للفلسطينيين الباقين في لبنان، وقد هدد الوزير جنبلاط بالاستقالة من الحكومة إذا لم يوافق مجلس الوزراء على مشروع القرية (إقليم الخروب في منطقة الشوف)، الأمر الذي أثار موجة من التساؤلات حول أسباب ضغط الوزير جنبلاط لإتمام المشروع، خصوصًا، أنّه أكد أنّ هذا الأمر هو شأنه وشأن رئيسي الجمهورية والحكومة فقط، «وتبيّن لاحقًا أنّ خلفيات مشروع جنبلاط يحمل في طياته بُعدين من الفساد، الأول فساد سياسيّ يعود إلى نيّة جنبلاط إسكان الفلسطينيين في هذه المنطقة بهدف تجنيسهم وهم من الطّائفة السنيّة الأمر الذي يكفل له نجاحًا دائمًا في الانتخابات النيابيّة بعد تأمين تحالف له مع هؤلاء عبر الرئيس رفيق الحريري لإضعاف التأثير المسيحيّ في منطقة الشّوف من جهة، ولمنع عودة المهجرين

من المسيحيين إلى المنطقة من جهة ثانية. أما البعد الثاني هو فساد ماليّ، فكان جنبلاط يهدف إلى صفقة تجارية من خلال شراء أراضٍ في منطقة القريعة»⁽¹⁾. إنَّ ارتفاع منسوب الفساد الماليّ الذي بلغه عهد ما بعد الطائف أدى إلى نشوب الأزمات الاقتصادية والاجتماعية مع «أن نظام الطائف أعاد توحيد السوق اللبنانيّة إلا أنّ تقاليد العلاقة القائمة على فرض الخوة والابتزاز السياسيّ لا تزال تُمارس إلى حدّ بعيد في ما يتعلق بصرف المال العام في المشاريع الاقتصادية والإنمائية وسائر مشاريع الخدمات العامة»⁽²⁾ لقد اعتاد المواطن اللبنانيّ في عهد نظام الطائف سماع كلام عن نسبة السرقة والهدر في هذا المشروع أو ذلك. ترصد الملايين لمشاريع إنمائية وخدماتية، فلا يُنفق من الأموال المعتمدة سوى الجزء اليسير في المشاريع، فيما يتوزّع القسم الأكبر منها سمسرة ورشوة تطاول شريحة واسعة من المتنفذين في الحكم وعلى مستويات مختلفة، وتحسب هذه المحاصصة شرطاً لإقرار المشروع وتأمين اعتماداته وفق الشّروط القانونيّة المطلوبة، فالفساد داخل الطبقة السياسيّة التي استأثرت بالحكم بعد الطائف هو من هدر المال العام الذي أوقع لبنان بالمدىونية التي وصل رقمها إلى التسعين مليار دولار أميركي من دون حسيب ولا رقيب. ولعل من أكثر التدايعات الاجتماعية أهميّة تلك التي نتجت عن الفساد السياسيّ وهي تتلخص بالآتي :

1 - انهيار القيم والمبادئ الاجتماعية من أجل الحصول على منافع مادية من دون وجه حقّ، وأصبحت الرّشى والاحتيايل مهارة وتراجعت الصفات الإيجابية لصالح مفردات الفساد .

2 - انهيار أخلاقيات الوظيفة العامة إذ إن التّوظيف القائم على المحسوبيات والمحاصصة لا يأخذ بالحسبان الكفاءة ولا التّراتبية، ولا الأحقيّة في الترقّيات ما يؤدي إلى إضعاف هيبة الدّولة وأجهزتها أمام المجتمع وثقة الناس بها أمام وجود موظفين لا يتمتعون بالكفاءة وغير مؤهلين لتولي مناصب مهمة، ما يضرب مفاصل مهمة في الجهاز الحكوميّ، ومنها المناصب الإدارية العليا كما أنّ المحسوبية ومحاباة الأقارب والمناصرين والتابعين يقلل من فرص العدالة والمساواة إلى رحيل الكفاءات والمؤهلات العلميّة من الاحتضان المحليّ إلى رحاب العالمية بحثاً عن فرص عمل بديلة .

(1) - أنظر: جريدة السياسة الكويتية-في أصل الفساد السياسي والمالي والإقتصادي - تاريخ 27/3/1995.

(2) - أنظر: خالد غزال - جريدة النهار تاريخ 2/11/1996.

3 - ارتفاع معدلات البطالة وتدني المستوى المعيشي بعد أن لجأ أصحاب الأموال الناتجة عن الفساد إلى تهريب أموالهم للخارج ما أدى إلى تعطيل الاستثمارات التي توفر فرص عمل للمواطنين، كما أن الاختلالات في توزيع الدخل أدى إلى فوارق طبقية وإلى خلق نوع من التوتر الاجتماعي جراء تدني القدرة الشرائية للعملة الوطنية أمام الدولار الأميركي.

4 - صعود فئات اجتماعية جديدة إلى قمة الهرم الاجتماعي والاقتصادي نتيجة ما حصلت عليه من مداخيل مالية بطرق غير مشروعة بسبب العلاقات الوطيدة التي بنتها مع كبار المسؤولين.

5 - تقشي نزعات الحقد الاجتماعي في النفوس والزبنة والشك بين الطرف الفاسد والطرف الصالح نتيجة الاختلاف القيمي بين القيم والأعراف الأصيلة والترويج لصالح الفساد ومحاولة تجميله من قبل أصحاب المصالح الشخصية .

6 - تفتيت شبكة التضامن الاجتماعي، وقد أدى الفساد إلى تخريب العلاقات الاجتماعية عبر تغليب روح الأنا وذوبان مصالح الجماعة واندثارها من خلال التأكيد على حماية المصالح الشخصية .

7 - توليد القيم الانتهازية والنفعية حيث ظهر جلياً مما تقدم أن للفساد دوراً تخريبياً كبيراً في النسيج الاجتماعي والقيمي وفي تخريب العلاقات الاجتماعية والتماسك الاجتماعي، وأصاب الفساد صميم شبكة التضامن الاجتماعي والأخلاقيات العامة، من هنا خطورة تقشيره لأن آثاره مدمرة على كل الصعد حيث أدى ويؤدي إلى الانهيار العام والشامل على المستويات كافة.

ب - الفساد الإداري

تحتاج السلطة إلى الإدارة من أجل نفاذ سياستها. وتمثل الإدارة القناة اللازمة لإنفاق المال العام ووضع المشاريع التي تقرها الدولة موضع التنفيذ. وقد شكّل إلقاء القبض على الإدارة عاملاً مهماً في استئراء الفساد المالي والإداري، حيث جرى إفراغ مؤسسات الرقابة المتمثلة بمجلس الخدمة المدنية وديوان المحاسبة والنقش المركزي والقضاء من سلطاتها بما جعلها عديمة الجدوى تقريباً. وهذه المؤسسات لم تمنع سابقاً، وبالمنطلق حصول فساد في الإدارة، لكنها شكّلت كابحاً نسبياً حال دون استفحاله. «فبموازاة تعطيل أجهزة الرقابة من قبل عهد وحكومات ما بعد الطائف، أدت إلى سياسة تعيينات مذهبية أتت بممثلي الميليشيات إلى الإدارة ونصبتهم على

رأسها. لم تكن الإدارة اللبنانيّة يوماً بعيدة عن صراع الحصص الطائفية. لكنّ هذا الصّراع كان يدور غالباً تحت سقف الكفاية الإداريّة والمهنيّة والمسلكيّة، في ما كرّس نظام الطّائف طاقماً إدارياً يفتقد في غالبيّته إلى هذه المقومات، وتقوم ممارساته على تنفيذ سياسة الزعيم الذي أتى به ويحمي له موقعه⁽¹⁾.

- **الإدارة والهدر الماليّ:** إنّ الفساد الماليّ في الإدارات العامة في لبنان بات مادة دسمة تنشره الصّحف العالميّة وتتضمنه تقارير الأمم المتحدّة ففي تقريرها حول (مكافحة الجريمة) الذي نشرت خلاصته في شهر شباط 2001، يؤكّد «أنّ الفساد الإداريّ في لبنان يتسبّب بهدر أكثر من مليار دولار سنوياً، وهذه الظاهرة تستنزف موارد الحكومة الماليّة وتُحبط الكفاءات وتوسّع الهوة بين الفقراء والأغنياء.. وتحفّز على مزيد من الهجرة»⁽²⁾ وعن بعض الملفات الإداريّة لهذا الفساد يورد التقرير أمثلة ونماذج تنطبق على الحقبة الواقعة بين 1998 و2000 أبرزها «صندوق الضمان الاجتماعيّ، ملف الهائف الخليويّ، الانتخابات النيابيّة، الإشغال غير القانوني للأماك البحريّة، فواتير المستشفيات الخاصّة»⁽³⁾. إضافةً إلى قضايا التزوير والاختلاس، ويورد التقرير أسماء من كبار الموظفين المتورطين في ملف الفساد الإداريّ والماليّ: «قضية كميل الأسمر مدير عام الآثار، قضية مهيب عيتاني مدير عام المرفأ سابقاً، قضية عبد المنعم يوسف المدير العام السابق في وزارة الاتصالات، قضية يوسف النقيب رئيس هيئة «أوجيرو» سابقاً، قضية محمد سهيل يموت محافظ جبل لبنان السابق، قضية أغوب دمرجيان وزير الشؤون البلديّة سابقاً. قضية نقولا سابا محافظ بيروت السابق.. كلّها قضايا أسهمت في مزيد من انعدام الثقة بالإدارة بعد إحالتها إلى القضاء»⁽⁴⁾. إنّ ظواهر الفساد في مؤسسات الدّولة هي أكثر من أن تُحصى، فالفساد ينخر مفاصل الإدارات العامة بمجملها من «إدارة المناقصات وقطاع التربيّة وقطاع الصّحة والخدمات، وتعبيد الطرقات وقطاع النفط... ونورد بعضاً من الأرقام الماليّة المهدورة جراء الفساد الإداريّ القائم في إدارات الدّولة، فالدولة اللبنانيّة تدفع سنوياً 150 مليون دولار أميركي للمستشفيات الخاصّة؟!.. وهذا المبلغ كافٍ لبناء

(1) - أنظر: خالد غزال - النهار تاريخ 2/11/1996.

(2) - مجلة الأسبوع - العنوان السابق نفسه- تاريخ 5/3/2001.

(3) - مجلة الأسبوع - العنوان السابق نفسه- تاريخ 5/3/2001.

(4) - مجلة الأسبوع - العنوان السابق نفسه- تاريخ 5/3/2001.

مستشفى حكوميّ بكامل تجهيزاته سنويًا، وهدر 180 مليون دولار نتيجة عدم تحصيل فواتير الكهرباء، و30 مليون دولار نتيجة الإعفاء لشخصيات ومؤسّسات من فواتير الهاتف الثابت، و200 مليون دولار من عدم جباية الرّسوم المتعلقة بالأملاك البحرية، وهدر 600 مليون دولار نتيجة الخلل في اتفاقات الهاتف الخليوي، وحوالي 500 مليون دولار نتيجة التهريب في مرفأ بيروت وسوء إدارة الجمارك، وعشرات الملايين نتيجة إعفاء شركة سوليدير من الضرائب؟! هذا بالإضافة إلى التعويضات التي تُدفع لعشرات النّواب السابقين المتوقّفين، وعشرات ملايين الدولارات التي تُنفق كتعويضات للمؤسّسات والوزراء والنواب وغيرها. وكلها تعود إلى سوء الإدارة في ترشيد الإنفاق»⁽¹⁾. أمام هذا الواقع من الفساد هل يمكن الحديث عن بناء دولة عصرية ، ومن هي الطبقة السياسيّة التي يُراهن عليها في تحقيق هذا الهدف، ما تقدّم لنا بأن القوى السياسيّة التي أنغمست في الفساد لا تريد دولة مؤسّسات ولا تريد إصلاحات في النّظام السياسيّ كما نص الطّائف إنّما تريد البقاء على الوضع السائد وعلى النّظام القائم، لأنه يؤمن لها مصالحها ، وهي تتحد على الرّغم من تناقضاتها بوجه أي طرح أو أي أفكار أو صيغ يمكن أن تغير الوضع القائم ؟ .

- الإدارة والفساد: إنّ الفساد الماليّ لا ينحصر بالطبقة السياسيّة المستأثرة بالحكم بل يتعداه إلى الموظفين من مختلف الفئات الوظيفيّة حيث تسود عمليات الرّشوة معظم إدارات الدولة وهو يعود إلى «المستويات المتدنيّة من الكفاية في جميع مستويات الإدارة العامة، ذلك لأنّ القيميين على الإدارة ينتظرون الرّشاوى وغير ذلك من المنافع الشّخصيّة، في ظلّ اتباع السياسات العامة الخاطئة، لأنّ الرّشوة تبعد السياسة العامة من المصالح العامة وتحولها لخدمة من يقدّمون الرّشوة»⁽²⁾. إنّ واقع الإدارة الفاسدة في مؤسّسات الدّولة يثبت أنّ اتفاق الطّائف وما جاء في نصوصه من إصلاح للإدارة بقي حبرًا على ورق، ولم يترجم في الواقع، والسبب في ذلك يعود إلى «النظام السياسيّ في لبنان المبني أساسًا على التوزيع الطّائفيّ والذي كرّسه الطّائف. فالتوظيف يحصل على أساس المناصفة بين المسلمين والمسيحيين، ثم على التوزيع بين طوائف كلّ من الفريقين بما يتناسب مع عدد أبناء كلّ طائفة، على حدا، ومن

(1) - أنظر: تقرير الأمم المتحدة حول جريمة الهدر في لبنان في الفساد الإداري، جريدة الأسبوع- تاريخ 5/3/2001.

(2) - بول سالم - الانتخابات النيابية 1996 وأزمة الديمقراطية في لبنان - المركز اللبناني للدراسات - بيروت الطبعة الأولى 1998 - ص 518.

مصائب التوظيف الطائفيّ أنّه يؤدي إلى التدخل السياسيّ من قبل زعماء كلّ طائفة لتكريس مبدأ المحاصصة الذي يؤول إلى التوظيف على مبدأ الخضوع إلى هذا الرّعيم السياسيّ أو ذاك وليس على مبدأ الكفاءة العلميّة والميّزات الفرديّة... الطائفيّة تؤدي إلى المحسوبيّة، إلى التحيّز، إلى المحاباة، وإلى الرّشوة، وإلى تغليب المصالح الخاصة، سوء استغلال النصوص، فساد القضاء والغش»⁽¹⁾. وإذا سلّمنا جدلاً بأنّ النّظام الطائفيّ هو قدر للبنان وقد كرّسه اتفاق الطّائف بنصوص دستوريّة على الرّغم من اعترافه بعقم هذا النظام ولتخفيف انعكاساته السلبية، وضع الطّائف بنوداً إصلاحيّة للنظام وللمؤسّسات وللمجتمع، ومنها إصلاح الإدارة العامة. إلا أنّ تجربة حكومات الطّائف قد بيّنت بأنّ المرض الخبيث المستشري في الجسد لا تخفف منه المسكّنات المؤقتة، بل تزيده مع الوقت تداعياً، وبالتالي تقوده إلى الموت السريري إذا ما بقي على قيد الحياة، وهو حال النظام السياسيّ اللبنانيّ مع طبيب الطّائف الذي أخطأ في وصفة المعالجة السياسيّة لمشكلة لبنان الذي لم تنفع معه المسكّنات، فهو بحاجة لعملية استئصال لمرضه المستعصي أي النّظام الطائفيّ.

ج - الفساد الماليّ

إنّ ملف الفساد متعدّد الأشكال والألوان، وبالتالي لن نستطيع دراسته بالشكل الوافي في هذا البحث لأنّه يحتاج بحدّ ذاته إلى أطروحة دكتوراه أو أكثر، سأكتفي بتناول بعض مؤشرات الفساد الماليّ لدعم بحثنا.

-**اختلاس الهبات الماليّة:** تدفقت إلى حكومات ما بعد الطّائف أموال طائلة من دول خارجيّة ومؤسّسات دوليّة، معظمها قد هدر في غير المجالات المحددة لها وبعضها قد اختلس بطرق قانونيّة إلا أنّها غير شرعيّة. وفي هذا الإطار سأتناول بعضاً من هذه الهبات التي صُرفت أو هُدرت.

ذكرت جريدة أندبندنت العام 1999 «أنّ الاحتيال وصل إلى ذروته في عهد حكومة ما بعد الحرب الأهليّة، وانتشر بصورة واسعة ما دفع بالعماد إميل لحود، القائد السّابق للجيش اللبنانيّ ورئيس الجمهوريّة لإعلان الحرب على ظاهرة الفساد»⁽²⁾. إبان انتخابه رئيساً للجمهوريّة، ومن مظاهر الفساد الماليّ الهبات الخارجيّة «التي جرى

(1) - راشيل بحصلي - الفساد أزمة مزمّنة عبر تاريخ لبنان منذ العثمانيين - أنظر: جريدة الأنوار الصادرة بتاريخ 10/3/2006.

(2) - روبرت فيسك - ويل لأمة يشلها الفساد - صحيفة الشرق الأوسط - تاريخ 25/2/1999.

قبولها في مجلس الوزراء والتي بلغت قيمتها 130,373,198,550 ليرة لبنانية. إن تكتل الإصلاح والتغيير الذي يتزعمه العماد ميشال عون يتساءل في الكتاب الذي أصدره تحت عنوان الإبراء المستحيل عن مصير هذه الهبات التي لم يقيد منها في حساب الخزينة سوى مبلغ 15,075,000 لبنانية⁽¹⁾. وقد أشار إلى المخالفات القانونية في تقييد الهبات في خزينة الدولة. وإلى المخالفات القانونية في آليات صرفها، حيث أشار تقرير ديوان المحاسبة لعام 2005 «بأن الهبات التي تتولاها مباشرة الوزارات والإدارات المستفيدة من الهبات، لا تظهر حساباتها في حسابات مجلس الإنماء والإعمار ولا في قيود محتسب المالية المركزي، إذ تفتح لها وفقاً لقوانينها الخاصة حسابات خاصة في مصرف لبنان خارج حساب الخزينة، وأكد الديوان ضرورة إخضاع الهبات المشار إليها لرقابة ديوان المحاسبة وضرورة استصدار النصوص التنظيمية اللازمة لتحديد آلية إرسال حساباتها والمستندات والمعلومات المتعلقة بها إلى ديوان المحاسبة تمكيناً له من إجراء الرقابة التي أنشطتها به قوانين الموازنات المتعاقب⁽²⁾

- **الفساد المالي في وزارات ومؤسسات الدولة:** قلّ ما تجد وزارة أو مؤسسة عامة لم يظلمها الاختلاس، من وزارة المالية إلى وزارة الإعلام إلى وزارة المهجرين إلى وزارة الإسكان إلى مؤسسة أوجيرو ومجلس النواب والهيئة العامة للإغاثة، والميكانيك والمرافأ...

إن حجم الفساد المالي الذي شهدته وزارات الدولة والمؤسسات العامة قد أخرج الرؤساء والوزراء، وظهرت إلى الإعلام الاتهامات المتبادلة ما بين أركان الحكم ووزرائهم «ما دفع بالرؤساء الثلاثة إلياس الهراوي ونبيه بري ورفيق الحريري إلى الاعتراف العلني بوجود الفساد المالي في مؤسسات الدولة، وطلبوا من القضاء اللبناني والأجهزة المختصة بملاحقة عمليات الاختلاس والهدر التي تعرضت لها بعض الوزارات والإدارات العامة، بدءاً من عملية الاختلاس الموضوفة التي طالت وزارة المال ومنها بيع الطوابع الأميرية من قبل أمين الصندوق الذي فرّ ويلاحق بتهمة الاختلاس⁽³⁾» إن المفارقة تكمن في اعتراف أهل الحكم بالفساد ودعوة القضاء إلى

(1) - أنظر: الإبراء المستحيل- تكتل التغيير والإصلاح- الطبعة الأولى 2013 ص 125.

(2) - أنظر: الإبراء المستحيل- تكتل التغيير والإصلاح- المرجع السابق نفسه- ص 126.

(3) - أنظر: جريدة الحياة - الاختلاس في وزارة المال يفتح ملف الفساد الإداري - تاريخ 11/11/1996.

محاكمة الفاسدين، وهم من صنع الفساد ورعاه وهم من مارسه بكل أشكاله وأنواعه، وهم من قيد سلطة القضاء في محاسبة المفسدين، ومن تقاسم المغام والمشاريع والإدارات والوظائف، ومن أتى بالمفسدين إلى إدارات الدولة... فكيف لمن بنى الفساد أن يطالب بمحاكمة الفاسدين؟ لقد أثبتت وثيقة الطائف أنها بعيدة من واقع المجتمع اللبناني وهي غير جدية في بناء دولة عصرية تحكمها القوانين والأنظمة، وبرهن أهل الطائف عجزهم وفشلهم في قيادة الدولة والمجتمع معاً.

لقد قسم أهل الطائف الدولة بكل مؤسساتها وإداراتها إلى ما يشبه الأقاليم الطائفية المستقلة عن الدولة المركزية، فمجلس الإنماء والإعمار ألحق بوصاية رئيس الحكومة السني، ومجلس الجنوب ألحق بوصاية رئيس مجلس النواب الشيعي، والصندوق المركزي للمهجرين والذي تحوّل إلى وزارة المهجرين اتبع بوصايته إلى الزعيم الدرزي وليد جنبلاط، «والمعروف أنّ هذه المجالس لا تخضع للرقابة المسبقة من ديوان المحاسبة وهيئة التفتيش المركزي، وإتّما لرقابة لاحقة الأمر الذي أدى إلى كلام عن هدر وسرقات وسمسرات كادت أن تودي بالجمهورية الثانية نتيجة لخلاف أهل الحكم»⁽¹⁾. أمام هكذا دولة وسلطة وحكام عن أيّ إصلاح سياسي واجتماعي واقتصادي وإداري يمكن أن نتحدث؟، وأي طائف يمكن أن تطبق نصوصه؟ إنّ أيّ كلام عن التغيير أو الإصلاح في النظام السياسي أو في السلطة السياسية أو في إدارات الدولة أو في محاربة الفساد ومحاكمة المفسدين يجب أن تبدأ من تغيير الطاقم السياسي الذي استحوذ على السلطة ما بعد الطائف .

إنّ الفساد في لبنان بات ثقافة تطبّع فيها المجتمع وأضحى قيمة منشودة يسعى إليها السياسي والتاجر والموظف... وأصبح مصطلح المافيات حاضراً في وجدان عامة الشعب الذي فقد ثقته بهذه الدولة وبهذا النظام وبهذه السلطة، وبات اتفاق الطائف الذي أمل فيه الناس خيراً أكذوبة سياسية يستخدمها السياسيون في صراع المصالح والنفوذ والمزيدات الإعلامية .

د - مجالس وصناديق الفساد

يوم شكّل مجلس الجنوب العام 1970، بموجب قانون صدر في 2 حزيران 1970، كان يومها هيئة طوارئ لمعالجة آثار الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على جنوب لبنان، ويوم شكّل مجلس الإنماء والإعمار العام 1977، كانت مهمته إعادة إعمار

(1) - جريدة السياسة الكويتية - الفساد السياسي والإداري في لبنان حلقة رقم 2- تاريخ 28/3/1995.

ما هدمته حرب السننتين في بداية الحرب الأهلية ، ثم جاءت مؤسسة شبيهة بهذين المجلسين العام 1991 وهي وزارة المهجرين التي كانت صندوق المهجرين، التي أوكلت إليها مهمة إعادة المواطنين الذين هجرتهم الحرب إلى ديارهم.

والمهمات التي يفترض أن تقوم بها هذه المجالس، هي في جوهرها مهمات نبيلة وإنسانية، لكن في لبنان، وبقدرة قادر، فإنَّ إيَّ هيئة تُقام أو تُشكل من أجل غرض وطني، يصبح غرضها الأساسي هو كيفية تحولها إلى «دويلات» أو إمارات، لها مشيختها الخاصة ورعاياها، أو أقرب إلى كنزٍ يقاسمه أصحاب النفوذ والمتسلطون. «وتحوّلت هذه المجالس في عهد الطائف كغيرها من المؤسسات الأخرى، وفقاً لسياسة المحاصصة التي هي ركيزة الحكم في هذا العهد، لأنها منبع للإثراء لا ينضب، خاض المتسلطون عليها مواجهات شرسة كي تبقى خارج أيّ رقابة من قبل المؤسسات الدستورية، ومجلس الخدمة المدنية وديوان المحاسبة وهيئة التفتيش المركزي. فإنَّ سلاطين العهد استطاعوا إفشال كل تلك المحاولات مع تعزيز أكبر لصلاحياتها، بحيث أصبحت دولاً داخل الدولة، لها صلاحيات تفوق صلاحيات مؤسسات الدولة الإجرائية والتشريعية مجتمعة. فلا أحد يعرف ماذا يجري في أروقة هذه المجالس، وكيف تصرف الأموال، وكم هو حجم الميزانيات فيها، وكيف ترسم المشاريع، وكيف تنفذ، سوى قلة لا تكاد تساوي عدد أصابع اليد الواحدة، وعلى الأرجح فإنَّ هذه اليد تخص شخصاً واحداً»⁽¹⁾. لقد قيل الكثير عن هذه المجالس، وعن حجم الهدر الذي ترتكبه يومياً، فنادرًا ما كان يمر يوم من دون أن تنتقل وسائل الإعلام خبرًا، أو تصريحًا يتعلق بفضيحة هدرٍ أو نهبٍ داخل هذه المؤسسات. لكنها ما دامت تتجح في عدم الخضوع لأيّة رقابة كانت، عن الدولة والحكومة. فمجلس الإنماء والإعمار، على سبيل المثال، هو المرجعية الوحيدة لكل مشاريع الإعمار في لبنان، إبتداءً بشق طريق أو بناء مستشفى أو صرح ضخم كالمدينة الرياضية، وصولاً إلى الأوتستردات والبنى التحتية... فعبره تمر كل مستلزمات التخطيط والتنفيذ والدراسات والإشراف والتلزييم والمراقبة والمحاسبة، فهو باختصار الحكومة الفعلية مع صلاحيات أكبر من صلاحيات مجلس الوزراء مجتمعًا، ولا تختلف كثيرًا حكاية مجلس الجنوب عن حكاية مجلس الإنماء والإعمار، إنَّ على مستوى الهدر أو السرقة ، لكن رائحة فضائح هذا المجلس تفوق حجمًا، إلى حدٍ أصبح يعرف بمجلس

(1) - نجاح واكيم - الأيادي السود - شركة المطبوعات للنشر والتوزيع - الطبعة الخامسة عشر 1998 - ص 115

الجيوب»⁽¹⁾. والحال ذاتها مع صندوق المهجرين والذي تحول إلى وزارة، ولتبيان حجم التّهب والهدر الذي شهده هذا الصندوق، يكفي أن نعود إلى ما تناقلته وسائل الإعلام من اتهامات متبادلة بين الرئيس رفيق الحريري والوزير وليد جنبلاط، حيث ورد في مقال كتبه نقولا ناصيف نشر في جريدة النهار 10 تموز من العام 1998 عن المبالغ الضخمة التي أقرها مجلس النواب منذ العام 1992 حتى العام 1998 800 مليون دولار لعودة المهجرين في الجبل، «حيث أنفق منها على خطط غير ذات صلة بعمل وزارة المهجرين، ويشير ناصيف إلى أنّ قسمًا من تلك الأموال ذهب إلى سوليدير وإلى إخلاءات لتنفيذ جسور وأنفاق في بيروت بمبالغ خياليّة، وقد علق الرّئيس الحص على هذا الموضوع قائلاً: إنّ من يتابع وقائع السّجال المؤسف الذي دار بين رئيس الحكومة رفيق الحريري وأحد وزرائه وليد جنبلاط عبر وسائل الإعلام، يخرج باستنتاج وحيد، هو أنّ الهدر المرتكب تحت غطاء عودة المهجرين كان كبيرًا جدًّا، ولا يعلم حجمه إلا الله والراسخون في العلم من أهل السّلطة»⁽²⁾.

الخلاصة: إنّ الفساد السائد والمستشري في الدّولة اللبنيّة لا يقتصر في أروقة الوزارات والإدارات الرّسميّة على تقاضي عمولة أو سمسرة، بل يتعداها إلى أسلوب ونهج حياة بات يطبع عمل هذه المؤسّسات، والفساد ليس وليد لحظة أو عهد أو حكومة أو وزير، بل هو خلاصة أعوام طويلة، تقلّت فيها الموظفون من أدناهم إلى أرفعهم رتبة من كل رقابة، فنظّموا ما يشبه الفوضى الإداريّة التي لها نتائجها السلبية ولقد برزت ظاهرة الفساد بشكل واضح في عهود ما بعد الطّائف، حيث ظهر الفساد بكل أشكاله وأنواعه من فساد سياسيّ إلى فساد اقتصاديّ وماليّ وإداريّ... ووجد الفساد والمفسدين الحماية السياسيّة والحصانة الطّائفيّة، ووصل إلى السّلطة القضائيّة، وتناصرت السّلطة السياسيّة المواقع والإدارات والمؤسّسات والمشاريع والخدمات، فكانت حصيلته تقاوم المديونيّة العامّة، وهدر موارد الدولة وإفقار المجتمع وتدمير المؤسّسات الإنتاجيّة، فانتج الفساد البطالة والهجرة والتعصب الطّائفيّ، والتفاوت الاجتماعيّ والمناطقّيّ وتحولت الدّولة إلى مزرعة تنقش فيها المشكلات الاجتماعيّة، والأزمات الاقتصاديّة والسياسيّة، والفساد المنظم، وتعطيل أجهزة التفتيش والرّقابة. فوضعت قوانين الإصلاح التي نص عليها الطّائف في الأدرج، وتحولت إلى شعارات في

(1) - نجاح واكيم المرجع السابق نفسه ص 122

(2) - نقولا ناصيف - جريدة النهار 10 تموز 1998

خطابات المسؤولين. ويتفق المهتمون بالوضع الإداري العام على أنّ أسباب الفساد والترهل كثيرة، لكنهم يختصرونها ببعض الأسباب الآتية:

السبب الأول: غياب الكفاءة العلميّة لدى نسبة كبيرة من الموظفين بسبب المداخلات السياسيّة والطائفية في التّعيين والترقية وتولّي المراكز الحساسة، فيضطر الموظف المدين في تعيينه وترقيته وتولّي المراكز الحساسة إلى تقديم الولاء الطائفيّ أو السياسيّ أو الشّخصيّ على الولاء الوطني، وهذا شرّ مخيف يجتاح أجهزة الإدارة في جميع مستوياتها.

السبب الثاني: غياب الكفاية المناقبيّة لدى نسبة كبيرة من الموظفين بسبب ضعف في النّفس، أو تدنّي الرّاتب، في زمن كثرت حاجات الموظف، وتضاءلت القوة الشرائيّة لراتبه، فأصبح مستشرساً في البحث عن رفق راتبه الشّرعيّ الضئيل بمداخل غير مشروعة من دون وجل أو وجل، فانتشر الداء وكاد أن يصير معمماً.

السبب الثالث: وجود تشابك في الصلاحيات وعدم تناسق في المهمات والمسؤوليات وتمتع الموظفين الكبار باحتكار السّلطة، والتلطيّ خلف الروتين البيروقراطي⁽¹⁾.

السبب الرابع: غياب مبدأ الثواب والعقاب وهذا أمر يشكو منه الموظفون الأكفيا. هذه بعض النّماذج عن الأمراض التي تفتك بجسم الإدارة، وتعرّض مسيرة الوطن للاهتزاز، والدولة للتفكك والفوضى والمجتمع للتطيف.

مراجع البحث :

- 1 - صمويل هانتغتون: النظام السياسي لمجتمعات متغيرة، دار الساقي للنشر والتوزيع، بيروت 2015
- 2 - هيفا سلام، حسين ابو رضا، حسين قاسم دياب : لبنان من إيرفد إلى ماكنزي، دار النهضة
- 3 - عمر الخضرمي، ظاهرة الفساد الخطورة والتّحدي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، دار جرير للنشر، 2014
- 4 - ناصيف نصار: عن مجتمع جديد: مقدمات أساسية في نقد المجتمع الطائفي، مركز دراسات الوحدة العربية 2016
- 5 - الإدارة العامة في لبنان: التّحديات والإصلاح
- 6 - بيروقراطية الإنماء: دراسة عن الإدارة
- 7 - نظام النزاهة العربي في مواجهة الفساد، مجموعة خبراء، المنظمة العامة للتنمية الإدارية 25/11
- 8 - 10- المشاريع الدولية لمكافحة الفساد والدعوة للإصلاح السياسي والاقتصادي في الاقطار

(1)- 27- منيف حمدان- الفساد الإداري وإصلاح الإدارة - النهار 31/12/1997.

- العربية، المنظمة العربية لمكافحة الفساد ، 2006
- 9 - الفساد في لبنان ، نشرة المركز اللبناني للشفافية، دراسات لمجموعة خبراء، كانون الاول 2014
- 10 - إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، 58/4 ، تشرين الاول 2003
- 11 - راشيل بحصلي- الفساد أزمة مزمنة عبر تاريخ لبنان منذ العثمانيين - جريدة الأنوار 10/3/2006.
- 12 - بن حمزة، حورية : العولمة صيغ الفساد وتداعيات الفقر (مقالات وأبحاث اجتماعية - المجتمعات الجزائرية والعربية) 16/3/2011
- 13 - بن حسين ،ناجي : الفساد : أسبابه وآثاره واستراتيجيات مكافحته - أستاذ مساعد ،جامعة منتوري ،قسنطينة وعضو فرقة بحث حول الحد من الفساد
- 14 - قرار إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد /الدورة 85 عام 2003 -البند 108 من جدول الأعمال
- 15 - د.جوزيف باحوط : تفكك إتفاق الطائف في لبنان : حدود تقاسم السّطة على أساس الطائفة ،مركز كارينغي للشرق الاوسط
- 16 - منيف حمدان- الفساد الإداري وإصلاح الإدارة - النهار 31/12/1997.
- 17 - العميد حبيب ،كميل - د.اسماعيل،عصام : وقائع المؤتمر السنوي الأول - الدستور اللبناني بين النص والتطبيق
- 18 - صمويل هنتغتون، النظام السياسي في مجتمعات متغيرة ، ترجمة حسام نايل،دار التنوير، ط1، 2017،
- 19 - سلام هيفا ، قاسم دياب حسين ،أبو رضا،حسين، التنمية المجتمعية في نظام سياسي لمجتمع متعدد (لبنان من إيرفد إلى ماكنزي)، دار النهضة
- 20 - علي فياض - السفير بتاريخ 4/10/2007.
- 21 - جريدة السياسة الكويتية - الفساد السياسي والاداري في لبنان-حلقة رقم 2 تاريخ 27/3/1995
- 22 - تقرير الأمم المتحدة حول جريمة الهدر في لبنان في الفساد الإداري، جريدة الإيسوع- تاريخ 5/3/2001.
- 23 - روبرت فيسك -ويل لأمة يشلها الفساد - صحيفة الشرق الأوسط- تاريخ 25/2/1999
- 24 - الإبراء المستحيل- تكتل التغيير والإصلاح- الطبعة الأولى 2013
- 25 - جريدة الحياة - الإختلاس في وزارة المال يفتح ملف الفساد الإداري - تاريخ 11/11/1996
- 26 - بول سالم - الإنتخابات النيابية 1996 وأزمة الديمقراطية في لبنان - المركز اللبناني للدراسات - بيروت الطبعة الأولى 1998
- 27 - بن حمزة، حورية :العولمة صيغ الفساد وتداعيات الفقر (مقالات وأبحاث اجتماعية -المجتمعات الجزائرية والعربية) 16/3/2011
- 28 - نجاح واكيم - الأيادي السود - شركة المطبوعات للنشر والتوزيع _ الطبعة الخامسة عشر 1998
- 29 - نقولا ناصيف- جريدة النهار 10 تموز 1998

الصّلاية النّفسيّة وعلاقتها بالتوافق النّفسيّ لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني دراسة وصفية على عينة من مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس شمال لبنان

د. جورجينا شاهين

الملخص:

تسعى الدّراسة إلى توضيح العلاقة بين الصّلاية النّفسيّة والتوافق النّفسيّ لدى عينة من المصابين بمرض السّكريّ - النّوع الثّاني Type2-، وتتجلى أهمية هذه الدّراسة في تناولها لمتغيري الصّلاية النّفسيّة والتوافق النّفسيّ لدى مرضى السّكريّ النّوع الثّاني على وجه التحديد، حيث لم يتم التطرّق إلى هكذا نوع من الدراسات في المجتمع اللبناني، ولتحقيق أهداف هذه الدّراسة تم استخدام المنهج الوصفي الارتباطي، واشتملت أدوات الدّراسة على استمارة البيانات الديموغرافية، مقياس الصّلاية النّفسيّة، مقياس التوافق النّفسيّ لدى مرضى السّكريّ النّوع الثّاني، وقد تكونت العينة من (600) مصاب بمرض السّكريّ النّوع الثّاني في المرحلة العمرية (44-65) سنة، واعتمدت العينة القصدية لتحديد الفئة المستهدفة، أي المرضى الذين يتابعون علاجهم في العيادات المتخصصة في الغدد والسّكريّ في المستشفيات الخاصة والحكومية في مدينة طرابلس شمال لبنان، وتم إدخال البيانات وتحليلها بواسطة البرنامج الإحصائي (SPSS) والاستعانة بالأساليب الإحصائية: اختبار تحليل التباين (Anova Test)، -t Test معامل الارتباط بيرسون، معامل الفا كرونباخ، المتوسطات والانحراف المعياري. وقد خلصت النتائج إلى أنه يوجد ارتباط مرتفع وجوهري بين الصّلاية النّفسيّة والتوافق النّفسيّ لدى مرضى السّكريّ النّوع الثّاني في مدينة طرابلس، كما أنّه تبين ارتباط الصّلاية النّفسيّة بثلاثة أبعاد من التوافق النّفسيّ (التكيف، التعاون، معتقدات حول المرض) في حين لم تكشف الدّراسة عن ارتباط ذي دلالة إحصائية بين الصّلاية النّفسيّة وأبعاد التوافق النّفسيّ المتعلقة بـ (ضغط مرض السّكريّ، الشعور بالذنب، التسامح مع المرض). كما أظهرت نتائج الدّراسة أنه لا توجد فروق دالة إحصائية في مستوى الصّلاية النّفسيّة والتوافق النّفسيّ لدى مرضى السّكريّ النّوع الثّاني تعزى لمدة الإصابة بالمرض، للعمر، للجنس، للمستوى التعليمي، بل توجد فروق في مستوى المتغيرين لدى مرضى السّكريّ النّوع الثّاني تعود للوضع الاجتماعي لصالح المتزوجين.

الكلمات المفتاحية: التوافق النّفسيّ، الصّلاية النّفسيّة، مرضى السّكريّ، النّوع الثّاني.

المقدمة

تعتبر الأمراض المزمنة من بين الأمراض التي تهدد صحة الأفراد في العصر الحالي، خاصةً مع زيادة انتشارها نتيجةً لتغير النظام الغذائي وطبيعته، إضافةً إلى تغير نمط العيش بأكمله إلى أسلوب تقل فيه النشاطات الحركية وتزداد فيه الضغوط النفسية.

ومن تلك الأمراض المزمنة وأكثرها انتشاراً مرض السكري، الذي تقدّر منظمة الصحة العالمية (2021) إصابة حوالي (500) مليون شخص في العالم به حالياً، ولبنان كباقي دول العالم يعاني من تزايد عدد المصابين بهذا الداء، إذ يعتبر مرض السكري من أكثر الأمراض المزمنة انتشاراً حسب وزارة الصحة اللبنانية (375000) حالة، ويحتل المرتبة الثانية من حيث عدد الإصابات بعد ارتفاع ضغط الدم الشرياني .

كما أن المرض في تزايد مستمر من حيث النسبة والتكاليف، مما يشكل معضلة حقيقية بالنسبة للمصابين به، فخصيصة مريض السكري وصحته النفسية تتأثر بالعديد من المواقف والضغوط الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في مجتمعنا اللبناني، حيث تكثر الأزمات على أنواعها (السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية)، مما يجعل مريض السكري أكثر عرضة للإصابة بالمشكلات النفسية من غيرهم، إضافةً إلى أن التوافق النفسي يتأثر بشدة بالصحة الجسمية والأمراض الجسدية .

فعملية التوافق تحتاج إلى أن يتمتع الفرد بقدر من الصحة الجسدية تمكنه من بذل الجهد المناسب لمواجهة حالات التوتر والضغوط التي يتعرض لها، فقد اعتبر العديد من الباحثين في مجال علم النفس الصحي أنّ الأمراض الجسدية تشكل مصدر ضغط وتهديد قوي بالنسبة للفرد ، إذ يواجه المريض بعد تشخيصهم بمرض مزمن أزمة تتخللها حالة من عدم التوازن الجسمي والاجتماعي.

وفي الواقع فإنّ مشكلة مرض السكري لا تكمن في مجرد ارتفاع نسبة السكر في الدم، فهذا ما هو إلا عارض لمرض يتغلغل في جسم الإنسان بصمت ويبطئ وقد يعطل بعنف أعضاء الجسم، الأمر الذي يزيد من شعور المريض بالقلق وبالتالي يؤدي إلى سوء توافقه النفسي والاجتماعي.

وتعد الصلابة النفسية إحدى سمات الشخصية التي تساعد الفرد على التعامل الجيد مع الضغوط و الاحتفاظ بالصحة النفسية والجسدية حيث يتصف ذوو الشخصية الصلبة بالتفاؤل والهدوء الانفعالي والتعامل الفعال والمباشر مع الضغوط، فالفرد الذي يتمتع بالصلابة النفسية يستخدم التقييم واستراتيجيات التعامل بفعالية، ويكون على مستوى عال

من الثقة النفسية، ويقدر الموقف بأنه أقل تهديد ثم يعيد بناءه إلى شيء أكثر إيجابية. كما أن الأفراد الذين يتسمون بصلاية نفسية عالية، حتى ولو قاموا بتقدير الضغوط على أنها مهددة، فإن سماتهم الشخصية تظل تعمل كواق من تأثير الضغوط عن طريق تسهيل اختيار أساليب التعامل التوافقية، فالأفراد ذوو الصلاية النفسية العالية، يميلون إلى استعمال أسلوب المواجهة التحويلي، فيقومون بتغيير الأحداث التي يمكن أن تولد ضغوطاً إلى فرص للنمو، ونتيجة لذلك يتوافقون مع الأحداث الضاغطة بطريقة فعالة. وبناءً على ما سبق، تناولنا في الدراسة الحالية العلاقة بين الصلاية النفسية والتوافق النفسي لدى مرضى السكري، فالصلاية النفسية لمرضى السكري تشكل أهم مقومات احتفاظه بالتوافق النفسي رغم تعرضه لضغوط مرضى السكري النوع الثاني.

أولاً: أهمية الدراسة ومبررات اختيارها

تكمن أهمية الدراسة الحالية من خلال:

أ- الأهمية النظرية:

- ندرة الدراسات التي تناولت موضوع مرض السكري-النوع الثاني وعلاقته بالصلاية النفسية والتوافق النفسي لدى عينة من المصابين بهذا المرض في المجتمع اللبناني وبخاصة في مدينة طرابلس-شمال لبنان، لذا نأمل أن تشكل هذه الدراسة إضافة علمية جديدة إلى التراث السيكلوجي وعلم نفس الصحة، والطب النفسي الجسدي في مجتمعنا.

- تسليط الضوء على العلاقة بين التوافق النفسي والصلاية النفسية لدى عينة من المرضى المصابين بالسكري-النوع الثاني، من خلال تطبيق البحث على هذه العينة وفق المتغيرات الديمغرافية التالية: (العمر، الجنس، عدد سنوات الإصابة، المستوى التعليمي، الحالة الاجتماعية).

- من خلال هذه الدراسة، يمكن تقديم بعض التوصيات والإرشادات النفسية المتعلقة بمرض السكري-النوع الثاني في لبنان، لتطوير خدمات الإرشاد النفسي لتلك الفئة من المرضى، وذلك على ضوء النتائج المستخلصة.

- قد تشكل هذه الدراسة دافعاً للمهتمين للبحث وللتعمق أكثر في جوانب إرشادية ونفسية لمرضى السكري.

ب الأهمية التطبيقية :

- قد تساعد نتائج الدراسة في جذب اهتمام الباحثين إلى تطبيق البرامج الإرشادية

والإجراءات العلاجية النفسية، وتحديد فاعليتها، ومدى جدواها وتأكيد دورها في التكفل النفسي بمرضى السكري، وذلك من خلال ما تقوم به هذه الدراسة من الكشف عن مدى العلاقة ما بين التوافق النفسي والصلابة النفسية لدى مرضى السكري.

- قد تساهم الدراسة الحالية في لفت انتباه العاملين في مجال علم النفس وعلم النفس الصحي، إلى أهمية تقديم الإرشاد النفسي لمرضى السكري، بهدف رفع مستوى الصلابة النفسية لديهم لمقاومة مرضهم وتخفيف الضغوط الناتجة عنه وعليه تحقيق التكيف والتوافق على المستوى النفسي.

- قد تساهم الدراسة في التعرف على مستوى التوافق النفسي وعلى مستوى الصلابة النفسية لدى مرضى السكري - النوع الثاني في مدينة طرابلس - شمال لبنان.

- المساهمة كمتخصصين في علم النفس في الوقوف على العلاقة بين الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى مرضى السكري - النوع الثاني، للقيام بالخطوات الوقائية والعلاجية المناسبة قبل تفاقم المشكلات المرافقة لهذا المرض، وتعزيز القدرة على مواجهته والتغلب عليه.

ثانياً: أهداف الدراسة

تسعى الدراسة الحالية إلى تحقيق مجموعة من الأهداف على الشكل التالي:

- الهدف الرئيسي:

تحاول الدراسة الكشف عن العلاقة بين التوافق النفسي والصلابة النفسية لدى مرضى السكري - النوع الثاني في مدينة طرابلس، وتحديد الفروق في مستوى التوافق النفسي والصلابة النفسية في ضوء بعض المتغيرات الديموغرافية كالعمر، الجنس، مدة الإصابة بالمرض، المستوى التعليمي، الحالة الاجتماعية.

أما الأهداف الفرعية فتتحدد كما يلي:

- تعرّف مستوى التوافق النفسي وعلى مستوى الصلابة النفسية لدى مرضى السكري - النوع الثاني.

- الكشف عن العلاقة بين الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى مرضى السكري - النوع الثاني في مدينة طرابلس .

-الكشف عن العلاقة بين أبعاد الصلابة النفسية وأبعاد التوافق النفسي لدى مرضى السكري - النوع الثاني في مدينة طرابلس.

- الكشف عن الفروق في مستوى التوافق النفسي والصلابة النفسية تبعاً لمدة الإصابة

- بمرض السكرى - النوع الثانى في مدينة طرابلس.
- الكشف عن الفروق في مستوى التوافق النفسى والصلابة النفسية تبعاً لمتغير العمر لدى مرضى السكرى - النوع الثانى في مدينة طرابلس.
- الكشف عن الفروق في مستوى التوافق النفسى والصلابة النفسية تبعاً لمتغير الجنس لدى مرضى السكرى - النوع الثانى في مدينة طرابلس.
- الكشف عن الفروق في مستوى التوافق النفسى والصلابة النفسية تبعاً لمتغير المستوى التعليمي لدى مرضى السكرى - النوع الثانى في مدينة طرابلس.
- الكشف عن الفروق في مستوى التوافق النفسى والصلابة النفسية تبعاً لمتغير الحالة الاجتماعية لدى مرضى السكرى - النوع الثانى في مدينة طرابلس.

ثالثاً: نموذج الدراسة

- يتألف نموذج الدراسة من المتغير المستقل والمتغير التابع.
- المتغير المستقل:** الصلابة النفسية بأبعادها (الالتزام، التحكم، التحدي).
- المتغير التابع:** التوافق النفسى بأبعاده (ضغط مرض السكرى، التكيف، الذنب، التعاون، معتقدات حول المرض، التسامح مع المرض)

رابعاً: مصطلحات الدراسة

1- الصلابة النفسية:

- التعريف الاصطلاحي:

هي مجموعة من السمات تتمثل في اعتقاد أو اتجاه عام لدى الفرد في فاعليته وقوته على استخدام كل المصادر النفسية والبيئية المتاحة، كي يدرك ويواجه بفاعلية أحداث الحياة الضاغطة، ويفسرهما بواقعية وموضوعية ومنطقية ويتعايش معها على نحو إيجابي. (kobaza, 1983:839)

- التعريف الإجرائي:

هي اعتقاد عام للفرد في فاعليته وقدرته على استخدام كل المصادر النفسية والاجتماعية المتاحة له، كي يدرك ويفسر ويواجه بفاعلية أحداث الحياة الضاغطة، مما يخفف من آثارها على الصحة النفسية والجسدية للفرد. وتتمثل في مجموع الدرجات التي يحصل عليها المستجوب على فقرات مقياس الصلابة النفسية (kobaza, 1983:839) المستخدم في الدراسة.

2- التوافق النفسي:

- التعريف الاصطلاحي:

هو عملية ديناميكية مستمرة يهدف بها الفرد إلى أن يغير من سلوكه لتكوين علاقة أكثر توافقاً بينه وبين نفسه من جهة، وبينه وبين البيئة من جهة أخرى، والبيئة هنا تشمل كل المؤثرات والإمكانات للحصول على الاستقرار النفسي والبدني في معيشتها، ولهذه البيئة ثلاثة جوانب: البيئة الطبيعية المادية، والبيئة الاجتماعية، ثم الفرد ومكوناته واستعداداته، وميوله وفكرته عن نفسه (Allen, 1990:85)

فالتوافق النفسي إذن هو حالة من الاتزان النفسي، بحيث يكون الفرد قادراً على تحقيق ذاته، والتلاؤم مع المتغيرات البيئية، (زهران، 2005: 60)

- التعريف الإجرائي للتوافق النفسي :

هو عملية ديناميكية مستمرة يحاول فيها الفرد إشباع حاجاته الجسمية والنفسية والاجتماعية، ليحقق بذلك الرضا عن نفسه وعن الآخرين، ويقاس عن طريق الدرجة التي يحصل عليها المستجوب من خلال إجابته على فقرات مقياس التوافق النفسي لستيوارت دبين (2015) المستخدم في الدراسة.

3- مرض السكري:

التعريف الاصطلاحي:

عند التطرق إلى التعريف الاصطلاحي لمرض السكري لا بد من التوقف عند التعريف الطبي ثم السيكولوجي لمرض السكري.

التعريف الطبي: يعرف (Maglea , 2011:196) على أنه مرض مزمن يحدث عندما يعجز البنكرياس عن إنتاج الأنسولين بكمية كافية، أو عندما يعجز الجسم عن الاستخدام الفعال للأنسولين الذي ينتجه، والأنسولين هو هرمون ينظم مستوى السكر في الدم. ويُعدُّ فرط سكر الدم أو ارتفاع مستوى السكر في الدم من الآثار الشائعة التي تحدث جرّاء عدم السيطرة على مرض السكري، مما يؤدي مع الوقت إلى حدوث أضرار وخيمة في العديد من أجهزة الجسم، خصوصاً في الأعصاب والأوعية الدموية. إذاً مرض السكري هو اضطراب في عملية التمثيل الغذائي، بارتفاع نسبة تركيز الجلوكوز في الدم، والمسؤول عن ذلك هو النقص المطلق أو النسبي للأنسولين، حيث يعجز الجسم عن التصنيع، أو استخدام الأنسولين بشكل مناسب، وعلى اعتبار أن الأنسولين هو الهرمون الذي يفرزه البنكرياس والذي يتحكم في تحويل السكر والكربوهيدرات

إلى طاقة، فإنه عندما يحدث اضطراب وظيفي للأنسولين يزداد الجلوكوز في الدم (Reitner , 2015:288).

أما التعريف السيكولوجي لمرض السكرى حسب ال (DSM41987:12) فهو أحد الاضطرابات الجسمية الحقيقية التي تساهم العوامل السيكولوجية بدور هام في بداية الإصابة بها أو في تقاوم الحالة المرضية للفرد.

4- مرضى السكرى - النوع الثاني:

هم الأفراد المصابون بمرض السكرى النوع الثاني (type2)، بسبب عجز البنكرياس في الجسم على إفراز مادة الأنسولين بالكميات المطلوبة، أو عدم استخدام هذه المادة بالطريقة السليمة وبالشكل الفعال، وهؤلاء الأفراد يقومون بمراجعة العيادات المتخصصة بالعدد والسكرى في المستشفيات الخاصة والحكومية في مدينة طرابلس-شمال لبنان لطلب المساعدة والعلاج.

خامساً: الإطار النظري

المبحث الأول: الصلابة النفسية

- أهمية الصلابة النفسية في عملية التوافق النفسي:

تعدّ الصلابة النفسية مصدراً من المصادر الشخصية الهامة لمقاومة ضغوط الحياة والتخفيف من آثارها على الصحة النفسية والجسمية، فالصلابة النفسية تساهم في تسهيل وجود ذلك النوع من الإدراك والتقويم والمواجهة، الذي يقود إلى الوصول إلى الحل الناجح للموقف الذي خلفته الظروف الضاغطة ومساعدة الأفراد على الاستمرار في إعادة التوافق.

إذاً تعتبر الصلابة النفسية مركبا مهما من مركبات الشخصية القاعدية، لها دور مهم في إنشاء جدار دفاعي يعين الفرد على مواجهة الضغوط والأحداث المؤلمة، والتكيف الفعال، وخلق نمط من الشخصية لها القدرة على الإدراك الجيد والإيجابي لمواقف الحياة، بهدف تحقيق حياة متزنة، خالية من القلق والاكتئاب والانحراف.

نستنتج مما سبق أهمية الصلابة النفسية في عملية التوافق النفسي لدى الأفراد، إذ تسهم الصلابة النفسية في مواجهة الضغوطات المختلفة و الوقاية من الإصابة بالأمراض العضوية أو النفسية، وفي مقاومة هذه الأمراض وصولاً إلى التوافق، من خلال استخراج كل المصادر والإمكانات الذاتية والبيئية.

- أبعاد الصّلابة النّفسية:

توصلت (kobasa,1983) إلى تحديد ثلاثة أبعاد تتكون منها الصّلابة النّفسية وهي الالتزام والتّحدي والتحكم.

أولاً: الالتزام: يعبر الالتزام عن اعتقاد الفرد في حقيقة وأهمية ذاته وفيما يفعل، ويتضح ذلك من خلال قيمة الحياة التي تكمن في ولاء الفرد لبعض المبادئ والقيم واعتقاده أن لحياته هدفاً ومعنى يعيش من أجله. (يخلف، 2001، 210) ويعتبر مكون الالتزام من أكثر مكونات الصّلابة النّفسية ارتباطاً بالدور الوقائي للصّلابة النّفسية بوصفها مصدراً لمقاومة مثيرات الضغوط وقد أشار (Johnson et Sarason, 1978) إلى أن غياب هذا المكون يرتبط بالكشف عن الإصابة ببعض الاضطرابات النّفسية والجسدية. (haydon,1986:112)

ثانياً: التّحكم: أشارت (kobasa) إلى التّحكم بوصفه اعتقاد الفرد بأن مواقف وظروف الحياة المتغيرة التي يتعرض لها هي أمور متوقعة الحدوث ويمكن التنبؤ بها والسيطرة عليها (kobasa,1983:89)، ويتضمن التّحكم القدرة على اتخاذ القرار والاختيار من بين بدائل متعددة والقدرة على التفسير والتقدير للأحداث الضاغطة والقدرة على المواجهة الفعالة وبذل الجهد مع دافعية كبيرة للإنجاز والتّحدي.

ثالثاً: التّحدي: تعرف (kobasa,1983) مفهوم التّحدي بأنه اعتقاد الفرد بأن التّغيير المتجدد في أحداث الحياة هو أمر طبيعي بل حتمي لا بد منه لارتقائه أكثر من كونه تهديداً لأمنه وثقته وسلامته النّفسية (الوقفي، 2008، 29).

- سمات الصّلابة النّفسية:

يمتاز الأفراد الذين يتصفون بالصّلابة النّفسية بأنهم: أصحاب ضبط داخلي وقادرين على الصمود والمقاومة، ولديهم القدرة على الإنجاز في العمل، والقدرة على اتخاذ القرارات السليمة، وحل المشكلات، والقدرة على مواجهة أحداث الحياة الضاغطة والتكيف معها، ويكون لديهم ميل نحو القيادة والسيطرة والمبادأة، وهم الأكثر اقتداراً وذوو نشاط ودافعية أفضل، والحكمة، ويمتلكون الصبر، والسيطرة على النفس، وبذلك يكون ذوو الصّلابة النّفسية المرتفعة ملتزمين بالقيم والمبادئ والمعتقدات السليمة والتمسك بها وعدم التخلي عنها، وبذلك يكون لحياتهم معنى وقيمة وإيجابية. (محمد 2002: 63).

المبحث الثاني: التوافق النفسي

- ماهية التوافق النفسي:

هناك من عرّف التوافق النفسي كعملية ديناميكية مستمرة، تتضمن قدرة الفرد على تقبل ذاته، والتكيف مع البيئة التي ينتمي إليها، وهناك من عرّف التوافق النفسي كحالة يصل إليها الإنسان تتميز بالتلاؤم والاتزان. إذاً التوافق يمثل حالة يصل إليها الفرد وهي تتميز بإشباعه لحاجاته النفسية، وتقبله لذاته، واستمتاعه بحياة تقل فيها التوترات والصراعات النفسية، واستمتاعه بعلاقات اجتماعية حميمة، وتقبله لعادات وتقاليد مجتمعه. كما أن التوافق النفسي هو عملية ديناميكية مستمرة يحاول فيها الفرد إشباع حاجاته النفسية والاجتماعية، ليحقق بذلك الرضا عن نفسه وعن الآخرين.

- وظائف التوافق النفسي:

لعملية التوافق النفسي عدة وظائف منها:

- إشباع الحاجات الأولية:

هي ذات وظيفة حيوية تعمل على بقاء الفرد، حيث ترتبط بالتكوين الفسيولوجي له، مثل الحاجة إلى الطعام والشراب والملبس والسكن والجنس والنوم، وهي حاجات إشباعها ضروري للحياة، حيث أن مستوى إشباع هذه الحاجات مؤثر لعملية التوافق. (الحجار، 2003، ص: 15).

- إشباع الحاجات الثانوية:

وهي التي يكتسبها الفرد و يتعملها من البيئة، وتتأثر بنوعية التنشئة الاجتماعية، كما أنها تنظم إشباع الحاجات البيولوجية وتضبطها مثل الحاجة إلى الأمن والاستقرار و المحبة والنجاح، وهذه الحاجات النفسية ضرورية للفرد ليكمل توازنه ونضجه النفسي (منصور، 2006، ص: 42).

- التقبل والرضا عن الذات:

الرضا عن الذات يكون دافعاً للفرد تجاه العمل والتوافق مع الآخرين، والإنجاز في مجالات تتفق مع قدراته وإمكانياته (عطية، 2001، ص: 30).

- التكيف مع المجتمع مسايرة قيمه ومعايير:

أي الانصياع أو المجارة لقيم المجتمع ومعاييرته والتكيف معها. (المطيري، 2009، ص: 38).

- تحقيق الصحة النفسية:

يرى علماء النفس أن الفرد المتوافق هو الذي يتمتع بالصحة النفسية، والصحة محصلة إنجاز التوافق النفسي.

- مظاهر التوافق النفسي:

قسم ريتشارد سوينر مظاهر التوافق النفسي إلى سبعة مظاهر أساسية ذكرها المطيري(2009) وهي:

- **الفعالية:** الشخص المتوافق يصدر عنه سلوك أدائي فعال، محدد الهدف، موجه نحو حل المشاكل والضغوط عن طريق المواجهة المباشرة لمصدر هذه المشاكل والضغوط.

- **الكفاءة:** إن الشخص المتوافق يستخدم طاقاته بواقعية، مما يمكنه من تحديد المحاولات غير الفعالة والعقبات التي لا يمكن تخطيها فيجتنبها ليضمن نتائج جهوده دون تبديلها.

- **الملائمة:** إن الفرد المتوافق غالبًا ما يوائم بين أفكاره ومشاعره وسلوكياته، بحيث لا يصدر سلوكًا يتناقض مع أساليب تفكيره، لأن إدراكاته تعكس واقعه، وكل استنتاجاته مستخلصة من معلومات مناسبة.

- **المرونة:** إن الشخص السوي قادر على التكيف والتعديل، وفي فترات الأزمات والمواقف الضاغطة يستطيع البحث عن الوسائل الفعالة للخروج من هذا النوع من المواقف، بحيث يتميز بحثه هذا بالتجديد والتغيير.

- **الفعالية الاجتماعية:** ذلك أن الفرد المتوافق نفسيًا أكثر مشاركة في التفاعل الاجتماعي، وتتسم علاقاته الاجتماعية بالصحة، حيث يبتعد في أسلوبه العلائقي عن أنماط التعلق غير الصحية بالآخر، وعليه فهو يبتعد عن الاتكالية المفرطة، أو النفور والانسحاب.

- **الاطمئنان النفسي:** يتسم الشخص المتوافق بتقدير عال لذاته، وإدراكه لقيمتها، كما يتميز بالأمن والاطمئنان النفسي.

المبحث الثالث: مرض السكري

- **طبيعة مرض السكري**

يعرف مرض السكري بأنه اختلال في عملية أيض السكر الذي يؤدي إلى ارتفاع مستوى السكر (الجلوكوز) في الدم بصورة غير طبيعية لأسباب مختلفة قد تكون نفسية،

أو عضوية، أو بسبب إفراط في تناول السكّريات، أو بسبب عوامل وراثية، ويحدث نتيجة وجود خلل في إفراز الأنسولين في البنكرياس، فقد تكون كمية الأنسولين التي يتم إفرازها أقل من المطلوب أو يكون هناك توقف تام عن إنتاجه، ويطلق على هذه الحالة "قصور الأنسولين"، أو أن الكمية المفرزة كبيرة في بعض الحالات كالأفراد المصابين بالسمنة ولكن هناك مقاومة من الأنسجة والخلايا بالجسم تعيق وظيفة الأنسولين، ويطلق على هذه الحالة "مقاومة الأنسولين"، وفي كلتا الحالتين يكون الجلوكوز غير قادر على دخول الخلايا مما يؤدي إلى تراكمه في الدم وإمكانية ظهوره في البول، وبمرور الوقت ومع ازدياد تراكم السكر في الدم بدلا من دخوله خلايا الجسم، يؤدي إلى مضاعفات مزمنة على بعض أجزاء الجسم كالأوعية الدموية الدقيقة في شبكة العين، وحوصلات الكلى، وتلك التي تغذي الأعصاب. (رودي بيلوس 2013:4).

- أنواع مرض السكّري:

تم تصنيف مرض السكّري حديثاً إلى أربعة أنواع:

1-النّوع الأول : type 1

وهو مرض السكّري المعتمد على الأنسولين (IDDM) وعادةً ما يصيب الأطفال وصغار السن دون (30) سنة، وهو يحدث نتيجة لخلل في الجهاز المناعي بحيث يعجز البنكرياس عن إفراز الأنسولين. وذروة بدء النمط الأول بين عمر (11 و13 سنة)، لكنه قد يبدأ في أي فئة عمرية بما فيها الشيخوخة. وأغلب المرضى المصابين "بالنّوع الأول" من السكر عادة هم أصحاء وأوزانهم اعتيادية عند حدوث المرض، ويتميز بانعدام أو نقص الأنسولين الشديد بسبب تلف معظم خلايا بيتا في البنكرياس مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى السكر في الدم ولذا فهذا النّوع لا يستجيب للعلاج بالأقراص الخافضة للسكر ولا ينفعه سوى حقن الأنسولين (Atkinson and Eisenbarth, 2001).

2- النّوع الثّاني : type 2

ويسمى بمرض السكر "النّوع الثّاني" وقديما كان يسمى بالسكر الذي لا يعتمد على الأنسولين (NIDDM)، ويقصد به مرضى السكر الذين لا يعتمدون على الأنسولين في علاجهم وكان يسمى كذلك "سكر الكبار"، لأنه عادة ما يبدأ بعد سن الأربعين، وأعراض هذا المرض تظهر بشكل تدريجي واحتمال حدوث الغيبوبة السكّرية والمضاعفات أقل من "النّوع الأول"، وغالبًا ما يتم اكتشاف هذا المرض من السكر عن طريق الصدفة عند

إجراء التحاليل الطبية الروتينية، وفي هذا النوع يفرز البنكرياس كمية من الأنسولين ولكنها قد تكون غير كافية أو هناك مقاومة من الأنسجة والخلايا بالجسم، حيث تعيق وظيفة الأنسولين بسبب نقصه أو لوجود أجسام مضادة لهذه المستقبلات تمنع الأنسولين وتنافسها على الوصول إليها مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى السكر في الدم (الحميد، 2007: 17).

وتلعب الوراثة والسمنة لدى هؤلاء المرضى دورًا هامًا في حدوث المرض، فمعظم المرضى يتصفون بالسمنة وخاصة الأشخاص الذين لديهم زيادة الوزن حول منطقة وسط البطن على شكل تقاحة، (Apple Shape)، فهؤلاء أكثر عرضة للإصابة "بالنوع الثاني" من السكر، فالبدانة تجهد البنكرياس. (الحميد: 17)، حيث يمثل هذا النوع الأغلبية (90%) من مرضى السكري، وهو بعكس "النوع الأول" ليس له علاقة بالجهاز المناعي للجسم، وقد لا يعتمد على الأنسولين، والمريض المصاب بهذا النوع من السكر يستجيب في الغالب للأقراص الخافضة للسكر.

(AmericanDiabetesAssociation).

3- النوع الثالث : مرض السكري الثانوي

يحدث نتيجة لوجود علة مرضية تؤثر على الخلايا المفرزة للأنسولين في البنكرياس وأهم هذه العلة:

- * الالتهاب المزمن للبنكرياس
- * أورام الغدة فوق الكلوية.
- * استئصال البنكرياس في حالة ظهور أورام سرطانية.
- * بعض أمراض الغدد الصماء: كمرض العملاقة بسبب زيادة هرمون النمو، وفرط إفراز الغدة الدرقية كما يحدث في حالات التسمم الدرقي، ومتلازمة كوشينج والتي تؤدي إلى زيادة معدلات الكورتيزون.
- * نتيجة أخذ بعض الأدوية مثل هرمون الغدة الدرقية و الكرتيزون. (الحميد، 2007: 19).

4- النوع الرابع سكر الحمل

سكر الحمل نوع من أنواع مرض السكر الأقل انتشارًا، ويظهر أثناء الحمل فقط لدى النساء اللواتي لم يصبن بمرض السكر في السابق، وغالبًا ما يعود سكر الجلوكوز في الدم إلى معدلاته الطبيعية بعد الولادة: 25 .

(who, 1999)

وتظهر عادة أعراض سكر الحمل كالعطش وكثرة التبول والتعب المبكر والإجهاد السريع خلال الأسبوع الرابع والعشرين من الحمل، وفي بعض الأحيان يكون المرض دون أعراض، حيث يكتشف ارتفاع السكر للمرة الأولى عند الفحص الشهري لدم الحامل.

وقد يحدث بسبب إعاقة هرمونات المشيمة المرتبطة بنمو الجنين مما يعيق قدرة جسم الأم الحامل على استعمال الأنسولين على الوجه الصحيح، ومقاومة إفرازه، كما أن لبعض النساء قابلية جينية للإصابة بسكر الحمل، ويتم تشخيصه عادة عن طريق الفحص الروتيني للحامل أو بولادة طفل كبير الوزن.

- أسباب مرض السّكري:

1- الوراثة:

وجد العلماء أن الوراثة عامل مهم في الإصابة بمرض السّكري بنوعيه "الأول" و"الثاني"، لكن في أغلب الأحيان يصعب تحديد الجينات المسؤولة عن المرض، إذ أن بعض الأشخاص قد يرثون قابلية الإصابة بالمرض، لكنهم لا يصابون به أبداً، والخلاصة بوضوح هي وجود عوامل أخرى غير الوراثة تساعد على الإصابة بالسّكري. (الحميد، ص:10-9).

2- العدوى:

يعرف أن لبعض الفيروسات، مثل فيروس النكاف وفيروس كوكساي، القدرة على إلحاق الضرر بالبكرياس والتسبب بالسّكري، لكن من النادر جداً أن يتمكن الأطباء من ربط بدء إصابة الأشخاص بالسّكري بعدوى محددة، وقد يكون التفسير الممكن لذلك، هو أن العدوى قد تكون نشأت سابقاً، لكن ظهرت فقط بعد سنوات طوال. (المرجع السابق، ص:10).

3- البيئة:

غالبًا ما يكون الأشخاص الذين يصابون "بالنوع الثاني" من السّكري من أصحاب الوزن الزائد أو يكون نظامهم الغذائي غير متوازن، ويشير هذا كله إلى روابط مهمة بين النظام الغذائي والبيئة والسّكري، لكن لا يوجد أي رابط محدد بين الإصابة بالسّكري واستهلاك الشخص للسكر والحلويات. (رودي بيلوس، 2013، ص:11-10).

4- مرض البنكرياس pancreas:

قليلون هم الأشخاص الذين يصابون بالسكري نتيجة مرض آخر في البنكرياس، فعلى سبيل المثال يمكن لالتهاب البنكرياس أن يتسبب بتلف أجزاء كبيرة منه، كما أن بعض الأشخاص الذين يعانون من أمراض هرمونية، مثل متلازمة كوشينغ (-Cush ing's syndrome) حين ينتج الجسم كميات كبيرة جداً من هرمون الستيرويد، أو مرض ضخامة النهايات (Acromegaly) حين ينتج الجسم كميات كبيرة جداً من هرمون النمو، قد يصابون بالسكري كأثر جانبي لمرضهم الأساسي. (محمد الحميد، ص:11).

5- الإجهاد النفسي:

على الرغم من ربط كثير من الأشخاص بدء إصابتهم بالسكري بحادثة مجهدة أصابتهم، مثل التعرض لحادث أو مرض آخر، إلا أنه يصعب إثبات وجود رابط بين الإجهاد النفسي والسكري. ويمكن تفسير ذلك في الواقع بأن الأشخاص يزورون أطباءهم بسبب التعرض لبعض الأحداث المجهدة نفسها، ويجري تشخيص إصابتهم في الوقت نفسه بالسكري. (رودي بيلوس، 2013، ص:12-11).

سادساً: الدراسات السابقة وبناء الإشكالية

1- دراسة KOPAZA كوبازا (1982):

بعنوان الصلابة النفسية ودورها في التوافق النفسي والتخفيف من وقع الأحداث الضاغطة، تكونت عينة الدراسة من (209) من شاغلي المناصب الإدارية والمحامين ورجال الأعمال واستخدمت الباحثة المنهج الوصفي، حيث توصلت إلى نتائج أشارت إلى أن الصلابة النفسية تساهم في التخفيف من وقع الأحداث الضاغطة، كما تمثل مصدراً هاماً للمقاومة والصمود والوقاية للحد من الآثار المترتبة عن الأحداث الضاغطة (التحكم مقابل الضعف، التحدي مقابل الشعور بالتهديد)، كما بينت الدراسة أن الصلابة النفسية تشكل عاملاً مهماً ومفيداً، لتحقيق التوافق النفسي، حيث أن إرادة وعزيمة وإصرار الفرد لتحمل التغيرات المفاجئة في البيئة المحيطة تلعب دوراً مهماً في زيادة التوافق النفسي لديه وبالتالي الاتزان في شخصيته.

2- دراسة هال وآخرون (1987):

وهدفها معرفة العلاقة بين الصلابة النفسية وبين كل من تقدير الذات والتوافق النفسي على عينة من الطلاب بلغ عددهم 138، وكشفت نتائج الدراسة عن وجود ارتباط موجب بين الصلابة وتقدير الذات الإيجابي، إضافة إلى وجود علاقة دالة إحصائياً بين الصلابة

النفسية والتوافق النفسي الجيد بأبعاده (الفعالية، الكفاءة، الملاءمة، المرونة، القدرة على الاستفادة من الخبرات، الفعالية الاجتماعية، الاطمئنان على الذات)، كما أن الأشخاص الأقل صلابة هم أكثر نقدًا لذاتهم وأكثر شعورًا وتعميمًا لخبرات الفشل.

3- دراسة (Gerson جرسون) 1988:

عن العلاقة بين الصلابة النفسية ومهارات مواجهة الضغوط والتوافق النفسي، وقد تكونت العينة من (101) من الطلاب خريجي قسم علم النفس في لندن، وتوصلت الدراسة إلى أن الطلاب الذين حصلوا على درجات عالية في الصلابة، كانوا يستخدمون مهارات مواجهة أكثر فاعلية مع الضغوط، من الذين حصلوا على درجات منخفضة من الصلابة. كما أن الطلاب الذين حصلوا على درجات مرتفعة من الصلابة كان مستوى توافقهم النفسي أعلى من الأفراد الذين حصلوا على درجات منخفضة من الصلابة.

4- دراسة محمد (2002):

هدفت إلى التعرف إلى دور كل من الصلابة النفسية والمساندة الاجتماعية في التوافق النفسي لدى ممارسي مهنة التمريض. تكونت العينة من (221) ممرض وممرضة، (161) ذكور و(160) إناث ممن تتراوح أعمارهم بين (24-23) سنة وممن تتراوح سنوات الخبرة لديهم (14-7) سنة. وتوصلت الدراسة إلى أن هناك علاقة طردية دالة إحصائية بين الصلابة النفسية والمساندة الاجتماعية على التوافق النفسي لهذه الفئة، فكلما ارتفعت نسبة الصلابة النفسية والمساندة الاجتماعية ازداد التوافق النفسي، وكلما قلت نسبة الصلابة والمساندة قلّ التوافق النفسي لديهم.

5- دراسة العبيدي (2004):

عن العلاقة بين صلابة الأنا والتوافق النفسي الاجتماعي وفق أساليب التنشئة الاجتماعية، شملت العينة (320) طالب وطالبة، وتوصلت الدراسة إلى أن أفراد العينة يتمتعون بدرجة من صلابة الأنا أعلى من المتوسط لمقياس صلابة الأنا، كما تبين أن أفراد العينة يتمتعون بدرجة من التوافق أعلى من المتوسط على مقياس التوافق النفسي والاجتماعي، وأيضًا وجود علاقة دالة بين صلابة الأنا والتوافق النفسي الاجتماعي، وبتجاه عكسي، بمعنى أنه عندما تكون صلابة الأنا عالية يكون التوافق أعلى والعكس صحيح.

6- دراسة المصدر وصالح (2004):

بعنوان الصلابة النفسية وعلاقتها بالتوافق النفسي والاجتماعي لدى طلبة جامعتي

الأقصى والأزهر بمحافظة غزة، وقد هدفت الدراسة إلى معرفة العلاقة بين الصلابة النفسية لدى الشباب الجامعي وبين التوافق النفسي والاجتماعي، ومعرفة الفروق بين الطلبة على مقياس الصلابة والتوافق النفسي والاجتماعي طبقاً لمتغيرات (الجنس، المستوى الدراسي، ونوع الجامعة)، وقد تكونت العينة من (222) طالبا وطالبة من الملتحقين بجامعة الأزهر وجامعة الأقصى بمحافظة غزة، واستخدم المنهج الوصفي التحليلي، وقد توصلت الدراسة إلى وجود علاقة دالة إحصائياً بين الصلابة النفسية والتوافق النفسي والاجتماعي لدى الطلبة، كما تبين وجود فروق ذات دلالة إحصائية على مقياس التوافق تعزى لمتغير الجنس لصالح الإناث، وعدم وجود فروق تعزى لمتغير المستوى الدراسي على مقياس التوافق، وعدم وجود فروق تعود إلى نوع الجامعة على مقياس التوافق.

7- دراسة حربوش (2009):

بعنوان الصلابة النفسية وعلاقتها بتقبل مرض السرطان والتوافق النفسي معه. هدفت الدراسة إلى الكشف عن العلاقة بين الصلابة النفسية والتوافق النفسي مع مرض السرطان، وإمكانية ثبات هذه العلاقة في ضوء متغيرات البحث (الجنس، المستوى التعليمي)، وقد بلغ حجم العينة (100) فرد (50 رجلاً و50 امرأة)، يعانون من مرض السرطان، وتوصلت الباحثة إلى وجود علاقة ارتباطية بين الصلابة النفسية وتقبل المرض، فكلما ارتفع مستوى الصلابة النفسية لأفراد العينة، كلما ارتفع التوافق النفسي لديهم وبالتالي ازداد تقبلهم لمرضهم.

8- دراسة مقبل (2010):

بعنوان التوافق النفسي وعلاقته بصلابة الأنا وبعض المتغيرات لدى مرضى الكلى. هدفت الدراسة إلى الكشف عن العلاقة بين التوافق النفسي وأبعاده وقوة الأنا وكل من المتغيرات لدى مرضى الكلى (مستوى الدخل، نوع المرض، العمر)، وبلغت العينة (300) مريض ومريضة، وتوصلت الدراسة إلى وجود علاقة طردية إحصائية دالة بين التوافق النفسي وأبعاده وصلابة الأنا لدى مرضى الكلى.

9- دراسة دحلان (2017):

هدفت الدراسة للتحقق من إمكانية أن تكون الصلابة النفسية متغيراً وسيطاً بين الضغوط النفسية والتوافق النفسي، مع التحقق من صحة النموذج المقترح من خلال فحص التأثير المباشر وغير المباشر للضغوط النفسية على التوافق النفسي لدى

عينة الدّراسة، وتحديد طبيعة العلاقة بينهما، وتكوّنت العينة من (419) طالب من خريجي الجامعات الفلسطينية، استخدم الباحث المنهج الوافي، وقد أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباطية بين كل من الصّلاية النفسيّة والضغط النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى خريجي الجامعات الفلسطينية، ووجود علاقة ارتباطية موجبة بين الصّلاية النفسيّة وأبعادها وبين التوافق النفسيّ وأبعاده، وعدم وجود علاقة ارتباطية بين الضغوط النفسيّة وأبعادها وبين التوافق النفسيّ وأبعاده ومساهمة الصّلاية النفسيّة والضغوط النفسيّة في التنبؤ بالتوافق النفسيّ لدى هؤلاء الطلاب.

10- دراسة مروة (2018):

بعنوان مؤشرات الصّلاية النفسيّة وعلاقتها بالتوافق النفسيّ لدى الراشدين المصابين بداء ارتفاع ضغط الدم، وقد هدفت الدّراسة إلى معرفة مستوى الصّلاية النفسيّة لدى الراشدين المصابين بارتفاع ضغط الدم، ومعرفة مستوى كل بعد من أبعاد الصّلاية النفسيّة لديهم (التحكم، الالتزام، التحدي)، وعلاقته بأبعاد التوافق النفسيّ، وقد تكوّنت عينة الدّراسة من (300) مريض بداء ارتفاع ضغط الدم، واستخدم المنهج الوصفي. وقد أظهرت النتائج وجود علاقة ارتباطية دالة إحصائياً بين أبعاد الصّلاية النفسيّة وأبعاد التوافق النفسيّ لدى الراشدين المصابين بارتفاع ضغط الدم، كما تبيّن وجود ارتفاع في مستوى مؤشرات الصّلاية النفسيّة أي (التحكم، الالتزام، التحدي) لدى أفراد العينة.

نلاحظ مما سبق أنّ معظم الدراسات السابقة قد توجّهت نحو فئة الطلاب أو الإداريين، أو المرضى المصابين بأمراض ارتفاع ضغط الدم أو الكلى أو السرطان، لذا تُعدّ الدّراسة الحالية أول دراسة تُجرى في المجتمع اللبناني وبالتحديد في مدينة طرابلس، من حيث ارتباط متغيري الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ -النّوع الثّاني على وجه الخصوص -على حد اطلاقنا- ، وهي بذلك سلّطت الضوء على البحث والتعمّق في العلاقة بين متغيرين لم تتطرّق إليهما أي دراسة بهذا الشكل على صعيد مرضى السّكريّ -النّوع الثّاني الذين يمثلون فئة كبيرة جدّاً في مجتمعنا اللبناني، مما دفع بالدّراسة الحالية إلى طرح الإشكالية التالية:

إشكالية الدّراسة

انطلاقاً مما سبق تطرح الدّراسة الحالية الإشكالية الرئيسية التالية :

هل توجد علاقة ارتباطية بين الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ -

النّوع الثّاني في مدينة طرابلس؟

و تتبثق من الإشكالية الرئيسيّة الأسئلة الفرعيّة التالية:

- ماهي درجة الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس؟

- هل ترتبط أبعاد الصّلاية النفسيّة بأبعاد التوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس؟

- هل توجد فروق دالة إحصائيّاً في مستوى الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس تبعاً لمدّة الإصابة بالمرض؟

- هل توجد فروق دالة إحصائيّاً في مستوى الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ تبعاً العمر لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس؟

- هل توجد فروق دالة إحصائيّاً بين الذكور والإناث في مستوى الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس؟

- هل توجد فروق دالة إحصائيّاً في مستوى الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ تُعزى للوضع الاجتماعيّ لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس؟

سابعاً: فرضيات الدّراسة

انطلاقاً من التساؤلات السالفة الذكر ، تفترض الدّراسة الحالية ما يلي:

الفرضية الرئيسيّة:

يوجد ارتباط جوهري بين الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ -النّوع الثّاني في مدينة طرابلس.

ومن هذه الفرضية انبثقت **الفرضيات الفرعية التالية:**

- توجد علاقة دالة إحصائيّاً بين أبعاد الصّلاية النفسيّة وأبعاد التوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس.

- توجد فروق دالة إحصائيّاً في مستوى الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ -النّوع الثّاني في مدينة طرابلس تبعاً لمدّة الإصابة بالمرض.

- توجد فروق دالة إحصائيّاً في مستوى الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ تبعاً للعمر لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس.

- توجد فروق دالة إحصائيّاً بين الذكور والإناث في مستوى الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ-النّوع الثّاني في مدينة طرابلس.

- توجد فروق دالة إحصائيّاً في مستوى الصّلاية النفسيّة والتوافق النفسيّ تبعاً للمستوى

التعليمي لدى مرضى السكري-النوع الثاني في مدينة طرابلس.
 - توجد فروق دالة إحصائية في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي تعزى للوضع الاجتماعي لدى مرضى السكري-النوع الثاني في مدينة طرابلس.
ثامناً: حدود الدراسة:

تحدد نتائج الدراسة الحالية بالمحددات التالية:

- **الحدود المكانية:** نفذت هذه الدراسة في المستشفيات الخاصة والحكومية في مدينة طرابلس شمال لبنان.

- **الحدود الزمانية:** أجريت هذه الدراسة خلال (2019-2018) وقد تم تنفيذ الجانب الميداني خلال الفترة الزمنية من شهر أيلول 2018 إلى شهر نيسان 2019.

- **الحدود البشرية:** اقتصرت هذه الدراسة على مرضى السكري النوع الثاني (type2)، والذين تزيد مدة إصابتهم بالمرض عن سنة كاملة ولا يعانون من أي تعقيدات خطيرة، وتتراوح أعمارهم بين 18 و65 سنة.

- **الحدود النوعية:** تتحدد هذه الدراسة في المتغيرات المتمثلة بالصلابة النفسية (متغير مستقل) والتوافق النفسي (متغير تابع)، وفي مرضى السكري.

- **الحدود الموضوعية:** وهي ترتبط بأدوات القياس الموضوعية المستخدمة في الدراسة والمتمثلة في مقياس الصلابة النفسية ل كوبازا (kopaza) (1983)، وقد قام بتعريبه وتقنيته عماد مخيمر (2002)، ومقياس التوافق النفسي لدى مرضى السكري ل Stewart DEBIN ستيوارت ديبين وقد قام بترجمته وتقنيته فيصل صبحي (2015) وتحدد نتائج الدراسة بدرجة صدق وثبات هذين المقياسين.

تاسعاً: منهجية الدراسة

تجلت منهجية الدراسة في تناول المنهج، المجتمع، العينة والتقنيات .

1-منهج الدراسة :

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي الارتباطي انطلاقاً من محور أهداف البحث حول دراسة إمكانية وجود العلاقة بين الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى مرضى السكري،- النوع الثاني وبالتالي الكشف عن العلاقة بين متغيرين لمعرفة مدى الارتباط بينهما والتعبير عنه بصورة رقمية، إضافة إلى معرفة مقدار العلاقة واتجاهاتها (سالبة أو موجبة) بين هذين المتغيرين والتنبؤ بتأثيرهما على بعضهما.

2- مجتمع الدراسة:

تحدّدت معالم مجتمع البحث وفق مؤشرين هما:

- نوع مرض السّكريّ: حيث تحدّد أفراد مجتمع البحث بمرض السّكريّ من النّوع الثّاني (type2) فقط.

- الحيز الجغرافي: تحدّد مجتمع البحث بالمرضى الذين يتابعون علاجهم في العيادات المختصة بالغدد والسّكريّ في المستشفيات الخاصة والحكومية (النيني - المظلوم - الزهراء - الشفاء - الحنان - المنلا - السلام - الإسلامي الخاص - طرابلس الحكومي - لبنان القلب) في مدينة طرابلس-شمال لبنان.

3- عينة الدراسة: بلغت عينة الدراسة 600 مصاب من المرحلة العمرية 18-65

وقد تم استخدام العينة القصدية لتحديد الفئة المستهدفة. وقد توزعت العينة على الشكل الآتي:

الجدول رقم 1: يوضّح المتغيرات الديمغرافية

المتغير	الفئة	التكرارات	النسبة المئوية
الجنس	ذكر	250	41.6
	أنثى	350	58.4
العمر	18 - 25	15	2.5
	25 - 35	25	4.2
	35-45	75	12.5
	45-55	195	35.5
	55-65	290	48.3
المؤهل العلمي	غير متعلم	106	17.7
	ابتدائي	114	19
	متوسط	123	20.5
	ثانوي	157	26.1
	جامعي	100	16.7
الوضع الاجتماعي	أعزب/ة	62	10.3

61.3	368	متزوج/ة	
23.5	141	مطلق/ة	
4.83	29	أرمل/ة	
1.5	9	أقل من سنة	مدة الإصابة بالمرض
19.3	116	من سنة إلى خمس سنوات	
17.7	106	من 5 سنوات حتى 10	
61.5	369	أكثر من 10 سنوات	

يوضح الجدول ما يلي:

الجنس : تشير النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن عدد الإناث بلغ 350 ، أي ما نسبته 58.4 % من عينة الدراسة هم من الإناث، وأن عدد الذكور بلغ 250 ، أي بنسبة 41.6 % من عينة الدراسة. ما يقيس إصابة الإناث أكثر من الذكور بمرض السكري-النوع الثاني.

الفئة العمرية : توزعت أعمار عينة الدراسة على الفئات العمرية الخمسة ولكن بنسب متفاوتة أكثرها فئة (55-65) بما نسبته 48.3%، ثم تليها الفئة العمرية (45-55) بما نسبته 35.5% وكانت الفئة العمرية الأقل الذين بلغت أعمارهم (18-25) بما نسبته 2.5%. مما يدل على أغلب مرضى السكري-النوع الثاني هم من الأعمار الكبيرة. المؤهل العلمي : أما بما يتعلق بالمؤهل العلمي فإن النسبة الأكبر هي لحاملي شهادات الثانوي بنسبة (26.7 %) ونلاحظ أن النسب كانت متفاوتة .

الوضع الاجتماعي: كانت النسبة الأكبر للمتزوجين حيث بلغت (368 مصابا) . مدة الإصابة بالمرض: بلغت النسبة الأكبر لأكثر من 10 سنوات بنسبة 61.7 %.

4- تقنيات الدراسة:

استخدمت الدراسة ما يلي:

1- استمارة البيانات العامة:

تشمل هذه الاستمارة البيانات المتعلقة بالأفراد الذين يتابعون علاجهم في العيادات الخاصة بأمراض الغدد والسكري في المستشفيات الخاصة والحكومية

في مدينة طرابلس، وهذه البيانات تتعلق بالعمر، الجنس، مدة الإصابة بمرض السكري (بالسنوات)، المستوى التعليمي، نوع مرض السكري، الحالة الاجتماعية.

2- مقياس الصلابة النفسية:

تم استخدام مقياس الصلابة النفسية لkobaza وقد قام بترجمته وتقنيته عماد مخيمر (2002)، ويتكوّن هذا المقياس من (48) عبارة تقيس ثلاثة أبعاد هي: الالتزام (16) عبارة)، التحكم (16 عبارة)، التحدي (16 عبارة)، ويطلب من المستجوب تقدير إجابته عن طريق تدرج رباعي، وتتراوح الدرجات بين (3-0)، باختيار أحد البدائل الأربعة (كلا-قليلاً-متوسط-كثيراً)، وتعطى الدرجات على التوالي (صفر-3-2-1)، وتتراوح الدرجة الكلية للمقياس بين (22-0) درجة.

- الخصائص السيكومترية للمقياس:

تم التحقق من صدق وثبات المقياس كما يلي:

أ- ثبات المقياس: قمنا بتطبيق المقياس على أفراد العينة (ن=600)، وقد تم حساب ثبات الأبعاد الفرعية والثبات الكلي لمقياس الصلابة النفسية عن طريق معامل ألفا كرونباخ Cronbach، فتبين أن معاملات ثبات الأبعاد الفرعية والثبات الكلي للمقياس مرتفعة، مما يدل على الثبات الكلي للمقياس وثبات أبعاده الفرعية كما يبين الجدول التالي:

الجدول رقم 2: يبين معامل الاتساق الداخلي وفق معادلة كرونباخ ألفا لمقياس الصلابة النفسية (ن=600)

الأبعاد الفرعية	عدد العبارات	ألفا كرونباخ
الالتزام	16	0.918
التحكم	16	0.914
التحدي	16	0.956
المجموع	48	0.929

ويتضح من الجدول السابق رقم 2 أن قيم معاملات ألفا جميعها مرتفعة أي الاتساق الداخلي قوي بين جميع الاعتبارات حيث هو أكثر من 0.7 فبلغت 0.929 مما يعني أن أداة القياس لكل متغير من متغيرات الدراسة تتمتع بثبات كلي فيما يخص عينة الدراسة وملائمة لغايات الدراسة.

ب- صدق المقياس

تم قياس صدق الاتساق الداخلي عن طريق اختبار الفرق بين المتوسط الحسابي والوسط الفرضي لمقياس الصلابة النفسية:
الجدول رقم 3: يبين الفرق بين المتوسط الحسابي والوسط الفرضي لمقياس الصلابة النفسية

الفئات	المتوسط الحسابي	الوسط الفرضي	الانحراف المعياري	قيمة ت المحسوبة	مستوى الدلالة
600	475.3	400	35.63	199.4	0.01

يتضح من الجدول أعلاه أن المتوسط الحسابي والوسط الفرضي مرتفع حيث بلغ المتوسط الحسابي 475.3 والوسط الفرضي (400) هذا ما يدل على تمتع المقياس بالصدق وتماسك بنوده.

3-مقياس التوافق النفسي:

تم استخدام مقياس التوافق النفسي مع مرض السكري ل Stewart Debbin وقد قام بترجمته وتقنيته فيصل صبحي(2015)، ويتكون هذا المقياس من (35) عبارة تقيس ستة أبعاد وهي (ضغط مرض السكري، التكيف، الشعور بالذنب، التعاون، معتقدات حول المرض، التسامح مع المرض وتوزيع الإجابات على مقياس خماسي وتتراوح الدرجات بين(5-1) باختيار أحد البدائل الخمسة التالية(غير موافق على الإطلاق، غير موافق إلى حد ما، لا أستطيع أن أقرر، موافق إلى حد ما، موافق على الإطلاق)، وتعطى الدرجات (5-4-3-2-1) على التوالي.

تم حساب الدرجة الكلية لمقياس التوافق النفسي من خلال ضرب عدد الفقرات والتي عددها 35 في الوزن باعتباره أقل درجة وعليه تكون أقل قيمك 35 أما الدرجة القصوى فقد تبلغ 175 من خلال ضرب عدد الفقرات في الوزن 5 باعتباره أعلى درجة وبذلك فإن الدرجة الكلية للمقياس تتراوح بي 35 و175.

الجدول رقم 4: وزن ودرجة الموافقة لمقياس ليكرت الخكاسي

الوزن	المقياس الخماسي	درجة الموافقة المعتمدة
5	موافق على الإطلاق	عالي
4	موافق إلى حد ما	جيد
3	لا أستطيع أن أقرر	متوسط
2	غير موافق إلى حد ما	منخفض
1	غير موافق على الإطلاق	ضعيف

الخصائص السيكمترية للمقياس:

تم التحقق من ثبات وصدق المقياس كما يلي:
أ- ثبات المقياس:

الجدول رقم 5: يبين معامل الاتساق الداخلي وفق معادلة كرونباخ ألفا لمقياس التوافق النفسي

الأبعاد الفرعية	عدد العبارات	ألفا كرونباخ
ضغط مرض السكرى	6	0.955
الشعور بالذنب	7	0.910
التكيف	7	0.911
التعاون	6	0.912
معتقدات حول المرض	5	0.932
التسامح مع المرض	4	0.917
المجموع	35	0.925

ويتضح من الجدول السابق رقم 52 أن قيم معاملات ألفا جميعها مرتفعة أي الاتساق الداخلي قوي بين جميع الاعتبارات حيث هو أكثر من 0.7 فبلغت 0.925 مما يعني أن أداة القياس لكل متغير من متغيرات الدراسة تتمتع بثبات كلي فيما يخص عينة الدراسة وملائمة لغايات الدراسة.

ب- صدق المقياس

تم قياس صدق الاتساق الداخلي عن طريق اختبار الفرق بين المتوسط الحسابي والوسط الفرضي لمقياس التوافق النفسي:

الجدول رقم 6: يبين الفرق بين المتوسط الحسابي والوسط الفرضي لمقياس التوافق النفسي

العينه	المتوسط الحسابي	الوسط الفرضي	الانحراف المعياري	قيمة ت المحسوبة	مستوى الدلالة
600	475.3	400	35.63	199.4	0.01

يشير الجدول أعلاه أن قيمة ت بلغت 199.4 وهذه القيمة دالة عند مستوى دلالة 0.01 حيث أن المتوسط الحسابي للعينه أكبر من الوسط الفرضي وهذا ما يؤكد أن درجة صدق المقياس مرتفعة.

عاشراً: الأساليب الإحصائية وعرض النتائج ومناقشتها.

- الأساليب الإحصائية

تمت الاستعانة ببرنامج SPSS 24 في عملية التقريغ والتحليل الإحصائي للبيانات واختبار فرضيات الدراسة، حيث اشتملت على الأساليب الإحصائية التالية:

- معامل ألفا كرونباخ Cronbach's Alpha من أجل اختبار ثبات أداة الدراسة.
- التكرارات والنسب المئوية من أجل عرض خصائص العينه ومعرفة مدى موافقة أفرادها على عبارات الاستبيان.
- المتوسطات الحسابية الانحرافات المعيارية لمعرفة اتجاهات إجابات أفراد العينه.
- معامل الارتباط Pearson Correlation لاختبار العلاقة بين المتغير المستقل والمتغير التابع، وبالتالي التحقق من الفرضيات.
- اختبار «ت» t-test للتعرف على دلالة الفروق بين متوسطات حسابية لمجموعتين أو أكثر.
- اختبار تحليل التباين الأحادي one way anova .

- عرض النتائج ومناقشتها

الفرضيات:

مناقشة الفرضية الرئيسية:

يوجد ارتباط جوهري بين الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى مرضى السكري في مدينة طرابلس.

للتحقق من مدى صحة الفرضية تم استخراج معامل ارتباط بيرسون بين الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى مرضى السكري-النوع الثاني في المستشفيات الخاصة

والحكومية في طرابلس-شمال لبنان والجدول رقم 7 يوضح ذلك:
الجدول رقم 7: يبين معامل ارتباط بيرسون بين الصلابة النفسية والتوافق النفسي

الصلابة النفسية التوافق النفسي

التوافق النفسي	معامل الارتباط 2	1	. 459 **
	الدلالة لإحصائية	000.	000.
	العدد	600	600
الصلابة النفسية	معامل الارتباط 2	. 459 *	1
	الدلالة لإحصائية	000.	000.
	العدد	600	600

** دالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.01)
* دالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.05)

يشير الجدول رقم 7 إلى وجود علاقة طردية دالة إحصائياً بين التوافق النفسي والصلابة النفسية حيث بلغت معامل الارتباط 0.459 عند مستوى الدلالة 0.01 وهذا ما يدل على أنه كلما زاد مستوى الصلابة النفسية عند مرضى السكري -النوع الثاني زاد معه مستوى التوافق النفسي والعكس صحيح أي كلما انخفض مستوى الصلابة النفسية انخفض معه مستوى التوافق النفسي عند أفراد العينة وبالتالي فقد تحققت الفرضية الرئيسية.

يمكن تفسير هذه النتيجة بالتوافق مع بعض الدراسات مثل دراسة مرفت عايش (2010) حيث أظهرت وجود علاقة طردية دالة إحصائياً بين قوة الأنا والتوافق النفسي لدى مرضى السكري وأظهرت دراسة كلارك (1996) دور الصلابة النفسية في زيادة الصحة النفسية في حين كانت النتيجة معاكسة لدراسة العبيدي (2004) التي أظهرت وجود علاقة عكسية دالة إحصائياً « بين قوة الأنا والتوافق النفسي الاجتماعي. كما تفسر هذه النتيجة في ضوء السمات التي يتمتع بها الأفراد، حيث أن الأشخاص ذوي الصلابة النفسية يتسمون بالقوة والقدرة على السيطرة وال ضبط الداخلي والكفاية والنشاط والطموح والواقعية في حين أن الأشخاص الأقل صلابة هم أكثر مرضاً وعجزاً وأقل اقتداراً ونشاطاً» وطموحاً» وعليه تعتبر الصلابة عاملاً مهماً ومفيداً لمقاومة الضغوط وذلك من خلال إكساب المريض قدرًا من المرونة خاصة أن عملية

التوافق تحتاج إلى إرادة وعزيمة وإصرار لتحمل التغيرات المفاجئة في البيئة المحيطة بالفرد، فالفرد المصاب بمرض مزمن كالسكريّ النوع الثاني، تزداد حاجته للتوافق النفسيّ كي يحدث الاتزان في شخصيته، وهذا لن يحدث إلا إذا كان الفرد راضياً عن ذاته متقبلاً لمرضه ولديه الصلابة أي القدرة والخصائص النفسيّة التي تساعده على تحمّل المواقف المحيطة.

مناقشة الفرضية الأولى:

- توجد علاقة دالة إحصائياً بين أبعاد الصلابة النفسيّة وأبعاد التوافق النفسيّ لدى مرضى السكريّ في مدينة طرابلس.

للتعمق أكثر في كيفية العلاقة التي يرتبط بها التوافق النفسيّ بالصلابة النفسيّة تمّ حساب معاملات الارتباط بين أبعاد التوافق النفسيّ (ضغط مرض السكريّ)-الشعور بالذنب- التكيف-التعاون-معتقدات حول المرض-التسامح مع المرض وأبعاد الصلابة النفسيّة (الالتزام-التحكم -التحدي) وفي ما يلي نتائج العملية:

الجدول رقم 8: يبيّن العلاقة التي يرتبط بها التوافق النفسيّ بالصلابة النفسيّة

		معامل الارتباط			
		الالتزام	التحكم	التحدي	الصلابة النفسيّة
ضغط مرض السكريّ	معامل الارتباط 2	**259.	**159.	**159.	**259.
	الدلالة الإحصائية	000.	000.	000.	000.
	العدد	600	600	600	600
	معامل الارتباط 2	**123.	**129.	**179.	**159.
الشعور بالذنب	الدلالة الإحصائية	000.	000.	000.	000.
	العدد	600	600	600	600
	معامل الارتباط 2	**423.	**329.	**479.	**459.
	الدلالة الإحصائية	000.	000.	000.	000.
التكيف	العدد	600	600	600	600

التعاون	معامل الارتباط ²	**359.	**358.	**336.	**338.
	الدلالة الإحصائية	000.	000.	000.	000.
	العدد	600	600	600	600
	معامل الارتباط ²	**357.	**456.	**423.	**402.
معتقدات حول المرض	معامل الارتباط ²	**357.	**456.	**423.	**402.
	الدلالة الإحصائية	000.	000.	000.	000.
	العدد	600	600	600	600
	معامل الارتباط ²	-0.65	-0.22	-0.36	-0.45
التسامح مع المرض	معامل الارتباط ²	-0.65	-0.22	-0.36	-0.45
	الدلالة الإحصائية	000.	000.	000.	000.
	العدد	600	600	600	600
	معامل الارتباط ²	**456.	**259.	**359.	**459.
التوافق النفسي	معامل الارتباط ²	**456.	**259.	**359.	**459.
	الدلالة الإحصائية	000.	000.	000.	000.
	العدد	600	600	600	600
	معامل الارتباط ²	000.	000.	000.	000.

** دالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.01)

* دالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.05)

يبين الجدول أعلاه أن هناك أبعادا من الصلابة النفسية ارتبطت مع أبعاد من التوافق النفسي وكان الارتباط موجبا ودالا إحصائيا عند مستوى الدلالة 0.01 في حين أن هناك أبعادا من الصلابة النفسية كان ارتباطها غير دال إحصائيا مع أبعاد التوافق النفسي.

يظهر من خلال الجدول أعلاه ، أن هناك علاقة ارتباطية ذات دلالة إحصائية بين الصلابة النفسية وأبعادها الثلاثة (الالتزام-التحكم -التحدي) مع التوافق النفسي بثلاثة من أبعاده (التكيف، التعاون، معتقدات حول المرض).

حيث بلغت معامل الارتباط في بعد التكيف والتحدي (0.479)، بعد التكيف - التحكم (0.329)، بعد التكيف- الالتزام (0.423)، وهذا ما يشير إلى دلالة إحصائية

مرتفعة على مستوى (0.01)، كما بلغت معامل الارتباط بين بعد التعاون والتحدي (0.336)، بعد التفاؤل - التحكم (0.358)، وبعد التعاون - الالتزام (0.359)، مما يشير إلى دلالة إحصائية مرتفعة على مستوى (0.01)، أيضاً بلغت معامل الارتباط في بعد المعتقدات حول المرض والتحدي (0.423)، وهذا البعد مع التحكم (0.456)، وهذا البعد مع الالتزام (0.357)، مما يدل على دلالة إحصائية مرتفعة. إذا تحققت هذه الفرضية في ما يتعلق بأبعاد التوافق النفسي الثلاثة (التكيف، التعاون، معتقدات حول المرض)

فقد جاءت نتيجة هذه الفرضية متوافقة مع دراسة هول وآخرون (1987) حيث أظهرت وجود علاقة سالبة بين الصلابة النفسية والاكئاب ووجود ارتباط موجب بين الصلابة النفسية وتقدير الذات ومتوافقة مع دراسة عودة (2010) فقد بينت أن للصلابة النفسية دوراً حاسماً في تحسين الأداء والصحة النفسية.

ويمكن تفسير هذه النتيجة، بأن الشخص الذي يتمتع بالصلابة النفسية هو إنسان قادر على الصمود والمقاومة والتكيف والتوافق النفسي إضافة إلى قدرته على التحكم في الأحداث حيث تعد الصلابة النفسية إحدى السمات التي تمارس دوراً وسيطاً بين المرض وما يحدث من ضغوط على الصحة حيث أظهرت دراسة سكينر (2002) أن الصلابة النفسية هي العنصر الأكثر أهمية في تقبل الفرد لمرضه والتكيف معه. كما أن الأشخاص أصحاب الصلابة النفسية يتميزون بالترامهم بالعمل ولا يشعرون بالغيرة وينظرون إلى التغيير على أنه تحد عادي بدلاً من شعورهم بالتهديد ولهم القدرة على التعاون والتكيف مع المواقف الجديدة والاحتفاظ بالهدوء والثبات في أشد وأقصى الظروف .

فالصلابة النفسية بأبعادها الثلاثة تساعد الفرد على البقاء منخرطاً في ما يحدث من حوله بدلاً من الابتعاد والإحساس بالاغتراب كما تساعد على تقبل التغييرات وجعلها فرصاً للنمو والتطور .

بينما لم تتحقق الفرضية في ما يتعلق بالارتباط بين أبعاد الصلابة النفسية وأبعاد التوافق النفسي (التسامح مع المرض، ضغط مرض السكري، الشعور بالذنب) . إذ تبين عدم وجود علاقة ارتباطية دالة إحصائية بين الدرجة الكلية للصلابة النفسية وأبعادها الثلاثة (الالتزام - التحكم - التحدي) مع كل من أبعاد التوافق النفسي (التسامح مع المرض، ضغط مرض السكري، الشعور بالذنب)، حيث

بلغت معامل الارتباط بين بُعد التسامح مع المرض وبُعد التحدي (0.36)، وبعد التحكم (0.22)، وبعد الالتزام (0.65)، وهذا يشير إلى عدم وجود دلالة إحصائية على مستوى (0.01)، بينما بلغت معامل الارتباط بين بُعد ضغط مرض السكرى وبُعد التحدي (0.159) وبُعد التحكم (0.159) وبُعد الالتزام (0.259)، فلا دلالة إحصائية اذن على مستوى دلالة (0.01)، كما بلغت معامل الارتباط بين بعد الشعور بالذنب وأبعاد التحدي (0.179) والتحكم (0.129) والالتزام (0.123) مما يشير إلى عدم وجود دلالة إحصائية على مستوى (0.01).

ويمكن تفسير هذه النتيجة على أنه بالرغم من أنّ الصلابة النفسيّة تساهم في تحقيق الصحة النفسيّة والتوافق النفسيّ حسب KOBASA 1983، إلا أنّ الصلابة النفسيّة لم تستطع الحؤول دون الشعور بالذنب وعدم التسامح مع مرض السكرى والشعور بالضغط النفسيّ من جراء هذا المرض، فالظروف المعقدة التي يعيشها الفرد في المجتمع اللبناني وخاصةً في مدينة طرابلس (الظروف المعيشية القاسية، الفقر، البطالة، الحرمان...) تدفع بمرضى السكرى إلى فقدان الأمل وعدم التفاؤل والنظرة السلبية للحياة وبالتالي إلى زعزعة التوازن النفسيّ والشعور بالذنب والضغط والإجهاد وعدم التسامح مع الذات والآخرين ومع المرض.

مناقشة الفرضية الثانية:

– توجد فروق دالة إحصائية في مستوى الصلابة النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السكرى في مدينة طرابلس تُعزى لمدة الإصابة بالمرض
الجدول رقم 9: يبين مستوى الصلابة النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السكرى في مدينة طرابلس تُعزى لمدة الإصابة بالمرض

مستوى الدلالة	قيمة ت الجدولية	قيمة ت محسوبة	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	العدد	مدة الإصابة بالسنوات	التوافق النفسي
0.05	2.125	-0.555	1.366	3.588	9	أقل من سنة	
			1.369	4.256	116	من سنة إلى خمس سنوات	
			1.233	4.235	106	من 5 حتى 10	
			1.969	3.987	369	أكثر من 10	

مستوى الدلالة	قيمة ت الجدولية	قيمة ت محسوبة	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	العدد	مدة الإصابة بالسنوات	الصّلاية النفسيّة
0.05	2.125	0.590	1.466	3.500	9	أقل من سنة	
			1.669	3.258	116	من سنة إلى خمس سنوات	
			1.533	4.153	106	من 5 حتى 10	
			1.569	3.912	369	أكثر من 10	

تم تقسيم عينة البحث إلى أربع مجموعات كما تمّ استخدام اختبار test لحساب دلالة الفروق بين المجموعات الأربعة بشكل مستقل وغير مرتبط في الصّلاية النفسيّة وفق متغير عدد سنوات الإصابة بالسّكريّ- النوع الثّاني.

ويتضح من الجدول أعلاه أن قيمة ت المحسوبة -0.555 للتوافق النفسيّ أقل من قيمة ت الجدولية 2.125 عند مستوى الدلالة 0.05 ما يفسر قبول الفرض الصفري ورفض الفرض البديل الذي ينص على وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة 0.05 بين متوسط درجات أفراد العينة في الصّلاية وفق متغير عدد سنوات الإصابة بمرض السّكريّ وبالتالي تم رفض هذه الفرضية.

جاءت هذه النتيجة موافقة لدراسة (Talley et al(2001 التي أفضت إلى أنه بعد ثلاث سنوات من الإصابة بمرض السّكريّ لا توجد فروق في التوافق النفسيّ كما جاءت مختلفة مع دراسة Dawn 2013 سوء التوافق النفسيّ والاضطرابات النفسيّة مع داء السّكريّ التي تزداد بزيادة عدد سنوات الإصابة.

وقد تُفسر هذه النتيجة بموقف المريض من المرض وكيفية استجابته عند شعوره بالتوتر والخوف والقلق على صحته فيهتم بصحة جسمه أكثر ويكون أكثر دقة واهتمامًا في كيفية أخذ الدواء ومتابعة الطبيب المختص ولكن بعد فترة من الزمن يتكيف مع المرض ويتأقلم مع حالته ونوع غذائه وكيفية حقنه للإنسولين والقيام بالتمارين البدنية.

نضيف أنّ الإدراك الإيجابي من قبل مريض السّكريّ لمرضه والقدرة على التحكم بالذات لديه يساعده على تطوير أساليب واستراتيجيات وآليات فعالة مع مرور سنوات على هذا المرض المزمّن بهدف معاشته والتكيف معه.

أما فيما يخص الصلابة النفسية فإن قيمة ت المحسوبة 0.590 أقل من قيمة ت الجدولية 2.125 ومستوى الدلالة 0.05 وعليه أيضا يتم قبول الفرض الصفري ويرفض الفرض البديل الذي ينص على أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة إحصائية 0.05 بين متوسط أفراد العينة في الصلابة النفسية وفق متغير عدد سنوات الإصابة بمرض السكري .

تفسر الباحثة هذه النتيجة بعدة عوامل أبرزها موقف الفرد من المرض وقدرته على التحكم بذاته والتكيف مع المواقف الصعبة التي يمر بها.

كما أنه يوجد عامل آخر مهم وهو الدعم الاجتماعي الذي يؤدي دورا مهما جدا في الصلابة النفسية حيث أظهرت دراسات عديدة منها دراسة مقبل (2010) أن المساندة الاجتماعية تقوي الصلابة النفسية وتزيد من شعور الفرد بالقيمة والأهمية مما يجعله أكثر توازنا وفعالية. ونشير هنا في هذا السياق أن مريض السكري في مجتمعنا اللبناني بشكل عام يلقي كل الدعم والمؤازرة من الأسرة والأصدقاء والمحيطين به وهذا من مبادئ وقيم وعادات مجتمعنا مما يعزز من صلابته النفسية ويزيد بالتالي من توافقه النفسي مع المرض مع مرور سنوات الإصابة به.

مناقشة الفرضية الثالثة:

- توجد فروق دالة إحصائية في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي تعزى للعمر لدى مرضى السكري في مدينة طرابلس.

الجدول رقم 10: يبين مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى مرضى السكري في مدينة طرابلس تعزى للعمر.

العمر	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة ت محسوبة	قيمة ت الجدولية	مستوى الدلالة
18-25	15	3.588	1.366	0.422	2.145	0.05
25-35	25	4.256	1.369			
35-45	75	4.235	1.233			
45-55	195	3.458	1.969			
55 مافوق	290	4.222	1.966			

يتضح من الجدول أعلاه أن قيمة ت المحسوبة 0.422 أقل من قيمة ت الجدولية 2.145 عند مستوى الدلالة 0.05 مما يشير إلى عدم صحة هذه الفرضية التي افترضت أن وجود فروق بين التوافق النفسي والصلابة النفسية وفقاً لمتغير العمر. وتتفق هذه النتيجة مع دراسة Talley et al 2001 ودراسة الشمري (2014) ودراسة الحجار (2003)، حيث أظهرت هذه الدراسات عدم وجود فروق إحصائية دالة في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي تعود للسن، كما اختلفت هذه النتيجة مع دراسة zinc et al (2005) ودراسة Show (2017) ودراسة بدر (2008) إذ أشارت هذه الدراسات إلى وجود علاقة بين الصلابة النفسية والتوافق النفسي لمتغير العمر. ويمكن تفسير هذه النتيجة على اعتبار أن الصلابة النفسية هي سمة شخصية ثابتة تتكون منذ الطفولة وتتطور بمرور السنوات إذ لا يمكن تحديدها بعمر معين وهو ما أكدته كوبازا (1983) حيث أشارت إلى أن الصلابة النفسية سمة شخصية لا تتحدد بسن معين.

ويؤدّي السن دوراً مهماً من حيث المفاهيم المؤثرة في السلوكيات الصحية وفي قدرة الفرد على التوافق مع الأمراض المزمنة فزيادة السن تؤدي إلى زيادة الخبرة وتطوير المعتقدات ونضج في السلوكيات، نضيف أيضاً إلى ما سبق بأن العلاقة الناجحة المستمرة مع الأطباء قد تكون خلقت نوعاً من الطمأنينة والثقة بالنفس لدى مرضى السكري مما ساعدهم على التكيف وعلى تحسين التوافق النفسي مع المرض على اختلاف أعمارهم.

كما يمكن تفسير هذه النتيجة على صعيد المرحلة العمرية التي يتميز بها أفراد عينة هذه الدراسة إذ بلغت مرحلة الرشد النسبة الأكبر من أفراد العينة، أي بين (44-65) سنة، وبالتالي هذه الفئة العمرية تكون قد وصلت إلى مستوى متقدم من النضج يشعر مريض السكري من خلاله بإمكاناته وقدراته ويعمل بالتالي على تحقيق أهدافه وإثبات ذاته بصورة مستمرة.

وبالتالي يمكن تفسير هذه النتيجة في سياق العوامل المؤثرة في عملية التوافق النفسي المتمثلة في وسائل الإعلام والاتصال الحديثة والتقليدية ولا بد من تسليط الضوء على الوسائل الإعلامية سواء الحديثة أم التقليدية والتي تساعد على نشر التوعية عن مرض السكري من حيث أسبابه وأعراضه ومضاعفاته وكيفية التأقلم معه وطرق علاجه وتقديم البرامج التي تؤثر على سلوك المرضى حسب اختلاف أعمارهم.

مناقشة الفرضية الرابعة:

توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى مرضى السكري - النوع الثاني في مدينة طرابلس
الجدول رقم 11: يبين الفروق بين الذكور والإناث في مستوى التوافق النفسي لدى مرضى السكري في مدينة طرابلس.

التوافق النفسي	الجنس	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة ت محسوبة	قيمة ت الجدولية	مستوى الدلالة
	ذكر	250	4.233	1.366	0.202	2.125	0.05
	أنثى	350	4.566	1.699			
الصلابة النفسية	ذكر	250	3.233	1.266	0.460	2.128	0.05
	أنثى	350	3.566	1.699			

يتضح في الجدول أعلاه أن قيمة ت المحسوبة (0,202) أقل من قيمة ت الجدولية (2,125) عند مستوى دلالة (0,05) ، وعليه يتم قبول الفرض الصفري ورفض الفرض البديل الذي ينص على أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة (0,05) بين متوسط درجات أفراد العينة مع داء السكري - النوع الثاني وفقاً لمتغير الجنس (ذكر - أنثى).

أيضاً يوضح لنا الجدول أعلاه أن قيمة ت المحسوبة (0,460) أقل من قيمة ت الجدولية (2,128) عند مستوى دلالة (0,05) ، وعليه يتم قبول الفرض الصفري ورفض الفرض البديل الذي ينص على أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسط درجات أفراد العينة من الصلابة النفسية مع داء السكري - النوع الثاني وفقاً لمتغير الجنس (ذكر - أنثى). وبالتالي تم رفض هذه الفرضية.

وقد توافقت هذه الدراسة مع دراسة منصور (2012) التي أظهرت عدم وجود فروق بين الجنسين في مجال الصلابة النفسية والتوافق النفسي ، كما اختلفت مع دراسة كل من Rubin (2000) ومخيمر (1998) ودراسة الشمري (2008) ، ودراسة Stephenson (1990) ، ودراسة عطاف (2010) ، حيث أشارت هذه الدراسات إلى وجود فروق بين الإناث والذكور في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي. ويمكن تفسير هذه النتيجة بأن معاملة مرضى السكري من كلا الجنسين تكون دائماً بالدرجة والطريقة نفسها، إذ لا فرق في المعاملة الجيدة والطيبة بين الذكور والإناث،

كما أنّ عدم تأثير نوع الجنس على مستوى الصلابة النفسيّة والتوافق النفسيّ لدى مرضى السّكريّ - النوع الثّاني، قد يعود إلى مدى التزام كل مريض بمتطلبات العلاج (أدوية ، حمية ، النشاط الرياضي) وبالتالي فإن الالتزام الصحي للمريض له تأثير مباشر وقوي على هذين المتغيرين وليس جنسه، ونضيف إلى ما سبق الظروف المشابهة التي يتمتع بها الجنسان في الكثير من نواحي الحياة اليوميّة، خاصةً في مجال التكفل الطّبي، أي أنّ مرضى السّكريّ (ذكورا وإناثا) يعيشون ظروفًا واحدة، كما يمكن تفسير ذلك أيضًا بمتابعتهم للعلاج بصفة دائمة، كما تعتبر الصلابة النفسيّة إحدى السمات الشّخصيّة التي يكتسبها مريض السّكريّ (ذكرا أو أنثى) عن طريق الخبرات والأحداث التي يعيشها والتي تسهم في الحفاظ على صحته النفسيّة والجسديّة، فهي قوّة داخلية يمتلكها تجعله صامدًا مثابرًا لمواجهة أزمة مرض السّكري، فتشكّل بذلك عاملاً محافظاً على تواقفه النفسيّ.

مناقشة الفرضية الخامسة:

توجد فروق دالة إحصائيًا في مستوى الصلابة النفسيّة والتوافق النفسيّ تُعزى للمستوى التعليمي لدى مرضى السّكريّ - النوع الثّاني في مدينة طرابلس

الجدول رقم 12: يبيّن الفروق بين الذكور والإناث في مستوى الصلابة النفسيّة لدى مرضى السّكريّ في مدينة طرابلس.

مصدر التباين	درجات الحرية	مجموع المربعات	مربع المتوسطات	قيمة ف	مستوى الدلالة
بين المجموعات	200	612.456	526.468	2.122	0.05
داخل المجموعات	400	47632.36	590.814		
بين المجموعات	200	3816.516	6652.312	1.223	0.05
داخل المجموعات	400	59231.521	58362.221		

يتضح من الجدول أعلاه أنّ قيمة ف المحسوبة (2,122) بين متوسطات درجات أفراد عينة الدّراسة للتوافق النفسيّ مع مرض السّكريّ - النوع الثّاني تبعًا لمتغير المستوى التعليمي أقل من قيمة ف الجدولة (ف ت 2,37) عند مستوى الدلالة (0,05) ، وعليه لا توجد فروق بين متوسطات درجات أفراد العينة لمقياس التوافق

النَّفسيّ تبعًا لمتغير المستوى التعليمي ، كما يتضح من الجدول أعلاه أنّ قيمة ف (1,223) المحسوبة بين متوسطات درجات أفراد عينة الدّراسة للصّلاية النَّفسية تبعًا لمتغير المستوى التعليمي أقل من قيمة ف الجدولة (ف ت 2,37) عند مستوى الدلالة (0,05) ، وعليه لا توجد فروق بين متوسطات درجات أفراد العينة لمقياس الصّلاية النَّفسية تبعًا لمتغير المستوى التعليمي ، وبالتالي تمّ رفض هذه الفرضية ، وقد جاءت هذه النتيجة متوافقة مع نتائج دراسة راضي (2008)، ودراسة (Talleyet al 2011)، حيث أظهرتا عدم وجود فروق في مستوى الصّلاية النَّفسية والتوافق النَّفسيّ يعودان إلى المستوى التعليمي، في حين جاءت نتيجة هذه الدّراسة معاكسة لنتائج دراسة أبو الندى (2007) ودخان (2005) ، وعائش (2010) ، حيث أشارت دراساتهم إلى أن الأفراد الذين يتمتعون بمستويات علمية أعلى هم أكثر صلابةً وتوافقًا نفسيًا. ويمكن تفسير هذه النتيجة كون جميع المرضى باختلاف مستوياتهم العلميّة يعالجون عند الفريق الطبي والنَّفسيّ ويحصلون على المعلومات نفسها الخاصة بالمرض والآثار الجانبية للعلاج وكيفية مواجهتها ، وذلك حسب المستوى الثقافي والعلمي لكل مريض ، ولا بدّ من ذكر مدى اهتمام المؤسسات الصحيّة بهذا المرض لكثرة انتشاره واعتباره من الأمراض المزمنة وهذا بالطبع يحقق التوافق النَّفسيّ لدى مريض السّكريّ.

كما يمكن تفسير هذه النتيجة في ضوء مفهوم الصّلاية النَّفسية ومصادرها، فالصّلاية النَّفسية لا ترتبط بالمستوى التعليمي فقط بل بالنتشئة الاجتماعيّة وبالعوادات الثقافيّة وبالخبرات الماضيّة، إضافة إلى زيادة انتشار نوع من الثقافة والوعي بين أوساط المجتمع اللبناني حتى وإن كان المريض ذا مستوى علمي منخفض، حيث يوجد لديه من أفراد عائلته أو أصدقائه من يتمتع بمستوى علمي مرتفع يساعده على اكتساب الثقافة اللازمة لتفهم مرض السّكريّ ومجابهته والتوافق معه، فالبيئة المحيطة لها دور كبير في تعزيز الصّلاية النَّفسية ، وبالتالي التوافق النَّفسيّ لديه.

مناقشة الفرضية السادسة:

توجد فروق دالة إحصائيًا في مستوى الصّلاية النَّفسية والتوافق النَّفسيّ تُعزى للوضع الاجتماعي لدى مرضى السّكريّ - النوع الثّاني في مدينة طرابلس

لقد تمّ تقسيم عينة البحث إلى أربع مجموعات ، كما تمّ استخدام تحليل التباين One way a nova ، وذلك لإيجاد الفرق بين متوسطات درجات المتغيرات الأربعة، كما

يتضح في الجدول التالي:

جدول رقم 13 : يبين الفروق من مستوى التوافق النفسي والصلابة النفسية لدى مرضى السكري تبعاً للوضع الاجتماعي.

التوافق النفسي	مصدر التباين	درجات الحرية	مجموع المربعات	مربع المتوسطات	قيمة ف	مستوى الدلالة
	بين المجموعات	200	504,116	501,592	3,563	0,05
	داخل المجموعات	400	49738,024	545,769		
	المجموع	600	60042,800			
الصلابة النفسية	بين المجموعات	200	6548,255	6548,255	4,30	0,05
	داخل المجموعات	400	57447,312	57447,312		
	المجموع	600	74995,569			

يتضح من الجدول أعلاه أن قيمة ف (3,563) المحسوبة بين متوسطات درجات أفراد عينة الدراسة للتوافق النفسي أكثر من قيمة ف الجدولة ف = 2,37 عند مستوى الدلالة 0,05 وعليه لا توجد فروق بين متوسطات درجات أفراد العينة لمقياس التوافق النفسي تبعاً لمتغير المستوى الاجتماعي.

كما يتضح من الجدول أعلاه أن قيمة ف 4,30 المحسوبة بين متوسطات درجات أفراد عينة الدراسة للصلابة النفسية أعلى من قيمة ف الجدولة ف = 2,37 عند مستوى الدلالة 0,05 وعليه توجد فروق بين متوسطات درجات أفراد العينة لمقياس الصلابة النفسية تبعاً لمتغير المستوى الاجتماعي ، وبالتالي تم قبول هذه الفرضية.

وقد جاءت هذه النتيجة متفقة مع دراسة جودة (2002)، أبو الندى (2007)، وكفا (2012)، التي أظهرت فروقا في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي حسب الحالة الاجتماعية ، كما جاءت نتيجة الدراسة معاكسة لدراسة الشمري (2014)، ودراسة حمادة وعبد اللطيف (2002)، ودراسة راضي (2008)، ودراسة البهاص (2002)، التي أظهرت عدم وجود فروق في الصلابة والتوافق النفسي وفق الوضع الاجتماعي . تفسر الباحثة هذه النتيجة بالعودة إلى الكثير من الدراسات التي أظهرت أن المساندة

الاجتماعية تعزز التحكّم الأفضل لمرض السكرى، كما أنّ الأفراد الذين يحصلون على مستويات مرتفعة من المساندة الاجتماعية يكونون على الأغلب أكثر التزاماً بالنظام العلاجي الخاص بهم وأكثر ميلاً للاستفادة من الخدمات الصحية، كما تلعب الأسرة دوراً مهماً في إخراج مصاب السكرى من العزلة التي يحدثها له المرض عبر الأنشطة الاجتماعية ورعايته وحمايته بطريقة غير مباشرة من التوتر والضغط النفسى .

كما وتفسّر هذه النتيجة على ضوء الترابط الاجتماعي الذي يسود الأسرة اللبنانية، فالروابط الاجتماعية والعلاقات الجيدة بين أفراد الأسرة، تبعث على الرضا الانفعالي، مما يخفّف من تأثير ضغط مرض السكرى ويساعد على التوافق معه، ويعزز التحكّم الأفضل لمرض السكرى، فيصبحون أكثر التزاماً بالنظام العلاجي الخاص بهم، وأكثر ميلاً للاستفادة من الخدمات الصحية مما يسهم في إخراج المصاب بالسكرى من العزلة التي يحدثها له المرض عبر الأنشطة الاجتماعية ورعايته وحمايته بطريقة غير مباشرة من التوتر والإجهاد والضغط النفسى، وعدم تنكيهه بأنه إنسان مريض والتعامل معه وإشعاره بأنه شخص مقبول وليس مريضاً يشكّل عبئاً على أسرته. ولمعرفة الفروق لصالح أي من المجموعات الأربعة، تمّ حساب متوسط المجموعات، كما يُظهر الجدول التالي:

جدول رقم 14 : الفروق بين متوسطات المجموعات حسب الحالة الاجتماعية

(أعزب، متزوج، مطلق، أرمل)

الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	العدد	الوضع الاجتماعي
0,364	3,33	62	أعزب/ة
0,963	4,56	368	متزوج/ة
0,534	2,333	141	مطلق/ة
0,369	2,99	29	أرمل/ة

من خلال الجدول أعلاه نتبيّن أنّ المتوسط الحسابي الخاص بالمتزوجين هو الأعلى (4,56)، ثمّ الأعزب/ة (3,33)، ثمّ الأرمل/ة (2,99)، ثمّ المطلق/ة (2,39)، ويمكن تفسير هذه النتيجة بأهمية البيئة الزوجية لمرضى السكرى والتي تتسم بالدفء

والحب والحنان، فالحياة الزوجية المنسجمة غالباً ما تكون مصدرًا للرعاية وتساعد على الاستقرار وإعطاء معنى للحياة خاصة بوجود الأطفال، وهذا ما يزيد من ثقة وقيمة المريض، نضيف إلى أن المريض الذي يعيش في أسرته يجد الكثير من الرعاية خاصة فيما يخص الجانب الطبي (الحمية الغذائية - قياس نسبة السكر - حقن الأنسولين)، حيث أن كل هذه العوامل تُعطي للمريض نوعاً من التحكم وتحد للمرض، كما نلاحظ انخفاض مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى الأرمال والمطلقين، وذلك ربما يعود إلى الحالة النفسية التي تتميز بها هذه الفئة، فمن المعروف أن حالة الطلاق والترمل تعتبران من الأحداث الضاغطة التي تقود لحدوث تغيرات جوهرية في نمط الحياة والاضطراب الوجداني، فغالباً ما يشعرون بالحزن والفشل والإحباط ولوم الذات، وعليه فإن قدرتهم على اتخاذ القرار ومواجهة الضغوط تصبح منخفضة، وهذا يعني انخفاضاً في الصلابة والتوافق النفسي.

ونشير أيضاً إلى ارتفاع مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى العازبين بعد المتزوجين، وهذا قد يعود إلى المساندة الأسرية الكبيرة لمريض السكري العازب في مجتمعنا، وإشعاره بالدفء والعاطفة والحنان (فلا زوجة له ولا أولاد)، مما يساهم في تقبله لمرضه وتكيفه معه، فيصبح بالتالي قادراً على ضبط سلوكه وأفكاره وتحمل مسؤولياته، وأكثر قدرة على حل المشكلات ومواجهة الضغوطات وهذا ما يساعد على زيادة مستوى الصلابة والتوافق النفسي لديه.

خلاصة النتائج :

أظهرت الدراسة النتائج التالية :

- تحققت الفرضية العامة التي نصت على وجود علاقة ارتباطية بين الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى مرضى السكري النوع - الثاني في مدينة طرابلس.
- تحققت الفرضية الفرعية الأولى بشكل جزئي، حيث تبين وجود ارتباط دال إحصائياً بين العلاقة النفسية وثلاثة أبعاد من التوافق النفسي أي (التكيف، التعاون، معتقدات حول المرض) بينما لم يظهر وجود ارتباط ذو دلالة إحصائية للصلابة النفسية مع أبعاد التوافق النفسي المتعلقة بـ (ضغط مرض السكري، الشعور بالذنب، التسامح مع المرض).
- لم تتحقق الفرضية الفرعية الثانية إذ أشارت النتائج إلى عدم وجود فروق دالة إحصائياً في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي تُعزى لمتغير مدة الإصابة بالمرض .

- لم تتحقق الفرضية الفرعية الثالثة حيث لم تظهر فروقا دالة إحصائية في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي تُعزى لمتغير العمر لدى مرضى السكري النوع - الثاني.
 - لم تتحقق الفرضية الرابعة، إذ لم تظهر فروقا ذات دلالة إحصائية بين الذكور والإناث في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي لدى مرضى السكري النوع - الثاني.
 - لم تتحقق الفرضية الخامسة، حيث لم تظهر فروقا دالة إحصائية تعود للمستوى التعليمي لدى مرضى السكري النوع - الثاني في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي.
 - تحققت الفرضية الفرعية السادسة إذ أظهرت النتائج فروقا دالة إحصائية في الوضع الاجتماعي لمرضى السكري النوع - الثاني في مستوى الصلابة النفسية والتوافق النفسي لصالح المتزوجين.
- توصيات الدراسة :**

- في ضوء ما توصلت إليه الدراسة الحالية ، يمكن التوصية بما يلي :
- إجراء دراسات مستقبلية عن التوافق النفسي لدى مرضى السكري في ضوء متغيرات تختلف عن متغيرات الدراسة الحالية ، تهدف إلى فهم شخصية مرضى السكري النوع - الثاني، وتحسين نوعية حياتهم .
- اختبار فعالية برامج علاجية مقترحة للتكفل بمرضى السكري النوع - الثاني، مما يساعدهم على بناء تقدير ذاتي إيجابي، بمعنى مساعدتهم على الوصول إلى التحكم وإدارة الذات بحيث تصبح لهم رؤى وأهداف مستقبلية يسعون لتحقيقها. وبالتالي تكون لهم فعالية تجاه أنفسهم ومجتمعهم، تجعلهم يصلون إلى قمة التوافق النفسي والصحة النفسية ، وبالتالي الصحة الجسدية.
- زيادة اهتمام مؤسسات المجتمع بمرض السكري Type 1 وخاصة وزارة الصحة للاهتمام بنوعية الخدمات الصحية والنفسية المقدمة لهم، والعمل على تقديم الدعم والمساندة بأشكالها وأبعادها كافة من أجل تعزيز الثقة بالنفس، والوصول بهم إلى مستوى عالٍ من تقدير الذات والرضا عن الحياة.
- اختبار دور العلاجات النفسية المتمثلة في العلاج العائلي الذي عرف تطوراً ملحوظاً، ممّا أدى إلى ظهور شكل من أشكال العلاج العائلي المتكيف مع

المرض المزمن والمتمثل في العلاج العائلي الطبي لمرضى السكرى - النوع الثاني Type 2 .

المصادر والمراجع:

1- المراجع العربية :

- البنا، أنور (2005): علم النفس الاجتماعي، ط1، هيئة الكتاب الجامعي، غزة، فلسطين.
- البهاص، سيد أحمد (2002) : النهك النفسي وعلاقته بالصّلاية النفسيّة لدى معلمي ومعلمات التربية الخاصة . مجلة كلية التربية . جامعة طنطا 31 (1) . 384-414.
- الحجار، حمدي (1990) : فن العلاج في الطب النفسي السلوكي،: دار العلم للملايين، بيروت.
- الدخان، نبيل كامل والحجار، بشير ابراهيم (2006) : الضغوط النفسيّة لدى طلبة الجامعة الإسلامية وعلاقتها بالصّلاية النفسيّة لديهم، مجلة الجامعة الإسلامية، 2 (4) ، 369-398.
- المطيري، سهيل (2009) : الصحة النفسيّة مفهومها واضطراباتها ، (ط 2)، مكتبة العلاج للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت.
- المنشاوي، عادل محمود (2006) : التنبؤ بالتفاؤل والتشاؤم في ضوء بعض المتغيرات النفسيّة والديموغرافية لدى عينة من طلاب كلية التربية. مجلة التربية المعاصرة . جامعة دمنهور، الإسكندرية، العدد 74 ص 61-1.
- الهلول، إسماعيل (2008) : الآثار النفسيّة والاجتماعيّة والقيمية الناتجة عن تأخر صرف رواتب معلمي الحكومة مقارنة بمعلمي الوكالة ، مجلة الجامعة الإسلامية (2).
- تاييلور، شيلي. ترجمة : بريك ، وسام درويش وداود ، فوزي شاكرا طعيمة (2008) . علم النفس الصحي، دار الحامد للنشر، عمان.
- حسين، أحمد (2006) : التوافق النفسي والتوازن الوظيفي (1)، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الأهرام، مصر.
- حمادة، عمر وعبد اللطيف، عز (2002) : الصّلاية النفسيّة والرغبة في التحكم لدى طلاب الجامعة .مجلة الدراسات النفسيّة. العدد 2 ص 272-229.
- رودي، بيلوس (2013) : مرض السكرى ، ط 1 ، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر، السعودية .
- زهران، حامد عبد السلام (2005) : الصحة النفسيّة والعلاج النفسي، (ط 4)، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- صالح، عايدة (2004): التوافق النفسي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ص 143.
- مخيمر، عماد (2002) : دليل مقياس الصّلاية النفسيّة ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية.
- مخيمر، عماد (1997) : الصّلاية النفسيّة والمساندة الاجتماعية متغيرات وسيطة في العلاقة بين الضغوط وأعراض الاكتئاب لدى الشباب الجامعي. المجلة المصرية للدراسات النفسيّة

- مفتاح، عبد العزيز (2010): مقدمة في علم النفس الصحي، دار وائل، عمان، ص 132.
- يخلف، عثمان (2001) : الأسس النفسية والسلوكية للصحة. الدوحة : دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع.
- الرسائل والمذكرات ومصادر أخرى باللغة العربية :
- أبو ندى، عبد الرحمن (2007) : الصلابة النفسية وعلاقتها بظغوط الحياة لدى طلبة جامعة الأزهر بغزة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الأزهر، غزة.
- الحجار، بشير (2003) : التوافق النفسي لدى مريضات سرطان الثدي بمحافظة غزة وعلاقته ببعض المتغيرات، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة .
- حربوش، سمية (2009): الصلابة النفسية وعلاقتها بتقبل مرض السرطان والتوافق النفسي معه، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الحاج خضر، الجزائر.
- دحلان، محمد (2017): الصلابة النفسية كمتغير وسيط بين الضغوط النفسية والتوافق النفسي لدى خريجي الجامعات الفلسطينية، جامعة الأقصى، فلسطين.
- زينب، نوفل وأحمد راضي (2008) : الصلابة النفسية لدى أمهات شهداء إنتفاضة الأقصى وعلاقتها ببعض المتغيرات، ماجستير في الصحة النفسية، الجامعة الإسلامية، غزة.
- شيلي، تايلور (2008) : علم النفس الصحي ، (ط 2) ، دار الجامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن .
- عباس، فيصل (1982) : الشخصية في ضوء التحليل النفسي (ط 1)، دار المسيرة، بيروت .
- عبد الخالق، أحمد محمد (1997) : أصول الصحة النفسية، دار المعرفة الجامعية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة .
- عبد الرحمن، أبو الندى (2007) : الصلابة النفسية وعلاقتها بظغوط الحياة لدى جامعة الأزهر بغزة ، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة الأزهر بغزة، كلية التربية، قسم علم النفس.
- عبد الله، يوسف أبو سكران (2009) : التوافق النفسي والاجتماعي وعلاقته بمركز الضغط (داخلي - خارجي) للمعاقين حركيا في قطاع غزة ، رسالة ماجستير ، قسم علم النفس ، الجامعة الإسلامية ، غزة.
- العبيدي، مظهر (2004) : قوة الأنا وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي وفق أساليب التنشئة الاجتماعية، جامعة بغداد، العراق .
- عماد، مخيمر (2002) : استبيان الصلابة النفسية «دليل الاستبيان»، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.
- فيصل، صبحي : دليل مقياس التوافق النفسي لدى مرضى السكري ، دار الثقافة : الجزائر .
- القريطي، عبد الوهاب (2003) : دراسات في الصحة النفسية ، دار الفكر العربي القاهرة.
- كفاقي، علاء الدين (دت) : دليل مقياس وجهة الضبط .
- محمد، الشمري (2014) : الضغوط النفسية وعلاقتها بالصلابة النفسية لدى المصابين ببعض

- الأمراض السيكوسوماتية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة نايف للعلوم الأمنية .
- محمد، بن سعد الحميد (2007) : السكري، أسبابه، مضاعفاته، علاجه، دار الثقافة، الجزائر.
- محمد، جيهان (2002): دور العلاقة النفسية والمساندة الاجتماعية والتوافق النفسي لدى ممارسي مهنة التمريض، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، مصر.
- مرفت، مقبل (2010) : التوافق النفسي وعلاقته بقوة الأنا وبعض المتغيرات لدى مرضى السكري في قطاع غزة ، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة .
- مروة، قانة (2018): مؤشرات الصلابة النفسية وعلاقتها بالتوافق النفسي لدى الراشدين المصابين بداء ارتفاع ضغط الدم، جامعة محمد بوضياف، الجزائر.
- منصور، سامي (2006) : التوافق النفسي الاجتماعي لدى طلاب المرحلة الثانوية في المناطق الساخنة بمحافظة رفح وعلاقته بسمات الشخصية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الصحة العامة، جامعة القدس، غزة .
- يوسف، نعيمة بدر (1983) : دراسة المناخ المدرسي في المرحلة الثانوية وعلاقته بالتوافق النفسي للطلاب، أطروحة ماجستير غير منشورة، جامعة عين الشمس، كلية التربية، القاهرة مصر .

2- المراجع الأجنبية :

- Allen , Bem (1990) : **Personality , Social and Biological perspectives on personal adjustment** , California , Brooks Cole publishing , Co
- Allen K (1990) : **The hardy personality cognitive and physiological response to evaluative threat** ; journal of personality and social psychology , Vol : 50.
- Atikson and Eisenbarth , GS (2001) : **type 2 diabetes** : new perspectives on disease pathogenesis and treatment. Whc Brown publishers : London.
- Bandura , A (1982) : **the Emotional Disorders** , New York , International Universities Press.
- Becker , J , (1979) : **the psychology of Depressive Disorders , Implication for the Effects of Stress** , New York Academic Press.
- Bruchon – shweitze , M (2002) : **psychologie de la santé** . Modèles. Concepts et Méthodes. Paris : DUNOD.
- DSM 4R (1987) : **Manuel diagnostique des troubles mentaux**. Paris : Masson.
- Funk. S.C (1992) : **Hardiness** : A review of theory and recherche ,

- health psychology , Vol : 11 , N: 5.
- Gauchman D (1997) : **handbook of health behavior** . research 3 . Demography . development and diversity springer . New York.
 - Gérard , Pacaud (1995) : **le diabète et ses complications prévention pris en charge traitement**. Alger : édition Dahlab.
 - Gerson , M (1990) : **the relationship between hardiness , coping , skills and stress in graduate student**, UMI published doctoral dissertation , adler school of professional psychology.
 - Gomes – Villas Boas , L et Foss de Freitas , M et Pce , AE (2014) : Relationship among social support. Treatment adherence and metabolic control of diabetes mellitus patients. Journal of psychology and behavioral studies. 2 (1) p: 76–82.
- <http://www.sante.dz> موقع وزارة الصحة والسكان . consulte le 15.03.2014.
- Hydon , S (1986) : **The pleasures of psychological hardiness**. New York : New American Library.
 - Kobasa , S & Puccetti , M (1983) : **Personality and Social Resources in Stress Resistance** , **Journal of Abnormal psychology**. Vol 45 , No 4 , p: 839–880
 - Kobasa , S (1982) : Hardiness and health . Journal of personality and social psychology , 42 (4) p: 707–717.
 - Kobasa , S (1982) : Effectiveness of Hardiness exercises and social supports. Journal of psychology Research , vol 29 p: 779–793.
 - Kobasa , S et Puccetti , M (1983) : Personality and Social resources in stress resistance. Journal of personality and social psychology. 45 (4) p: 839–880.
 - Kobassa. S.E , Maddi. S.R. (1982) : **hardiness and health** , a prospective study , journal of personality and social psychology , 42 (1).
 - Kobaza. S.C , Puccetti. M (1983) : Personality and Social Resources in Stress Resistance. Journal of Personality and Social Psychology, Volume 45 , N 4.
 - Matteson . M et Ivancevich. JM (1987) : **controlling work stress effective**. Human resource and management strategies. London. Jossey–Basspublishers.
 - OMS, << journée mondiale du diabète 14 novembre 1999 , notre pour la presse, Oms , Genève , n° 23 >>.

- Passa , Ph (2002) : Approche psychosociale et éducation chez les diabétiques de type 2. Journal diabète et éducation. 12 (03) p : 31–33.
- Schweitzer , M , (2002) : Psychologie de la santé. 1^{ère} édition , Dunond , Paris , France.
- Siddiqui . M , Khan. MF , Carline. Th (2013) : Gender Differences in Living with diabetes Mellitus. **Master Sociomed** . 25 (2) p: 10–14.
- Stewart Debbin (2015) : diabetes mellitus , psychological factors , bulitin desicologia , 8 (2) p : 32–53
- Who s (1999) : **Coping strategies in men and woman with type II diabetes in Swedish primary care** . Diabetes rechearch and clinical practice , Vol : 71 , N : 3.
- Yi. G.P , Vitaliano , P (2007) : The role of resilience on psychological adjustment and physical health in patients with diabetes. British journal of health psychology. 13 (2) p: 311–325.

السَّادِيَّةُ وَالْمَارُوشِيَّةُ

د. محمد جابر

الشَّخصِيَّةُ كيانٌ متنوعٌ ومعقدٌ، وهما نوعان: الشَّخصِيَّةُ السَّوِيَّةُ، المتكيفة، المتقابلة، والشَّخصِيَّةُ المضطربة، الضعيفة، المتشائمة...

اهتم العلماء بدراسة الشَّخصِيَّةِ وألوهها عنايةً وبالأخص الشَّخصِيَّةُ السَّادِيَّةُ والمَارُوشِيَّةُ. السَّادِيَّةُ Sadisme هي الحصول على الإشباع النَّزوي بواسطة تعذيب وإهانة الآخر. كما يخصَّص فرويد Freud مصطلح "ساديَّة" للإشارة إلى الانحراف الجنسي الذي يتم بموجبه الحصول على اللذة الجنسيَّة من خلال إيلاء الشريك الجنسي. ويوسع التحليل النفسي فكرة "السَّادِيَّة" إلى ما وراء حدود الشَّدوذ وذلك بالاعتراف بالعديد من مظاهرها الأكثر خفاءً وخاصة الطفلية منها حيث تعد مكوِّنًا أساسيًا من مكوِّنات الحياة النَّزوية.

وقد جعلت ميلاني كلاين Klein مفهوم "السَّادِيَّة" مرادفًا لمفهوم "العَدوانية"، ولجأ دانيال لاغاش Lagache إلى استعمال المصطلح المركب "سادية - مَارُوشية" للدلالة على الترابط والتلازم الحاصل بينهما سواء على مستوى صراع الأشخاص (السيطرة - الخضوع)، أو على مستوى بناء الشَّخصِيَّة (إيلاء الآخر - عقاب الذات). المَارُوشية Masichisme هي الحصول على الإشباع النَّزوي عن طريق تقبل الإهانة والألم من الآخر، وهي تلذذ بالألم الجسمي والمعنوي الذي يأتي من الآخر. ولم يبق مجال الـ "سادية ومَارُوشية" حكرًا على علماء النَّفس بل درسه أيضًا الفلاسفة والأدباء، وقد حفلت العديد من الروايات والقصص والأساطير بمضامين "سادية ومَارُوشية"، حتى أن اسم هذين المصطلحين هما الروائيين أحدهما "المركيزي ساد" والآخر "ساشار مَارُوش".

والكتابات التاريخيَّة حاملة بقصص أناس عرفوا بشخصيات غريبة، حيث امتلأت حياتهم بالعَدونية والعنف، وكانوا سياديين أو مَارُوشيين.

وشخصية "إيفان" في قصة "الإخوة كارامازوف" لـ "ديستوفسكي"، فقد كان يقامر ليخسر المال وليس لربحه حتى يتلذذ بالفقر والضعف، وسادية الملك "شهريار" بطل حكايات "ألف ليلة وليلة"، وكيف كان يقتل فتاة كل ليلة، وكذلك التاجر اليهودي "شيلوخ" في مسرحية "تاجر البندقية" لـ "شكسبير"...

ومن جهته كان "مازوش" يكتب على لسان شخصيات رواياته، عن اللذة التي يشهر بها الأفراد لما يتعرضون للإيلام من الآخر.

1 - أسباب السادية ومازوشية:

يرى فرويد أن الحياة الجنسيّة عند أغلب الرجال تتضمن على العدوان والرغبة في اخضاع الآخر وتتحصر دلالة هذه الرغبة في ضرورة التّغلب على الفعل الجنسيّ بإتيان أفعال مغايرة الإغراء⁽¹⁾.

أما المازوشية فقد تبين لـ فرويد أنّها امتداد السادية في ارتدادها على الشخص ذاته. ويبين التحليل النفسي للحالات المازوشية الفسوى على وجود عدد من العوامل كعقدة الإخساء والشعور بالذنب، التي اجتمعت لتعزيز الموقف الجنسيّ السلبي الأصيل⁽²⁾. ويصرّح فرويد بأنّ تاريخ الحضارة الإنسانية يدلّ على أن ثمة علاقة وثيقة تربط القسوة بالغريرة الجنسيّة.

وقد حاول فرويد التوغل في تاريخ الحضارات البشرية ليجد تفسيراً للسادية والمازوشية، وذكر آراء بعض المفكرين الذين يرون في العدوانية بقايا من الشهية الإفتراضية⁽³⁾. ويرى "كرافت إيبنج" أن مصدر المازوشية فرط نمو مرضي لعناصر نفسية أنشوية والمازوشية أيضاً هي تعزيز مرضي لبعض سمات روح المرأة⁽⁴⁾. ويرى "لامبروزو" أن هناك ارتباط في زمن الحروب بين الإعتداءات من كل نوع والجنسيّة.

وأنّ السادية عند الرجل هي نتيجة الإحباط الذي يعانيه بسبب المرأة.

2 - تصنيف السادية والمازوشية:

تصنّف السادية والمازوشية ضمن الانحرافات الجنسيّة والتي بدورها تدخل مع اضطرابات الوظائف الجنسيّة واضطرابات الهوية الجنسيّة ضمن محور "الاضطرابات الجنسيّة واضطرابات الهوية الجنسيّة"⁽⁵⁾.

- المازوشية الجنسيّة: تشخص وفق المعيارين التاليين:

(1) فرويد: الأحلام، ترجمة مصطفى غالب، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1985، ص 39.

(2) المرجع نفسه/ ص 41.

(3) Freud: trios essais sur la théorie sexuelle - éd. Gallimard - Paris 1987, P 71.

(4) Nacht: le masichisme, in: R.F.P., N°2, P 177.

(5) ريكان: النفس والعدوان: دراسة نفسية اجتماعية في ظاهرة العدوان البشري - بغداد، دار الشؤون الثقافية - آفاق عربية، 1987، ص 175.

- وجود تهويمات متخيلة ومثيرة جنسيًا، أو اندفاعات جنسية أو سلوكيات بصورة متكررة وشديدة لمدة ستة أشهر على الأقل تؤدي إلى أفعال (حقيقية) وفيها يكون الشخص مهانًا، مربوطًا أو معرّضًا لمعاناة بواسطة وسائل أخرى.
- تكون هذه التهويمات أو الإندفاعات الجنسية أو السلوكيات سببًا في ظهور معاناة ذات دلالة إكلينيكية أو سوء أداء اجتماعي أو مهني...
- **السادية الجنسية:** وتشخص وفق المعايير التالية:
- وجود تهويمات متخيلة ومثيرة جنسيًا، أو إندفاعات جنسية أو سلوكيات بصورة متكررة وشديدة لمدة ستة أشهر على الأقل، تؤدي إلى أفعال (حقيقية)، وفيها تؤدي المعاناة النفسية أو الجسدية للضحية إلى إثارة جنسية للشخص⁽¹⁾. تكون هذه التهويمات أو الإندفاعات الجنسية سببًا في ظهور معاناة ذات دلالة إكلينيكية أو سوء أداء اجتماعي أو مهني...
- 3 - **مظاهر السادية والمازوشية:**
- **مظاهر السادية:** قد تمارس السادية على شخص رافض، وفي هذه الحالة تصاب الضحية برعب يسبق الفعل السادي الوشيك.
- وقد تمارس على شخص موافق (قد يكون يعاني من مازوشية) يتحمل بطريقة إرادية الألم والإهانة.
- وتتخذ السادية مظاهر عديدة ومنها:
- بروز نشاطات تدل على تغلب وتسلط الشخص السادي على ضحيته - تصفية الضحية - ضربها على الردف - ضربها بقضيب أو بالسوط - اغتصابها - تعذيبها - خنقها - قتلها نتيجة الثمالة الجنسية.
- **مظاهر المازوشية:** ينفذ المازوشيون اندفاعاتهم النزوية المازوشية على أنفسهم بمفردهم أو عن طريق الآخرين. وتبدو المظاهر الفردية للمازوشيين فيما يلي:
- ربط أنفسهم - وخز جلداهم - حرق ذواتهم...
- أما المظاهر الجماعية فتتمثل فيما يلي:
- تعصّب العيون - الضرب بالقضيب أو بالسوط - الوخز بالإبر - التعرّض للضرب والشتم... وقد يعاني المازوشيون من "فيتشية أو سادية" الإهانة النفسية من خلال

(1) المرجع نفسه: ص 176.

حالة الخضوع الذي تأخذه المرأة⁽¹⁾.

4 - نظريات السادية والمازوشية:

A: فرويد Freud: يرى فرويد أنّ الشذوذ الجنسيّ الأكثر شيوعاً هو الميل إلى إيلاء الموضوع الجنسيّ ونقيضه (أي السادية والمازوشية)⁽²⁾.

- **جذور السادية:** إن جذور السادية تحتوي جنسية معظم الرجال على تجمع العدوان وميل للقيام بالأشياء بالقوة، دلالة السادية من الناحية البيولوجية هي ضرورة التغلب على مقاومة الموضوع الجنسيّ، قد تمثل السادية المكونة العدوانية للنزوة الجنسيّة، وهذه المكونة استقلت وكبرت ودفعت لأخذ الموضوع الأساسي. تهدف السادية إلى إهانة أو التسلط على الآخر⁽³⁾.

- **علاقة السادية بنزوة الموت:** جعل فرويد في نظريته عن "نزوة الموت"، السادية جزءاً من نزوة الموت، وهذه النزوة حليفة للنزوة الجنسيّة وتتجه نحو الخارج، السادية هي مسار نشيط للعدوانية نحو الآخر، والعدوانية ليست دائماً تعبيراً عن الهوامات الجنسيّة.

تظهر نزوة الموت عند الطفل في مرحلتين "الفمية - السادية" و"الشرجية - الفمية". وعندما يتعلق الأمر بالفعل الجنسيّ تؤخذ السادية مع نقيضها المازوشية ويكونان معاً السادية - مازوشية⁽⁴⁾.

- **سيكولوجية السادية:** يرى فرويد أن السادية تهدف إلى إخضاع الشريك الزوجي والسيطرة على الآخر.

يظهر الربط بين الألم والإثارة الجنسيّة في بادئ الأمر في حالة "المازوشية" باعتبارها انقلاب للسادية مع التحول ضد الذات، عندها فقط يصبح الإيلاء إحدى غايات السادية: فالفرد يتمتع بكيفية مازوشية بواسطة تماهي الموضوع المتألم. وما يساند فكرة أن السادية ليست الأولى في الظهور فرضية نزوة الموت وهي نزو التهديم بالمعنى الذي يجعل الإنسان يسعى إلى حتفه. تحقق السادية التشابك بين نزوة الموت والنزوات الجنسيّة⁽⁵⁾. السيادة هي إحدى الاحتمالات المتضمنة في طبيعة النزوة الجنسيّة.

(1)Nacht: le masochisme - OP.Cit - P 177.

(2)Freud: trios essais sur la théorie sexuelle - éd. Gallimard - Paris 1987, P 67,69.

(3)Jbid: P 69.

(4) Tacussel. P" :l'esprit de la violonce - éd- P.M.F. Paris 2004, P 40.

(5)Chermama, B: la Personnalité normale et Pathologique - éd. Bordas, Paris 1974, P250.

- **جذور المازوشية:** تعد المازوشية شكلاً من الأشكال التي يتظاهر بها الليبيدو، فالمازوشيون هم أشخاص لا يحسون بالإشباع الجنسي إلا إذا تعرضوا للإيلام والمهانة⁽¹⁾. وبعد فترة من نمو الطفل تكبت المازوشية عند الطفل وتبقى في اللاوعي على شكل هوامات ما يلبث أن تعود إلى الوعي مع بعض التغييرات⁽²⁾. وهذا ما يسميه فرويد "الهوام المازوشي".

- **علاقة المازوشية بنزوة الموت:** إن المازوشية هي انقلاب للسادية ضد الشخص نفسه، فالسادية هي الأولى في الظهور ثم تأتي المازوشية، فلا مازوشية من غير السادية. المازوشية هي الأولى التي تتدخل في الربط بين الألم واللذة الجنسية ثم تكلف السادية بالحصول على التلذذ الجنسي الذي يحس بكيفية مازوشية بواسطة الهوام.

لقد ميّز فرويد أربعة أنواع من المازوشية: ابتدائية، ثانوية، مولدة للشبق وأخلاقية⁽³⁾. كانت نزوة الموت في الأول موجهة كلّها ضد الموضوع ذاته، ثم يخرج جزءاً كبيراً منها إلى الخارج ويبقى جزء داخل الجسم، أي يرتبط ليبيدياً بواسطة الإثارة الجنسية المصاحبة له، وهذا ما يعرف بالمازوشية المولدة للشبق. والسادية هي لما يوضع جزء من نزوة الموت مباشرة في خدمة النزوة التناسلية حيث يلعب دوراً هاماً.

إن إجتماع نزوة الموت والليبيدو يؤدي إلى انقسام هذه النزوة إلى سادية ومازوشية مولدة للشبق (مازوشية ابتدائية)، وقد تتحول هذه السادية ضد الشخص فتصبح مازوشية ثانوية فيصبح هناك نوعان من المازوشية: مازوشية ابتدائية أو أصلية ومازوشية ثانوية⁽⁴⁾.

- **سيكولوجية المازوشية:** يتحدث فرويد عن "المكونات المازوشية" للنزوة الجنسية والمتمثلة في مشاعر التألم التي تولد بصورة ثانوية اشباعاً جنسياً. كما تحدث عن "المازوشية" كموقف سلبي يتخذه الشخص نحو الموضوع الجنسي أو الجنسية بصفة عامة⁽⁵⁾.

(١) Chermama: OP.Cit - P.277.

(٢) Jbid: P. 240.

(٣) La planche: J.B. Pontalis: Vocabulaire de la Psychanalyse - éd. P.M.F - Paris 1969 - P. 431.

(٤) Hamburger. J.: la vie Psychologique pathologique - éd. DIDIS - Paris. P. 63.

(5) Jbid: P. 62.

تبلغ المازوشية ذروتها لما يستحيل على الشخص التلذذ جنسيًا إذا لم يجعله موضوع حبه يتألم ويعاني جسديًا ونفسيًا.

وقد وضع فرويد فرضيته عن المازوشية ومفادها أن المازوشية انقلاب السادية ضد أنا الشخص أو هو نكوص الموضوع نحو الأنا. لقد تغير هدف النزوة النشيط والمتمثل في الإيلام (السادية) إلى هدف سلبي والمتمثل في العالم.

ولقد فسّر فرويد المكوّن النشيط المتبقي عن السادية المتحولة إلى مازوشية، ففي مقالة "يضرب الطفل" رأى أن هذا المكوّن المتبقي يدل على الإحساس بالذنب. فالهدف السلبي "التألم" يشبع رغبة في العقابة كما يمثل أيضًا شكلاً استبداليًا ونكوصيًا للإتصال الجنسي. وأصبح فرويد يؤمن بوجود "مازوشية ابتدائية" (مولدة للشبق) ومنها يتطور شكلان آخرن من المازوشية هما: المازوشية الأنثوية والمازوشية الأخلاقية. المازوشية الثانوية هي ناتجة عن تحول ضد الذات للسادية غير المستعملة في الخارج، وبهذا تتجمع المازوشية الإبتدائية والمازوشية الثانوية⁽¹⁾.

التحليل النفسي لحالات الشذوذ المازوشي القصوى يظهر اشتراك العديد من العوامل التي تزيد وتثبت الموقف الجنسي الساكن الأولي (عقدة الإخصاء والإحساس بالذنب). ورأى فرويد أن السادية والمازوشية توجدان باستمرار عند نفس الشخص، فالشخص قد يشعر باللذة لما يؤلم الآخر ويشعر أيضًا باللذة إذا تلقى هو الإيلام.

فالسادي هو دائمًا في نفس الوقت مازوشي ولو غلب عنده الجانب النشيط (السادي) أو الجانب الساكن (المازوشية) وبالتالي يشكل الجانب الغالب عنده معظم نشاطه الجنسي⁽²⁾.

أجرى فرويد دراسة على حالة مازوشية "طفل مضروب" وقد رأى أن اللحظة المازوشية هي لحظة عصابية أكثر منها شاذة، وأخلاقية أكثر منها أنثوية أو مولدة للشبق لأن الطفل هنا يبحث عن العقاب أكثر من بحثه عن الألم.

وقد اكتشف فرويد نزوة الموت ومكان النزوات بسبب ظهور الأنا. المازوشية، تشابك بين النزوات الجنسية والعدوان. وأن المازوشية أسبق لأنها ابتدائية والسادية ثانوية. وعلاقة الشخص السادي بضحيته هي علاقة ذات طابع مرأوي، فالسادي يعتدي على ذاته للمزدوجة المازوشية.

(1)Freud: trios essais sur la théorie sexuelle - OP. Cit., P 70.

(2) Jbid: P. 72.

- المازوشية تحوّل وانقلاب: المازوشية هي تحوّل ضد الذات وكذلك انقلاب النشاط إلى سكون، في المازوشية فقط يكون للنشاط النزوي دلالة جنسية. وقد حدّد فرويد مرحلتين لهذا التحول ضد الذات: مرحلة أولى يوقع الشخص الألم على ذاته، وهذا ما نجده في عصاب الوسواس، ومرحلة ثانية تميّز المازوشية أين يتلقى الشخص الألم من طرف آخر.

تتضمن السّاديّة بمعناها الجنسيّ، تحوّلًا جديدًا للوضعية المازوشية⁽¹⁾. كان فرويد يأخذ المازوشية كنتاج عن السّاديّة، لكن فيما بعد أصبح يرى أن المازوشية هي الأولى زمنيًا والأساس بشرط أن يؤخذ الزوجي سادية - مازوشية في معناه الجنسيّ⁽²⁾.

- السّاديّة أسبق أو المازوشية: السّاديّة هي مكونة من مكونات الحياة النزوية وهي ترتبط بنقيضها المازوشية. وقد وضع فرويد في نظريته الأولى عن النّزوات: أن السّاديّة مرتبطة بالجنسيّة وهي أسبق في الظهور من المازوشية لكن في نظريته الثانية عن النّزوات (نزوة الحياة، نزوة الموت) جعل المازوشية أسبق من السّاديّة. إن النزوة السادي لها في الأول معنة العدوان وإرادة القوة عند الطفل وهي مرتبطة بتمرين جملة العضلية دون أن تكون له نية إحداث الألم والمعاناة، وفيما بعد تظهر ثانويًا علاقة بين الألم والإثارة الجنسيّة ويصبح عندما يعرف بـ "اللذة السّاديّة". تنشأ هذه العلاقة نتيجة انعطاف المازوشية وانقلاب الألم إثارة وإشباعًا جنسيين يبحث عنهما الشخص أصناء سلوكه السادي بتماهي الموضوع الذي يجعله يتألم. وفي نظريته الثانية عن النّزوات بدّل فرويد الظهور الزمني للسّادية والمازوشية فجعل المازوشية أسبق⁽³⁾.

وقد رأى فرويد أن السّاديّة تتظاهر في العالم الخارجي على شكلين: الرّغبة في القوة ولذة العدوان، بيد أن نزوة الموت لا توجّه كليًا نحو العالم الخارجي لا يضمن الشخص بقاء السّاديّة خارجة عنه، لهذا تعرف السّاديّة إنقلابًا مزدوجًا: إنقلابها إلى مازوشية وانقلابها ضد الشخص نفسه على شكل زيادة الأنا الأعلى ضد الأنا. لا يمكن فصل هذه العلاقة التي تربط السّاديّة والمازوشية عن إندماج الشخص

(1) La planche et Pontalis: OP.Cit. - P. 430.

(2) Ibid: P. 450.

(3) Bergeret, J: la personnalité normale et pathologique, les structures mentales, le caractère, le symptôme - éd. Bordas, Paris 1974, P. 250.

في النظام الثقافي الذي يقوم على إبعاد نزوات معينة عن حقل الوعي بغية تكوين الأخلاق والتحكم السادي "للأنا الأعلى" على "الأنا" حتى يصبح الأنا الأعلى نموذجًا للأنا⁽¹⁾.

B: لا كان Lacan: يقول لاكان بأن المازوشية تسبق السادية وهي مشتقة منها: "ليست السادية سوى تنكر للمازوشية. ففي حين يفضل المازوشي تحمل الألم الموجود في جسده فإن السادي يرفض هذا الألم، فيفرضه على الآخر⁽²⁾.
تهدف المازوشية إلى توليد القلق عند الآخر، وهذا الآخر يتماثل مع الإله. كل شخص له ميل إلى مازوشية نحو الآخر الذي يبحث كل واحد عنده عن معنى الكينونة والوجود فلا يجد عنده الجواب، ونتيجة لذلك يفترض الشخص الأسوأ ولا يطمئن إلى وجوده في أعين الآخر إلا إذا أبدى تألمًا.
"لخص" لاكان" المازوشية عند الإنسان بعبارة "لكي أصبح موضوعًا يجب أن أكون حثالة déchet"⁽³⁾.

يهدف المازوشي إلى إحداث قلق الآخر يجعل نفسه موضوعًا وحثالة، والآخر هنا لا يقصد به الشريك الجنسي بل الإله. ويقدم «لاكان» مقارنة أكثر واقعية لظاهرة «المازوشية» يجد تطور الرغبة مصدره في تلك المواقف المعاشة التي تصنف ضمن العلاقات المازوشية التي تبرز أولاً نشوئيًا ثم تعاود لاحقًا في شكل نكوص.
وتظهر المازوشية لما يكتشف الإنسان أن له رغبة ويدرك الإنسان ذاته على أنه متألم ويدرك وجوده ككائن حي متألم، أي أنه موضوع للرغبة، ولا يشبع الشخص رغبته فقط وإنما يتمتع بكونه «يرغب» وهذا له بعد أساسي لحصوله على اللذة.
إن مسار النزوة مسارًا دائريًا، وهذا ما يعرف بـ «عقدة النزوة» حيث يفترض أن مسار النزوة ينتظم على شكل دائري أي لها ذهاب (بداية) من مصدر وإياب (عودة) إلى نفس هذا المصدر.

ويعتقد أن الألم يرتبط بالنزوة السادية - المازوشية عندما تكتمل عقدة النزوة (ذهابًا وإيابًا)⁽⁴⁾ ويصبح الشخص ساديًا لما يدمج فعل الآخر ضمن العقدة المكتملة. السادية

(1)Ibid: P. 253.

(2) إيفانس: معجم تمهيدي لنظرية التحليل النفسي اللاكاني، ترجمة هشام روحانا، دار نينوى، دمشق، 2016، ص 215.

(3)Alberne, T.: Criminologie et psychiatrie - éd. Ellipses, Paris 1999, P. 241.

(4)Lacan, J.: les quatres concepts fondamentaux de la psychanalyse - c130d. du seuil, Paris 1973, P. 205.

هي رفض الشخص لمازوشية.

كل شخص يسير إلى مازوشية. كل واحد يبحث عن معنى للوجود وعن الآخر الذي يطرح عليه سؤالاً عن كينوشا فلا يجيب، وهنا يفترض الشخص الأسوأ ولا يضمن أبداً وجوده في أعين الآخر إلا إذا تألم⁽¹⁾.

C: ميلاني كلاين Klein: يمرّ الطفل في السنة الأولى من عمره بوضعيتين: وضعية شبه عظامية وتمتد لأربعة أشهر الأولى من الميلاد وفيها تظهر سادية فمية ويشطر الموضوع الجزئي إلى قسمين جيد وسيء (يرمز له بالثدي الأمومي)، ويتبطن الطفل الموضوع الجيد ويسقط خارجاً الموضوع السيء. ووضعية اكتئابية من الشهر الرابع إلى نهاية العام الأول من الولادة.

وهنا تكون الليبدو والعدوانية مرتبطتان فيظهر التناقض "حب - كره" ويجمع الموضوعان الجيد والسيء، ومن ثم تدرك الأم ككل، ويخشى الطفل أن تؤدي ساديته إلى هجره فيدافع هوسياً (نفي ومراقبة الموضوع بشكل هوسي - عظامي) أو بتثبيط العدوانية⁽²⁾.

تتحدث "كلاين" عن السادية الطفلية (الوضعية الإكتئابية) التي يصبح فيها الطفل قادراً على التعرف على الموضوع الكلي (الأم) وليس الموضوع المنجز. وتتميز العلاقة بالموضوع بتناقض وجداني حيث يستبدل قلق الإضطهاد (وضعية شبه عظامية) بقلق الخوف من تهديم الموضوع المحبوب بواسطة الدوافع التهديمية. فاجتياف الموضوع يحمي الطفل من دوافعه التهديمية.

تخص الوضعية الإكتئابية المرحلة السادية - الفمية، وترتبط هنا الحاجة والحب بالدوافع العدوانية (العضّ) وهوامات الإلتهام. ويمكن عن طريق الإجتياف حماية الموضوع الجيد من الدوافع المدمرة التي تمثل ليس فقط الموضوع السيء الخارجي وإنما أيضاً الموضوع السيء المستدخل⁽³⁾.

في نورة هذا التناقض الوجداني الذي يعيشه الطفل يحسّ باليأس الإكتئابي والحزن على الموضوع المهدم ويشعر بالذنب لأنه هو الذي هدم هذا الموضوع الداخلي. يتحدث هذا الهدم الهوامي عن الطفل رغبة في إصلاحه، فالصراع الإكتئابي هو

(1)Jbid: P. 208.

(2) سميروف: التحليل النفسي للولد، ترجمة فؤاد شاهين، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت 1980، ص 142.

(3) المرجع نفسه: ص 143.

صراع مستمر بين الدوافع الهدامة وميول الطفل الإصلاحية. في المرحلة السّادية - الشرجية يحاول الطفل، هومياً، الحصول على محتويات الأم (البراز، قضيب الأب والأولاد)⁽¹⁾، وعن طريق الهومات العدوانية يحاول الطفل عن طريق الهجوم وهدم وتقطيع الموضوع الأمومي أن يصبح صاحب الثدي الجيد والقضيب الجيد⁽²⁾.

وترى كلاين أن الموضوع يتكون من الهوام الذي يمثل نشاطاً بدائياً في الحياة العقلية للطفل وهو اللغة التي يعبر بها عن الدوافع الغريزية⁽³⁾.

- **وجهة نظر كلاين:** رأت كلاين أن الأنا الأعلى يتكون منذ المرحلة السّادية - الشرجية عن طريق اجتياف Projectin مطلب التربية. ولقد أسست نظريتها في التحليل النفسي على سادية أولية، وهي تعطي للرضيع نشاطاً هومياً كثيفاً يستند على السّادية.

يهاجم الرضيع جسم الأم ويهدم كل ما يتخيله (أخ، قضيب) ثم يدرك هوماته المهجمة ويخاف من انتقام الموضوع (حب) ومعاقبته له، لهذا يطور ميلاً تصحيحياً وتصبح الأم في آن واحد موضوعاً جيداً أو موضوعاً سيئاً.

في السنة الأولى ينجز جزءاً كبيراً من التثبيات السّادية - الشرجية، ويعني مصطلح "شبقية سادية - شرجية" أي اللذة التي تمنحها المنطقة الشرجية المولدة للشبق ووظيفة الإطراح وكذلك اللذة المستمدة من التعرض للقسوة والسلطة، والتملك... وهذه اللذة مرتبطة بالذات الشرجية.

يبدأ "الأنا الأعلى" في العمل منذ بداية السنة الثانية وهو في هذه الفترة ما زال في طور النمو وما يساعد على بروزه هو ظهور عقدة الأوديب.

منذ البداية تتحوّل النزوة التهديمية ضد الموضوع وتنتظر على شكل هومات Fantasmes هجمات سادية - شرجية في الأول ضد ثدي الأم، ثم لاحقاً ضد جسمها باستعمال كل وسائل السّادية.

وتلعب مخاوف الاضطهاد، التي يكون مصدرها من جهة النّزوات السّادية - الفمية عند الرضيع والهادفة التي تملك المضامين "الجيدة" لجسم الأم، ومن جهة ثانية

(1) المرجع نفسه، ص 145.

(2) المرجع نفسه، ص 145.

(3) المرجع نفسه، ص 133.

النزوات السّاديّة - الشرجية الهادفة لوضع فضلاته (البراز) بداخل جسم الأم، دورًا مهمًا في ظهور البارانويا والفصام⁽¹⁾، وتعاش نزوة التهديم التي تسقط خارجًا كعدوان فمي، وتنشط النزوات السّاديّة - الفمية ضد ثدي الأم منذ بداية الحياة، أما النزوات المتوحشة فتتعاظم قوتها مع بداية ظهور الأسنان.

لما يكون الرضيع في حالات الإحباط والقلق تعزّز عنده الرغبات السّاديّة - الفمية والمتوحشة فيحس عندئذ أنه أدخل بداخله الثدي وحلمته مجزئين، لهذا يحس الرضيع، بالإضافة إلى التعارض "ثدي جيد" و"ثدي سيء" أن الثدي المحبب المهاجم في هوماته السّاديّة - الفمية هو ثدي مجزء، أما الثدي المثمن فيحس به أنه كامل.

تعتقد كلاين بوجود عنف بدائي عند الطفل⁽²⁾، وأن غريزة العدوانية موروثة عند الإنسان، وأن القلق وضغوط البيئة تزيد هذه العدوانية مما يؤثر على حياة الفرد⁽³⁾.

- **D: ساشا ناخت Nacht:** ترى "ناخت" أن الفرد يرغب في أخذ مكان أبيه لكن الخوف من الخصاء والشعور بالذنب يحولان النزوة السّاديّة ويجعلان الفلاد يعود إلى هدف جنسي - سوري - لهذا يعيش أوديبًا مقلوبًا أو أديبًا سالبًا (عندما يكون الطفل في علاقة ودّ أنثوي مع الأب وفي موقف عدائي نحو الأم، وهذا عكس ما يكون عليه الطفل السوي في حالة عقدة الأوديب العادية).

ويتبع هذا الأوديب المقلوب بإشكالية سالبة حيث يستمر الخوف من الخصاء، ويحل الشخص المازوشي باسبتداله بالرغبة في التعرض للضرب⁽⁴⁾.

لا تتفق "ناخت" مع "فرويد" عندما يجعل من نزوة الموت مصدرًا للمازوشية والعصاب. وترى أن المازوشية "المولّدة للشبق" يتمثل في تلك الترابطات في المسارات العصبية "أن منطقة الإرداف لها خاصية مولّدة للشبق كبيرة جدًّا، وهذا يرجع إلى أسباب نفسية وترابطات المسارات العصبية.

يضعف الألم المولّد للشبق أثناء النمو ويختفي شبه كليًا في سن الرشد⁽⁵⁾.
لقد لاحظت "ناخت" الفشل العلاجي لبعض حالات المازوشية مما أجبرها على

(1)Klein. M.: developpement fe la psuchanalyse - "notes sur quelques mécanismes serizoides", éd-P.U.F. Paris 1976. P. 275.

(2)Bergeret, J: la violence fondamentale, éd. durand, Paris 1974, P. 202,205.

(3) ريكان إبراهيم: النفس والعدوان، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1987 - ص 18.

(4)Nacht: le masochisme - OP.Cit - P 179.

(5)Ibid: P. 180.

الإعتراف بوجود قوى تهديم ذاتي لم تكن تؤمن بوجودها سابقًا. لقد توصلت إلى إمكانية وجود عند الإنسان وبعيدًا عن نزوة الحياة قوة مضادة أكثر. في بعض الأحيان تتظاهر العدوانية عند الفرد في شكل مازوشية لا يمكن قهرها.

- **E: كارل إبراهيم: تطرق "إبراهيم" إلى: السادية والمازوشية** "لما درس مراحل النمو النفسي - الجنسي وأقرّ بوجود فترتين من كل مرحلة من مراحل النمو الثلاثة: الفمية، والشرجية، والتناسلية⁽¹⁾."

قسم المرحلة الفمية إلى فترتين: الأولى فترة "المصّ" وتكون الشبقية - الذاتية فيها بدون موضوع، والفانية فترة "فمية - وحشية".

قدم إبراهيم دراستين حول المرحلة الفمية وهما: "المرحلة الفبتناسلية وهي الأسبق في نمو الليبدو" سنة 1919، ودراسة "تاريخ نمو الليبدو على أساس التحليل النفسي للإضطرابات العقلية" سنة 1924، وهو يضح الميل إلى "العصّ" في مرحلة بدائية حيث لا يوجد أي تثبيط قادر على كبح تهديم المواضيع.

ويشبه إبراهيم التنظيم الفمي وفق نموذج وحشي الذي يهدف ليس فقط إلى استبدال الموضوع وإنما أيضًا تهديمه.

ويشبه "إبراهيم" الهومات وهذيانات التحول الموجودة في هذه المرحلة بحيوان وحشي يلتهم الرجال. وأن الميل العنيف كنزوة جزئية تطمح إلى تهديم الموضوع أو السيطرة عليه، وستقلب العلاقة بين الفرد والعالم الموضوعي جذريًا لما يتغلب الميل إلى حفظ الموضوع على العنف المهدم.

إن إدماج الميول العنيفة الأولية ممكن بصورة مباشرة دون الاستعانة بالكبت كما يحدث في حالة "السادية الشرجية"، وأي عرقلة لهذا الإدماج تؤدي إلى تعزيز سمات الطبع السادية الشرجية⁽¹⁾⁽²⁾.

في المرحلة الشرجية توجد ثنائية. ويتميز فيهما الطبع الشرجي بحب النظام، والنظافة، والعناد، والرغبة في التملك.

في المرحلة التناسلية توجد فترتان: تناسلية أولى تكون قضيبية ومتناقضة، وتناسلية نهائية يكون فيها حب الموضوع حبًا خالصًا.

- **F: رايش Reich: اكتشف "رايش" لما قارن بين التنظيم الأمومي Matriarcale**

(1) Zoila, A.F.: Freud ry les Psychanalyses - éd. Fernand Nathan, Paris 1986, P. 130-133.

(2) Bergeret: la violence fondamentale - OP.Cit. P. 200-201.

والتنظيم الأبوي Patriarcale، ولما درس الانتقال من الأول إلى الثاني، أن بروز المصالح الاقتصادية للطبقة الاجتماعية العليا ومنع الحياة الجنسية للأطفال والمراهقين ساعد على ظهور الإضطرابات الجنسية والعقاب والاتجاهات السادية عند الرجل ورفض الجنسية عند المرأة⁽¹⁾.

السادية هي نتاج المجتمع الذي يكبت الحركات العاطفية الطفولية الطبيعية. ترجع السادية إلى انحراف عضلي في الطاقة الليبيدية⁽²⁾. ظهور الضبط الخلفي والقهري له مبرره الإيديولوجي الذي يمثل ضروب كبت النزوات لأن تولّد نزوات ضد طبيعية، وثانوية، ولا إجتماعية كالسادية والمازوشية⁽³⁾.

لا تأخذ السادية مكانها المهم في الحياة الجنسية إلا إذا اضطرت الوظائف التناسلية الطبيعية (غلق المهبل أو قطع البظر في بعض قبائل إفريقيا) بمعنى أن تثبيط التناسلية لا يبرز فقط في شكل قلق وإنما أيضًا في شكل سادية.

عارض "رايش" فكرة أنّ نزوح الموت هي الإطار النظري لتفسير المازوشية والعصاب، ويستدل على هذا بقوله: "فجأة لاحت فكرة أنّ العصاب يرجع إلى صراح بين الغرائز والحاجة إلى العقاب، لكن العكس هو الصحيح، إن هذه الفكرة السابقة ظهرت على خلفية الافتراض القائل بتعارض بين "الإيرووس" Eros (نزوة الحب/ الحياة) والثناناتوس Thanatos (نزوة الموت) وإنذ دور الإحباط والكبت الممارس من العال الخارجي يبقى ثانويًا. مصدر المعاناة هو الإرادة البيولوجية في التألم ونزوة الحياة والحاجة إلى العقاب⁽⁴⁾.

مصدر المازوشية هو الكبت الجنسي في مرحلة الطفولة والإحباط الليبيدي، والمازوشية هي ظاهرة خارجية عند الشخص. وقد ربط "رايش" المازوشية المولدة للشبق بالفيزيولوجية لأن المازوشي يحب أن يجلد للإحساس بـ"الحروق"، والألم هو مستلزم لا يمكن الاستغناء عنه.

إن فيزيولوجيا القلق والذى تفسر لنا أفعال المازوشي، فالإحساس بالحرارة الجلدية يسبّب توسع أوعية الدم الطرفية وجران الدم بكتابة يعدّ جزءًا لا يتجزأ من الإحساس

(1)Reich. W: l'irruption de la morale sexuelle – éd. Paytot, Paris 1999, P. 217.

(2)Ibid: P. 231.

(3)Ibid: P. 231.

(4)Reich. : l'analyse caractérielle – éd. Paytot, Paris 1999, P. 217.

باللذة، ويلاحظ في هذا الإطار أنّ توسع الأوعية الدموية التي تخفق التوتر والقلق الداخليين هو الأساس الشبقي للطبع المازوشي.

G: فروم Fromm: في بحثه عن الاغتراب alienation كما يسميه إريك فروم في كتابات النقدية للمجتمع الحديث أو المعاصر بحيث تشمل كل مظاهر الحياة والعلاقات الإنسانية، إذ أنه مرض العصر، فإنه يؤكد كثيراً على أهمية الروابط الأولية كالطبيعية، والأم، والأب، ومذهب معين، وشخص ما، وزعيم أو قائد، طقس... في تعزيز الأمن والانتماء، والطمأنينية. إلا أنه بعد حصول الفرد على تفرده وحرية، وذلك بانفصاله عن تلك الروابط، والتي يسميها "فروم" الحرية السلبية، يشعر الفرد بتلك العوارض السيكلوجية - الوجودية - الاجتماعية من قلق ووحدة وعزلة، إلا في حالة تدمير وجوده على وفق ما تقتضيه الفاعلية الإنسانية أو الإنتاجية بوصفها ميزة أو طبيعة الإنسان، فضلاً عن "العقل أوة الوعي والإحساس أو الشعور"، وهي في الحقيقة مما يساعد الفرد على تجاوز حريته السلبية، وممارسة حريته الإيجابية.

إن للفرد طريقين، لا بدّ أن يسلك أحدهما، فإما حرية سلبية (تحرّر من) التي هي الشّعور بعدم الاستقلال التّام، رغم تمتعه بالحرية فضلاً عن شعوره بالعجز وعدم التخلص من روابطه، أو حرية إيجابيّة (تحرّر لأجل) التي هي الانتاجية. يشرح "فروم" ذلك التّعويض الناجم عن الهروب من الحرية، وفقاً لآليات نفسية ذات طابع اجتماعي - حضاري، فماذا يقوم أو يفعل هؤلاء العاجزون عن تحقيق حريتهم الإيجابية، وأي شيء يعزّز خلاصهم وتعويض نقصانهم من الحرية ووقوعهم في شبكة الحرية السلبية؟

يقول "فروم" إنهم لا يستطيعون أن يواصلوا حمل عبء "التحرر من" يجب أن يحاولوا أن يهربوا من الحرية كلها، ما لم يتمكنوا من التقدم من الحرية السلبية إلى الحرية الإيجابية. والدروب الاجتماعية الرئيسية للهروب من زماننا هي الخضوع لزعيم، والتطابق الإضطراري مع الوضع القائم⁽¹⁾، وأن كل عملية اتصال بالعالم عن طريق آليات الهروب التي هي آليات تعويض عن الحرية الحقيقية تسمى روابط أو علاقات ثانوية. والروابط الثانوية هي جزء من الآليات النفسية لتعويض النقص الحاصل من

(1) فروم: الخوف من الحرية - ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد - المؤسسة العربية للدراسات - بيروت 1972-

عدم تحقق الحرية، وللهروب من الحرية، إذ "أنّ النفس الفردية، قد بزغت، لكنها عاجزة عن تحقيق حريتها. إنها مستوعبة بالقلق والشك وشعور بالعجز. والنفس تحاول أن تجد الأمان في الروابط الثانوية⁽¹⁾.

من بين أهم الآليات الثانوية للتّعويض وللهرب من عجز الإنسان ولا حريته السّاديّة (الاخضاع) والمازوشية (الخضوع) والتطابق مع الآخرين (التمائل). ومما يدل على مدى التلاحم بين الجوانب النفسية والاجتماعيّة والثقافية تأكيد "فروم" أن فهم الآليات النفسية للهروب من الحرية لا ينفصل عن مظاهرها ونماذجها الاجتماعيّة والحضارية، كالنازية والفاشية، أي آليات الخضوع لسلطة كتعويض نقص الحصول على الحرية الحقيقية، كذلك الحال في الأنظمة الحديثة - الأنظمة الديمقراطية - من خلال آليات التجانس والتطابق مع الآخرين⁽²⁾.

هذه الآليات هي هي تجليات للاغتراب، سواء في خضوع الإنسان للسلطة (السّاديّة والمازوشية) أو في غياب فروديته واستقلاله في الأنظمة الديمقراطية بفعل التّطابق الآلية مع الآخرين.

تتمظهر الآليات النفسية - الاجتماعيّة في كل سلوك إنساني، عقلائي أو غير عقلائي، سوي أو عصابي، إذ أن "الظواهر التي نلاحظها في الشخص العصابي لا تختلف من ناحية المبدئية تلك الظواهر التي نجدها في الشخص السوي. كل ما هنالك أنها أشد بروزاً أو وضوحاً ومكشوفة أكثر لإدراك الشخص العصابي، عما هلي عليه لدى الإنسان السوي الذي ليس على دراية بأية مشكلة تستدعي الدراسة⁽³⁾.

تهتم النظرية النقدية عند "فروم" بالآليات النفسية ذات الطابع الاجتماعي - الحضاري، لا تلك الآليات الموجودة لدى الأفراد العصبيين، لأنها ذات أهمية اجتماعية، فالأولى تكشف مدى تلاحم أو اشتراك الفهم بين كل منهما، إن منخم إحداهما يؤدي إلى فهم الأخرى⁽⁴⁾.

ويحلل "فروم" الشّخصيّة المتسلطة: في البدء أن التّسلط نوعان: إمّا تسلط عقلائي فيفترض المساواة مع المتسلط عليه، أو غير عقلائي يفترض السيطرة على الآخرين.

(1) المرجع نفسه، ص 112.

(2) المرجع نفسه: ص 114.

(3) المرجع نفسه: ص 114.

(4) المرجع نفسه: ص 116-117.

ومصدر السلطة العقلانية الكفاءة، أما غير العقلانية فمصدرها الاستغلال والقمع وإخضاع الآخرين⁽¹⁾. والتسلط عقلائي أو غير عقلائي، تبعًا لارتباطهما بالآخرين من جهة، والممارس للسلطة من جهة ثانية.

إن البعض يعامل ذاته كأنها عبدًا للسلطة، ومن ثم فهو يخضع لها. وهي صفات الشخصية التسلطية، ساديًا أو مازوشيًا، أي نزعته التدميرية تغذي نزعته التسلطية، فيفقد الإنسان إحساسه بذاته، ويغترب عنها أمام السلطة التي أخذت تسيطر عليه وتستحوذ على ضميره الأخلاقي وعلى نفسه فحضور السلطات الخارجية التي يرهبها الشخص، هو المصدر الذي يغذي السلطة المتغلغلة في الذات، وهي الضمير⁽²⁾. إن علاقته بالسلطة يؤلّد إما شعورًا بالخضوع أو الهيمنة "المازوشية أو السادية".

والإنسان يرتكن للسلطة "لأنها أحد أشكال التعويض، نقص الحرية، والهروب منها لعدم تحمل قدرها وثقلها، لذلك يقوم المرء بالتخلي عن ذاته ودمجها بآخر مهيمن لكي يحصل الإنسان على تعويض للنقص الذي يعانيه، وهي حالة موجودة بدرجات مختلفة عند الأسوياء والعصابيين على حدٍ سواء⁽³⁾.

وصفة الاغتراب عند المازوشي من خلال الخضوع والهيمنة عليه من قبل الآخرين، بعكس السادي. وفي الحالتين، على العموم، يفقد المرء إحساسه بذاته⁽⁴⁾. ويرتبط بعد ذلك بموضوع ساديته ومازوشيته.

المازوشية تجعله شخصًا خاضعًا ومهيمنًا عليه من قبل الآخرين سواء السلطة أو شخص معين أو عقيدة ما... وبصفة منتظمة يُظهر هؤلاء الأشخاص تبعية ملحوظة للقوى التي هي خارج أنفسهم تبعية للشخص أو المؤسسات. وهم يميلون لا إلى تأكيد أنفسهم ولا إلى فعل ما يريدون، بل يميلون إلى الخضوع لأوامر هذه القوى الخارجية... وفي الغالب هم عاجزون تمامًا عن معاشية شعور "أنا أريد" أو "أنا أكون"، إنهم يشعرون بالحياة لكل شيء قوي مهيمن لا يستطيعون التحكم فيه أو السيطرة عليه⁽⁵⁾.

إن الإنسان المازوشي يهرب من حريته. ولكي يشعر بالأوان، يربط نفسه بآخر لكي

(1) المرجع نفسه: ص 178.

(2) الخوف من الخربة - مرجع سابق - ص 117.

(3) فروم: الخوف من الحرية - مرجع سابق - ص 117.

(4) المرجع نفسه: ص 118.

(5) فروم: الإنسان من أجل ذاته - مرجع سابق - ص 140، 141.

يحقق له الأمن. وهذه الأوجه لارتباطه بالآخر عديدة ومتنوعة، لكي يعوض نقص حريته وهروبه منها. فالمازوشية "هي محاولة الهروب من ذاته الفريدة، الهروب من حريته، ونشد أن الأمن يربط الإنسان نفسه بشخص آخر، والأشكال التي يأخذها هذا الاعتماد متعددة⁽¹⁾. أما في السادية؟، فإن الشخص المسيطر عليه يُدرك ويُعامل على أنه شيء يُستعمل ويُستغل لا على أنه إنسان هو غايته في ذاته⁽²⁾.

السادية والمازوشية هما آليتا الهروب من الحرية متشابهاً رغم اختلافهما، لإغتراب المرء عن ذاته. فهما تبحثان عن ذلك النقص لتعويضه، بالإعتماد على شيء يقع خارجها للتعويض قهراً للآخر أو الخضوع له. وكلا الأمرين يحدثان بسبب "عدم القدرة على احتمال وحدة النفس الفردية، فهو الذي يفرض دائماً إلى نزعة الدخول في العلاقة التكافلية مع شخص آخر. وواضح من هذا لماذا يمتزج المازوشي والسادي معاً على نحو دائم، وبالرغم من أنهما يبدوان على السطح متناقضين، فإنهما في الجوهر كامنان من الحاجة الرئيسية نفسها... في كلا الحالتين تضيق الفردية والحرية⁽³⁾.

إن بث الألم في الآخر وإحساسه بالعجز والشعور اللذيذ بأن الآخر مُهيمن عليه، هو ما يقرب السادية من المازوشية. فالسادية هي أن تهيمن على الآخرين وتتلذذ بذلك⁽⁴⁾. لكي تعوض نقص حريتك وهروبك منها.

والمازوشية هي تعويض لنقص الحرية الإيجابية والهروب منها، بالتعويض عن طريق الخضوع للآخر لإلغاء الشعور بالعجز، وكذلك لتحقيق الأمن والأمان بالإنتماء إلى شيء أكبر من الذات العاجزة سواء إليه أو سلطة أو أمة أو مؤسسة⁽⁵⁾ أو قائد أو زعيم...

لذلك فإن "الرغبات المازوشية والسادية تميل إلى مساعدة الفرد على الهروب من شعوره الذي لا يُطاق بالوحدة والعجز⁽⁶⁾.

إن الشخصية التسلطية الإستبدادية تطلق على الأشخاص الأسوياء أيضاً، وليس العصائبيين فحسب، إذا كانت شخصياتهم مازوشية وسادية "إن الشخص المازوشي

(1) المرجع نفسه: ص 140.

(2) فروم: الخوف من الحرية - مرجع سابق - ص 130.

(3) المرجع نفسه: ص 130.

(4) المرجع نفسه: ص 129.

(5) المرجع نفسه: ص 127.

(6) فروم: تشریح التدميرية البشرية - ترجمة محمود منقذ الهاشمي - الجزء الثاني - وزارة الثقافة - دمشق 2006 - ص 39.

والسادي يتميز دائماً بموقفه من السلطة، إنه يعجب بالسلطة ويميل إلى الخضوع لها، لكنه في الوقت نفسه يكون هو نفسه سلطة ويكون عنده آخرون يخضعون له⁽¹⁾.

1 - السادية والمازوشية عند الطفل:

للسادية والمازوشية مكانة هامة في فترة نمو الجنسيّة عند الطفل، بل توجد جل الشذوذات الجنسيّة في هذه الفترة.

تأخذ النزوة الجنسيّة بعداً سادياً أو مازوشياً في مرحلة الطفولة، وتظهر المازوشية كإنقلاب للسادية (يتحول الفعل النشيط إلى انفعال سلبي) وتحول ضد الشخص نفسه. وبحدوث هذا الانقلاب يربط الإحساس بالألم بالإثارة الجنسيّة، وبالتالي تظهر الرغبة السادية بإيلاء الآخر، وهذا يعني أن الشخص السادي يتلذذ بكيفية مازوشية بتماهي الموضوع المتألم.

2 - الجنسيّة الطفلية:

يرى فرويد أنّ الطفل شاذ متعدد الأشكال، بمعنى أن له استعداداً فطرياً للسلوكيات الشاذة، وهذا الاستعداد لا يتظاهر إلاّ عند أطفال خضعوا لتأثيرات إغرائية لا سوية⁽²⁾. في البدء تكون الإثارة الشبقية لا متميزة، أي أنها تتموضع على أجزاء لا تناسلية في الجسم وهي مشحونة بالعدوانية والسادية والمازوشية.

في بداية الحياة الجنسيّة تمتزج الشبقية العامة للجسد مع الميول العدوانية، وأي استمرار لهذا المزج في مراحل النمو اللاحقة قد تكون سبباً في ظهور السلوكيات السادية - المازوشية⁽³⁾.

تنشيط الإثارة الشبقية يؤدي إلى تحويلها من الجهاز التناسلي إلى أعضاء حفظ الذات: الفم، العين، فتحة الشرج، عضلات الأطراف.

في بداية الحياة الجنسيّة تربط أفراد نفس النوع علاقة مزدوجة وغامضة⁽⁴⁾، فن جهة تنتشر بينهم إشارات شبقية طبيعية، ومن جهة ثانية تطرق بينهم فردانية تحتوي على كل غرائز الدفاع وحفظ الذات، والخلط بين مظهري هذه العلاقة هو الذي يخلق الجنسيّة العدوانية، والتي إذا لم تحصل ترميمات نفسية عليها ستتظاهر في شكل

(1) فروم: الخوف من الحرية - مرجع سابق - ص 134 .

(2)Duyckaerts, F: la formations du lien sexcel - éd- Bruxelles: P. Mardage, 1964. P.77.

(3)Ibid: P. 82.

(4)Ibid: P. 94.

أفعال تكون العدوانية فيها مصدر لذة وستتشرط إلى علاقة لا تناظرية يلعب أحد الشركاء فيها دورًا نشيطاً وهو الفاعل السادي ويلعب الآخر دورًا ساكنًا وهو الضحية المازوشية.

في حالة النمو السوي تترك الخلفية السّاديّة - المازوشية للجنسية المكان، لعلاقة تتغلب فيها الجنسيّة على العدوانية. كل شريك يبحث عن زيادة اللذة عند الآخر، ولتحقيق هذا الغرض الإيجابي يستعمل كل مصادر الحساسية العضوية⁽¹⁾.

2- السّاديّة والمازوشية عند الطفل:

إن تناول الجنسيّة عند الطفل من طرف فرويد وأتباعه أقرّ بوجود شكل من الشذوذ المتعدد ومن بين أنواع الشذوذ نجد السّاديّة والمازوشية.

تعدّ السّاديّة والمازوشية من السوكات الشاذة الشائعة عند الطفل، فهو يجد اللذة في فعل ما لا يحبه الآخرون وما هو ممنوع عليه، كما يجد اللذة والمتعة في تلقي عقاب سادي نوعًا ما⁽²⁾.

في الغالب تقوم العلاقة بين الأولياء والطفل على نمط سادي - مازوشي يحاول الطفل تفجير ردود أفعال الأولياء السّاديّة باستفزازهم والتحرش بهم باستمرار، كما يمارس الطفل ساديته على الحيوانات.

يرى فرويد أنّ الجنسيّة عند الطفل لا تأخذ أولوية جنسية إلا بعد مرحلة الكمون، وقبل هذه المرحلة لا تكون السيطرة للميول التناسلية الجزئية، وإنما للميول السّاديّة والشرجية⁽³⁾.

يشكّل التنزين السادي - الشرجي آخر فترة تمهيدية تسبق فترة تأكيد أولوية الأعضاء التناسلية في الجنسيّة.

تكون الحياة الجنسيّة في الأول غير منسجمة ومتكونة من عدد كبير من الميول الجزئية، حيث يمارس كل ميل نشاطه بعيدًا عن الميل الآخر بغرض تحقيق لذة موضعية بواسطة الأعضاء⁽⁴⁾.

(1)Ibid: P. 95.

(2)Mael, Ph, Houzel, B." Psychiatrie de l'engant et de l'afolescent, éd. Maloise, Paris 1996, P.233.

(3)Freud: introduction à la psychanalyse, éd. Payot, Paris 1961, P. 307-308.

(4) Ibid: P. 308.

A - السّادّية في المرحلة الفمّية:

يمثل "الفم" أول منطقة مولّدة للشبق. يدّل المصّ بواسطة الفم على وجود حاجة عند الطفل تشبع بالمصّ، وتظهر بعض الميول السّادّية في الفترة الفمّية لما تظهر الأسنان الأولى، وتبرز هذه الميول السّادّية بشدة أكثر في الفترة الشرجية⁽¹⁾⁽³⁾ لأن الطفل يبحث هنا عن الإشباع بواسطة العدوان والوظيفة الإطراحية. السّادّية هي إتخاذ دائم ومستمر بين نزوات لبيدية ونزوات مهدمة.

B - السّادّية في المرحلة الشرجية:

المرحلة الشرجية هي المرحلة الثانية في النمو اللبيدي، بين سني الثانية والخامسة، وفيها تكون المنطقة المولّدة للشبق موجودة على مستوى الشرج، وأثناءها يتعلم الطفل النظافة القابضية.

يسيطر التبرز والدلالات التي تعطى للمواد البرازية على علاقات الطفل مع العالم، تتأكد السّادّية مع بروز التحكم في العضلات فيشعر الطفل باللذة الشبقية عندما يطرح البراز وكذلك عندما يمتنع عن طرحه.

وبشأن التحكم القابضي تظهر الصراعات الأولى بين الطفل وأمه، ولما تأمرع بأن يكون نظيفاً يختار أحد الأمرين إما رفض الطاعة وتفضيل لذته الشّخصية وطرحه للبراز وبالتالي يحس بالقوة ويؤكد ذاته عدوانياً، أو يطيع أمه حباً فيها⁽²⁾.

يهتم الرضيع بعملية البراز لأنها تحدث عنده الإحساس باللذة. إن تعرّض الطفل للضرب على ردفه أو تنظيفه بالقوة (بعد التبرز) يؤدي إلى ظهور الميول السّادّية أو المازوشية عنده، كما أن ولادة أخ ثانٍ يحوّل مازوشيته الشرجية إلى سادية وعنّف الانتحار والعودة إلى تخيل قتل الأخ الجديد⁽³⁾.

ترتبط السّادّية بالتعلم الاجتماعي للتحكم في العضلات القابضة، إن الاحتفاظ بالمواد البرازية (الفضلات) يعد أول علامة لرفض قيم عالم الراشدين، وبما أن الجهاز "احتفاظ - إطراح" هو مصدر معقد للذات يحاول الطفل كل السلوكيات المولّدة للشبق، ولهذا يتحدث عن المرحلة السّادّية - الشرجية. أما عند الراشد فتأخذ السّادّية في أغلب الأحيان أشكال هوامات بسيطة.

(1) Freud: abrégé de psychanalyse - éd- P.U.F. Paris 1975, P. 14 - 15.

(2)Hamburfer, J: le développement Psychologique normal, la vie psychologique pathologique - éf - dedis - Paris , P. 375.

(3)Bastide, T.: Docialogie et psychanalyse - éd - P.U.F. Paris 1972 - P. 37.

C- الهوام المازوشي:

في مرحلة الطفولة تختفي المازوشية الطفولية في "اللاوعي" على شكل كبت وتعاود الظهور في "الوعي" على شكل هومات Fantssmes. ولقد أشار فرويد إلى هذا النوع من الهوام لما نشر مقالة "طفل مضروب" (1919). حيث قال أن كثيراً ما صادفه هذا الهوام المازوشي في الجلسات العلاجية التي كان يقيمها مع حالاته⁽¹⁾.

ويرى فرويد أن هذا التصور الهوامي المازوشي شائع عند الأشخاص الهستيريين أو الوسواسيين الذين يطلبون إجراء تحليل نفسي لهم. في هذه الهومات توجد مفتاح اللذة وأحياناً الإشباع الإستمنائي التي يفترض أنها تروكة لكنها عادت بشكل قهري.

لقد تبين فرويد من خلال دراسته لأربع حالات نسائية ومراحل هذا الهوام⁽²⁾ وهي ثلاثة:

في المرحلة الأولى يبرز الهوام على شكل "يضرب الأب الطفل الذي أكرهه أنا، والكلام هنا على لسان الشخص الذي يجري له تحليل نفسي)، وهذا الشكل يترجم المنافسة الطفولية البدائية. يعيد التحليل النفسي بناء المرحلة الثانية وفيها يكون الشخص المتحلل هو موضوع الضرب "أنا مضروب" من طرف الأب.

تعد المرحلة الثانية الجزء المازوشي في هذا الهوام حيث أن وقوع فعل الضرب يشبع الشعور بالذنب الأوديبوي ويسمح أيضاً بالحصول على اللذة وفق نمط نكوصي.

المرحلة الثالثة يفقد كل من الضارب والطفل هويته مما يسمح للهوام بالبقاء على مستوى "الوعي" تحت شكل جديد مقبول هذه المرة من طرف الرقابة نشر فرويد سنة 1924 مقالة حول "المسألة الاقتصادية للماوزشية" وفيه تغيرت نظرتة للماوزشية، فإذا كان يعتبرها في مقال 1919 جزء محدد من الهوام وأنها انقلاب للهوام السادي، فإنه في مقال 1924 يعطيها مجالاً أوسع ويرى أنها ثلاثة أنواع: مولدة للشبق، أنثوية، وأخلاقية.

(1)Chememe, T.: Vandermersch – Op.Cit. P. 131.

(2) Ibid: P. 240-241.

المراجع:

- Albernhe, T. : Criminologie et Psychiatrie- éd – Ellipes, Paris 1999.
- Bastide, R. » Sociologie et Psychanalyse – éd – P.U.F. – Paris 1972.
- Bergeret, J.: la violence fondamentale – éd – Dumord, Paris 1996.
- Bergeret, J. : la personnalité normale et Pathologique, les structures mentales, la caractère, les syplômes – éd – Bordas – Paris 1974.
- Chermama, J. : la vie Psychologique Patholofique – éd – didis – Paris 1976.
- Klein, M. : developement de ka Psychanalyse – Notes sur quelques mécanismes sehizoides – éd – du Seuil, Paris 1973.
- Mazel, Ph. : Houzel, D. : Psychiatrie de l'enfant et de l'adolescent, éd. Maloine, Paris 1996.
- Nacht, S. : le mosochisme, in : R.F.P., N » 2 – Paris, 1980.
- Reich : l'irruption de ka morale sexcuelle – éd – Payot – Paris 1999.
- Reich : l'analyse caractérielle – éd – Payot – Paris 1979.
- Tacussel, P. : ;a personnalité normale et Pathologique – éd – Bordas – Paris 1974.
- Zoila, A.F. : Freud et les Psychanalyses – éd – Fernanf Nathan, Paris 1976.
- Duyckaerts, F. : la formations du lien sexcuel – éd. Bruxelles : P. Nardage, 1996.

المراجع العربية:

- ريكان، إبراهيم، النفس والعدوان، دراسة نفسية إجتماعية في ظاهرة العدوان البشري - بغداد، دار الشؤون الثقافية، 1987.
- سمير نوف، فيكتور: التحليل النفسي للمولد - ترجمة فؤاد شاهين - المؤسسة الجامعية للدراسات - بيروت 1980.
- فرويد: الأحلام، ترجمة مصطفى غالب - بيروت - مكتبة الهلال 1985.
- فورجي: ثلاث رسائل في نظرية الجنس - ترجمة سامي محمود علي، عبد السلام القفاش - القاهرة 1980 - دار المعارف.
- فرويد: نظرية الأحلام - ترجمو جورج طرابيشي - بيروت 1980 - دار الطليعة.
- فروم، إريك: الخوف من الحرية - ترجمو مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1972.
- فروم: الإنسان من أجل ذاته، بحث في سيكولوجية الأخلاق - ترجمو محمود منقذ الهاشمي - دمشق 2007 - وزارة الثقافة.
- فروم: تشريح التدمير البشرية - ترجمو محمود منقذ الهاشمي - الجزء الثاني - دمشق 2006 - وزارة الثقافة.
- كلاين، ميلاني، التحليل النفسي للأطفال - ترجمو عبد الغني الديدي - بيروت 1994 - دار الفكر اللبناني.

المعاجم:

- إيفانس ديلان: معجم تمهيدي لنظرية التحليل النفسي اللاكاني - ترجمة هشام روحانا - دمشق 2016 - دار نينوى.
- La planche, J.B. Pontalis : vocabulaire de la Psychanalyse - éd. P.H.F. - Paris 1969.

أسلوب الاستفهام والأمر في قصائد خليل حاوي جوزيف جواد المقدسي

المقدمة:

يعدّ الالتفات إلى دراسة الأسلوب من المكاسب الهامة للدراسات الأدبية، إذ «إنّ السمة المميّزة لدراسة الأسلوب أنّها تبدأ من العمل الأدبيّ نفسه، من الكلمات والطريقة التي تألّفت بها، وضمّ بعضها إلى بعض»⁽¹⁾.

وإنّ مادّة هذا العمل الأدبيّ هي اللّغة، وهي وسيلة تشكيله، وأداة تميّزه عن أنواع الخطاب الأدبيّ الأخرى. ومن هنا، فللشعر لغة شعريّة خاصّة تختلف عن اللّغة اليومية، باختلاف قصد المتكلّم. فإذا كان المتكلّم «يستعمل اللّغة بغية التّوصيل، فستنتهي آنذاك إلى اللّغة اليومية التي لا تكون فيها للأصوات والعناصر الصّرفيّة أيّة قيمة مستقلّة، أمّا إذا تخلّف هدف التّوصيل إلى المرتبة الثّانية، وبرزت الظّاهرة اللّغويّة بقيمة مستقلّة لأصواتها وعناصرها الصّرفيّة، فستنتهي إلى اللّغة الشعريّة»⁽²⁾، وإلى الشّاعريّة المتجلّية «في كون الكلمات وتركيبها ودلالاتها، وشكلها الخارجيّ والدّاخليّ، ليست مجرد أمارات مختلفة عن الواقع، بل لها وزنها الخاصّ وقيمتها الخاصّة»⁽³⁾. ولما كان للشعر لغة خاصّة، فإنّه يبتعد بنفسه عن الكلام العاديّ، بواسطة كلّ الوسائل التي تتيحها الصّور الشعريّة⁽⁴⁾، ويصير «لغة داخل اللّغة»⁽⁵⁾، وله أسلوبه الخاصّ الذي يمكن تعريفه بأنّه «طريقة معيّنة في القول»⁽⁶⁾، أو «أنّه اختيار choice، أو انتقاء selection، يقوم به المنشئ لسّمات لغويّة معيّنة، بغرض التّعبير عن موقف معيّن»⁽⁷⁾.

وعليه، يأتي بحثي دراسة فنّيّة أسلوبية موجزة تتناول نوعين من أنواع الجمل الإنشائيّة الطّليبيّة المستخدمة في شعر خليل حاوي هما: الاستفهام والأمر، في دواوينه الخمسة:

- (1)- شفيح السّيد، الاتّجاه الأسلوبّي في النّقد الأدبيّ، ص: 153.
- (2)- حسن ناظم، مفاهيم الشعريّة: دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، ص: 86.
- (3)- رومان جاكسون، قضايا الشعريّة، ص: 19.
- (4)- رينيه ويلك، مفاهيم نقديّة، ص: 443.
- (5)- هذا التّعبير خاصّ بفاليري، انظر: جون كوين، بناء لغة الشعر، ص: 156.
- (6)- جون ستروك، البنيويّة وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا، ص: 119.
- (7)- سعد مصلوح، الأسلوب: دراسة لغويّة إحصائيّة، ص: 37.

نهر الرّمد، والنّاي والرّيح، وبيادر الجوع، والرّعد الجريح، ومن جحيم الكوميديا. ويضعنا هذا البحث الأسلوبّي في تقصّي دلالات الاستفهام والأمر، أمام إشكاليّة تقوم على أسناد تعتمد أسئلة، لتكوين الإطارين النظريّ والتّطبيقيّ له، ومنها: ما مفهوم الجملة الإنشائيّة؟ وما أنواعها؟ وهل للاستفهام والأمر دلالات مختلفة عن دلالتيهما الأصليّتين في شعر خليل حاوي، أم أنّها واحدة مهما تعدّدت السياقات؟ وإذا تنوّعت، فما هي هذه الدّلالات؟ وما دورها في شعر خليل حاوي؟

ويترتّب على هذه الأسئلة فرضيّات متعدّدة، حاولتُ في نهاية هذا البحث الوصول إلى إثباتها أو نفيها، أو إلى إثبات بعضها ونفي بعضها الآخر، ومنها: للاستفهام والأمر دلالات مختلفة تخرج على دلالتيهما الأصليّتين، وتنوّع هذه الدّلالات بحسب السياق. وهذه الدّلالات المتنوّعة تؤدّي دورًا في إبراز المشاعر والعواطف، وتجلّي الرّؤية الشّعريّة الخاصّة بالشّاعر.

ولمعالجة هذه الإشكاليّة، وجدت من الموافق اعتماد المنهج الفنّي الذي يهتمّ بدراسة الأدب من الدّاخل، ويعدّ «دعوة إلى تحرّر الأدب من كلّ قيد خارجيّ، وإنشاء الفنّ لذاته وقيّمته الجماليّة، ودراسته أيضًا دراسة ذاتيّة تُعنى باستكناه مقوماته الصّوريّة، والكشف عن تلك القيمة الشّكليّة الجماليّة»⁽¹⁾، وذلك لأنّ «المنطلق الطّبيعيّ والمعقول للعمل في البحث الأدبيّ هو تفسير الأعمال الأدبيّة ذاتيًا وتحليلها»⁽²⁾.

1 - مفهوم الجملة وأنواعها:

الجملة لغةً هي المجموع⁽³⁾، واصطلاحًا هي «القول المركّب من فعل مع فاعله، أو المبتدأ مع خبره، أو ما نُزِل منزلة أحدهما»⁽⁴⁾. ومصطلح الجملة يرادف معنى مصطلح الكلام⁽⁵⁾، وكلاهما واحد⁽⁶⁾. وعند البعض الكلام هو شيء، والجملة هي شيء آخر⁽⁷⁾.

(1) - صلاح رزق، أدبيّة النّص، ص: 197.

(2) - أوستن وارين ورينيه ويلك، نظريّة الأدب، ص: 145.

(3) - الشّيخ العلّامة محمّد علي بن علي بن محمّد التّهانويّ الحنفيّ (1158هـ)، كشاف اصطلاحات الفنون، ج1، ص: 333.

(4) - الفاكهيّ: الإمام عبد الله بن أحمد النّحويّ المكيّ (899 - 972هـ)، كتاب الحدود في النّحو، ص: 64.

(5) - يوحنا مرزا الخامس، موسوعة المصطلح النّحويّ: من النّشأة إلى الاستقرار، مج 2، ص: 532.

(6) - أبو علي النّحويّ (288 - 377هـ)، المسائل العسكريّات في النّحو العربيّ، ص: 83.

(7) - يُنظر تفصيل ذلك: الدّسوقيّ، مصطفى بن عرفة (1230هـ)، حاشية الدّسوقيّ على مغني اللبيب، ج2، ص: 43 - 45.

والجملة، أو الكلام، هي ما تركب من كلمتين أو أكثر، ولها معنى مفيد مستقل. ولا بدّ في الجملة من أمرين معاً هما: التركيب، والإفادة المستقلة⁽¹⁾. وهي، من ناحية احتمالها الصدق والكذب، نوعان: إنشائية لا تحتمل الصدق والكذب، وخبرية تحتملها⁽²⁾. والإنشاء قسمان:

1. طلبيّ: يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، ويشمل:

أ. الأمر، نحو: اجتهد.

ب. النهي، نحو: لا تكذب.

ت. الاستفهام، نحو: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسُنُ ٦٠﴾⁽³⁾.

ث. التمني، نحو: ليت الشباب يعود يوماً.

ج. النداء، نحو: أيها الحكّام، اتّقوا الله.

2. غير طلبيّ: لا يستدعي مطلوباً وقت الطلب، ويشمل:

أ. المدح والذم، نحو: نِعَمَ الْمُحَدِّثِ عَمَاد.

ب. التّعجب، نحو: ما أجملَ الصّدق.

ت. القسم، نحو: بالله، لأصالحته.

ث. الرجاء، نحو: لعلّ الله يرحمنا.

ج. صيغ العقود، نحو: اشتريتُ (لمن عرض عليك الشراء).

ح. صيغ العهود، نحو: حرام عليّ الطّعام والشّراب...

3 - الاستفهام في شعر خليل حاوي:

وهو، في اللّغة، الاستخبار، والاستيضاح، وطلب الفهم. وهو، في الاصطلاح، طلب معرفة شيء مجهول، أو استيضاح ما في ضمير المخاطب. وله ركنان: المُستفهم عنه، والمُستفهم به. أمّا أدواته، فهي: الحرفان (الهمزة: أ، وهل)، والأسماء الآتية: مَنْ، ما، ماذا، متى، أيّان، أين، كيف، أنى، كم، أيّ⁽⁴⁾. وأقسامه باعتبار معناه كثيرة⁽⁵⁾، سنبرز منها ما نحظى به في شعر حاوي.

نقع على الاستفهام في قصيدة «الرّعد الجريح»، بدلالاته المعبرة عن القلق، والحيرة

(1)- إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللّغة العربيّة، مج 5، ص: 106 - 107.

(2)- إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللّغة العربيّة، مج 5، ص: 107.

(3)- مصحف المدينة، سورة الرّحمن (60).

(4)- إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللّغة العربيّة، مج 2، ص: 54.

(5)- للتوسّع بالمعاني: إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللّغة العربيّة، مج 2، ص: 54 - 58.

وجودية التي تعكس طول تأمله في الموت والحياة، حيث يقول: (من تفعيلة الرَّمْل)

«ولماذا يَنْقِي

ما ضَمَّ في عتمته

وجه أبيه

وجباهاً غَضَةً مستعرة

وصغاراً في قبور نضرة؟» (1)

القبر ضمَّ في عتمته وجه أبيه، واحتوى أخته الصغيرة في ظلمته؛ لذا، شعر الشاعر بالقلق من الموت والخوف منه، فأتى بالاستفهام محاولاً أن يهدئ من روعه، ويطمئن نفسه القلقة.

ونجد الاستفهام بدلالته على النَّجَّع والتَّحَسُّر في السياقات الرثائية في قصيدة «أمَّ المصطفى»، حيث ينشد خليل حاوي: (من تفعيلة الكامل)

«وَلِمَ اصْطَفَى وَوَلَدِي

ضَحِيَّةً صَرِيحَةً؟» (2)

يستخدم الشاعر في مطلع القصيدة الفعل «اصطفى» الذي يحمل رصيذاً دينياً، ويشير إلى الأخيار المختارين والمصطفين لأجل الرسولية، إلا أن إلحاق الفعل بلفظة «ضحية» ونعتها «صريحة» حوّل الدلالة إلى الحسرة والتَّجَعُّع، باصطفاء الموت الولد، ليتوافق بذلك مع صرخة الأم التكلية والمكلمة «ولدي».

وعندما يريد الشاعر أن يعبر عن حال العقم العربيّ الرديئة، ينسحب الاستفهام إلى معنى اللوم والتَّقرُّيع، فيقول في نشيده «الجسر»: (من تفعيلة الرَّمْل)

«كَيْفَ نَبْقَى تَحْتَ سَقْفٍ وَاحِدٍ

وَبَحَارٍ بَيْنَنَا.. سَوْرًا..

وَصَحْرَاءَ رَمَادٍ بَارِدٍ

وَجَلِيدٍ؟» (3)

يستدعي الفعل «نبقى» مفهوم البقاء للأقوى، وتنهض كلمة «سقف» بدلالة الانتماء

(1)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: الرِّعد الجريح، ص: 428.

(2)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: من جحيم الكوميديا، ص: 571.

(3)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: نهر الرماد، ص: 167 - 168.

الواحد إلى العرب ويعود الكلّ إلى جدّ واحد أعلى وأول، فيصير السقف دلالة على الهوية، وعلى حمايتها من الضياع. ويشعّ النعت «واحد» بمعنى الرابط القويّ والمتين بين أهل هذه الهوية المستظّلين بظلّها، فيكون الشاعر قد انتزع عبارة «سقف واحد» من واقع اللّغة المتكلمة، ليحمّلها دلالة جديدة هي الأسرة الواحدة، مشيرًا بذلك إلى العلاقة القويّة التي تتحلّى بها الأسرة (الأب والأمّ والإخوة)، والتي لا تنفك. كما يوائم حرف العطف الواو ما بعده مع الاستفهام المتصدر للسّطور، لإظهار التّقابل بين الرّغبة في العيش تحت سقف واحد، والفعل الذي يمثّل التّباعد الجسديّ، حيث يفصل فيه بيننا بون شديد وبُعد سحيق، توحى بهما لفظة «بحار»، ويستتبع ذلك فراغ كلاميّ يعوّضه الشاعر بنقطتين جاعلاً المتلقّي مساهمًا في بناء الدلالة، ومصوّرًا من خلالها التّباعد النّفسيّ «بيننا»، نحن العرب أعضاء هذه الأسرة مضافًا إلى التّباعد الجسديّ. أمّا لفظة «سور»، فتأتي من حقل دلاليّ قريب من كلمة بحار، مستدعية رصيّدًا كبيرًا من الفراق، ومُلحقةً بفراغ كلاميّ آخر يحمل الدلالة عينها، ثمّ بالأداة الواو لربطها بلفظة صحراء المتقاربة دلاليًّا مع دلالة البحار والسور، والتي أُضيفت إلى لفظتي رماد وبارد موحيةً بالبعد وانطفاء العواطف بين العرب، ليأتي العطف في النهاية إلى كلمة جليد للإيحاء بالبرودة القاتلة بينهم، وللإشارة إلى كلّ عوامل التّفرقة الفاصلة بينهم، على الرّغم من عامل السقف الجامع لهم. وبالتالي، ينهض الاستفهام بدلالة اللّوم والتّقرّيع، مستدعيًا ما يبثّ هذه الدلالة.

ويحمل الاستفهام معنى المدح والتّمجيد عند الحديث عن البطل الغضّ الغضوب، في القصائد الوطنيّة، كما في قصيدة «الرّعد الجريح»، حيث ينشد: (من تفعيلة الرّمْل)

«أُثْرَى هَلْ كَانَ

فِي حُنُوءِ لَيْلٍ يَسْتَرِيحُ

حَيْثُ لَا تَضْرِبُهُ شَمْسٌ

وَلَا تُحْفِيهِ رِيحٌ؟

كَيْفَ لَا يَحْتَرِقُ اللَّيْلُ وَيَفْنَى

حِينَ يَلْتَفُّ عَلَى

رَعْدٍ جَرِيحٍ؟» (1)

يدلّ اللّيل هنا على الانتكاسات التي حلّت بالأمة، وترمز الشّمس والريّح على

(1) - خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: الرّعد الجريح، ص: 432 - 433.

الصَّيرورة، والتَّحوُّل من الضَّعف إلى القوَّة أو بصورة معكوسة. إلا أنَّ بطل الشَّاعر لا يتأثَّر بالتَّغيير، ولا ينهزم أمام عوامله؛ حيث وصفه بالرَّعد، ولأنَّه محمَّل بدلالات أسطوريَّة، لكنَّه محمَّل بصبغة دلاليَّة مشبعة بالغضب من جزاء ما أصاب أمته، وهذا ما تشير إليه عبارة بتمامها «رعد جريح». فهنا بتنا أمام بنية تضادَّ بين اللَّيل الممثل للانتكاسات والهزائم، والرَّعد رمز البطل والانتصار، ما يؤازر الاستفهام في دلالة التَّمجيد.

وفي قصيدة «البَحَّار والدَّرويش»، يفيد الاستفهام معنى التَّقدير، أي حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرَّ عنده⁽¹⁾، إذ يقول الشَّاعر: (من تفعيلة الرَّمَل)

«أثْرَى حُمِلْتُ مِنْ صَدَقِ الرُّؤْيِ

ما لا تطيق؟»⁽²⁾

في هذه المقطوعة، يخاطب الدَّرويش البَحَّار باستفهام تَقريري، بعد أن أبدى رأيه بالحضارة الغربيَّة الطَّينيَّة القائمة على الماديَّة الخالية من الرُّوح ووثباتها ووجهها، فسوَّر رعب الدَّرويش ورؤيته القلقة. فبدأ بهمزة الاستفهام المتبوعة بفعلها «ثُرِي» الَّذي يوافق دلالة الرُّؤيا الصَّادقة التي يريد الدَّرويش الانطلاق منها، جاعلاً كلامه أقرب ما يكون إلى النُّبوءة. أمَّا لفظه «حُمِلْتُ»، فقد أتى بها الشَّاعر لتوحي بالتَّقل أو الإثقال الماديِّ الشَّديد الَّذي أرهق كاهل البَحَّار، مجسِّماً الرُّؤْي بعدها، وناقياً الفعل تطيق بلا النَّافية، لأجل الإيحاء بعدم القدرة على التَّحمُّل مطلقاً، والاعتراف بذلك. كما يفيد الاستفهام التَّعجُّب والإنكار في قصيدة «دعوى قديمة»، حيث يسطر الشَّاعر: (من تفعيلة الرَّمَل)

«حلوة الحَيِّ

ثُرِي مَنْ مَطَّ نَدْيَيْهَا إِلَى الْبَطْنِ

وَأَلْوَى أَنْفَهَا مِنْقَارَ بُومَةٍ؟»⁽³⁾

حلوة الحَيِّ تريد قدراً من الاهتمام والتَّركيز، إذ نكتشف من خلال الاستفهام أنَّ جسدها تشوَّه (مطَّ النَّديين والتَّواء الأنف)، وتحوُّل جمالها إلى قبح بيِّن وصل إلى ذروته بلفظة البومة. فمن خلال بنية التَّضاد الجمال / القبح يظهر الاستفهام محمَّلاً

(1)- إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللُّغة العربيَّة، مج 2، ص: 56 - 57.

(2)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: نهر الرَّماد، ص: 48.

(3)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: نهر الرَّماد، ص: 64.

بدلالة التّعجب والإنكار.

وتسحب دلالة الاستفهام إلى النّفي عند خليل حاوي⁽¹⁾، كما نجده يقول في قصيدته «ليالي بيروت»: (من تفعيلة الرّمْل)

«كيف الفرار

وأنا في الصّبح عبدٌ للطّواغيتِ الكبار؟»⁽²⁾

يستفهم الشّاعر لأجل الفرار. ولكن هل يمكنه ذلك؟ لقد أتبع الاستفهام عن الفرار بفقدانه الأمل في هذا الفرار عبر جملة «وأنا في الصّبح عبد للطّواغيت الكبار». ففراره، فرار المواطن العاديّ والتّجاة بنفسه، غير ممكن؛ لأنّ من يتحكّم في مصيره هم الطّواغيت وهو عبد لهم ولا يستطيع الفكّك منهم. فنقع هنا على تقنيّة تضادّ تؤكّد النّفي، إذ يسند الضّمير «أنا» إلى «عبد» بما لها من دلالة العبوديّة، مشيرًا إلى العهد الذي كان فيه الإنسان رقيقًا يباع ويشتري. بيد أنّ هذه العبوديّة ليست لطاغوت واحد، بل لطواغيت يتحكّمون بمصيره، ينعتهم بصفة الكبار لتلائمهم. من هنا، يقوم الاستفهام بجذب كلمات تسهم في بناء النّفي⁽³⁾.

وفي قصيدة «النّاي والرّيح في صومعة كيمبردج»، يأتي الاستفهام بمعنى التّهويل، إذ ينشد الشّاعر:

«هل جُنِنْتَ فرحتَ تحلمُ في النّهار؟»⁽⁴⁾

يتصدّر الاستفهام في هذه المقطوعة بـ «هل»، مُستتبعًا بالفعل «جُنِنْتَ»، ثمّ تلحقهما جملة تعلّل هذا الجنون ألا وهو الحلم في النّهار، ما دلّ على التّهويل من هذا الجنون. والتّمّنيّ دلالة من دلالات الاستفهام عند خليل حاوي، نقع عليه في قصيدة «لعازر عام 1962»، حيث يقرض على لسان زوجة لعازر: (من تفعيلة الرّمْل)

«ولماذا يا بياض التّلج

لا تنهلُ في غربة نومي»⁽⁵⁾

يتصدّر الاستفهام متبوعًا بالنداء المتوجّه إلى بياض التّلج الذي يشير إلى برودة الموت، ويُستتبع بلفظة تنهلّ مركز النّقل التي توحى بالعلوّ والتّغطية، وتُستلحق

(1)- انظر: إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللّغة العربيّة، مج 2، ص: 57.

(2)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: نهر الرّماد، ص: 56 - 57.

(3)- عايدي علي جمعة، شعر خليل حاوي: دراسة فنيّة، ص: 56 - 57.

(4)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: النّاي والرّيح، ص: 214.

(5)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: بيادر الجوع، ص: 381.

بالانتهاك بين المضاف «غربة» والمضاف إليه «نومي»، ما يتواءم مع رغبة الزوجة في الاستسلام للموت، ويُصعد من دلالة التمني في الاستفهام.

4 - الأمر في شعر خليل حاوي:

الأمر، في اللغة، مصدر الفعل «أمر». وأمر فلانًا: طلب منه القيام بأمر أو فعل. وهو، في علم المعاني، طلب فعل شيء صادر ممن هو أعلى درجة إلى من هو أقل منه. فإن كان من أدنى لأعلى، سمي «دعاء»، وإن كان من مساوٍ إلى نظيره، سمي «التماسًا»⁽¹⁾. وله أربع صيغ، هي: فعل الأمر، والفعل المضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر. كما له معان كثيرة⁽²⁾، سنوضح منها ما نقع عليه في قصائد خليل حاوي.

وصيغة الأمر تلفت النظر في شعر خليل حاوي، وتأتي في مطلع قصيدته وفي غيره.

أ) في المطلع:

إن مجيء الأمر في هذا الموطن وسيلة تنشيط نفس المستقبل، وتنبهه إلى طول نفس الشاعر في القصيدة⁽³⁾. وجاء الأمر عند خليل حاوي في مطلع قصيدة «لعازر عام 1962»، وأخذ دور الصدارة في سبعة مقاطع منها.

يطالعا الأمر في قول لعازر للحقار: (من تفعيلة الرمل)

«عمق الحفرة يا حقار،

عمقها لقاع لا قرار...

آه لا تلق على جسمي

ترابًا أحمرًا حيًا طري...

نَفَّ جسمي، لُقِّه، حنطه، واطمرة

بكلس مالح، صخر من الكبريت،

فحم حجري»⁽⁴⁾

يأتي الطلب هنا على لسان لعازر الذي أحياه المسيح بعد أربعة أيام من موته. أمّا

(1)- إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية، مج 3، ص: 232.

(2) - للاطلاع على معانيه كافة: انظر: إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية، مج 3، ص: 232 - 233.

(3)- محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص: 359.

(4)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: ببادر الجوع، ص: 339 - 341.

سبب هذا الطّلب، فهو عدم رغبته في العودة إلى الحياة. فيأتي الأمر هنا بدلالة الرّفص. وتتجلّى صيغة الأمر بقوّة في المقطع الثّالث، حيث يقول الشّاعر: (من تفعيلة الرّمْل)

«أُنْبِتِ الصَّخْرَ وَدَعْنَا نَحْتَمِي

بِالصَّخْرِ مِنْ حَمَى الدَّوَارِ

سَمَرِ اللَّحْظَةِ عَمْرًا سَرْمَدِيًّا

جَمَدِ المَوْجِ الَّذِي يَبْصِقُنَا

فِي جَوْفِ غَوْلٍ

إِنْ تَكُنْ رَبِّ الفِصُولِ.»⁽¹⁾

يحمل الأمر في هذه المقطوعة معنى الدّعاء، لأنّه خطاب من أدنى لأعلى، أي من لعازر إلى النّاصريّ ذاته. فلعازر يخاطب المسيح الذي يتلو على قبره صلوات الحبّ كي يبعثه، لكنّ لعازر حزين ولا يريد هذا البعث، بل العدم المطلق، إذ يخاطبه قائلاً: «أُنْبِتِ الصَّخْرَ». فالفعل «أُنْبِتِ» ينتمي إلى معجم الحياة، ومن المتوقّع أن يقع هذا الفعل على مفعول به من رموز الحياة، لكنّه وقع على رمز من رموز العدم، وهو الصّخر، فيتحوّل رمز الحياة إلى الرّفص، ويصبح الصّخر رمز العدم أمنيّة كبيرة، ووصفًا لضيق بالغ بالحياة، بحيث يفصل الصّخر العدميّ الموضوع على باب قبره، بين عالم الموت، وعالم حمى الدّوار أي الحياة. ويغوص لعازر أكثر وأكثر في العدميّة، حين يطلب من المسيح أن يسمرّ اللحظة عمراً سرمدياً، وبالتالي أن تطول لحظة الموت، كما تشير كلمة سرمدياً التي تدلّ على الطّول البالغ غير المنتهي. أمّا التّسمير في الفعل «سمرّ»، فيضيف ما هو مادّيّ إلى السّرمدّيّ المعنويّ. ثمّ ما يلبث أن يكرّر طلبه، ولكن في هذه المرّة، عبر تجميد الموج الذي يقذف بالمائتين إلى جوف الغول، أي عالم الأحياء، ليعكس نفوره الكبير إلى حدّه الأقصى، ويحمّل المقطع رغبته الحارّة والقويّة في اكتمال حلقة العدم المطلق. وبهذا تكون أفعال الأمر قد أدّت دورها في الكشف عن نفور لعازر من كلّ ما يمتّ إلى الحياة بصلة، وعن سعادته بموته، ورغبته في استمرار هذا الموت.

ويحضر الأمر والنّهي معاً في المقطع الخامس من هذه القصيدة، حيث يتحوّل الدّور في الخطاب إلى زوجة لعازر، فنقول: (من تفعيلة الرّمْل)

(1) - خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: ببادر الجوع، ص: 344 - 345.

«جارتِي يا جارتِي
لا تسأليني كيف عاد...
خلِّه يُحصي على البيدرِ
غَلاتِ الحِصادِ»⁽¹⁾

الحلم الجميل الذي راودها عند عودة الزَّوج أخذ يتلاشى، عندما اقتربت منه، وتعرَّت له لتغريه، وتسترحم عينيه، أمَّا هو فقابل ذلك كلَّه ببرودة الأموات؛ لذا أحسَّت بالإخفاق فطلَّبت ألا تسألها الجارة عن عودته.

ويأتي الأمر بكثرة في المقطع الثالث متوائماً مع الأمر في بداية القصيدة، والمنبث في صدارة مقاطعها السابقة أو في حشوها، فتعكس بذلك المأساة على الجميع⁽²⁾. وتستمرَّ الزَّوجة في خطابها طالبةً: (من تفعيلة الرَّمَل)

«غَيِّبيني في بياضِ صامتِ الأمواجِ

فيضي يا ليالي الثلج والغربة

فيضي يا ليالي

وامسحي ظلي وآثارِ نعالي،

امسحي برقاً أداريه،...

امسحي الخصب الذي ينبث

في السنبِل أضراس الجراد

امسحيه ثمرًا من سُمرَة

الشَّمسِ على طعم الرَّماد،

امسحي الميت الذي ما برحت

تخضُرُ فيه لحيَّة، فخذُ، وأمعاء تطول»⁽³⁾

ويتكرَّر الأمر عينه عند زوجة لعازر، في المقطع التاسع، ثمَّ يتحوَّل من مأساة إلى مفاجأة خالصة ورغبة أكيدة في الموت: (من تفعيلة الرَّمَل)

«امسحي البرقِ امسحي الميتِ

امسحي الخصب الذي ينبث في السنبِل

(1)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: بيادر الجوع، ص: 350 و352.

(2)- عايدي علي جمعة، شعر خليل حاوي: دراسة فنيَّة، ص: 25.

(3)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: بيادر الجوع، ص: 360 - 361.

أضراسَ الجراد،

غَيَّبِنِي وَامْسَحِي ذَاكِرْتِي، فِيضِي

لِيَالِي التَّلْجِ فِي الْأَرْضِ الْغَرِيبَةِ،

غَرِبَةُ التَّلْجِ وَمَوْتَ الدَّرْبِ

وَالْجِدْرَانِ فِي الْأَرْضِ الْغَرِيبَةِ»⁽¹⁾

وبعد أن ظهر طيف يسوع لها، تخاطبه زوجة لعازر مستمرةً في مناجاتها المأساوية، في المقطع العاشر، وتقول: (من تفعيله الرَّمْل)

«.. إِنَّ تَكُنْ جَوْعَانَ حَدِيقٍ ..»

مَا غَرِيبٌ أَنْ يَجُوعَ الطَّيْفُ»⁽²⁾

وفي بداية المقطعين الرابع عشر والخامس عشر، يستمرّ الألم وتستمرّ المناجاة المأساوية، حيث تصرخ زوجة لعازر مخاطبة بفعل الأمر، وهي على حالها، قائلةً: (من تفعيله الرَّمْل)

غَيَّبِنِي وَامْسَحِي ظَلِّي

وَأَثَارِ نَعَالِي

يَا لِيَالِي التَّلْجِ، فِيضِي يَا لِيَالِي،

إِمْسَحِي ظَلِّي أَنَا الْأُنْثَى»⁽³⁾

وتتحسر صيغة الأمر في المقاطع اللاحقة، مفسحة المجال لتقنيات أخرى في تصوير الهاوية السحيقة التي لا فكاك منها. وقد ساهم ترديد صيغة الأمر في الدلالة على المحو والعدم وعدم الرغبة بالبعث، بالنسبة إلى لعازر، وعلى الرغبة الأكيدة في التخلّص من الحياة المشوّهة والتعيسة، بالنسبة إلى الزوجة. كما أسهم الأمر في المطع أولاً في مواءمة القصيدة مع المعلقات المشهورة المبتدئة بالأمر⁽⁴⁾، وكأننا أمام نزوع الشاعر إلى جعل قصيدته معلقة العصر، وثانياً في فتح دروب مغلقة أعطت للقصيدة طولها، حيث وصلت أسطرها إلى 376 سطرًا⁽⁵⁾.

ومن زوايا النظر إلى استخدام الأمر في الطوالع «هيئة المسند إليه من حيث

(1)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: بيار الجوع، ص: 362 و365.

(2)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: بيار الجوع، ص: 367.

(3)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: بيار الجوع، ص: 377 - 380.

(4)- انظر مثلاً: معلقة امرئ القيس: «قفا نيك...»، ومعلقة عمرو بن كلثوم التغلبي: «ألاهبي بصحنك فاصبحينا...».

(5)- عابدي علي جمعة، شعر خليل حاوي: دراسة فنيّة، ص: 25.

عدده وجنسه ودرجة تعيينه»⁽¹⁾. فقد ورد العدد مفردًا في الأمر الصادر من لعازر إلى الحفّار، طلبًا في إحكام الدفن إحكامًا تامًّا، وإبعادًا لكلّ شعاع من أشعة الحياة، وتعميقًا للحفرة إلى قاع لا قرار له، ورفضًا لإلقاء تراب حيّ على جسمه. فالمطلوب لفّ الجسم وطمره بكلس مالح، وصخر من الكبريت، وفحم حجريّ. فاستخدام الأمر هنا، يضيء على رغبة لعازر العارمة في عدم البعث والانبعاث أكثر من توجيهه إلى الحفّار نفسه. وجنس الأمر مذكّر يمتلك القدرة على الفعل. ومن ناحية تعيينه، فقد كان معينًا يحتلّ الصّدارة بعد حرف النّداء.

وأما الأمر الصادر من زوج لعازر، فعدده يتراوح بين المفرد والجمع، مع غلبة لصيغة الجمع. وكان أكثره متوجّهًا إلى الجمع المؤنث (جنسه)، وكأننا أمام زوجة تستجد بقوى العدم كلّها، لتخلّصها من حياتها البائسة التّعسة والمشوّهة.

والمسند إليه في خطاب لعازر واحد مفرد هو النّاصريّ يسوع، والأمر فيه يحمل رغبة لعازر الحارّة في اكتمال سلسلة حلقات العدم. أمّا المسند إليه في خطاب زوج لعازر، فهو مفرد متعدّد، مذكّر ومؤنث، تمثّل في الجارة التي نهتها عن السّؤال، وفي يسوع النّاصريّ حين ظهر طيفه.

(ب) في غير المطلع:

ونقع على الأمر في غير المطلع عند خليل حاوي بدلالاته الأصليّة، مسهمًا في إقامة بنية حوارية تجعل القصيدة تسير في غير اتجاه، وتكسبها نوعًا من الدّراميّة، كما في قصيدة «البحّار والدّرويش»، حيث قطع البحّار المسافات الطّويلة بحثًا عن اليقين الحضاريّ، ليصل إلى الدّرويش، لعلّه يروي ظمأه؛ إذ يقول له مخاطبًا: (من تفعيله الرّمل)

«هَاتِ خَبْرَ عَنْ كَنُوزِ سَمْرَتْ

عَيْنِكَ فِي الْغَيْبِ الْعَمِيقِ»⁽²⁾

الجملة الطّليّبة الموجّهة إلى الدّرويش تُفصح عن خيبة أمل الدّرويش، وانتهائه إلى اليأس منه في هذا العصر. فتأتي إجابة الدّرويش له: (من تفعيله الرّمل)

«قَابِعِ فِي مَطْرَحِي مِنْ أَلْفِ وَأَلْفِ،

قَابِعِ فِي ضَفَّةِ «الْكَنْجِ» الْعَرِيقِ»⁽³⁾

(1)- محمد الهادي الطّرابلسي، خصائص الأسلوب في الشّوقيّات، ص: 361.

(2)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: نهر الرّماد، ص: 44.

(3)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: نهر الرّماد، ص: 44 و 47.

وينسحب الأمر إلى دلالة التثبيط والإضعاف، كما في قول الشاعر، في قصيدة «عند البصارة»، حيث يتحدث الجنّ الحالّ في البصارة: (من تفعيلة الرّجز)

«وعادَ ذاك السّاحزُ اللّعينُ،

تريدُ أن تعرفَ ماذا في غدٍ تكونُ؟

ظَلَّ هنا، إن شئت

وَأَملاً صمّتكَ الأجوفَ

مِن حُمى الأغانى»⁽¹⁾

ونجد صيغة الأمر الدالّة على الدّعاء توسّلاً، في قصيدة «بعد الجليد»، حيث يتوجّه الشاعر مخاطباً إله الخصب، ومتوسّلاً إليه: (من تفعيلة الرّمْل)

«يا إله الخصبِ، يا بعلاً يفضّ

التربة العاقِر

يا شمسَ الحصيدِ

يا إلهاً ينفضُ القبرَ

ويا فصّاً مجيد،

أنت يا تموزُ، يا شمسَ الحصيدِ

نَجِّنا، نجِّ عروقَ الأرضِ

من عُقم دَهاها ودَهانها،

أدفي الموتى الحزاني

والجلاميدَ العبيدِ

عبرَ صحراءِ الجليدِ

أنت يا تموزُ، يا شمسَ الحصيدِ»⁽²⁾

فالمخاطبة بالأمر هنا مخاطبة من أدنى لأعلى، وصلاة لإله الخصب. وبالتالي تكون دلالة الأمر دعاءً وتوسّلاً. وفي نهاية القصيدة عينها يبقى الدّعاء والتوسّل عينه، حيث يتمّ البعث، ويتوجّه الشاعر بصلاة حارة، مرّةً أخرى، إلى إله الخصب المتمثّل في تمّوز، طالباً إليه أن يبارك هذا البعث: (من تفعيلة الرّمْل)

(1)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: النّاي والرّيح، ص: 185.

(2)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: نهر الرّماد، ص: 119 - 120.

« يا إله الخصب، يا تمؤز، يا شمس الحصيد

بارك الأرض التي تعطي رجلاً

أقوياء الصلب نسلاً لا يبئد

يرثون الأرض للدهر الأبيد،

بارك النسل العتيد،

بارك النسل العتيد،

بارك النسل العتيد،

يا إله الخصب، يا تمؤز، يا شمس الحصيد.» (1)

في هذه المقطوعة، يُسهم ترديد الأمر في بنيتها الدلالية والإيقاعية، وتحولها إلى مناجاة تعبدية تذكّرنا بحناجر المصلين والمنشدين والمرتلين في المعابد، حينما يصلون إلى الخالق كي يباركهم، ويبارك أولادهم.

كما ينسحب الأمر عند خليل حاوي إلى معنى التمني، حينما خاطب الطعنة كي ترحمه من حياته التّعسة، لكونه كان يشعر بالغبرة وبالاضطهاد في الأرض، ولا يملك شيئاً يناسب آدميته؛ فيقول في قصيدته «بلاد الغربتين»: (من تفعيلة الرمل)

«ليس لي في الأرض

درب، موطئ، سقف، سرير

فاتني حظ الأسير.

أسعفي يا طعنة

ترحم شلوا يتدلى

ويداً تخفي جبيناً» (2)

ونجد، عنده أيضاً، انسحاب الأمر إلى دلالة التمني المستحيل الحصول في المستقبل، إذ وقع في الماضي، كما في قصيدة «حب وجلجلة» حيث يتحد الشاعر بشخصية يسوع المسيح وتمؤز، فنرى الجلاميد النقال على صدره في قبره، ومع كل ذلك، فإنّه يضرع إلى الله لكي يعيده إلى الحياة، كما وهبه إياها سابقاً، فيقول: (من تفعيلة الرمل)

(1)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: نهر الرماد، ص: 128.

(2)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: من جحيم الكوميديا، ص: 538 - 539.

«رُدني، ربّي، إلى أرضي»

«أعدني للحياة»

وليكن ما كان، ما عانيتُ منها

محنة الصلْبِ وأعياد الطُغاة» (1)

ويحمل الأمر في قصيدة «الجسر» دلالة الرّجس، في تعبير الشاعر خليل حاوي عن صراعه مع أفكاره، حيث ينشد: (من تفعيلية الرّمل)

«أخرسي يا بومةً تفرغُ صدري

بومةً التّاريخِ منّي ما تُريدُ؟» (2)

هنا يأتي الأمر متبوعاً بالنداء، ومن خلاله، يحدث انتهاك للجملة. فالأمر «أخرسي» مُوجّه إلى بومة؛ وهذا يُحدث تشخيصاً وخطأً بين ما هو إنسانيّ (الخرس)، وما هو غير إنسانيّ (البومة). وتأتي الجملة «تفرغ صدري» في موقع نعت وصفة لهذه البومة، مُحدثاً انتهاكاً آخر، حيث أُسند إليها الفعل المضارع «تفرغ» الذي يأتي من حقل دلاليّ يحمل معنى التّجدّد مختلف عن الحقل الدلاليّ للبومة. كما نقع على أسلوب الالتفات في السّطر الثّاني من هذه المقطوعة، محدثاً خيبة توقّع في علاقة المضاف (بومة) بالمضاف إليه (التّاريخ) (3)، ثمّ يسند إليها الفعل الإنسانيّ «تريد»، مُشخّصاً إيّاها كي يمضي بالانتهاك خطوةً أخرى. وكلّ هذه الدلالات التي تجلّت استدعتها دلالة الرّجس التي يحملها فعل الأمر «أخرسي».

من خلال كلّ ما ورد من دلالات للاستهزام والأمر، ندرك كيفيّة إخضاع خليل حاوي جملة لتقنيّات هامة، تكسبها سمات خاصّة بلغته الشعريّة الشاعريّة، وتمنحها دلالات تعبّر عن مواقفه الذاتيّة المنطلقة من رؤية حضاريّة كونيّة.

(1)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: نهر الرّماد، ص: 132 - 133.

(2)- خليل حاوي، ديوان خليل حاوي: نهر الرّماد، ص: 171.

(3)- عايدي علي جمعة، شعر خليل حاوي: دراسة فنيّة، ص: 25.

الخاتمة:

نستخلص بعد دراسة أسلوبية الاستفهام والأمر في هذه الدواوين الخمسة أنّ الشاعر خليل حاوي قد عنى بقضيّة اللّغة الشعريّة، وما يتخلّلها من تقنيّات تسمو بها عن اللّغة اليوميّة، فأنت صياغته للغة صياغة جماليّة تمنحها دلالات خاصّة معبرة عن وجدانيّة ورؤية ذاتيّتين، لذا خرج كلّ من الاستفهام والأمر عن دالّتهما الأصليّة، وأفاداً، بحسب سياق القصائد المدروسة، ما يأتي:

1. فقد حمل الاستفهام معنى:

أ. طمأنة النّفس القلقة عند التّعبير عن القلق، والحيرة الوجوديّة في التأمّل في الموت والحياة.

ب. اللوم والتّقرّيع في التّعبير عن حال العقم العربيّ الرديئة.

ت. المدح والتّمجيد في القصائد الوطنيّة، وعند الحديث عن البطل الغضّ الغضوب.

ث. التّقرير، بإبداء الرّأي بالحضارة الغربيّة الطّينيّة والرّؤيا.

ج. التّعجب والإنكار، من خلال بنية التّضاد الجمال / القبح.

ح. النّفي، في التّخلّص من العبوديّة والطّواغيت.

خ. والتّهويل، في الحديث عن المستحيل.

د. التّمني، عند الرّغبة في الاستسلام للموت.

2. وحمل الأمر، في المطلع وفي غيره، دلالة:

أ) أصليّة، في الإسهام في إقامة بنية حواريّة تجعل القصيدة تسير في غير اتّجاه، وتكسبها نوعاً من الدّراميّة.

ب) الرّفص، في النّفور من كلّ ما يمتّ إلى الحياة بصلّة، وفي الرّغبة في استمرار الموت.

ج) الدّعاء والتّوسّل، في الخطاب من أدنى لأعلى، وخاصّة في مناجاة الله، والصّلاة إليه.

د) الإخفاق، في التّعبير عن المأساة المستمرة.

هـ) المفاجأة الخالصة، عند تأكيد الرّغبة في الموت.

و) المحو والعدم وعدم الرّغبة بالبعث، في ترديد صيغته.

ز) الرّغبة الأكيدة في التّخلّص من الحياة المشوّهة والنّعيسة.

ح) التّثبيط والإضعاف.

ط) التّمني، والتّمني المستحيل حصوله في المستقبل لوقوعه في الماضي.

ي) دلالة الرّجز، في التّعبير عن الصّراع الدّاتيّ.

ك) مواءمة القصيدة مع التعليقات، من خلال استخدامه في المطلع. وقد أدى الأمر دوراً في هيئة المسند إليه من حيث عدده وجنسه ودرجة تعيينه: (العدد مفرد وجمع، الجنس مذكّر يمتلك القدرة على الفعل ومؤنث، التّعيين يحتلّ الصّدارة، المسند إليه مفرد متعدّد، مذكّر ومؤنث مفرد وجمع). وإنّ كلّ الدلالات المتجليّة في المقاطع التي غلب عليها الأمر استدعتها دلالة فعل الأمر نفسه.

وأخيراً، إنّ السّؤال المطروح الذي ينبغي الإجابة عنه في بحث آخر موسّع هو: ما دور النّداء في تشكيل جماليّة القصيدة الحاويّة؟ وهل يؤدي دوراً في تجلّي دلالات أخرى في المقاطع تستدعيها دلالاته الخاصّة؟

ثبت بالمصادر والمراجع

- 1) مصحف المدينة.
- 2) أبو علي النّحويّ، الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار بن سليمان بن أبان (288 - 377هـ). المسائل العسكريّات في النّحو العربيّ؛ تحقيق الدّكتور علي جابر المنصوريّ، ط2، بغداد: مطبعة الجامعة، 1982م.
- 3) جاكسون، (رومان). قضايا الشّعريّة؛ ترجمة محمّد الولي ومبارك حنون، ط1، الدّار البيضاء: دار بوتقال للنشر، 1988م.
- 4) جمعة، (عايدي علي). شعر خليل حاوي: دراسة فنّيّة، ط1، القاهرة: الهيئة العامّة لقصور الثقافة، 2006م.
- 5) حاوي، (خليل). ديوان خليل حاوي، ط3، بيروت: دار العودة، 1993م.
- 6) الدّسوقي، مصطفى بن عرفة (1230هـ). حاشية الدّسوقيّ على مغني اللّبيب، لاط، القاهرة: مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، ج2، 1869م.
- 7) رزق، (صلاح). أدبيّة النّص، ط1، القاهرة دار الثقافة العربيّة، 1989م.
- 8) ستروك، (جون). البنيويّة وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا؛ ترجمة محمّد عصفور، ط1، الكويت: المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب: عالم المعرفة (206)، 1996م.
- 9) السيّد، (شفيق). الاتجاه الأسلوبيّ في النّقد الأدبيّ، ط1، القاهرة: دار الفكر العربيّ، 1980م.
- 10) الشّيخ العلامّة محمّد علي بن علي بن محمّد النّهانويّ الحنفيّ (1158هـ). كشاف اصطلاحات الفنون؛ وضع حواشيّه أحمد حسن بسج، ط3، بيروت: دار الكتب العلميّة، ج1، 2013م.
- 11) الطّرابلسي، (محمّد الهادي). خصائص الأسلوب في الشّوقيّات، ط1، تونس: منشورات

الجامعة التّونسيّة، 1981م.

- 12) الفاكهي، الإمام عبد الله بن أحمد النّحويّ المكيّ (899 - 972هـ). كتاب الحدود في النّحو؛ تحقيق الدكتور المتولي رمضان أحمد الدّميري، ط1، القاهرة: دار النّضامن للطباعة، 1988م.
- 13) كوين، (جون). بناء لغة الشّعْر؛ ترجمة أحمد درويش، ط3، القاهرة: دار المعارف، 1993م.
- 14) مرزا الخامس، (بوختا). موسوعة المصطلح النّحويّ: من النّشأة إلى الاستقرار، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، مج 2، 2012م.
- 15) مصلوح، (سعد). الأسلوب: دراسة لغويّة إحصائيّة، ط3، القاهرة: عالم الكتب، 1992م.
- 16) ناظم، (حسن). مفاهيم الشّعريّة: دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، ط1، الدّار البيضاء: المركز النّقائيّ العربيّ، 1994م.
- 17) وارين، (أوستن) وويلك، (رينيه). نظريّة الأدب؛ ترجمة محيي الدّين صبحي وتحقيق حسام الخطيب، ط1، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، 1987م.
- 18) ويليك، (رينيه). مفاهيم نقديّة؛ ترجمة محمّد عصفور، ط1، الكويت: المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب: عالم المعرفة، 1987م.
- 19) يعقوب، (إميل بديع). موسوعة علوم اللّغة العربيّة، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة، مج 2 و3 و5 و9، 2006م.

واقع تعلّم اللغة العربيّة في المرحلة الابتدائيّة بين الصّعوبات في تعليمها والحلول المُعالِجة

إيليان أبي سليمان
أ.د. نمر فريحه

مقدّمة:

تعدّ المرحلة الابتدائيّة مهمّة لتعليم وتعلّم اللغة العربيّة لأنّ الطّفّل في هذه المرحلة من نموّه الفكريّ يكون في حالة اكتساب لمهارات اللّغة. فهذه العمليّة التّربويّة تشترط وجود الاثنين: المعلّم والمتعلّم بالإضافة إلى المادة قيد المعالجة.

عندما نتحدّث عن التّربية، فلا نقصد المعارف التي تقدّمها المدرسة فقط، بل هي أكثر من ذلك، إنّها أداة المجتمع التي تسهم في تعديل سلوك الفرد كي يكون مواطناً ناجحاً في مجتمعه.

فالتّربية تعني «العمليّة المقصودة المنظّمة التي تهدف إلى تنمية قدرات الأفراد واستعداداتهم وميولهم واتجاهاتهم وإكسابهم القيم والأفكار ليمارسوا حياتهم ويضطلعوا بأدوارهم بكفاية وفعاليّة داخل مجتمعهم» (أدم، 2015، ص 15).

الهدف العامّ للمقالة: ستسلّط هذه المقالة الضّوء على أبرز المشكلات في تعليم اللّغة العربيّة والحلول المناسبة للرّقي بها. فماذا لو تمّ دمج طرائق جديدة كالتكنولوجيا وطرائق أخرى في تعليم هذه اللّغة، وتغيير طريقة التّعليم والابتعاد عن الطرائق التّقليديّة والتّقليديّة واعتماد التّعلّم النّشط.

الكلمات المفتاحيّة: اللّغة، التّعليم، التكنولوجيا والتّعلّم النّشط.

- اللّغة: «هي الرّابط الحقيقيّ بين عالم الأجسام وعالم العقول، وهي الأداة التي تحمل الأفكار، وتنقل المفاهيم، وبها يتمّ التقارب والتّشابه والانسجام، وإنّ القوالب اللّغويّة التي توضع فيها الأفكار والصّور الكلاميّة التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف، لا تنفصل مطلقاً عن مضمونها الفكريّ والعاطفيّ، لأنّ اللّغة هي معجزة الفكر الكبرى». (الجعافرة، 2014، ص 17).
- التّعليم: يدلّ التّعليم على مجموعة النّشاطات التي يعرضها المعلّم بشكل إراديّ وهاذف على المتعلّمين من أجل أن يكتسبوا عبرها قدرات عقليّة ومهارات حركيّة ومواقف أو اتجاهات عاطفيّة واجتماعيّة أي التّعلّم». (عواضة، 2010، ص 17).

- التكنولوجيا: كلمة يونانية الأصل، وتتألف من قسمين: تكنو أي مهارة، ولوجيا أي علم. إذاً التكنولوجيا هو علم التطبيق. عندما نقول تكنولوجيا نقصد الوسائل وليس النتيجة. (ضمراوي، 2017)
- أما عن تكنولوجيا التربية فتناول (الجازي، 2018) موضوع تكنولوجيا التربية، فهي عملية استخدام وسائل وأدوات متنوعة لتطوير العملية التربوية والوصول إلى الأهداف التعليمية بشكل فعال.
- التعلّم النشط: التعلّم النشط ذاتي يقوم فيه المتعلّم ليحصل على استجابات ويكون مواقف يستطيع بواسطتها أن يجابه كلّ ما يعترض من مشاكل في الحياة». (جمل، 2018، ص 23).

الإشكالية:

إنّ المتعلّمين ينفرون من تعلّم اللغة العربيّة نظراً للتصوّرات السّابقة المكتسبة. إذ إنّ المتعلّم لا يسمع الفصحى في حياته اليوميّة، بل يتعلّمها في المدرسة. يفضّل اللّغة الأجنبيّة ربّما التي يستعملها في البيت أو يسمعها غالباً. فهكذا، تنمو في ذهن المتعلّم بأنّ اللّغة العربيّة صعبة ويصبح تعلّمها وتعليمها صعباً. وبما أنّ اللّغة العربيّة ليست مادّة علميّة فنحن بحاجة إلى طرائق حديثة ومميّزة تجعل تعليمها تفاعلياً أكثر. لذلك إعتاد الطّرائق التّقنيّة يحولّ دون إكتساب مهارات هذه اللّغة في القراءة، الاستظهار، التعبير الشّفهيّ، التعبير الكتابيّ، القواعد، الفهم والتّحليل، الإملاء والاصغاء.

هناك صعوبات عديدة يتمّ ملاحظتها من خلال عدّة دراسات قام بها الباحثون، وخبرات العاملين في المجال التربويّ، لذلك لا بدّ من إيجاد الحلول. لنضف أيضاً، من أنّ مادة اللّغة العربيّة مادة جامدة ومنهجها لم يتغيّر منذ سنوات طويلة، لذلك لا بدّ من إنعاش تعليمها وذلك من خلال بذل جهود عبر طرائق تعليم ناشطة وحديثة تراعي الفروقات الفرديّة وتجذب المتعلّمين.

فإلى أي مدى يُساعد استعمال طرائق حديثة في تحسين تعليم اللّغة العربيّة وتفاعل المتعلّمين مع المعلّمة؟

أسئلة الدّراسة:

نعرض في هذا القسم ثلاثة أسئلة ستتمّ الإجابة عنها وهي:

1 - ما هي ميزات اللّغة العربيّة؟

2 - ما هي المُشكلات التي تواجه تدريس اللّغة العربيّة؟

3 - ما هي طرائق التدريس المناسبة لتعليم اللغة العربية؟ الدراسات السابقة:

ذكر (الشوابكة، 2020) مزايا وخصائص اللغة العربية. فهي لغة مميزة عن غيرها. مثال، مجموعة كلمات للمعنى نفسه وهذا ما يدل على غنى معجم هذه اللغة، كما وتتميز هذه اللغة بالأصوات ودلالاتها على المعاني، كثرة المفردات، الفصاحة، علم العروض.

كما وتناول (مروان، 2018) أهمية اللغة العربية، فهي تُساعد في التعبير والتواصل. بالإضافة إلى هذا فهي صلة وصل بين الأجيال لاستمرار الثقافة، تنقل تاريخ وثقافة الحضارات العربية.

كما وتحدّث (الشيزاوي، العيسوي وموسى، 2005) عن خصائص اللغة العربية فهي لغة اشتقاقية وهذا ما جعلها لغة مرنة وأغناها بكلمات جديدة، تتميز بالاسناد والعلاقة بين المسند والمسند إليه. بالإضافة إلى ذلك، فهي لغة إعراب للتمييز بين الفاعل والمفعول به والمضاف وغيرها. كما وتتميز بفرن العروض الذي ساهم في إبراز الشعر.

نظراً لأهمية اللغة العربية وميزاتها يجب الغوص في عمق المشاكل والصعوبات لمعرفتها وتحليلها للوصول إلى حلول للزقي باللغة كي لا تصبح اللغة العربية لغة نافلة وغريبة عن المتعلمين لذلك يجب إعطاء الأهمية لتعليمها وتحقيق الأهداف من خلال وسائل جديدة وتفاعلية.

تحدّثت (قابوق، 2016) عن صعوبات تعلم اللغة العربية وذكرت كثرة المترادفات الموجودة في اللغة، الحروف المتقاربة شكلاً ونطقاً، الحروف التي تُكتب ولا تنطق أو الأصوات التي تُلفظ ولا تُكتب، طريقة تدريس هذه اللغة بأسلوب تقليديّ، مشكلات في كتابة الكلمات، كما ذكرت أيضاً استخدام اللغة العامية في الاعلانات والبرامج وهذا ما يؤدي إلى مشاكل لدى المتعلمين.

عدّد (الجعافرة، 2014) المشكلات التي تواجه تدريس اللغة العربية، منها مشكلات تتعلق بالمجتمع، المحتوى، المعلم،...العامية وتأثيرها السلبي على المتعلم، فهو لا يسمع اللغة الفصيحة إلا في المدرسة. إنّ جعل اللغة العربية لغة معزولة عن المواد الأخرى وإهمال الشقّ الشفويّ يؤدي إلى مشكلة في تعليمها. إنّ المادة التي تقدّم للتلميذ لا ترتبط باهتماماته كما وأنّ دروس اللغة العربية لا ترتبط بحياته اليومية

وبالتالي هي جاقّة. أيضًا أضاف بأنّه يتمّ تقسيم اللّغة العربيّة إلى فروع وهذا أمر غير نافع فاللّغة سلّة متكاملة ومترابطة.

من كلّ ما ذكر سابقًا يمكن الاستنتاج أنّ المشاكل متعدّدة الأقطاب بدءًا من المعلم، المنهج، المجتمع، الأهل. إن أي خلل في إعداد معلّم اللّغة العربيّة يؤثّر على تعليم هذه المادة. كما واعتماد الطّرائق التقليديّة يجعل تعليم وتعلّم هذه اللّغة صعبًا.

أمّا عن الأساليب المساعدة لتطوير تعليم هذه اللّغة، فنكرت دراسات عديدة ومنها (أمين، 2016) عن أثر إستراتيجية دمج التّكنولوجيا في التّعليم في تنمية مهارات التّعبير الكتابي لتلامذة الصّفّ الأساسيّ الرّابع في مدارس محافظة دمشق الرّسميّة. لقد اعتمدت الدّراسة المنهج الوصفيّ والمنهج التّجريبيّ، كان هناك مجموعة تجريبية وأخرى ضابطة. وأشارت النّتائج إلى الأثر القويّ لاستراتيجية دمج التّكنولوجيا في التّعليم.

دراسة أخرى تحدّثت عن أثر استعمال اللّوح التّفاعليّ في الفهم القرائيّ لدى تلامذة الأساسيّ الخامس (غضيب وغضيب ، 2021) تناولتا في هذه الدّراسة أهميّة وجود اللّوح التّفاعليّ في عمليّة التّعليم. تألّفت العيّنة من تلاميذ الصّفّ الخامس الابتدائيّ في بغداد وقد ورّعت العيّنة على مجموعتين تجريبية وضابطة. المجموعة التّجريبية باستخدام اللّوح التّفاعليّ أمّا الضابطة فبالطّريقة الاعتياديّة. وتمّ التّوصّل إلى أنّ اللّوح التّفاعليّ له أثر ايجابيّ ويجب اعتماده في تعليم اللّغة العربيّة بالإضافة إلى ذلك فهو يعطي المعلم والتّلاميذ التّعزيز والذي يسهم في معرفة مدى تعلّم التّلاميذ للمادة وهو يجعل المتعلّم محور عمليّة التّعليم.

لفتت (علان، 2019) في دراستها بعنوان: « فاعليّة استخدام القصّة الرّقمية في تنمية مهارات القراءة الجهرية في مادة اللّغة العربيّة لدى طلبة الصّفّ الثّاني الأساسيّ ودافعيتهم نحوها» عن أهميّة استخدام القصّة الرّقمية في تعليم اللّغة العربيّة وبخاصّة في تنمية مهارة القراءة الجهرية. فهي قصّة دُمج معها الصّور والصّوت والوسائل السّمعية والبصريّة اعتمدت الباحثة المنهجين الوصفيّ والشّبه التّجريبيّ. تمّ تطوير مقياس مهارات القراءة الجهرية المكوّن من مهارات رئيسية وفرعية، إعداد اختبار تحصيليّ، بناء مقياس لقياس دافعية التّلاميذ نحو القصّة الرّقمية الذي تكوّن من 19 مؤشّرًا بعدها تمّ التّأكّد من صدق وثبات الأدوات. تمّ اختيار عيّنة عشوائية من 44 تلميذ وتلميذة من الأساسيّ الثّاني وورّعت على مجموعتين مجموعة تجريبية

(22) ومجموعة ضابطة (22) في لواء القويسمة في عمان. ومن خلال هذه الدراسة ونتائجها أوصت الباحثة باستخدام القصّة الرقمية في تدريس مادة اللّغة العربيّة وتحديدًا في تنمية مهارة القراءة الجهرية.

بعد استعراض أهميّة دمج التّكنولوجيا لتحسين تعليم اللّغة العربيّة بكلّ فروعها، يجب الأخذ بعين الاعتبار أهميّة تعديل أو تغيير الطّرائق القديمة والبتّ بطرائق جديدة ملائمة لعصرنا الحاليّ عصر التّكنولوجيا لمواكبة العصر. الحاسوب يسهّل ببرامجه تقديم المادة التّعليميّة ويسهّل تعليم اللّغة العربيّة ويزيد التّفاعل بين المعلّم والتّلاميذ. الطّرائق القديمة تُزعج التّلاميذ وتشعرهم بالملل لذلك ينفرون من المادة ويفضّلون المواد الأخرى. فإذا لو تمّ إنشاء مادة رقمية تفاعلية تواكب عصرنا الحاليّ!

بعد ملاحظة تردّد المتعلّمين في تعلّم اللّغة العربيّة نظرًا للتّصورات التي تُرافقهم عن هذه اللّغة لا بدّ من البحث عن حلول بدءًا من اعتماد الوسائل التّكنولوجية أو التركيز على التّعلّم النّشط. الطّريقة التّقليديّة لا تضيف شيئًا إلى ذهن المتعلّم بل العكس تزيد الفجوة لينفر المتعلّم. يجب دائمًا الحرص على تقديم مادة اللّغة العربيّة بأساليب حديثة.

لقد تحدّث (جمل، 2018، ص 16) عن التّعلّم النّشط « طريقة تدريس تشرك المتعلّمين في عمل أشياء تجبرهم على التّفكير فيما يتعلّمونه. لقد تغيّر دور المتعلّم في التّعلّم النّشط... المتعلّم مشارك نشط في العمليّة التّعليميّة، حيث يقوم المتعلّمون بأنشطة عدّة تتصل بالمادة المتعلّمة، مثل: طرح الأسئلة، وفرض الفروض، والاشتراك في مناقشات، والبحث والقراءة، والكتابة والتّجريب...»

من خلال هذا التعريف يمكن القول ماذا لو تمّ اعتماد هذه الأساليب في مادة اللّغة العربيّة! وهكذا يبحث المتعلّم بنفسه عن المعلومة وهكذا يكتسبها بنفسه من خلال بحثه وهكذا تترسّخ في ذهنه أفضل من أن يتلقّاها بطريقة تلقينية.

إذًا من خلال ما تمّ ذكره سابقًا نستنتج من أنّ الأساليب والحلول عديدة لتطوير اللّغة العربيّة. لذلك لا بدّ من مشرف تربويّ لهذه اللّغة يشرف على سير العمل لتحقيق أفضل الأهداف ويحدّد الوسيلة المهمّة لنجاح عمليّة التّعلّم.

معالجة المعلومات للإجابة عن الأسئلة

إنطلاقًا من كلّ هذه الأمور، يمكن التأكيد على أهميّة اللّغة العربيّة وميزاتها المختلفة وهذا ما أكّده (الشّيزاوي، العيسوي وموسى، 2005) معتبرين أنّ اللّغة

العربية لها خصائص كثيرة، عديدة ومتنوعة فلقد اظهروا قوة هذه اللغة وحيويتها ومرونتها وهذا ما ساعد على حفظ كيان اللغة على مرّ السنوات. كما ويوافقهم الرأي (مروان، 2018) الذي شدّد أيضًا على أهميّة اللغة العربيّة فهو أكّد على أنّها تساعد في التّعبير والتّواصل وهذا أمر مهمّ، كما وهي تحمل ثقافة غنيّة وتراث للأجيال المقبلة وهذا ما يجعلها لغة ثمينة حاملة لتراث ثقافيّ تاريخيّ يتناقل بين الأجيال. أظهر أيضًا (الشّوابكة، 2020) مزايا وخصائص اللغة العربيّة معتبرًا أنّها مميّزة عن اللّغات الأخرى، فنلاحظ وجود كلمات عديدة لمعنى واحد وهذا ما يميّز هذه اللّغة ويجعل معجمها غنيًا، بالإضافة إلى ذلك ذكر العناصر التي تميّز هذه اللّغة كالفصاحة، التّرادف، الأصوات ودلالاتها على المعاني، كثرة المفردات، علم العروض، وأمور أخرى.

بعد عرض كلّ تلك المعلومات لا بد من تأييدهم على أهميّة هذه اللّغة. أولًا، هي لغتنا التي توحدنا وتنقل ثقافتنا وتراثنا على مرّ السنوات. يمكن ملاحظة المعجم الكبير الغنيّ.

كما ولا ننسى أيضًا الاشتقاق: مريض، مرضى وممرّض. درّس، مدرّس ودرّس. الحقل المعجميّ لكلمة مثال، الشّتاء: الأمطار، التّلج، التّزلّج، البرد... علم العروض الذي تميّز به الشّعر والشّعراء. أمّا بحور الشّعر فهي متنوّعة: الطّويل، المديد، البسيط، الوافر، الكامل، الهزج، الرّجز، الرّمل،...

إنطلاقًا من هذا يمكن الإجابة عن السّؤال الأوّل: ما هي ميزات اللّغة العربيّة؟ اللّغة العربيّة ميزات كثيرة ومتنوّعة تميّزها عن باقي اللّغات في الصّرف والنحو والبيان والعروض. هي وحدة متكاملة تحمل التّراث، الثقافة والتّاريخ على مرّ السنوات. تسجّل الأفكار والحقائق لكلّ حدث وتجعله راسخًا في الأذهان.

مما لا شكّ فيه أنّ نجاح عمليّة تعليم هذه اللّغة يتوقّف على الإجابة عن سؤال «كيف نواجه مشاكل تعليم هذه اللّغة؟» لذلك يجب عرض المشكلات التي تواجه تدريسها وتفكيكها ووضع الحلول المناسبة.

ذكر (الجعافرة، 2014)، مشاكل من مختلف الأقطاب، كالمشكلات التي تتعلّق بالمجتمع، المحتوى والمعلّم. وأكّد على المشكلة التي يواجهها المتعلّم لأنّه لا يستعمل اللّغة الفصيحة وهذا ما يؤثّر سلبياً على تعلّم اللّغة العربيّة. كما وأضاف أنّه من الخطأ عزلها عن باقي اللّغات. إعتبر أنّ اللّغة التي تقدّم للمتلّم لا تناسبه لذلك لا

تجذب المتعلم ويتم تقسيمها إلى فروع وكأنها منفصلة عن بعضها. أضافت (قابوق، 2016) المشكلات بدءًا من اللغة كلغة، فهي مليئة بالمتراذفات، كما وهناك حروف متقاربة شكلاً ونطقاً، وأضافت بأن طرائق تدريس هذه اللغة بأسلوب تقليدي هو أيضاً مشكلة، واستعمال اللغة العامية في البرامج يزيد هذه المشاكل.

لا ننسى أن استعمال لغات أخرى أحياناً في المنزل ينمي تصورات لدى المتعلم أن اللغة العربية هي لغة نافلة غير مهمة. إن تعدد أشكال الحرف الواحد وتعليمه في وقت مبكر يجعل تعليم حروف اللغة العربية صعباً. مثال: يتعلم كيف يكتب الحرف في أول الكلمة، وسطها، آخر الكلمة،... وهكذا، يجد المتعلم صعوبة في اكتساب حروف اللغة العربية الكثيرة. بالإضافة إلى ذلك، الحروف المتقاربة شكلاً، مثال: ب - ت - ث / ج - ح - خ،... الحروف المتقاربة نطقاً، مثال: ت - ط / ث - س - ص،... أيضاً هناك أحرف تُلفظ ولا تكتب فعندما نقول هذا، هذه، هؤلاء، ذلك، هذان، هذين، الله، لكن، لكن نلفظ الألف ولا نكتبها.

من هنا يبرز دور المعلم كي ينوع طرائق التدريس والابتعاد عن الأسلوب التقليدي لتقديم الدروس بطريقة تجذب المتعلمين لتسهيل تعلمها.

وفي بعض الأحيان، كما ذكرنا سابقاً يتم عزل اللغة العربية وكأنها غير ضرورية في المسار التعليمي، وهذا ما يجعل المتعلم يؤكد النظرية التي يتبناها على أن اللغة العربية لغة غير مهمة كي يتعلمها. ولدى تقديمها من دون ربطها بحياة المتعلم اليومية لا يكثر لتعلمها.

إذاً، ما هي المشكلات التي تواجه تدريس اللغة العربية؟

المشكلات التي تواجه تدريس هذه اللغة لا يمكن تصويبها نحو ناحية واحدة بل هي بسبب أمور عديدة. مشكلات تتعلق بالمجتمع، المحتوى، تصورات المتعلم، المعلم. المادة التي تقدم للمتعلم لا ترتبط بحياته وإهتماماته اليومية، الطرائق التقليدية في التدريس والتي لا تساعد في تحقيق الأهداف بطريق مناسبة، وهذه اللغة يتم تدريسها بالفصحى التي لا يسمعها إلا في المدارس. أما في المجتمع، فهو يسمع العامية التي لا تساعده في تنمية مهاراته. والأمر الذي تم ذكره أيضاً هو الحروف المختلفة والكثيرة والتي لها أشكال عديدة.

من بعد عرض المشكلات التي تواجه اللغة العربية لا بد من تعداد الطرائق للرقى بها. لذلك، يجب التركيز على ضرورة الاهتمام بتعليمها وهذا ما جعل العديد من

الباحثين يصبّون اهتمامهم على كَيْفِيَّةِ إنْقَاذِ اللُّغَةِ.

نبدأ بدراسة (أمين، 2016) والتي أثبتت أهمية دمج التكنولوجيا في تنمية مهارات التعبير الكتابي، من هنا يمكن القول إن الاستعانة بطرائق جديدة بعيدة عن الأساليب التقليدية والتلقينية تُساعد في تعليم اللُّغَةِ العربيَّة بطريقتة أفضل ولها نتائج مهمَّة على تحصيل التلاميذ وتأتي دراسة أخرى (علان، 2019) تُؤكِّد أيضًا على فاعليَّة استخدام القصَّة الرقمية في تنمية مهارات القراءة الجهرية ولقد أوصت الباحثة باستخدام القصَّة الرقمية. ودراسة أخرى (غضيب وغضيب، 2021) أثر استعمال اللوح التفاعلي في الفهم القرائي أكَّدت أنه عندما تمَّ استعمال اللوح التفاعلي كان هناك أثرًا إيجابيًا ويجب إعتماده في تعليم اللُّغَةِ العربيَّة. إذًا، دمج التكنولوجيا في تعليم اللُّغَةِ العربيَّة أمر فعَّال وله فاعليَّة إيجابية وهذا ما يمكن ملاحظته أيضًا في التعلُّم، فهذا أمر يساعده المتعلِّم ويشجِّعه ويكسبه المعلومة بطريقتة أفضل.

كما ويمكن أيضًا، إعتماده التعلُّم النشط فلقد أكَّد (جمل، 2018) على أن التعلُّم النشط يجعل المتعلِّم يفكِّر بنفسه فيما يتعلَّمه. يصبح نشيطًا فهو يقوم بأنشطة عدَّة. هذا يدلُّ على أن المتعلِّم هنا، يصبح محور العمليَّة التعلُّميَّة، يبحث بنفسه عن المعلومة، وهذا ما يختلف كثيرًا عن الأسلوب التقليدي التلقيني حيث كان فقط يستقبل المعلومة كأنه آلة.

إنطلاقًا من هذا يمكن الإجابة عن السؤال الثالث: ما هي طرائق التدرّيس المناسبة لتعليم اللُّغَةِ العربيَّة؟

كلّ طريقة تجعل المتعلِّم محور العمليَّة التعلُّميَّة كالتطبيقات النشطة، دمج الوسائل التكنولوجية مع تعليم اللُّغَةِ العربيَّة تُساعد وتحسِّن عمليَّة تعليم اللُّغَةِ العربيَّة. يجب أيضًا، تدريس اللُّغَةِ العربيَّة على أنها وحدة متكاملة من دون تقسيمها إلى فروع: قراءة، قواعد، تعبير كتابي،... للمعلِّم دور أساسي لتبسيط تعلُّم هذه اللُّغَةِ وبما أن عصرنا هو عصر التكنولوجيا لا بدَّ من الاستفادة من الوسائل المساعدة. إنَّ تعلُّم اللُّغَةِ العربيَّة بطرائق جديدة وحديثة تدفع المتعلِّم وتشجِّعه على حبِّ هذه اللُّغَةِ وتعلُّمها واكتساب كلِّ المعارف والمهارات الصَّوريَّة. المتعلِّم يتجاوب أكثر مع الوسائل التكنولوجية وهذا ما أثبتته الدِّراسات التي تمَّ ذكرها، لذلك من الأفضل استعمال اللوح التفاعلي، القصَّة الرقمية والوسائل السَّمعيَّة والبصريَّة وكلِّ وسيلة يجدها المعلِّم مناسبة لجذب المتعلِّم وهكذا يساهم في حلِّ مشكلات تعليم اللُّغَةِ العربيَّة وبالتالي يتعلِّم المتعلِّم اللُّغَةَ بطريقتة

أفضل ويحقق نتائج أفضل.
التوصيات:

تمّ تسليط الضوء على أبرز الأساليب للرقيّ باللّغة العربيّة، ورغم كلّ المشاكل والصّعوبات التي تعترض نجاح عمليّة تدريس هذه اللّغة يظلّ الحلّ بتعاون بين الأسرة التربويّة لتسهيل عمليّة تعليم هذه اللّغة بدءًا من البيت بتشجيع المتعلّم على سماع الفصحى من خلال برامج تناسب فئته العمريّة، تقديم المادة له بطرائق وأساليب مبسّطة، وطلب المعلّم المساعدة من دون خجل من مشرف تربويّ لتقديم النّصائح المناسبة له.

من أهمّ التوصيات:

- وضع مشرف تربويّ لمادة اللّغة العربيّة لتنظيم العمليّة التعليميّة.
- الابتعاد عن الطرائق التقليديّة.
- متابعة كلّ جديد في طرائق التّعليم لاستخدامها مع المنهج الدّراسيّ.
- تغيير النّصوّرات السّابقة عن صعوبة اللّغة العربيّة.
- تبسيط تعليم اللّغة العربيّة.
- إعطاء اللّغة العربيّة أهميّة كبيرة كباقي اللّغات الأجنبيّة.
- يجب الابتعاد عن الحفظ والتلقين أي الطريفة التقليديّة ودمج التّعلّم النّشط في مختلف أنواعه مع المنهج التّعليميّ.
- اعتماد الوسائل التكنولوجيّة في تعليم اللّغة العربيّة.

المراجع:

- آدم، عصام الدّين بريّر. (2015). النّخطيط التّربويّ والتّسمية البشريّة (ط 1). لبنان: دار الكتاب الجامعيّ.
- أمين، نسرين جلال. (2016). أثر استراتيجيّة دمج التّكنولوجيا في التّعليم في تنمية مهارات التّعبير الكتابي: دراسة تجريبية على عيّنة من تلامذة الصّفّ الرابع الأساسيّ في مدارس محافظة دمشق الرّسميّة (رسالة ماجستير). سوريا: جامعة دمشق، كليّة التّربية. شبكة المعلومات العربيّة التّربويّة (شمعة)
- الجازي، هايل. (2018، 8 مايو). تعريف تكنولوجيا التّربية. استرجعت في تاريخ 7 تمّوز، 2021 من mawdoo3.com
- الجعافرة، عبد السّلام يوسف. (2014). تعليم اللّغة العربيّة في ضوء الإتّجاهات الحديثة (ط 1). لبنان: دار الكتاب الجامعيّ.
- جمل، محمد جهاد. (2018). التّعلّم النّشط طبيعته - أهدافه - أنماطه - ادارته - قياسه وتقويمه (ط 1). لبنان: دار الكتاب الجامعيّ.
- الشّوابكة، مراد. (2018، 24 يناير). أهميّة اللّغة العربيّة ومكانتها. استرجعت في تاريخ 14 تمّوز، 2021 من mawdoo3.com
- الشّيزاوي، عبد الغفار محمد والعيسوي، جمال مصطفى وموسى، محمد محمود محمد. (2005). طرق تدريس اللّغة العربيّة بمرحلة التّعليم الأساسيّ بين النّظرية والتّطبيق. لبنان: دار الكتاب الجامعيّ.
- ضمراوي، بانا. (2017، 13 ديسمبر). تعريف التّكنولوجيا. استرجعت في تاريخ 29 حزيران، 2021 من mawdoo3.com
- علان، علا موسى عبد الحميد. (2019). فاعليّة استخدام القصّة الرّقمية في تنمية مهارات القراءة الجهرية في مادة اللّغة العربيّة لدى طلبة الصّفّ الثّاني الأساسيّ ودافعيتهم نحوها. (رسالة ماجستير). عمّان: جامعة الشّرق الأوسط، كليّة العلوم التّربويّة. استرجعت في تاريخ 1 تمّوز، 2021 من meu.edu.jo
- عواضة، هاشم. (2010). طرائق التّعليم والتّعلّم ودورها في بناء شخصيّة الإنسان: العقل والقلب والجسد (ط 1) . (لا يوجد دار نشر)
- غضيب، أسماء نعيمة وغضيب، عفراء نعيمة. (2021). أثر استعمال اللّوح التّفاعليّ في الفهم القرآنيّ لدى تلامذة الصّفّ الخامس الابتدائيّ (النّسخة الإلكترونيّة). مجلة كليّة التّربية الأساسيّة، 110 - 27. استرجع في 22 حزيران، 2021 من iasj.net
- قابوق، زينة. (2016، 16 مايو). صعوبات تعليم اللّغة العربيّة. استرجعت في تاريخ 28 حزيران، 2021 من mawdoo3.com
- مروان، محمّد. (2018، 13 سبتمبر). أهميّة اللّغة العربيّة في حياتنا. استرجعت في تاريخ 23 حزيران، 2021 من mawdoo3.com

الجرح العربي في مرآة الشعر العامي الملنزم طلال حيدر وتميم البرغوثي أنموذجين صونيا غانم

مقدمة:

شهد القرن العشرون أحداثاً عالمية بارزة تركت أثرها الواسع في مسيرة الإنسان الحضاريّة؛ أبرزها الحربان العالميتان الأولى والثانية، اللتان غيرتا معالم الخريطة السياسيّة العالميّة، فمن عالم قائم على الإمبراطوريّات إلى تشكّلات قوميّة جديدة، وثنائيّة عالميّة كرّست قوتين سياسيتين كبيرتين: الاتّحاد السوفيتي والولايات المتّحدة الأميركيّة، وصولاً إلى انهيار الاتّحاد السوفيتي، وبدء مرحلة الحكم الأحادي القطب (الولايات المتّحدة الأميركيّة).

ولم يكن العالم العربيّ بمنأى عن هذا الغليان العالميّ، بل كان في عين العاصفة، فمن الثورات العربيّة المتعاقبة، إلى وعد بلفور لإنشاء وطن قوميّ للشعب اليهوديّ في فلسطين عام 1917، وقيام نظام الانتداب، وحملة نابوليون بونابارت (Napo-leon Bonaparte) على مصر، والنكبة العربيّة عام 1948، وصولاً إلى النكسة عام 1967 والمدّ الثوريّ القوميّ العربيّ... أحداث وضعت الفرد العربيّ بمواجهة محيطه العالميّ البعيد أولاً، ثمّ محيطه العربيّ القريب ثانياً، وأخيراً بمواجهة المتشظية الساعية إلى إثبات وجودها. وبما أنّ الأدب مرآة الأمة وانعكاس لأحوالها، كان لا بدّ من بروز أصوات أدبيّة، شعريّة ونثريّة، تصوّر هذه التغيّرات وتتطرق باسم الشعوب العربيّة، تارة تحنّ إلى الماضي، وطوراً تنقم على الحاضر وتنشد المستقبل الآتي... وليس من المستغرب أن يكون معظم الشعر القوميّ العربيّ باللّغة الفصيحة؛ فالمعركة هي معركة إثبات وجود وتاريخ، وحفاظ على الهوية.

انطلاقاً من هذا، يتحدّد موضوع بحثنا بالنظر إلى هذه الصّرخات العربيّة المتعالية عبر أنموذجين شعريّين، إنّما باللّجة العاميّة. الأنموذج الأوّل هو قصيدة «لو عندي محارم سودا» للشاعر «طلال حيدر»⁽¹⁾ منشورة على صفحة الشاعر على موقع

(1) طلال حيدر: شاعر لبنانيّ ولد عام 1937 في بعلبك، عرف بكتابته الشعر العاميّ ومناصرتة القضيّة الفلسطينيّة، غنى له العديد من الفنّانين أمثال فيروز، ومارسيل خليفة، وأميمة الخليل، وجاهدة وهبه... من أبرز أعماله الشعريّة: «بياع الزمان»، «آن الأوان»...

فايسبوك «Facebook»، بينما الأنموذج الثاني هو قصيدة «هدية»⁽¹⁾ للشاعر «تميم البرغوثي»⁽²⁾. وتسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف عبّر كلٌّ من الشعارين عن القضية عينها؟ وما مستوى انعكاس بيئتهما من خلال النسيج اللغوي؟ هل للهجة العامية القدرة نفسها التي تتمتع بها اللغة الفصحى على استثارة الشعور القومي الوطني؟ وهل يُعدّ هذان العملان تعبيراً عن تطلّعات جماعية؟ أم ينحصران في المستوى الفردي الضيق؟

ومن أجل الوصول إلى إجابات عن هذه الأسئلة، استندنا في هذا البحث إلى المنهج البنيوي التكويني (Genetic Structuralism) الذي يُعدّ «لوسيان غولدمان»⁽³⁾ (Lucien Goldman) من أبرز أعلامه، وقد حدّد له مجموعة من الخصائص والمنطلقات، من دون أن يرسم له آليات إجرائية واضحة نظراً لمرونته؛ ويجمع هذا المنهج بين البعد الاجتماعي للنصّ والبعد اللغوي، أو بعبارة أخرى بين البنية الفوقية (الثقافة والأدب والفنون) والبنية التحتيّة (الاقتصاد والمجتمع...) ⁽⁴⁾ انطلاقاً من مجموعة بنيات ذهنية. فبحسب «غولدمان» إنّ الأدب وعلم الاجتماع ليسا نظامين مختلفين اختلافاً كلياً، إنّما هما على تفاعل ديناميّ⁽⁵⁾. ومن أبرز المبادئ التي تقوم عليها البنيوية التكوينية مبدأ الفهم والتفسير، إذ يُعنى الفهم بدراسة بنية النصّ، ويُعدّ عملية وصفية تفكيكية قائمة على الاستقرار والملاحظة، بينما يأتي التفسير لوضع هذه البنية ضمن بنية شاملة للمجتمع، فتغدو البنية النصّية عنصراً تكوينياً من عناصر هذه البنية الشاملة⁽⁶⁾. وبهذا تتضح لنا خطّة هذا البحث: دراسة بنية نصّ «طلال حيدر» أولاً، من ثمّ دراسة بنية نصّ «تميم البرغوثي» ثانياً، عبر تفكيك بنياتهما إلى وحدات دلالية صغرى، ووضع البنيتين النصّيتين ثالثاً في إطار بنيوي أكثر اتساعاً وشمولاً (اجتماعي، تاريخي...).

(1) تميم البرغوثي: المنظر، دار الشروق، القاهرة، ط.1، 2002

(2) تميم البرغوثي: شاعر فلسطيني-مصري، وأستاذ في العلوم السياسيّة، ولد عام 1977 لأسرة أدبية، وله العديد من الأعمال الشعريّة أبرزها: «ميجنا»، «المنظر»، «في القدس»، «مقام عراق»...

(3) لوسيان غولدمان (1913-1970): فيلسوف وعالم اجتماع فرنسيّ ومنظر ماركسيّ فرنسيّ من أصول يهودية، له مؤلّفات عديدة أبرزها: «الإله الخفي»، «الماركسيّة والعلوم الإنسانيّة»...

(4) وليد قصاب: منهج النقد الأدبي الحديث، دار الفكر، دمشق، ط.2، 2009، ص. 143

(5) نبيل أيوب: نصّ القارئ المختلف وسيميائية الخطاب النقدي، مكتبة لبنان ناشرون، ط.1، 2011، ص. 87

(6) روجيه غارودي: البنيوية (فلسفة موت المؤلّف)، تر. جورج طرايشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، سوريا، ط.3، 1985، ص. 130

أولاً: البنيات الذهنية في قصيدة طلال حيدر:
عرس قرويّ لبنانيّ على صهوة حصان عربيّ

لو عندي محارم سودا لشوشح
فيها وودعكن
جايب نذابة البقاع ينوحوا تحت
قناطركن
وان رحنوا لاحرق هالبيت اللي
قبالي وبخاطركن
وأنا لاطلع ع الموت العالي وادلق
ع الموت محابركن
كنا زغار وصوتك يللي ندهني
من عز النوم
كسر العمر وصحاني وهبط
هالنوم وفتح الجرح اللي بقلبي
بضربه سكين وحكالي عن
فلسطين
وجك برج وعمرته وعيبته سلاح
وجك قطعان المعز بجبل التفاح
وجك كبش فزعان وعم يصرخ
وحش
وجك يا فلسطين إزاز خاتم ذهب
وعليّة وصندوق جهاز
وجك سرقة البساتين سجر النوم
اللي قبالي
وجك هالباب العالي
وجك رعيان وإنك كتاب الحكايا
وملك الزمان

إنتي الوشم ع إيدين العرب، النور، الضاعوا بها العتم
إنك الرعد العم يقصف بجبل الرعد
وإنك البرج اللي جايب وما تعمر بعد
زمن البكي جايب ع كل البيوت فُتحي يا قدس بوابك
قوليله يفوت
يا هالساكن بين الصوت وبين الصدى يا ها لبلاد الما
إلها حدا
إنك ميال بها الشمس وإنك المدى
أنا سامع صوتك جايب ومبحوح الصّوت
أنا شفتك راکض حافي ع حدود الموت
قالولي إنك راجع مع زهر اللوز
قالولي إنك راجع بقطاف الجوز
قالولي إنك جايب بنبيد العيد
جايب بفرح البواريد
قالولي إنك راجع مع ذهب الأرض
قالولي إنك راجع ع حصان البرد
راجع... قالولي راجع... راجع تخمين
مثل زلاغيط العرس البفلسطين

طلال حيدر

المرسل في هذه القصيدة هو الشّاعر نفسه «طلال حيدر» الذي تعيّن وجوده في الخطاب الشعريّ باستخدامه ضمير المتكلّم المفرد في معظم أجزاء القصيدة «عندي، قبالي، وأنا...». أمّا المرسل إليه فيتعيّن بضمير المخاطب الذي ورد بصيغتين اثنتين: ضمير المخاطب الجمع الذي يشير به الشّاعر إلى أبناء فلسطين «قناطركن، رحتوا، بخاطركن، محابركن...» وضمير المخاطب المفرد الذي يخاطب من خلاله فلسطين نفسها «وجك يا فلسطين، إنتي الوشم، فتحي يا قدس بوابك قوليله...» أو الفرد الفلسطينيّ «شفتك، إنك راجع...».

أمّا الزّمان، فيتعيّن بخطينّ متقابلين: الماضي الجميل «كنّا زغار وصوتك يلي ندهني من عز النّوم» والمستقبل المحتمّ المأزوم «زمن البكي جايي ع كلّ البيوت». وما بين هذين الخطّين واقع حزين تائه بين الموت والحياة، بين «ندّابة البقاع» التّائحين والرّكض «ع حدود الموت»، وبين أمل العودة مع «زهر اللّوز» و«قطاف الجوز» و«نبیذ العيد»...

هذا التشطّي على صعيد الزّمان، يقابله تشطّط آخر في الإطار المكانيّ، بين «الهنا» المتعيّن بالمكان القريب/الوطن/لبنان/البقاع/قبالة البيت، وبين «الهناك» المتعيّن بفلسطين. وما بين المكانين «جبل النّجاح، وبساتين» وبيئة طبيعيّة خصبة تثير الحنين والانفعالات.

يبدأ الشّاعر قصيدته بحرف امتناع لامتناع شرط غير جازم «لو»، مؤكّداً معادلة واضحة: امتناعه عن امتلاك محارم سوداء --> امتناعه عن النّذب. ولكنّ امتناعه عن البكاء هذا لم يحلّ دون إظهار حزنه، فاستعان بـ «ندّابة البقاع» لينوحوا عنه تحت قناطر فلسطين، محوّلًا الموقف من انفعال فرديّ، إلى انفعال جماعيّ وطنيّ. كما أنّه يُطلق موقفًا صريحًا منذ البداية: رحيل الفلسطينيّين يترتّب عنه إحراق الشّاعر لمنزله وإعلان رحيله. إذًا، يعلن الشّاعر حزنه منذ مطلع القصيدة، لا بل يجاهر به، ويدعو الفلسطينيّين إلى الصّمود وعدم الانسحاب من أرضهم، فهو، من أجلهم، أقوى من الموت، إذ يغسله بمحابر البطولات والنّضالات: «وأنا لاطلع ع الموت العالي وادلق ع الموت محابركن».

وفي عمليّة استرجاع زمنيّ، يعود الشّاعر إلى أيّام طفولته، حين استفاق من هناة عيشه على واقع مأساويّ، وجرح لم يندمل مع مرور الزّمن: هو جرح القضيّة الفلسطينيّة الذي أصاب قلبه في الصّميم... ليبدأ بعدها، في منحى وصفيّ، تحديد

معالم فلسطين، مشخّصاً إيّاها، راسماً ملامحها عبر توازن إيقاعي أوحى بالأهازيج والأغاني القروية الشعبيّة:



- وجه فلسطين برج خُزنت فيه الأسلحة = رمز القوّة والتّعالى والصّمود والتّحصّن بالأجساد البشريّة في وجه العدو.
- وجهها قطمان من الماعز تسرح في جبال التّفاح والرّعيان = استعادة لصورة وطن الشّاعر وطبيعته وبيئته الخصبة المعطاء. والقطعان تشير إلى الغنى والثّروة والسّلطة، والغريزة التّجمعيّة التّكافئيّة للفلسطينيين، ككلّ متكامل وكجماعة لا يفرّقها شيء.
- وجهها خروف صغير خائف من خطر وحشيّ = تصوير الحملان بين الذّئاب، العدو الإسرائيليّ وما يمثّله من تهديد لوجود الفلسطينيّ الضّعيف.
- وجهها زجاج وخاتم من ذهب وعلية وصندوق = إنّها عروس الوطن العربيّ الرّقيقة. والخاتم بدائريته يحمل معنى الكمال والالتفاف والتّكاتف والانتماء والالتزام، كالزّوجين والعلاقة التي لا يمكن أن يفصلها أحد، فهو ختم ملكيّة الأرض وحقّ الشّعب الفلسطينيّ بها.
- وجهها سرقه أشجار النّوم = فيه ملامح طفوليّة بريئة، والشّجرة رئة الأرض، أغصانها مشرّبة بأسقة كالشّعب الفلسطينيّ، وجذورها ضاربة في الأرض تطال العوالم الثلاثة: السّماء، والأرض، والجحيم، كأبطالها المتجذّرين في ترابها، البائثين في العدو الخوف والرّعب وغضب نيران الجحيم؛ وفي زرع الشّجرة إسهاماً في الخلق، وعودة الحياة، والنّوم الهائى الذي بات مستحيلاً في ظلّ الصّراع القائم.
- ووجهها أخيراً الباب العالى = الإطالة على واقع جديد والعبور إلى الحرّيّة،

وجه الطّابع المقدّس: باب المسجد الأقصى وكنيسة القيامة، للاجتياز من عالم المغتصب الدّيس، إلى عالم مُكرّس نقيّ طاهر من رجس العدو.

• بذا، تتّضح رؤية الشّاعر لفلسطين ونظرته إليها. ويمكن اختزالها بالمثلث الآتي:

القوّة وحقّ الملكيّة



الانتماء

البراءة والجمال

وينتقل بعدها من الخاصّ إلى العامّ، من الهيئة إلى الوجود، من الوجه إلى الكينونة؛ فيقول لها:



يربط الشّاعر من جديد بين فلسطين وبين الذّكريات والماضي الجميل، وبينها وبين القوّة (الرّعد) الذي هو صوت الله وإعلان قدرته وعدالة غضبه، ففلسطين مهد الديانات وأرض المسيح، وعليها سُفِكت دماؤه كما تُسَفَك دماء الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ فلسطينيين، والرّعد يشير إلى توعدّ الله مرتكبي المجازر والقَتلة، فهو كالغضب والخطر الآتئين من السّماء بقدرته الإهيّة. وتأثير الرّعد في الأذان وفي ارتجاف الأرض واهتزازها، كتأثير تَوَار فلسطين وما ينشرونه من رعبٍ في قلوب الكيان الصّهيونيّ. ثمّ يمنح الشّاعر فلسطين صفة الثّبات، بوصفها وشماً على أيدي العرب الضّائعين في الظّلمة. لم هذا الضّياح؟ وما سببه؟ وما دخل فلسطين به؟ أهو مجرد ضياح فقط؟

أم تحوّل إلى عملية إضاعة وطنٍ وشعبٍ ووجود؟ أم هو ضياع الرأى العامّ وصمّ أذان المجتمعات العربيّة عمّا يحصل من انتهاكات بحقّ الأبرياء على تلك الأرض؟ وبعد أن صرّح سابقاً أنّ وجه فلسطين هو برج شيدّه وخزّنه بالأسلحة، يعود الشّاعر ليؤكّد هنا أنّ فلسطين هي برج مستقبليّ لم يشيّد بعد. فكيف يمكن تفسير هذه الازدواجيّة في التّعبير؟ أهو تأكيد على ضياع العرب، أم تردّد، أم انعدام ثقة؟ وبعد أن حشد الشّاعر جميع الألفاظ الموحية بالجمال والفرح ليعبّر عن فلسطين، ها هو يعلن بشكل فجائيّ أنّ زمن البكاء آتٍ ليدخل كلّ بيوت القدس، فتتغيّر الصّورة، وتتبدّل ملامح فلسطين التي رسمها: هي بلاد وحيدة لا سند لها، ولا من يرفع الصّوت وما من مُجيب («زمن البكي جايي ع كل البيوت فُتحي يا قدس بوابك قوليله يفوت... يا ها لبلاد الما إلها حدا») ... ليخاطب بعدها فردًا بصيغة المذكّر، يظهر من خلال السّيّاق أنّه الإنسان الفلسطينيّ، فيصفه بأنّه الساكن بين الصّوت وبيت الصّدى. وهل من مساحة موجودة بين الصّوت والصّدى لتُسكن؟ ثمّ يصوّره على أنّه المدى، ربّما لأنّ حدوده كانت أوسع من وطنه؛ كانت حدوده المدى، فصار هو نفسه المدى، والصّوت المبحوح الذي تعب من المطالبة بحقوقه، وصار الذات الإنسانية الرّاكضة بمحاذاة الموت هربًا من الموت: «يا هالساكن بين الصّوت وبين الصّدى... إنت ميّال بها الشّمس وإنت المدى، أنا سامع صوتك جايي ومبحوح الصوت، أنا شفتك راكض حافي ع حدود الموت...»

وبفعل «قالولي» يختم الشّاعر قصيدته. هو لم يرَ بأَمّ عينيه ما سوف يقوله، ولا خبر شخصيًّا ما سوف يصرّح عنه، تاليًا فهو غير أكيد ممّا سيوح به. إنّما بعاطفة الإنسان القرويّ المنصهر بأرضه، وبفطرة الفرد اللّبنانيّ وتأخيه ومناصرتّه لجاره الفلسطينيّ، بتعاطف البقاعيّ المندمج ببيئته الجبلية، ينتظر العودة، عودة أخيه الفلسطينيّ غير المحتمّة، ولا المحدّدة بزمان معيّن: قد يعود ربيعًا مع زهر اللّوز، أو خريفًا مع قطاف الجوز، أو شتاءً مع نبيذ العيد... ولكن كيف سيعود؟ وإلى أين؟ بحسب الشّاعر، إنّه عائدٌ بقوة السّلاح مع ذهب الأرض، أي ترابها، على حصانٍ من البرد.

هكذا تكتسب العودة بعدًا مأساويًّا: فالعودة ممكنة في أيّ وقت، مرغوبة، ولكنها غير أكيدة، وقد تكون فعليًّا لا عودة. والعودة مع تراب الأرض أو ذهبها تعني العودة إليه؛ ووسيلة العودة هي حصان البرد، والحصان يمكن أن يشير إلى الاندفاع والعدو

نحو الحياة أو الموت في آنٍ معًا، أمّا البرد فملازم للموت والجمود، وهو في علاقة تضادّ مع جري الحصان وحركته. ونلاحظ في هذا القسم هيمنة اللونين الأبيض والذهبيّ وهما لوانان منسجمان بالطّهارة والعظمة والملوكيّة («قالولي إنك راجع مع زهر اللوز... قالولي إنك راجع مع ذهب الأرض، قالولي إنك راجع ع حصان البرد...») وفي الوقت عينه يرمز اللون الأبيض إلى الموت..

وليؤكد عدم تيقّنه ممّا قدّمه، يكرّر في السّطر الأخير الفعل «قالولي» مقرونا بكلمة «تخمين» أي من المتوقّع أو من المرجّح، ثمّ يختم نصّه بتشبيه تمثيليّ يوحي ظاهره بفرحة، إلّا أنّه تأكيد على الحزن الذي استهلّ به الشّاعر قصيدته: فعن أيّ عرس نتحدّث في فلسطين حيث الموت والقلق والترقّب تنهش تفكير الفرد العربيّ؟ وما هي هذه الرّغرايد المطلقّة؟ ليس هذا العرس سوى عرس شهادة كلّ فلسطينيّ، وما هذه الرّغرايد إلّا زغرايد «ندابة البقاع» المفجوعين بموت القضيّة العربيّة وأبنائها.

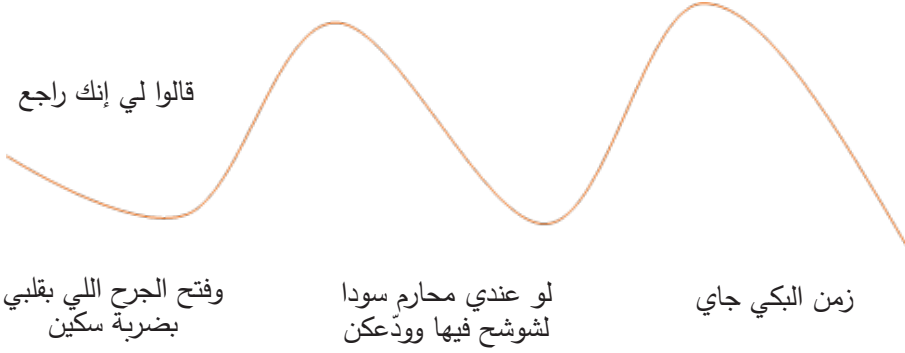
ويلاحظ أيضًا الثنائيّة التي قامت عليها هذه القصيدة في استخدام صيغتي المذكّر والمؤنّث، فالشّاعر بدأ يخاطب فلسطين-الواقع بضمائر المؤنّث المؤنّث «وجّك...إنّتي»، إلّا أنّه سرعان ما انتقل إلى صيغة المذكّر في حديثه عن حلم العودة واستعادة الوطن: «قالولي إنك راجع...، قالولي إنك جايي...»؛ ولهذا دلالة كبيرة في عمق الوجدان العربيّ.

بناءً على ما تقدّم، تبرز لنا بنية النصّ الدائريّة المنطلقة من فجيعة الموت إلى عرس الشّهادة، عبر موجات متفاوتة من الشّحنات الشّعوريّة:

يبدأ الشّاعر قصيدته بنقّس هابط، يعبر من خلاله عن الموت والحزن، ثمّ ما يلبث أن ينتفض، ويحاول الاستقواء على الموت، فتأخذه الذّكري إلى الماضي المؤلم، ولكنّه يعزّي نفسه برسم ملامح فلسطين كما يراها أو كما يريدّها، قبل أن يهدأ نفسه من جديد بعد تيقّنه من اقتراب زمن البكاء؛ إلّا أنّه يعزّي نفسه بأمل العودة المنتظرة من دون أيّ يقين.

وأنا لاطلع ع الموت العالي

وجك (...) + إنت (...)



وتتجلى مجموعة ثنائيات تعارضية كالخوف-القوة، الموت-الحياة، الحزن-الفرح...
تحكم مفاصل القصيدة، وتقودنا تالياً إلى بنيتها العميقة المتمثلة بعدم اليقين، والسعي
إلى التمسك بالأمل لاستبعاد الخيبة. فكلّ شاعر يحمل في دمه القضية الفلسطينية
نراه يأبى الموت قبل أن يطبع شعره ببسمة الانتماء لتلك القضية، فيغدو سلاحاً
وسط المعركة، ليحرّر تلك الأرض في فكره وشعره وآماله، فيسخر قصائده وشعوره
وأحاسيسه لذلك الحدث الدامي والجرح العميق، جرح اغتصاب الروح مع الأرض.

ثانيًا: البنيات الذهنية في قصيدة تميم البرغوثي:
الفرح الوجيف في علب الهدايا العربية

عمري هدية ف عيد ميلادي الصّفر قبل
الأولاني
والنّهاده بافتح السلفان وافكّ فيونكته
ولقيت حاجات جواه كتير
آخر عادية إنما آخر عجب:
ساعة ذهب
وكل ساعة ف أي عمر تمرّ
تبقى من ذهب
عفريت علب
يا تشوفه تضحك
أو تشوفه تموت من الخضة، حسب.
وعروسة حلوة بزنبك
وعروسة تانية حلوة من غير زنبك
وتاج سجين
وقيود ملك
ولقيت ولد كوتشينة
يفضل هوّه هوّه في الورق
مهما انقلب
ولقيت كتب
ولقيت طرب
ولقيت شريط فيديو طويل
مكتوب عليه
خمسون عام من الصراع بين الصهاينة
والعرب
وجهنم الحمرا لقيتها ف محبرة
والجنة برضه ف محبرة
ولقيت حصان عربي مضماره غرا،
ولقيت بابور من غير لهاب
ولقيت ف آخر العلبة كارت أبيض،
عليه إسمي فقط، والباقي لسه ما
انكتب
احترت أعمل إيه أنا في كل ده
يا رب شكرًا إنّما كان لازمته إيه التعب.
كركبتهم في العلبة تاني كلهم
وقفلتها ولقيتها بالسلفان
وضبطت الفيونكة تمام
ورميتها في سقف السما
أعلى فأعلى،
والهدية تحوّلت صحبة يمام
أجري وراها للأبد.
عشان ايه عملت كده أنا؟
والله ما اعرفش السبب.

تميم البرغوثي

أول ما نلاحظه بعد قراءتنا هذه القصيدة باللهجة العامية المصرية، النَّفس الأحادي في الخطاب الذي يجعلها أقرب للـ «مونولوج» (Monologue)، فالضمير البارز في هذه القصيدة هو ضمير المتكلم المفرد «عمرى، بافتح، اسمي، عملت كده أنا...». وإن ورد ضمير المخاطب، فقد سخره الشاعر مرتين في مجمل القصيدة «يا تشوفه تضحك أو تشوفه تموت» لا لغاية تخصيصية، بل ليشير من خلاله إلى أي إنسان قد يقع على هذه الهدية، وربما إلى الشاعر نفسه. ومن خلال السياق، نستنتج أن الزمان القريب يتعين بعيد ميلاد الشاعر الذي أشار إليه بعبارة «النهار ده» أو هذا النهار، والذي قد يكون عيد ميلاده الحادي والعشرين بعده أنه ولد عام 1977، وقد أشار في نصه إلى وجود شريط فيديو طويل كتب عليه: «خمسون عاماً من الصراع بين الصهاينة والعرب»، أي من المفترض أن تكون حقبة الكتابة في أواخر التسعينيات من القرن العشرين (1948+50=1998). أما الزمان البعيد فهو لانهاية مفتوح على الأبد، «والهدية تحوّلت صحبة يمام أجري وراها للأبد». في حين أنه من مكانه، أي مكان كتابته الخطاب، يفتح على أمكنة لا نهائية، كالجنة وجهنم ومضمار الحصان العربي وسقف السماء «وجهنم الحمرا لقيتها ف محبرة والجنة برضه ف محبرة ولقيت حسان عربي مضماره غرا... ورميتها في سقف السما...». واللافت أن هذه الأمكنة تتشكل ضمن مجموعتين اثنتين: الأولى تختزل الأماكن المجردة أو المعنوية (جهنم - الجنة - السماء)؛ أما الثانية فتضم مكاناً واحداً محسوساً وهو الساحة العربية التي رمز إليها بمضمار الحصان العربي. هكذا يتأطر الخطاب، ويضعنا أمام دلالات تاريخية واجتماعية وسياسية، سنكشف عنها تباعاً في دراستنا القصيدة.

يبدأ الشاعر نصه بعبارة لا تخلو من الشعرية، مشيراً إلى أن أول هدية تلقاها كانت حياته بحد ذاتها في عيد ميلاده الصفر، أي لحظة ميلاده. ويختزل في هذه الصورة مجموعة مشاعر من الامتنان والتعاقول التي قد توحى في عمقها بالخيبة والأسى؛ أفليس في سنواته العشرين الماضية ما يستحق التذكر، حتى اختار أن يتسهل قصيدته بذكرى مولده، ثم يقفز عشرين عاماً إلى الهدية المترقبة؟ وهل تستحق هذه الهدية كل هذا الانتظار؟ على ما يبدو نعم؛ فقد تعاطى الشاعر مع هذه الهدية، لا كمجرد علبة صغيرة، إنما بوصفها عالماً من المفاجآت والمفارقات؛ ظاهراً مُعَرِّ: علبة ملفوفة بورق لَمَاع، ومربوطة بشريط بشكل مرتب، أما باطنها فغريب ومدهش: ساعة من ذهب، والذهب رمز العظمة والتعالي، ويرمز إلى الكنز المخفي أو كل ما يصعب

الحصول عليه، لذا قد يرمز أيضًا إلى الثَّمار الرُّوحِيَّة أو الاستنارة⁽¹⁾. ويولي الشَّاعر أهميَّة كبرى للوقت وللحياة الإنسانيَّة، إذ انتقل من التَّشبيء إلى التَّجريد، من الحديث عن السَّاعة كآلة، إلى مفهوم السَّاعة كرمز للوقت المناسب في حياة الإنسان «كلَّ ساعة في أي عمر تمرَّ تبقى من ذهب». ثاني الهدايا كان عفريثًا في علبة، قادرًا على بعث الضَّحك في نفس من يراه، أو قادرًا على قتله نتيجة الخوف، إذا هو أقوى ممَّن يراه «عفريت علب يا تشوفه تضحك أو تشوفه تموت من الخضة، حسب». وكلمة «حسب» تعني أنَّ الفعل النَّاتج عن رؤية العفريت مشروط بالمتلقِّي وبِعلاقته به، وليس بالعفريت نفسه، بما أنَّه هو عينه في كلتا الحالتين. فمن هو هذا العفريت وماذا يمثِّل؟ بالنظر إلى السِّياق الدَّلالي، يرمز هذا العفريت إلى كلِّ متحكِّم بمصير الإنسان العربيِّ، أو إلى كلِّ ما قد يكون أقوى من هذا الإنسان العربيِّ، ويفاجئه من أحداث يوميَّة غير منتظرة أو تغييرات...

أمَّا ثالث الهدايا فدمية على هيئة فتاة جميلة «عروسة حلوة»، وقد وجد الشَّاعر منها نسختين: واحدة بَزْبُرُك، وأخرى من دون زُبُرُك، أو بمعنى آخر واحدة تتحرَّك بعد أن يقوم أحدهم بشحنها، وأخرى تبقى هادمة ساكنة. وفي الحالتين يبقى وجودها سلبياً (النبات أو التَّحرُّك من دون إرادتها). فهل تكون هذه الدِّمية صورة عن الفتاة العربيَّة بصورتها التَّقليدية التي تعاني من سلب حريَّتها بسبب السَّلطة المتمثِّلة بالذَّكورية العائليَّة والمجتمعيَّة؟

ورابع الهدايا يحمل في طياته تناقضات واضحة: «تاج سجين وقيود ملك» فبين التَّاج والسَّجن علاقة تعارض، وكذلك الأمر بين الملك والقيود. ولئن يرمز التَّاج والملك إلى الأنظمة والسَّلطات، فإنَّ في هاتين العبارتين دلالة على السَّلطات العربيَّة المقيدة العاجزة عن التَّصرُّف بملء إرادتها، إذ ما من قوَّة عاجزة إلَّا إن كان هناك قوَّة أعظم منها تقمعها. فما الذي يضعف القرار العربيِّ؟ وما سبب هذه القيود؟

وانسجامًا مع الفكرة السَّابقة، يعرض الشَّاعر خامس هداياه في دلالة سلبية إضافية: ورقة من أوراق اللُّعب، من المفترض أن تكون من الأوراق القويَّة، وهي رقعة مقوَّاة عليها صورة شاب/أمير، تلي مرتبة ورقتي الملك والملكة. إلَّا أنَّ هذه الورقة لا تتغيَّر، مهما خُطت الأوراق. والشَّاعر يغمز من هذه القنائة إلى الحُكَّام العرب والأنظمة العربيَّة، لا سيَّما الوراثية منها، التي لا تقسح المجال أمام أيِّ تغيَّر أو تجديد بسبب

(1) J.E. Crilot: A Dictionary of Symbols, p. 120

التوريث السياسي، من الأب إلى أفراد عائلته، فتكبل هذه العملية الحريات العامة، وسط الأنظمة المستبدّة، وهيمنة مقاليد الحكم والسلطات الوراثية، وتعاقب هذه الوصية في سلسلة لا تنتهي. وكأنّ الدّول إرث عائليّ حصريّ يورّع على السّلطويّين المتسلّطين تناوبياً. فماذا لو كان الوريث وحيد أبويه ومجنوناً، وما من مؤهلات كافية لديه لأداء واجباته، وليس من أحدٍ سواه يرث كرسيّ الحكم، ويستلبّ جوهر الحقّ، فهل يُعقل أن يحكم البلاد مجنون؟ لم لا؛ وقد بات الحكم داء جنون العظمة!

ويتابع الشّاعر في استعراض هداياه، فيصل إلى الهدية السادسة: كتب وطرب. وقد نكر الشّاعر هاتين الكلمتين بعد أن كان يحدّد بدقّة معالم هداياه السابقة، ربّما ليقّبل من شأن هذين الغرضين، أو ليكسبهما دلالة سلبية؛ ففي وطن المرأة فيه دمية، والملك مقيد، وتواجه سجين، والنظام وراثي لا يتغيّر، يصبح الطّرب مجرد أداة لهو أو تخدير للشّعب، وتصير الكتب عبارة عن كلمات لا تتغيّر شيئاً من الواقع المأزوم.

أمّا هديته السابعة، فتصبّ في محور هذه القصيدة وتتوسّط بنيتها أيضاً، وهي عبارة عن شريط مصوّر طويل بعنوان «خمسون عام من الصّراع بين الصّهاينة والعرب»... وتوحي كلمة «طويل» بالملل أو التّعّب أو السأم. هو إذاً فيلم مأساويّ، يعكس الصّراع العربيّ الإسرائيليّ، ويختزل خمسين عاماً من الأحداث الدّموية. إنّما هذا الصّراع ليس مجرد فيلم ترفيهيّ. فما الذي دفع بالشّاعر إلى تصويره على أنّه فيلم؟ أهي ربّما نظرة اللامبالاة التي تلمسها الشّاعر تجاه هذه القضية والتعامل معها باستخفاف؟

ثمّ يعود الشّاعر من جديد إلى مبدأ التّعارض مقدّمًا ثامن هداياه: محبرة يرى فيها جهنّم أو الجنّة. والمحبرة وسيلة كانت تستعمل للكتابة والنّشر والتّعبير عن الرّأي. فهل يكون من هذا المنطلق التّعبير عن الرّأي سبباً للمعاناة أو للفرح؟ ومن يضع المعايير ويحكم على الفرد بالتّعاسة أو الرّاحة؟ وهل يشير الشّاعر، استناداً إلى ما سبق، إلى نوع من القمع الفكريّ وفرض القيود على حريّة التّعبير عن الرّأي؟

ويغمز الشّاعر من جديد من زاوية الوطن العربيّ، كاشفاً عن هديته التاسعة: حصان عربيّ جامد تمّ لصقه في مضماره. والحصان رمز للمهابة والتّفوق الحربيّ والحيوية والنشاط والدّكرة والجرأة والإقدام⁽¹⁾. إنّما هذا الحصان العربيّ هو نقيض ما تقدّم حول صورة الحصان؛ ذلك لأنّه ملتصق بأرضه، لا يتقدّم ولا يتحرّك ولا يوحي

(1) منير معلوف: معجم الرّموز، المطبعة البوليسية، 2009، ص. 80، 81

بشيء من النشاط والجرأة والإقدام. وهو، من هذا المنطلق، رمز الشعب العربيّ المكبّل، غير القادر على السير نحو الأمام، والتّطلّع نحو المستقبل، والتحرّر من قيود السّطات الجشعة المدمّرة لأوطانها.

وتتوافق صورة الحصان مع صورة الموقد المفتقد للنّار، هديّته الثّانية، من ناحية غياب النّار؛ فغياب اللّهب يبرز عدم جدوى هذا الموقد، كما يرمز إلى غياب الحياة والدّفء، وسيطرة البرد والموت.

أمّا هديّته الأخيرة، فبطاقة بيضاء كُتبت عليها اسم الشّاعر، مشيرًا إلى أنّ التّمتّة لم تُكتب بعد. ويمكن أن ترمز هذه البطاقة إلى حياة الشّاعر نفسها، فكما يقول الكاتب مصطفى محمود: «قيمة الإنسان هي ما يضيفه إلى الحياة بين ميلاده وموته»⁽¹⁾. وبطاقته ما زالت بيضاء، بانتظار أن يملأها بما يستحق أن يُكتب ويُخلّد وسط كلّ هذه التّحديات.

ويختتم الشّاعر نصّه بحركة دائريّة أوحّت بها مشاعر الحيرة والقلق والتّعجب، وأعادته إلى المشهد الأوّل من القصيدة؛ إذ أعاد توضيب الهدايا التي استعرضها كلّها، ولفّ العلبة بورقة وشريط، ثمّ رمى بها عاليًا نحو «سقف السّما» ليجري خلفها إلى الأبد... فهل رمي الهدية عاليًا يعني عمليًا رفضها؟ ولم اختار رميها نحو السّماء؟ أهي محاولة منه لإيصالها نحو الخالق ليتدبّر أمرها هو؟ وإن كان قد رفضها ورمى بها، لم اختار أن يركض خلفها أبدًا؟! هو نفسه لا يعرف الإجابة («عشان ايه عملت كده أنا؟ والله ما اعرفش السّبب.») إنّما قد تكون الإجابة في الهدية نفسها: الفرح والحماسة دفعا للشّاعر إلى فتح العلبة، إلّا أنّه حين اكتشف محتواها العبثي، أعاد توضيبها من جديد، كي يحتفظ بصورتها برّاقة وجميلة في ذهنه، ويحافظ على الدّهشة الأولى.

هكذا تتّضح لنا البنية الكليّة لهذا النصّ، المترجّحة بين الخيبة المحتمّة، والسّعي إلى التّمسك بالأمل ولو كذبًا، رفضًا للموت وإثباتًا للوجود. فالشّاعر لم يتخلّ كليًا عن علبته، إلّا أنّه لم يحتفظ بها أيضًا؛ أرادها هديّة على مقياس طموحاته وآماله، حلمًا يجري خلفه ولا يصل إليه، لأنّ تحوّل الحلم إلى حقيقة يعني فقدان الحلم مثاليّته، واتّساعه بأرض الواقع. لذا آثر «البرغوثي» أن يخرع هديّة بديلة عن تلك الحقيقيّة التي أفلقت، بعيدًا عن منطوق الواقع اليوميّ، فالأمل لا علاقة له بالمنطق كما يقول الكاتب الأميركيّ «نورمان كوزينز» (Norman Cousins).

(1) نبيل أحمد: حدائق الحكمة أقوال مأثورة من مدرسة الحياة، ط.1، 2010، ص. 115

ثالثاً: الاندماج بين البنيات الفوقية للنصين، وبنيتها التحتية: المأساة العربية: أزمة تاريخ وسياسة وثقافة.

يؤكد «غولدمان» أن المبدع هو من استطاع أن يتجاوز فرديته ليصير شخصاً جماعياً، ويعبر عن نظرة جماعته بعده جزءاً من الجماعة التي يحيا فيها... «ولا يمكن أن تفهم إبداعاته الأدبية إلا انطلاقاً من العلاقات التي تحكم أفراد البيئة الاجتماعية الواحدة الحاضنة لهذا الإبداع.⁽¹⁾» كما يربط «غولدمان» أسس بنيويته بـ«فرويد» (Freud) في المجال النفسي، وبـ«هيغل» (Hegel) و«ماركس» (Marx) و«بياجيه» (Piaget) في مجال علم المعرفة، وبـ«هيغل» و«لوكاتش» على الصعيد التاريخي-الاجتماعي⁽²⁾... وبناءً عليه، لا بد من النظر إلى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في الوطن العربي، ودراسة النسق الفكري العربي خلال الأعوام السابقة، تحقيقاً للمرحلة الثانية من هذا البحث التي أشرنا إليها في المقدمة، وهي مرحلة التفسير.

شهد العالم العربي في القرن الماضي مجموعة أحداث سياسية واقتصادية وثقافية هامة، تركت أثرها في البيئة العربية، إنما يبقى للهيمنتين العربيتين الكبيرين بوجه العدو الإسرائيلي (نكبة 1948 ونكسة 1967) الأثر الأكبر في تشكل المواقف العربية السياسية في المرحلة اللاحقة لهما.

ففي سنة 1948 استطاعت الحركة الصهيونية إنشاء دولة إسرائيل على الأراضي الفلسطينية، بموافقة معظم الدول الكبرى، وتحت رفض الدول العربية. ثم جاءت هزيمة 1967 لتزيد من عمق الأزمة، وتوسع آفاق هذا الصراع، فيصبح صراعاً وجودياً مصيرياً. ويمكن النظر إلى مسألة اغتصاب الأرض الفلسطينية على أنها اغتصاب الوجود القومي للأمة العربية، بما أن فلسطين هي جزء لا يتجزأ من هذه الأمة، فاحتلال فلسطين وقيام إسرائيل «هما عقدة في التاريخ العربي الحديث. وهما جرح ما زال مفتوحاً يلهب...»⁽³⁾: «كنا زغار وصوتك يللي ندهني من عز النوم كسر العمر وصحاني وهبط هالنوم وفتح الجرح اللي بقلبي بضربة سكين وحكالي عن فلسطين...». ولطالما نُظر إلى القضية الفلسطينية على أنها القضية الجوهرية

(1) Lucien Goldmann: *Sciences humaines et Philosophie*, Gonthie, Paris, 1966, p.134

(2) نبيل أيوب: نص القارئ المختلف، ص. 87

(3) عزمي بشارة: أن تكون عربياً في أيامنا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط.1، 2009، ص. 136

بالنسبة إلى العرب، إلا أنّ العكس صحيح؛ «فقد اقتلع المجتمع العربيّ بريفه ومدينته من الساحل الفلسطينيّ، وهُدّمت المدينة الفلسطينيّة، وهُدّم معها حلم الحداثة ما بين الحربين العالميّتين...»⁽¹⁾. وانطلاقاً من هذا، يمكن فهم مدى ارتباط الشاعرين بهذه القضية؛ فالقضية عربيّة وليست فقط فلسطينيّة، وكذلك البيئة والمجتمع والتاريخ: «لو عندي محارم سودا لشوشح فيها وودعكن، جايب ندّابة البقاع ينوحوا تحت قناطركن، وان رحتوا لاحرق هالبيت اللي قبالي وبخاطركن...»

ولاشكّ أنّ النكبة غيرت مسار التاريخ العربيّ، ويكمن الخوف في عدّ هذه النكبة «حالة من فقدان الذكوريّة العربيّة، تُقمع ذاكرتها وتُكنس إلى اللاوعي، متحوّلة إلى هستيريا جماعيّة، تارة مع الفلسطينيين وطوراً ضدّهم، مرّة بعدّهم الضحيّة وسبب البلاء في الوقت ذاته، مثل امرأة جلبت العرب في الوعي الذكوريّ، ومرّة أخرى بعدّهم أعادوا إلى الأمّة كرامتها بالعمل الفدائيّ...»⁽²⁾، لذا نجد الشاعر «طلال حيدر» يعود في نهاية قصيدته إلى الحديث عن حلم العودة واستعادة الأرض بصيغة المذكر، بعد أن كان يخاطب فلسطين-المرأة في بداية القصيدة...

ويقسّم «محمد حسنين هيكل» في كتابه «المفاوضات السريّة بين العرب وإسرائيل» قصّة العلاقة بين الطرفين إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول، وفيه كان التّواصل سرّيّاً وشكّل عنواناً لصراع الأساطير مع الإمبراطوريّة، والمحرمات مع المقدّسات، والحقوق مع الأسلحة... هي إذاً مرحلة صراعات، فرضت خلالها الشّعوب على قادتها تأييد موقف الرّفص بشتّى الطّرق فكراً وأدباً وفناً... «وجكّ برج وعمرته وعبيته سلاح... إنّت الرّعد العم يقصف بجبل الرعد، وإنّت البرج اللي جايب وما تعمّر بعد...»

أمّا الجزء الثّاني، فلمصر الدّور الأكبر فيه؛ ففي أعقاب ثورة 1952، حاولت مصر القيام بمفاوضات مع إسرائيل عن طريق رئيسها «جمال عبد الناصر»، غير أنّها فشلت، ذلك أنّ مصر كانت تقود حركة قوميّة عامّة معنيّة بالقضية الفلسطينيّة، وتحضنها جماهير عريضة ترى في هذه الحركة وسيلة لتحقيق آمالها وطموحاتها⁽³⁾. وتلت هذه المرحلة مرحلة أخرى بقيادة «أنور السادات»، مشّت في خلالها مصر على طريق الاتّصالات والمفاوضات مع إسرائيل من دون أن تصل إلى النتائج

(1) م.ن: ص. 140

(2) م.ن: ص. 142

(3) محمد حسنين هيكل: المفاوضات السريّة بين العرب وإسرائيل، دار الشروق، القاهرة، ط.1، 1996، ص.11

المرجوة⁽¹⁾: «ولقيت شريط فيديو طويل مكتوب عليه خمسون عام من الصراع بين الصهاينة والعرب».

والجزء الثالث هو انفجار القضية الفلسطينية، وتشظيها عربياً وإقليمياً ودولياً، وما رافقها من عنف وفوضى⁽²⁾: «زمن البكي جايي ع كل البيوت فُتحي يا قدس بوابك قوليله يفوت...» وتشير الأرقام إلى أن أكثر البلدان تأثراً بهذا الانفجار: لبنان، أصغر بلد عربي، ومصر التي تحمّلت عبء قيادة الجهد العربي الشامل⁽³⁾.

وقد اتخذ القتال في فلسطين بين العرب واليهود شكل نيران متقطعة، تتوقف حيناً بفعل هدنة، وتتجدد حيناً آخر قبل أن تعود وتتوقف من جديد⁽⁴⁾، قبل أن يحسم السلاح الأمر لصالح إسرائيل. وما بين اتفاقية «كامب دايفد» (1978) واتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل (1979) ومحادثات «أوسلو» للسلام (1993-1995) من جهة، والانتفاضات الفلسطينية المتتابة بدءاً من العام 1987 من جهة أخرى، تشبّث الموقف العربي بين مؤيد لإحلال السلام وعقد معاهدات صلح (محور الاعتدال)، وبين مصر على استعادة الأراضي الفلسطينية كاملةً (محور الممانعة)، «ولم تعد القضية الفلسطينية في مركز اهتمامات الأنظمة العربية»⁽⁵⁾: «يا هالساكن بين الصوت وبين الصدى يا ها لبلاد لما إلها حدا إنت ميال بها الشمس وإنت المدى أنا سامع صوتك جايي ومبحوح الصوت...» كما تجذّر في الوجدان العربي - أن هزيمة 1967 هي قدر محتم لا مفرّ منه، وهو القاعدة في الصراع العربي-الإسرائيلي، نظراً لأنّ ما أفرز منذ ذلك التاريخ سياسياً وثقافياً وفكرياً واجتماعياً بقي ثابتاً لم يتغيّر، ولأنّ خيبة العرب كانت على قدر أحلامهم⁽⁶⁾ «ولقيت حسان عربي ومضماره غرا، ولقيت بابور من غير لهب...»

وقد انعكس هذا التشبّث على المجتمع العربي، إذ يجزم الباحث والمفكر العربي د. «عزمي بشار» أن «واقع تهमيش القضية الفلسطينية كان من عوامل انفجار الثورات

(1) م.ن: ص. 11، 12

(2) م.ن: ص. 12

(3) م.ن: ص. 25

(4) م.ن: ص. 274

(5) عزمي بشار: مستقبل القضية الفلسطينية ومآلاتها في ظلّ الواقع الزاهن، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2018، ص. 8

(6) عزمي بشار: أن تكون عربياً في أيامنا، ص. 153

العربية بعد الاستبداد والفساد والتوريث وغيرها»⁽¹⁾. وبالنظر إلى تلك الحقبة، نرى شرحاً واضحاً بين جيلين حاكمين: جيل أول سعى إلى بناء ثقافة وطنية، وإلى العدالة الاجتماعية، وإلى تحرير فلسطين، وإلى تعميم التعليم وتطوير الصناعة والزراعة، واستطاع تسييس الناس في هذا الاتجاه بصدق⁽²⁾: «وجك قطعان المعز بجبل التفاح، وجك كبش فزعان وعم يصرخ وحش، وجك سرقة البساتين سجر النوم... وجك رعيان... قالولي إنك راجع مع زهر اللوز، قالولي إنك راجع بقطاف الجوز...» وكان قادراً على التفاني من أجل المشروع «وان رحتوا لاحرق هالبيت اللي قبالي وبخاطركن وأنا لاطلع ع الموت العالي وادلق ع الموت محابرکن...»، وجيل آخر لاحق متمثل في الطبقة السياسية في أيامنا، والتي هي صاحبة مشاريع خاصة، لا تحظى بالمصداقية التي حظي بها الجيل الأول، رسخت في ذهن المجتمعات أن السياسة هي مجموعة مشاريع خاصة⁽³⁾: «وتاج سجين، وقیود ملك... ولقيت ولد كوتشينة يفضل هوّه هوّه في الورق مهما انقلب...». هذا الواقع المأزوم يتخطى البعد السياسي إلى أبعاد اجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وحضارية، وأخلاقية، فيبقى كما هو.

هكذا بدأت الأنظمة العربية تتجه إلى قطع الصلة مع العرب من خلال قطع الصلة مع الصراع العربي-الإسرائيلي، وعدّه صراعاً فلسطينياً-إسرائيلياً، كما حصل مع مصر حين اتّجهت إلى السلام مع إسرائيل، وتغيير بنيتها الاقتصادية⁽⁴⁾... كما يحصل اليوم من معاهدات سلام وتطبيع.. وانقسم العرب بين مؤيد لفكرة النأي بالنفس وإحلال السلام، وبين متمسك بحلم تحرير الأرض وإعادة الأرض إلى أصحابها، فاختلفت المشاعر على الفرد العربي من شعور بالظلم والعجز والخيبة، إلى الحث على التحلي بالإرادة واستنهاض الهمم والتمسك بالأمل: «راجع... قالولي راجع... راجع تخمين مثل زلاغيط العرس البفلسطين»... هي حالة من ضياع في تحديد المواقع واتخاذ المواقف، والبحث عن الهوية الجديدة وسط كل هذه المتغيرات؛ فالعربي الذي خبر خيبة الهزيمة هو نفسه قد خبر أيضاً نشوة المقاومة والأخذ بالتأثر. ولذا نجده في

(1) عزمي بشارة: أن تكون عربياً في أيامنا، ص. 153

(2) م.ن: ص. 67

(3) الموضوع نفسه

(4) م.ن: ص. 173

معظم الأحيان غير قادر على قطع الصّلات مع ماضيه وقضيّته، ولكنّه في الوقت نفسه مدرك أنّ التحوّلات الجارية، والمشاريع المرسومة، أكبر من مجرد نزعة قوميّة رومنيّة مغروسة في نفسه: «وضبّطت الفيونكة تمام ورميتها في سقف السّما أعلى فأعلى، والهدية تحوّلت صحبة يمام أجري وراها للأبد. عشان ايه عملت كده أنا؟ والله ما اعرفش السّبب.»

الخاتمة:

«إنّ مشكلة المثقّف تكمن في نزعته الفرديّة.. ويشعر من خلال مصالحه بارتباطه بطبقته.. بينما العامل يعيش وسط رفاقه.. أمّا المثقّف فيمارس نشاطه من خلال ثقافته وفكره.. وما لم يعيش المثقّف ويشعر بالارتباط بالجماهير، يظلّ أسيراً لشعار الـ «أنا»..»⁽¹⁾ إلا أنّ الشّاعرين «طلال حيدر» و«تميم البرغوثي» استطاعا أن يعبّرا بلغة عاميّة، لبنانيّة ومصريّة، تشبه بينتيهما وخطاب النّاس اليوميّ في لبنان ومصر، عن قضية جوهريّة في وجدان الفرد العربيّ، فعكسا من خلال معجمهما شتات الذات العربيّة التّائهة بين الرّفص والقبول، وبين الأمل والخيبة... فعدم اليقين البارز في قصيدة «حيدر»، كما الصّراع بين الرّفص والقبول أو التّمسك والتخلّي في قصيدة «البرغوثي»، هي سمات مشتركة للإنسان العربيّ بعامّة، واللّبانيّ والمصريّ بخاصّة، كما أنّها سلسلة كليات مترابطة رسمت ملامح مجتمع ضائع وسط المتغيّرات العالميّة المحيطة به، فهو من جهة متمسك بأملٍ بنى على أساسه فكره المقاوم، ومن جهة أخرى قلق وخائف من انهيار أنساقه الفكرية السّابقة. هكذا يتحوّل النّصّ الشعريّ إلى رؤية اجتماعيّة للعالم.

«وكما أنّ للقراءة الاجتماعيّة بعداً سياسياً، فإنّ لها أيضاً بعداً وجودياً وتاريخياً»⁽²⁾؛ وهذا ما أكّدناه في هذا البحث من خلال الرّبط بين الجانب السّياسي العربيّ من جهة، وبين مختلف الجوانب الأخرى في أبعادها الاجتماعيّة، والتّاريخيّة والوجوديّة على صعيد الفرد العربيّ الباحث عن أفق مستقبليّة يحدّد على أساسها هويّته. وقد نقل الشّاعران من خلال بنياتهما النّصيّة حقبة مفصليّة في الوطن العربيّ، شكّلت البنية التّحتيّة الرّافدة لأدب هذه المرحلة بشكل عام، ولهذين النّصين بشكل خاصّ. هذه البنية التّحتيّة تصبّح بدورها بنية فوقيّة إذا ما أُدرجت ضمن بنية أشمل تفسّرها وتحلّلها.

(1) سعد التّائّه: مصر بين عهدين (1952-1970) (1970-1981)، دار النّضال، بيروت، ط.1، 1982، ص.358

(2) نبيل أيوب: نصّ القارئ المختلف، ص.88

وختامًا، هل تؤسّس كلّ التغيّرات السياسيّة الجذريّة التي نشهدها اليوم في ما يخصّ الصّراع العربيّ-الإسرائيليّ من مفاوضات ومصالحات ومعاهدات سلام... على الصّاعدين الإقليميّ والعالميّ، لبنيةٍ تحنّيةٍ جديدةٍ تكون منطلقًا لبنى فوقيّةٍ حديثةٍ مغايرةٍ في رؤيتها إلى العالم لما سبق وعرضناه من خلال النّمودجين المحلّين، وتفتح تاليًا الباب أمام دراساتٍ بنيويّةٍ تكوينيّةٍ مقارنةٍ انطلاقًا من البيئة عينها؟

مصدر البحث:

البرغوثي، تميم: المنظر، دار الشروق، القاهرة، ط.1، 2002
المراجع العربيّة والمعربة:

1. أحمد، نبيل: حدائق الحكمة أقوال مأثورة من مدرسة الحياة، ط.1، 2010
 2. أيوب، نبيل: نصّ القارئ المختلف وسيميائيّة الخطاب النّقديّ، مكتبة لبنان ناشرون، ط.1، 2011
 3. بشارة، عزمي:
 1. أن تكون عربيًّا في أيامنا، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط.1، 2009
 2. مستقبل القضية الفلسطينيّة ومآلاتها في ظلّ الواقع الزّاهن، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2018
 4. التّائه، سعد: مصر بين عهدين (1952-1970) (1970-1981)، دار النّضال، بيروت، ط.1، 1982
 5. حسنين هيكل، محمد: المفاوضات السّريّة بين العرب وإسرائيل، دار الشّروق، القاهرة، ط.1، 1996
 6. غارودي، روجيه: البنيويّة (فلسفة موت المؤلّف)، تر. جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنّشر، سوريا، ط.3، 1985
 7. قصاب، وليد: مناهج النّقْد الأدبيّ الحديث، دار الفكر، دمشق، ط.2، 2009
 8. معلوف، منير: معجم الرّموز، المطبعة البوليسيّة، 2009
- المراجع الأجنبيّة:

1. Crilot, J.E.: **A Dictionary of Symbols**, Routledge, second edition, 2001
2. Lucien Goldmann: **Sciences humaines et Philosophie**, Gonthie, Paris, 1966

واقع المصمّم بين التّصميم والتّطبيق على فايس بوك (التّجربة اللّبنانيّة أنموذجًا) فاطمة محمّد فرحات

ملخّص البحث

شَهِدَ موقع ويب فايس بوك، الذي يُعدّ من أشهر وسائل التّواصل الاجتماعيّ في لبنان، مؤخرًا ضجّة كبيرة تسويقيًا، حيث تحوّل التّسويق التقليدي إلى تسويق إلكتروني فجأة، بعد أن نشأت هذه الشبكة الاجتماعيّة الكبيرة عام 2004 بغرض التّعريف والمحادثة بين الناس، إلا أنّها تطورت لتُصبح عام 2020 من أهمّ المواقع اجتماعيًا وتسويقيًا، حيث ضمّت لشركتها تطبيق الإنستغرام وتطبيق واتس آب، وقامت بتطويرهما لغاية التّسويق. إنّ من استراتيجيات التّسويق على وسائل التّواصل الاجتماعيّ تسويق إعلانات العلامات التجاريّة، والاستفادة منها لتحقيق الدعاية والإعلان، فبرز عمل المصمّم على هذه الشبكة، خصوصًا عندما وضعت شركة فايس بوك أسس التّصميم الخاصّة بها، بيد أن وكالات الإعلان أيضًا غيرت وجهتها الاعلانيّة، في ظل هذه الثورة التكنولوجيّة المتسارعة، من الإعلان المطبوع إلى الإعلان الرقمي، ممّا حفّز المصمّم على ملاحقة هذا التطور، من أجل تطوره في عالم التّصميم الرقمي الفعّال الذي يؤثّر بدوره على نجاح عملية التّسويق الإلكترونيّ. هدف هذا البحث إلى تقصّي واقع المصمّم بين التّصميم والتّطبيق على فايس بوك، وكيفية تعزيز العلامة التجاريّة عليه لتحقيق المبيعات المرجوّة (لبنان أنموذجًا). والكشف عن أثر فايس بوك على تطور مهارات وإبداع المصمّم، كما استكشاف أثره في تنشيط عملية توظيفه، على سبيل المنهج الوصفي التحليلي، والأسلوب الاستقرائي الذي من خلاله تمّ استقراء الملاحظات، وتجربة العينة الاستطلاعيّة حول رأي مصمّمين من نقابة مخرجي الصحافة ومصممي الجرافيك، حيث توّصلت الباحثة إلى عدّة نتائج أكّدت أهميّة وسائل التّواصل الاجتماعيّ والفايس بوك تحديدًا، لما له من حسنات وإيجابيات في تطوّر المستوى الإبداعي عند المصمّم؛ تطوّر مهنة التّصميم ومهارة المصمّم.



Abstract

Facebook, which is considered one of the most popular social media in Lebanon, has recently witnessed a huge marketing sensation, as traditional marketing has suddenly turned into electronic marketing after this large social network arose in 2004 for the purpose of getting to know and chatting between people, but it has evolved to become the year 2020 one of the most important Social and marketing sites, where her company included the Instagram and WhatsApp applications and developed them for the purpose of marketing. One of the marketing strategies on social media is marketing brand advertisements and benefiting from them to achieve publicity and advertising. The designer's work emerged on this network, especially when Facebook laid the foundations of its design. However, advertising agencies also changed their advertising direction in light of this accelerating technological revolution. From print advertising to digital advertising, which motivated the designer to pursue this development for his development in the world of effective digital design, which in turn affects the success of the e-marketing process. The aim of this research is to investigate the reality of the designer between design and application on Facebook and how to promote the brand on it to achieve the desired sales (Lebanon as a model). It also revealed the impact of Facebook on the development of the designer's skills and creativity, as well as exploring its impact on activating the process of his employment, for example, the descriptive analytical method and the inductive method through which the observations were extrapolated and the pilot sample was tested about the opinion of designers from the Lebanese

Press Director and Graphic Designer Syndicate, where the researcher reached several results, and it stressed the importance of social media and Facebook in particular because of its advantages and positives in the development of the creative level of the designer; the development of the design profession and the designer's skill.

تصوّر عام للبحث:

لا شك أنّ الثورة التي حدثت في مجال الاتصالات والوسائط المتعددة تُعدّ أهم ما يُميّز عالمنا المعاصر؛ حتى أصبح كلّ التقدّم الذي أنجزه العالم الحاضر يُعزى إلى تلك الطفرة في تكنولوجيا وسائل التّواصل الاجتماعيّ، التي تزايدت وكثرت في القرن الحادي والعشرين، بوجود تطورات علمية متلاحقة أدت في النهاية إلى ظهور دور بالغ في أحداث الحياة الاجتماعيّ اليومية. لم يكن هذا التحوّل الذي ساد العالم في مختلف المجالات ببعيد عن مجال التّسويق في لبنان، والذي تحوّل من التّسويق التقليدي إلى التّسويق الإلكترونيّ، حيث إنّ صانعي العلامات التجارية يُريدون عولمة علاماتهم التجارية الخاصة في جميع أنحاء العالم. يبدو أنّ هذا هو اتجاه السوق الحالي، يواجه العولمة ويؤثر على العلامات التجارية أيضًا. أمست وسائل التّواصل الاجتماعيّ ذات أهمية كبيرة لمستخدميها بمختلف أعمارهم وثقافتهم، وسواء كانت غايتهم علمية، ثقافية، اجتماعية، ترفيهية أم تجارية، مما أتاح الفرص للكثير منهم بداية حياة مهنية جديدة، كالفاشينستا fashionista واليوتيوبير youtuber وغيرهم. نذكر على سبيل المثال كلّ من وسائل التّواصل الاجتماعيّ التالية: يوتيوب (You-Tube)، لينكد إن (Linked in)، تويتر (Twitter)، إنستغرام (Instagram)، واتس آب (WhatsApp)، وفايس بوك (Facebook)، إذ يعمل التّصميم الجيّد المناسب على تشجيع الزوّار، والتفاعل مع المنشور عبر وضع علامة إعجاب، أو مشاركة أو تعليق بكلمة أو جملة صغيرة.

يُعتبر موقع فايس بوك أول وسائل التّواصل الاجتماعيّ، إذ ساهم في تطوير عمل المصمّم بشكل أو بآخر عندما وضعت الشركة أسس تصميمية لتطبيق العلامات التجارية عليه، كما التفكير في كيفية توظيف التقنيات التّسويقية الحديثة في إعلاناته. لقد استحوذت شركة فايس بوك على تطبيق إنستغرام عام 2012، وعلى تطبيق واتس

آب عام 2014، والعمل على توظيف المتاجر على هذه المواقع، وهذا ما أدى إلى تطوره في عالم التسويق الإلكتروني، حيث قامت شركة فايس بوك بالتعديل اللازم ليقدّموا الكثير من الاستمتاع والجمال للعلامات التجارية. أصبحت وسائل التواصل الاجتماعيّ مشروع تحديّ لمهارة المصممين في الآونة الأخيرة، كما أتاحت إنشاء وتبادل المحتوى والخبرات، كما تعمل على رفع مستوى وكفاءة ومهارة المصممين وتكسبهم شعبية متزايدة، وعملت على إزالة جميع حواجز التواصل والتفاعل ((1)).

لقد ساهمت أنماط تصميم الجرافيك المعاصر في تبسيط شكل العلامات التجارية، خاصة مع تبادلية تخصصات التصميم المختلفة واستخداماته في الوسائط المتعدّدة، لذلك لا بدّ لأيّ مصمّم أن يبقى مواكبًا للتطورات التقنية، والتفكير في كيفية الاستفادة منها، وتوظيفها لخدمته ولتطوير مهارته، «فالمهارة تُمثّل القدرة على تحقيق التقنية المطلوبة، وتحديد مستوى تنفيذها في إنتاج التصميم، سواء في بُنيته أو في عمليات الإخراج الفني النهائي، ففي ظل تطوّر وسائل الإنترنت تُصبح المهارة والخبرة وطريقة الأداء لدى المصمّم هي المصادر الأساسية لتحقيق فكرته ((2)). لذا، يمكننا القول بأنّ المصمّم عنصر فعّال وأساسيّ في تصميم وتطبيق محتوى الهوية البصرية لأيّ شركة تتوسّل وسائل التواصل الاجتماعيّ كوسيلة لإثبات علامتها التجارية وعولمتها. ولا شكّ أنّ شركة فايس قامت بتطوير استراتيجيتها التسويقية، ووضعت أسسًا لتطبيق التصميم عليها، باعتبارها تقنية حديثة التداول، بالمقابل أثّرت على المصمّم بتطوير مهارته، ومتابعة تقنيات مرتبطة بمهارة الأداء. فالتقنيّة تُشكّل مجموعة من العمليات والمهارات التطبيقية، والنظريات العلمية والمعرفية المرتبطة لإنتاج أي عمل ((3))، بذلك تصبح مجموعة الأسس والقواعد التي تُقاس بها قدرة المصمّم على مهارته، ولعلّ ارتباط المهارة بالتقنيّة ساهم بإعطاء المصممين مفاتيح لتبادل الأفكار والإعجاب بأعمال بعضهم البعض. كما مكّنت أرباب العمل والعملاء من البحث عنهم كمرشّحين لتوظيفهم في مجال تطبيق العلامة التجارية على وسائل التواصل الاجتماعيّ ((4)).

(1) Jenny Q Ta: What Impact Has Social Media Truly Had on Society, 2nd edition, Canada, 2014, p245.

(2) ((عباس صادق: الاعلام الجديد: دراسة في مداخله النظرية وخصائصه العامة، الطبعة الثالثة، دار البوابة العربية لعلوم الإعلام والاتصال، 2011، ص9.

(3) Wikipedia: Design Strategy, <https://ar.Wikipedia.org>, 2008.

(4) McGillivry Nick: What Are The Effects Of Social Media On Youth?, 2nd Edition, America, 2015, P52.

لذلك تقوم أهمية البحث حول واقع المصمم بين التصميم والتطبيق على فايس بوك Facebook، وواقعه على التجربة اللبنانية.

الباعث على موضوع البحث

شهد الواقع الحديث المتنامي تقدماً هائلاً في مجال التسويق إلكترونياً على مواقع وسائل التواصل الاجتماعي في القرن الحادي والعشرين، والدليل على ذلك عندما أقدم مارك زوكبيرغ⁽¹⁾ Mark Zuckerberg 1984 وشركاه على إطلاق سمة «السوق (market place)» على موقع فايس بوك في 14 أيار عام 2007. أصبح هذا الموقع ذات أهمية متزايدة وشكل فضاءً عالمياً للترويج والتسويق، إلا أنه غير طرائق التفاعل التقليدي التي كنا نتفاعل به مع كل شيء، وعكس شعور متزايد بحس المسؤولية على مصمم الجرافيك بحسب المتغيرات الاجتماعية والتقنية. تتعلّق هذه المسؤوليات بواقع المصمم بين التصميم والتطبيق على فايس بوك، فالتقنية تضمن طرائق متطورة ومناسبة لمجتمع اليوم الى جانب الحاجة الملحة للمصمم في أي عمل اتصالي ينتمي الى أمن المجتمع، وهذا ما حفّزني لدراسة جوانب هذا الموضوع خاصة الطلب المتزايد على عمل مصمم الجرافيك لدى وكالات الدعاية والاعلان كمحترف وسائل التواصل الاجتماعي.

أهمية البحث

تبرز أهمية البحث من خلال:

1. أهمية توظيف مصممين في مجال وسائل التواصل الاجتماعي، وبالتالي تبرز أهمية وجود المصمم.
2. أهمية عرض أعمال المصمم على وسائل التواصل الاجتماعي، وبالتالي تبرز أهمية وجوده وشهرته.
3. أهمية وسائل التواصل الاجتماعي في رفع مستوى كفاءة ومهارة المصمم أثناء تطبيقه العملية التصميمية.

أهداف البحث

يهدف البحث الى:

1. معرفة الدور الذي يقوم به المصمم عند تطبيق العلامة التجارية على وسائل

(1) مارك زوكبيرغ Mark Zuckerberg: ولد عام 1984، وهو مؤسس موقع فايس بوك لأول مرة في جامعة هارفرد عام 2004.

- التّواصل الاجتماعيّ. كما يسعى البحث الى استكشاف آليات (mechanisms) تطبيق تصميم الإعلانات على شبكة فايس بوك.
2. دراسة أثر وسائل التّواصل الاجتماعيّ (فايس بوك تحديداً) على مهارات المصمّم.
3. استكشاف أثر دور وسائل التّواصل الاجتماعيّ على تطور مهنته تقنيًا وعلميًّا، في مجالات العمل الفني الذي يشكل جزءًا كبيرًا ومهمًّا من عمل المصمّم.

إشكالية البحث

تبرز أهمية العلامة التجارية حديثًا من خلال نجاح الشركة، وبناء هويتها البصرية بتقنيات حديثة على وسائل التّواصل الاجتماعيّ، وتبرز أهمية نجاح العلامة التجارية من خلال تطبيقها وتعزيز قيمتها على تلك المواقع، والأخذ بعين الاعتبار العملية التّصميمية (الشكل والوظيفة والأداء). لقد تغيّرت أساليب الدعاية والإعلان، وأصبحت واجهة لصفحات وسائل التّواصل الاجتماعيّ، فكلمًا رسخت العلامة التجارية في ذهن زوّار الموقع، كلّما زاد عدد الزيارات والتفاعل معها. من هنا تتمحور أسئلة البحث حول واقع المصمّم بين التّصميم والتّطبيق على موقع فايس بوك.

السؤال الرئيسي: ما العلاقة بين وسائل التّواصل الاجتماعيّ ومهارة المصمّم؟

تساؤلات البحث:

- يتمثّل البحث في الإجابة عن الأسئلة الفرعية التالية:
1. هل أثر فايس بوك على تطوّر التّصميم؟
 2. هل أثر فايس بوك على مستوى الفكر الإبداعي عند المصمّم؟
 3. هل ساهم فايس بوك بتطوّر عمل المصمّم المهني؟
 4. هل يعتبر فايس بوك المميّز عند المصمّم؟
 5. هل فايس بوك له دور فعّال في عملية التّسويق؟
 6. هل نستطيع أن نستغني عن فايس بوك تسويقيًا؟
 7. هل يعتبر موقع فايس بوك الأكثر استخدامًا من أنستغرام تسويقيًا في لبنان؟

فرضيات البحث:

سوف يتمّ التحقّق من الفرضيات التالية بعد دراسة البحث.

الفرضية الرئيسية: ثمة أسس تصميمية وضعتها شركة فايس بوك لمساعدة المصمّم في إنجاح عملية تطبيق العلامة التجارية على موقعها، وقد ساهم ذلك بدعم المصمّم من الناحية التّطبيقية، وخلق علاقة تأثيرية بين الطرفين.

الفرضيات الفرعية:

1. لقد أثرت وسائل التواصل الاجتماعيّة على تطوّر مهارات وكفاءة المصمّم، ممّا جعل المصمّم هو الأساس في العملية التّطبيقية للعلامة التجارية، ولقد أضحى المصمّم مُختصّاً في وسائل التّواصل الاجتماعيّ كأبي تخصص في مجال تصميم الجرافيك، ولا نعلم ما إذا كان مصمّم الجرافيك يعدّ في هذا المجال مُحترف وسائل التّواصل الاجتماعيّ، أم ما زال يُعتبر مصمّماً.
2. ثمة قيمة جمالية مضافة للعلامة التجارية على موقع فايس بوك مُغايرة عن التي نعرفها، إنّها عولمة العلامة، وأثرها على مستوى الفكر الإبداعي.
3. ثمة تأثير وتأثر بين فايس بوك والمصمّم من حيث الدور الذي يقوم به على فايس بوك، والطلب المهني لوظيفته المتزايدة كمحترف وسائل التّواصل الاجتماعيّ لتحقيق المبيعات المرجوة، مما أدى إلى تطوّر عمله المهني وازدياد شهرته الواسعة. لا نستطيع التنبؤ بالأدوار التي سيقوم بها المصمّم في المستقبل، وخاصة أننا في مرحلة انتقال إلى عصر مغمور بالرقميات وبالعالم الافتراضي.
4. ثمة ميزة خاصة للفايس بوك عند المصمّم.
5. ثمة تأثير للإعلان الجيد على فايس بوك على زوّار الموقع، مما يؤدي الى بناء علاقات تفاعلية بين الطرفين.
6. في ظلّ التسارع التكنولوجي، نرى أنّ هناك العديد من مواقع الويب تخرج إلى العالم، غايتها استهلاكية، وتعمل على التّسويق الإلكتروني، ويمكن لها أن تطغى على شركة فايس بوك إذا ما تسارعت هذه الشركة بتطورها.
7. ثمة إجماع على أنّ إنستغرام هو التّطبيق الأكثر استهلاكاً تسويقياً من فايس بوك.

إجراءات البحث ومنهجه

منهج البحث: اعتمدت الباحثة على المنهج الوصفي التحليلي⁽¹⁾، مستخدمةً سبيل

(1) المنهج الوصفي التحليلي: يُعتمد المنهج الوصفي التحليلي للحصول على معلومات وافية ودقيقة تصف الحالة الراهنة أو تصوّر الواقع الاجتماعي، وتحدد الصورة التي يجب أن يكون عليها هذه الظواهر في ظل معايير محدّدة، مع تقديم توصيات أو اقتراحات من شأنها تعديل الواقع. لا يقتصر هذا المنهج على معرفة الخصائص الظاهرة، بل يتجاوز ذلك إلى معرفة المتغيّرات والعوامل التي تسبب وجود الظاهرة، أي هدفه التشخيص بالإضافة إلى كونه وصفيًا.

الأسلوب الاستقرائي⁽¹⁾ الذي يعتمد على تحديد مجتمع البحث وأدواته. حيث نُفذت استبياناً، وجمعت مادته، وقامت باحتساب النتائج عبر برنامج SPSS، على شريحة من المتخصصين في مجال تصميم الجرافيك.

مجتمع البحث: مصممين ضمن نقابة مخرجي الصحافة ومصممي الجرافيك.
عينة البحث: 45 مصمماً جرافيكياً لبنانياً، وتعتبر هذه العينة تمثيلية بقياس عدد أفراد مجتمع البحث.

أدوات ومواد البحث: استبيان عبر منصة google drive في عام 2020، وتحليل إحصائي عبر برنامج SPSS.

حدود البحث: يقتصر البحث على:

الحدود الموضوعية: واقع المصمم بين التصميم والتطبيق على فايس بوك (التجربة اللبنانية أنموذجاً)

الحدود المكانية: لبنان.

الحدود الزمانية: تم إجراء هذا البحث خلال الفترة الممتدة بين 2019-2021.

محددات البحث:

تم تطبيق هذه الدراسة على عينة من المصممين في لبنان، ولعلّ تطبيقها انحصر في ما يلي:

1. صدق ومصداقية المستجيبين في الردّ.
2. عينة الدراسة والمجتمع المسحوب منه.
3. افتقار الدراسة لتطبيق One Sample-T test للكشف عن الدلالة الإحصائية لعملية التأثير والتأثر بين المصمم والفايس بوك، بسبب قلة العدد المستجيب للدراسة.

الدراسات السابقة:

لقد استفادت الباحثة من بعض الدراسات السابقة التي بموجبها أضافت قيمة علمية لموضوع البحث، ومن أبرز هذه الدراسات:

1- The impact of design in social media today, Lancaster Institute for the contemporary Art, Lancaster University, UK. Sara

(1) الأسلوب الاستقرائي: يعتمد الأسلوب الاستقرائي على الملاحظات، والفرضيات، والتجارب؛ أي مجموعة من الاختبارات التي يقوم بها الباحث.

- Gancho, Rachel Cooper, Martin Evans, 2013.
- 2- The impact of new Digital media of Graphic design in Jordan, faculty of creative multimedia, Multimedia University, Cyber-jaya, malaysia, 2103 international conference on informatics and creative Multimedia, Mahmoud Abu Shawali, Yan peng Lim, Ahmad Radzi Bedu.
- 3- The effect of social development on Graphic Design Practice, Department of Graphic design, faculty of arts and design, zarka University, Jordon, Houssam Al Quraan, 2107.
- 4- تصميم الجرافيك وأثره على المواقع الإلكترونية والوسائط المتعددة: كلية الفنون والتصميم جامعة الزرقاء بالأردن، مدرس بقسم الجرافيك، كلية الفنون الجميلة، جامعة حلوان القاهرة، الدكتور ماجد كمال الدين محمد. 2016.
- 5- أثر وسائل الإنترنت على مهارات مصمم الجرافيك في الأردن: كلية العمارة والتصميم، قسم التصميم الجرافيكي، جامعة الشرق الأوسط عمان-الأردن، ليندا إبراهيم سعيد الزحلف. 2017.
- 6- التصميم التفاعلي في صفحة ويب ودوره في التسويق الإلكتروني: كلية الفنون الجميلة، قسم الجرافيك ديزاين، جامعة دمشق، نورهان صندوق، 2014.
- لكن تميّزت الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة بما يلي:**
1. تناولت طرائق تطبيق التصميم على فايس بوك.
 2. بحثت الدراسات السابقة في وسائل التواصل الاجتماعيّ ككل، وفي وسائل الانترنت والوسائط المتعدّدة، إنّما بحثت هذه الدراسة في موقع ويب فايس بوك بشكل خاصّ.
 3. لقد اعتمدت الدراسة على تحليل بعض النماذج للعلامات التجارية اللبنانية والأجنبية المصمّمة من قبل وكالات إعلانية لبنانية.
 4. لقد اعتمدت الدراسة على عيّنة من الأفراد المتخصّصين في مجال الجرافيك في لبنان، وذلك لمعرفة واقع المصمّم بين التصميم والتّطبيق على فايس بوك، مما يُعد إضافة قيمة علمية جديدة للمكتبة العربية.

العلامة التجارية (Brand)

في أغلب الحالات لا يُميّز الناس بين مفهوم الشعار Logo والعلامة التجارية Brand، لكن الحقيقة تكمن في أن تصميم الشعار هو المرحلة الأهم من مراحل إنشاء العلامة التجارية، «فالشعار ليس مجرد أشكال هندسية أو ألوان مُدمجة بشكل جميل بل يجب أن يُعبّر عن طبيعة عمل المنشأ وأن يكون «علامة فارقة» ومميزة لها»⁽¹⁾. لذلك يُعتبر الشعار العلامة الأساسية لهوية الشركة Corporate Identity⁽²⁾، وأن يتسم بالبساطة قدر الإمكان ليتمكّن من الصمود عبر الزمن لأنه رمز لصورة العلامة التجارية الدائم كأداة استراتيجية لتسويق فعال. أما العلامة التجارية «ليس المقصود منها الشعار أو الهوية، إنما هي ترجمة لمشاعر الناس تجاه منتج أو خدمة أو شركة ما»⁽³⁾. فهو مفهوم أكثر عمقاً من المفهومين السابقين، لأنه عبارة عن خليط الإدراك الحسي لكل تجربة يمر بها المستهلك مع العلامة التجارية (شكل الإعلانات، الموقع الإلكتروني، الخدمات، معنويات الموظفين، وردة فعل المستهلك بين الولاء لهذه الشركة ومنتجاتها وبين تركها من أول تجربة). أما استراتيجية أبعاد العلامة التجارية فهي خمسة: تعريف (Identify)، إعلام (Inform)، تصوّر (Imag-ine)، غمر (Immerse)، وخدع (Intrigue) .

يقوم المصمّم الجرافيك بدوره في تصميم شعار وهوية بصرية لشركة ما حسب الطلب، والشركة بدورها تقوم بتكوين فكرة جميلة وخاصة لتشكيل علامتها التجارية أمام زبائنّها. وبما أن التطور التكنولوجي قد أحدث ثورة في مراحل تطور التصميم الجرافيك، (دوره المتعدّد الوظائف في مراحل الإنتاج الرقمي)، بات يتطلّب براعة أكثر في عصر تبادلية الفن مع التكنولوجيا التي تُعتبر قلب عملية الإبداع المرئي⁽⁴⁾. وباتت فكرة العلامة التجارية تتضج أكثر لأنها دخلت عالم الرقميات والعولمة لتصل إلى جميع أنحاء العالم بكل سهولة، فعلى سبيل المثال، إن الهوية البصرية يُمكن أن

(1) مها أحمد بن قبوس: عالم الفن الرقمي 2009-2012، دار العلم للملايين، بيروت، 2013، ص 20.

(2) هوية الشركة Identity: تتألف هوية الشركة من عدّة أجزاء: الشعار، والقرطاسية Stationary (أوراق الشركة الرسمية)، ووسائل التسويق (الكُتيّبات، البروشورات، الملصقات، اللوحات الإعلانية والمواقع الإلكترونية)، المنتجات والتغليف، وزي الموظفين، الوسائل الإعلامية (المريّة والمسموعة) وديكور الشركة (مكانها وأثاثها).

(3) Marty Neumeier, *The Brand gap: How To Bridge The Distance Between Business Strategy And Design*, Neutron LLC, Berkeley, 2003, P14.

(4) أمبروز غافن، وهاريس بول، ترجمة القرعان، حسام درويش، أساسيات التصميم الجرافيكي، ط1، جبل عمان ناشرون، 2015، ص 12.

تكون عبارة عن منشور لمُنتج ما على موقع فايس بوك، ليتفاعل معها الزبائن مباشرةً
أينما تواجدوا بسبب مصداقيتها وجودتها العالية (1).

أثرت التكنولوجيا الحديثة على مهارة المصمّم وغاياته بسبب ظهور بيانات فرضت
نفسها على المجتمع، ولا يمكن التنبؤ بمزيد من الأدوار حتى ظهور بيانات جديدة في
المستقبل. فلقد نبأ الناقد آلان كيربي Alan Kirby 1953 بظهور فنون رقمية في
القرن الحادي والعشرين، من خلال وصفها بمصطلح الحداثة الرقمية (Digimod-ernism)،
ويقول «يمكن أن تكون مسألة جدلية نسبةً لتطورات العصر بشكل متسارع
جدًا باعتبارها أسلوبًا مناسبًا لتحديد المعاصرة» (2).

تطبيق العلامة التجارية وفقًا لوسيلة الإنترنت

ظهرت بدايات الاهتمام بفكرة تصميم الهوية البصرية وتطبيقها وفقًا لوسيلة الإنترنت
المباحة، عندما ابتكر المهندس المعماري والمصمّم ريتشارد ولمان Richard Saul
1935 Wurman مصطلح «فن وعمارة المعلومات Art and Information Architecture»
عام 1976، معتبرًا إياه اختصاصًا جديدًا لأولئك الذين جعلوا من
المعلومات والبيانات المعقّدة معلومات قابلة للفهم (3). هكذا اهتم الكثير من الباحثين
والمصممين في مجال تصميم الويب، إلى أن ظهر مدير شركة آبل Apple المهندس
كليمنت موك Clement Mok 1958 كمناصر لدور المصممين الجرافيكين في
عالم الميديا، وأدرك أن الثورة الرقمية كانت عبارة عن اندماج التجارة بالتكنولوجيا
والتصميم بشكله المتكامل. إذ «اعتقد أنه لا يجب تعريف التصميم على أنه كيان
منعزل كالتصاميم المضافة للمنتجات أو الخدمات بل على أنه جزء لا يتجزأ من
الاستراتيجية والرؤية الكلية للشركة» (4). بدأت تتجسّد الأفكار التصميمية واهتم
المصمّمون بالشكل التصميمي للموقع أمثال «المصمّم ديفيد سيغيل David Siegel
1935 الذي اكتسب شهرةً واسعةً في مجال تصميم مواقع الإنترنت عام 1997،

(1) نورهان صُنْدُوك: التصميم التفاعلي في صفحة الويب ودوره في التسويق الإلكتروني، منشورات جامعة دمشق،
كلية الفنون الجميلة، سوريا، 2015، ص 275.

(2) Alan Kirby: *Digimodernism, How New Technologies Dismantle The Postmodern and Reconfigure Our Culture*, New York, Continuum Books, 2009, P5.

(3) نورهان صونْدُوك: التصميم التفاعلي في صفحة الويب ودوره في التسويق الإلكتروني، منشورات جامعة دمشق،
كلية الفنون الجميلة، سوريا، 2015، ص 36.

(4) أحمد يازجي: تاريخ التصميم الجرافيكي، منشورات جامعة دمشق، كلية الفنون الجميلة، سوريا، 2012، ص 288-289.

ونشر كتابًا بعنوان *Creating Killer Websites* يدعو فيه المصممين إلى التركيز على الناحية الجمالية في التصميم، لإنشاء مواقع تجارية من شأنها جذب الزبائن وإمكانية تفاعلهم⁽¹⁾. لا شك أنّ ظهور الانترنت أثر على تطوّر المصممين، بحيث إنّ ما يُنتجه البشر من ابتكار تقنيات ساهم في مهارة الأداء. فالتقنية تُشكّل مجموعة من العمليات والمهارات والنظريات اللازمة لإنتاج أي عمل، بذلك تصبح مجموعة أسس وقواعد تُقاس بها قدرة المصمم لمهارته في تطبيقها⁽²⁾. لعل ارتباط مهارة الأداء بالتقنية طوّر من عمل المصمم، ونشّط عملية توظيفه ضمن بيئة رقمية حديثة، كوسائل التّواصل الاجتماعيّ التي من خلالها سوّقوا لأنفسهم، وكوّنوا علامة فارقة لعلاماتهم التجارية ولعلامات الشركات الخاصة⁽³⁾.

لقد نشطت أعمال المصمم على مواقع التّواصل الاجتماعيّ مؤخرًا، حيث أصبح وجوده مطلبًا أساسيًا لتشغيل عدد من صفحات ريادي الأعمال والشركات الخاصة، لتصميم هويتهم البصرية (صفحة خاصة بالشركة، والعديد من المنشورات)، ولتشكيل علامتهم التجارية رقميًا. أخذ موقع فايس بوك حيزًا أكبر من غيره في مجال الترويج التجاري، مما جعل موظفوه يضعون معايير وقوانين خاصة للتصميم. لذلك يُعتبر هذا الموقع تقنية دعائية يقوم بنشر العلامة التجارية إلكترونيًا، ويروّج له ضمن مناطق محددة، ويقوم بتجديد خلفية المشاهدين، حيث يحصل كل ذلك أثناء عملية تعزيز المنشور من أجل جلب «الترافيك» أي زحمة زائري الموقع للتفاعل مع المنشور المُعرّز⁽⁴⁾. تُعتبر العلامة التجارية أداة بحث في وسائل التّواصل الاجتماعيّ، وما زلنا حتى الآن نبحث في معطياتها وقيمتها التصميمية الجمالية، والدليل على ذلك هو لجوء العديد من العملاء الى ذوي الاختصاص لتعزيز علاماتهم التجارية على وسائل التّواصل الاجتماعيّ لمزيد من الشهرة والتفاعل.

(1)Lisbeth Thorlacius: *The Role of Aesthetics in Web Design*, Roskilde University, Department of communication, Business and information Technologies, 2007, P65-66.

(2)Nick McGillivry: *what are the effects of social media on youth?* 2nd Edition, America, 2015, P 83.

(3) إكس باند كارت: التسويق الإلكتروني من البداية إلى الاحتراف، منصّة إكس باند كارت Expand Cart، إلكترونية، 2013، ص16.

(4) إكس باند كارت: التسويق الإلكتروني من البداية إلى الاحتراف، موقع إكس باند كارت Expand Cart، إلكترونية، 2013، ص20.

موقع ويب فايس بوك (1)

يُعد موقع ويب فايس بوك أحد أضخم وسائل التّواصل الاجتماعيّ (2) لما يحوي من مستخدمين حول العالم يصل إلى أكثر من ملياري مستخدم شهريًا. لقد خلق ثورة اجتماعية وإنسانية في مجال التّواصل الافتراضي، وساهم في ظهور رأي يُجسّد فكر العولمة. فهو يُعتبر شبكة اجتماعية كبيرة تعمل من خلال شبكة الإنترنت لأجل الاتصال بالآخرين والتعارف والتفاعل فيما بينهم، كذلك يمكن للمستخدمين عرض علاماتهم التجارية كوسيلة تسويقية لمنتجاتهم وخدماتهم، كما يُقدّم خدماته مجانًا للمستخدمين، ولكنه في المقابل يجني أرباحه من خلال الإعلانات، بما في ذلك إعلانات شعار الموقع. «أهم ما يُميّز إعلانات موقع فايس بوك عن التّسويق الإلكتروني بشكل عام هو القدرة على قياس النتائج، على سبيل المثال إذا قمنا بحملة إعلانية تستهدف المبيعات بشكل مباشر يمكننا بمنتهى السهولة التّعريف على عدد المبيعات وقيمتها التي وردت بشكل مباشر من خلال الحملة» (3).

يُعتبر موقع ويب فايس بوك أول وسيلة من وسائل التّواصل الاجتماعيّ، الذي ساهم في تطوير عمل المصمم، ووضع أساسيات التصميم لتطبيق العلامات التجارية عليه ضمن تقنيات التّسويق الحديثة، والتفكير في كيفية توظيف هذه التقنيات في تصميماته وإبداعاته. «فالإبداع يمثل قدرة المصمم على تحقيق التقنية المطلوبة، وتحديد مستوى تنفيذها في إنتاج التصميم، سواء في بُنيته أو في عمليات الإخراج الفني النهائي في ظل تطوّر وسائل التّواصل الاجتماعيّ، بحيث تصبح المهارة والخبرة وطريقة الأداء

(1) موقع فايس بوك: تأسس لأول مرة عام 2004 من قِبَل طلاب جامعة هارفرد (Harvard University) وهم مارك زوكبيرغ (Mark Zuckerberg 1984)، والمدير التنفيذي للشركة إدواردو سافيرين (Eduardo Saverin 1982)، والمبرمج داستن موسكوفيتش (Dustin Moskovitz 1984)، والرّسام الغرافيكي أندرو ماكولام (Andrew Mac Cullum 1823)، والمتحدّث الرسمي باسم الشركة كريستوفر هيوز (Chris Hughes 1983)، وتقع في مينلوبارك (Menlo Park) في ولاية كاليفورنيا (California). لقد استحوذ على تطبيق أنستغرام عام 2012 وعلى شراء تطبيق واتس آب عام 2014، حيث قامت شركة فايس بوك بالتعديلات اللازمة لتوفير الكثير من الراحة والأمان والخصوصية والجماليات لتطبيق العلامات التجارية عليها.

(2) وسائل التّواصل الاجتماعيّ: تُعد تقنية تواصل اجتماعية بين البشر، تُسهّل عملية تبادل الأفكار والمعلومات والمنتجات والخدمات فيما بينهم في عالم افتراضي. تعتمد هذه التقنية على الإنترنت لكي تُمكن المستخدمين من الوصول بسرعة إلى المحتوى أو المنشور الذي نُشر على الصفحة، ويمكن أن يكون هذا المنشور صورة، نص أو فيديو. إنها وسيلة من وسائل التعرف الشخصية، كما أنها وسيلة ترويج للمنتجات والخدمات.

(3) إكس باند كارت: التّسويق الإلكتروني من البداية إلى الاحتراف، موقع إكس باند كارت Expand Cart، إلكترونية، 2013، ص21.

لدى المصمم هي المصادر الأساسية لتحقيق فكرته، وإبداعه المرتبط بمهارة الأداء (ارتباط المهارة بالتقنية) لتحقيق الإنجاز الفني»⁽¹⁾. وإذا كانت المهارة ليست غاية في ذاتها، فهي وسيلة لتحقيق غاية تعليم التصميم والفن التي مدخلها إنتاج التصميم في مجاله، ولعلّ اكتساب المهارة ليس لتحوّل إلى عملية آلية دون وجود حدّ للتفكير والابداع»⁽²⁾. لقد استحوذت شركة فايس بوك على تطبيق إنستغرام Instagram عام 2012 الذي شكّل مجالاً واسعاً من خلال توظيفه المتاجر بصفقة بلغت مليار دولار، وقامت بالتعديل عليه ليقدّم الكثير من الاستمتاع والجمال للعلامات التجارية. واستحوذت على تطبيق واتس آب Whatsup عام 2014، لتُشكّل بذلك مجموعة من مواقع وسائل التّواصل الاجتماعيّ لخدمة عالم التّسويق والإعلانات. ومن هنا جاء التساؤل التالي: هل نستطيع أن نستغني عن فايس بوك تسويقياً؟

وظيفة المصمم على موقع فايس بوك

يقوم المصمم بتصميم كلّ ما يتعلّق بعملية الاتصال المرئي والمسموع، لذلك وُجب عليه تنمية مهاراته وقدراته الإبداعية حتى يتسنى له القدرة على الإبداع والابتكار، ووضع معايير خاصة به لفهم العملية الابتكارية، وكيفية تنفيذها من خلال امتلاكه القدرات التي تؤهله إلى الإبداع في تصميم وسائل التّواصل الاجتماعيّ، وغيرها من الوسائل الالكترونية. يرتبط أداء المصمم بالطريقة التي يتفاعل بها العملاء مع الشركات التي يتزايد عليها طلب «إداري» للقيام بالمهام التصميمية والتّطبيقية من قبل المحترفين، فينتج عن ذلك «الإنتاجية المتزايدة في السوق». لذلك يجب أن يكون التصميم قادراً على تحقيق الفعالية الكلية لفايس بوك من خلال عدّة مستويات من المشاركة، ومساعدة تحديد الأهداف وفرص العمل. وأيضاً، يجب أن يكون قادراً على إنشاء محتوى ثابت يُمثّل جميع مواقع وسائل التّواصل الاجتماعيّ (إنستغرام، واتس آب، وغيرها...) «لقد أصبح التصميم الجرافيكي أكثر نشاطاً على شبكات وسائل التّواصل الاجتماعيّ، بعد التوسّع الهائل في نُظم تكنولوجيا المعلومات، لذلك يواكب المصمم جميع التغييرات التي تطرأ في صناعة التصميم من أجل معرفة المزيد من الطرق الجديدة حول كيفية إنشاء تصاميم جذّابة تُحقّق أقصى قدر من الوجود الاجتماعيّ»⁽³⁾.

(1) عباس مصطفى صادق: الإعلام الجديد: دراسة في مداخله النظرية وخصائصه العامة، ط3، دار البوابة العربية لعلوم الاعلام والاتصال، 2011، ص11.

(2) روبرت جيلام سكوت، أسس التصميم، ترجمة محمد يوسف وآخرون، دار النهضة، مصر، 1968، ص64-63.

(3) Monica Riese: *The definitive history of social media*, Graphic design degree Hub, UK essay, 2016, P4.

إن إدارة التصميم، على مواقع وسائل التواصل الاجتماعي، مهمة لتعزيز المشاركة والوعي بالعلامة التجارية، وذلك من خلال تحليل منهجي للسوق، لأجل فهم منافسي العملاء والجمهور والمجموعات المستهدفة. فالتصميم قادر على فهم العلامة التجارية، وتحديد لغتها وصوتها وقيمتها وسماتها من خلال تحديد أهداف العملاء، ويُعتبر جزءاً لا يتجزأ من المحادثات، كما يُتيح فرصة فهم أفضل لعملية تطبيقها على موقع فايس بوك. لذلك يجب على المصمم أن يكون قادراً على تحليل الحملات الإعلانية وإعادة تركيزها بحسب الحاجة، وتحديد الإستراتيجيات، وتحديد الإجراءات في الإطار الزمني ذي الصلة، وضبطه عند الاقتضاء. يتم تشجيع كل مصمم للانخراط مع العملاء ذوي الصلة، من أجل استخدام مواهبهم الإبداعية في مكانها الصحيح للوصول نحو الهدف الأفضل، ولإثبات قيمة التصميم ومهارة المصمم. إن هذه المشاركة بين الطرفين تُعزز عملية التصميم، وتُعطي نتيجة مُبهرة، فوظيفة المصمم مرتبطة مع تنفيذ العمليات واستراتيجيات العملاء إلى ما وراء المنتجات والخدمات والخبرات؛ إنه نهج المصمم الجرافيكي في عملية حل المشاكل المعقدة للتصميم، خاصة عند الاستعداد لاختبار الخيارات المحفوفة بالمخاطر التي تتجاوز النظرة التقليدية للمشاكل التصميمية والتي تُعتبر ميزة استراتيجية.

تتمحور وظيفة المصمم بين التصميم والتطبيق على موقع فايس بوك، على أسس التصميم التابعة لشركة فايس بوك، نذكر منها:

1. استخدام نسب العرض والارتفاع الموصي بها لكل موضع.
2. استخدام صور عالية الدقة.
3. عرض العلامة التجارية بكفاءة عالية.
4. تجنّب وضع كمية كبيرة جداً من النص على الصورة، على ألا يكون أكثر من 20%.
5. الحرص على التركيز في توجيه الرسالة المعلنة.
6. معاينة الإعلان من خلال اختبار فايس بوك.

واقع المصمم بين التصميم والتطبيق على موقع فايس بوك

يلعب تصميم الجرافيك دوراً هاماً لصالح مواقع التواصل الاجتماعي، إذ يُشجّع الزوّار على التفاعل والرغبة في الشراء. تحتاج هذه البيئات عند تشغيلها إلى «إبداع بصري» يتحدّد تعريفه بما يلي: إنه «طاقة متميزة تسعى نحو التجديد، وحلّ المشكلات التي

تواجه رواد الأعمال في مجال التصميم من خلال تجريب حلول ابتكارية جيدة تتسم بالفائدة والجدّة، ولها مردود إيجابي على مستوى الفرد والمجتمع»⁽¹⁾. «تتقسم عملية التصميم المنهجية الابتكارية إلى قسمين: أولاً تعريف مشكلة التصميم وهي عبارة عن «سلسلة تحليلية» يُحدد فيها جميع بنود المشكلة، ثانياً حلّ مشكلة التصميم عبارة عن «سلسلة تركيبية» تندمج فيها المتطلبات اللازمة للمشكلة ويُستخرج منها حلولاً منطقية للتنفيذ»⁽²⁾.

إن عملية التفكير المنهجية في مجال التصميم الإلكتروني تُسهّل للمصمم حلّ مشاكل التصميم بطريقة شبه مُغايرة في ظلّ الاقتصاد الناشئ، فمنهج التصميم يساعد من خلال «أسلوب فكري يؤكد على المشاركة الوجدانية والمنطق السليم والتنفيذ الجيد المدروس لمشروع الريادي إلكترونياً»⁽³⁾. تُطبّق هذه المنهجية على التصميم لمواصلة تطور التقنيات، ومواصلة تطور استراتيجيات وسائل التّواصل الاجتماعيّ، لأنّها طبيعة تبادلية وتفاعلية في العلاقات، خاصة عند تصميم المنشورات والخدمات المعقّدة.

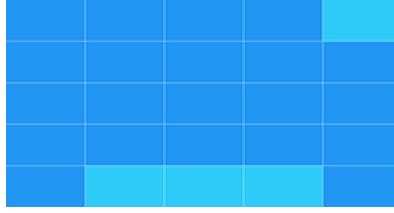
يتمحور دور المصمّم الجرافيكي حول إنشاء تصميم مميّز ضمن ثلاثة مراحل، على وسائل التّواصل الاجتماعيّ (فايس بوك تحديداً):

1 - **مرحلة الكتابة:** تُعتبر من أهم مراحل تطبيق تصميم العلامة التجارية على فايس بوك. لقد حدّدت شركة فايس بوك عدداً محدّداً من المربّعات للكتابة عليها، على ألا تتعدّى خمسة مربّعات من المساحة المُتبقيّة، وفي حال عدم الحاجة إلى كتابة أي كلمة، فإنه يُعطي نتيجة أفضل. كما أنّ المصمّم يقوم باختيار العنوان الدعائي والمقاس المناسب له، والابتعاد أيضاً عن التقليد قدر المستطاع. يعتمد المصمّم على التحدي في الأسلوب والتفكير العميق في كيفية توجيه الدعاية، كما يلجأ أحياناً إلى استخدام التّطبيق على صفحات مشاهير وسائل التّواصل الاجتماعيّ، واستعماله تعابير مقنّعة محفورة في ذاكرة المشاهدين، ككلمات باللكنة اللبنانية المعروفة.

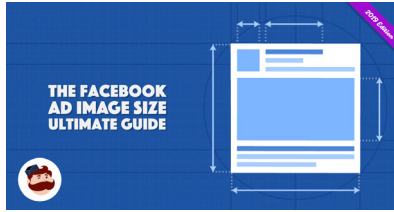
(1) سلمان بن عامر الحجري: التصميم الجرافيكي بين المهنة والرسالة، جامعة السلطان قابوس، كلية التربية، سلطنة عمان، 2014، ص323.

(2) Richard Buchanan: *Wicked Problems in Design thinking*, Design Issues: Vol.8, No 2, P 5-21, The MIT Press, 1992, P15.

(3) Jon Kolko: *Wicked Problems: Problems Worth Solving*, Austin Center for Design, Texas, 2012, P10.

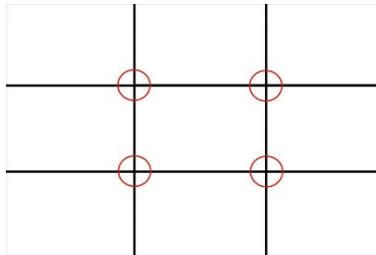


1. **مرحلة التصميم:** تعكس أساسيات التصميم لشركة فايس بوك البساطة، ومُراعاة أسلوب تنفيذ التصميم ضمن مربعات مُحدّدة غير قابلة للتعديل. كما أن استخدام الألوان المعاكسة لألوان فايس بوك تُشكّل لمسة تصميمية ممتازة. كما أن البحث عن هويات الجمهور المستهدف، وتحديد عمره وحالته الاجتماعية، يساعد على اختيار الشكل واللون الذي سيظهر عليه الإعلان للعلامة التجارية.



2. **مرحلة الاختبار:** تُعتبر المرحلة الأخيرة قبل نشر الإعلان النهائي للعلامة التجارية، حيث يتمّ تصميم شكلين للإعلان ذاته؛ يقوم المصمّم بتقييم الإعلان، عبر إجراء الاختبار الذي وضعته شركة فايس بوك على الشكل التالي: إعلان «أ» وإعلان «ب»، ضمن ميزانية مالية قليلة. وعلى هذا الأساس يتمّ عرضه لاختيار التطبيق الأفضل، والذي يصل بسرعة أكثر إلى عدد كبير من زوّار الموقع.

3. يتمّ تصميم العلامة التجارية ضمن أساسيات التصميم المُعتمدة من قبل شركة فايس بوك:



قاعدة الأثلاث: بالرغم من أنه قاعدة عامة في الثقافة البصريّة، إلا أنه مُعتمد

كمبدأ أولي للتصميم على موقع فايس بوك، يساهم في إنجاح عملية تطبيق العلامة التجارية، لخلق شعورًا بالتوازن المرئي. يُقسم لوح الرسم الى 9 مربعات متساوية الحجم، عن طريق رسم خطين أفقيًا واثنين عاموديًا. تأخذ الصورة 2/3 من مساحة الإعلان و 1/3 من العلامة التجارية.

- **أبعاد منشور فايس بوك المثلثة:** تمثّل حجم الصور الموصي بها من قبل شركة فايس بوك للإعلانات 628*1200 بكسل، وتكون عالية الجودة. أمّا توصيات Ad Espresso يُعلن بأن يكون العنوان عبارة عن خمس كلمات، والنص عبارة عن خمس عشرة كلمة.

- **إضافة النص:** يُفضّل عدم إضافة أي نصّ بالأصل لأنه يقلّل من جودة الإعلان، أمّا إذا كان له ضرورة فالأفضل إخضاعه للاختبار أولاً، لمعرفة ما إذا كان يُساوي نسبة 20% من المساحة المسموح بها من قبل شركة فايس بوك.

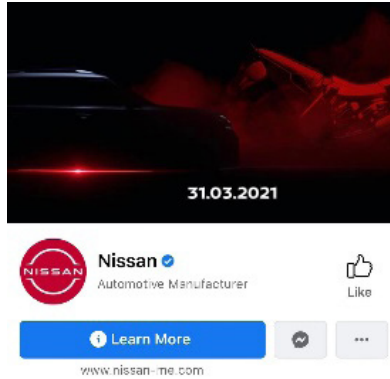
- **عرض وجوه أشخاص مشهورين:** تُمثّل الوجوه المشهورة - ضمنياً - على مواقع التواصل الاجتماعيّ المادة الدسمة لعملية نجاح العلامة التجارية، ممّا يجعل الإعلان أكثر جاذبية، لا سيّما إذا كان الموضوع يستهدف فئة معيّنة من المشاهدين. كما نعلم، لجأ العديد من الأفراد إلى استخدام وسائل التواصل الاجتماعيّ كوسيلة إشهار لشخصهم، وإظهار مواهبهم على العلن بغرض الشهرة، إلا أن هؤلاء الأشخاص، بشكل أو بآخر، شكّلوا مطلبًا أساسيًا في ترويج الإعلانات، وخاصة إذا كانت صفحاتهم قد سجّلت أرقامًا قياسية في عالم الإعجاب الافتراضي -Vir-tual Likers.

- **استكشاف ألوان الهوية البصرية للشركة:** الالتفات لموضوع الألوان عند تصميم العلامة التجارية وتطبيقها على موقع وسائل التواصل الاجتماعيّ، فعلى سبيل المثال يُفضّل اختيار الألوان المعاكسة لألوان موقع فايس بوك؛ كأن نبرز البرتقالي والأخضر مقابل الأزرق والأبيض. كما الالتزام بالإجراءات التقليدية للتصميم حول اختيار نظام ألوان يتطابق مع الهوية البصرية للشركة، ويُفضّل الاحتفاظ عادةً بنسق من الألوان على شاشة الكمبيوتر، لعلّ المصمّم لجأ إليها في المرات المقبلة، وخاصة إذا كان العميل زبونًا دائمًا.

- **إبراز الإعلان:** يبرز الإعلان بشكل عام من خلال اختيار صور عالية الجودة، لكي تكون العلامة التجارية ملحوظة بشكل ممتاز، ومن خلال الرسومات الإيضاحية الرقمية التي تُعتبر ميزة تنافسية هائلة في عصرنا هذا، لأنها تبني مصداقية وجودة عالية مقارنةً بالعلامة التجارية المصوّرة فوتوغرافيًا. إننا نرى الكثير من الصور المستنسخة والمقلّدة لتصاميم منشورة على الإنترنت في الأونة الأخيرة، وهذا ما حفز المصمّم لتعميم الأصالة، واستخدام آله التصويرية الخاصة، وريشته السحرية الرقمية، لمعالجة هذه الإشكالية، ممّا يجعل من العلامة التجارية على وسائل التواصل الاجتماعيّ ميزة جمالية فريدة من نوعها ليس لها مثيل، واستحالة أن يظهر لها شبيهه. فأصالة العمل الفنيّ هو ما يُبرز الإعلان المتميّز على موقع فايس بوك تحديدًا، لأنّه من المواقع الفاضحة للتقليد والنسخ على العلن، وذلك

- من خلال المشاركة العلانية Share.
- **البساطة:** هي مفتاح التفاعل مع المنشور المُعلن، بدءًا بتركيبة الشبكة التصميمية الاستراتيجية التي وضعتها شركة فايسبوك، لذلك لا تحتل وضع كمية من العناصر الفنية في المنشور الواحد، فهي مُخطّطة لتبسيط العمل الفني والحدّ منه.
- **الاختبار:** إجراء اختبارات «أ» و«ب» قبل تعزيز العلامة التجارية النهائية⁽¹⁾. يُعتبر الاختبار A/B قياس أداء كل من النسختين للإعلان الواحد بعد اختيار «المتغيّر» الذي نريد اختباره. يقوم المحترف بتقسيم الميزانية المالية للاختبار بالتساوي، عندئذٍ يُراقب أداء هذا الاختبار على مدى الأيام المحددة له، فالمتغيّر الذي يصل إلى عدد أكبر من المشاهدين يُعتمد عليه لتعزيزه في المرحلة النهائية. يساعد هذا الاختبار في ضمان تقسيم المشاهدين بشكل متساوٍ والمقارنة بينهما إحصائيًا.

تجربة السوق اللبناني



أصبح لدى معظم وكالات الإعلانات في لبنان قسم خاص للتسويق الإلكتروني ضمن بيئة وسائل التّواصل الاجتماعيّ، حيث يعمل فيها موظفان أو ثلاثة من أجل تصميم إعلانات العلامات التجارية الفارقة لكل شركة، وتطبيقها ضمن هذه البيئة لتحقيق التواجد المثالي، على سبيل المثال شركة DDB، Omnicom، PHD، TBWA. نذكر مثلاً تصميم غلاف لوكالة نيسان في لبنان على صفحة فايس بوك الخاصة بهم، مُصمّم من قِبَل وكالة الإعلانات في لبنان TBWA في عام 2021. تجدر الإشارة إلى أن هذا الغلاف يتميّز بخصائص مدرسة الآرت نوفو - Art Nou- veau التي ظهرت في أوروبا منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، أمّا المصمّم

(1) John Park: 6 design principle of Effective Facebook Ads, Ad Hawk Blog, June 2,2017.

فيستمتع بمميّزات أسلوب الحركة الأساسية في بساطة خطوطها الانسيابية، كقولبة نحتية للشكل، وبنائه بإحساس فطري يُناسب وظيفة العلامة التجارية. بيد أن الجِدال الأساسي بين التّصميم والتّطبيق لهذه العلامة التجارية على فايس بوك أتى على الشكل التالي: التّصميم جاء بأسلوب التعبير الصادق لذات المصمّم الذي خطّط له طريقاً، اتجاهاً، ونمطاً لحركة فنيّة معيّنة (أرت نوفو). قد يكون من الناحية التّطبيقية متبايناً في قدرته الاتصالية المرئية على موقع فايس بوك كغلاف للصفحة، وقدرته التّأثيرية على زوّار الموقع كمستجيبين لشعار الشركة أساساً ولفكرة العلامة التجارية ثانياً. فتصميم هذا الغلاف لا يحتمل التأويل، لأنّ «التأويل هو تحقيق الرؤية في الواقع الخارجي، أي واقع الحلم كجانب افتراضي في ذهن المصمّم، وهو في دائرة البحث والتفكير، فتأويل الحلم، بحسب بعض المدارس الغربية، هو بمواجهة الواقع في حال اليقظة، فهو يكشف الوعي واللاوعي»⁽¹⁾. فضلاً عن أن هناك توافقاً بين التّصميم والتّطبيق وإرادة العميل، أي صاحب وكالة نيسان بحسب متطلبات السوق والتداول، من هنا يكون الأسلوب محكوماً بتلك المحدّدات.



إنّ محصّلة عملية بناء التّصميم مرتبطة بالمصطلحات الآتية: الوظيفة، الوحدة،

(1) محمد علي حسين الحسني: أبستمولوجيا التأويل، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2016، ص136.

البنيّة، النظام والانسجام⁽¹⁾). قد يكون تصميم العلامة التجارية جميلاً شكلاً ومضموناً على صفحة الشركة، لكنّ هذا لا يعكس عملية الشراء للمنتج دون تطبيقها بشكل فعّال؛ كما ذكرنا سابقاً. وقد يكون التطبيق فعّالاً، فتحصد الصفحة العديد من المعجبين والمشاهدين والمشاركين والمعلّقين، ولكن يبقى السؤال الأساسي: هل تباع هذه الشركة منتجاتها عن بُعد أو عن طريق الإنترنت، أم فقط للدعاية والإعلان؟ نرى أنّ بعض زوّار المواقع الإلكترونية يلجؤون إلى المتاجر الإلكترونية للبحث والتدقيق وليس لغرض الشراء، فهي مسألة فكر وعقلية لبنانية كما «يرى مدير قسم القرطاسية في مكتبة مالك «وائل شمندي» بأنّ «اللبنانيين لا يتقنون بعملية الشراء عند استعمال البطاقات الائتمانية، إذ يقومون بزيارة الموقع لمشاهدة الكتب والخدمات، ثمّ يتصلّون لطلب السلعة، أو يأتون إلى المتجر لشراؤها مباشرة»⁽²⁾. نذكر على سبيل المثال منشوراً إعلانياً لكتاب الفلك للإعلامية ماغي فرح، مُصمّماً من قبل قسم التصميم والإعلان في مكتبة مالك، ومُتوقّراً على صفحة فايس بوك «Malik's Lebanon». في ضوء هذا النموذج، نستطيع التأكيد على عملية التطبيق التصميمية المُتبعة على موقع فايس بوك، بدءاً بمرحلة الإنشاء البنائية، حيث اعتمد المصمّم أسلوب التحدّي والتفكير العميق لإيصال رسالة المعلن، دون اللجوء إلى الكتابة والعنونة على الإعلان نفسه، لقد وضع فقط شعار «مكتبة مالك» للتأكيد على عملية شراء هذا الكتاب من أي متجر، وهذا ما أدّى إلى رفع مستوى قيمة عمله التطبيقي على موقع فايس بوك. كما بنى تصميمه حسب استراتيجية الشبكة المحدّدة للإعلان، فتميّز بالبساطة والاختصار للعناصر التعبيرية. نرى أنّه استخدم عنصراً واحداً فقط، وهو «كتاب ماغي فرح» للتركيز على العملية الشرائية دون تشتيت فكر المشاهد. أمّا الهاش تاغ فكان وضعها ضرورياً لتسهيل عملية الشراء.

(1) عبدالله العنبر: النص الأدبي بين التناص والتماسك النصي، مكتبة الدراسات- العلوم الإنسانية والاجتماعي، مجلّد 46، عدد 4، الأردن، 2019، ص 131.

(2) مايا سماحة: التسويق الإلكتروني حين يتغيّر السلوك الاستهلاكي، جريدة الأخبار الإلكترونية، 28-آب-2018.



ويؤكّد مدير شركة عرابي للورود - يُدعى شادي عرابي - أنّه أثر التّسويق الإلكترونيّ إيجابًا على المبيع، إذ تمكّن من كسب حوالي 650 زائرًا جديدًا للموقع، وسهّل عملية تحويل الأموال من خارج البلاد، ويُلفت النظر أيضًا إلى كلفة الموقع وتصميم العلامة التجارية قد تتعدّى أجرة محلّ عادي، ولكنها فعّالة وذات قيمة بصرية لزوّار الموقع ⁽¹⁾. مع العلم أنّها أقلّ كلفة من الإعلانات التقليدية من حيث الطباعة وأجرة الموقع. لقد أثبت تصميم الجرافيك أنّ، هـ «أداة استراتيجيه وأداة اتصال مرئية» في المناخ الاقتصادي الإلكترونيّ مؤخرًا، وهذا ما عزّز الطلب المتزايد على محترفي وسائل التّواصل الاجتماعيّ للعمل في قسم التّصميم والإعلان ضمن الوكالات الإعلانية.

يتمّ النظر إلى العملية التّصميمية من خلال ثلاثة مستويات مختلفة داخل الشركة الواحدة: الاستراتيجية، التكتيكية، والتشغيلية، ويمكن أن نحول الطريقة التي تتطوّر فيها المنتجات، والخدمات، والمبيعات... إذا لجأنا إلى استراتيجية مصمّم الجرافيك في التفكير ⁽²⁾. هناك نوعان مختلفان من الاستراتيجيات الموجودة في السوق حاليًا: المنتجون ذوو التكلفة المنخفضة، وأولئك الذين يستخدمون التّصميم كوسيلة للتمييز بين عرضهم، لإضافة معنى وقيمة للمتسوّقين والمستهلكين والباعه. لا ننسى أيضًا الشركات التي تستخدم التّصميم للتمييز بين عرضهم لإضافة معنى وقيمة، ومن ثمّ

(1) مايا سماحة: التسويق الإلكترونيّ حين يتغيّر السلوك الاستهلاكي، جريدة الأخبار الإلكترونية، 28-آب-2018.

(2) (Tim Brown: **Design Thinking**, Harvard business school publishing, from the magazine June 2008, p 84-92,

إنتاج منتجاتها وخدماتها بتكاليف منخفضة.

نذكر منشور إعلان عربي للورود لعام 2019، بمناسبة عيد الأب، على صفحته الخاصة على موقع فايس بوك، مُصمّم من قبل Free lancer، مجهول الهوية. لجأ المصمم إلى استخدام أربعة مربّعات لكتابة النص المطلوب، حيث وضع العنوان الأساسي في أعلى الإعلان، وشعار الشركة في مكانه المناسب. بيد أنّ إضافة بعض التراكيب البصرية، التي شكّلت نوعاً من العلاقة بين الموضوع الرئيسي (ورود عربي) والموضوع الثانوي (عيد الأب)، هو أسلوب المصمم؛ وهذا ما يمكن أن يكون ضمن التنظيم الذاتي. إنه يُعتبر «اكتفاء البنية بالعناصر الفنية التي تُثير مفهوم الإعلان، وتمتاز هذه العلاقات بين الموضوعين بالوحدة المطلوبة، عندما يكون كلّ عنصر في التصميم ضرورياً» (1). إنّ أسلوب المصمّم، وتطبيقه لهذا العمل على موقع فايس بوك، يُشكّل - بالتأكيد - تجربة جديدة تحول ضمن العملية التطبيقية الإلكترونية على وسائل التّواصل الاجتماعيّ.



لقد وضعت عدّة تصنيفات، لها دور في اختبار مخرّطة المصمم: الوعي، الانتباه،

(1) علاء الدين الإمام: بُنية الشكل الجمالي في التصميم الداخلي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2015، ص62.

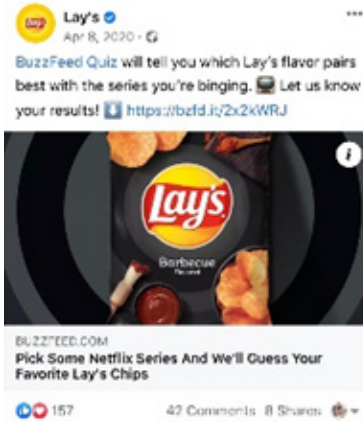
التفكير، الإدراك الحسي، المشاعر، الذاكرة والتجريد⁽¹⁾). تعتقد الباحثة أن إضافة معيار آخر وهو «التطبيق» كحاجة ملحة ضمن إطار التجربة الإلكترونية للولوج بتصميم يُعزى إلى تلك الطفرة التكنولوجية والتسويق الرقمي. يُمكن للمصممين العمل على إيجاد حلول لمشاكل التصميم الإلكترونية، اعتمادًا على معايير مختلة المصمم، وتطبيقها على مواقع وسائل التواصل الاجتماعي؛ كتصميم صفحة «جينة بيهار Bihar Cheese» من قبل وكالة الإعلان Omnicom عام 2020، بكل جوانبها من البداية وصولًا إلى إعلانات المؤسسة وتوابعها. نستطيع من خلال هذا النموذج الخاص بشركة بيهار التعليل عليه، فلا وجود لشكل دون مضمون، لأن الشكل يُعطي تعبيرًا شكليًا للمضمون (المحتوى)، ومن هنا يكون للنقد حكمٌ في عملية التأويل⁽²⁾. فضلًا عن قوّة إثبات الوجود على الموقع الذي فرضه محترف وسائل التواصل الاجتماعيّ بأسلوبه الخاص، وتطبيقه التصميم بحذافيره ضمن معايير خاصة، تُضفي جمالية وإبداعًا في تصميم الصفحة بشكلها العام، من خلال التصميم والتطبيق والتنفيذ لجميع جوانب العملية التسويقية الإلكترونية. إذ نستطيع أن نُحدّد أسلوبًا ذاتيًا في التطبيق والتنفيذ، من خلال نجاح الصفحة، والوصول إلى الهدف الأساسي، وهو الوصول إلى المزيد من الزوّار، وجذب المزيد من زوّار الصفحة 1.3K.

إنّ عمليات التصميم، كأداة تكتيك داخل المؤسسة، قادرة على توحيد جبهات الأعمال المختلفة، ومع ذلك، فإنّ تعزيزها يتطلب فهم سبب أهمية حصول العملاء والعلامات التجارية على المستوى التشغيلي والتطبيقي في التصميم. لا شك أنّ الفكرة النابعة من ذات المصمم هي فكرة قابلة للتطبيق في واقع الحال، إن كان مطبوعًا أم رقميًا، ولكن تختلف هنا حالة التطبيق المعتمدة على أسلوب جديد يُحاكي الواقع، بمنطلقات خارجة عن النمطية والاستهلاك البصري الذي اختلط فيه الحابل بالنابل، وكان نقطة تفاوت بين عالم الطباعة والعالم الرقمي للإعلانات، فوصل إلى مرحلة القبول والرضا من قبل البعض، والرفض عند البعض الآخر. لقد منح تطبيق تصميم العلامة التجارية، على مواقع وسائل التواصل الاجتماعيّ، أفكارًا وقيمًا جمالية وتعبيرية ووظيفية، ممّا ارتبط بالخبرة التي تصل إلى ما يمكن الاصطلاح عليها بالخبرة الذاتية الناتجة عن

(1) ياسر شعبان: الأحلام، أسرار النوم، كنوز للنشر والتوزيع، مصر، 2014، ص 17.

(2) Eric Newton: *The Meaning of Beauty*, Penguin Books, Cox and Wyman LTD, London 3rd Edition, 1967, P192.

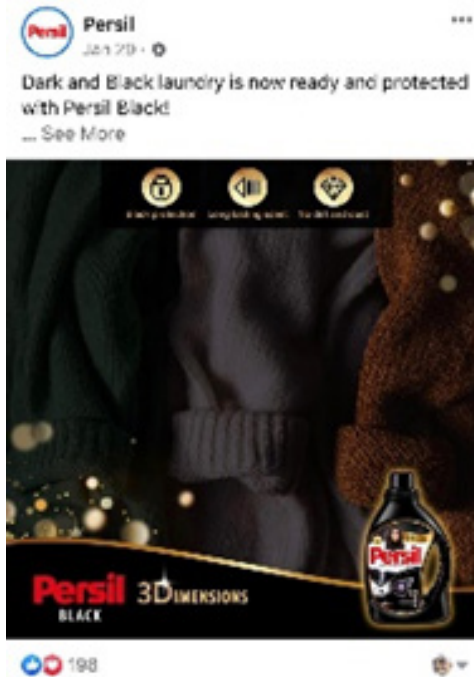
الانفعال والاندماج بالتسويق الرقمي، إذ يسلك الانفعال طريقًا للتأكيد على دور الخبرة الذاتية للمصمم، لتصميم يتسم بالجدة والحداثة الرقمية Digimodernism، التي تكلم عنها الناقد آلان كيربي 1953 Alan Kirby⁽¹⁾. يتضح لنا أن المصمم هو المسؤول عن بناء تصميمه من خلال التعاليق بين التصميم والتطبيق، عن طريق إيجاد ملامح تعبيرية وذاتية نحو أسلوب جديد، فالتعبير هو جوهر العملية الإبداعية، بعد تأثره بالمحيط وبخبراته الذاتية (الأكاديمية والتجريبية)، ومن ثم إعادة تنظيم هذا الكم الهائل من المعطيات على وفق معدّلات جديدة⁽²⁾. فالمصمم يبقى مصمم غرافيك في كلا الحالين (التصميم والتطبيق)، لأنّ هذا عمله الأساسي من ناحية الأداء للعمل التصميمي، أمّا إذا استلم تشغيل صفحة المؤسسة بكاملها فيعتبر مُحترف وسائل التواصل الاجتماعي. إذًا، يحتاج تشغيل هذه الصفحات إلى خبرة واسعة في عالم التسويق الإلكتروني، وليس فقط التصميم الشكلي للعلامة التجارية وتطبيقها. نرى أن الفن المعاصر الذي يقوم على التعددية الثقافية multiculturalism، واستخدام عمليات وأساليب وتقنيات وقوالب جديدة في العمل الفني قائمة على ثبات الفنون وتبادلية الفروع الفنية pluri-multi disciplinarisme في عالم الفن، وقد ساهمت بتطور مصمم الغرافيك، ودفعه للاطلاع على العديد



(1) Alan Kirby: Digimodernism, How New Technologies Dismantle The Postmodern and Reconfigure Our Culture, New York, Continuum Books, 2009, P5.

(2) إياد حسين عبدالله: فن التصميم في الفلسفة والنظرية والتطبيق، دائرة الثقافة والإعلان، الطبعة الأولى، الشارقة، 2008، ص62.

من الاختصاصات التي تتناسب مع اختصاصه. هكذا أصبح المصمم يقوم على «التعددية الثقافية»، وأصبحت الفكرة للعمل الفني هي الأساس، وانتقلت الأهمية من «الشكل» إلى «المضمون» ثم إلى «المفهوم» على التوالي. لذلك يلجأ العديد من المؤسسات الضخمة كشركة البطاطا لايز تشيبس (Lays Chips) إلى تسليم إنشاء إعلانات مُنتجاتهم إلى وكالة إعلانية؛ كشركة Omnicom للدعاية والإعلان، فهي تهتم بدورها بالصفحة على الموقع من الألف إلى الياء. هكذا تقوم وكالة الإعلان بتشغيل الصفحة بين التصميم والتطبيق، والتشغيل من خلال تسليمها إلى قسم وسائل التّواصل الاجتماعيّ للاهتمام بحذافيرها، لتخرج العلامة التجارية بمصداقيتها إلى زوّار الموقع، ولتبقى محافظة على قيمتها الإعلامية وهويتها البصرية.



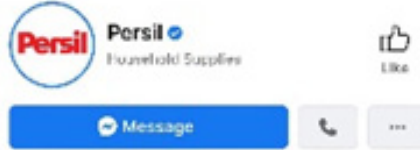
تحوّل السوق، في أواخر القرن العشرين، من الخدمة الاقتصادية الى التجربة الاقتصادية، أو كما يصفها معهد نومورا للبحوث الاقتصادية Nomura Research Institute⁽¹⁾ بأنها «عصر الإبداع». تعتبر صفحات الشركات العالمية أنّ مواقع

(1) معهد نومورا للبحوث الاقتصادية Nomura Research Institute: أكبر شركة أبحاث واستشارات اقتصادية في اليابان.

وسائل التّواصل الاجتماعيّ هي سوقها العالمي المفترض، وخاصةً عولمة العلامة التجارية تبعاً لاتجاهات السوق الحالية. على سبيل المثال شركة Percil التي تهتم بصورة علامتها التجارية في لبنان شركة DDB للدعاية والإعلان. تخضع إعلانات شركة برسيل إلى نوع جديد من التّجربة الاقتصادية، مثلها مثل باقي العلامات التجارية، وهذا ما يؤثر على سوقها العالمي. تسعى شركة برسيل إلى المحافظة على علامتها التجارية، بالرغم من التّجربة الاقتصادية الجديدة التي تخوضها، مع العلم أنّ صفحتها على مواقع وسائل التّواصل الاجتماعيّ هي جزء من هويتها البصرية ذات التّجربة الحديثة. ويعتبر عدد المعجبين والمشاركين على الصفحة من صفات الولاء لهذه الشركة، ويعود للإدراك الحسيّ للتجربة التي يمرّ بها المستهلك مع العلامة التجارية، وردّة فعله تجاه الاسم والمنتج والخدمة. فلا يشكّل الأسلوب حضوره الفاعل إلّا من خلال زوّار الموقع، الذين أصبحوا ركنًا فاعلاً وأساسياً في أسلوبية المدارس الفنيّة. بل إن هذه الأسلوبية، ولا سيّما أسلوبية التلقي، لها أهمية كبيرة من حيث صلتها الوثيقة بعملية الاتصال والتأثير. يبدو أن معظم المناقشات المتعلّقة بالتصميم الحديث تبدأ من النهاية كمحصلة للتجربة، على سبيل المثال الخوض في تطبيق العملية التصميمية للعلامة التجارية على مواقع التّواصل الاجتماعيّ، بعد أن كانت هذه العلامة التجارية معروفة ومشهورة عن طريق الإعلانات التقليدية والتصاميم القديمة، وينعكس بدوره على المنفعة والوظيفة حتى في تطوره التكنولوجي، كاختياره لبعض الكلمات والعناصر التعبيرية المحدّدة⁽¹⁾. هذا ما يُعطي للتصميم قيمة تداولية عالية بين التصميم والتّطبيق للعلامة التجارية. إذًا، يقوم المصمم بتكوين فكرة جميلة عن العلامة التجارية تابعة لمصادقيتها وجودتها وأسلوبها، وذلك من خلال تشكيل التطورات التكنولوجية التي أحدثت ثورة في تطوّر التصميم.

تُعتبر وسائل التّواصل الاجتماعيّ السوق المفترض المحلّي للعلامات التجارية، حيث تديرها وكالات الإعلانات اللبنانية، باعتبارها المسؤولة عن هذا السياق التّسويقي الحديث. وقد لوحظ في الآونة الأخيرة انخفاض الطلب على اللوحات الإعلانية، وتزايد الطلب عليها إلكترونيًا، ممّا أدى إلى توسيع دائرة قسم التّسويق والإعلان الإلكتروني، والطلب المتزايد على عمل المصمّم، ومحترف وسائل التّواصل الاجتماعيّ.

(1) Frank Laurence Lucas: style, Pan books Ltd, London 2nd edition, 1964, P37.



إنّ العلامات التجارية تحتاج إلى مطابقة هذه التغييرات من خلال تطوير واجهات العملاء التجريبية، وستدرج في أبعاد العلامة التجارية الخمسة: تعريف (Identi- fy)، إعلام (Inform)، تصوّر (Imagine)، غمر (Immerse)، وخدع (Intrigue) عنها. لقد تمكّن المسوّقون بهذه الأبعاد من السيطرة على العلامات التجارية، عبر عرض السلع والخدمات باستخدام هذه الاستراتيجية. إنهم بحاجة فقط إلى خلق تآزر عبر الوسائل التّسويقية التقليدية والحديثة، بدلاً من البقاء في استخدام الوسائل القديمة البحتة.

Lipton Ice Tea Lebanon
Mar 18, 2020

Mention a friend and if they don't answer within 5 minutes they owe you some Shawarma and Lipton Ice Tea!



1.7K 9 Comments 3 Shares

يُعدّ موقع فايس بوك من الشركات الأولى التي برزت فعاليتها، إن كان من خلال تفاعل العالم مع بعضها البعض، أم من خلال التسويق والتجارة، وبخاصة تركيزه على تجربة المستهلك لكونها «ثقافة التقارب (Convergence Culture)»، فإنها تمتلك الآن قدرة إدارية أفضل لما يدور حولها من أمور مستحدثة للواقع التسويقي، يُمكنها من تقييم ومراجعة ومشاركة المعلومات المتعلقة بالعلامة التجارية، والمنتجات، والخدمات. على سبيل المثال، تفاعل الزبائن مع إعلان شاي ليبتون المُتّج لعام 2020، المُصمّم من قبل وكالة DDB للدعاية والإعلان، يُشكّل أنموذجاً لإعلان ناجح، والحفاظ على مصداقية العلامة التجارية. نرى من خلال عرض هذا الإعلان قوّة الإدراك الحسي لدى المتلقي، من خلال التفاعل الواضح معه الذي وصل إلى حدود 1.7k. ففي تجربة التصميم نرى الأفكار المبدعة التي خضعت لمتغيرات تجريبية، توضح مدى قدرة المصمم على السيطرة والمرونة بين الفكرة وتحولاتها على أرض الواقع، وإعادة صياغة الفكرة وتحقيق الموضوع من جهة أخرى، وفي تجربة التطبيق نرى التنفيذ والتقنية والتشغيل المُتقن لعملية التطبيق التصميمية. ترتبط التجربة بذات المصمم من خلال علاقته بالتطورات المستحدثة، ويرى آلان باديو Alain Badiou بأنّ الذات ترتبط بالجوانب الإدراكية مع العالم المحيط⁽¹⁾.

تختلف التفاعلات حالياً بين الشركات والمصممين تماماً عن العشر سنوات الماضية، لقد تغيرت الديناميكية كلّها، وأصبح المصممون يميلون للقواعد أكثر، ويأخذون بعين الاعتبار التجربة الفنيّة في مدارس الحداثة. كما وأنهم «يؤثرون على رسائل العلامة التجارية والمعنى، وتؤخذ بعين الاعتبار آراؤهم عند التفكير في أي منتج أو خدمة⁽²⁾». لذلك فإنّ الجيل الرأسمالي الجديد من المصممين هو الناشئ، ومهمته ممارسة التصميم بكلّ جوانبه، بدءاً بالفكرة وانتهاءً بالتشغيل أو التنفيذ؛ ولم يُعدّ التصميم يُعتبر «القيمة المضافة» للأشياء، بل أصبح الركن الأساسي لبناء القيمة الأساسية على سبيل المثال، «تخطيط» و«تشكيل واجهات رقمية لألعاب الكمبيوتر»، أو «إنشاء صورة عن هوية البلد»⁽³⁾. يُعدّ المصمّم حالياً هو المثال الأعلى لمحور الإنسان في حلّ المشاكل التصميمية الحديثة، بغض النظر عن نوعها وموقعها وغايتها، حتى

(1) نصير فليح: آلان باديو Alan Badio، عدنان للنشر والتوزيع، بغداد، 2019، ص 26.

(2) Richard Hanna, Andrew Rohm, Victoria L. Crittenden, *we're all connected: The Power of the Social Media Ecosystem*, Business Horizons, 2011, P 54.

(3) Guy Julier: *The Culture of Design*, Los Angeles, Sage Publications, 2008. P 62.

لو كانت الغاية التّطبيق على سطح القمر، والتي تساعده في حياته ليصبح مصمّمًا عالميًا...

لقد ساهمت شركة فايس بوك بفتح آفاق واسعة لعمل المصمّم عليها، وتوظيف أعماله الشخصية في خدمتها وخدمة عملائها، كما خدمته بموضوع الشهرة. وعبرت التجربة الحديثة في التّصميم عن القدرة الكبيرة لدى المصمم على الخوض في معارك جديدة، مستحدثة ومواكبته للتطورات التقنية في عالم التّصميم. لقد تغيّرت نظرة المستهلك تجاه السوق، وتغيّرت معه نظرة المتلقي تجاه التّصميم، فخضعت الجهتان إلى التجربة الاقتصادية التي يمزّ بها العالم في هذا الزمن. نرى أن المصمّم هو المحور الرئيسي لعملية التّطبيق على وسائل التّواصل الاجتماعيّ من جهة، ونرى أن المتلقي (المستهلك) هو المحور الرئيسي لعملية التّسويق من جهة أخرى. بين هذا وذاك لجأ المصمّم إلى تبادليّة الفروع الفنية، والخوض في عدد من الاختصاصات لممارسة عمله بشكل مُتقن أكثر، والقيام بتشغيل صفحة وسائل التّواصل الاجتماعيّ. وقد أدّى ذلك إلى تطوره الشخصي، وإثبات وجوده الفني، وإثبات ضرورة وجود الفنّ في حياتنا اليومية.

نتائج البحث:

لقد أجرت الباحثة دراسة استطلاعية على عيّنة من المصمّمين الجغرافيين في لبنان، لمعرفة واقع المصمّم بين التّصميم والتّطبيق على فايس بوك (جداول في آخر البحث)، فظهرت نتيجة الفرضية الرئيسية على الشكل التالي:

1. تبيّن من خلال أجوبة المصمّمين على السؤال رقم 4 حول «اتباع المصمّم معايير تصميمية خاصة بشركة فايس بوك»، أنّه من أصل 45 مصمّمًا جاوبوا على الشكل التالي: موافق 33، وموافق جدًّا 7، فهذا يعني أنّ الموافقين عددهم 40، غير متأكد 2، غير موافق 1، ومحايد 2 فجمعهم يكون 5 أفراد فقط. فتظهر النتيجة إيجابية أي بنسبة 88.9 % جمع الموافقين.

2. وينفّر منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أن تطبيق تصميم إعلان لفايسبوك أسرع من تطبيقات وسائل الأنترنيت الأخرى. تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 6: «إنجاز تصميم إعلان الفايسبوك بوقت أسرع»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمّمًا، موافق 26، وموافق جدًّا 6، فهذا يعني أنّ 32 منهم موافقين فقط، أما غير موافق 7، غير متأكد 3، محايد 3،

فجمعهم 13 مصممًا. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 71.1%.

ظهرت الفرضيات الفرعية على الشكل التالي:

الفرضية الأولى: هل أثر فايس بوك على تطوّر التصميم؟

1. عدم موافقة أغلبية أفراد العينة على أنّ هناك أثرًا للفايس بوك على تطوّر التصميم. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 2 « تطوّر أعمال التصميمية يعود إلى تطور وسائل التواصل الاجتماعي (فايس بوك تحديدًا)، ف جاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصممًا، موافق 18، وموافق جدًا 3، فهذا يعني أنّ 21 منهم موافقين، غير موافق 14، محايد 7، وغير متأكد 3؛ فجمعهم 24 مصممًا. لقد تراوحت الأعداد فيما بينهم، وظهرت النسبة المئوية بنتيجة 46.7 % جمع الموافقين، أي أقلّ من النصف، فهذا يدلّ على أنه ليس هناك أثر للفايس بوك على تطوّر التصميم.

2. يتفرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العينة على أن مشاركة المصممين لخبراتهم على فايس بوك طوّرت من مهارتهم وإبداعهم. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 3: أعتقد أن مشاركة المصممين لخبراتهم عبر صفحة فايس بوك كان لها تأثير على تطوّر مهارة المصمم وإبداعه»، ف جاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصممًا، موافق 27، وموافق جدًا 6، فهذا يعني أنّ 33 منهم موافقين فقط، غير موافق 4، غير متأكد 4، محايد 4، فجمعهم 12 مصممًا. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 73.3%.

الفرضية الثانية: هل أثر فايس بوك على مستوى الفكر الإبداعي عند المصمم؟

1. عدم موافقة أغلبية أفراد العينة على أن التعديلات التي يقوم بها فايس بوك تساهم في تطور إبداع المصمم. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 11: التعديلات والمستجدات التي يقوم بها فايس بوك من فترة لفترة تساهم بتطوير إبداع المصمم»، ف جاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصممًا، موافق 17، وموافق جدًا 2، ما يعني أنّ 19 منهم موافقين فقط، غير موافق 6، غير متأكد 10، محايد 10، فجمعهم 26 مصممًا. لقد تراوحت الأعداد فيما بينهم، وكانت نتيجة جمع الموافقين بنسبة 42.2% بحيث لم تؤكد النتيجة المتوخّاة.

2. يتفرّع منها فرضية أخرى: عدم موافقة أغلبية أفراد العينة على أنّ فايس بوك

وسيلة علمية لتطوير مستوى الفكر الإبداعي عند المصمم. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 12: «أعتبر موقع فايس بوك منهجًا وسيلة علمية مفاهيمية حديثة لتطوير مستوى الفكر الإبداعي عند المصمم»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 19، وموافق جدًا 2، فهذا يعني أن 21 منهم موافقين فقط، غير موافق 11، غير متأكد 2، محايد 11، فجمعهم 24 مصممًا. فتظهر النتيجة سلبية من حيث جمع الموافقين بنسبة 46.6%.

الفرضية الثالثة: هل ساهم فايس بوك في تطور عمل المصمم المهني؟

1. موافقة أغلبية أفراد العينة على أن المصمم يحب امتلاك صفحة فايس بوك خاصة به. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 1: «أحب امتلاك صفحة فايس بوك خاصة لأعمالي التجارية وأموري الشخصية»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 22، وموافق جدًا 12، فهذا يعني أن 34 منهم موافقين فقط، غير موافق 4، غير متأكد 1، محايد 6، جمعهم 11 فردًا. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 75.6%.

2. يتفرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العينة على أن فايس بوك ساهم في عرض تصاميمه. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 7: الفاييس بوك Facebook يُعدّ صالة افتراضية للمصمم الجرافيكي لعرض تصميماته»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 29، وموافق جدًا 12، فهذا يعني أن 41 منهم موافقين فقط، غير موافق 1، غير متأكد 1، محايد 2، فجمعهم 4 أفراد. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 91.9%.

3. يتفرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العينة على أن الفاييس بوك سهّل التّواصل بين المصمم والعميل. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 5 «سهولة التّواصل مع العملاء على الفاييس بوك Facebook في أي وقت وزمان وموقع جغرافي». فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما موافق 31، وموافق جدًا 6، فهذا يعني أن 37 منهم موافقين، غير موافق 4، ومحايد 4 فجمعهم 8. لقد تبين أن النتيجة إيجابية بنسبة 82.2% جمع الموافقين.

4. يتفرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العينة على أن فايس بوك ساهم في تواصل الفنانين مع بعضهم. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 8: ساهم الفاييس بوك Facebook بتواصل الفنانين والمصممين لمناقشة أعمالهم»، فجاء الجواب

- على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 28، وموافق جدًا 9، فهذا يعني أنّ 37 منهم موافقين فقط، غير موافق 1، غير متأكد 1، محايد 6، فجمعهم 8 أفراد. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 82.2%.
5. يتقرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أن فايس بوك يُسهّل تبادل الأفكار والآراء فيما بينهم. تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 10: «تبادل الآراء والأفكار من خلال الفاييسبوك Facebook مع بعض المصممين»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 25، وموافق جدًا 5، فهذا يعني أنّ 30 منهم موافقين فقط، غير موافق 8، غير، محايد 7، فجمعهم 15 فردا. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 66.7%.
6. يتقرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أنّ فايس بوك زاد من شهرة المصمم. تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 9: «الفايسبوك Facebook زاد من شهرة الفنان بشكل عام والمصمم الغرافيكي بشكل خاص»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 25، وموافق جدًا 9، فهذا يعني أنّ 34 منهم موافقين فقط، غير موافق 3، غير متأكد 13، محايد 5، فجمعهم 11 فردا. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 75.6%.
7. يتقرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أنّ المصمم لديه فرص عمل على فايس بوك. تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 14: «أرى المصمم الغرافيكي لديه فرص عمل بكثرة على صفحة الفاييسبوك Facebook». فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 21، وموافق جدًا 12، فهذا يعني أنّ 33 منهم موافقين فقط، غير موافق 5، غير متأكد 3، محايد 4، فجمعهم 12 فردا. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 73.4%.
8. يتقرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أنّ فايس بوك أثر على هواة التصميم. تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 17: «أثر الفاييسبوك Facebook على الهواة بتعلم مهنة التصميم». فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 21، وموافق جدًا 8، فهذا يعني أنّ 29 منهم موافقين فقط، غير موافق 9، غير متأكد 3، محايد 4، فجمعهم 16 فردا. فتظهر النتيجة

إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 64.5%.

9. يتفرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أنّ فايس بوك له دور فعّال في زيادة الطلب على المصمم. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 16: الفاييسبوك Facebook، له دور فعال في تنشيط عملية توظيف عدد كبير من المصممين في لبنان»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 18، وموافق جدًا 12، فهذا يعني أنّ 30 منهم موافقين فقط، غير موافق 5، غير متأكد 6، محايد 4، فجمعهم 15 فردا. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 66.7%.

تبين أيضًا من خلال السؤال رقم 2 من أسئلة الاقتراح، «أي سنة ازداد الطلب على عمل المصمم على فايس بوك؟». فكان الجواب على الشكل التالي: 17 فردًا جاوبوا عام 2016، و16 فردًا عام 2017، والباقي توزّعوا على السنوات المذكورة أعلاه، لذلك فالنتيجة وضّحت أنّه قد ازداد الطلب على عمل المصمم مؤخرًا لتصميم صفحات الشركات التجارية على فايس بوك ما بين عامي 2016-2017.

الفرضية الرابعة: هل يُعتبر موقع فايس بوك الموقع المميز عند المصمّم؟

1. موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أنّ فايس بوك له خاصية مميزة عند المصمم. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 18: الفاييسبوك Facebook له خاصية مميزة عند المصمم»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 20، وموافق جدًا 3، فهذا يعني أنّ 23 منهم موافقين، غير موافق 4، غير متأكد 8، محايد 10، فجمعهم 22 فردا. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 51.5% بفارق نقطة واحدة فقط.

2. يتفرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أنّ المصمم يحبّ العمل التّسويقي على فايس بوك. تبين ذلك من خلال السؤال رقم 19: أحبّ العمل التّسويقي كمصمم غرافيكي على الفاييسبوك Facebook»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 27، وموافق جدًا 2، فهذا يعني أنّ 29 منهم موافقين، غير متأكد 1، غير موافق 4، محايد 11، جميعهم 16 فردًا. ظهرت النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 64.4%.

الفرضية الخامسة: هل فايس بوك له دور فعال في عملية التّسويق؟

1. موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أنّ فايس بوك له دور فعّال في عملية التّسويق.

تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 20: **أعتقد أنّ الفايسبوك Facebook له دور فعال للتسويق في لبنان**»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمماً، موافق 30، وموافق جداً 11، فهذا يعني أنّ 41 منهم موافقين، غير متأكد 4 أفراد فقط. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة **91.1%**.

2. يتفرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أنّ الإعلان مؤثر على فايس بوك. تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 21: **أعتقد بأن الإعلان مؤثر عبر الفايسبوك Facebook بشكل كبير**»، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمماً، موافق 30، وموافق جداً 10، فهذا يعني أنّ 40 منهم موافقين، غير متأكد 2، غير موافق 2، محايد 1، جميعهم 5 أفراد. ظهرت النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة **88.9%**.

3. يتفرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أنّ استخدام الشركات لفايس بوك يتزايد. تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 13 **«ازدياد عدد الشركات المستخدمة لصفحة الفايسبوك Facebook التسويقية»**. فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمماً، موافق 25، وموافق جداً 16، فهذا يعني أنّ 41 منهم موافقين، غير متأكد 2، ومحايد 2، فجميعهم 4 أفراد فقط. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة **91.2%**.

الفرضية السادسة: هل نستطيع أن نستغني عن فايس بوك تسويقياً؟

1. موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أنه لا يمكننا الاستغناء عن الفايس بوك. تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 23 **«أعتقد أنه لا يمكنني الاستغناء عن صفحة الفايسبوك Facebook التسويقية بعد الآن**. فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمماً، موافق 19، وموافق جداً 8، فهذا يعني أنّ 27 منهم موافقين، غير موافق 6، وغير متأكد 6، ومحايد 6 فجمعهم 18. لقد تراوحت النسب ولكن تبيّن أنّ النتيجة إيجابية بنسبة **60% جمع الموافقين**.

2. يتفرّع منها فرضية أخرى: موافقة أغلبية أفراد العيّنة على أننا لا نستطيع أن نستغني عن دور المصمم على فايس بوك. تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 15: **أعتقد أننا لا نستطيع أن نستغني عن المصمم الغرافيكي في الفايسبوك Facebook**، فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمماً، موافق

20، وموافق جدًا 19، فهذا يعني أن 39 منهم موافقين فقط، غير موافق 4، محايد 2، فجمعهم 6 أفراد. فتظهر النتيجة إيجابية من حيث جمع الموافقين بنسبة 86.6%.

الفرضية السابعة: هل موقع فايس بوك أكثر استخدامًا من إنستغرام تسويقيًا في لبنان؟

1. **عدم موافقة** أغلبية أفراد العينة على أن الفايس بوك أكثر استخدامًا من إنستغرام. تبيّن ذلك من خلال السؤال رقم 22 «أعتقد أن الفايسبوك Facebook أكثر استخدامًا من الإنستغرام للتسويق في لبنان». فجاء الجواب على الشكل التالي: من أصل 45 مصمما، موافق 15، وموافق جدًا 7، فهذا يعني أن 22 منهم موافقين، غير موافق 21، وغير متأكد 8، ومحايد 3 فجمعهم 31 فردًا. لقد تبيّن أن النتيجة سلبية بنسبة 48% جمع الموافقين.

2. تبيّن من خلال أجوبة أفراد العينة على السؤال المقترح رقم 1 « ما هي المواقع الأكثر أهمية للتسويق في لبنان؟» فكان الجواب على الشكل التالي: إنستغرام 21 فردًا، فايس بوك 22 فردًا، واتس 2 (فردان)، فظهرت النتيجة لصالح فايسبوك بنقطة واحدة، فهذا لا يؤكّد الفرضية.

مناقشة النتائج:

تهدف هذه المناقشة إلى التعرّف على واقع المصمم بين التصميم والتّطبيق على فايس بوك. تضمّنت النتائج وفق عينة من أفراد متخصصين في مجال التصميم، وأثبتت ما يلي:

1. أظهرت النتائج المتعلّقة بالفرضية الأساسية، أن المصمم يتبع معايير وأسس التصميم الخاصة بشركة فايس بوك أثناء تطبيقه العملية التصميمية، وأن المصمم يستطيع أن يُنجز إعلانا للفايس بوك بأقل وقت من غيره من وسائل الإنترنت المتعددة.

2. أظهرت النتائج المتعلّقة بالفرضية الفرعية الأولى، أنه لا يعود تطور أعمال المصمم لتطور وسائل التّواصل الاجتماعيّ أو شركة فايس بوك تحديدًا، ولكن مشاركة خبراتهم عبر شبكة فايس بوك قد ساهم في تطوّر مهاراتهم.

3. أظهرت النتائج المتعلّقة بالفرضية الفرعية الثانية، أن التعديلات التي يقوم بها فايس بوك من فترة لفترة لا تُساهم في تطوير إبداع المصمم، كما أنه تبيّن أن لا

علاقة لفائيس بوك بمستوى التطور الإبداعي عند المصمم.

4. أظهرت النتائج المتعلقة بالفرضية الفرعية الثالثة، بأن المصمم يُحبذ فتح صفحة خاصة لأعماله على فايس بوك، ويعتبرها صالة افتراضية لعرض تصميماته، كما يراها شبكة تواصل اجتماعية سهّلت عليه عملية التواصل مع العملاء، وتبادل الآراء والأفكار فيما بينهم في أي زمان ومكان جغرافي على الأرض. لقد ساهم فايس بوك بشكل إيجابي في تواصل المصممين مع بعضهم البعض، ومناقشة أعمالهم، ممّا حفّز الهواة إلى تعلّم مهنة التصميم، وجعل شبكة فايس بوك المركز الرئيسي للتواصل، فأصبحت فرصة عمل جديدة لهم، نرى أنّ شبكة فايس بوك لها دور فعّال في تنشيط عملية التوظيف لعدد كبير من المصممين في قسم وسائل التواصل الاجتماعيّ ضمن الوكالات الإعلانية. وكما أوضح الأغلبية بأنّه ازداد الطلب للعمل كمحترف وسائل التواصل الاجتماعيّ ما بين عامي 2016-2017.

5. أظهرت النتائج المتعلقة بالفرضية الفرعية الرابعة، بأنّ فايس بوك له خاصية مميزة عند المصمم، وأنه يستمتع بأعماله التسويقية عليه.

6. أظهرت النتائج المتعلقة بالفرضية الفرعية الخامسة، بأن يرى المصمم أن فايس بوك له دور فعّال في تنشيط عملية التسويق في لبنان، وبأن الإعلان عليه يؤثر بشكل كبير على العميل، كما يرى ارتفاع متزايد في عدد الشركات المستخدمة لشبكة فايس بوك، ممّا يؤكد دوره الفعّال في عملية التسويق.

7. أظهرت النتائج المتعلقة بالفرضية الفرعية السادسة، بأنه لا يمكننا الاستغناء عن فايس بوك من ناحية التسويق الإلكتروني، وفي المقابل لا نستطيع الاستغناء عن المصمم من ناحية التصميم والتّطبيق لإعلانات فايس بوك.

8. أظهرت النتائج المتعلقة بالفرضية الفرعية السابعة، بأن تطبيق إنستغرام أكثر استخداماً من شبكة فايس بوك تسويقياً، غير أنه ظهر - من خلال أجوبة الاقتراح - بأن فايس بوك أكثر استخداماً من إنستغرام في لبنان بفارق نقطة واحدة. هذا يعني ويؤكد أنه حين اشترت شبكة فايس بوك تطبيق إنستغرام عام 2012، وضّمته لشبكتها وطوّرتة تسويقياً، أصبح فعّالاً كمتاجر تسويقية افتراضية، مثله مثل فايس بوك، وأصبح لمحترف وسائل التواصل الاجتماعيّ الحقّ في فتح فروع للمتاجر، والتسويق عليهما في آن واحد.

ما زال يُدعى المصمم مُصمّمًا غرافيكيا، حتى لو قام بعملية تطبيق التّصميم على أساس المعايير والأسس الخاصة التي وضعتها شركة فايس بوك، ولكن يُصبح محترفًا وسائل التّواصل الاجتماعيّ في حال لجأ إلى التعدّدية في الاختصاصات، والتبادلية في الفروع الفنية، كأن يدرس اختصاصين مثل «تصميم غرافيك Graphic Design» و«تسويق رقمي Digital Marketing»، أو «تصميم غرافيك Graphic Design» و«إعلانات Advertising» فيقوم بتشغيل صفحة مؤسسة ما على فايس بوك من الألف إلى الياء بين التّصميم والتّطبيق والتنفيذ.

- أكدت الدراسة أنّ المصمم يقوم بعدة أدوار على مواقع التّواصل الاجتماعيّ، منها:
1. تصميم العلامة التجارية لكل شركة، بحسب أساسيات التّصميم التي وضعتها شركة فايس بوك.
 2. تحديد الاستراتيجيات.
 3. مشاركة العملاء ذوي الصلة الأفكار التّصميمية.
 4. القيام بتحليل منهجي للسوق من أجل فهم منافسي العملاء والمجموعات المستهدفة.
 5. تحليل الحملات الإعلانية وإعادة تركيزها.
 6. تحديد الإجراءات في الإطار الزمني، وضبطه عند الاقتضاء.

التوصيات:

- بناءً على ما سبق من نتائج توصي الدراسة بما يلي:
1. ضرورة استكمال هذه الدراسة، والقيام بعملية استطلاعية أخرى تضم أكبر عدد ممكن من الاختصاصيين في لبنان، على أمل الخروج بنتائج ذات دلالة إحصائية ضمن العملية الإحصائية على برنامج Statistical package for social science (SPSS)، واستخدام اختبار Alpha Cronpach لاختبار أداة جمع البيانات المستخدمة في قياس المتغيّرات.
 2. ضرورة التوسّع في الاختصاصات، أي تبادلية الفنون الفرعية كالتّصميم والتّسويق، أو التّصميم والتكنولوجيا، وغيرها من الاختصاصات، مما يُشكّل قفزة نوعية في عالم الفن وتطوره.
 3. ضرورة الاهتمام باختصاص التّصميم والتّسويق الإلكترونيّ أكاديميًا، من أجل رفع مستوى التّسويق الرقمي وإبداعاته.

جداول الاستبيان

المجموع	موافق جدا	موافق	محايد	غير موافق	غير متأكد		
45	12	22	6	4	1	التكرار	1 أحيّد امتلاك صفحة فإيسبوك خاصة لأعمالى التجارية وأمورى الشخصية.
% 100.0	% 26.7	% 48.9	% 13.3	% 8.9	% 2.2	النسبة %	
45	3	18	7	14	3	التكرار	2 تطور أعمالى التصميمية يعود إلى تطور مواقع التواصل الاجتماعى (الفأيسبوك) (Facebook).
% 100.0	% 6.7	% 40.0	% 15.6	% 31.1	% 6.7	النسبة %	
45	6	27	4	4	4	التكرار	3 أعتقد أن مشاركة المصممين لخبراتهم عبر صفحة الفأيسبوك Facebook كان لها تأثير على تطور مهارة المصمم وإبداعه.
% 100.0	% 13.3	% 60.0	% 8.9	% 8.9	% 8.9	النسبة %	
45	7	33	2	1	2	التكرار	4 اتباع المصمم معايير خاصة بالفأيسبوك عند تصميم الإعلان.
% 100.0	% 15.6	% 73.3	% 4.4	% 2.2	% 4.4	النسبة %	
45	6	31	4	4	0	التكرار	5 سهولة التواصل مع العملاء على الفأيسبوك - Face book فى أى وقت وزمان وموقع جغرافى.
% 100.0	% 13.3	% 68.9	% 8.9	% 8.9	% 0.0	النسبة %	

45	6	26	3	7	3	التكرار	6 إنجاز تصميم إعلان الفايسبوك في وقت أسرع.
% 100.0	% 13.3	% 57.8	% 6.7	% 15.6	% 6.7	النسبة %	7 الفايسبوك يُعد Facebook صالة افتراضية للمصمم الجرافيكي لعرض تصميماته.
45	12	29	2	1	1	التكرار	8 ساهم الفايسبوك في Facebook تواصل الفنانين والمصممين لمناقشة أعمالهم.
% 100.0	% 26.7	% 64.4	% 4.4	% 2.2	% 2.2	النسبة %	9 الفايسبوك Face- book زاد من شهرة الفنان بشكل عام، والمصمم الجرافيكي بشكل خاص.
45	9	28	6	1	1	التكرار	
% 100.0	% 20.0	% 62.2	% 13.3	% 2.2	% 2.2	النسبة %	
45	9	25	5	3	3	التكرار	
% 100.0	% 20.0	% 55.6	% 11.1	% 6.7	% 6.7	النسبة %	

45	5	25	7	8	0	التكرار	10 أ تبادل الآراء والأفكار من خلال الفايسبوك Facebook مع بعض المصممين.
% 100.0	% 11.1	% 55.6	% 15.6	% 17.8	% 0.0	النسبة %	
45	2	17	10	6	10	التكرار	11 التعديلات والمستجدات التي يقوم بها فايسبوك من فترة لفترة تساهم في تطوير إبداع المصمم.
% 100.0	% 4.4	% 37.8	% 22.2	% 13.3	% 22.2	النسبة %	

45	2	19	11	11	2	التكرار	12 أعتبر
% 100.0	% 4.4	% 42.2	% 24.4	% 24.4	% 4.4	النسبة %	موقع الفايسبوك Facebook منهجا ووسيلة علمية مفاهيمية حديثة لتطوير مستوى الفكر الإبداعي عند المصمم.
45	16	25	2	0	2	التكرار	13 ازدياد
% 100.0	% 35.6	% 55.6	% 4.4	% 0.0	% 4.4	النسبة %	عدد الشركات المستخدمة لصفحة الفايسبوك Facebook التسويقية.
45	12	21	4	5	3	التكرار	14 أرى
% 100.0	% 26.7	% 46.7	% 8.9	% 11.1	% 6.7	النسبة %	المصمم الغرافيكي لديه فرص عمل بكثرة على صفحة الفايسبوك Facebook.
45	19	20	2	4	0	التكرار	15 أعتقد أننا
% 100.0	% 42.2	% 44.4	% 4.4	% 8.9	% 0.0	النسبة %	لا نستطيع أن نستغني عن المصمم الغرافيكي في الفايسبوك Facebook.

45	12	18	4	5	6	التكرار	16 الفايسبوك ،Facebook له دور فعال في تنشيط عملية توظيف عدد كبير من المصممين في لبنان.
% 100.0	% 26.7	% 40.0	% 8.9	% 11.1	% 13.3	النسبة %	
45	8	21	4	9	3	التكرار	17 أثر الفايسبوك Facebook على الهواة بتعلم مهنة التصميم.
% 100.0	% 17.8	% 46.7	% 8.9	% 20.0	% 6.7	النسبة %	
45	3	20	10	4	8	التكرار	18 الفايسبوك له Facebook خاصية مميزة عند المصمم.
% 100.0	% 6.7	% 44.4	% 22.2	% 8.9	% 17.8	النسبة %	
45	2	27	11	4	1	التكرار	19 أحب العمل التسويقي كمصمم غرافيكي على الفايسبوك .Facebook
% 100.0	% 4.4	% 60.0	% 24.4	% 8.9	% 2.2	النسبة %	
45	11	30	0	0	4	التكرار	20 أعتقد أن الفايسبوك Facebook له دور فعال للتسويق في لبنان.
% 100.0	% 24.4	% 66.7	% 0.0	% 0.0	% 8.9	النسبة %	
45	10	30	1	2	2	التكرار	21 اعتقد أن الإعلان مؤثر عبر الفايسبوك Facebook بشكل كبير.
% 100.0	% 22.2	% 66.7	% 2.2	% 4.4	% 4.4	النسبة %	

45	7	15	3	12	8	22 أعتقد أن التكرار
						الفايسبوك
						Facebook
% 100.0	% 15.6	% 33.3	% 6.7	% 26.7	% 17.8	النسبة %
						أكثر استخداما
						من الإنستغرام
						للتسويق في
						لبنان.
45	8	19	6	6	6	23 أعتقد التكرار
						أنه لا يمكنني
						الاستغناء
						عن صفحة
% 100.0	% 17.8	% 42.2	% 13.3	% 13.3	% 13.3	النسبة %
						الفايسبوك
						Facebook
						التسويقية بعد
						الآن.

أسئلة اقتراحية

1- ما هي المواقع الأكثر أهمية للتسويق في لبنان

النسبة التراكمية %	النسبة بناء للذين جاوبوا على السؤال %	النسبة %	التكرار	
46.7	46.7	46.7	21	إنستغرام Instagram.
95.6	48.9	48.9	22	فايسبوك Facebook.
100.0	4.4	4.4	2	واتساب Whatsup.
	100.0	100.0	45	المجموع

2- في أي سنة ازداد الطلب على المصممّ الجرافيكي فعليًا لتصميم صفحة الفايسبوك Facebook للشركات وإدارتها؟

النسبة التراكمية %	النسبة بناء للذين أجابوا على السؤال %	النسبة %	التكرار	
2.2	2.2	2.2	1	2005
4.4	2.2	2.2	1	2009
6.7	2.2	2.2	1	2010
8.9	2.2	2.2	1	2014
46.7	37.8	37.8	17	2016
82.2	35.6	35.6	16	2017
100.0	17.8	17.8	8	2018
	100.0	100.0	45	المجموع

المراجع العربية:

1. الإمام، علاء الدين: **بنية الشكل الجمالي في التصميم الداخلي**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2015.
2. بن عامر الحجري، سلمان: **التصميم الجرافيكي بين المهنة والرسالة**، جامعة السلطان قابوس، كلية التربية، سلطنة عمان، 2014.
3. بن قبوس، مها أحمد: **عالم الفن الرقمي 2012-2009**، دار العلم للملايين، بيروت، 2013.
4. الحسني، محمد علي حسين: **أبستمولوجيا التأويل**، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2016.
5. فاحوري، عادل: **أفكر إذن: أنا كمبيوتر**، منشورات شركة المطبوعات، بيروت، 2010.
6. فليح، نصير: **آلان باديو Alan Badio**، عدنان للنشر والتوزيع، بغداد، 2019.
7. كارت، إكسباند: **التسويق الإلكتروني من البداية إلى الاحتراف**، موقع إكسباند كارت Ex-pand Cart، إلكترونية، 2013.
8. سكوت، روبرت جيلام: **أسس التصميم**، ترجمة محمد يوسف وآخرون، دار النهضة، مصر، 1968.
9. شعبان، ياسر: **الأحلام، أسرار النوم**، كنوز للنشر والتوزيع، مصر، 2014.
10. صادق، عباس مصطفى: **الإعلام الجديد: دراسة في مداخله النظرية وخصائصه العامة**، ط3، دار البوابة العربية لعلوم الإعلام والاتصال، 2011.
11. صُنْدُوك، نورهان: **التصميم التفاعلي في صفحة الويب ودوره في التسويق الإلكتروني**، منشورات جامعة دمشق، كلية الفنون الجميلة، سوريا، 2015.
12. عبدالله، إياد حسين: **فن التصميم في الفلسفة والنظرية والتطبيق**، دائرة الثقافة والإعلان، الطبعة الأولى، الشارقة، 2008.
13. العنبر، عبدالله: **النص الأدبي بين التناص والتماusk النصي**، مكتبة الدراسات - العلوم الإنسانية والاجتماعية، **مجلد 46**، عدد 4، الأردن، 2019.
14. غافن، أميروز، وبول، هاريس: **أساسيات التصميم الجرافيكي**، ترجمة القرعان، حسام درويش، ط1، جبل عمان ناشرون، 2015.
15. يازجي، أحمد: **تاريخ التصميم الجرافيكي**، منشورات جامعة دمشق، كلية الفنون الجميلة، سوريا، 2012.

المراجع الأجنبية:

1. Brown, Tim: **Design Thinking**, Harvard business school publishing, from the magazine June 2008.
2. Buchanan, Richard: **Wicked Problems in Design thinking**, Design Issues: Vol.8, No 2, P 5-21, The MIT Press, 1992.
3. Hanna, Richard, and Rohm, Andrew, and Crittenden, Victoria L., **we're all connected: The Power of the Social Media Ecosystem**, Business Horizons, 2011
4. Julier, Guy: **The Culture of Design**, Los Angeles, Sage Publications, 2008.

5. Kirby, Alan: **Digimodernism, How New Technologies Dismantle The Postmodern and Reconfigure Our Culture**, New York, Continuum Books, 2009.
6. Kolko, Jon: **Wicked Problems: Problems Worth Solving**, Austin Center for Design, Texas, 2012.
7. Lucas, Frank Laurence: **style**, Pan books Ltd, London 2nd edition, 1964.
8. McGillivry, Nick: **what are the effects of social media on youth?** 2nd Edition, America, 2015.
9. Neumeier, Marty: **The Brand gap: How To Bridge The Distance Between Buisness Strategy And Design**, Neutron LLC, Berkeley, 2003.
10. Newton, Eric: **The Meaning of Beauty**, Penguin Books, Cox and Wyman LTD, London 3rd Edition, 1967.
11. Park, John: **6 design principle of Effective Facebook Ads**, Ad Hawk Blog, June 2,2017.
12. Press, Mike and Cooper, Rachel: **The design Experience**, Gower Press, London, 2003.
13. Q Ta, Jenny: **What Impact Has social media Truly Had on Society**, 2nd edition, Canada, 2014.
14. Riese, Monica: **The definitive history of social media**, Graphic design degree Hub, UK essay, 2016.
15. Thorlacius, Lisbeth: **The Role of Aesthetics in Web Design**, Roskilde University, Department of communication, Business and information Technologies, 2007.

مواقع إلكترونية:

1. **Business Echoes**: هذه هي الشركات الأكثر إنفاقاً على الإعلانات في لبنان، مجلة إلكترونية، 2016-2-10.
2. مايا سماحة: **التسويق الإلكتروني حين يتغير السلوك الاستهلاكي**، جريدة الأخبار الإلكترونية، 28-آب-2018.
3. Wikipedia: **Design Strategy**, <https://ar.Wikipedia.org>, 2008.

واقع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الحجم في لبنان: الصناعات الغذائية لينا صوايا

المقدمة

عرف لبنان منذ الاستقلال وحتى اليوم فترات متلاحقة من الاحداث والتغيرات والمشاكل، التي كان تأثيرها سلبيًا على وضع البلد ككل، حيث نال الاقتصاد بمجمل قطاعاته حصةً من الإهمال والهدر والدمار، مما هددّ البلد واللبنانيين بخطر الخسارة والضّياع والتخلف عن مواكبة زمن الحداثة والتقدم السريع للتكنولوجيا، مما دفع بالكثير من الشباب للهجرة طلبًا للأمن والأمان والإستقرار الاجتماعيّ.

خسر لبنان خلال تلك الحقبات مئات الألوف من اليد العاملة الشابة من أصحاب المهن الحرة وذوي العقول المبدعة وطلاب العلم والمعرفة. فانعكست الظروف السياسية والإضطرابات الأمنية والخلافات الداخلية بطريقة مباشرة على البنى الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية، كما أدت هذه الظروف إلى تأخير العجلة التّموّية على الصّعد كافّة، وكان للحرب التأثير الكبير في تراجع دور المؤسسات الاقتصادية الصغيرة والمتوسطة في عمليّة الإنتاج.

لا يزال لبنان يتعرّض حتّى يومنا هذا إلى هزّات إجتماعيّة مع إندلاع ثورة 17 تشرين الأول من العام 2019، مرورًا بهزّات أمنية كانفجار مرفأ بيروت في الرابع من شهر آب 2020، بالإضافة إلى هزّات اقتصادية تراكمت مع انهيار القطاع المصرفي والماليّ وتدهور العملة الوطنيّة وفقدان السيولة بالدولار الأميركي، بالإضافة إلى تخلف الدّولة عن سداد ديونها الخارجيّة بالعملات الأجنبيّة بما يعرف بال يورو بونديز، أضف إلى هذه المشاكل والمصاعب، تردّي الأوضاع المعيشية للمواطنين اللبنانيين من حيث تدنيّ مستوي الدخل الفرديّ والمستوى الصحيّ والعلمي وما يترتّب عن ذلك من فلتان أمني، نتيجة إنخفاض القدرة الشرائيّة، وعليه فقدانهم إلى أبسط مقومات العيش الكريم من كهرباء ومياه وسلع ضروريّة و مواد غذائيّة... الخ.

لقد أصبح المواطنون متسولين في بلدهم يعتمدون على الإعاشات والمساعدات من المنظمات الدولية ومن المجتمع المدني وغيرها من الجمعيات القادرة على المساعدة.

أولاً: تعريف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الحجم

أثار تحديد مفهوم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الحجم الكثير من التساؤلات في الاوساط الاقتصادية وبين المهتمين بأمر هذه المؤسسات، هذا باعتراف العديد من الباحثين والفاعلين في الهيئات والمنظمات الدولية نظراً للتداخل الموجود بينها، وتكمن صعوبة وضع التعريف فيما يلي:

- تعدد المعايير المستخدمة في التمييز بين المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الحجم، فالمعايير المستخدمة في قياس حجم المؤسسة تختلف وتتعدد وهي معايير نسبية تختلف من قطاع إلى آخر.
- التطور اللامتكافئ لقوى الانتاج في مختلف الدول، لذلك فإن تعريف المؤسسات الصغيرة ولمتوسطة يختلف من بلد لآخر تبعاً لدرجة النمو الذي بلغته الدولة، ومدى الوفرة أو الندرة النسبية لعناصر الانتاج ولذلك لا تحبذ منظمات الامم المتحدة العاملة في هذا المجال توحيد مفهوم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من منطلق أن المؤسسة الصغيرة في الولايات المتحدة الاميريكية قد تكون كبيرة في دولة اخرى كمصر أو الجزائر مثلاً.
- تغير مدلول المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من وقت لآخر لأنه دائم التغيير، فإذا كانت المؤسسات التي توظف 200 عاملاً» تعدّ كبيرة في مدّة معينة قد تصبح صغيرة أو متوسطة في مدّة لاحقة.
- إضافة إلى أن اختلاف الأنشطة التي تمارسها المؤسسات الصغيرة والمتوسطة تؤدي إلى تغير في متوسط أحجام المؤسسات في كافة الفروع، فالمؤسسات الموجودة في قطاع الصناعات الغذائية تختلف عنها في قطاع التجارة مثلاً.
- وفي دراسة خاصة بالمؤسسات الصغيرة والمتوسطة قامت بها لجنة الاتحاد الأوروبي لوحظ أنه في مختلف دول الاتحاد يتم التمييز بين المؤسسات بالاعتماد على المعايير الكمية التي تختلف من بلد إلى آخر، ويرجع اعتماد المعايير الكمية في هذه الدول لأسباب إحصائية أو جبائية، وكذلك من أجل تحديد شروط الاستفادة من بعض المزايا والمساعدات في المجالات المالية والجبائية.
- باستقراء تعريف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في العديد من بلدان العالم، نجد أن أكثر العناصر استخداماً هي عدد العمال، سواء في الدول المتقدمة أو النامية في الحاضر والماضي. حيث عدّ أن الصناعات التقليدية والمنزلية هي التي توظف من

(0-4) عمال، وأنّ الصناعات الصّغيرة جدًّا توظف من (9-0) عامل، وأنّ الأعمال صغيرة الحجم توظّف (49-10) عامل، وأنّ الصناعات متوسطة الحجم توظّف (99-50) عامل، وأنّ الصناعات كبيرة الحجم توظّف (100 عامل وما فوق).

ثانيًا: دور المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الحجم

أهمّية دور المؤسسات الصناعاتية الصغيرة والمتوسطة الحجم تكمن بأنّها تمثل غالبية مؤسسات القطاع الصناعي في لبنان التي تتّصف بالتّغيير والتّجديد على مستوى الانتاج والإدارة وعلى مستوى المستهلك وآليات السوق وهذا يتطلب تواصلًا مستمرًا مع التكنولوجيا الحديثة، وتأمين التّعليم المهني والتّقني، كما يتطلّب تمويلًا سهلًا. فالمؤسسات الصناعاتية في لبنان قادرة على تحقيق مردود جيّد ونجاحات في كافة المجالات اذا ما توافرت لها شروط الإنتاج الاساسية، فهذه المؤسسات تؤدّي دور الوسيط أو صلة وصل في النسيج الاقتصاديّ من خلال العلاقات التي تربطها ببقية المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية المحيطة بها والمتفاعلة معها.

وعلى الرّغم من ضعف الإمكانيات الماليّة وصغر حجمها وعدم قدرتها على السيطرة على السوق تطلّ قدراتها التنافسيّة قائمة من حيث مضاعفة جهودها في الابتكارات والخلق التكنولوجي الملائم لوضعها في سبيل تحسين جودة إنتاجها وسلعها.

تمثّل الصناعة في لبنان العمود الفقري للتنمية الاقتصادية والاجتماعية إذا ما توفرت له أرضية خصبة وملائمة ومستقرة لتطور اجتماعي واقتصاديّ قوي، لكن توفّر السيولة الماليّة اللازمة للمنشآت الصناعاتية هي من أولويّات نجاح وتطور النشاط الصناعي، ولا بدّ من تقديم التسهيلات الائتمانية والقروض الطويلة الأمد وخفض سعر الفائدة على القروض ودرس نظام عام للتأمين على الصناعة اللبنانية.

إنّ المحافظة على الصناعة اللبنانية تكون من خلال المحافظة على استمراريّة المؤسسات الصناعاتية الصغيرة والمتوسطة وضمان التّنافس الصناعيّ أمام المنتجات المستوردة من الخارج من خلال رفع أسعار هذه المنتجات التي ينتج مثل لها محليًا، وذلك برفع الرسوم الجمركية عليها بما يسمح للصناعات المحلية بتعزيز ربحيتها. يفترض أيضًا تكثيف الرقابة على الحدود البرية والبحرية من أجل إيقاف جميع وسائل التهريب ومتابعة حركة البضائع في الأسواق وتحديد منشأها الأصلي. كما أنّ تنشيط مراكز البحوث الصناعاتية ومؤسسة المواصفات والمقاييس من أجل رفع مستوى الجودة للمنتجات والمنافسة بحيث لا يصدّر إلاّ المنتوجات ذات المواصفات العالية التي

تتوافر فيها شروط الجودة محافظة على سمعة الصناعات اللبنانية ودعمًا للثقة بها. إن السماح بإنشاء مناطق صناعية يتيح الفرصة لإقامة أبنية صناعية مستوفية للشروط الصحية والأمن الصناعي، ولتنظيم التعاون بين أصحاب المنشآت من حيث مساعدتهم على الاستفادة من مميزات العمل المشترك. ما يعزز وضع الصناعة ويضمن استمراريته وسط التحديات الإقليمية والعالمية لاقتصادنا الحر وما يدفعنا لايجاد أفضل السبل لتحقيق الأمن الغذائي الذي تطمح إليه معظم الدول العربية التي تعاني من نقص في مواردها الطبيعية من مياه وغطاء نباتي ومساحات صالحة للزراعة، بالإضافة إلى فقدان البعض الآخر للمواد الأولية كالمعادن على أنواعها والفحم والغاز الطبيعي والبتروول وغيرها...

ثالثاً: أهمية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الحجم

ظهرت رؤوس الأموال الضخمة فاستأثرت بالقطاع الصناعي والتجاري وبالقطاع العقاري والاتصالات، وبمجملة حركة السوق في ظل غياب شبه كامل للدولة حيث لا فعالية لها، فغابت المراقبة والمحاسبة، وأصبحت المؤسسات الصناعية الصغيرة مهددة بالإفقال، تجلّى هذا كلّ في عدم توفير الدعم للحصول على القروض الضرورية وعلى مستلزمات التنمية كافة في القطاعات كافة وخاصة في قطاعي الزراعة والصناعة .

معظم المناطق اللبنانية عانت ولا تزال حتى الآن تعاني من المشاكل نفسها تقريباً، استأثرت محافظة جبل لبنان وحدها ب 55,011 % من حيث عدد المصانع، محافظة لبنان الشمالي ب 16,715 % والعاصمة بيروت ب 12,072 % أي بمجموع يساوي 83,798 %، أي استحوذت هذه المحافظات على معظم المصانع في مختلف الصناعات، أي أنّها حظيت بأكبر نسبة استثمارات، بنيت المصانع المتخصصة في صناعات متنوعة: كصناعة المواد الغذائية، الصناعات الكيماوية والبلاستيكية، الخشبية، الصناعة المعدنية ما عدا وسائل النقل، الآلات والأجهزة الكهربائية، الجلود والمصنوعات الجلدية والاحذية، الغزل والنسيج والألبسة، المفروشات، الورق والكرتون والطباعة وصناعات اخرى متنوعة اشتهرت بها بعض المدن اللبنانية ...

إلا أنّ مناطق أخرى بقيت بعيدة عن ركوب التطور السريع نتيجة بعدها عن مركز القرار وفقدانها لشبكة مواصلات متطورة، ومنطقة البقاع من بين هذه المناطق التي تضررت عبر الزمن من جراء الغبن والإجحاف اللذين لحقا بها.

بما أنّ البقاع ذو طابع ريفي والنشاط المسيطر عليه هو النشاط الزراعي، حيث أنّ الزراعة هي المورد الأساسي لهذه المنطقة واعتمادها كعنصر أساسي في العملية الانتاجية، كان من نصيبها الإهمال والتقصير والتراجع، إن كان من ناحية الاستثمار أو من ناحية التحديث في وسائل الانتاج وفي عدم إدخال برامج متطورة تتلاءم مع الروزنامة الزراعيّة وكذلك في عدم تفعيل الدراسات والأبحاث وإقامة مختبرات ومراكز متخصصة تسهم في تقدّم وتطور هذا القطاع. من البديهي أن يؤدي ذلك إلى الهدر في الطاقات الماديّة والبشريّة وتقويت الفرص للنّهوض الاقتصاديّ في هذه المنطقة وخاصة في ظل وجود الأراضي الزراعيّة الواسعة التي يضمّها سهل البقاع. على الرّغم من هذا كلّه لا تزال القوى الاقتصاديّة الموجودة تتاضل من أجل البقاء والاستمرار بالقدرات المتاحة وبجهودها الفرديّة، فتطوّرت بعض الزراعات وأنشئت بعض الصناعات البسيطة المتعلقة بها، مما عزّز الوضع الاقتصاديّ شيئاً فشيئاً وأسهم تالياً في تحسن الوضع الاجتماعيّ ولو بشكل خجول.

أمّا الذي أدى إلى الحدّ من التقدّم في الصناعات كافة كان فقدان التّسيق بين القطاعات الزراعيّة، الصناعيّة، التجاريّة والمواصلات والاتصالات، إنّ سوء التنظيم بينهم أدى إلى الكثير من الهدر وخسارة للكثير من المواد الصالحة للتصنيع والممكن الاستفادة منها في تأمين الحاجات المحليّة ولتصدير كمّيّات منها فائضة إلى الخارج. يعدّ القطاع الصناعيّ من القطاعات الانتاجية المهمّة وذلك لما له من دور مهم في التّميّة الاقتصاديّة، ولما له من قدرة على إحداث النّمو المطلوب في جميع المجالات الاقتصاديّة والسياسية والاجتماعيّة، وقد أصبح تطوير القطاع الصناعيّ هدفاً رئيساً للدول الناميّة من أجل تحقيق التّميّة الاقتصاديّة المرجوّة. إنّ تطوير القطاع الصناعيّ يعني تحقيق معدّل عال للنمو الاقتصاديّ، وخلق فرص عمل كثيرة، وزيادة التنوّع الاقتصاديّ الضروريّ لتحقيق التحول الاجتماعيّ والاقتصاديّ عمومًا.

تطور القطاع الصناعيّ بشكل ملحوظ، وارتفعت نسبة مساهمته بالنتائج المحلي، إلا أنّ الأوضاع الصّعبة التي عانى منها لبنان أدت إلى تراجع هذه النسبة وإلى انخفاض معدّل الإنتاج في جميع فروع الصناعات اللبنانيّة.

إنّ تراجع أداء القطاع الصناعيّ اللبنانيّ لم يرتبط فقط بوقوع الحرب الاهليّة، بل يرتبط كذلك بعدم وضع السلطة الوطنيّة برنامجاً تنمويّاً واستراتيجيّة تصنيع مناسبة تتلاءم مع احتياجات القطاع الصناعيّ، بالإضافة إلى العديد من المشاكل والمعوقات

الذاتية التي حالت دون تطوره ونموه، مثل نقص في المواد الأولية ومشاكل الجودة وغياب الخبرة الفنية وغياب التنظيم ومشاكل القوى العاملة وانخفاض إنتاجية الآلات، وكذلك بسبب الفساد المالي والاداري التي تعاني منه العديد من أجهزة السلطة الوطنية اللبنانية.

فيما يتعلق بالصناعات الغذائية فهي تحتل موقعاً حيوياً ضمن القطاع الصناعي اللبناني، وهي تحتل المرتبة الأولى من حيث عدد المصانع الغذائية وتوزعها على المحافظات، وتعدّ أحد أقسام الصناعات التحويلية المهمة لما توفره من مواد غذائية منوعة، وهي تخفف من استيرادها ومن تحكّم التجار والمستوردين والمؤسسات الكبرى بالسوق المحلي.

رابعاً: واقع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الحجم في لبنان

يتحدث أصحاب المؤسسات عن نشأة مؤسستهم ويتبين أنّ معظمهم قد أنشأ مؤسسته قبيل الحرب الأهلية اللبنانية التي استمرت بفضل جهودهم المتواصلة ورغم تعرضهم المستمر للانهايار والافلاس وللأخطار والصعوبات والمشاكل المعقدة التي يعيشها جميع اللبنانيين الذين ما زالوا يعانون منها حتى الآن كذلك من عدم الاستقرار، بالإضافة إلى تراجع وضع العملة الوطنية في ظل غياب عدم الانضباط في الأسواق الداخلية والخارجية. تتعرض السلع كل يوم إلى إرتفاع بالأسعار مما يؤدي إلى غلاء معيشة خطر يهدد الأمان الاجتماعي والاقتصادي. على الرغم من ذلك كله لا يزال الصناعيون يصارعون الأوضاع الصعبة ويتكبدون المشقات ويحاولون جاهدين حل مشاكلهم بأنفسهم، لأنّ المستقبل بنظرهم غير مشجّع، حتى أنهم لا يتوقعون خيراً وخصوصاً أنّ الاحوال السياسية والاجتماعية والأمنية غير المستقرة في الدول العربية المجاورة التي تهدد منطقة الشرق الاوسط بالإنفجار. استطاعوا رغم ذلك من الصمود والمضي قدماً في نضالهم الصناعي كل بحسب اختصاصه، منهم من تقدم في نشاطه الصناعي، منهم من كافح للحفاظ على موقعه في السوق ومنهم من قلص من إنتاجه حتى يستطيع إعالة عائلته بالحد الأدنى مما يمكن تحقيقه. هذا ما يفسّر رضى بعض الصناعيين الصغار بوضعهم الحالي خوفاً مما قد يحمله المستقبل من أوضاع ممكن أن تكون أسوء مما سبقها وهم يقولون: «الحمد لله إن شاء الله نضل هيك مش أسوء».

الصعوبات التي مرت بها المؤسسات الصناعيّة اللبنانيّة عموماً هي نفسها التي عانت منها مؤسسات الصناعة الغذائيّة في معظم المناطق اللبنانيّة عموماً، بما أنّ للصّناعة الغذائيّة علاقة وثيقة بالقطاع الزراعيّ بحيث لم يسلم هذا الأخير من آثار الحرب والاضطرابات الأمنيّة، إضافة إلى الإهمال وسوء الاستخدام للأراضي الزراعيّة وتعرض بعض أراضيّه الزراعيّة للاستغلال غير الشرعيّ في زراعة الممنوعات مثلاً. لم يستطع سهل البقاع والأراضي المجاورة له من تلبية حاجة مؤسسات الصناعة الغذائيّة لتصنيع الحاجات الغذائيّة الا بنسب متفاوتة وضعيفة. لذلك كان استيراد المواد الأوليّة والخام من الدّول العربيّة، الأوروبيّة، الأميركيّة وحتى من دول الشرق الأدنى حديثاً. استطاعت شركة «قساطلي» مثلاً أن تستغل جزءاً لا بأس به من موسم التفاح من مزارعي الجبل، وأن تحقّق انجازاً تنموياً فاعلاً في الحركة الاقتصاديّة باستعمال 450 ألف طن منه في صناعة عصير التفاح للاستهلاك المحلي وللتصدير إلى الدول العربيّة والاجنبيّة.

يتم تصريف إنتاج الصناعة الغذائيّة في السوق المحلي باستثناء المؤسسات المتوسطة ذات الحجم الانتاجي الوفير التي تتمتع بقدرة إنتاجية جيدة من تصدير كميات من إنتاجها لا بأس بها إلى الأسواق العربيّة حيث تعد من الأسواق الأساسيّة التي تستقبل المنتجات اللبنانيّة بسبب جودتها المرتفعة وذوقها الرفيع وفي مواصفاتها العاليّة التي تضاهي مثيلاتها المنتجة في الدول الصناعيّة الكبرى. لذلك نرى أنّ بعض الصناعات الغذائيّة اللبنانيّة تستحق التهنئة والاحترام والرعاية من قبل الدولة ومن الجهات المختصة ببذل المستحيل للحيلولة دون تعرضها للتراجع أو للافلاس. في ظل انتشار العولمة ودخولها من دون استئذان إلى تفاصيل حياتنا اليوميّة، كان لا بد من مواكبة هذا التطور لتلبية متطلبات الثقافة الغذائيّة الدخيلة على مجتمعاتنا التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من نظام غذائنا الجديد، مثل الكرواسان على أنواعه، خبز الفاهيتا والهمبرغ. بالإضافة إلى المشروبات الطبيعيّة التي مزجت بالكحول لتلبي الأذواق المختلفة في الداخل وفي الخارج باستثناء الدول العربيّة. لكن هناك اختصاصات في صناعات غذائيّة أخرى لم تدخلها العولمة إلا من حيث استحداث الآلات الكهربائيّة والميكانيكيّة التي أسهمت في تطوير عملية إنتاج هذه الصناعات، كصناعة البرغل مثلاً بأصنافه كافة وصناعة الحليب ومشتقاته. حافظت هذه المؤسسات على استمراريتها من خلال المحافظة على تنوع إنتاجها وعلى ارتفاع

جودتها بالإضافة إلى هويتها التراثية التقليدية التي كانت باستمرار تلبي حاجات السوق المحلي ويتّصف عملها بالتضامن والشراكة والوحدة داخل العائلة الواحدة. في ظل غياب دور الدولة في حماية ورعاية وتنظيم هذه المؤسسات التي اعتمدت باغليبتها على رأسمالها الخاص، كانت المنافسة قوية بين منتجاتنا المحلية ومثيلاتها الأجنبية لكن بنسب متفاوتة، اصطدمت بعض الاختصاصات الغذائية بمنافسة شديدة خصوصاً أنّ أسواقنا مفتوحة على مصرعيها ونظامنا الاقتصادي ليبرالي حرّ، استطاعت بعض المنتجات من الحفاظ على خصوصيتها وتالياً على جودتها لما لها من تاريخ طويل وشاق في النشاط الصنّاعي للوصول إلى هذا المستوى وكسب ثقة المستهلكين له من الزبائن الذواقّة، حتى أثبتت وجودها بقوة في الصناعة اللبنانية. وأخرى تعرّضت للمنافسة لكن بقيت محافظة على بقائها في السوق الاستهلاكي الوطني والخارجي رغم الخسائر التي تتكبدها كل يوم، فيلجأون إلى طرق مختلفة لتصريف منتجاتهم، أمّا بتخفيض الأسعار أو بتعديل في الحجم والوزن مع الحفاظ على نوعيتها. في ظل ارتفاع أسعار الكهرباء والمحروقات تتكبد الصناعة أعباءً إضافية مما يجعل كلفة الإنتاج مرتفعة بالنسبة إلى الدول الصنّاعيّة الأخرى وهذا ما يؤثّر سلبيّاً على تطور العملية الإنتاجية في لبنان.

لا يمكن للمنتجات أن تصمد أمام السلع الأجنبية دون إيجاد خطة تنمويّة متكاملة تتفدّ على مراحل ولمدة معينة، ويرصد لها موازنة مدروسة جيّداً من قبل إخصائيين يتابعون، يراقبون ويحاسبون من لا يؤدي عمله كما يجب من خلال الالتزام بالأنظمة وتطبيق القوانين المرعية الاجراء. معظم العاملين بالحقل الصنّاعي وخاصة العاملين في قطاع الصناعة الغذائية يعتمدون على جهودهم الفردية الذاتية فاقدين الأمل من جهة دعم الدولة لهم معوّلين على انفسهم في مدى استمراريتهم أو عدمها، كما قال أحد أصحاب الشركات الصنّاعيّة الغذائية: «الدولة تحلّ عنّا وما علينا منّا نحننا مندبّر حالنا». الدولة ضعيفة ومترهلة لا يمكنها مواجهة عمالقة الصناعة والعولمة في ظل سيطرت الشركات المتعددة الجنسيات والعبارة للقارات لا يمكن إلا أن تحدّ من النشاطات الاقتصادية الأخرى وخاصةً الدول ذات الصناعات الصغيرة المتواضعة من حيث ضعف رؤوس الأموال وعدم توفّر المواد الأولية الضرورية للصناعات الغذائية. بما أنّ لبنان بلد صغير الحجم وطبيعة اقتصاده ليبرالي حر لا بد من تعرضه لشتّى أنواع المنافسة والمخاطرة.

كما أنّ للمرأة دورًا كبيرًا في معظم الصناعات باستثناء بعض الصناعات الصعبة التي تتطلب جهودًا جسديّة كبيرة، حتّى داخل الصناعات الغذائيّة لها وجود لا بأس به في صناعة الالبان مثلاً وفي صناعة الأطعمة على أنواعها والحلويات الآ أنّه يستحيل تواجدها في صناعة البرغل والخبز والعرق مثلاً. إنّ مشاركة المرأة في النشاط الاقتصاديّ يتبعه نشاطاً في المجالات كافة وخاصة من ناحية مساهمتها في تطوّر وتنمية الحياة المجتمعية، كيف ذلك وهي تعدّ نصف المجتمع وما بالك وهي تعمل وتنتج وتجمع المال وتشكّل عنصرًا فاعلاً في المجتمع، من هنا نشأت فكرة إنشاء مشاريع متنوّعة لتنمية المرأة الريفيّة ودعمها من قبل العديد من المنظمات الدولية والعالمية ومن المجتمع المدنيّ بأطيافه كافة، هذا ما تجلّدى في حديث صاحب شركة صناعية غذائيّة عن دعم المرأة اللبنانيّة من خلال إنشاء مشاريع متنوّعة كمشروع «لف ورق العنب» وغيرها من تصنيع الكثير من المازات والمؤكولات اللبنانيّة.

بما أنّ امكانيات المؤسّسات للصناعات الغذائيّة في لبنان ضعيفة وتتصف بالعائليّة، إنّ المشاريع الصّغيرة والمتوسّطة في لبنان تتحلّى بصفات شتى أهمها التعاون والتضامن والقناعة بالوضع القائم، من بين هذه المشاريع ما يقوم على الجُهود الذاتيّة والمبادرات الفرديّة والتي تعتمد مرة على الضمان الاجتماعيّ ومرة اخرى على ضمان في شركات تأمين خاصة. هذا بالإضافة إلى توجه بعض أفراد العائلة للتّخصّص في الخارج بما يتناسب مع مصلحة عملهم، مما يعزز لديهم قدرة أكبر على الإحاطة بكلّ التفاصيل المتعلّقة بعملهم أو في مهنتهم وذلك عن معرفة وعلم، واطلاع واضح على حاجات المنطقة والمجتمع المحلي والإقليمي. هنا يتمييز البعض منهم عن غيرهم بطموح كبير مفضّلين المضي قدماً» مهما واجههم من مشاكل وتحديات.

من المؤسّسات الصّناعيّة ما يتقدم بشكل سريع على الصعيد التكنولوجي والبحثي، ومن استيراد لأنواع كثيرة من المعدات والتقنيات الحديثة، وتستقدم أحدث الآلات من الدول الصّناعيّة الكبرى مما ينعكس ايجاباً على إنتاجها إنّ من ناحية الكميّة أو من ناحية النوعيّة حتى أصبحت تضاهي بمنتجاتها السلع الأجنبية وتلبي في الوقت نفسه جميع الأذواق بما فيهم أهل الخليج، كذلك بالنسبة إلى مؤسّسات أخرى مجهزة بأفضل المواصفات وأحدث التجهيزات التي تعتمد المقاييس العالمية للجودة الـ «ISO» في صناعاتها هذا بالإضافة إلى سرعة انتشار شهرة منتجاتها على الصعيد العالمي وما يميزها التكامل في الصناعة من ناحية وانسجامها مع البيئة المحيطة بها من ناحية اخرى.

أمّا البعض الآخر من المؤسسات الصناعيّة الغذائيّة في لبنان ذات المؤسسات الصغيرة ما تزال على حالها نظرًا لطبيعة نشاطها الذي يحتمّ عليها المحدودية في الانتاج والعمل ونظرًا لطابعها التراثي والتقليدي.

لقد أجمعت أغلبية المؤسسات الصناعيّة للمنتجات الغذائيّة خاصة على حساب الأجهزة الرسمية للدولة، الحكومية منها والقضائية، الادارية والتقنية (مراكز الأبحاث - المختبرات مراكز التأهيل الخ....) غير جاهزة بعد للقيام بمهامها على أكمل وجه، ويلزمها من الوقت الطويل ومن الجهد الكبير، لذلك منهم من يطلب عدم التدخل في شؤونهم لا من قريب ولا من بعيد، ومنهم من يطلب المساعدة والمساندة من قبل الدولة ومن الجهات المعنية بأمور النشاط الصناعيّ ككل لضمان استمراريتهم.

خلاصة

الصعوبات التي واجهت وتواجه الصناعات الغذائية في لبنان بشكل عام هي نفسها ما تعاني منها مثيلاتها في مختلف الصناعات، والكلام الذي يتردد على ألسنة اصحاب المصانع والقيمين على هذا النشاط الصناعيّ هو نفسه عند الجميع، يظهرون سخطهم على الدولة بما تمثله، فهم فاقدين الثقة بها ولا يستبشرون خيرًا لا اليوم ولا في المستقبل، معظمهم يديرون مشاريعهم بأنفسهم وبما يتناسب وعملهم، مثلاً الانقطاع المستمر للكهرباء عالجوه بشراء مولدات كهربائية خاصة لتلبي حاجاتهم وما يفيض عنهم يستخدموه لحل أمور اخرى. كذلك بالنسبة لتأمين المحروقات وغيرها من المواد الاولية ومن مستلزمات الصناعة الغذائية يقومون بما يتناسب مع وضعهم والظروف المحيطة بهم.

لن تقوم صناعة مهمّة في لبنان إن لم تواكب التطور التقني العالمي وتضمن أسواق التصريف. وتجدر لهذه الغاية تقوية الجهاز الرّسمي المواكب للانتاج الصناعيّ في لبنان بإنشاء وزارة صناعة وتجارة خارجية على ثلاث مديريات عامة: الاولى، المديرية العامة للإدارة الصناعيّة، ترشد أصحاب الصناعات القائمة، وتراقب جودة الانتاج الصناعيّ ومواصفاته، وتصنّف الصناعات. الثانية، المديرية العامة للتنمية الصناعيّة، تعنى بوضع استراتيجية للتنمية الصناعيّة. والثالثة، المديرية العامة للصادرات الصناعيّة، تهتم بتحضير الاتفاقات التجارية توسيعًا لرقعة الصادرات إلى الخارج.

ولا بد للصناعة اللبنانية من الانفتاح على الدول الصناعيّة والدخول معها في مشاريع مشتركة أو في مشاريع إنتاج جزء من السلعة النهائيّة المنتجة في الخارج، وذلك تحت شروط الترخيص أو الامتياز. إذا تزاوج الرساميل بين لبنان ورساميل أجنبية وعربية والتعاون في الإنتاج يشكل حلاً «مثالياً» لتطوير الصناعة في لبنان شرط أن تنشأ المصانع في لبنان وليس في خارجه.

إنّ اقتصادنا حالياً هو اقتصاد غير متوازن بسبب إهمال قطاعات الإنتاج. يفترق إلى عدد من عناصر التوازن هي: إنتاج ضعيف - ضعف في المداخيل - تراجع في الاستهلاك وفي التوظيف المثمر وفي حركة التصدير. وللسياسة الجمركية قواعد تحكمها، فالمواد الاوليّة للصناعة يجب أن تعفى كلياً من الرسوم الجمركية إذا لم يكن لها إنتاج مثيل في الداخل ذو نوعية مماثلة وكميات تكفي الطلب الداخلي. كما يجب إخضاع المعلّبات الغذائيّة المستوردة للرسوم الجمركية إذا ما نافست إنتاجاً لبنانياً مماثلاً وفصلها عن المواد الغذائيّة المعفاة من هذه الرسوم.

لا نمواً اقتصادياً حقيقياً برأي الكثير من الخبراء الاقتصاديين والباحثين في هذا المجال، ولا ثروات ناتجة عن الانتاجية الصناعيّة، ولا مهارات، ولا تنمية متوازنة، ولا فرص عمل متنوعة، ولا محاربة فاعلة للتضخم، ولا انماءً ريفياً، ولا قيماً اجتماعية، ولا خروجاً من الديون، من دون الاعتناء الفائق بالصناعة اللبنانيّة واعطائها الموقع الذي تستحق في اهتمامات حكومة النهوض.

لذا المطلوب وضع سياسة صناعيّة على المدى القصير تكون منسقة وهادفة تصبّ كلّها في مصلحة الصناعة. وعلى الرغم من الحريات الاقتصادية وحرية عمل المؤسسات، إنّ كل سياسة اقتصادية - صناعيّة تتضمن تدخلات مباشرة في شروط عمل الصناعات وفي استراتيجية التصنيع. إنّ كل سياسة صناعيّة تفرض قرارات اجراءات واضحة وانتقائيّة تهدف إلى مساعدة المؤسسات الصناعيّة في مختلف اوجه نشاطها .

انّ وضع سياسة صناعيّة من شأنه أن يساعد على تعزيز النمو الاقتصادي، وتوسيع ظروف العمل، وخفض عجز الميزان التجاري، والمحافظة على البيئة، وتنمية الموارد الانسانية والمالية، وزيادة الانتاجية بواسطة رفع المستوى العام للتقانة، ودعم النوعيّة والجودة والمنافسة، ومنع الاحتكار، وضبط تطور الاسعار. إنّ قضية الاستثمارات في لبنان، كما نعلم، تصبّ جميعها في قطاعين أساسيين هما التجارة والبناء.

والاستثمارات تتجه بخجل نحو قطاعات الانتاج، وهذا اكبر خطأ في الخيارات الاستثمارية للبناني.

إنّ الانتاجية الصناعيّة هي مصدر الثروة. فالثروات الوطنية تتحقق نتيجة التفاعل المستمر بين المالي في الصناعة وبين الانتاجية الصناعيّة .

المراجع:

- الخولي ، اسامة - البيئة وقضايا التنمية والتصنيع - عالم المعرفة 285 - 2002.
- دويار ، كلود - سليم نصر - الطبقات الاجتماعية في لبنان : مقارنة سوسولوجية تطبيقية - 1982-مؤسسة الأبحاث العربية - ط. 1.
- عبد الدايم ، محمد وليد - مفاهيم تتعلق بالأمن الغذائي (ملفات خاصة 2003).
- القاسم ، صبحي - الأمن الغذائي العربي : حاضره ومستقبله - عمان - 1993 - مؤسسة عبد الحميد شومان.
- كسبار ، توفيق - اقتصاد لبنان السياسي 1948 - 2002 في حدود الليبرالية الاقتصادية - 2005 - دار النهار - ط.1.
- مقدسي ، سمير - بين الاقتصاد والحرب والتنمية : العبرة من تجربة لبنان - 2004- دار النهار - ط.1.
- يموت ، عبد الهادي - الاقتصاد اللبنانيّ وأفاق الشرق أوسطية والعولمة - 2005- الشركة العالمية للكتاب.
- يشوعي ، ايلي - اقتصاد لبنان : رقم ورأي - بيروت - 1998- مكتبة لبنان - ط.1.

الأدب القومي في مواجهة الاحتلال: من أرمينيا إلى الوطن العربي («باروير سيفاك» ونسيب عريضة» أنموذجين) يعقوب شبلي

المقدمة:

يحفل التاريخ البشري بمحطات جمّة تركت آثارًا جسيمة على البشرية باختلاف الزمان والمكان؛ ويمكننا التمثيل على الذّاكرة الجماعيّة للشّعوب بخطّ مستقيم، نقطته أحداث تاريخيّة وجماعيّة وسياسيّة كثيرة... بعض هذه النّقاط مضيء، وبعضها الآخر قاتم...

بعد وصول جماعات وافدة من البلقان إلى المقاطعة الشّرقية للإمبراطوريّة الحثيّة قبل سنوات طويلة من الميلاد، بدأ تمازج تدريجيّ يحصل بين هذه الجماعات التي يعود أصل الأرمن إليها، وبين سكّان هذه المنطقة، حتّى استطاع الأرمن السّيطرة على بقية القبائل وفرض نفوذهم، فعرفت بلاد الأرمن حوالي عام 521 ق.م. باسم أرمينيا⁽¹⁾... وتتعاقب السّنوات وتتوالى، وتأتي العصور الوسطى ليشهد العالم على قيام الدّولة العثمانيّة، بعد أن صار جيش الأتراك هو جيش الخلافة الرّئيسي في عهد المعتمد، وسعوا إلى الاستيلاء على الأناضول فأصبح هذا الأخير مهجرًا تقصده العناصر التّركيّة... في حين حاول الأرمن في الأناضول أن يكونوا مملكة أرمينيّة موحّدة، إلّا أنّهم ظلّوا أضعف من ذلك... هكذا استطاعت الدّولة العثمانيّة الناشئة عام 1299م أن تصبح امبراطوريّة مترامية الأطراف وتدوم لحوالي 623 سنة قبل انحلالها عام 1922⁽²⁾. وبحلول القرن الخامس عشر بدأت الفتوحات العثمانيّة تتوسّع باتجاه أرمينيا، إلى أن وصل الأرمن في القرن السّابع عشر إلى عيش حال شتات داخل السّلطنة⁽³⁾... وعلى إثر الأحداث العالميّة المتسارعة قبيل الحرب العالميّة الأولى، سعى الأرمن إلى استعادة كيانهم وإعادة بناء دولة عصريّة تحاكي تطّعاتهم، إلّا أنّ نيسان 1915 كان نذير اعتقالات، أعقبها نفي وتشتيت وذبح بحق

(1) يوسف إبراهيم الجهماني: تركيا والأرمن، دار حوران، دمشق، ط.1، 2001، ص. 7، 8.

(2) محمد فؤاد كوبرلي: قيام الدّولة العثمانيّة، تر. أحمد السّعيد سليمان، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1967، ص. ز، ط، ر.

(3) يوسف إبراهيم الجهماني: م.س، ص. 16.

الرّعماء الدينيين والمتقنين والمفكرين الأرمن، كما عامّة الشعب، وقد أقدمت على ذلك الحكومة العثمانية بحجة الخيانة وانعدام الثقة وفق خطة منهجية...⁽¹⁾ غير أنّ البعض نظر إلى المشهد الأرمني-التركيّ نظرة مختلفة تمامًا، ورأى أنّ هذه الأحداث الدّموية ما هي إلاّ مذابح قام بها الأرمن ضدّ الأتراك في الفترة قبل الحرب العالمية الأولى، وفي أثناء الحرب، وبعدها، مستندين إلى وثائق وشهود عيان ولجان دولية⁽²⁾... أمّا في لبنان وسوريا فلم تكن موجة الإعدامات التي نفذتها الحكومة العثمانية أقلّ وحشية، ولم يكن آخرها سلسلة إعدامات أيار 1916. وقد ألهمت هذه الحقبة الحرجة من تاريخ الإنسانية العديد من الشعراء والأدباء لحفر هذه الأحداث المأساوية في سجلّ آدابهم وثقافتهم وفاءً للذاكرة الوطنية، فكان أن وصلتنا قطعٌ هي من أجمل ما كُتب في الأدب الوطني.

يتناول هذا البحث تحليلاً لقصيدتين وطنيتين، كُتبتا ردّاً على الانتهاكات العثمانية بحقّ اللبنانيين والسوريين والأرمن، وهما: قصيدة «إلى قومي» للشاعر «باروير سيفاك»⁽³⁾ (Paruyr Sevak)، وقصيدة «النهاية» للشاعر «نسيب عريضة»⁽⁴⁾، ولا يعبر بالضرورة عن رأي شخصي أو موقف خاصّ، إنّما يتناول القضية من وجهة نظر الشاعرين موضوعي الدراسة. وتهدف هذه الدراسة إلى الإجابة عن الإشكاليات الآتية: كيف عبّر كلّ من «سيفاك» و«عريضة» عن عاطفتهم الوطنية تجاه قضية واحدة متمثلة بالاعتداءات العثمانية؟ ما أوجه التلاقي بين القصيدتين؟ وبمّ يتميزان العملان؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، كان لا بدّ من الاتكاء على منهج واضح يرسم خطة

(1) م.ن: ص. 36

(2) راجع: أحمد عبد الوهاب الشّرقاوي: مذابح الأرمن ضدّ الأتراك في الوثائق العثمانية والروسية والأميركية، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، ط.1، 2016

(3) باروير جزاريان (1924-1971): واحد من كبار شعراء أرمينيا، نشر أعماله الأولى تحت اسم «باروير سيفاك» بدلاً من اسمه الحقيقيّ تيمناً بشاعر يُدعى سيفاك لقي مصرعه في الإبادة الجماعية للأرمن. عمل بالترجمة الأدبية، وكان باحثاً في معهد مانوك أبيجيان للأدب (1963-1971). شغل منصب سكرتير مجلس اتحاد كتاب أرمينيا (1966-1971) كما انتُخب عام 1968 عضواً في مجلس السوفييت الأعلى في جمهورية أرمينيا الاشتراكية السوفيتية. تتوزع أشعاره بين ملحمة وتاريخية وحداثيّة

(4) نسيب عريضة (1887-1946): شاعر وقاصّ سوريّ، ولد في حمص وسافر إلى روسيا ثمّ إلى نيويورك حيث أسّس «الرابطة القلمية» إلى جانب جبران ونعيمة. ومن أبرز أعماله «الأرواح الحائرة»، «أسرار البلاط الرّوسيّ»، «ديك الجنّ الحمصي»...

تحليل دقيقة. وليس أقدر من المنهج البنيويّ السيميائيّ على الإتيان بهذا الأمر. ويقترح الدكتور «نبيل أيوب» في كتابه «النقد النصّي وتحليل الخطاب»⁽¹⁾ مجموعة خطوات لمقاربة النصوص الشعريّة وفق هذا المنهج تتلخّص بالآتي:

- تقطيع النصّ وتسويغ هذا التقطيع.
- استحضار الموقف التّواصلّي عبر تأطير النصّ وتعيين بنيته الدلاليّة الكبرى.
- محاولة إثبات هذه البنية عبر تعاضد المستويات: الصّوتي والتركيبيّ والدلاليّ والتّركيز على اللافت.
- الكشف عن محاور النصّ الدلاليّة من خلال الثنائيات والمتعارضات الأساسيّة عبر الاستقراء والتّحليل السيميّ لبعض الإشارات الأساسيّة البارزة.
- عرض هذه المحاور على المربّع السيميائيّ من منظور استبداليّ أولاً، ثمّ من منظور تركيبيّ للكشف عن مجرى الدلالة في حركة النصّ.

أولاً: «إلى قومي» لباروير سيفاك

1. معيّنات النصّ الإشاريّة: أنا - هنا - الآن

تبرز المعيّّنات الإشاريّة عبر تأطير الكلام وتحديد الموقف التّلفظّي في هذه القصيدة؛ فالمتكلّم هو الشّاعر نفسه «باروير سيفاك» (المؤوّل المباشر) وما دلّ عليه انتشار ضمير المتكلّم المفرد العائد إليه: «أنظر، بي، أتساءل أخبرني...» وباللّجوء إلى المؤوّل الديناميّ، نتبيّن أنّ الشّاعر أرمنيّ، ابن بيئة عاشت المجازر والتّهجير، وحملت في لاوعيتها الجمعيّ آثار الظلم والاضطهاد والقتل... هذه الأنا الشاعرة تستدعي بدورها ضميراً آخر هو «الأنت»، والمتمثّل بقوم الشّاعر كما يصرّح عنوان هذه القصيدة (إلى قومي)، ويتأكّد ذلك عبر انتشار ضمير المخاطب المفرد «تسافر بي إلى أمسك، اقتحمت...» وعبر الخطاب المباشر المتمثّل بصيغ الاستفهام والأمر والتعجّب: «أخبرني كيف؟ كيف نهضت؟ ... لست أيّ جمرٍ... لست أيّ نارٍ!». فالعلاقة بين الأنا والأنت هي علاقة احتواء وتآلف: الشّاعر هو ابن هؤلاء القوم، إليهم ينتمي، وإياهم يخاطب.

ويلفتنا، في السّطر الثالث والعشرين، بروز ضمير الغائب الجمع «هم» العائد إلى الأتراك: «كما هم... أولئك هم الحرائق»، والذي يضعه الشّاعر في هذا الموقع المحوريّ من القصيدة في علاقة تعارضٍ بين «الأنا» و«الأنت»، فتتضح معالم الصّراع

(1) نبيل أيوب: النقد النصّي (2) وتحليل الخطاب، مكتبة لبنان ناشرون، ط.1، 2011، ص. 165

الذي يبدو غير متكافئ للوهلة الأولى بين الطرفين:

أنا + أنت # هم

نحن # هم

أو بعبارة أخرى:

فيصبح الصراع حينئذٍ متكافئاً، وتصير المواجهة مواجهة الندِّ للندِّ، ويغدو النصر مستحقاً.

أما الزمن البارز في هذه القصيدة، فيتراوح بين خطين متوازيين: الخط الأول المتمثل بالأمس-الفخر بألمه وحرقته « تُسافر بي إلى أمسِك الغابر... أمسِك الألم... العزة... الفخر...»، بينما يتمثل الخط الثاني بالمستقبل المحتم، الواضحة معالمه سلفاً، انطلاقاً من إيمان الشاعر بعزيمة قومه وإصرارهم «نارٌ تتقدُّ... نارٌ لا تُطفأ... نارٌ تستعِرُ منذُ دهور تمتدُّ... تمتدُّ بعيداً لتُتَبعِش وتنتعِش...»

ويتفرع المكان أيضاً في هذه القصيدة إلى قطبين متقابلين: القطب الأول هو المكان القريب المتمثل بالوطن المحترق والمدمر، بفعل ما تعرّض له من اعتداءات ألحقت الأذى به أرضاً وشعباً « أسفل الوادي السّحيق، تُطلُّ على الرّوابي على المروج الميتة، على السّهول المذبوحة، على الوهادِ الموحشة...». أما القطب الثاني فهو المكان البعيد أو المنشود، والمتمثل بالوطن الحلم الحاضر في ذهن أبنائه على شكل إشعاعات مضيئة ومحفزة: «شعلة العائلة المقدّسة نارٌ موقد التّور... نارٌ مدخنة البيت... نارٌ القنديل المضيء المشتعل...».

بذا، يتضح لنا الموقف التواصلي في هذه القصيدة: فالشاعر الأرمني «باروير سيفاك» يتوجّه إلى أبناء قومه ذاكراً بطولاتهم الماضية في وطن مثخن بالألم، مصوراً قدراتهم البطولية الكفيلة بالارتقاء بهم وبوطنهم إلى وطن يضيء من جديد على امتداد المحيط الجغرافي. وتتضح تبعاً لذلك، البنية الدلالية الكلية لهذا النصّ، المتمثلة بتغلب شهوة الحياة على الموت، والانتقام للذات الجماعية القومية عبر إعلان الحضور الفاعل الدائم والمستمر.

2. تقطيع النصّ:

تنقسم هذه القصيدة إلى محورين اثنين:

المحور الأول (س. 1 - س. 22): ونلاحظ فيه تكراراً لأداة الاستفهام «كيف» التي سخّرها الكاتب من أجل إطلاق سلسلة استفهامات تعجبية، ليبرز من خلالها الواقع المقاوم لأبناء قومه، انطلاقاً من فخره بتاريخ أهله وإنجازاتهم، وسعيهم الدائم إلى قلب

السّواد فسحة رجاء وأمل: « كيف اقتحمت الزمان الوعر؟ كيف نشطت؟ برعت؟ كيف جمعت من السمّ الرّعاف زهرَ النرجس المزروع في أتربة القهر؟! كيف عصرت العسلَ الأشقرَ الوهاج؟ كيف اغترفت من نبعك الغرّيد قليل ماء؟ كيف نهضت؟... » هذه القدرة التحويلية التي أسندها الشّاعر إلى أبناء قومه أضفت عليهم صفة الشّعب الخارق، القادر بإرادته على الانبعاث من جديد، وتالياً الانطلاق نحو حاضر أقوى ومستقبل مرسوم المعالم.

المحور الثّاني (س. 23 - س. 40): وفيه تكرار لمفردة «نار» التي شكّلت نقطة ارتكاز هذا المحور، بوصفها الكلمة المفتاح الأكثر تكراراً وانتشاراً. كما نلاحظ ظاهرة الإضافة التي جاءت لتوضّح معالم هذه النّار، والإحالات التي رسمها الشّاعر لإظهار التّقابل الجوهريّ بين هذه النّار وبين الحرائق التي تحدّث عنها في القسم الأوّل «نارُ الشّعلة... نارُ موقد التّنور... نارُ القنديل المضيء المشتعل... نارُ اللّهب المروّع.»

3. دراسة المستويات في القصيدة:

أ - المستوى الإيقاعي:

من يقرأ هذه القصيدة يَر مدى وفرة المعطيات الإيقاعيّة الداخليّة، ومرّد ذلك إلى عدّة أنماط إيقاعيّة. أبرزها:

- إيقاع تكرار الصّوت:

لا شك أنّ تكرار بعض الحروف يُحدث تشكيلاً صوتياً للصّورة السّمعية، ويخلق أثراً في نفس المتلقّي، فالتكرار ينهض بوظيفة الإشعار والتأثير والتّعبير بدل الإخبار والتّقرير⁽¹⁾...

ويلفتنا في مستهلّ القصيدة تكرار حرف الباء، وهو صوت صامت شفويّ انفجاريّ⁽²⁾ ورد بشكل تقارب صوتيّ ممزوج بالإبدال: «بالرّوع، بالدّهشة، بي». أطلق هذا التّكرار الصّوتيّ القصيدة، مكّن الشّاعر من تسجيل موقف انفعاليّ صارخ: إعجاب ودّهشة بما أنجزه شعبه ماضيّاً، وما زال ينجزه حاضرّاً.

أمّا حرف الرّاء فقد تکرّر أيضاً بشكل واضح، لا سيّما في الوحدة المقطعيّة الثّانية من القصيدة: «للمعركة، للثّار، لرقصة النّار، لبُشرى النّصر، نارٌ تستعِرُ منذُ دهور، نارٌ، جمراً، نارٌ تُشرقُ، نارٌ لا تُدمِرُ، لا تُخرّبُ، لا تنتشرُ...». والرّاء صوت

(1) حاتم عبيد: التّكرار وفعل الكتابة في الإشارات الإلهيّة لأبي حيّان التّوحيدي، صفاقس، ط.1، 2015، ص. 25

(2) أحمد زرقعة: أسرار الحروف، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، دمشق، ط.1، 1993، ص. 43

مجهور، لثويّ Apicale vibrante، واختلف الباحثون في تصنيفه بين الحروف، بين الانسدادية والاحتكاكية، يتكوّن بتتابع ضربات اللسان تتابعاً سريعاً على اللثة، ويرافق نطق هذا الصامت المكرّر ذبذبة في الأوتار الصوتية...⁽¹⁾ هذه السرعة نفسها التي حاول الشاعر أن يقرنها بالمعركة، وسرعة استعار النّار وامتدادها... وفي هذه السرعة والحركة حياة، ذلك أنّ الموت جمود وركود... هكذا حسم الشاعر إيقاعياً، في نهاية قصيدته، الحركة لصالح السرعة على البطء، والموت على الحياة، مؤكّداً أنّ شعبه لا يموت ولا تخبو عزيمته، بل يأخذ من النّار إشعاعها وحرارة الحياة، لينتفض من جديد ويكمل مسيرته.

- إيقاع التكرار المعجمي:

وأبرز ما يلفتنا في هذا الصّد تكرار أداة الاستفهام «كيف»، بعد أن صدّرها بالفعل «أتساءل»، من ثمّ حذفه، ليصبح تكرار «كيف» متقاربا، مركّزا بذلك على الكيفية وليس على التساؤل بحدّ ذاته: «أتساءلُ كيف؟ كيف اقتحمت الزمان الوعر». ثمّ يختصر المسافة بحذف «كيف»: «السماء الدكناء الغيوم؟ قطعت مسافات لا تهدأ لا تنتهي؟!» كي لا يصبح التكرار رتيباً، ليجعل بذلك التكرار مؤجّلاً: «كيف نشطت؟ برعت؟ كيف جمعت...؟ كيف عصرت...؟». وبعد أن يهدأ نفسه قليلاً، نراه يعود بعد بضعة أسطر ليستخدّم الأداة «كيف» من جديد: «كيف؟ كيف اغترفت من نبعك الغريد قليل ماء؟ أخبرني كيف؟ كيف نهضت؟»

فالشاعر لا يشكّ بقدرة شعبه على الإتيان بالمستحيلات، ولا يأتي تساؤله هنا بمعرض الشكّ، إنّما تعمّد استخدام الأداة «كيف» من دون الوصول إلى أي إجابة عن أسئلته؛ ذلك أنّ أي تفسير لشجاعة شعبه لا يمكن الوصول إليه منطقياً... ويلفتنا ذكر الفعل «برعت» بمفرده من دون أداة الاستفهام، في محاولة من الشاعر للتأكيد على براعة قومه. هكذا يضيفي الشاعر نزعة بطولية ماورائية خارقة على بطولات قومه.

كما نراه يكرّر لفظة «نار» في الوحدة المقطعية الثانية من القصيدة ثماني عشرة مرّة؛ والنّار ظاهرة ذات امتياز، يمكنها أن تفسّر كلّ شيء، فكلّ ما يتغيّر سريعاً تفسره النّار، لأنّها هي الحيّ الأعلى _vivant_Ultra_، وهي داخلية وخارجية، وهي الوحيدة من بين جميع الظاهرات التي يمكنها أن تقبل كلتا القيمتين المتضادتين:

(1) هيام كريدية: الألسنية، الفروع والمبادئ والمصطلحات، بيروت، ط.3، 2012، ص.142.

الخير والشر⁽¹⁾. والنار عند من يتأملها مثال على الصيرورة العاجلة، ومثال على الصيرورة الآجلة، وهي توحى بالرغبة في التغيير والإسراع بالزمن⁽²⁾... وانطلاقاً من هذا، أضفت مفردة النار التي كررها الشاعر، إيقاعاً سريعاً متألفاً مع فكرة الحسم والامتداد والحركة والصيرورة... كل هذا من أجل تأكيد انتقاء فكرة الموت والجمود عن قوم الشاعر، فهم النور، وهم النار التي كانت وستظل تستعر أبداً.

- إيقاع التصاعد المنتظم:

ويبرز هذا النمط الإيقاعي في القسم الأول من القصيدة عبر توالي الأفعال المضارعة:



فقد استطاع الشعب الأرمني، كما يقول الشاعر، بماء قليل، «ملاء كف» أن يجعل طاحونة المياه تعمل وتدور ثم تتألق وتشلح حياة جديدة وتطحن النور فتشرق الحياة. هذه الحركة الدائرية للطاحونة هي حركة صاعدة مركبة تنطلق من العمل، وهو وصف بسيط لأي حركة، وصولاً إلى طحن النور الذي نتج منه إشراق الحياة كنتيجة حتمية لهذه العملية: عملية توليدية نقلت الشعب من حالة الركود/عدم العمل، إلى الإنتاج والدوران والتوليد...

ويرى «باشلار» في كتابه «الماء والأحلام» أنّ الماء وحده من بين العناصر

(1) غاستون باشلار: النار في التحليل النفسي، تر. نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، ط.1، 1984، ص. 11

(2) م.ن: ص. 19

الأربعة هو الذي يهدد كالأثم، وهذا ملامح من ملامح طابعه الأنثوي⁽¹⁾. وهكذا يتجلى لنا أن طاحونة المياه هذه، والتي عادت إلى العمل من جديد على أيدي قوم الشاعر، ما هي إلا الأرض - الأم التي عادت لتشرق الحياة فيها من جديد بفضل عزم أبنائها ونضالهم.

وفي مثال آخر على التكرار التصاعدي الموسع المتوازن، نورد قول الشاعر في الوحدة المقطعية الأولى:

			الوعر	الزّمان	اقتحمت	كيف
		الوهّاج	الأشقر	العسل	عصرت	كيف
ماء	قليل	الغزّيد	نبتك	من	اغترفت	كيف

هذا النفس التصاعديّ يسهم في تعظيم الشاعر إنجازات قومه في مجال مقاومة العدو، ويبرز دهشته وإعجابه وتقديره لما بذلوه من تضحيات في سبيل البقاء والاستمرار.

كما نقرأ في الوحدة المقطعية الثانية:

			الشّعة	نار
		البيت	مدخنة	نار
	المشتعل	المضيء	القنديل	نار
	للغداء	المروّع	اللّهب	نار
	للمعركة			
	للنّار			
النّار	لرقصة			
النّصر	لبشري			

(1) غاستون باشلار: الماء والأحلام: دراسة عن الخيال والمادة، تر. علي نجيب إبراهيم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط.1، 2007، ص. 193

يمتدّ هذا التّركيب إيقاعياً ويتوسّع تماماً كحركة الاشتعال الممتدّة من حالتها البسيطة الكائنة في: نار الشّعلة والمدخنة والقنديل، وصولاً إلى تمثّلها بصور الحرب والمعارك والموت تحقيقاً للتّصريح.

- إيقاع المركّبات المتوازنة:

التّوازن هو تساوي الفاصلتين الكلاميتين في الوزن⁽¹⁾. والأمثلة عديدة عليه نذكر أبرزها:

لمست	أيّ	جمر
لمست	أيّ	نار

كنت	الجمر
كنت	النّار

يقدمّ هذان التّوازنان تماثلاً تقابلياً بين حالتين تعكسان ديمومةً واستمراريّةً لحال هذا الشّعب المقاوم:

هو النّار الحاضرة بالفعل، المشتعلة المطهّرة الممتدّة الباعثة للحياة متى استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهو النّار الموجودة بالقوّة من خلال الجمرة القابل للاشتعال بعد كلّ كبوة... هو في مطلق الأحوال، شعب اللّارماد واللّاركوود واللّاموت.

وفي مثال آخر على التّوازن المحوريّ، نقرأ:

	الزّوابي	على
الميتة	المروج	على
المذبوحة	السّهول	على
الموحشة	الوهاد	على



أسند الشّاعر الفعل «تطلّ» إلى قومه، في تناقض واضح بين هذا الفعل الذي يوحي بالحركة والحياة، وبين ما جعلهم يطّلون عليه: الزّوابي والمروج والسّهول والوهاد المقرونة بصفات تنبئ بالموت (الميتة، المذبوحة، الموحشة). واللّافت أنّ هذه المفردات يسبقها كلّها حرف الجرّ «على»، فهل اختار الشّاعر عمدًا أن يبدأ توازناته

(1) السّيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصريّة، صيدا، ط.2، 2000، ص.131.

بجاءٍ ومجرور بعد الفعل «تطلّ» الذي أورده مرّة واحدة في البداية ثمّ حذفه؟ أفليست هذه الإطالة المقرونة بشبه الجملة إطالة الشعب نفسه على شبه حياة، وشبه أرض، وشبه حاضر، بعد أن عاث فيه العدوّ خراباً؟

ب - المستوى التركيبي:

اللغة لا نهائية، لكنّها تُحصّر بقواعد نهائية، يُعبّر عنها بالنحو الذي هو الآلة الباطنية، التي تولّد ما لا نهاية له من الجمل⁽¹⁾. ويلفتنا في هذه القصيدة لجوء الكاتب إلى التّقديم والتّأخير في غير موضع من النصّ مثلاً:

«الغربة حوّلت حرقتها إلى طائر لقلق ينشر الحبّ»: لقد كان ممكناً القول: حوّلت يا قومي حرقه الغربة إلى طائر لقلق ينشر الحبّ، أو حرقه الغربة حوّلتها إلى طائر لقلق... لكنّه قدّم «الغربة» وجعلها تتصدّر جملته الشعريّة ليؤكد على الواقع المرير الذي خبره شعبه بسبب العدو. ألمّ يستطع أن يقدم الشعب أو التّحويل على الغربة؟ بلى، ولكنّ الغربة كالحرقه أقوى منه ومن شعبه. أمّا التّحويل بحدّ ذاته فقد يكون غير مهمّ، فليس أيّ تحوّل يستحقّ أن نتوقّف عنده، إنّما الواقع المتحوّل هو الأساس، وهو الذي يكسب العمليّة التّحويليّة أهمّيّتها: من الغربة والموت، إلى الانتماء إلى الحياة من جديد.

ومثال آخر على التّقديم والتّأخير في قوله: «إلى العالم من جديد عدتّ»: فالرّكن الإسناديّ الأساس هو الفعل في الجملة، لكنّه قدّم الجاء والمجرور وأخر الفعل، ليسلّط الضّور على الوجهة: «إلى العالم»، ويقصد بالعالم هنا الحياة، لكنّ الشّاعر أضاف بجملته هذه أسطورة جديدة إلى أساطير البعث والحياة المعروفة في الحضارات القديمة؛ إنّها أسطورة البعث الأرمنيّ الجديد، بعد محاولة القضاء عليه وخنق الحياة فيه.

وما قيل سابقاً في تقديم شبه الجملة يصحّ أيضاً في المثل الآتي: «في عروق الأبناء تسري الدماء»، فالأبناء، بحميّتهم وشجاعتهم واستبسالهم في سبيل الدّفاع عن أرضهم، هم محور التّغيير ونقطة الارتكاز التي يعوّل عليها الشّاعر في الثّأر لكرامتهم وكرامة وطنهم، ففي عروقهم يجب أن تسري الدّماء، لا في تراب الوطن. وفي ما يخصّ الأفعال، نلاحظ أنّ الصّيغة المهيمنة هي صيغة المضارع، بعدد

(1) سعيد بو عيطة: فردينان دو سوسور، المقاربة العامليّة عودة في اللسانيّات التّوليديّة، مجلّة كتابات معاصرة،

أفعال بلغ تسعة وعشرين فعلاً، مقابل سبعة عشر فعلاً في الزمن الماضي. وهذه الأفعال المضارعة تتوزع بين أفعال مرفوعة وعددها خمسة وعشرون فعلاً (تسعة عشر فعلاً مثبتاً وستة أفعال منفية)، وأخرى منصوبة (أربعة أفعال).

هذه الأفعال المضارعة تعكس بمجملها حركة سريعةً خاطفة بعيداً من الثبات والاستقرار (ينشر، يسوق، تعمل، تدور، تتألق، تشلح، تطحن، تشع، تسري، تتقد، تمتد...). أليست هذه الحركة السريعة هي حركة الحياة نفسها؟ ويعين المضارع هنا زمنية المقاومة الأرمنية، فعلى الرغم من أن المجازر الأرمنية كانت قد انتهت بتاريخ كتابة الشاعر هذه القصيدة، إنما كل ما مرّ به هؤلاء القوم مازال حاضراً في وعيه وفي لا وعيه، متوهجاً في عمق ذاكرته الجماعية، مشعاً في وجدانه، دافعاً إياه إلى استحضار ما عايشه كمحفّزٍ للوفاء للتاريخ والرسالة، ذلك أن النسيان فعل خيانة لتاريخه العريق.

وجاءت الأفعال المثبتة في القصيدة لتكمّل الأفعال المنفية التي وردت في معرض التأكيد على رؤية الكاتب إلى أبناء قومه/النار: تسافر # لا تهدأ / تتقد # لا تُطفأ / تجتاح # لا تدمر / تمتد # لا تنتشر

واللآفت أنه استخدم فعلاً واحداً فقط بصيغة المجهول: «لا تُطفأ» في إشارة إلى محاولة القضاء على جذوة هذا الشعب المضطربة وطنيةً وحنوياً؛ فبالرغم من أن الفاعل معلوم، إلا أنه اختار صيغة المجهول ليقّل من شأو العدو ويحطّ من قيمته: هو يعرفه جيّداً، ولكنّه، أمام عظمة شعبه، لا يراه ولا يعيره أيّ اهتمام.

وقد استعمل الشاعر «الحال» المفردة أربع مرّات في هذه القصيدة، مستهلاً النصّ بها: «مملوءاً، ممزوجاً»، معبراً بذلك عن إعجابه وفخره بتاريخ قومه، معلناً موقفاً صريحاً واضحاً منذ بداية القصيدة، وكأنّه بذلك ينطلق من واقع ثابت وعام ليفصّل حيثياته في الأسطر اللاحقة:

الشّعور بالزّوع والدّهشة (واقع عام دعمه الشاعر بأسلوب انفعاليّ عبر الاستفهام التّعجبيّ في الوحدة الأولى)

لماذا؟

لأنّ شعبه:

أ - اقتحم الزّمان الوعر والسّماء الدّكّاء (س.4)

ب - قطع مسافات لا تنتهي (س.5)

- ج - نشط وبرع وجمع من السمّ زهر النرجس (س.6)
 د - عصر العسل الأشقر الوهاج كما نحلة (س.8-7)
 هـ - حوّل الغربة إلى طائر لقلق ينشر الحبّ (س.9)
 و - استطاع بماء قليل أن يجعل طاحونة المياه تتألق لتشرق الحياة على كلّ ما هو ميت (س.14-18)
 ز - عاد إلى الحياة من جديد بأعجوبة بعد أن تدثّر بالموت (21-22)
 ح - هو النّار المتقدّة المشرقة الممتدّة التي لا تخرب، بل تُنعش وتنتعش (س.36-40)

إذاً، لكلّ هذه الأسباب، نرى الشّاعر فخوراً بقومه، ولم يكتفِ بذلك فحسب K فقد اقترب في بنية قصيدته هذه من التّوضيح والإخبار، أكثر من البرهان ومحاولة الإقناع لغاية في نفسه دفيئة: فالى جانب فخره بشعبه الذي لا يحتاج إلى برهان ودليل حسيّ، تبرزُ قضية قومه التي ليست أيضاً بحاجة إلى أدلة لإثبات صحتها لناحية التّكامل بهم والمجازر التي ارتكبت بحقّهم؛ فهو يريد بشكلٍ غير مباشر أن يُثبت أنّها قضية إنسانية يجب أن تُحرّك الرّأي العام وتهزّ الضّمائر، وهي تحتاج فقط إلى إخبار وإعلان ونشر.

ولهذا السّبب، يلجأ الشّاعر، بخاصّة في الوحدة المقطعيّة الثّانية من قصيدته، إلى الجمل الاسميّة، لاسيما الخبريّة منها، للتّأكيد على ثبات قومه في مواجهة العدوان التركيّ، وعلى ديمومة تماثلهم بالنّار في وجهها الإيجابي: «نار تتقد... نار لا تُطفأ... نار تستعر... نار تستطع... نار تشرق...».

4. محاور النّصّ وثنائياته:

يلفتنا في هذا النّصّ عدد من المتقابلات الدّلاليّة الموزّعة على الودحتين المقطعيّتين اللّتين سبق تحديدهما. وتندمج هذه المتقابلات ضمن محاور متنوّعة أهمّها:

- محور الحياة/الموت:

ويندرج ضمن هذا المحور عدد من الثّنائيات أبرزها: الفناء/البعث، الألم/اللذّة، التراب/الماء، العقم/الخصب...

فالشّاعر ينظر إلى قومه نظرة فخرٍ وإعجاب، بسبب صمودهم بوجه العدو التركيّ، وهذا ما أعلنه في بداية نصّه عبر تقابل بين شبكتين معجميّتين متعارضتين، أولهما تعود إلى الموت؛ ومن أبرز ما تتضمنه:

- «الزّمان الوعر»: وقد جسّد الزّمان مسندًا إليه صفة الوعورة للدّلالة على القحط والعقم...
- «السّمّ الرّعاف» للدّلالة على ما ألحقه الأتراك من ظلم وقهر بالشّعب الأرمنيّ...
- «أتربة القهر»: والتراب هنا باقترانه بصفة القهر، في تعارضٍ مع الماء الباعث للحياة الذي ذكره الشّاعر في قصيدته، فكما يقول «باشلار»، «الماء يسحق أكثر من المطرقة الأتربة ويطرّي الموادّ»⁽¹⁾، هكذا يسحق الشّعب الأرمنيّ كلّ محاولة تهديد لوجودهم...
- «الجراح الثّخينة»، «قطعان الأوجاع»، «ألوان العذاب»، «السّيول المرعدة»: والتي تأتي في وضعيّة تقابل مع النّبغ الغرّيد وفي حالة صراع، وكرّ وفرّ بين الشّعبيين...
- «الوادي السّحيق»، «المروج الميتة»، «السّهول المذبوحة»، «الوهاد الموحشة»، «بأجفان الموت تدنّرت»: للدّلالة على عمق هوة الصّراع مع العدو، والأرض المذبوحة كشعبها، والأماكن المتروكة والمنهوبة التي يلفّها شبح الموت... أما الشّبكة المعجميّة الثّانية، فمرتبطة بالحياة، ومن أبرز عناصرها:
- «زهر النّرجس»: ولاشكّ أنّ هذه الزّهرة مرتبطة تاريخيًّا بأسطورة «نرسييس»، إلّا أنّها تحمل دلالات عديدة ومتنوّعة: فبالنّظر إلى موسم ظهورها في فصل الرّبيع، فإنّها قد تدلّ على الآنيّة أو الظّهور المؤقت، وقد تشير إلى خدر الموت أو النّعاس، ويمكن أيضًا، بسبب ظهورها في الأماكن الرّطبة، أن ترتبط بالماء، وتشير بالتّالي إلى الخصوبة والحياة الجديدة⁽²⁾. هكذا يحمل زهر النّرجس في هذه القصيدة دلالة العودة إلى الحياة والانبعاث: هذا الشّعب الذي غرف بكفّه الماء، وأعاد طاحونة المياه-الحياة إلى العمل من جديد، هو نفسه الذي جمع زهر النّرجس.
- «الماء»: يرمز بشكل عامّ إلى الحياة والخصب، ففي الأساطير القديمة، تتلخّص

(1) غاستون باشلار: الماء والأحلام: دراسة عن الخيال والمادّة، ص. 157

(2) Jean Chevalier et Alain Gheerbrant: *Dictionnaire des symboles*, Robert Laffont, Paris, 1982

Le Narcisse: "On offrait des guirlandes de narcisses aux Furies, censées engourdir les scélérats... La fleur pousse au printemps, dans des endroits humides: ce qui la rattache à la symbolique des eaux et des rythmes saisonniers et, en conséquence, de la fécondité. Ce qui signifie son ambivalence: mort-sommeil-renaissance..."

صور الماء بثلاثة عناوين أساسية: الخصب والتطهر والولادة الجديدة⁽¹⁾، وفي الديانات السماوية يتخذ الماء بعداً مقدساً، ففي القرآن الكريم، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾⁽²⁾، وفي الديانة المسيحية، يعدّ الماء ركناً أساساً في العديد من أسرار الكنيسة، لاسيما في سرّ المعمودية، ويرمز إلى غسل الطفل من الخطيئة والولادة الجديدة: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُوَلَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ»⁽³⁾.

- هكذا يسخر الشاعر الماء في هذا الإطار بوصفه عنصراً باعثاً للحياة، وقد اكتسب هذا الماء قدرته المقدسة بعد أن لامس كفّ هذا الشعب « كيف اغترفت من نبعك الغريد قليل ماءٍ؟ ملء كفّ؟» لتبدأ طاحونة المياه تعمل بهذا القدر القليل...

- حياة جديدة، «تشرق الحياة»، « كيف نهضت؟ إلى العالم من جديدٍ عُدت؟ بأجفان الموت تدنّرت؟ بأيّ أعجوبة رجعت؟: وفي سلسلة الاستفهامات هذه إحالات إلى مفهوم الحياة بعد الموت، أو النبعث في الأساطير القديمة على اختلافها، كما في الحضارة السومرية مع أسطورة «جلجامش»، وفي الحضارة البابلية مع أسطورة «حلم أمير في العالم السفلي»⁽⁴⁾، أو حتى إلى مفهوم الحياة بعد الموت أو الحياة الأبدية في الديانات السماوية... هكذا عاد الشعب الأرميني من جديد بعد محاولة إباده، وبأعجوبة رجع إلى الحياة، وفي هذا إشارة واضحة إلى صفة القدسية التي يسندها الشاعر إلى شعبه، والتي سنتكلم عنها في المحور الثاني، محور الحركة/الثبات.

- محور الحركة/الثبات:

يضمّ هذا المحور عدداً من المتقابلات الدلالية أبرزها: الحاضر/الماضي، النور/الظلمة، النصر/الهزيمة، الضعف/القوة...
إنّ السمة الأساس، الناطمة لهذا المحور والمشكلة إيّاه، متمثلة في الفعل التحويلي

(1) Marie-Paule Vigne: *Le thème de l'eau dans l'œuvre de Virginia Woolf*, Presses universitaires de Bordeaux, 1984, p.173: "Les mythes de l'eau se groupent autour de trois orientations: fertilité, purification, renaissance"

(2) الأنبياء: 30

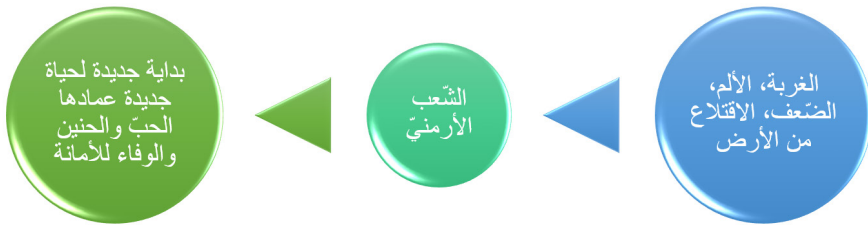
(3) يوحنا 3: 5

(4) راجع: فراس السّواح: مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة، سوريا وبلاد الرافدين، دار الكلمة، ط.11، 1996، ص. 273

الذي بدا واضحًا من خلال العديد من الرموز والدوال المتشابكة، لتشكل وحدة نصية متكاملة. ومن أهمها:

«العسل الأشقر»، ألواح الشهد»، «نحلة»: يرمز العسل إلى التحويل والصيرورة والتوليف والانتقال من حالة إلى أخرى⁽¹⁾، وفي سفر العدد في العهد القديم، يُرمز إلى أرض الميعاد بـ «أرض اللبن والعسل»⁽²⁾. أما النحلة فترمز إلى الذكاء والفصاحة والاجتهاد والعمل المنظم⁽³⁾... وقد أسند الشاعر هذه الرموز إلى قومه المتميزين ليس فقط بحركتهم ونشاطهم، وإنما أيضًا ببراعتهم («كيف نشطت؟ برعت؟») هو النحلة التي حوّلت السم إلى زهر التّرجس، ولم تكتفِ بذلك، إنّما عصرت «العسل الأشقر الوهاج» وسكبته في ألواح الشهد: تحويل من السلبي إلى الإيجابي، من الموت إلى الحياة، من النقصان (العسل الكامن بالقوة في الزهرة) إلى الشكل الأرقى والأكمل والأصفي (العسل)، والشعب-النحلة هو الوسيط. فهل تكون أرمينيا هي أرض الميعاد الجديدة التي يرمز إليها الشاعر بالعسل والتّرجس؟!!

- «طائر لقلق»: يلفتنا استخدام الشاعر لرمز «اللقلاق»؛ وهو طائر من الطيور المهاجرة، يتميز بمنقاره الطويل، ويرمز إلى الوفاء والتّقوى والبنوة والخصب، كما يرمز إلى البدايات والحياة الجديدة⁽⁴⁾. وهذا الطائر هو وليد عملية تحويلية من الغربة، عن طريق قوم الشاعر أيضًا («الغربة حوّلت حرقها إلى طائر لقلق»):



- «طاحونة المياه»: ومن الرموز الحركية التحويلية أيضًا في هذه القصيدة «طاحونة

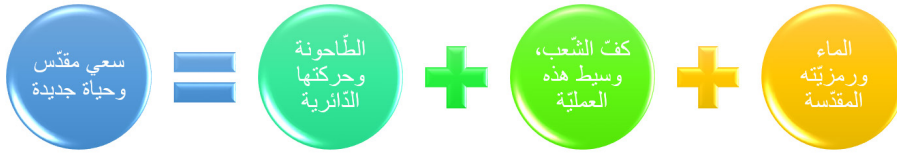
(1) Stéphane Legrand: *L'éloquence est du miel*, Labyrinthe, Amiens, n. 40, 2013, p. 87-89

(2) عد 13: 27: "قَدْ دَهَبْنَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرْسَلْنَا إِلَيْهَا، وَحَقًّا إِنَّهَا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا"

(3) Stéphane Legrand: *loc.cit*

(4) Mark Bekoff: *Encyclopedia of Human-Animal Relationships*, Greenwood press, London, 2007, p. 457

المياه». وحركتها هنا مركبة معقدة غير تقليدية، فصحیح أنها عملت باستخدام المياه، ولكنها استهلكت ملء كَفِّ منه فحسب، ولم تنتج عنصرًا ماديًا كما من المفترض أن تفعل، إنما ولدت نورًا، وهذا النور بدوره كان سببًا في إشراق الحياة على الروابي والمروج الميتة، والسهول المذبوحة والوهاد الموحشة، وتاليًا نقلها من مرحلة الموت إلى مرحلة الحياة. والحركة الدائرية للطّاحونة توجي بالكمال والمطلق والتناسق والديمومة، من دون أن تسجّل بدايةً أو نهاية، كما أنها ترمز إلى السماء والقداسة، وتشير إلى الوقت⁽¹⁾. وبالنظر إلى السياق، يتّضح لنا الآتي:



هكذا كرّست هذه العمليّة انتقال الشعب من «الأمس-الألم» إلى الحاضر-الكفاح، من الزّمان الوعر إلى زمن العزّة والفخر، من جمع السّم إلى إنتاج العسل، من حرقه الغربية إلى نشر الحبّ والحنين، من أسفل الوادي السّحيق المظلم والمروج الميتة، إلى جبل الانتصارات حيث تسطع شمس الحياة... باختصار؛ من مرحلة النزاع السّابق للموت المحتمّ، إلى مرحلة الحياة. ألا يبرّر كلّ هذا شرعيّة سؤال الشّاعر التّالي لذكره هذه الوقائع؟: «بأيّ أعجوبة رجعت؟»، ألا يفترض بشعب قام بكلّ هذه العمليات التّحويليّة الخارقة، أن يكون هو نفسه شعبًا خارقًا ومباركًا، لا بل مقدّسًا؟

- محور النّار المحيية/النّار المدمرة:

يقوم هذا المحور على تقابل جوهرّي بين الأنت/الهم، ويتفرّع من هذا التّقابل مجموعة ثنائيات، كثنائية النّور/الظلمة، الدّفء/البرد، الخصب/الجفاف، الشّبع/الجوع... فالنّار كما يؤكّد «باشلار»، هي الوحيدة التي تقبل قيمتين متضادتين: «الخير والشرّ»، تتألّق في الفردوس وتستنعر في الجحيم، عذوبة وعذاب، مختبر بداية ورؤيا نهاية، مسرّة للطفّل يجلس وديعًا قرب الموقد، غير أنّها تعاقب على كلّ عصيان، إذا ما أريد الدنوّ منها كثيرًا والعبث بلهيبها، هناة واحترام، إله حارس ورهيب،

(1) Jean Chevalier et Alain Gheerbrant: Dictionnaire des symboles, p. 191-195

طيب وخبث، يمكن أن تتناقض مع نفسها...»⁽¹⁾. وعماد هذا المحور، كما أسلفنا، التّعارض الجليّ الذي كرّسه الشاعر بين الحرائق والنّار، من خلال رابط التّعارض الاستدراك «لكنّ» (س.24)، فالحرائق باقترانها بضمير الغائب الجمع «هم» تكتسب معنى سلبياً تدميراً، على عكس النّار التي تقترن بضمير المخاطب المفرد «أنت» لتحيلنا إلى دلالات إيجابية:

- «نارٌ في أحداق الصّبايا»: إشارة إلى النّزعة الثّوريّة المتّقدة في نفوس الشّباب، والدّافعة إلى التّغيير والعبور من زمن الدّلّ إلى زمن الانتصارات.

- «نارٌ شعلة العائلة المقدّسة»: وفي هذه العبارة إحالة إلى جذور العقيدة المسيحيّة في التّاريخ الأرمنيّ، إذ تعدّ أرمينيا الدّولة الأولى التي اعتنقت المسيحيّة بعد روما كعقيدة وحيدة للشّعب الأرمنيّ، بعد أن أعلن الملك درطاد الثّالث تحوّل أرمينيا رسمياً بين الأعوام 301م. و314 م. إلى المسيحيّة⁽²⁾. وقد ترك هذا الحدث أثره في اللّوعي الجماعيّ الأرمنيّ: فكيف لشعبٍ تحوّل بأكمله من الوثنيّة إلى المسيحيّة، وكانت دولته الدّولة الأولى التي تعتنق مبادئ الدّين المسيحيّ، أن ينهار في مواجهة خصومه أو يضعف؟ إنّه الإيمان المبنيّ على الاعتقاد الكليّ بحضور القدرة الإلهيّة لانتشال «شعب الله المختار» الجديد من أي مأزق يتعرّض له...

- «نار موقد التّنور، نار مدخنة البيت، نار القنديل المضيء المشتعل»: وتختزن هذه العبارات كلّ معاني الدّفء والاطمئنان والأمان، فموقد التّنور رمز للخير والبركة والشّعور بالاكتماء والشّبع؛ ذلك أنّه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بصناعة الخبز، ومدخنة البيت رمز للأمن من الخطر الخارجيّ والصّقيع، والقنديل المضيء رمز للاستتارة والصّفاء الرّوحيّ، كما أنّه رمز لخلود الرّوح وديمومتها⁽³⁾. وبالإضافة إلى معاني اللّين والهناء التي قدّمتها النّار في ما سبق، تبرز معانٍ أُخر أكثر حدّة، متّصلة بالحرب والمقاومة، ولكنّها تحافظ على دلالاتها الإيجابية: «نار اللّهب المروّع، للدفء، للمعركة، للنّار، لرقصة النّار، لبشرى النّصر...».

وتتخذ النّار في هذه القصيدة مجموعة صفات: هي نار متّقدة لا تُطفأ، مستعرة،

(1) غاستون باشلار: النّار في التحليل النّفسي، ص.11

(2) يوسف إبراهيم الجهماني: تركيا والأرمن، ص. 11

(3) Jean Chevalier et Alain Gheerbrant: Dictionnaire des symboles, p. 562

ساطعة، مشرقة، غير مدمرة أو مخربة، غير منتشرة، بل ممتدة، منتعشة ومنعشة. هذه الثنائيات المنصهرة في النار تجعل منها ناراً مقدّسة، على غرار ما أوردته بعض الديانات القديمة كالزرادشتية وغيرها. ولكن؛ ما هي هذه النار؟ وكيف لها أن تكون منعشة ومنتعشة؟ الجواب على لسان الشاعر نفسه: إنها الشعب الأرمني المتقد شجاعة ورغبة بالانتصار على الفناء والموت، الحارق والمطهر في الوقت عينه («كنت النار... لست أيّ نار!»). هكذا تتأكد لنا المعادلة الآتية:

الشعب مقدّس

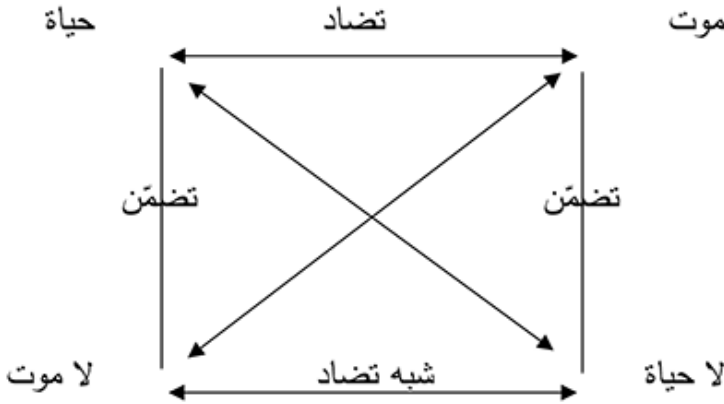
الشعب نار

النار مقدّسة

5. المستوى الموضوعاتي:

أ - المنظور الاستبدالي:

ويتجلّى من خلال القيم الدلالية للتركيب عبر تنظيم الخطاب:

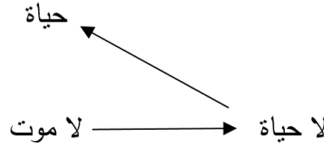


ب - المنظور التركيبي:

يكشف لنا المنظور التركيبي عن مجرى الدلالة في النصّ. فالواضح أنّ الشاعر نظر إلى قومه نظرة فخر، لأنهم لم يستسلموا أبداً ولم يصلوا إلى مرحلة الموت (لا

موت)، إنّما انطلقوا من واقعهم المرير نحو تأكيد ذاتهم وسط كلّ الظلام المحيط بهم (لا حياة)، فكانوا النّار المقدّسة الوفيّة للأمانة والرّسالة والتّاريخ، المؤجّجة للحياة في نفوسهم، المنتصرة على الفناء والعدم (حياة).

هكذا يكون مجرى الدّلالة في النصّ قد انتقل على النّحو الآتي:



ثانيًا: «النهاية» لنسيب عريضة:

1. الموقف التّلفّظي:

يتألّف عنوان هذه القصيدة من لفظة واحدة معرّفة «النهاية»، وهي بمعناها التّعينيّ، تشير إلى بلوغ خاتمة الشّيء وآخره، وهي ضدّ البداية. أمّا المعنى التّضمينيّ فيحمل دلالات سلبية، كالاتسلام أو الهزيمة أو الموت... ترى عن أيّ نهاية يتحدّث الشّاعر؟

تكشف حواشي هذا النصّ عن أنّ المرسل في هذه القصيدة هو الشّاعر «نسيب عريضة» (المؤوّل المباشر)، ويتأكّد ذلك عبر ورود ضمير المتكلم المفرد في المقطع الثّاني: «وربّي»، بالإضافة إلى ضمير المتكلم الجمع في غير موضع «نذرف»، ولنتاجر، بمزايانا، علينا، فينا...» أمّا المؤوّل الدّيناميّ فيكشف لنا قيمة هذا الشّاعر، بوصفه واحدًا من أبرز شعراء المهجر الذين شغلّتهم القضايا الوطنيّة، لا سيّما الجور الذي كان يتعرّض له شعبه على أيدي الأتراك، كما أنّه أحد أبرز أعضاء «الرّابطة القلميّة» إلى جانب جبران ونعيمة...

هذه الأنا «الخجولة» تستدعي بدورها ضمائر عديدة، إذ يبرز في المقطع الأوّل ضمير المخاطب الجمع، وضمير الغائب المفرد: «كفّنوه، اذهبوا، لا تتدبوه...» يشكّلان طرفي معادلة: طرفًا ميتًا بحاجة إلى أن يُكفّن، وطرفًا آخر ما زال حيًّا، وهو الذي سيتولّى هذه المهمّة. فمن هو الميت؟ وما سبب موته؟ ومن سيقوم بتكفينه؟ الإجابة يكشفها لنا الشّاعر في الأسطر الثّالية، فمن خلال قوله: «فهو شعب ميت ليس يفيق»، نفهم أنّ الميت هو شعب وطنٍ ينتمي إليه الشّاعر، ويأسف لما حلّ به

وسط صمت مطبق.

كما نفهم أنّ الرّمن المتعيّن في هذه القصيدة هو زمن تخاذل مستمرّ، بدأ في الأمس القريب، إثر إعدام الشّهداء في بيروت ودمشق عام 1916، ومستمرّ في الحاضر، وسط أسف الشّاعر وخجله من أن يمتدّ إلى المستقبل، ويحفظ في سجلّات التّاريخ. هكذا يتكشف لنا إطار الكلام في النصّ: الشّاعر المرسل يتوجّه، من خلال قصيدته هذه، إلى من بقي حيّاً من أبناء شعبه فكراً ووجداناً وكرامةً، معاتباً إيّاهم على سكوتهم، ناقماً على تخاذلهم وضعفهم بإزاء العدو، الذي يشير إليه بضمير الغائب الجمع «ذّلوه، قتّلوه، حمّلوه».

ف «الهنا» القريبة تتعيّن في إطار الوطن الأمّ، ويبرز ضمير المتكلم الجمع في المقطع الأخير، ليشير إلى المكان البعيد الذي ينتمي إليها الشّاعر، أي المهجر: «ولنتاجر في المهاجر ولنفاخر بمزايانا»، والذي يشكلّ منطلقاً ثالثاً للنقمة التي يسوقها الشّاعر في قصيدته.

هي إذا معركة غير متكافئة بين أنا الشّاعر من جهة، وبين الشعب الميت الفاقد النّخوة، والعدوّ المغتصب الفاقد الإنسانيّة، والمواطن المغترب الفاقد حسّ الانتماء، وزمن هذه المعركة، الماضي القريب، والحاضر، والمستقبل، لأنّها تشكّل وصمة عار، وإطارها المكانيّ أرض الوطن الذي يتّسع ليطال كلّ أرض بعيدة حاضنة لمهاجر لبنانيّ أو سوريّ.

2. تقطيع القصيدة:

يأتي الإخراج الطّباعيّ اللافّات لهذه القصيدة ليتلاءم وبنيتها الدّاخلية التي تنقسم ثلاثة أقسام:

المقطع الأوّل؛ ويشكّل الوحدة الأولى، يستهلّها الشّاعر بالحديث عن الشّعبيين اللبنانيّ والسوريّ، مشيراً إلى الواقع المؤسف الذي وصلا إليه: «كفّنوه! وادفنوه! أسكنوه هوة اللحد العميق... فهو شعب ميت... فهو في الذلّ عريق...» ويتضمّن تشكيلة من أربع حركات، تنتهي كلّها برويّ واحد (القاف الساكنة).

أمّا المقطع الثّاني، فيبدأ بذكر للولايات التي ألحقها العدو التّركيّ بأبناء الأمة العربيّة في لبنان وسوريا: «هتك عرض، نهب أرض، شنق بعض...» ويتضمّن أيضاً تشكيلة من أربع حركات، تنتهي كلّها برويّ واحد (الباء المفتوحة).

ويستهلّ الشّاعر المقطع الثّالث بنفسٍ ساخر معاتباً المهجريّين على سكوتهم،

وغفلتهم عمّا حلّ بأهلهم في الوطن العربيّ: «ولنتاجر... ما علينا إن قضى الشعب جميعاً أفلسنا في أمان!»... ضمن تشكيلة من أربع حركات، تنتهي كلّها برويّ واحد (النّون الساكنة).

هكذا يكشف لنا النّسق الطّباعيّ للنّصّ عن ثورة مثلثة الوجوه:



3. دراسة المستويات في القصيدة

أ - المستوى الإيقاعيّ:

- في الإيقاع الخارجيّ:

أول ما يلفتنا في هذه القصيدة ابتعادها شكلاً عن مبدأ القصيدة الكلاسيكيّة العموديّة، إذ اختار الشّاعر أن يلجأ إلى نظام التّفعيلة، مطبّقاً بذلك ثورته الوطنيّة القوميّة التي جاء بها في هذا النّصّ، على بنية النّصّ نفسها، متمرّداً على أصول النّظم الكلاسيكيّ، من اعتماد على بحر شعريّ وقافية واحدة ورويّ واحد، مكرّساً شكلاً شعريّاً جديداً آنذاك عُرف باسم قصيدة التّفعيلة.

وبتقطيعنا أسطر هذه القصيدة، نجد أنّ التّفعيلة الغالبة عليها هي تفعيلة بحر الرّمل «فاعلاتن» مع جوازاتها: فاعلات وفعلاتن وفعالن بالإضافة إلى فاعلن، وقد توزّعت على الأسطر بشكل أحاديّ أو ثنائيّ أو ثلاثيّ... وقد سمّي رملاً «نظراً لسرعة النّطق به، وذلك لتتابع تفعيلة فاعلاتن (0/0//0/) فيه، فهو في اللّغة الإسراع في المشي ومنه الرّمل المعروف في الطّواف»⁽¹⁾. وبحر الرّمل هو بحر الرّقة يوجد نظمه في الأحزان

(1) صفاء خلوصي: فنّ التّقطيع الشعري والقافية، مكتبة المثنى، بغداد، ط.5، 1977، ص. 133

والأفراح...⁽¹⁾ ومن هنا التلاؤم بين استخدام هذه التفعيلة و غرض هذه القصيدة الذي يقرب من الرثاء من جهة، ومن جهة أخرى يعكس حثّ الشاعر أهل بلاده المستسلمين المتخاذلين الغاطّين في سبات يضارع الموت على الاستفاقة السريعة. وتمتدّ هذه الثّورة التجديديّة لتطال القافية أيضًا، والتي توزّعت على ثلاثة أشكال، وجاءت مقيدة تعكس الانطواء على الذات والتقوقع والموت، كما تصوّر القيود التي ارتضاها الشعب مصيرًا له، في بلدٍ سُلبت كرامته من قبل المحتلّ.

- في الإيقاع الداخلي:

○ إيقاع تكرار الصوت:

ويلفتنا في هذا الصّدّد عدد من الأصوات الموحية التي تترك أثرها في السياق: تكرار حرف الهاء: «كفّنوه، ادفنوه، أسكنوه، هوّة، اذهبوا، تندبوه...» وهو حرف ؟؟؟؟؟؟؟؟؟ وقد أكثر الشاعر من استخدامه للدّالة على صمت شعبه من جهة، وسكون الموت من جهة أخرى.

تكرار الحروف المضغّقة: «كفّنوه، هوّة، ميّت، نلّوه، قتلوه، حملوه، الذلّ...»: وفيها إشارة إلى القسوة والظلم والأفعال الجرميّة القاسية المرتكبة من قبل الأتراك، واختارها لكي يعطي صدئً مضاعفًا لصرخته العقيمة، إذ لا من سميع أو مُجيب. حرف الرّاء: «لنتاجر - المهاجر - لنفاخر - ثار - عار - نار - حرّكت - تحرّك»: وهو صوت أسليّ لسانيّ يدلّ على تواتر النّفس وامتداده، لما يتمتّع به هذا الصوت من تكريرٍ متتابع عند لفظه.

○ إيقاع التصاعد التدريجيّ:

ويبرز منذ مطلع القصيدة عبر توالي أفعال الأمر: «كفّنوه - ادفنوه - أسكنوه» وفي ذلك تصاعد في النّبرة الرّثائيّة للشاعر، وتأكيد على حتميّة الموت وعدم إمكانيّة العودة إلى الحياة مجددًا عبر حركة معكوسة: فحركة الموت هابطة منذ التّكفين وحتى اللّحد العميق، أمّا نفس الشاعر فمحتدم ومتصاعد.

كما يبرز هذا النمط الإيقاعيّ في الملمح السّرديّ الذي وظّفه الشاعر لغاية إخباريّة، تنتقل هول الأفعال التّركيّة عبر توالي الأفعال الماضية في المقطع الأوّل: «ذلّوه - قتلوه - حملوه»، والمصادر في المقطع الثّاني: «هتك - نهب - شق»... هذه المتواليات أظهرت الظلم التّركيّ الممنهج الذي ألحق باللّبنانيين والسوريّين، وبيّنت

(1) غازي يموت: بحور الشعر العربيّ عروض الخليل، دار الفكر اللبنانيّ بيروت، ط.2، 1992، ص. 131

تاليًا حركة عكسيّة بين الفعل وردّة الفعل؛ إذ كلّما ارتفعت لهجة المحتلّ الظّالمة، خفت صوت الشعب المطالب بكرامته والمدافع عنها:



○ الإيقاع الناتج من توازن المركّبات الصّوتية والمعجمية:

يمكن للمنمّقات أن تسهم في إعطاء الإيقاع أبعاده التّرصيعيّة عن طريق التّعاقب الكلامي المتقارب معنئ ومبنى. هذه الجماليّة التّركيبية تسعى إلى إبراز أبعادها إيقاعات مدروسة مثل قول الشاعر:

«كفّنوه وادفنوه أسكنوه»: هذه التّرصيعات مؤلّفة من مقطعين صوتيين بارزين: مقطع صوتي ساكن: كف / وا / أس: يوحى بسكون الموت إذ يتوقّف فيه الصّوت فيوحي بالنهاية...

ومقطع صوتي ممدود: فنوه / فنوه / كنوه: يوحى بالتأوّه والنّدى الملازم لفكرة الموت. أو في قوله مثلاً:

«هتك عرض / نهب أرض / شنق بعض»: وقد دعم هذا التّوازن التّركيبية جناس غير تامّ (عرض / أرض)، في نفس تصاعدي يوحى بهول الأفعال الجرمية المرتكبة بحقّ الشّعبيين: هتك - نهب - شنق.

كما نقرأ في المقطع الثّالث:

«ربّ ثار / ربّ عار / ربّ نار»: هذا التّكرار المعجمي المتوازن يعكس، عبر مقاطعه الصّوتية القصيرة التي تشبه النّقر، نفساً حماسياً، وربّما ناقماً على المهاجرين غير الأبهين بما أصاب أهلهم في الوطن.

ب - المستوى التّركيبية:

ندرس في هذا المستوى أسلوب الطّلب من خلال أفعال الأمر، وقد وردت خمس مرات وانتشرت في المقطعين الأوّل: (أربع مرات: «كفّنوه - ادفنوه - أسكنوه -

اذهبوا») والثاني: (مرّة واحدة: «دعوا»)، ومن خلال لام الأمر المتّصلة بالمضارع («ولنتاجر، ولنفاخر»)، بالإضافة إلى النهي («لا تندبوه») ... وتكمن أهميّة أفعال الأمر في أنّ الشاعر استهلّ بها قصيدته ليعلن انطلاق خطاب توبيخيّ ناغم صارخ مثلث الوجوه، وقد دعمها بالنهي وبالمضارع المتّصل بلام الأمر، المتضمّنين أسلوب السّخرية والاستهزاء؛ فأَيّ ندب يليق بشعب اختار طوعاً الموت بذلّ؟ وبأيّ مزايا يفاخر شعب هاجر هرباً من الأوضاع المتردّية في بلاده، ونسي أهله هناك يصارعون الموت والعدو؟

هذه اللّهجة السّاخرة النّاقمة تنسحب أيضاً على أساليب تعبيرية أخرى في القصيدة كالاستفهام والتّعجب: «فَلِمَاذَا نَذِرُ الدَّمْعَ جُرَافاً؟ ليس تحيا الحطبة... مَا عَلَيْنَا إِنْ قَضَى الشَّعْبُ جَمِيعاً، أَفَلَسْنَا فِي أَمَانٍ...» فالشاعر يستغرب من البكاء غير المجدي، إذ شبّه قومه بالحطبة اليابسة التي ما عادت تحمل حياة، ولا فائدة منها سوى الحرق حتّى تستحيل رماداً: شجرة - حطبة - رماد / حياة - موت. ثمّ يورد قولاً على لسان المهاجرين، يعكس من خلاله نمط تفكيرهم اللّامبالي بمعاناة أهلهم: إن كانوا هم بخير فما همّهم بما يصيب غيرهم؟!...

كما نلاحظ التوسيع الطّارئ على التراكيب في أكثر من موضع:

			كفّوه
			وادفّوه
العميق	اللّحد	هوّة	أسكنوه

				دّلّوه
				قَتّلوه
يطبق	كان	ما	فوق	حملّوه

هذا التّركيب الموسّع يعكس تصاعداً في الأداء التّعبيريّ، ونفَسَ الشّاعر الحماسيّ إزاء قضيتّه الوطنيّة، كما يبرز الاعتداء الممنهج المتزايد حدّة في أداء المحتلّ. وما

يؤكد هذا أفعال الأمر التي سبق الحديث عنها من جهة، وصيغة الأفعال الماضية من جهة أخرى التي جاءت على وزن «فعل»: «ذلل - قتل - حمل». ويرد هذا الوزن بمعنى الكثرة فيفيد كثرة العمل⁽¹⁾... كما يأتي بمعنى «نسب»، أي نسبة المفعول إلى أصل الفعل⁽²⁾، أو بمعنى الصيرورة⁽³⁾... ومن هذا المنطلق، جاءت هذه الأفعال لتؤكد هول الاعتداءات التركيبية وكثرتها على الشعبين اللبناني والسوري، كما نسب الشاعر إليها من خلال هذا الوزن صفة الذل إلى شعبه، وأكد صيرورة هذا الشعب وتحوله من الحياة إلى الموت.

4. محاور النصّ واندماجها:

- محور الموت/الحياة:

تتدرج بنية هذا النصّ بشكل واضح ضمن محور واحد جليّ هو محور الموت/الحياة.

فيلاحظ أن الشاعر استهلّ قصيدته بالفعل «كفنوه». وكفن لغة، غطى وستر. واصطلاحاً، كفن الميت إذا ألبسه الكفن، والكفن هو الذي يجب تغطية الميت به بعد غسله وقبل دفنه.⁽⁴⁾

فما الذي يودّ الشاعر أن يغطّيه ويستره؟ أهو الشعب فقط؟ أم ما جلبه هذا الشعب من ذلّ جعل الشاعر يخجل به ويتمنى اختفاءه؟ واللون الأبيض، وهو لون الكفن، يرمز إلى الغياب والرحيل والبرودة والموت والحداد والفرغ⁽⁵⁾... وتتوالى مجموعة مفردات داعمة لهذا السياق أبرزها: «ادفنوه، اللحد، تدبوه، ميت، قتلوه، ليس تحيا، موت، قضى الشعب».

- محور القدرة/العجز:

ويمكن القول إنّ هذا المحور هو محور فرعيّ، يندرج تحت إطار المحور الأول وينبثق عنه. فالعجز واضح في ثنانيا هذه القصيدة، وهو يقترن بالضعف والخضوع والإذعان للمحتلّ، والانقياد له من دون إظهار أي ردّ فعل يعيد للشعب كرامته

(1) ابن قتيبة: أدب الكاتب، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط. 4، 1963، ص.

354

(2) أبو منصور النّعالبي: فقه اللغة، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1959، ص. 550

(3) هاشم طه شلاش: أوزان الأفعال ومعانيها، مطبعة الآداب، النّجف، 1971، ص. 81

(4)

(5) Jean Chevalier et Alain Gheerbrant: Dictionnaire des symboles, p.121

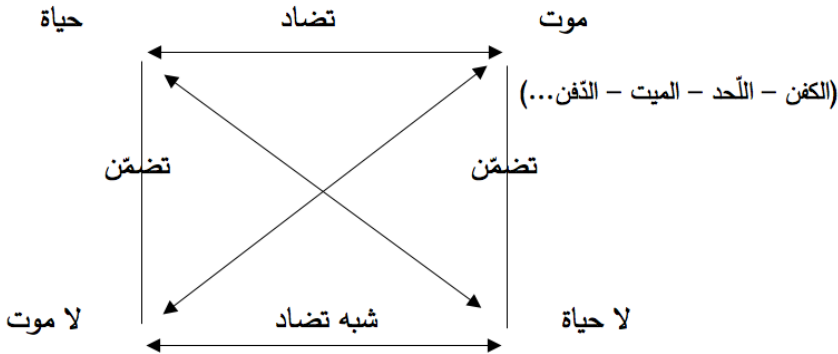
المسلوبة: «شعب ميت، ذلّوه، حمل الذلّ، في الذلّ عريق، هتك عرض، سفر ضعف...»

أما النار التي ذكرها الشاعر في الوحدة المقطعية الثالثة فهي حتماً غير النار التي ذكرها الشاعر الأرمني في قصيدته، فهي نار الظلم والقهر والحرب التي تخيف ولا تطمئن، تحرق ولا تطهر، تميت ولا تحيي... وتؤكد الألفاظ السياقية هذا الأمر: «شار، عار، الجبان، لم تحرك ساكناً إلا اللسان...».

هكذا يندمج هذان المحوران ليشكلا معاً صورة عن الشعب المهزوم المنقاد بإرادته إلى الموت؛ ذلك أنه لم يظهر أي مقاومة فعلية للعدو المغتصب. هذه الصورة عكست مشاعر الخجل والذلّ والغضب التي كرّسها الشاعر في قصيدته هذه. فكيف يتجلى المستوى الموضوعاتي تبعاً لذلك؟

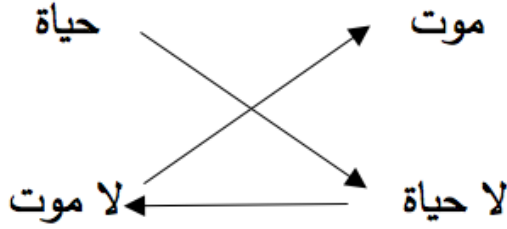
5. المستوى الموضوعاتي:

أ - المنظور الاستبدالي:



ب - المنظور التركيبي:

ويبرز لنا مجرى الدلالة في هذا المستوى على النحو الآتي:



فبعد أن كان الإنسان العربيّ مثلاً في الشّجاعة، وفارساً مقداماً لا يهاب مكروهاً ولا يخاف عدوّاً (الحياة)، تحوّل بفعل تنازليّ منه إلى إنسان منهزم خانع (لا حياة)، لا ينتفض على واقعه، ولا يجابه الأخطار المهذّدة وجوده... وهو بذلك بدأ يحفر قبره بيده (لا موت)، ويكتب «سفر ضعف» في تاريخه. وعلى إثر موجة الإعدامات التي طالت اللّبنانيّين والسّوريّين، في أوائل القرن العشرين، وخضوعهما لخطر الموت، أعلن الشّاعر موت هذين الشّعبيين وتكفينهما وتموضعهما في «هوّة اللّحد العميق».

الخاتمة:

بعد القراءة التحليليّة لهاتين القصيدتين، تتبدّى لنا سلسلة من المقارنات نورد أبرزها في هذا الجدول:

النهاية	إلى قومي	
الشّاعر	”باروير سيفاك“ - أرمنيّ	”نسيب عريضة“ - عربيّ
القضيّة	قوميّة	قوميّة
العدوّ	التركيّ	التركيّ
المعنيّات الإشاريّة	صراع بين الشّاعر وقومه من جهة والعدوّ من جهة أخرى لاستعادة الوطن المسلوب	صراع بين الشّاعر من جهة وشعبه المقيم والمهاجر بالإضافة إلى العدوّ من جهة أخرى لإثبات الوجود
بنية النّص	ثنائيّة تكرّس الانتقال من الماضي إلى المستقبل	ثلاثيّة تُبرز ثورة مثلثة الوجوه
حركة النّص	صاعدة توجي بالانتقال من الموت إلى الحياة	هابطة تؤكّد الصيرورة الحتميّة من الحياة إلى الموت

معجم النصّ	إيجابيّ بمعظمه يعود إلى بؤرة الحياة	سليبيّ بكامله يعود إلى بؤرة الموت
محاوّر النصّ	انتصار الحياة والحركة على حساب الموت والثبات	غلبة الموت والعجز على الحياة والقدرة
المجرى الدلاليّ	من اللّاموت إلى الحياة	من الحياة إلى الموت
موقف الشّاعر	فخور بقومه وفرح بهم	يخجل بشعبه وينقم عليه

يشرع هذا الجدول الباب أمام أسئلة عديدة تطرح في هذا الصّدد: كيف نفسر هذا الاختلاف البيّن بين موقعي الشّعبيين الأرمنيّ والعربيّ من القضية عينها؟ ما الدوافع الكامنة خلف ردّة الفعل الأرمنيّة الثائرة مقابل الخضوع العربيّ؟ هل أدّى العامل الدّينيّ دورًا في هذا الصّدد؟ بمعنى آخر، هل النّظر إلى الدّولة العثمانيّة كقوة إسلاميّة كبرى من النّاحية العربيّة، أثر في هذا الأمر، بخاصّة أنّ قسمًا لا بأس من المفكرين العرب كـ «شكيب إرسلان» مثلاً ينشد الأصالة المبنية على شدة تمسّكه بالتراث والدين، إلى حدّ الإفصاح عن رغبته بالعودة إلى إطار دولة إسلاميّة كبيرة تحت لواء السّلطنة العثمانيّة، على غرار فكرة الجامعة الإسلاميّة التي قال بها عبد الحميد الثّاني؟ ثمّ ألم يأت حكم العثمانيين على البلاد العربيّة كحكم من سبقهم من العباسيين أو الأمويين وسواهم؟ وتاليًا ألم ينظر العرب إلى الأتراك كقوة محتلة بمقدار عدّهم خلافة إسلاميّة متعاقبة؟

لا بل أبعد من ذلك، يرى بعض المفكرين العرب أمثال «محمد الخير عبد القادر» في كتابه «نكبة الأمة العربيّة بسقوط الخلافة العثمانيّة»⁽¹⁾ أنّ الوجه الذي صبغه الاستعمار بإشارات الحذب على مصالح العرب والمسلمين، ضدّ ما أسموه بالاستعمار التّركي، كشف القناع عن زيفه، وأبان أنّه يعمل لتفتيت العرب والمسلمين، وهو ملطّخ بدماء البشريّة... أفلا يبرز هذا الإطار الأوسع الذي يحكم العلاقة العربيّة-العثمانيّة، أي الصّراع بين الغرب والشرق؟

تبعًا لذلك، يمكن أن نبلور رؤية لهذا التّباين في المواقف: نحن إزاء شعبيين وموقفين: شعب أرمنيّ هو من أوّل الشعوب التي اعتنقت المسيحيّة، واضح الموقف، صريحه،

(1) محمد الخير عبد القادر: نكبة الأمة العربيّة بسقوط الخلافة العثمانيّة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط.1، 1985

ثاقب الرّؤية، حدّد هدفه، عرف عدوّه من دون تشويش، فانقضّ عليه وافتخر بنفسه وبمواقفه البطوليّة... وشعب عربيّ تائه بين بناء دولة مدنيّة أو العودة إلى الدولة الثيوقراطيّة، متذبذب الرّؤية، ضائع، لم يتمكّن من تحديد موقف واحد موحد من العثمانيّ: أهو عدوّ ينكّل به ويهتك عرضه ويستبيح أرضه؟ أم هو المنقذ من «الوحش الغربيّ» الذي يهدّده حضاريّاً؟ وتاليّاً، أيجب أن يحاربه وينقضّ عليه على غرار الأرمن؟ أم يعتبر هذا خيانة للإرث الثقافيّ الدينيّ؟ هكذا ظلّ الفرد العربيّ جامداً يخطو خطوة إلى الأمام ويتراجع أخرى إلى الخلف، في عصر كلّ ما فيه يتغيّر بسرعة جنونيّة.

المصادر والمراجع:

- المصدران:

القرآن الكريم

الكتاب المقدّس

- المراجع العربيّة:

- ابن قتيبة: أدب الكاتب، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجاريّة الكبرى، مصر، ط.4، 1963
- أيوب، نبيل: النّقد النصّي (2) وتحليل الخطاب، مكتبة لبنان ناشرون، ط.1، 2011
- الثعالبي، أبو منصور: فقه اللّغة، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1959
- الجهماني، يوسف إبراهيم: تركيا والأرمن، دار حوران، دمشق، ط.1، 2001
- خلوصي، صفاء: فنّ التقطيع الشعري والقافية، مكتبة المثني، بغداد، ط.5، 1977
- زرقا، أحمد: أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر والتّوزيع، دمشق، ط.1، 1993
- السّواح، فراس: مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة، سوريا وبلاد الرافدين، دار الكلمة، ط.11، 1996
- شلاش، هاشم طه: أوزان الأفعال ومعانيها، مطبعة الآداب، النّجف، 1971
- عبد القادر، محمد الخير: نكبة الأمة العربيّة بسقوط الخلافة العثمانيّة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط.1، 1985
- عبيد، حاتم: التّكرار وفعل الكتابة في الإشارات الإلهيّة لأبي حيان التّوحيدي، صفاقس، ط.1، 2015
- كريدية، هيام: الألسنيّة، الفروع والمبادئ والمصطلحات، بيروت، ط.3، 2012
- الهاشمي، السيّد أحمد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، المكتبة العصريّة، صيدا، ط.2، 2000

- يموت، غازي: بحور الشعر العربيّ عروض الخليل، دار الفكر اللبنانيّ بيروت، ط.2، 1992

- المراجع العربيّة:

باشلار، غاستون:

- النَّار في التَّحليل النَّفسيّ، تر. نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت، ط.1، 1984

- الماء والأحلام: دراسة عن الخيال والمادّة، تر. علي نقيب إبراهيم، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، ط.1، 2007

- كويرلي، محمد فؤاد: قيام الدّولة العثمانيّة، تر. أحمد السّعيد سليمان، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنّشر، 1967، ص. ز، ط، ر

المجلّة:

- بو عيطة، سعيد: فردينان دو سوسور، المقاربة العامليّة عودة في اللسانيّات التّوليديّة، مجلّة كتابات معاصرة، العدد98، المجلّد 25، آذار - نيسان 2016

- المراجع الأجنبيّة:

- Chevalier, Jean et Gheerbrant, Alain: **Dictionnaire des symboles**, Robert Laffont, Paris, 1982
- Bekoff, Mark: **Encyclopedia of Human–Animal Relationships**, Greenwood press, London, 2007
- Legrand, Stéphane: **L'éloquence est du miel**, Labyrinthe, Amiens, n. 40, 2013
- Vigne, Marie–Paule: **Le thème de l'eau dans l'œuvre de Virginia Woolf**, Presses universitaires de Bordeaux, 1984

ملحق (1): قصيدة الشاعر الأرمني «باروير سيفاك» «إلى قومي»:

أنظرُ مملوءاً بالروع
ممزوجاً بالدهشة تُسافر بي
إلى أمسك الغابر... أمسك الألم... العزة... الفخر
أتساءلُ كيف؟ كيف اقتحمت الزمان الوعر؟ السماء الدكناء
الغيوم؟
قطعت مسافاتٍ لا تهدأ لا تنتهي؟!
كيف نشطت؟ برعت؟ كيف جمعت من السمّ الزُعافِ زهرَ
الترجس المزروع في أتربة القهر؟!
كيف عصرت العسلَ الأشقرَ الوهاج؟
سكته في ألواحِ الشهد كما نحلة؟!
الغربة حوّلت حرقتها إلى طائرٍ لقلق ينشر الحبَّ
الشجو الحنين النجوى
يسوقُ الجراحِ الثخينة كراعٍ يرعى قطعان الأوجاع مدارياً
منشداً ألوان العذاب
غداة تجتاح السيول المرعدة
كيف؟ كيف اغترفت من نبعك الغرید قليل ماء؟
ماء كفٍ؟ ماء رفشٍ لتجعل طاحونة المياه تعملُ تدورُ تتألقُ
تشلحُ حياةً جديدة تطنحُ خصل نوير
أسفل الوادي السحيق بلا هوادهٍ لِتُشرق الحياة... تُطلَّ على
الروابي
على المروج الميتة... على السهولِ المذبوحة... على الوهادِ
الموحشة
آلاف المرآت كبوت
أخبرني كيف؟ كيف نهضت؟
الى العالم من جديدٍ عُدت؟ بأجفان الموت تدنّرت؟
بأيّ أعجوبة رجعت؟

كما هُم... أولئك هُم الحرائقُ
لكنك في عتمة الليل الرهيب أنت
النارُ
كنتَ الجمَر... كنتَ النارُ
لست أيّ جمَر... لست أيّ
نار!
نارٌ في أحداق الصبايا المُظلمة
نوراً تُشعُ
في عروق الأبناء تُسري الدماء
نارُ الشعلة... شعلة العائلة
المقدّسة
نارُ موقد التنور... نارُ مدخنة
البيت
نارُ القنديل المضيء المشتعل
نار... نارُ اللهب المروع
للعداء... للمعركة... للتأر
لرقصة النار... لبُشرى النصر
نارٌ تتقدُّ... نارٌ لا تُطفأ
نارٌ تستعِر منذُ دهور... نارٌ...
جمَر...
نارٌ تسطعُ على أرضٍ غريبة
نارٌ تُشرق... نارٌ لا تُدمِر... لا
تُخرب... لا تنتشرُ
بل تمتدُّ... تمتدُّ بعيداً لِتُبعش
وتتبعش!

ملحق (2): قصيدة الشاعر «نسيب عريضة» «النهاية»:

وَأُنْتَاجِرُ	هَتَّكَ عَرْضِي،	كَفَّنُوهُ!
فِي الْمَهَاجِرِ	نَهَبُ أَرْضِي،	وَأَذْفُونُوهُ!
وَأُنْفَاجِرُ	شَنُقُ بَعْضِي	أَسْكُونُوهُ
بِمَزَائِنَا الْحِسَانِ	لَمْ تُحَرِّكْ غَضَبَهُ	هُوَ اللَّحْدِ الْعَمِيقِ .
مَا عَلَيْنَا إِنْ قَضَى الشَّعْبُ جَمِيعاً،	فَلِمَاذَا نَذَرِفُ الدَّمْعَ جُرَافاً؟	وَأَذْهَبُوا لَا تَتَذَبُّوهُ، فَهُوَ شَعْبٌ
أَفَلَسْنَا فِي أَمَانٍ	لَيْسَ تَحْيَا الحَطَبَةُ!	مَيِّتٌ لَيْسَ يُغَيِّقُ .
		دَلَّلُوهُ،
رُبَّ نَارٍ،	لَا، وَرَبِّي	قَتَّلُوهُ،
رُبَّ عَارٍ،	مَا لِشَعْبٍ	حَمَلُوهُ
رُبَّ نَارٍ،	دُونَ قَلْبٍ	فَوْقَ مَا كَانَ يُطِيقُ .
حَرَكْتَ قَلْبَ الْجَبَانِ	غَيْرَ مَوْتٍ مِنْ هَبَةٍ	حَمَلَ الدُّلَّ بِصَبْرِ مِنْ دُهُورٍ
كُلُّهَا فِينَا وَلَكِنْ لَمْ تُحَرِّكْ سَاكِنًا إِلَّا	فَدَعُوا التَّارِيخَ يَطْوِي سِفْرَ	فَهُوَ فِي الدَّلِّ عَرِيقُ .
اللِّسَانِ .	ضُعْفٍ وَيُصَفِّي كُتُبَهُ .	

الزّمان في أدب فؤاد سليمان أليسار حسن إبراهيم

مقدمة

الزّمن مقولة فلسفيّة شغلت الإنسان منذ بدء الخليقة لارتباطها به أشد الارتباط ، وشكّلت لديه مجموعة من التّساؤلات، فكانت دهشته الأولى والأخيرة. لقد حظي مفهوم «الزّمن» بمكانة كبيرة في نحو اللّغات قديمًا وحديثًا ، فكان لكلّ لغةٍ منها نظامها الزّمنيّ الذي يبيّن مدى إدراك أهلها المتكلّمين بها ، نظرًا لقيمة الزّمن الذي يشكّل جزءًا من المعنى.

وفي اللّغة العربيّة يُلاحَظ أنّ أكثر المعاجم لم تفرّق بين لفظيّ «زمن» و«زمان» ، فقد وردتا على نحو واحد، إذ جاء في «لسان العرب» لابن منظور: الزّمن والزّمان: «اسمٌ لقليل الوقت وكثيره ، ويُجمَع على أزمان وأزمنة وأزمن. وفي قولك «ذات الزّمنيّن»، تريد بذلك تراخي الوقت، كما يقال: لقيته ذات العويم، أي بين الأعوام. عاملته مزمنةً من الزّمن، كما يُقال مشاهرة من الشهر».(1)

وفي الإطار نفسه نرى أنّ الزّمن قد استأثر باهتمام العديد من الفلاسفة والأدباء والمفكرين نظرًا إلى طبيعته المتحرّكة غير الثّابتة على حال. «نحن آتون من ماضٍ لم يعد قائمًا ، وصائرون إلى مستقبل لم يتحقّق بعد»(2) وليس لنا إلّا «حاضر يشكّل نقطة ضوئية ترشّف أبدًا من بحر المستقبل وترميّه في جعبة الماضي»(3). إذا الإنسان ينطلق عادةً لتحديد موقعه من حاضره الذي يعيشه ويحسّه، أمّا المستقبل فزمنٌ في حكم الغيب وقائمٌ على مجموعة من التّوقّعات، ونحن إذا أمعنا النّظر في كيفيّة تعاطينا مع الزمن نرى أنّ الإنسان مفطور على حاستي الذاكرة والتّوقّع، إنّه ينظم حياته داخل شبكة نسيجها الماضي والحاضر والمستقبل، فأجسامنا توجد في عالم الزّمان ذي الاتّجاه الواحد، أمّا عقولنا، فليست كذلك ، ذلك أنّها تقوم بزيارات لأزمنة وأماكن أخرى. وهذه الزّيارات تطالعنا في أعمال أدبيّة كثيرة برزت تجلّيات الزّمان فيها واضحة ، إنّ من حيث الحنين إلى الماضي، أو من خلال بثّ مشاعر

(1) ابن منظور، (630 - 181هـ)، لسان العرب، ج6، بيروت، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999م. ص76 و87.

(2) القديس أوغسطين ، «الإعترافات» ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية / 1962 ، ص. 246 .

(3) جورج سعادة ، عبارة من محاضرة أُلقيت العام 2017 .

الرّفص والتمرد على الحاضر، أو حتّى عبر بناء تصوّرات مستقبلية قد رسمها واقع ما. وفي هذا المجال تستوقفنا سيرة حياة الأديب فؤاد سليمان لما فيها من تداخل بين أقانيم الرّمن الثلاثة «الماضي، الحاضر، والمستقبل». فالماضي في مخيلته صورة نقيّة تأبى الاندثار والتلاشي، ولوحة مشرقة تجسّد زمن البراءة والصدق والطفولة التائهة في أحضان القرية، أمّا الحاضر فهو زمن الثّورة والنّعمة على حضارة أفرغت الإنسان من مضمونه، وحوّلتته إلى عبد للمادّة والاستهلاك، والمستقبل هو ذلك الرّمن الخاضع لإفرازات المدنيّة الحديثة، هو زمن الحلم الضائع، أو ربّما زمن الهواجس المقلّقة، أو حتى زمن التطلّعات والرّؤى المقلّقة.

لقد لفت انتباهنا في أثناء العمل على البحث تجلّيات الرّمان بخيوطه الثلاثة القائمة على «الماضي، الحاضر، والمستقبل». من هنا تبلورت إشكالية بحثنا التي نطرحها على الشكل الآتي:

ما هي درجة حضور الماضي والحاضر والمستقبل في أدب فؤاد سليمان؟ وأيّ زمن كانت له الغلبة على الآخر؟

وقد اعتمدنا في بحثنا المنهج الموضوعاتي، بحيث سننطلق من القراءة الصّغرى لنصّ فؤاد سليمان إلى القراءة الكبرى، مع مراقبة الصّور الملحّة فيه، والكلمات المفاتيح. آخذين بقول «جان بيار ريشار»⁽¹⁾ في مقدّمة كتابه «عالم مالارميّه الخيالي»: «الموضوع مبدأ ملموس في التنظيم، تصوّر أو شيء ثابت قد يتشكل حوله عالم ما ويمتدّ»⁽²⁾. فالقراءة الموضوعاتية ليست إطلاقاً كشفاً بالتواترات بل هي جملة الصّلات التي يرسمها العمل الأدبي في علاقته بالوعي الذي يعبر عن ذاته من خلالها. وانطلاقاً من هذا التعريف العامّ يوجّه كلّ ناقد قراءته حسب حدسه الخاصّ لاختيار الموضوعات التي يشرحها.

وقد استندنا في دراستنا إلى الأعمال الكاملة لـ«فؤاد سليمان» التي صدرت عن الشركة العالميّة للكتاب سنة 2001، بالنفقاته مهمة من «وليد سليمان» نجل «فؤاد سليمان»، والتي جاءت بعد مرور خمسين سنة على وفاته، الأمر الذي وفرّ علينا

(1) «جان بيار ريشار (-1922؟؟) كاتب وناقد موضوعاتي فرنسي من مؤلفاته :

(2) jean pierre Richard *Littérature et sensation -l'univers imaginaire de Mallarmé* paris,édi du seuil,1961, p.24 « un thème serait alors un principe concert d'organisation , un thème ou un objet fixe , autour duquel aurait tendance à se constituer et à se déployer un monde» .

الكثير من مشقّات وعناء البحث. كما استندنا إلى بعض المقابلات والحفلات التكريميّة ورسائل الدّراسات العليا، بالإضافة إلى بعض المراجع الأجنبيّة.

المصادر :

- **درب القمر:** أضاء لنا هذا الكتاب مرحلة طفولة «فؤاد سليمان»، وأفادنا في الفصل الأول من الرّسالة.

- **القناديل الحمراء:** تضمّن هذا الكتاب مواضيع اجتماعيّة وسياسيّة كالهجرة، والعلم والصّحافة، والمرأة، والوضع السّياسي اللبناني، والقضيّة الفلسطينيّة.

- **كلمات لأذعة:** تضمّن هذا الكتاب مواضيع متفرّقة كالهجرة، والنّزوح، والتعليم، والصّحافة، وثنائيّة القرية والمدينة.

- **يا أمّتي إلى أين؟:** تناول هذا الكتاب المواضيع السّياسية لفؤاد سليمان.

- **يوميات ورسائل:** سمح لنا هذا الكتاب بالاطّلاع على نشاط فؤاد سليمان اليوميّ وعلى ثقافته، وحياته الخاصّة.

بطاقة تعريف بالأديب

- ولد شهر تمّوز سنة 1912، في قرية «فيح» قضاء الكورة من محافظة لبنان الشماليّ.
- أمضى والده «خليل سليمان» قرابة خمسين عامًا في المهجر، كان لها الأثر الأبرز في حديث «فؤاد سليمان» عن الهجرة.
- أنهى دروسه الثانويّة في مدرسة «الفرير» بيروت، وحاز من جامعة القديس يوسف إجازة في اللّغة العربيّة وآدابها.
- درّس الأدب العربيّ في الكليّة الثانويّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت بين العامين: 1937-1951.
- أسهم في الصّحافة اللبنانيّة أدبيًّا وشاعرًا، وناقداً أدبيًّا، وسياسيًّا واجتماعيًّا.
- عُرف باسم «تمّوز» الإله الأسطوريّ، وكان يوقّع به مقالاته الأدبيّة الاجتماعيّة النقدية في زاوية «صباح الخير» في جريدة «النّهار» التي شقّ بها طريقًا جديدًا في أدب الصّحافة.
- تولّى رئاسة تحرير مجلّة «صوت المرأة»، وله عدّة كتابات في «النّهضة»، و«كلّ شيء»، و«النّهار»، و«المعرض»، «البناء»...
- انتمى إلى الحزب السّوري القوميّ الاجتماعيّ عام 1934.

- منحتُه الحكومةُ اللبنانيَّةُ وسامَ المعارفِ من الدَّرَجَةِ الأولى عامَ 1951.
 - توفِّي في 14 كانون الأوَّل عام 1951، وهو في التاسعة والثلاثين من عمره.
 - أهمُّ آثاره: درب القمر - تَموزيَّات - القناديل الحمراء - يا أمَّتي إلى أين؟ كلمات لاذعة - أغاني تَموز (شعر) - في رحاب النِّقد - يوميات ورسائل.
- القسم الأوَّل: الماضي وتأثيره في أدب فؤاد سليمان

تمهيد

لم يكن الماضي محطةً عابرةً في حياة فؤاد سليمان، بل هو فسحة من الزمن واسعة كالزمن، وسليمان بأدبه «يطوف في كلِّ العوالم، ينقلك من فيء السنديانة واللوزة والدالية ليحطَّ بك في سراديب المدينة»⁽¹⁾ تراه حيناً يصول ويجول بك في شوارع بيروت، ليعود فجأةً وينقلك إلى أحضان فيع، تلك القرية التي ارتبطت بالماضي المُشرق، وبالصُّور النقيّة البعيدة عن إثم الحضارة. من هنا سعينا في هذا القسم إلى قياس درجة حضور الماضي في أدبه من خلال الوقوف عند مرحلة الطفولة العصريّة على الاندثار في مخيِّلة أديبنا.

أولاً: الحنين إلى الطفولة

من يتتبع سيرة حياة الأديب «فؤاد سليمان» يلحظ مدى تأثره بمرحلة الطفولة التي عاشها في ربوع قريته «فيع» وكأنه أراد بالزمن أن يتوقّف به عند حدود طفولته، لنجدّه مستحضراً أدقّ التفاصيل، وأصغر الروايات عن صبيّ يكرج على بيادر الضيعة، ويسرح بين الكروم، مرمياً في حضان الطبيعة، والأرض، يرتوي من ينابيعها، ويشنّف أذنيه بأصوات بلابلها. ليس هذا فحسب، بل كثيراً ما يعمد فؤاد سليمان إلى المقارنة بين طريقة تدكّر الآخرين لطفولتهم بطريقته هو «طفولتي كطفولتكم أيها النّاس إلّا أنّكم تذكرون طفولتكم مثلما يذكر المسافر جزيرة جميلة مرّ بها في إحدى سفراته الطويلة، أو مثلما يذكر النائم حلمًا مبهمًا في صباحه. وطفولتي ما زالت إلى اليوم تعيش معي، تأكل من صحنِي وتنام في فراشي»⁽²⁾. هادقًا من وراء هذه المقابلة إلى التأكيد على رسوخ زمن الطفولة بكلّ ما فيه من سذاجة وبراءة وعفويّة في مخيِّلته.

هكذا نرى أنّ الطفولة ماضٍ حاضر في مخيِّلة أديبنا، تشاركه دورة الحياة بكلّ ما

(1) فؤاد سليمان بأقلامهم «فؤاد سليمان في درب القمر»، بقلم ألفرد خوري، الطبعة الأولى، الشركة العالمية للكتاب ص. 71.

(2) فؤاد سليمان، درب القمر، «طفولتي» الطبعة الثالثة، بيروت، الشركة العالمية للكتاب 2001، ص. 29.

تشتمل عليه من هموم وأحزان ، لحظات ضعف وانكسار ، أو ربما ساعات انتصار ورضا «طفولتي ما زالت إلى اليوم تعيش معي ، تأكل من صحنِي وتنام في فراشي، تمشي معي في دروب الحياة ، ضاحكة باكية، ساخطة راضية ، متململة هادئة، ساخرة يائسة(1). وكيف يمكن أن ينسى ذاك الصبِّي طفولته وهي رفيقة دربه، فمع تعاقب الأيام وتوالي الشهور والأعوام ، يرى صوتها يتعالى في قلبه ، ويلمحها في الأزقة والطرقَات تعطيه أجَلّ الدروس وأعظم العبر ، تؤنِّبه ، تعاقبه ، تصفعه ، تصلِّي لأجل أن يحيا بزهو وإشراق «في غرفتي المهجورة الباردة ، رأيتها تغفو مطمئنة هادئة ، على شفئِها صلوات ، وعلى جانبيها زهو وإشراق، وعند السرير جوقةً من الملائكة» (2).

إذا بقيت الطفولة تنادي فؤاد سليمان ليعود إليها، ويحيا الزَّمن الماضي بكلِّ ذرَّة من ذرَّاته. الطفولة تدعوه لأن يمتطي سهوة الذاكرة، ويعود إلى الوراء ، إلى الماضي الجميل ، هناك حيث الجلسات الدافئة حول المواقد ، هناك حيث سيحيا مع الفلاحين مواسم قطاف الزيتون، وسيلتفّ مع أترابه حول وليمة سلق القمح البلدي.

ثانيًا: الصّور الريفية في أدب فؤاد سليمان

« ما أجاد فؤاد سليمان، في كلّ ما كتب إجادته في تصوير القرية اللبّانية»(3) فالقرية هي عالم الأطياب والألوان والظلال مرتع الحبِّ القائم على العفة والعذريّة والبراءة ، ولوحة تتداخل فيها الخطوط وتتشابك الألوان ، إنَّها الدَّرب التي يقطعها ليلاً لتتبدّى له الحبيبة بوجه يستلّ نوره، ووجهه من ضوء القمر .

والقرية ليست عالم الحب وحسب، بل شاهد على تعاقب الفصول وتواترها. هنا شتاء بارد عامر بالسّهرات، والحكايات حول المواقد الدافئة ، وهناك ربيع مؤذن بالحياة، وفي البعيد يلوّح لك الصّيف بالثمار واليناع، ليعقبه خريف مُبشّر بقدم فصل الجدِّ والنشاط .

تعلّق فؤاد سليمان بجوِّ القرية، وأحبّ الطبيعة بكلِّ مظاهرها وفصولها. وكانت فيع ذلك العطاء الغزير ، المتججّر بغير حساب ، وذلك المكان الذي يعيش في روحه. هكذا عاش فؤاد سليمان طفولته في بيئةٍ ريفيّة خالصة، يمجّد الأرض ويقدّسها. ولم تكن الأرض بالنسبة إليه مجرد تراب وغبار وحصى ، إنّما أمٌّ حنون ملؤها عطاء ومحبة.

(1) فؤاد سليمان ، م.ن. ، ص.31

(2) فؤاد سليمان، م.ن.، «طفولتي»، ص.31.

(3) مقدمة «درب القمر» ص. 10.

فكان يقضي الوقت متأملاً خيراتها، يكبر مع أشجارها، يراقب الفلاحين الطيبين ، يتنقل في أحضان الطبيعة وكرومها وسط أشجار اللوز والتفاح والزعرور، ويستمتع بشجو البلايل، ورائحة الزهر العطرة تملأ صدره.

يقول أنسي الحاج : «أبدع فؤاد سليمان في تصوير القرية تصويراً حياً نابضاً تفتح في وجدان، وإحساساته، وارتعاشاته. في «درب القمر» : وقد اعتبره مارون عبود «أنشودة لبنانية أصيلة» رمى عالم القرية على صفحات كتاب متحرّكاً هامساً بسيطاً، وهو أبداً يجلي حين يصوب قلمه نحو الينابيع والروم، وكلّ ما يمتّ إلى القرية بصلة» (1).

نعم، لقد رسم القرية وأحالتها لوحات حيّة ، واصطاد رسومها ، ماثلة بالحب والهناء والجمال، مزدهية الألوان والظلال، واجتمع في الريف عنده معنى الأسرة، والأبوة، المهاجرة، والأمومة الحنون، والطفولة البريئة والصادقة، والعشق الشعري. ويبقى فؤاد سليمان ذاك الشاعر الذي فتح عينونا على جمالات القرية وخيرها، وخصبها ، والذي جعلنا نحسّ التراب، نتمرّع في طبيبه ونستشق عبير الأزهار والأثمار، ونلملم الندى الجاثم على أوراقه كحبات النجوم في سماء ليلاء (2) «لقد خرج الريف معه جميلاً في ربيعهِ وصيفهِ، وخريفهِ، وشتائهِ، حنوناً في عواصفهِ، وأمطارهِ، وثلوجهِ، ورياحهِ، نبيلاً في جبالهِ ووديانهِ، وسهولهِ، وروابيهِ، كريمًا في حقولهِ، وأشجارهِ ويناابيعهِ، حبيبًا في غيومهِ، وضبابهِ، وفي قسوتهِ، وتجهّمهِ، عذبًا في صدادح أطيّارهِ، وخير جداولهِ وحفيف أشجارهِ، وهمس أنسامهِ، وعميقًا أثره في القلب بكلّ حكاية من حكايا أهله البسطاء الطيبين ، وحكايا كفاحهم مع الفصول والطبيعة ، وحكايا حبّهم وغزلهم التي تملأ القلب رقةً وعذوبةً وندوةً...» (3)

ثالثاً: تمنّي العودة

«أحبّ فؤاد سليمان القرية ابنًا لها وربيبًا فيها. وأحبّها شاعرًا منفعلًا بموحياتها متأثرًا بالهامها، وأحبّها لاجئًا يائسًا وبائسًا، عليلاً في نفسه وفي جسده، ينشد فيها العافية ، أحبّ في القرية ماضي القرية لأنّه ينفر من حاضرهِ، فحبّ صاحب «تموزيات» للقرية اللبنانية نفحة من ذكريات رومنتيقية جديدة، ذكريات استفاضة من العهد القديم، ومن

(1) مارون عبود، جدد وقدماء، دار الثقافة، ص207.

(2) فؤاد سليمان - بأقلامهم - «مات شاعر القرية» بقلم « ثريا ملحس» ص44

(3) فؤاد سليمان - بأقلامهم «حنان القرية والطبيعة» بقلم «عيسى الناعوري» ص298

أدب جبران، ومن التيار الرومنطقي على تعدّد أهوائه وتباين اتجاهاته»⁽¹⁾.
 القرية في رؤاه ووجدانه عالم جمال وخصب وخير وسعادة وهناء روحي واطمئنان
 نفسي ، عالم الحبّ الأول بكلّ ما فيه من عقّة وبراءة وطهر ونقاء «وكانت حكاية
 الحكايات في القرية ، كانت للحب. كانت مسكبةً من ورد، وصلّاً من حرير يروح
 ويجيء ، ولا ينقطع إلّا حين تنقطع حبال الليل؟ ترى أبعدّها للحبّ؟ أم أنّ الحبّ مات
 في دروب ضيعتنا ، التي على التلّة البيضاء؟⁽²⁾ أمام هذه الدروب المُفعمّة بالحياة،
 والنّابضة بالسّكينة والاطمئنان ، يجد فؤاد سليمان نفسه تعيش دائماً حلم العودة إلى
 مراتع الطفولة «وددّث لو رجعت إلى عشيّ ، أبني على المطّل عند الدروب البيضاء
 فوق العين الصغير، عرزلاً في كفّ الضباب ، خيمة راح ينام ملء عينيه في السحر
 النديّة ، يفيق مع الوادي على شفّتيه بسمة الرضى والطمأنينة ، وفي قلبه أغنية ،
 وفي حنجرته أوتار»⁽³⁾.

هناك حيث سيسير في ليلة قمراء ، «مكشوف الرأس ممّلع القميص ، مبعثر
 الشعر»⁽⁴⁾ ، تاركًا النّفس على سجيّتها بعيدًا عن عالم المدينة بكلّ ما فيه من زيف
 وتكلّف وسخافات «بشرية تضحك من سخافات بعضها البعض وأنا أضحك من
 سخافتها ومن سخافتي وسخافتك»⁽⁵⁾.

يقول جورج هارون «ومن رشف من الينابيع التي يفجرها صاحب «تمّوزيات» في
 أدبه القروي تمّنى لو يجلس إلى جانبه في بيوت القرويين بسقوفها ونوافذها وزواياها
 وحصرها وآنيّتها . بل انتهى لو يشهد معه شتاء الضيعة بوخزات برده، وجليده،
 وطبيعته المهجورة من العصافير والبلابل، ولو يستمتع وإياه بربيع الجبل، فينعم
 بالإصغاء إلى شدة بلبله، والتأمّل بسطوح قمره الفضي، وواكب أشجاره وأطياره
 متدوّقًا الطيوب اللبنايّة التي نسجت أسلوب صاحب «تمّوزيات» متمنّيًا لو يحيا
 في ظلالها إلى جانب السّكّة، والمعول وأعشاب القش التي يستلقي إليها الراعي
 وقطيعه»⁽⁶⁾ .

(1) القرية اللبنانية في أدب فؤاد سليمان : جورج هارون : «الأديب» 1958 عدد 2 ص 15

(2) فؤاد سليمان «درب القمر» ص15.

(3) فؤاد سليمان ، م.ن.ص. 76

(4) فؤاد سليمان، درب القمر» «في موكب التائهين» ص. 76

(5) فؤاد سليمان م.ن.، «في موكب التائهين» ص. 75.

(6) فؤاد سليمان، بأقلامهم، «القرية اللبنانية في أدب فؤاد سليمان» بقلم جورج هارون، ص163.

فكيف أذاً بفؤاد سليمان الذي عايش كل هذه المشاهد بكل تفاصيلها ، لذا بقي الماضي في ثناياه يشكّل غصّة وأنيباً، لا بل حرقاً تكاد لا تفارقه «... وماضيّ أنا يا صديقي يبعث الغصّة في قلبي والدّمة في عيني، ولكنني أطبق أجفاني على الدّمة فلا تقلت ، وأشدّ على الآهة في صدري فتغور إلى الأعماق متململة (1) .

وأنت تتجول مع فؤاد سليمان في دروب قريته لا يسعك إلا أن تتوقّف عند مجموعة من العناصر التي تحمل في طبيّاتها مدلولات لا يمكن للقارئ إلا أن يعتبرها انعكاساً لحالاته النفسيّة ليعيش مع «سليمان» جوّ القرية بصيفها وربيعها، بدفئها وصقيعها ، بعواصفها الملتهبة ونسائمها العليلة. ليس هذا فحسب بل إنّه يشتهي لو يشهد معه شتاء الصّعبة بوخزات برده وجليده ، وطبيعته المهجورة من العصافير والبلابل، ولو يستمتع وإياه بربيع الجبل فينعم بالإصغاء إلى شدو بلبله والتأمل بسطوح قمره وبريق نجومه، ويواكب أشجاره وأطيّاره ويستنشق عبير شقائق النعمان في ليلة معطرة .

القسم الثّاني: فؤاد سليمان وقضايا حاضره

تمهيد

نقرأ فؤاد سليمان بمنطق الحنين إلى مرحلة الطّفولة، أو بمنطق القرويّ المتشبّث بالأرض، والمعجب بفلاح الضيعة الأصيل . كما نقرأه بمنطق رجل العصر «الذي استطاع أن يرى عبر الزّمن ما تفعله مسافة التحوّلات الجوهرية في معنى المراحل وأبعادها»(2). لقد استطاع فؤاد سليمان من خلال أدبه أن يعايش قضايا معاصرة لواقعه، والتي ما زالت حتّى اليوم تحتلّ المراتب الأولى بين قضايا النّاس والشّأن العام. لذا سنعمل من خلال هذا القسم على دراسة حجم تواجد هذه القضايا في مؤلّفاته، وموقفه منها، مسلّطين الضوء على جانب الثّورة والرّفص والتمرد في أدبه ضد رجال السياسة والدّين ، وأصحاب الأقلام المأجورة في الصحافة . هادفين من وراء ذلك إلى تقصي قدرته على أن يكون أدبه ناطقاً بلغة العصر.

فكيف ظهر الحاضر في أدبه؟ وما هي المواضيع المعاصرة، التي اهتم «سليمان» بمعالجتها؟

أولاً فؤاد سليمان الثائر المتمرد

تسم الأدب الحديث بطابع الثّورة والتمرد على الموروث القديم، والرّغبة ببناء عالم

(1) فؤاد سليمان، «بأقلامهم»، في موكب التائهين، ص74.

(2) فؤاد سليمان «بأقلامهم» «فؤاد سليمان كاتب النار» - بقلم عقل العويط 2001 - ص352.

جديد كَرْدَة فعل على التخلّف والجهل والفساد . وتحملت الإنسانية حربين عالميتين مدمرتين ، أفرجتا عن نشوء الكثير من حركات التحرير القوميّة والاجتماعيّة، فالإنسان العربي منذ خمسة قرون تقريباً، وهو يعاني مشكلة الاستعمار، فمن حكم عثماني استبدادي انتقل العرب إلى حكم استعماري أجنبي ، الأمر الذي أفرز أدباً جديداً ملتزماً بقضايا الناس، وهموم المجتمع فصوّر حياتهم ونطق بلسانهم . يقول جبران مسعود في هذا الصدد: «أما وقد طاف الأدب في الميدان، فإنه قد لمح الشعب كتلة قوية لا يجوز إهمالها ، ولكنّه في تطوافه، عرف المجتمع بما فيه من سيّئات وعورات، ودرس الإنسان الخابط في أمواج دنياه، بين الخير والشر، بين السعادة والشقاء ، بين الأمل الضائع والأمل المنشود، فخاض الغمرات على نطاق الحياة الأوسع في اتجاهين شاملين هما الاتجاه الاجتماعي والاتجاه الإنساني».(1)

لقد شعر العربي بضرورة التحرّر من التخلّف، وبدأ يستيقظ وسعى إلى التحرّر . وفي لبنان، نشأ جيل طليعي رافض، منفتح على قضايا الواقع والعصر، وكان له الدور المهم في عملية الأدب الهادف إلى التغيير، الملتزم بقضايا الوطن العربي .ومن بين هؤلاء الثائرين المتمرّدين، كان فؤاد سليمان، الذي سجّل في أدبه مواقف رفض لكلّ ما ينبذه المواطن الصالح الحر ، مؤمناً بأنّ كلمة الأديب، هي كلمة الحرّيّة وصوت الشعب. وهو الذي خاطب الشعب كلّ صباح في الصحيفة اليومية، فجعلها كالكتاب بوقاً للأدب الانساني والإصلاحي. وخطاباً لا يصلح أن نحصره في إطارٍ زمنيّ محدّد، إنّما يتعدّى حدود عصره لنجده ناطقاً بلغة عصرنا اليوم. لقد أدرك فؤاد سليمان أنّ الثوّرة تبدأ من الذات وتتطلق إلى الآخر، لذا نراه قد ثار على نفسه أولاً، ونقم على ذاته التّابعة مدرّكاً أهميّة تحرير النّفس من كلّ موروث بشع يقمع حرّيّة الإنسان.

وساعده على ذلك طبيعته الخلقية المميّزة، التي تحمل استعداداً للرّفض والتمرد، فهو نو طبع عصبيّ ومزاج انفعالي، وحساسية مرهفة.(2)

يقول أنسي الحاج : «دشّن فؤاد سليمان عهداً في فنّ الكتابة قائماً على الانفعال والنزق والمباشرة الدّمويّة التي يحمل فيها الصّداق بذور الخطابة»(3). وكانت ذاته مزيجاً

(1) جبران مسعود : لبنان والنهضة العربية الحديثة ، بيت الحكمة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، حزيران 1967 . ص. 100 .

(2) اعتدال الغوش، ملامح الرّفض في أدب فؤاد سليمان، ص. 34 .

(3) فؤاد سليمان، «القناديل الحمراء» - «المقدمة» ، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط2، ص7.

من انفعال وتحرق وحساسية ملتهبة متعطشة الى انفجار «فمن خيبة الأحلام وتأجج العواصف وتواتر الانفعالات ، من الشوق والحرقه والاحتجاج الأليم والشهوة . يوجد «فؤاد سليمان»

«أحب فؤاد سليمان كل شيء تائر وعاصف ، لذا نراه منذ الصغر «ينتظر هبوب العواصف ليجمع حوله الأصدقاء، في سهرات ليلية ، في منزله ، حول الموقد ، وكانت حرارة الجو الخارجي تثير في نفسه السخط والغضب والتمرد».(1) يقول معبراً عن حبه للعاصفة: «من طبيعتي أنني أحب العواصف في طفولتي، ربيت في بيت على فم الوادي، كانت العواصف تدور حوله في الليل مجنونة ، رهيبة ، مقهقهة ، وما تزال العواصف رهيبة في ضيعتنا ، تدور حول بيتنا ، وما يزال بيتنا صامداً في وجه الريح والعاصفة».(2).

هكذا هو فؤاد سليمان نفس تثور وتتمرد وتعصف سعياً وراء التغيير، وذات أبت أن تهجر تراب الوطن متغنية بأرزه وسهوله ووديانه من بعيد . لا بل روح متعطشة للنهضة والتغيير، من هنا «لمع اسمه في عدد مهم من الجرائد، وقد ظهر أحياناً توقيعه «تموز» معبراً عن آرائه تجاه السياسة والصحافة والدين والمجتمع في عدد كبير من الجرائد مثل «النهضة»، و«كل شيء»، و«النهار» و«المعرض» و«البناء».(3) لقد نظر فؤاد سليمان إلى قضايا الوجود فتناول الكثير من القضايا الإجتماعية، وكان بالمقابل رجلاً سياسياً غير آبه بالمراكز والمناصب، لا بل مواطناً مؤمناً بالديمقراطية العادلة، ومصلاً اجتماعياً يعي ما للكلمة من دور في بث روح الوعي والنهضة. وقد وجدت هذه النفس الثائرة لنفسها مكاناً في إطار حزبي ينادي بمبادئ إصلاحية تتسجم وتطلعاته، فنراه قد التحق بالحزب السوري القومي الاجتماعي(4)، وعلا شأنه فيه حتى أصبح ناموس العمدة ، ثم أمين الندوة الثقافية: «لم يلبث سعادة أن عيّني عميداً

(1) اعتدال الغوش ، ملامح الرّفص في أدب سليمان، ص. 35 .

(2) فؤاد سليمان، «تموزيات» ، «في العاصفة» - ص. 60 .

(3) جورج فارس، النزعة القومية في أعمال فؤاد سليمان، ص. 3.

(4)- الحزب السوري القومي الاجتماعي، عام 1932 وضع أنطون سعادة نصّ دستور الحزب، واختار شعاراً للحزب الصليب والهلال مندمجين في حركة واحدة ترمز إلى وحدة المسلمين (راجع «أنطون سعادة والديمقراطية في سوريا الطبيعية، تأليف: صفيّة أنطون سعادة، ط1، بيروت، دار سعادة للنشر، ص23).

للإذاعة⁽¹⁾» وكان عليّ اختيار أمين سرّ العمدة، أو ما سمّيه في الحزب ناموسًا فلم أختار إلاّ «فؤاد سليمان» الذي أصبح بعد قليل ناموسًا للندوة الثقافية⁽²⁾. لقد أنشئت الندوة في منزلي في رأس بيروت، وكان أول رئيس لها «الدكتور زكي النقّاش»، وأول ناموس للشعر والأدب الثائر «فؤاد سليمان»⁽³⁾. وكان لـ«أنطون سعادة» أثر كبير في نفسه، فقد كانا يلتقيان دائميًا وفي كلّ ليلة منفردين في زاوية من زوايا مطعم حدّاد في رأس بيروت. وأكثر ما يتجلّى هذا التأثير في مقالة «الزعيم»: عرفته عندما كان الحزب ضبابًا في دماغه، فأحسست بأنّ من خلال ذلك الضباب سينشق فجر الإيمان الحقيقي، فجر النور والحق والعقيدة. ولمست في نبرات صوته الموسيقية أصداء زوبعة بعيدة ترمجر في صدره. وشعرت بإيمان جديد يتسرّب من روحه إلى روحي فيعانق في كلّ كياني، ماضيّ وحاضري ومستقبلي في تلك الساعة، ولد إليه جديد قوي في قلبي وماتت آلهة⁽⁴⁾.

لقد التزم فؤاد سليمان مبادئ الحزب التزامًا كاملًا، وأقسم بيمين الانتماء وطبقه تطبيقًا حرفيًا طوال مرحلة نضاله الحزبيّ. ومثّل قيم الحزب ومبادئه في خطبه ومقالاته وشعره، كما التزمها في حياته كعمّلم وصحافيّ وكاتب. وكان في حياته العامّة والخاصّة مثال الصراحة والجرأة والإقدام، وكان دائم الحركة والعنفوان، لا يثنيه عن التبشير بمبادئ الحزب أي تهديد، أو وعيد، على الرّغم من الحذر الذي كان يجدر به اتّخاذهُ لتلافي الوقوع في فخّ السلطة المنتدبة، وفي قبضة مراقبيه في الجامعة الأمريكية⁽⁵⁾.

ومع أنّ «فؤاد سليمان» وصل إلى مكانة حزبيّة مهمّة، (كان ناموس العمدة، وناموس الندوة الثقافية، ثم تولى رئاسة تحرير جريدة النهضة عام 1937)، فإنّه لم يتابع مسيرته في الحزب وقد تضاربت الآراء في هذا الموضوع، ولكنّ أصدقاءه ومعارفه أجمعوا أن انتماءه إلى الحزب كان مزاجيًّا، وكان يعمل بحسب ذوقه ومزاجه، لذلك لم يعرف حقيقةً إذا كان استقال، أو ترك، القصّة ضاعت. وهذه المزاجيّة هي

(1) يقول عبد الله قبرصي: الاتصالات الاذاعية كانت من شخص لشخص. السريّة كانت تفرض هذا المسلك. (راجع عبد الله قبرصي يتذكر تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي ج 1 ص 27).

(2) جورج فارس في اقتباسه عن (عبد الله قبرصي - «ذكراياتي عن فؤاد سليمان» - في النهضة 17 ك 1953). ص. 37.

(3) عبد الله قبرصي، «عبد الله قبرصي يتذكر تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي ج 1 ص 160.

(4) جورج فارس في اقتباسه عن (فؤاد سليمان، «الزعيم» في المعرض 25 شباط 1936 ص 38).

(5) اعتدال الغوش - ملامح الرفض في أدب فؤاد سليمان - ص. 8.

بسبب طبيعته الثائرة والرافضة، وبصفته أديباً لديه عنفوان كبير، وتمرد، لم يكن من النوع الذي يرضى النظام والتنظيم والأوامر. «ومن يرد الانتساب إلى حزب يجب أن ينصاع للأوامر والأنظمة، إنّما شخصيّة فؤاد سليمان لم تكن تسمح له بذلك»⁽¹⁾. انطلاقاً من هذا كلّه نرى أنه لا بدّ من دراسة هذه الرّوح الثائرة والتوقّف عند رصد جملة من المواقف التي اتخذتها على أكثر من صعيد، علّنا نستطيع أن نسلط الضوء على علاقة فؤاد سليمان بحاضره، وقياس نسبة اهتمامه بقضايا عصره.

ثانياً: تجلّيات الثورة في أدبه:

أ- موقفه من رجال السياسة

تناول «فؤاد سليمان» المسألة السياسيّة من جوانبها المختلفة، وركّز على العلاقة بين الشعب والحكّام، مبرزاً غياب الوعي عند الجماهير وغلبة الأميّة على رجال السّلطة»، وعمد إلى معالجة الكثير من الموضوعات والقضايا بطابع الرّوح القوميّة القائمة على بناء مجتمع موحد ومستقل، والتأسيس لنمط حكم يفصل الدّين عن السياسة، والتّطلع لإيجاد نظام عادل يساوي بين المواطنين بعيداً عن نظام الإقطاعيّة والقوّة الغاشمة، وسلطة المال.

أدرك «سليمان» أنّ السياسة خدمة وتكليف، نضال وكفاح، إخلاص للأمة وولاء لوطن، وألمته رؤية حاكم لا يرفع شؤون رعيّته، ولا يعي مصالح بلده، يخدم السياسة الاستعماريّة، فأضمر في قلبه هذا الكره الشّديد للأجنبيّ لأنّه المستعمر «هذا الأبيض الذي حمل البياض في جلده، والشّقار في وجهه، والزّرقة في عينيه، وحمل في قلبه الضّعينة والحقد، وفي يديه الدّمار والخراب»⁽²⁾ ولم ينس أن يحمل الشعب مسؤوليّة المشاركة في ما آلت إليه أحوال البلاد، «هذا الشعب نفسه، أنا لا أؤمن به، وعدم إيماني به ناشئ عمّا أعرفه من ماضي هذا الشعب ومن حاضره، ومن جهاد هذا الشعب في كلّ باطل وضلال»⁽³⁾.

إلا أنّ نقمته على الشعب لا تعادل حجم ثورته على سياسة البلد البهلوانية التي جعلت من لبنان مزرعة يحكمها قانون الغاب «بلد أردنا السياسة فيه علماً وإخلاصاً ومحبةً، فكانت السياسة بهلوانيّة وشعوذة هنود... وتجارة رابحة نبيع فيها الضّمائر

(1) وليد سليمان، برنامج مكاتيب، مقابلة إذاعية في صوت لبنان مع «بسام براك» بتاريخ 27 2 1995.

(2) فؤاد سليمان: القناديل الحمراء «الجلود السوداء» ص. 109.

(3) فؤاد سليمان، «يا أمّتي إلى أين؟» «هذا الشعب» بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ط1، ص. 144.

والدّم، ولا نستحي⁽¹⁾. ويثور تموّز على ممثلي الشّعب من النّواب، ممثلي المهازل والمخازي، التي يمارسها على مسرح الوطن زمرة من الناس تدّعي أنها فوق الشبهات وهي مشبوهة ، فيكرّس قلمه لمحاربتهم ، محاربة تلك الأصنام الأُمّية المرفوعة على الكراسي، راكبة الشعوب. فيدعو الشّعب إلى طردهم ويهتف إلى خنق هؤلاء الذين خنقوا حتى الغصّة في حلوقنا، رافضًا أن يكونوا ممثلي إرادة الشعب ، فيقول لهم: « أنتم هنا، بإرادة القطعان الذين جعلهم الفقر شعبًا لكم ، وجعلهم المال شعبًا لكم، وجعلتهم القوة شعبًا لكم»⁽²⁾ .

ويتابع تمّوز اتهاماته للنّواب محرّضًا الشّعب على مقاطعة الانتخابات النّيابية، انتخاب هؤلاء «الكراكيز»، التي تنتصب على الكراسي «في كلّ بلد من بلدان الشرق، تنتصب هذه الكراكيز تُضحك النّاس ولا تستحي⁽³⁾. وتثور وطنيته في وجه من يحمل شعار القول لا الفعل من زعماء السّياسة، وكأنّ الأوطان تُبنى من الثرثرة الفارغة، والكلمات المنمّقة ، فيتوجّه إلى ناظمي الشعر، ومغنيّيه في البلاد مخاطبًا إيّاهم بقوله: «لن تكون بلادكم عظيمة في المقاطع والحروف والكلمات... الكلمات إنّ لم تكن نازًا ، كانت شتيمة، الكلمات إنّ لم تكن إيمانًا عميقًا كانت تجذيفة مرّة ، وبلادكم لن تغني، إنّ أنتم صرختم أمامها هذا الصّراخ النّي»⁽⁴⁾، ليس هذا فحسب ، بل إنّ الحكّام والملوك يبتعدون عن شعوبهم، ويغريهم السلطان والجاه.

«وماذا يبقى للملوك والحكّام إنّ لم يكونوا مع الشعب وللشعب؟». وليس المهمّ أن يكون على رأس الملك تاج، إنّما المهمّ أن يكون مع الشعب وللوطن: «إنّ ملكًا تسير في ركابه، وخلفه ووراءه خوذ الفولاذ والحديد... إنّ ملكًا وحاكمًا مثل هذا لن يكون غير ركيّزة من خشب»⁽⁵⁾. والملك يجب أن يكون فداءً للأمة، لا أن تكون الأمة فداءً للملك، فملك بلجيكا ليوبولد نزل عن العرش لأنّ «فريقًا من الأمة ليس هو كلّ الأمة لا يريده ملكًا عليه... فراح الملك لتبقى الأمة»⁽⁶⁾ هكذا صرخ تمّوز في وجه سياسةٍ عاصرها، فحدّر الأمة من السياسيّين الذين يستثمرون مصالحها بأنايئة لأهدافهم أو

(1) فؤاد سليمان، «القناديل الحمراء» «ماذا نقول لأولادنا؟» ص. 105 .

(2) فؤاد سليمان ، م.ن،«الشعب معنا» ص. 47.

(3) فؤاد سليمان ، القناديل الحمراء، «كراكيز» ص. 91.

(4) فؤاد سليمان ، تمّوزيات «يا بلادي ، يا بلادي» ص. 109.

(5) فؤاد سليمان ، يا أمّتي إلى أين؟، ص. 52.

(6) فؤاد سليمان ، يا أمّتي إلى أين ؟ «انزل أيها الملك» ص. 54 .

لمصالحهم الخاصّة: «وجد بعضهم من فكرة الديمقراطية عملة رائجة، فاتخذها «كتاباً مقدّساً» يبشر بها بين ظهرائي الشعب المتألم من عجرفة الأرسقراطيين... ويكي بدموع التماسيح على ما يحيق بهم من الظلم والإرهاق والضغط الإقتصاديّ بسبب ضعف الجهاز الحكوميّ الفلانيّ، وانتهاكه حرمة الحزّيات العامّة وضرورة وضع حدّ للفوضى»⁽¹⁾. كما نبّه اللبنانيين من الطائفيّة، والحزبيّات الدينيّة التي هي بلاء الأمّة وعلة الانحطاط «لماذا تفرع الأجراس في حيّي المزرعة والمصيطة كما كانت تفرع في الحروب الصليبية لو لم تتدخّل أصابع الدسّاسين والسامسة المجرمة، ليعلنوها حرباً بين مارونيّ وأرثوذكسيّ؟»⁽²⁾، ليكون بذلك ناطقاً بلغة حاضره، وطارحاً من خلال مقالاته قضايا ما تزال ملحة حتّى اليوم، ثائراً على الديموقراطيّة الوهميّة، والشعب الضّعيف الذي لا يحرك ساكناً وطارحاً قضايا حاضره برؤى وأبعاد مستقبليّة.

ب- موقفه من رجال الدّين والأعياد والمناسبات

إنّ كان لكلّ زمان قضاياها السياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة والفكريّة، فإنّ فؤاد سليمان عايش الزّمان الذي يشبه إلى حدّ بعيد بمشكلاته، وظواهره الكثير من الأحداث التي ما تزال تتصدّر حتى اليوم عناوين الصحف، وتشكّل موضوع بحث لدى العديد من الأدباء والمفكرين. وعندما يحدثك فؤاد سليمان عن رجال الدّين وطريقة الاحتفال بالأعياد والمناسبات في عصره تراه وكأنّه يضع نفسه على جرح اليوم، ليتّخذ الحاضر الذي عاصره بمواضيعه الملحة نموذجاً صالحاً للتقدّح حتى عصرنا هذا، فنرى اللّبناني على أيامه مثلاً يحاول أن يتّخذ من العيد وسيلة للتّباهي والتّقاخر، وتحضير الموائد الفاخرة والعناية بالمظاهر الماديّة «مواسم، مواسم يعيّدّها الشعب اللّبناني، في هذه الأرض ويفرح بها، وينحر على اسمها الضحايا المسكينة، من خروف مسمن، إلى ديك مرفّه، إلى... وتُهرق فيها الخمر على الموائد، كاسات كاسات، وطاسات طاسات. هنا مائدة شهية، هنا خدّ وكأس، هنا أعراس للأجساد وهناك مأتم للأخلاق...»⁽³⁾. كلّ ذلك بعيداً عن الالتفات إلى حال المساكين الذين يتكدّسون كأكوام النّقايات في زوايا الشّوارع. «أيّ معنى للعيد، إذا كان العيد عندنا خمّارة وقمّارة؟ أيّ معنى للعيد، إن يكن العيد شهوة ولهوة؟ أيّ معنى للعيد، إن يكن العيد محشّشة ومفحّشة؟ وأيّ معنى للعيد،

(1) فؤاد سليمان، م.ن، «لا تتقوا بالمضلّين» ص. 46.

(2) فؤاد سليمان، م.ن، «احذروا الدجالين» ص. 62.

(3) فؤاد سليمان، تموزيات، «معنى العيد» ص. 164.

إن لم يكن العيد إيمانًا وحنانًا؟ إيمان يدفعنا إلى الله، فنعيش في وفاق مع الله ومع نفوسنا ومع الناس، مرة واحدة في العمر... وحنان يشدنا إلى الأخوة المساكين، الذين يتكفّمون على بوابات بيوتنا مثلما تتكفّم المزابل في زوايا الشوارع... أيّ معنى للعيد، إن لم يكن العيد، دفنًا في فراش بارد، لم يعرف الدّفء في حياته؟»⁽¹⁾.

لقد أحسّ «سليمان» بالفروقات الشّاسعة بين أكواخ الفقراء وقصور الأغنياء، وصدمه سوق البيع والشراء، فأطلق صوته في وجه التقاليد البالية والطّقوس الدينية الفاسدة، و«استتكر أيضًا التعصب الدّيني بكلّ مذاهبه، هذا التعصب الذي يعمل على تجزئة البلاد بالانقسامات الطائفية. رفض أن تكون بلاده مسرحًا تتطاحن عليه النزاعات الطائفية العمياء، الجاهلة المستغلة لأبناء الشعب»⁽²⁾.

تمسك فؤاد سليمان بمفهومه الخاص للدين، الذي أراده خلاصًا للإنسان، وطريقًا آمنة للصّلاح، وسبيلًا لبناء مجتمع أكثر عدالة وحرية ومحبة. فالمحبة وحدها دين الإنسان وناموسه. والله معرفة ونور وإيمان، والأخذ بهذه الحقيقة معناه الفتك بالجهل المطبق على روحانيتنا.

من أجل ذلك كله، ثار فؤاد سليمان على رجال الدين الذين جعلوا منه مهزلة، «ومن الله بهلوانًا»⁽³⁾ وأخذ عليهم تقصيرهم الفاضح في التوجيه، توجيه الفرد الذي يجنح نحو الانفلات الفاسد ونحو الشّر. ورأى المتاجرين بالدين يمصّون دم الشعب، ويجمعون الأموال منه باسم التبرعات للفقراء. ولم يتردّد في إطلاق عبارات الهزء والسخرية تجاه الشّرق الذي يدّعي الرّوحانية من خلال عقد مقارنة بينه وبين الغرب «أ تكون مؤسسات الخير والرحمة، وتكون دور العلم التي ترفع القلب والروح، أ تكون كلّها مادية تشدّ بالإنسان إلى التراب؟ ويكون الدخان الذي يتصاعد من مقاهي الشّرق ومحاشره وزوايب شوارعه روحانية؟ أ يكون الفكر النّير المنفتح مادية مظلمة ويكون الجهل المطبق روحانية؟ هل قرب الجهل إنسانًا من الله والله كلّه معرفة؟

اللهمّ نجنا من كراكيز الشّرق الذين يخدعوننا، ويبعدوننا عن جمال وجهك»⁽⁴⁾.

وفي هذا الإطار دعا فؤاد سليمان رجال الدين إلى عدم التّدخل في الشؤون

(1) فؤاد سليمان، م.ن، «معنى العيد» ص. 165.

(2) اعتدال الغوش، ملامح الرّفص في أدب فؤاد سليمان، ص. 42.

(3) فؤاد سليمان، القناديل الحمراء، «كراكيز» ص. 91.

(4) فؤاد سليمان، القناديل الحمراء، «كراكيز» ص. 92.

السياسيّة، لئلا يصيبهم مكروه. إذ إنّ رسالتهم في الحياة تتعارض والسياسة، فلمهم عالم الرّوح وما فيه من نور وجمال، فلينيروا ظلمات السجون بتعاليم الرّوح الساميّ، وليخففوا من تعاسة الفقراء وشقاء المرضى.

ودكّر فؤاد سليمان رجال الدّين بانتهاء عهد الإقطاع الدينيّ، فلا يمكنهم استعباد الشعب بعد اليوم: «لا تتخذوا من سذاجة الشعب مطيّةً تركبونها لأغراضكم وغاياتكم. لا تتاجروا بالشّعب ولا تغزّروا به، فقد مضى عهد الإقطاع الدينيّ، يوم كانت الأُمَّ كلّها قطيعاً من الماشية تسير مشية الكاهن تحت الصّغط والإرهاب»⁽¹⁾.

هكذا ثار فؤاد سليمان على رجال الدّين وسلوك بعض الأفراد والجماعات في التعاطي مع الأعياد والمناسبات، إذ إنهم لا يعون قدسيّتها وأبعادها الروحيّة والاجتماعيّة، ولا يدركون أنّها فرصة لأن يقوم الإنسان سلوكه، ويلتقي مع أخيه في الانسانية محاولاً زرع البسمة في النفوس المتعطّشة إليه، أو ربما مسح دمعة من أجفان يتيم معذب «أيّ معنى للعيد إن لم يكن العيد مسح دمعة في أجفان يتيم مقهور، لم تعرف أجفانه لألأة العيد وإشراق العيد، وأيّ معنى للعيد، وفي أفواهنا تجاديف وفي قلوبنا تجاديف، واسم الله في شفاهنا لعنة وسبّة؟ ليتنا نعيش العمر كلّه دون أعياد»⁽²⁾.

ج - موقفه من الصحافة

«أسقط سليمان على نفسه لقب تمّوز، فكان كأدونيس وقدموس من قماشة النّاس غير العاديين»⁽³⁾ لذا نراه يغنّي نشيد الحياة بكلّ ما فيها من آلام وأوجاع، وي طرح قضايا النّاس وآلامهم ومشاكلهم اليوميّة على الورق بقلم الشّاعر والصحافي، يقول ربّعة أبي فاضل «اقرأوا أدبه وشعره، اقرأوا قطع قلبه المنحوت منها وجهًا يضحك الرّبيع فيه، والمنحوت منها كلمات تكثّف الجمال... اقرأوا، عندئذٍ تدركون أنّ الحياة ليست مهرجة، وأنّ سليمان فيكم يغنّي معكم نشيد الحياة»⁽⁴⁾.

لقد بدأ فؤاد سليمان عمله كصحفي وناقد في جريدة «النهضة» عام 1937 تحت زاوية «ما أرى وما أسمع»، فكانت مقالته «أيّها النّاس» بياناً لقرائه يحدّد اتجاهه المشحون بهموم النّاس.

(1) فؤاد سليمان، يا أمّتي إلى أين؟، «بين خطابين»، ص. 82.

(2) فؤاد سليمان، تموزيات، «معنى العيد»، ص. 166.

(3) ربّعة أبي فاضل «أثر أنطون سعادة في أدباء عصره»، الركن للطباعة والنشر، تموز 2002 ص. 190.

(4) ربّعة أبي فاضل، أثر أنطون سعادة في أدباء عصره، ص. 191.

يقول: «لن يفوتني وجه من وجوهكم أيها الناس. سأرى حتى بائع الكستناء المنزوي تحت عكفة الشارع المظلم، يسهر الليل البارد على نور قنديله الضئيل، وبائع الليموناضة المرّص للشارع على طقطقات كاساته النحاسية. وسأرى زعماءكم ومشايخكم وقسوسكم ورهبانكم يفنون الليل في زوايا قصورهم الدافئة ينعمون بالحياة وأطيباب الحياة. سأرى بائعة الورد العجوز تلتف بأطمارها البالية تغني الليل سعيًا وراء اللقمة. وسأرى تلك التي تدوس الورد في قصرها تلتف بالصّوف وتنام على فراش من حرير».(1)

وفي هذه المقالة الأولى يحدّد بوضوح التزامه بمشاكل الناس اليوميّة وبتعبيره عن المشاهدات الواقعية العاديّة ووقوفه مع المظلوم ضد الظالم ، مع الزهرة المسحوقة ضد القدم الساحقة..«وبقي يكتب ساخرًا ناقدًا في «النهضة» حتى عام 1938 حين عادت موهبته في النقد الإجماع، وبرزت في «النهار» في زاوية «صباح الخير»، وكان ذلك في أواخر حياته حين كان ديك «تموز» يصيح كل نهار فبيئها في آذان المستمعين إلى صياحه ويحققها في عروقهم دمًا جديدًا» (2) كانت زاويته «صباح الخير» عالمًا مستقلًا، وفي هذه الزاوية أقام «تموز» الدنيا وأقعداها «كما يقول غسان تويني»، «لقد حمل العصا والكرباج وكتب نازًا وكبريتًا ودمًا ولهيبًا».(3) مسلطًا الضوء على الجانب المعتم في المجتمع «من أجل الخير ولا شيء غير الخير يحمل «تموز» قوسه وسهمه ويمشي في غابات هذا البلد ، يصارع الوحوش البرية المنتشرة في جبالنا وسهلنا ومدننا وقرانا»(4).

وفي إطار نظرته إلى حاضر الصحافة التي عايشها نرى موقفه قد تأرجح بين التأييد والمعارضة. فهو من ناحية يؤمن «بالأقلام التي تدقّ البارود، وتشحنه بطاقة السخّط على الموجود السائد وتقتحم الأجواء المظلمة وتكون منبرًا لصوت الأحرار وحناجر الشعب»(5). ومن جهة أخرى يثور على الأقلام الأجيبة التي عاصرها «لن تتكب أمة من أمم الأرض بشيء، مثلما تتكب بأقلامها، في أدبها وصحافتها»(6).

(1) فؤاد سليمان ، يا أمّتي الى اين ، «أيها الناس» ص. 7 .

(2) سيمون الديري ، «فؤاد سليمان» ، ص 125 .

(3) سيمون الديري ، م.ن. ص 127 .

(4) فؤاد سليمان ، تموزيات ، «صباح الخير» ، ص 24 .

(5) اعتدال الغوش ، ملامح الرفض في أدب سليمان ، ص. 57-58 .

(6) فؤاد سليمان ، القناديل الحمراء ، «أقلام أجيبة» ص. 42 .

وكيف يمكن أن تعتبر الصحافة نفسها صحافة وهي صامتة في وجه الظلم، وكلّ ما تفعله هو المدح والذم: «أصحافة هذه التي لم تنصّر في حياتها حقًا، ولا تدفع ضيماً ولا ترفع سوطاً ولا صوتاً في وجوه الطغاة؟ ... هذه الأقلام الرخيصة الملتوية لا تكتب إلا لتسب أو تمدح»⁽¹⁾. ويسأل: «كيف يمكن أن تمنح الصحافة لقب «صاحبة الجلالة» وأقلامها بغية تُشتري بالمال؟: «صاحبة الجلالة ما فيها شيء من جلاله الملوك ولا من وقارهم، فيها من القوادات أكثر ما فيها من الملوك، وفيها من بنات الهوى أكثر ما فيها من بنات الملوك»⁽²⁾. ثم لا يلبث أن يذكرها بدورها المناقبي في التاريخ، فيقول: «للتاريخ أنت، لوجه الأمة العظيم، لهزّ الظلم من تحت كرسيّ الظالمين لانتزاع الحق من أشداق الحيات»⁽³⁾ وبعثب ملؤه التهكم والسخرية، يسألها عن حالها المتعاسة: «يا صاحبة الجلالة، صاحبات الجلالة في العالم، ترجف الأعصاب، تهزّ الرؤوس الكبيرة هزًا، تقيم الثورات، تقيم شعبًا وتقعّد شعبًا، فما بالك أنت كسيحة عرجاء، تحديبين إلى القبر؟»⁽⁴⁾

هكذا أراد تموز بقلمه قتل الوحش القابع في كلّ نفس جاهلة وفاسدة وسخر قلمه للخير مطلقاً كل صباح على قرّاء «النهار» من زاويته «صباح الخير» طارحاً قضايا معاصرة، وهي لا تزال تصلح أن تكون معاصرة لكل عصر. يقول غسان تويني: «لا أبالغ إن أنا قلت لك يا تموز العاصفة انطلقت من زاويتك التي كنت تكتب... فلقت الصحافة لفاً»⁽⁵⁾. لقد حمل فؤاد سليمان قضايا عصره وحاول أن يطرحها من خلال نافذته الصحافية «من هذه النافذة، أقام تموز الدنيا وأقعدتها بصياحه من أجل طريق وماء وكهرباء لقريته»⁽⁶⁾ وأراد أن تسلك الصحافة مسلكاً على صدق الكلمة. «هذه الزاوية أريدها أولاً وأخيراً، زاوية للخير والحق والجمال... ولن أسخر قلمي، لغير هذه القيم التي أريدها لنفسي أولاً، ولبلادي أخيراً... والأقلام المسخرة، أقلام بغية في آخر نقطة حبر فيها... والأقلام الكاذبة، أقلام، لا تقيم في الأرض حقًا، ولا تمحق

(1) فؤاد سليمان، م.ن.، ص. 44.

(2) فؤاد سليمان، م.ن.، ص. 45.

(3) فؤاد سليمان، «القناديل الحمراء»، ص. 45.

(4) فؤاد سليمان، م.ن.، «صاحبة الجلالة» ص. 46.

(5) مقدمة «تموزيات» بقلم غسان تويني، ص. 9.

(6) مقدمة «تموزيات» بقلم غسان تويني، ص. 10.

في الأرض باطلاً... (1)

د - موقفه من الإهمال الملحق بقضايا الكورة

عاش فؤاد سليمان هاجس إنعاش قريته «فيح» ذاك العالم الصّغير الذي من خلاله يصل إلى الأمنية الأكبر الكامنة في تحسين وطنه الكبير «لبنان». لذا نراه يطالب الدولة والمسؤولين بإلحاح لا يعرف الكلل أو الملل وبإصرار غايته الأولى والأخيرة تحسين أوضاع فيح، وتزويدها بالماء والكهرباء والطّرق والمدارس. وهو في ذلك يوجّه اللوم أولاً إلى أبناء الكورة الذين لا يعملون من أجل مصلحة قريتهم، بل تراهم يعيشون متفرّقين في بيروت؛ كلّ يسعى بأنانيّة وراء مصلحته «صحافيهم يعمل لحسابه، ومحاميهم وطبيبهم... وقاضيهم وتاجرهم كلّهم يعملون لحسابهم» (2). لقد عايش «سليمان» الكثير من المواضيع ذات الصّلة بقريته، وكان بارعاً ودقيقاً في تحديد العلل والأسباب «استمد مسوّغات كتاباته من اهتمامه بشؤون الناس الحياتية اليومية، فكانت مقالاته تتسم بالدقّة في تشخيص العاهات والعورات، والجرأة في الجهر بالحقيقة وتحديد المسؤوليات وفضح المسؤولين» (3) فنراه مناشداً الدولة كي تلتفت لمطالب أهل الكورة، وموجّهاً اللوم والعتاب إلى وزير الأشغال العامة داعياً إيّاه إلى أن يضرب بعصا من حديد ويفجّر الينابيع في كلّ القرى اللبنانية دون استثناء «سيدي وزير الأشغال العامّة: إن العطاش في لبنان، إنّ القرى التي تموت عطشاً في هذه الأيام، والتي ماتت عطشاً منذ عشرات السنين، لم يسمعها أحد، إنّ هذه القرى تريد ماء... فاضرب بعصاك في كل قرية من قرى لبنان... في كلّ قرية، لا تستنّ دسكرة صغيرة، وفجّر الينابيع فيها، حياة للإنسان والطير والبهمة، وللتراب حتى التراب، يا سيدي الوزير، ينتظر أن يرتوي في عهدك» (4) والماء في لبنان يذهب هدرًا في البحار «أنهار لبنان وينايبعه تذهب هدرًا في البحار» (5)، لذلك لا يتوانى عن تشكيل وفد كوراني وتقديم شكوى في السراي الحكومي تنصّ على رغبتهم في الحصول على الماء أحد أبسط مقومات العيش الكريم، «وقيل إنّ وفدنا الكوراني، عاد إلى قراه، على نصيحة اكتبوا عريضة... وما طالب المساكين غير ماء.. ماء

(1) فؤاد سليمان، تموزيات، «الكلمة»: ص. 27.

(2) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، «كورة الذهب، كورة الخراب» ص. 111.

(3) فؤاد سليمان، بأقلامهم «بقلم هنري العويط»، ص. 316.

(4) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة. «ماء» ص. 104.

(5) فؤاد سليمان، م.ن، ص. 104.

.. ما همّهم أنه نقيّ صاف ولكن همّهم أنه ماء . ما طالب المساكين من الحكومة، مدارس ولا طالبوا طرقات ولا طالبوا كهرباء .. ولا طالبوا قروضاً، ولا طالبوا وظائف . ولكنهم طلبوا ماء من رحمة الله ، ومن رحمة الحكومات في لبنان .. ويا رخص الماء في بلاد الناس .. ويا غلاء الماء في لبنان»⁽¹⁾ .. وكان التزام فؤاد سليمان قضايا بلدته لا يقف عند حدّ الطلب بل يتعدّاه إلى اقتراح الحلول لمشاكل عصره مع أبناء البلدة، فهو لا يتردّد في أن يقترح الحلّ على رئيس الحكومة : «سيدي رئيس الحكومة .. نصرك الله ، حوّل بيدك الكريمة المباركة خصلة من الليطاني، أو خصلة من نهر أبي علي، على قريتي في الكورة، أو، مر السماء أن تمطر فتمتلئ آبارنا التي حفرها أجدادنا في الصخر، فنشرب. سيدي رئيس الحكومة إن قريتي تموت من العطش⁽²⁾» . ومن الماء ينتقل «فؤاد سليمان» إلى مشكلة الكهرباء والطرقات، فقريته غارقة في العتمة ويريد أن يخرجها إلى النور «نريد كهرباء لنستنير ونريد طريقاً آدمياً تمشي عليه السيارة، لنصل إلى بيوتنا في قرانا ...

نريد أن تخرج قرانا من ظلمة القرون الوسطى، إننا والله نكاد أن نعيش في تلك القرون .. وأي شيء يجعلنا من أبناء هذا القرن؟؟ والطرقات ما تزال على حالها من أيام الدّولة العثمانية «طرقاتنا التي عندنا شققناها نحن بأموالنا وزنودنا، لا يمكن لأحد أن يمتنّا وما تزال على حالها من أيام الدّولة العثمانية⁽³⁾. إنّ ما يطلبه «فؤاد سليمان» من الدّولة هو اعتبار الكورة جزءاً من لبنان، والالتفات إليها إنقاذاً الأم لأطفالها «الدّولة هي المسؤولة الأولى عن خرابها، لأن الأمّ الحكيمة الواعية لا تنتظر بكاء طفلها لترضعه، فقد يفجر البكاء شرايينه ويموت، وإنما الأمّ الحكيمة ترضع ابنها لأن من واجباتها أن ترضعه... أليس طفلها من أحشائها من لحمها ودمها؟ ونحن في الكورة من أحشاء هذه الجمهورية، من أطيب دماء في شرايينها... هل يمكن للدّولة أن تتكر ذلك؟⁽⁴⁾». ونراه يقارن اهتمام الدّولة بمناطق معيّنة وإهمالها مناطق الكورة: «إنّ حائطاً واحداً تبنيه وزارة الأشغال العامّة على طريق بيت الدّين أو طريق إهدن بشري، أو طريق عين زحلّتا... يكلف الدّولة أكثر ممّا تكلفها شبكة طرقات

(1) فؤاد سليمان ، كلمات لاذعة، ص105.

(2) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، ص106.

(3) فؤاد سليمان، م.ن.، «كورة الذهب، كورة الخراب4»، ص115 .

(4) فؤاد سليمان ، «كلمات لاذعة»، «كورة الذهب ، كورة الخراب» ص. 121 .

كبيرة عصريّة مزقّقة.» (1) وينبري «سليمان» ليحاسب الدّولة ويسأل نواب الكورة عن واجباتهم تجاه بلدتهم «لنا في ذمّة الحكومة ستون ألف ليرة لبنانية، دفعناها من أموالنا، قالوا إنهم سيبنون بها مستشفى... ولم نعرف حتى اليوم من أكل الستين ألف ليرة علينا» (2). إن المحاسبة لا تقتصر فقط على المستشفى أو على الستين ألف ليرة، بل تتعدّها إلى تساؤله عن سبب تدفّق الخيرات على كلّ قرى لبنان، وتحرم منها الكورة: «نريد أن نعرف لماذا نحن في الدّولة؟ لماذا ندفع الضرائب؟ ... نريد أن نعرف لماذا تتدفّق الخيرات، على الجنوب والشمال، على بيروت والجبل، على كسروان والبقاع ... وتحرم منها الكورة؟» (3)

هكذا كان فؤاد سليمان واعياً لقضايا قريته، ناقلاً لواقعه الصّعب في مقالات لم يتردد من خلالها أن يوجّه عبارات قاسية للمسؤولين ناعثاً إيّاهم بالتّقاعس حيناً وباعتماد سياسة التّمييز بين المناطق حيناً آخر:

«عندكم مال لمطار بيروت... عندكم مال لكورنيش بيروت... عندكم مال لتجميل بيروت... عندكم مال للتلفون الأوتوماتيكي في بيروت... ولكن ليس عندكم مال، ليشرب فلاحو لبنان ومزارعوه، وناسه الكادحون العاملون الذين يملأون بيوتكم بالخيرات، والذين يملأون خزينة الدولة بالمال...» (4) هادفاً من وراء ذلك إلى إعادة الإعتبار لقريته وجعلها جزءاً من الخارطة اللبنانية ومحط اهتمام الدّولة والمسؤولين، وقد نجح في أن يكون ملتزماً بقضايا قريته أولاً، وكان له فضل كبير في الكثير من المشاريع الإنمائية والحيويّة منها: إنشاء فرع لبريد خاص بقريته، تأسيس جمعية الثبات الخيرية، كما كانت لديه أمنية غالية تقضي بإنشاء مكتبة عامّة في مسقط رأسه، ولكنّه غاب ولم تحقّق الأمنية.

القسم الثالث: رؤى فؤاد سليمان المستقبلية

تمهيد

بعد أن عالجتنا مجموعة من المواضيع التي طرحها فؤاد سليمان في أدبه، وأحطنا بما شكّل موضوع جذب له إن من حيث الزّمن الماضي، أو الحاضر، كان لا بدّ لنا من أن نعطي حيناً للمستقبل في دراستنا، إذ إنّه ومن خلال ملامح الرّفص في

(1) فؤاد سليمان، م.ن، «كورة الذهب، كورة الخراب» ص. 117.

(2) فؤاد سليمان، م.ن، «كورة الذهب، كورة الخراب»، ص 118.

(3) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، كورة الذهب، كورة الخراب، ص 118.

(4) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، ص 32.

أدبه يمكننا أن نستشف مؤشرات القبول. من هنا كان «أول ما يتوجب عمله في التحليل، هو البحث عن المدلولات المتضادة لموضوع التساؤل، وكشف المتعارضات اللافتة»⁽¹⁾ علّه يتسنى لنا من خلال ما أثاره «سليمان» في أدبه من مواقف تجاه رجال السياسة والصحافة والدين أن نلتقط المستقبل الذي كان يتطلع إليه. لذا ارتأينا أن نحلل نظرتة إلى المستقبل من خلال جمع مقتطفات من أدبه تخصّ القضايا التي توقفنا عندها خلال دراستنا، معتمدين على بعض المفاتيح ذات الرموز والأبعاد وعلى دراسة الثنائيات التعارضية، فمثلاً حين يثور «سليمان» على مظاهر الترف والبدخ في الأعياد، يمكننا أن نوّكد بأنه يتمنى أن تكون طريقة الاحتفال بالعيد أكثر روحانية. وهكذا يمكننا أن ندرس رؤاه المستقبلية للقضايا التي اعتنى بها، متسائلين عن نموذج صورة السياسة المثلى، والقرية الحلم، والصحافة الحرّة التي يرنو إليها، والمجتمع المثالي الذي يؤسس لبنائه من خلال مقالاته.

أولاً: الصحافة المثلى

في أدب فؤاد سليمان الصحفي مواضيع يومية متنوّعة محورها الواقع، والتطلع نحو مكان الخلل. ورسالة الصحافة بنظره هي رسالة تحرّر واستقلال لا تحزّب واستغلال، «رسالة الصحافة أول ما قامت، قامت على أنها رسالة تحرّر واستقلال، وليست رسالة تحزّب واستغلال، وكانت الجريدة في ذلك الحين منبراً للحريّة ومناراً للمعرفة...»⁽²⁾ وعلى الصحفي أن يعرف الهدف الذي سيصوّب قلمه تجاهه متمثلاً بأعمدة الصحافة القدامى، «كان على رأس هذه النخبة الممتازة من أحرار الصحفيين عبد الرحمن الكواكبي، خليل سعادة، سليم سركييس، أمين إرسلان، نجيب الحداد، ولي الدين يكن، فارس نمر وغيرهم... كانت أقلام هؤلاء تنصبّ على الطغيان من جميع العالم العربي، في المقطم، ولسان العرب ومرآة الأحوال، والمجلة وتركييا الفتاة، وغيرها من صحف ذلك العهد... فيرتجف الطغيان الحميدي ويتململ»⁽³⁾ ليس هذا فحسب، بل إنّ الصحفيين تلقى على عاتقهم مهمّة بناء الأمة، وذلك لا يتحقّق إلا بالمعرفة المستمدّة من واقع الحياة بعيداً من النظريات الجامدة، «وأنتم وحدكم، يحقّ لكم أن تعرفوا، ويجب عليكم أن تعرفوا، لأنكم مدعوون في الغد إلى بناء أمتكم ووطنكم عن طريق المعرفة، والحياة ليست نظريات

(1) نبيل أيوب، النقد النصّي، نظريات ومقاربات - الطبعة الأولى - دار المكتبة الأهلية 2004 ص. 183.

(2) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، «صحافة حرة في وطن حر» ص. 63.

(3) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، «صحافة حرة في وطن حر» ص. 63.

جامدة تتلقونها ببراعة ممتازة على أيدي أساتذة ممتازين ، ولكنها حركة وحيوية ونشاط. الحياة ليست هنا، في هذه الجدران، ولا في هذه الكتب، ولكن الحياة هناك، في الشارع، حيث يعيش الإنسان وجهًا لوجه مع الصراع». (1) وبرأيه أن الصحافة والحرية توأمان لا يفترقان «وحديث الصحافة، هذا الذي جئت أحدثكم عنه، هو حديث الحرية نفسها. ففي مدرسة الصحافة نشأت الفكرة التحريرية في العالم العربي.» (2) ولا قيمة للصحافة بعيدًا عن رسالة الحرية «إنه لفخر للصحافة أن تكون الحرية قد نشأت في أحضانها وما عساها تكون رسالة الصحافة غير رسالة الحرية ؟ وأية قيمة للصحافة إن تخلت عن هذه الرسالة النبيلة .. إنها من أجل هذه الرسالة كانت السلطة الرابعة في الدولة، وكانت صاحبة جلاله، لها تاجها وصولجانها ولها عرشها وصاحبة القدر والقيمة قد أعطيت لها سلطة لا تقل تأثيرًا عن سائر السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، فهي السيد المطلق بلا منازع ودينامو العصر، ومحرك الميول، ومؤجج الغرائز، وصانع الحدث. ولأجل هذا كله استحققت أن تكون صاحبة الجلالة مع تاج وصولجان وعرش.» (3) لا بل إن قيمة الصحافة ليست في الكم بل في التنوع، والقضية التي يعالجها». لقد تضخم عدد الجرائد في لبنان وعدد المحررين ، إلى حد كبير ، ولكن هذا العدد الضخم من الصحف، هذا الجيش من المحررين عجز كل العجز عن أن يقود فكرة أو يقود حملة من أجل مبدأ» (4). ويمضي مبرزًا خصائص الصحافة المثلى التي يجب أن تستمد قوتها من الكتل والأحزاب لا الأفراد «ضعف الصحافة اللبنانية أنها تستمد كل قوتها من جهود أصحابها منفردين، والصحافة في العالم لا تقوم على جهود الأفراد، فهناك الكتل والأحزاب السياسية تدعمها ماديًا وتروج لها... وليس في العالم جريدة واحدة، على ما أظن تقوم على مجهودات أفراد كما هي الحال في الصحافة اللبنانية» (5) كما أن الصحافة القوية هي تلك التي تستند على شرعة تصونها من الإنصياع لجبروت الحكومة «وهي بحاجة إلى شرعة تحميها من سلطان الحكومة وتضمن حرية إبداء الرأي دون أن يتعرض أصحابها للسجن» (6) كل ذلك من أجل بناء وطن حرّ، ومستقبل

(1) فؤاد سليمان، «كلمات لاذعة» «صحافة حرة في وطن حرّ» ص 62.

(2) فؤاد سليمان، م.ن. «صحافة حرة في وطن حرّ» ص 62.

(3) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، «صحافة حرة في وطن حرّ» ص 64.

(4) فؤاد سليمان، م.ن. «صحافة حرة في وطن حرّ» ، ص. 65

(5) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، «صحافة حرة في وطن حرّ» ، ص. 66-67 .

(6) فؤاد سليمان، م.ن. «صحافة حرة في وطن حرّ» ص. 67

واعد ومشرق «إننا مدعوون إلى بناء وطن جميل حرّ، ولن نبنيه إلا في ظلّ نظام يقدر مفهوم الحرية، وفي صرير أقلام لا تعمل إلا من أجل الحرية... حديثي إليكم ليس عن الصحافة اللبنانية، وتاريخها الطويل، ولكنّه عن الصحافة الحرّة في الوطن الحر»⁽¹⁾ لأجل هذا كلّه لا بدّ للصحافة من أن تتحرّر من القيود التي تكبلها، وتمارس دورها الفعال، وتشهر قلمها الحقّ في وجه رجال السّلطة.

ثانياً: السياسة المثلى

لن نطيل الحديث في هذا المجال لطالما أنّ السياسة قد تداخلت مع الكثير من المواضيع التي طرحناها سابقاً كالطفولة والهجرة والقرية المهجورة، وجلّ ما يمكن قوله في هذا المجال هو مناداة «فؤاد سليمان» بسياسة علمانية تجيز فصل الدين عن الدولة لتوحيد الكيان العربي. فالتأنيّة البغيضة هدفت خلفه لنا الاستعمار، لنغرق في تخلفنا وجهلنا، بعيداً عن التصديّ لأطماعه. لذا لا بدّ من نبذ الممارسات الطائفية التعصبية، وإضعاف السلطويّة الدينية. فالدين لله والوطن للجميع؛ إذ يقول: «أقفلوا أفواه الذين ينادون بوحدة إسلامية، تقفلوا الباب على أوروبا المتعصبة الجائعة، وأقفلوا الباب على مثل هؤلاء الذين ينادون في لبنان بوطن مسيحي... نحن في لبنان، لهؤلاء الذين عندنا، يسمّون الجو، بالمرصاد للذين عندكم.. عندكم كثير منهم.. هل تريدون أن أسمي.. لماذا أسمي وأنتم تعرفون.. وأنا أعرف.. ولكنني لا أخاف لأنني أعرفكم، ولكن هؤلاء النصارى يخافون لأنهم لا يعرفون.. اكسبوا قلوب النصارى بالمحبة وافتحوا قلوبكم وبيوتكم للنصارى يا أيها الأسياد. هذه وصيتي الأخيرة إليكم»⁽²⁾ ليس هذا فحسب بل يستفيق وجدانه الوطني مخطّطاً لمستقبل قائم على مبدأ الديمقراطية الفعلي لا الوهمي، أي رفض النظام الديمقراطي الذي ترتديه الأمة لباساً واهماً، مزيفاً للمباهاة، وتخفي تحته غوغائية إقطاعية، تتحكّم بشعب جبان كما نراه يتطلّع إلى إلغاء نظام الوراثة السياسي الذي من شأنه أن يجعل الأمة أشبه بقطعان من الماشية «ليس الشعب مطيّة تركيبونها لتحقيق شهواتكم، وليست الأمة قطيعاً من الماشية تتوارثونه أباً عن جد لتتعموا بلحمه ولبنه وصوفه. للحق يوم أيّها المضللون ويوم الحقّ ليس ببعيد»⁽³⁾.

ثالثاً: القرية الأنموذج

(1) فؤاد سليمان، «كلمات لاذعة» «صحافة حرة في وطن حرّ» ص. 68.

(2) فؤاد سليمان، درب القمر ص. 122

(3) فؤاد سليمان، يا أمّتي إلى أين، «احذروا الدجالين» ص. 63.

إنَّ القارئ لأدب «فؤاد سليمان» يؤخذ بطابع الحنين إلى القرية» ذاك العالم الغنائي المسحور بالعواصف والأزهار... إلى بدائية منسّقة يعمرها الذوق وتحفزها الأحلام التائهة...»⁽¹⁾ وتلك اللوحة التي تأبى الاندثار والتلاشي، لا بل تلك المرحلة الأكثر نقاءً وصفاءً في مخيلته. فأَي قرية تلك التي يرفضها فؤاد سليمان؟ وأي ضيعة نموذجية تلك التي يرنو إليها؟

في الواقع، إننا من خلال ما يشكل لدى «سليمان» موضع رفض يمكننا أن نقرأ ملامح القبول، ونستشفّ تطلعاته المستقبلية، وفي نصوصه تتبدّى لنا الكثير من المؤشرات في هذا المجال والتي يمكن أن ندرجها تحت عنوان «القرية الأنموذج». لقد نعى «سليمان» القرية في أواخر حياته، ووقف نافرًا من وجهها الذي تغيّر مع بزوغ فجر جديد وحضارة طارئة، فالأمس المنصرم، والماضي النَّابض بالجمال والبراءة والعفّة والطّهارة، والأصالة لم يعد موجودًا، وقريته التي كانت تنعم بالمياه كأحدى أبسط مقومات الحياة باتت اليوم بأمرّ الحاجة إليها «القرى اللبنانية تلمّ حبات المطر من نزازات المياه»⁽²⁾ ونحن إذ نتابع رصد كلّ ما يشكّل محطّ نقد لدى «سليمان» نرى أنّه أيضًا ثار على الحكومات المتعاقبة التي وضعت الكورة على هامش اهتماماتها «فمن كان يتيمًا كما نحن في الكورة، ظهره مكسور، وجانحه رخو مشلول، كان حرّيًا به أن يعطش وأن يموت من العطش...»⁽³⁾ واتخذ موقفًا معارضًا من سياسة الثواب الكورانيين الذين أوصلوا القرية إلى هذه المحطة من الخراب والدمار. ونتساءل هنا: ما هي رؤى «فؤاد سليمان» في هذا المجال الخاصّ بقريته؟ في الحقيقة، إنَّ القارئ لأدب «فؤاد سليمان» لا بدّ له من أن يؤخّذ بجملة من التطلّعات المستقبلية المثبوتة في نصوصه، فنراه إذ يطرح المشاكل يقترح الحلول. فأول ما يصبو إليه هو أن تعتمد الدولة سياسة عادلة بين المناطق بعيدًا عن التنزّع بحجج واهية «الروتين الحكومي، العراقيل القانونية والفنية والمالية، بطء الإجراءات الرسمية، «وما أدرانا أنّ هذه الأشياء ستزول حتمًا... لماذا تزول هكذا سريعًا في كلّ مكان... وبأسرع ما يمكن... ثم تتباطأ عندنا وتمشي على عكايز...؟»⁽⁴⁾ وثاني ما يتطلع

(1) فؤاد سليمان، مقدمة القناديل الحمراء بقلم أنسي الحاج ص. 9.

(2) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، «ماء» ص. 103.

(3) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة «ماء» ص 113.

(4) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، «كورة الذهب كورة الخراب» ص. 121.

إليه هو تكاتف أبناء الكورة لأجل مصلحة قراهم، وذلك عبر تأليف جمعيات وروابط تعمل ليلَ نهارَ لإعادة الكورة على الخارطة اللبنانية «ولكن الحق ليس على الناس في بيروت، فالناس معذورون، وإنما الحق الكبير على أبناء الكورة أنفسهم، وإنني أحسب أنّهم لو شاؤوا أن يقيموا الأرض ويقعدوها في سبيل حقوقهم، لأمكنهم ذلك، فإنّ لهم من القوى المعنوية والمادية ما يجعلهم أهلاً لذلك، ولكنهم لا يفعلون ... وربّك يعرف لماذا لا يفعلون...»⁽¹⁾ ونراه يحمّل المسؤولية لأبناء الكورة الذين لهم النفوذ المادي والمعنى، ولكنهم تنازلوا عن حقوقهم، وانشغلوا باللّهات وراء مصالحهم الفردية، دون أن يأخذوا بعين الاعتبار المصلحة العامّة. ويمضي «سليمان» في عرض ما يتمتّاه لقريته وهو التفاتة من الحكومة فنراه يطالب «إميل لحود»⁽²⁾ بعودة القرويين إلى قراهم، ولكن كيف يعود القرويّون إلى قرى لبنان، ولم يبق فيها شيء؟ فالمواسم الزراعيّة كالحرير والدخان والقمح والزيتون، كلّها بارت أو أصابها المرض واقترب منها الخراب: «ماذا بقي لنا في قرى لبنان، لنعود إلى قرى لبنان؟ سمّ يا معالي الوزير موسمًا واحدًا من مواسم القرية اللبنانية بقي لها، واطلب منّا أن نعود إليها لنعيش من هذا الموسم»⁽³⁾. ونراه ينطق بلسان الفلاح، ويدافع عن حقوقه ومطالبه، ويقول إنّه لن يعود إلى القرية ما دامت مقبرة: «وفروا للفلاح والمزارع القروض الزراعيّة، حسنوا الانتاج الزراعيّ... ونحن نذهب إلى قرانا الجميلة النظيفة. ولكننا لن نعود إلى المقبرة اللبنانية»⁽⁴⁾.

إذا صورة القرية الأنموذج التي تتراءى في مخيلته ستتجسد على أرض الواقع بوجود حكومة راعية وواعية، وبتضافر جهود أبناء الكورة، وأيضًا بتحفيز الشبّاب النّازح والمهاجر على العودة إلى الجذور التائهة في غياهب الزّمن. هذا على مستوى القضايا العامّة أمّا على الصعيد الوجداني الخاص، فما الذي رثاه فؤاد سليمان في قريته؟ وما الذي تطلّع إليه؟

«حاول «سليمان» أن يدلّنا على الشر لنرتدع فنختار الخير، والخير يبدأ في الذات، وينطلق إلى الآخرين. يمكن القول إنه، على عنفه الظاهر، من الحالمين بالعودة إلى نقاوة القلب، والتوقف عن المتاجرة بالمبادئ. ثم نفهم لماذا قرّر صاحب «القناديل»

(1) فؤاد سليمان، م.ن، ص 111 .

(2) إميل لحود، (1899، 1954) : وزير التربية والشؤون الاجتماعية سنة 1951.

(3) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، «لن نعود» ص. 16، 17.

(4) فؤاد سليمان، م.ن، «لن نعود» ص. 16، 17.

اعتبار نفسه فلاحًا، ابن الجبل، ابن البساطة. كان شريفًا ولم يكن متكبرًا، كان رائيًا ولم يكن فجعًا، كان محبًا ولم يكن حاقدًا» كان فلاحًا من الجبل به قساوة الصخر، ووعورة الأرض البور، وصفاء ينبوع، وطيب التراب المكتنز بالخير، هو رغم ولوجه عالم المدينة ومعايشته للكثير من القضايا، وانغماسه في مجتمع قائم على المادّة، بقي ذاك القرويّ الأصيل. ومن منطلق ذاته يتطلّع «سليمان» لأن تبقى هذه الرّوح الريفيّة الخالصة قائمة في ذات كلّ قروي لا بل في داخل كلّ لبناني.

يرى سليمان أن «دروب القرية هي التي تفوز دائمًا بأوصاف إيجابية»⁽¹⁾ كأنني به يرنو لأن يجعل من دروب ضيعته طريقًا تمشي عليها جموع البشر علّهم، وهم يغزّون الشّر في جنباتها، يلتقطون معنى الطّيبة والأصالة والنقاء.

لقد رفض «سليمان» الكثير من الصّور البشعة في قريته، رفض الدّمار والخراب وانعدام وجود الحياة في بقعة كانت تمثّل أجلّ انعكاس للحويّة والديناميكيّة، فشمس الأمس قد غابت، والقنديل الأحمر قد بهت لونه، والزيت قد شخّ والشّباب قد رحل «القرية اللبنانية أبنائها في جفوة عنها وفي قطيعة، يهجرون فيها، على غير موعد، الصّخر الذي فتّنه زنود أجدادهم ترابًا، كان في مرة من الزمان خيرًا وعافية... وكان في ما كان قناعة وإيمانًا... لقد اشتقنا، للشمس، تطلع من عندنا وحدنا... كأنها ألوان العنّاب... عندنا في الجبل، الفقر والجهل والمرض... عندنا القنديل، الأصفر الباهت، المريض، شخّ زيته، فلا يضيء. عمّروا القرية اللبنانية، اجعلوا أسباب العيش فيها سهلة... وفرّوا للفلاح والمزارع القروض الزراعية. حسّنوا الإنتاج الزراعي... ونحن نذهب إلى قرانا الجميلة النظيفة... ولكننا لن نعود الى المقبرة اللبنانية...»⁽²⁾ نعم، فأوجه الحياة في القرية قد ماتت، والألوان قد بهتت، والأمراض والأوبئة قد انتشرت والفقر قد استشرى. وسط هذه العواصف سيبقى «سليمان» يرنو من بعيد إلى قرية صلبة أمام الشدائد، قرية تمثلها سنديانة عتيقة، جذورها ممتدة في التراب «عندنا في الجبل سنديانة... من لبنان، من أعلى ما في تربة لبنان من سنديان... جذورها في التراب، تمتد في صمت وهدوء، شبيهين بصمت الأرض نفسها... وأغصانك؟ تعانق الفضاء بفرح، شبيهة بفرح الانطلاق من السجن... قالت لها العاصفة... سأمرّغ جبهتك في التراب، يا هذه السنديانة! سأعزّيك، فلا يبقى فيك غير الحطام اليابس،

(1) فؤاد سليمان، بأقلامهم، «دروب القرية قادت سليمان الى مسالك لا تعرفها المدينة»، بقلم شربل داغر ص. 27

(2) فؤاد سليمان، كلمات لاذعة، «لن نعود»، ص. 17.

لن تورق فيك بعد اليوم ورقة خضراء..⁽¹⁾. «هذه السنديانة ستبقى متشبّثة بثقافة الحياة ولن تهزمها الشدائد، هذه السنديانة هي رمز لروح القرية الصّامدة النقي، والعاصفة هي تجسيد المادة التي تحاول أن تخنق بخيوطها وجه القرية الجميل، قرية لا تتحني، قرية لا تعرف طعم الهزيمة، قرية سلاحها الروح تشهره في وجه العاصفة رمز مادّية الإنسان» «جباه السنديان في بلاد الجبل لا تتحني في العواصف... سأكسر عنفوانك وكبرياءك يا هذه العاصفة، فلا ينكسر فيّ شلح حتى ينكسر قبله عنقك... غابة السنديان في بلاد الجبل تشهد معركة الموت والحياة بين السنديانة والعاصفة...»⁽²⁾.

الخاتمة

إذا أردنا أن نجيب عن تساؤلات كثيرة شكّلت لدينا عناوين عريضة لبحثنا، إن بالنسبة إلى تحديد الزمن الأكثر حضوراً في أدب سليمان، أو فيما يتعلّق بالأبعاد الحضاريّة التي يمكن أن نتلمّسها في مقالاته، أو من حيث إمكانيّة اعتبار أدب فؤاد سليمان أدباً ناطقاً بلغة العصر وروحه؟ فإننا نقول: أقدمنا على هذه الدراسة، ونحن نظن بأنّ فؤاد سليمان قد يُقرأ عند العامة، أو ربما عند من يمتهن التدريس بمنطق الحنين إلى الطّفولة، بمنطق يتصوّر فيه القارئ أنّ أغلب مقالات «سليمان» قد قيلت في وصف زمن القرية الجميل، أو ربما في رثاء مظاهر القرية، وهي تندثر وتتلاشى أمام حضارة المادة. لنجد انفسنا قادرين على قراءة أدب «سليمان» بمنطق جديد لا ينفي الأول. فبعد تحليلنا لجزء من مقالاته نستطيع أن نقول بأنّ سليمان هو ذلك الأديب القادر على أن يرى عبر الزمن ما تغلعه مسافة التحوّلات الجوهرية في معنى المراحل والظواهر. فكما أنّ أدبه فيه شغف، وولع بماضي القرية، كذلك هو بالنسبة إلى الحاضر، أدب واقعي ملتزم بقضايا إجتماعية وسياسية ودينيّة وبيئيّة. أدب إذا أعدنا اليوم قراءته، ورغم أنّه كتب بين الثلاثينيات والخمسينيات من القرن الماضي، نجده وكأنه يصوّر ظواهر عصرنا بريفيته ومدنيته، بسياسته وساسته، بشروره ومفاسده، بأهاته وعلله. فكأن شيئاً لم يتغيّر في مدينة «الحجارة اليابسة»؛ لنغدو في نهاية بحثنا قادرين على أن نقول بأنّ الزمن الحاضر هو الأكثر بروزاً في أدب سليمان، بحيث تشعبت المواضيع المعاصرة التي عالجه في مقالاته، لدرجة أننا

(1) فؤاد سليمان، تموزيات «سنديانة» ص 64.

(2) فؤاد سليمان، م.ن، ص. 65.

إذا وضعناها مقابل تصوير ماضي القرية والطفولة التائهة نجد الأخيرة أقل حضورًا. وفي نهاية بحثنا لا يسعنا إلا أن نقول: أليس مفارقًا أن يكون هذا الكلام الذي كتب قبل سنتين أو سبعين عامًا، وربما أكثر، كأنه يُكتَب في لبناننا اليوم، في بيئتنا المشوّهة، وبطالتنا المستشرية، وفي صحافتنا ومثقفينا وسياسيينا؟ لقد حاول سليمان أن يدلّنا على الشرّ لنتردع فنختار الخير، لا بل أصرّ أن يعلمنا بأن الخير يبدأ من الذات وينطلق إلى الآخر، لقد حلم بالعودة إلى نقاوة القلب، ودعا إلى التوقّف عن المتاجرة بالمبادئ، وقرّر أن يحتفظ بلباس الفلاح الأصيل، فكان دائمًا ابن الجبل، ابن البساط، ابن الأرض الغلال، وذاك الصوت الذي اتخذ لنفسه لقب «تموز» وهو ينتفض حيًّا في أول الربيع، خالغًا أكفان الشتاء، ليسير في طليعة أبناء الحياة متحدّيًا الليل الطويل. فما أحوجنا اليوم في وطن تتنازعه الطوائف والأحزاب والعائلات كما أسماه «سليمان» إلى أدب يلقي بعباراته في صميم هذا الجسد اللبناني المريض، لعلّ طائر الفينيق ينبعث من بين الرماد معلنًا استمراريّة دورة الحياة. فهل تتحقق اليقظة التي نادى بها «فؤاد سليمان»؟ وإلى أيّ حدّ يمكن أن يغيّر القلم فكر الشعوب؟ ونختم بحثنا ونحن نردد مع فؤاد سليمان «لله، لو ينتصب الشعب مرة واحدة في الحياة، في وجه هؤلاء الذين دقوا المسامير في لحمه، لله لو تصحّ، فيعيرى الشعب هؤلاء الذين عزّوه في صقيع الشتاء، يوقفهم حفاة عراة في الوحل.. أين شعبي الذي مرّت على رقابه سكين الجزار جمال، فهلّل وكبّر؟؟ أين هو الشعب؟ أين هو شعبي الذي أطعم الأمّ لحم ابنها؟ أين هو هذا الشعب، الذي داسته حوافر الخيول المطهّمة؟ وغرزت حديدها في دمه... وهو يصلّي إلى الله دون إيمان ولا معرفة»؟.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

1 - سليمان (فؤاد)

- 1 - 1 أغاني تموز ، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ط2 ، 2001 ، 75 ص.
- 1 - 2 تموزيات ، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ط2 ، 2001 ، 180 ص.
- 1 - 3 درب القمر ، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ط3 ، 2001 ، 146 ص.
- 1 - 4 القناديل الحمراء ، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ط2 ، 2001 ، 138 ص.
- 1 - 5 كلمات لاذعة ، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ط1 ، 2001 ، 125 ص.
- 1 - 6 يا أمّتي إلى أين ؟ ، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ط1 ، 2001 ، 207 ص.
- 1 - 7 يوميات ورسائل ، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ط1 ، 2001 ، 123 ص.

ثانياً : المراجع العربيّة

- 1- أبي فاضل (ربيعه) : أثر أنطون سعادة في أدباء عصره ، بيروت دار الركن للطباعة والنشر، 2002، 382 ص.
- 2 - ابن منظور (جمال الدين أبي فاضل) : لسان العرب ، ج1 ، بيروت ، دار إحياء التراث العربيّ، ط3، 1999 ، 566 ص.
- 3 - أيوب (نبيل) : تقنيات التعبير ، دار المكتبة الأهلية ، ط2 ، 2001 ، 304 ص.
- 4 - الطرائق إلى نصّ القارئ المختلف ، دار المكتبة الأهلية ، ط1 ، 1997 ، 327 ص.
- 5- نصّ القارئ المختلف (2) وسيميائية الخطاب النقدي ، مكتبة الناشر لبنان ، ط335، 2011، 1 ص.
- 6- النّقد النصّي نظريات ومقاربات ، دار المكتبة الأهلية ، ط1 ، 2004 ، 303 ص.
- 7 - حسن (عبد الكريم) : المنهج الموضوعي نظريّة وتطبيق ، بيروت ، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع ، ط1 ، 1990 ، 176 ص.
- 8 - الديري (سيمون) : فؤاد سليمان ، بيروت ، فجر النهضة ، ط1 ، 2002 ، 207 ص.
- 9- سابا (رفعت) : وجوه ، لا مكان ، اعلامياً ، ط1 ، 2007 ، 304 ص.
- 10 - سعادة (جورج شكيب) : الصراع بين التريف والمدينة في شعر إيليا أبي ماضي ، بيروت، دار الحدائث للطباعة والنشر والتوزيع ، 2002 ، 550 ص.
- 11 - عبد النور (جبّور) : المعجم الأدبي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط1 ، 1979 ، 663 ص.
- 12- الغوش (اعتدال) : ملامح الرّفص في أدب فؤاد سليمان ، رسالة أعدت لنيل الكفاءة،

- إشراف د. نور سلمان ، كلية التربية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، 1979 ، 111 ص.
- 13 - فؤاد (جورج فارس) : فؤاد سليمان بين الوطنية والقومية ، لا مكان ، لا دار ، ط1، لا تاريخ، 142 ص.
- 14- فريحة (أنيس) : القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال ، بيروت ، دار النهار للنشر، ط1، 1957 ، 377 ص.
- 15- فكرة الزمان عبر التاريخ ، ترجمة فؤاد كامل ، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1992 ، 355 ص.
- 16- فارس (جورج نزيه) : النزعة القومية في أعمال فؤاد سليمان ، رسالة أعدت لنيل شهادة الدراسات المعمّقة في الأدب العربي ، إشراف الأستاذ الدكتور متري بولس ، جامعة الروح القدس، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية وآدابها ، الكسليك ، 2009 ، 20 ص.
- 17 - قبرصي (عبد الله) : عبد اله قبرصي يتذكّر ، تأسيس الحزب القومي الإجتماعي وبدايات نضاله، ج 1 ، بيروت ن مؤسسة فكر للأبحاث والنشر ، ط1 ، 1982 ، 343 ص.
- 18 - قبرصي (عبد الله) : عبد الله قبرصي يتذكّر ، أيام الطفولة والشباب ، ج3 ، لا مكان، دار الحداثة ، ط1 ، 1996 ، 240 ص.
- 19- مولونيه (جورج) : الأسلوبية ، ترجمة بسام بركة ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط2 ، 2006 ، 222 ص.
- 20- مجموعة مؤلفين : بأقلامهم ، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ط1 ، 2001 ، 362 ص.
- 21- مفاهيم نقدية ، ترجمة د. محمد عصفور ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، 1987 .
- 22 - نخلة (أمين) : مختارات ريفية ، لا مكان ، دار عودة للطباعة ، لا طبعة ، لا تاريخ ن 109 ص.

ثالثاً : المراجع الأجنبية

Richard (Jean Pierre) ,L'Univers imaginaire de Mallarmé , Paris , édi. Du Seuil , 1961 , 653 p.

المدرسة والتربية في فكر جون ديوي خضر عيسى

بعد أن تنازلت الفلسفة عن برجها العاجي وخرجت من عزلتها، وتحولت من الثابت إلى المتغير، وأضحت أكثر التصاقاً بأمر المجتمع وشجونته؛ تبحت في مشكلاته وتسعى لإيجاد الحلول له، وبعد أن اختطت لنفسها خطأً علمياً وظيفياً يقوم على نقض ما كان مألوفاً حول طبيعتها ومضمونها، تحولت من مجرد «البحث عن الحقيقة المطلقة، وعن الجوهر واللامتغير»¹، إلى المباشر في «عملية دراسة القيم المتضمنة في مواقف الحياة المختلفة، وتوضيح مضامينها، وصياغتها في فكرة شاملة وتكامل جديد، حتى تصبح قوة اجتماعية، تؤثر في حياة الأفراد في صورة أوسع نطاقاً، وعلى أساس أكثر وضوحاً مما كانت عليه»².

وكان الإنسان منذ إطلالته الأولى على الحياة وفي صيرورته المستمرة يشكل الموضوع الأساسي الأول لكل من التربية والفلسفة، على اعتبار أن «الفرد لا يصير إنساناً إلا بالتربية»³ على حد قول الفيلسوف الألماني كانت (Kant)، ولم تكن لتتم هذه الصيرورة لولا اعتماد منهجية محددة ومبادئ وقيم ومعايير معينة مستقاة من فلسفة معينة.

وعليه يمكن القول إنَّ المتعمق في دراسة العلوم الإنسانية لا بدَّ له أن يلاحظ تلك العلاقة الوثيقة بين كلِّ من الفلسفة العامة والتربية التي أكدها جون ديوي (John Dewey) في قوله إنَّ «الفلسفة اليونانية، وهي أول فلسفة نظامية معروفة، لم تنشأ إلا تحت ضغط مسائل التربية على عقول المفكرين. فجميع مسائل التربية هي نفسها مسائل الفلسفة». فالعلاقة بين الروح والجسم، وبين المعرفة والأخلاق، وبين الفرد والجماعة، تبثها التربية كما تبثها الفلسفة في كلِّ زمانٍ ومكان⁴.

ويُعدُّ جون ديوي فيلسوف المربين ومن أهمِّ فلاسفة التربية الحديثة، ولد في برلنجتون في العشرين من أكتوبر العام 1859، وتوفي العام 1952 تاركاً كثيراً من المؤلفات، أبرزها: الديمقراطية والتربية، التربية في العصر الحديث، الخبرة والتربية، البحث عن اليقين وغيرها من المؤلفات التربوية والفلسفية⁵. كما يُعدُّ ديوي من أهمِّ فلاسفة التربية الحديثة ممن عاشوا وأنتجوا خلال النصف الأخير من القرن الماضي والنصف الأول من القرن الحاضر أهمَّ النتاجات التربوية، وقد لعب دوراً

كبيراً في الحياة الفكرية والسياسية والتربوية الأمريكية. وكان عاملاً فعّالاً في تطوير المفاهيم الفكرية التي نقلها إلى الشعب الأمريكي من العالم القديم، فهدبها وحسنها وأعاد تكوينها لتجابه أوضاع المستقبل ولتفي حاجاته في العالم الجديد، وفي مقدمة هذه المفاهيم التربية والديمقراطية والحرية والفكر والأخلاق. ويقرن اسم جون ديوي عادةً بالمذهب البراغماتي أو المذهب الذرائعي، وهو المذهب الفلسفي الذي بدأه قبله (تشارلز بيرس Peirce) (Charles) ووليام جيمس (William James)، وينظر إلى الأشياء والحوادث كما هي في عالم متغير باستمرار، وإلى الحقيقة والخير والجمال كما تتعكس أو تظهر من خلال التطبيق أو العمل. وهكذا أصبحت الفلسفة عند جون ديوي شيئاً عملياً من صميم الحياة اليومية، وليست نزهةً عقليةً يقوم بها الفيلسوف من برجه العاجي.

التربية عند جون ديوي

إنَّ اهتمامَ جون ديوي بالتربية والتعليم عظيمٌ جدًّا، وهو يشبه في هذا اهتمام الفيلسوف اليوناني أفلاطون الذي كرّس جزءاً مهماً من كتابه «الجمهورية» لمعالجة شؤون التربية والتعليم اعتقاداً منه أنَّ الضمان الأكيد لبقاء الجمهورية تربية أبنائها. ويقول عنه ويل ديويرنت (Will Durant): «لقد كتب ديوي فلسفة القارة الأمريكية كلها كما كتب وايتمان شعرها».⁶ «ويعالج ديوي شؤون التربية والتعليم في الكثير من مؤلفاته ومن أشهرها كتاب الديمقراطية والتربية وكتابه هذا» المدرسة والمجتمع «حيث يربط فيه بين الفلسفة والتربية ربطاً قوياً».⁷

وبحسب رأي جون ديوي، إنَّ كلَّ نظرية فلسفية لا تؤدي إلى تبديل في العمل التربوي لا بدَّ أن تكون مصطنعة، ذلك إنَّ وجهة نظر التربية تعيننا على تفهم المشكلات الفلسفية في منابها التي نشأت فيها، أي في مواطنها الطبيعية، إذ يؤدي قبولها أو رفضها إلى تبديل في الناحية العملية في التربية. وكذلك يعتبر ديوي أنَّ النظرة الواسعة إلى التربية والفلسفة هي أنَّ الفلسفة تشكّل النظرية العامة للتربية وما يجري فيها، ولا يمكن أن يقتصر هذا الاهتمام على الناحية النظرية، بل يجب أن يتعداه إلى الناحية التطبيقية، وهذا ما دفعه إلى أن ينهمك في شؤون المدرسة الابتدائية لجامعة شيكاغو.

إنَّ النظرة الحديثة للتربية هي أنَّها لا تتم في المدرسة وحدها، بل في المنزل والملاعب والسينما وفي ميدان العمل. وهي تبدأ قبل الولادة وتستمر إلى الشيخوخة،

أي إنَّها تشملُ الحياةَ في أدوارها جميعها ومختلفِ أعمارها. ومن واجبِ المدرسة أن تتدبَّر هذه الحقائق وتوفِّق نفسها للقيام بهذه المهمة الشاملة، وعليه فهي تقوم بوظيفة إرشادِ الطِّفل في سنين الدِّراسة جميعها، وتساعدُه على فهم القوى المعقَّدة التي تعملُ في بيئته. ولا يمكن للمدرسة الحديثة أن تحصرَ نفسها بينَ جدرانها الأربعة جاعلةً همَّها تلقين التَّميِّذِ بعضَ المعارفِ، بل لا بدَّ لها أن ترتبطَ بمنظومة الحياة كُلِّها التي يعيشُها التَّميِّذِ والتي يتحصَّر من خلالها لمواجهة الحياة.

لقد استطاع جون ديوي أن يظهرَ في كتاباته إفلاسَ التَّربيةِ القديمة، وأن يبرهنَ عدمَ صلاحها للحيل الحاضرِ المتميِّزِ بمشكلاتٍ جديدةٍ لم يصادفها أبائنا ولا أجدادنا، إذ كان قوام التَّربيةِ سابقاً الحشو الذَّهنيِّ لكمِّ المعلوماتِ المدوَّنة في الكتبِ والأسفارِ، وتلقينِ الطَّالبِ حلول المسائل بغية النَّجاح في الامتحانات. وقد كانت وجهة النَّظر متمثِّلةً بالرَّأي السَّائد أنَّ الطِّفلَ وُجِدَ للمدرسة، ويعبَّر عن ذلك ديوي بقوله: «كانت البيئة المدرسيَّة من أدراج وسبورات وفناءٍ صغيرٍ كافيةً في نظرنا. لذلك لم تكن تتطلَّب ما ينبغي أن يكون عليه المدرِّس من معرفةٍ وثيقةٍ بظروف البيئة المحليَّة من طبيعيَّة وتاريخيَّة واقتصاديَّة مهنيَّة وما إليها ليتسنى له استغلالها باتِّخاذها مصادر تعليميَّة»⁸، فجاء ديوي ليقبَل الموازين باعتبار أنَّ المدرسة وُجِدَتْ للطِّفل. هكذا وباختصارٍ نجد أنَّ جون ديوي له بصمةٌ كبيرةٌ وملفتةٌ جدًّا كان لها فضلٌ كبيرٌ على التَّربيةِ الحديثة، وأثرٌ واضحٌ ضمنَ فلسفةٍ ونظرةٍ مختلفةٍ عن السَّابق، وفي تحليل هذا الكتاب سننظرُ تباغاً للموضوعات كافة التي تناولها ديوي فيه.

المدرسة

يعرِّف ديوي المدرسةَ بأنَّها صورةٌ مصغَّرةٌ عن المجتمع، أو مجتمعٌ في بدءِ تكوُّنه. ويعدُّ نظامَ المدرسة جزءاً من حياة اجتماعيَّةٍ أوسعٍ ليمَّ تهيئةَ الطِّفل للمشاركة في نقل الحضارة البشرية، فعندما تقدِّمُ المدرسةُ كلَّ طِّفلٍ إلى عضويَّة المجتمع، وتدريُّه داخلَ مجتمعٍ صغيرٍ من هذا النوع فتجعله يتشرَّبُ روحَ الخدمة، وتجهِّزه بأدوات التَّوجيهِ الدَّاتيِّ الفعَّال، يكون لنا حينئذٍ أعمقُ وأحسنُ ضمانٍ لمجتمعٍ أكبر ذي قيمةٍ وحسنٍ وانسجامٍ⁹. وهذا لن يتحقَّق إلا إذا كانت المدرسة جزءاً من الحياة الحاضرة وصورةً عنها، جاعلةً غايتها التَّقَدُّمَ الذي يحرِّره الطِّفلُ في نموِّه الجسديِّ الاعتياديِّ وتقدُّمه في القدرة على القراءة والكتابة والحساب، مزيدةً معارفه في الجغرافيا والتَّاريخ، محسَّنةً طباعه وعاداته في التَّهيِّبِ والاستعدادِ للأشياء وفي النِّظامِ والمواظبة.¹⁰

ويعرض جون ديوي نظرة الأفراد إلى المدرسة، فيعتبر أننا نميل إلى النظر إلى المدرسة بوجهة نظرٍ فرديةٍ بوصفها شيئاً بين المعلم والطالب، أو المعلم والوالدين. وأكثر ما يهتم الأهل والمدرسة التّقدّم الذي يحرزه الطّفل في القراءة والكتابة والحساب، وما يريده أفضل والدٍ لطفله يجب أن يستهدفه المجتمع لكلّ أطفاله. ويعتبر جون ديوي أنّ من واجب المدرسة أن تتدبّر وتوفّق نفسها للقيام بمهمّةٍ شاملةٍ وبوظيفةٍ إرشاد الطّفل في سنين الدّراسة جميعها، وأنّ تساعد على فهم القوى المعقّدة التي تعمل في بيئته، فليس على المدرسة الحديثة أن تحصر نفسها بين جدرانها الأربعة وأن تجعل همّها دراسة الكتب متجاهلةً الحياة حولها.

وينطلق ديوي في نظره هذه باعتبار أنّ الإنسان كائنٌ يملك طاقةً فرديةً كامنةً تتمثّل في الميولات الفردية التي تحتاج إلى إيقاظها اجتماعياً، قصد التّكيف لبناء العقل الاجتماعيّ من خلال اشتراك الفرد في حلّ المشكلات الاجتماعية الرّاهنة، ولعلّ هذا ما ميّز فلسفته التي ارتبطت بالمشكلات الاجتماعية على خلاف فلسفة «جيمس» التي غلب عليها طابع الدّاتية.¹¹

«وبما إنّ التّربية وظيفّة اجتماعية ترمي إلى توجيه النّشء وتنميتهم بإشراكهم في حياة المجتمع الذي ينتمون إليه»¹²، على المدرسة أن تبيّط الحياة الاجتماعية وتتعهّد الأنشطة التي ألّفها الطّفل في البيت والمجتمع، فالهدف ليس القيمة الاقتصادية ولكن تنمية القوّة الاجتماعية وبعد النظر.

وظائف المدرسة

تؤدّي المدرسة للمجتمع أربع وظائفٍ عموماً، الوظيفة الأولى تهيئة بيئةٍ مبسّطةٍ يفهم الأطفال منها الحياة الاجتماعية، الثانية خلق المدرسة مجتمعاً للنّاشئة مصقّى من الشّوائب مؤكّدة لهم ما في المجتمع من محاسن، الثالثة إقرار التّوازن بين مختلف عناصر البيئة الاجتماعية والرّابعة توحيد نفسيّة الفرد حتّى لا تتجاوزه طوائف الأمة المختلفة فتتفكك نفسيّته.¹³

ويربط جون ديوي بين المدرسة والمجتمع، وبالرّغم من كون هذه الفكرة ليست جديدةً في التّربية، قد أكّد عليها من جديدٍ وأوضح أنّ المدرسة جزءٌ لا يتجزأ من المجتمع، وأنّه ينبغي أن تكون مجتمعاً مصعراً مشدّباً من الشّوائب التي نجدّها في المجتمع الكبير. وبالإضافة إلى ذلك، ينظر ديوي إلى دور المدرسة في المجتمع نظرةً في الثّقافة بمعناها الواسع، أي إلى آدابها وعلومها وفنونها وعاداتها وتقاليدها ونواحيها

الماديّة والتّكنيكيّة، وإعادة بنائها باعتبار أنّ المدرسة تلعب دورين أساسيين في خدمة المجتمع الذي تنشأ فيه، وأولهما نقل التّراث بعدّ تخليصه من الشّوائب، وثانيهما إضافة ما ينبغي إضافته لكي يحافظ المجتمع على حياته، أي تجديد المجتمع وتحسينه بشكلٍ مستمرّ، ونجدُ كثيرًا من الشّواهد التي طرحها في هذا العنوان. لقد جعل جون ديوي المدرسة مجتمعًا مصغّرًا يعكس المظاهر الاجتماعيّة والأخلاقيّة والسّياسيّة كلّها، ويتفاعل أفرادها مع ظروفها التي لا تختلف عن الذي يوجد خارجها، أي مجتمعًا مصغّرًا متفاعلًا مع ضرورة الخبرة الاجتماعيّة خارج جدران المدرسة.¹⁴

خصائص المدرسة عند ديوي

إذا استقرّنا جميع طروحات ديوي المتعلّقة بالمدرسة نجدها تتلخّص في ما يلي:

- إفاضة المباني المدرسيّة بالحياة.
- تميّز الحياة الاجتماعيّة بالتعاون وبالعلاقات الديمقراطيّة المتبادلة.
- عدم الاستمرار في استخدام المادّة التّعليميّة التّقليديّة.
- تشجيع كلّ طفلٍ على تحقيق أعلى مستوى من التّحصيل المدرسيّ.
- اعتبار النّظام جوهرًا أصيلًا في نفوس التّلاميذ وليس أمرًا يفرض عليهم.
- تضمين اللّعب النّافع في البرنامج المدرسيّ.
- القيام على مبدأ الحرّيّة والنّشاط الفعّال.
- إيلاء أهمّيّة بالغة بالتّعليم بواسطة المهن.
- تنمية مقدرة التّلاميذ على التّفكير الحرّ.
- اكتساب المعلومات وتحصيل المهارات وسيلةً وليس غايةً.
- الإيمان بالتّغيير والتّجديد.
- اعتماد مناهج تعليميّة تأخذ بطريقة المنهج العلميّ.
- قيام عمل المدرسة على الخبرة.¹⁵

المدرسة والتّلاميذ

ينظر جون ديوي في علاقة المدرسة بحياة التّلاميذ الذين نموهم فيها، وأوّل ما يتحدّث عنه الوضعيات والأثاث والمقاعد التي يعمل عليها الأطفال والتي صنعت فقط للإصغاء، وهذا يقصّ علينا حكاية التّربية التّقليديّة كلّها. وإنّ ما هو مصنوع للإصغاء والتّدرّيس بهذا النمط التّقليديّ لا يمكن أن يراعي حاجات الطّفل، وعليه بدأ مجال المطالبة بالمصنوع والمختبر والمواد والأدوات التي يمكن أن نفعل بها

حركة المتعلم والطفل في مراعاة حاجاته التعلّمية ليكون مهياً للحياة. كما ذكر ديوي ملاحظات لها علاقة بالمنزل وإمكانية تلبية حاجات الطفل ليكون بين أسرته وفي محيط منزله وحديقته، ولتنمية قدرته على التّخاطب في المجتمع.

ويؤكد ديوي مسألة العمل بانتظام وبطريقةٍ رحبةٍ كهيئةٍ قادرةٍ يمكنُ أداؤها في أغلب البيوت بصورةٍ عفويةٍ نسبيًا، لذا يجب في المقام الأول على مستوى المنزل توسيع البيت المثالي، كما يجب أن نوسّع اتصال الطفل بالبالغين والأطفال لتكون حياته الاجتماعية أكثر حرّيةً وغنى. وعلاوة على ذلك نجد أنّ وظائف محيط البيت وعلاقاته ليست منقاةً بصورةٍ خاصّةٍ لنمو الطفل، لأنّ الغرض الرئيسيّ منها شيءٌ آخر، وكلّ ما يناله الطفل منها إنّما هو شيءٌ عرضيٌّ. وهنا تظهر الحاجة إلى المدرسة التي تكون فيها حياة الطفل الغرض الوحيد المسيطر، وتتركز البيئات الضرورية لتقدّم نمو الطفل في المدرسة. وقد توجه ديوي إلى جعل المدرسة بيئةً ثريّةً بالخبرات حافلةً بحركة المتعلّمين، من أجل تكوين عقليةٍ علميةٍ راشدةٍ تستطيع حلّ المشكلات بأسلوبٍ منهجيّ.

ومن جانبٍ آخر فإنّه، ومن خلال تجاربه ودراساته، يشدّد على أهميّة ربط المدرسة بالمجتمع وينادي بالحرّية، إذ يقول: «والأطفال في المدارس ينبغي أن يسمح لهم بالحرّية، حتّى يعلموا معناها، ومدى الفائدة التي يحصلون عليها حين يصبحون الهيئة الحاكمة المسيطرة، كما ينبغي أيضًا أن يسمح لهم بتنمية الصفات الإيجابية - صفات الخلق والإبداع - والاستقلال»¹⁶، فإنّ قوّة المجتمع تصبغ الأفراد وتصوغ الأهداف لكون العلاقة بين التّربية والمجتمع وطيدةً منذ القدم.

ويميّز جون ديوي بين التّعبير القائل إنّ التّربية معناها الاستخراج، كتعبيرٍ مميّز، وتعبير السّكب. فالاستخراج قيامُ المعلم بتوجيه الطفل لحمله على كسب المعرفة والخبرة بنفسه، أمّا السّكب فقيام المعلم بتقديم الخبرة والمعرفة إلى الطفل مباشرةً. والاستخراج يعني أن ما يقوم به الطفل بصورةٍ اعتياديةٍ مغمورٌ بفعاليّةٍ من الأنواع كلّها، وهو ليس مجرد كائنٍ متخفٍ يتمّ التعامل معه بأسلوبٍ تلقينيّ، فالطفل بطبيعته فعّالٌ إلى درجةٍ كبيرة. ومسألة التّربية هي مسألة الهيمنة على فعاليّاته وإمدادها بالتّوجيه، فالتّوجيه والاستعداد المنظران تميلُ فعاليّاتهما إلى النّتائج القيّمة بدلًا من أن تصبح مبعثرةً أو متروكةً فتعبّرُ تعبيرًا طائشًا محضًا.¹⁷

ويركّز جون ديوي أيضًا على الولوج والغرائز الموجودة لدى الطفل الصّغير، فيقول:

«يمثل الولع ما للأشياء من قوّة محرّكة في أيّ خبرة ذات غرضٍ، سواء كانت تلك الأشياء مدرّكة بالعقل أم متصوّرة بالخيال. أما من الوجهة العلميّة فإنّ قيمة إدراكنا مكانة الولع في تنشيط التّربية والنّموّ». ¹⁸ فيعدّ غريزة اللّغة أسهلّ شكلاً من التّعبير الاجتماعيّ لدى الطّفل، ومع ذلك فهي عظيمة بل لعلّها أعظم المصادر التّربويّة. وتوجدُ كذلك غريزة الصّدم، الدّافع البناء الذي يدفع الطّفل إلى صنع وإيجاد تعبيرٍ عن الذي يصنع في اللّعب والحركة والإشارة والتّخيل في الدّرجة الأولى، ثمّ يصبح أكثر محدوديّة. وتتطلّب غريزة الصّنع منفذاً لجعل الأشياء ذات أشكالٍ مفهومةٍ وتجسيداتٍ ثابتة. وليس للطفّل مقدارٌ وافٍ من غريزة البحث المجرّد، والظاهر إنّ غريزة البحث تنمو من تركيب الدّافع إلى البناء أو الإنشاء مع الدّافع إلى المحادثة. وليس هنالك فرقٌ لدى الأطفال الصّغار بين العلم التّجريبيّ والعمل المنجز، فالعمل الذي يمكنهم أن يقوموا به ليس لغرض القيام بتعميماتٍ فنيّةٍ أو حتّى التّوصل إلى حقائقٍ مجردة، إذ إنّ الأطفال يرغبون في صنع أشياء ثم يراقبون ما ينتج عنها، وهذا شيءٌ من الممكن الاستفادة منه. ¹⁹

المدرسة بين المواد والمراحل التّعليميّة

يشير جون ديوي إلى المدرسة بوصفها مؤسّسة ذات علاقةٍ بالمجتمع وبأعضائه، ويدعو إلى تكييفها مع محيطها الاجتماعيّ، وإلى لزوم أن تقدّم نفسها لتصبح محلاً فيه يعيش الأطفال حقيقةً ويكتسبون خبرةً حياتيّةً ويجدون ابتهاجاً ومعنى، فإن ابتعدت عن الذي يُعمل في البيئة الخارجيّة من ظروفٍ تربويّة، لا بدّ لها أن تعترض من الرّوح الاجتماعيّة بروحٍ فكريّ زائفٍ مستمدٍ من الكتب. لا ريب في أنّ الأطفال يذهبون إلى المدرسة ليتعلّموا، ولكن لم يثبت بعد أنّ أحسن أوجه التّعلّم المقصود والمستقلّ. ²⁰ ويعتبر ديوي أنّ نظام المدرسة قد نشأ بصورةٍ عامّةٍ من القمّة إلى القعر، وهنا يضربُ مثلاً ويبحثُ في المراحل التّعليميّة بدءاً من مرحلة رياض الأطفال إلى المرحلة الابتدائيّة فالمتوسّطة والثّانويّة، مبيناً أنّ الأهداف التّعليميّة والموضوعات قد نشأت ضمن استراتيجيّةٍ لا توائم بين حاجات الطّفل والمجتمع، فالمرحلة الثّانويّة ما تزال وجهًا ما لكلّيّة صغرى ليس غير، أو إنّها قسمٌ تمهيدّي للكلّيّة.

ويعدّ ديوي الأهداف الموزّعة على المراحل التّعليميّة لا تتلاءم مع تربية الفرد ليصبح كياناً واحداً، ومن الصّعب على الإدارة التّربويّة أن توجّد هذه الأقسام المختلفة، فعلى سبيل المثال جاءت تسمية المدرسة المتوسّطة بناءً على عمل المدرسة وتوسّط

المرحلة بين شيءٍ ما حدث وشيءٍ متوقَّع، وليس لها معنى خاصٌّ. وحينما تتَّصل الأجزاء تختلفُ المثلُ في النُّمو الخلقِيّ والمنفعة العمليَّة والثَّقافة العامَّة والنِّظام، وكذلك في التَّدريب المهنيِّ، وعند حصولِ هذا التَّداخل المضطرب بين الأجزاء فإنَّ المتوقَّع من كلِّ منها أن تقدِّم مقداراً معيَّناً من النِّظام والمنفعة، وهنا يذكر ديوي أن «الدِّراسة أصبحت آلةَ عزلٍ بعضها يضمنُ هذه الغاية والبعض الآخرُ يضمنُ تلك، حتى صارت الدِّراسةُ كلُّها مساومةً محضةً وممرّاً بين الأهداف المقصودة والدِّراسات المجزَّة. فالمشكلةُ الكبيرةُ بحسبِ رأيه في التَّربية من الوجهة الإداريَّة هي أن تحرَّر الوحدة بين الجميع، بدلاً من ما ينتجُ بين الأقسام غير المتربطَّة أحياناً والمتداخلة في أحيانٍ أخرى، وبهذا يُخفِّض التَّلَف الحاصل نتيجة التَّجزئة والإعادة والانتقال التي لا تتَّصل فيما بينها اتِّصالاً لائقاً».²¹

ويتأتَّى التَّلَف أو الصِّياغ الكبيرُ في التَّربية من عجز الطِّفل عن الانتفاع بما يكتسبُ من الخبرات خارجَ محيطِ المدرسة انتفاعاً تاماً وحرّاً، إذ يجري داخلَ المدرسة وهو في الوقت ذاته يرى عجزه عن استعمالِ ما يتعلَّمه منها في حياته اليوميَّة. ويقول ديوي إنَّ «التَّربية هي ذلك التَّكوين أو التَّنظيم الجديد للخبرة، الذي يزيد في معناها وفي المقدرة على توجيه مجرى الخبرة التَّالية»، والخبرة بحسب رأيه القاعدةُ التي تبنى على أساسها كلُّ تربيةٍ، والتَّربية هي تشكيلٌ جديدٌ للخبرة، وبفضل هذا التَّجديد تزداد قدرة التَّربية على توجيه الخبرات اللاحقة.²²

هذه هي عزلةُ المدرسة، انعزالٌ عن الحياة. فإذا دخل الطِّفل الصِّفَّ عليه أن ينزع من ذهنه قسماً كبيراً من الأفكار والفعاليات السَّائدة في بيته وجيرته، إذ لا تستثمر المدرسةُ الخبرات اليوميَّة، وعليه تصبح غير قادرةٍ على النهوض بصورةٍ موائمةٍ وبخطَّة عملٍ أخرى لتتَّير في الطِّفل ولعاً في الدِّراسات المدرسيَّة في حياته اليوميَّة والاجتماعيَّة.

وعلى المدرسة أن تتأى بنفسها عن تعليمِ سفاسفِ الأمور، وأن تقتنع بأنَّ على الطَّالب ألا يتعلَّم إلا ما كان ذا معنى وما يوسِّع أفقَه عوضاً عن ما يكون مجرداً توافه²³، والغرضُ من هذا أن نوجدَ ترابطاً بينها وبين الحياة الاجتماعيَّة، وأن تخرجَ من عزلتها لتضمنَ ترابطاً عضويّاً بهذه الحياة²⁴. وهنا حاولَ ديوي أن يبيِّن كيفَ يمكنُ للمدرسة أن ترتبطَ بالحياة بصورةٍ تجعلُ الخبرة التي اكتسبها الطِّفل بصورةٍ مألوفةٍ وشائعةٍ تنتقلُ إلى المدرسة وتُستعملُ فيها، كما إنَّ ما يتعلَّمه الطِّفل في المدرسة يرجعُ به ليستعمله

في الحياة اليومية، فتصبح المدرسة كلاً عضوياً بدلاً من أن تكون خليطاً من أشياء منفصلة، حينها يختفي انعزال الدّراسات عن بعضها، كما تختفي أقسام النّظام المدرسي، وتصبح للخبرة ناحيتها الجغرافيةً وجوانبها المؤلّفة من الجانب الفنّي والأدبي والعلمي والتّاريخي، فالدراسات كلّها تنبثق من أرضٍ واحدةٍ عاشت عليها. إننا نعيش في عالمٍ جوانبه كلّها مرتبطةً معاً، كما تنشأ الدّراسات من علاقاتها في عالمٍ واحدٍ مشتركٍ كبيرٍ. وعندما يعيش الطّفّل علاقاتٍ مختلفةً ولموسةً مع العالم المشترك فمن الطّبيعيّ أن تتوحّد دراسته، ولا يصبح من الصّعب ربط بعضها ببعض، ولا يضطرّ المعلّم إلى اللّجوء إلى أنواع الوسائل كلّها ليدمج قليلاً من الرياضيات في التّاريخ وما شاكل ذلك، بل ليربط المدرسة بالحياة، وسترتبط الدّراسات كلّها ببعضها بالضرورة²⁵.

أهداف المدرسة بين النّظرة القديمة والحديثة

الهدف بحسب رأي ديوي «ما لكلّ عمليةٍ طبيعيّةٍ من نتيجةٍ نضعها نصب العين ونتخذها عاملاً في تعيين مجرى ملاحظتنا الحاضرة وتحديد ما نتخيره من أساليب العمل، فهو الذي يدلّنا على أنّ العمل غدا سائراً على هدى وبصيرة»²⁶. ينطلق ديوي بالتساؤل حول الأهداف التي من خلالها يرغب الآباء والأهل في وضع أبنائهم في المدرسة، وهو يعتبر أنّ الهدف من وضعهم في المدرسة إحراز نتائج شخصية يرغبون في تحقيقها، لا من أجل تحسين نظرية تربوية أو استطلاع أهداف خاصة بالعملية التعليمية، ولا يتدخلون كذلك في علاقة العمل المدرسي بمشكلات المدرسة وظروفها الخاصة. ويتناول ديوي موضوع المدرسة الخاصة عبر الحديث عن المدرسة التي يديرها في الجامعة، معتبراً أنّها مختبر لعلم النفس التطبيقي الذي يفسح مجالاً لدراسة العقل كما يظهر وينمو في الطّفّل، كما إنّه يبحث عن موادٍ ووسائطٍ يتوقّع منها أكثر من غيرها أن تملأ وتوسع ظروف النّموّ الطّبيعيّ. إنّها ليست مدرسةً نموذجيةً لأنّها لا تنوي أن تطبّق أيّ فكرةٍ أو أيّ وجهة نظرٍ معيّنة، وإنّ مهمتها مشكلة استعراض تربية الطّفّل في ضوء مبادئ الفعالية الفعلية وعمليات النّموّ التي أصبحت معلومة في استخدام علم النفس الحديث.

وتستطيع المدرسة أن تساعد طلبتها في هذا المجال أو ذاك، وأن تهض لإبراز أهميّة التربية نظرياً وعملياً. فالمسألة اختيار عددٍ من موضوعاتٍ متنوّعةٍ ومتناسبةٍ تستجيب بصورة حيويةٍ لنمو حاجات وقوى معيّنة في شخصية الطّفّل، وعلينا ربط

المواد بالنمو بصورة حيوية. واعتبر ديوي أن مشكلة التعليم في «إيجاد المواد التي تستثير في الفرد الرغبة في مزاولة أعمال معينة لها هدف أو غرض ذو أهمية في نظره».²⁷ ويخضع ديوي للأمر للتجربة في هذه المدرسة، واضعاً فرضيات قائمة في هذا المختبر التربوي الخاص، محاولاً أن يبين خاصية المدرسة انطلاقاً من نفسية الطفل، مبيّناً وجهة النظر الأولى المتعلقة بعلم النفس التقليدي الذي كان معتمداً على نظرية سابقة مختلفة عن ما أتى به علم النفس الحديث.

أما في الوقت الحاضر، فإن الميل السائد هو اعتبار عقل الفرد وظيفة للحياة الاجتماعية، أي أنه غير قادر على العمل أو النمو بنفسه، بل إنه يتطلب تنبئها مستمراً من وسائل اجتماعية، ويجد غذاءه في ما يمد به المجتمع، وعليه يختلف المشهد بين علم النفس القديم وعلم النفس الحديث. ويكمل ديوي فكرته معتبراً أن بالوسائل الاجتماعية يستطيع الفرد أن يعيد الاختصار في سنين قليلة التقدّم الذي استغرق الجنس الإنساني كله في بنائه قروناً طويلة، وأن التطبيق التربوي قد أظهر تكييفاً غير واع وانسجاماً مع علم النفس السائد، وقد نشأ كلاهما من تربة واحدة.²⁹ ويعتبر ديوي أن علم النفس القديم لم يكن إلا علم نفس نظري ومعرفة نظرية، أي علم نفس عقل، أما العاطفة والكفاح فلم يكن لهما إلا محل عرضي وثانوي. وقد قيل شيء كثير عن الإحساسات، ولكن ما قيل عن الحرمان لم يكن إلا شيئاً ضئيلاً يكاد يساوي العدم. وعليه وجد ديوي انسجاماً سابقاً في تكوينه بين التطبيق التربوي والنظرية النفسية، معتبراً أن المعرفة قد عزلت في المدارس وجعلت غاية في ذاتها، فأصبحت الوقائع والقوانين والمعلومات قوام المنهج. وهنا نجد الخلاف في التطبيق التربوي والنظرية التربوية بين الذين يعتمدون اعتماداً كبيراً على عنصر الحاسة في طلب المعرفة وعلى الالتماس بالأشياء ودروس عن الأشياء، والذين يؤكدون العلم المجرد والتعليمات، أو ما يسمّى «العقل».

وينطلق جون ديوي بالمقارنة بين نظرة علم النفس القديم وعلم النفس الحديث، ويظهر أسباب التغيير أو التحول التربوي، مفترضاً أن نظريته النفسية مهمة ومرتبطة بحقائق الحياة أيًا كانت، فالنقطة الأساسية في المفارقة متعلقة بالمفهوم الحديث للعقل بوصفه، جوهرياً، بأنه عمليّة نمو وليس شيئاً ثابتاً، أما بموجب النظرية القديمة فقد عرّف العقل بأنه عقل فقط. وقد قيل عن العقل إنه مجرى ثابت عند كل الناس، وهنا الخلاف والاختلاف الجوهري بين نظرية ديوي أو بين ما يؤمن به والنظريات القائمة

التي اعتمدت ثبات العقل.

ويؤكد ديوي اعتقاده بأنَّ العقل جوهره متغيّر ومعيّر عن أوجه متميِّزة في القابليّة والولع في التّواحي المختلفة من الرّمن، وهي كلّها واحدة وذات نمطٍ واحدٍ من وجهة استمرار الحياة، لكنّها مختلفة إذ لكلّ منها مسائلها ووظائفها المختلفة، فالورقة أولاً ثمّ السّنبله ثمّ الدّرة الكاملة للسّنبله. ومن خلال هذه المقدّمة يعرض ديوي نتائج المنهج المعتمد، سواء في الدّراسة التقليديّة أو في النّظرة الحديثة. فقد قرن عقل الطفل وعقل البالغ بصورةٍ مطلقةٍ في منهج الدّراسة التقليديّة، عدا النّظر إلى المادّة من حيث المقدار ومن حيث القوّة.

ويرى ديوي أنّ دور المعلّم قد تغيّر، إذ كان في المدرسة القديمة ملقناً وأصبح في المدرسة الحديثة هادياً ومرشداً. وكان المعلّم في المدرسة التقليديّة يمثّل سلطةً عليا تفرض على التلاميذ، أمّا في المدرسة الحديثة فهو عضوٌ في جماعة، يعمل مع التلاميذ ويؤدّي وظيفة اجتماعيّة، فالمدرسة بأسرها من معلّمين وتلاميذ يشاركون معاً في تنسيق مشروع اجتماعيّ تنتهيّ فيه الفرصة لكلّ فردٍ كي يسهم بنصيبٍ ويشعر بما عليه من تبعته.²⁹ وهو يرى في ما يخصّ كذلك المنهج الدّراسيّ أنّ الاختيار والنّدج في مواد الدّراسة ينبغي أن يكونا بالرجوع إلى تغذية سليمةٍ للاتجاهات السّائدة في الفعاليّة في مرحلةٍ معيّنة، لا بالرجوع إلى أقسامٍ أو أجزاءٍ مقطّعةٍ من عالم معرفةٍ معبأ.

ويؤكد ديوي فكرة العودة إلى المختبر، ولا يمكن الاعتماد على أجوبةٍ مقدّمةٍ سلفاً، فالنّقايد لا تعطي ذلك الجواب لأنّها مبنيةٌ على علمٍ نفسٍ مختلفٍ، كما لا يمكن للعقل المجرد أن يعطي ذلك الجواب أيضاً لأنّ المسألة واقعٌ وليس من سبيلٍ إلى ذلك إلا بالتجريب. وعليه يعتبر ديوي أنّهُ إذا جننا الآن للكلام عن الأجوبة التّربويّة للفرضيات النّفسيّة، فمن المناسب أن يبدأ الكلام بمسألة النّموّ، والدّور الأوّل من أدوار الطّفّل البالغ من العمر أربع إلى ثماني سنواتٍ متميِّزٌ بالدوافع والرّغبات الشّخصيّة والاجتماعيّة، وتوجيهه وترقيّة العلاقة بين الانطباعات والأفكار والفعل. وإنّ الحاجة لمنقذٍ لحركة التّعبير حاجةٌ ماسّةٌ ومباشرةٌ، لهذا فإنّ مادّة الدّراسة في هذه السّنوات يلزم أن تتنخب من أوجه الحياة الدّاخلية في محيط الطّالب الاجتماعي.

وهذه المواد موجودة في أقرب أماكن الطّفّل في حياته الأسريّة، وفي ما هو موجود في محيطه وجيرانه وعلاقاته بالمحيط. وهو لا يحتاج إلى كثيرٍ من الجهد، فليس الهدف من ذهاب الطّفّل إلى المدرسة الذّهاب إلى محلٍ منعزلٍ، بل إنّهُ يذهب إليها

لِيُخَصَّصَ أو يوجَزَ نموذجًا من خبرته خارج المدرسة كي يوسّعها ويغنيها، ثم يشكّلها تدريجيًا. فالواجب أن يُترك الطفل لينجز شيئًا ما وليقود نفسه نحو نتاج محددٍ ومقصودٍ. وهنا يعود ديوي إلى فكرة ربط المدرسة بالحياة، لأنّ علم النفس الحديث والخلفية النفسيّة مرتبطان بحاجات التلميذ ومحاكاته الوقائع المختلفة زمانًا ومكانًا، معتبرًا أنّ نموّ العقل البشريّ يرتب حاجاتٍ تختلف عن الذي سبق.

بعد ذلك يبحث ديوي الموادّ الدراسيّة معتبرًا أنّ الموادّ الأقرب وجودًا من أمكنة الطفل هي حياته الأسيّئة وما هو موجودٌ في محيطه، ثمّ تتجاوز ذلك نحو المهن الاجتماعيّة، وتتمدّد وتتطوّر إلى المهن الشائعة والأوجه الاجتماعيّة المرتبطة بها. ولا يعتبر أنّ المادة يجب أن تُقدّم على هيئة دروسٍ أو على هيئة شيء يجري تعليمه، لكن على هيئة شيء يدخل في خبرته من خلال الفعاليّات التي يقوم بها، كالنسيج والطبخ والاشتغال في المعمل والمسبك والتّمثيل والمحادثة والمناقشة بالقصص، فليس الهدف من ذهاب الطفل إلى المدرسة أن يذهب إلى مكانٍ منعزلٍ، بل أن يُلخَص هذه التجارب. أمّا في ما يخصّ وجهة نظره في طريقة التّعامل مع الموادّ الدراسيّة، فإنّه يعتبر أنّ مادة الدّراسة يجب أن تُجزأ. أمّا من وجهة نظرٍ أخرى، وضّح ديوي طريقة التّعامل مع الموادّ الدراسيّة قائلاً في ما يخصّ مادة الدّرس إنّها يجب أن نجزّي وحدة الخبرة الغامضة إلى أوجهٍ أو إلى جوانب نموذجيّة متميّزة، ونختار منها ما يصبوّر أهميّة النوع البشريّ في الهيمنة على وسائلٍ معيّنة وطرائق تفكيرٍ وعملٍ في تحقيق أسمى غاياتها.³⁰

ثمّ شدّد ديوي على ضرورة إيلاء الاهتمام بطريقة تفكير التلميذ والمنهج من حيث كيف من دون إهمال الكمّ، فالتركيز على حاجة الطفل إلى المزيد من الخبرات الاعتياديّة والشخصيّة سيزوّدُه بعددٍ من المشكلات والدوافع التي تحثّ الرجوع إلى الكتب لغرض وجدان حلٍّ ورضى واستقصاء، وإلا فإنّ الطفل سيتناول الكتاب من دون جوعٍ فكريٍّ ولا يقظةٍ ولا اتجاهٍ استفساريٍّ، فتكون النتيجة النّتيجه العامّة المكشوف عليها. ثمّ تناول ديوي المنهج ودعا إلى عدم جموده، بل إلى إيجاد حاجةٍ إلى التركيز والتّغيير من وقتٍ إلى آخر، من حيث وقت المنهج المخصّص للدّراسة والدّراسات كلّها أو من حيث إبقاء التّكنيك أو الطّريقة الخاصّة، كلاهما منصوصٌ بهما.

مبادئ فروبل التّربويّة

ينطلق جون ديوي في بحثه مبادئ فروبل من خلال ملاحظته إحدى الرّأثرات

للمدرسة الابتدائية في جامعة شيكاغو، وذلك حول سؤالها عن وجود الأنشطة من رسم وتدريب يدويّ والألعاب والتمثيليّات، واهتمامهم بعلاقات الأطفال الاجتماعيّة وغيرها. وهنا يركّز ديوي على تطبيق مبادئ خاصّة، كان فروبل أوّل من عرضها بوعي، وهو يؤكّدها:

أولاً: بما إنّ المدرسة تلعب عدّة أدوارٍ مهمّة في تنشئة أفراد المجتمع، والحاجة إليها شديدة لبناء مجتمع قويّ متماسك، فمهمّتها الأولى تدريب الأطفال على الحياة التّعاونيّة ذات المساعدة المتبدّلة لتغذّي فيهم الوعي بالاعتماد المتبادل، ولتساعدهم على خلق التوافق لتطبيق هذه الرّوح في أعمالٍ ظاهرة.³¹

ثانياً: إنّ الأساس في الفاعليّة التّربويّة مستقرّ في الاتجاهات الفطريّة للأطفال، وفي فعاليتهم لا في استعمال المادّة، سواء أكان ذلك بآراء الآخرين أم بالحواس. وهو هنا يركّز على فعاليّات الأطفال التّلقائيّة، كالتمثيليّات والألعاب التّقليديّة.

ثالثاً: العمل على تنظيم الميول الفرديّة والفعاليّات الموجودة لدى الأطفال، وتوجيههم إلى كفيّة استخدامها، وأن يُفادَ منها لإنتاج أعمالٍ حسنةٍ ومهنيّةٍ لمجتمعٍ أعظم وأنضج في مستوى الطفل، وهو المجتمع الذي نصبو إليه. فبالإنتاج والاستعمال الإبداعيّ تنال المعرفة القيّمة وتثبت، وعليه يؤكّد ديوي أنّ على المدرسة أن تُعتبر موصّحةً وموظّفةً هذه القوى والمبادئ التي جاء بها فروبل.

ويؤكّد ديوي أنّه لو تسوّى لمدرسة تطبيق هذه المبادئ لعادت بالنتائج المهمّة للتلاميذ وللمدرسة على حدّ سواء، لأنّه عندما تقوم المدرسة بتدريب الأطفال على الحياة التّعاونيّة والمساعدة المتبادلة التي تغذّي فيهم الوعي والعمل على الاستفادة من هذه الانبعاثات الفطريّة والاتجاهات لدى الأطفال، وتوظيفها كما تحدّث ديوي في المبدأ الثالث لئفادَ منها لإنتاج أعمالٍ حسنةٍ، فإنّه حتماً سنقومُ بعملية توظيف إمكانيّات الطّفل التي تأتي بحافزٍ ودافعٍ كبيرٍ في خدمة تنمية المشروع التّربويّ ومشروع تنمية الأطفال بما يضمنُ لنا تحقيق أهدافٍ ناجحةٍ في المستقبل.

ولعلّ تقدير فروبل أهميّة الاستعدادات الأصليّة للأطفال واهتمامه بها وعطفه عليها، وتأثيره في حمل النّاس على دراستها، كانت بمفردها أعظم قوّة في تاريخ نظريّات التّربية الحديثة التي أدت إلى انتشار فكرة النّموّ والاعتراف بها.³²

ويربط ديوي بين الرّمزيّة واللّعب والخيال، ويعتبر أنّه لا شكّ في ضرورة التأكيد والتّشديد على الرّمزيّة التي تؤثر في استعمال الخيال. ومن الواجب أن نتذكّر أنّ هذا

الخيال ذو علاقةٍ بالفعاليّة المقترحة، وكذلك الرّمزيّة. ومن الواجب أن تكونَ الموادّ واقعيّةً ومباشرةً وبقدر ما تسمحُ به الفرصّة، ولكن المبدأ لا ينتهي هنا، فالواجبُ أن يستقرّ الواقعُ المرموزُ إليه بقوى التّقدير الفنّيّ التي يمتلكها الطّفل، وقد يظنُّ أحياناً أنّ استعمال الخيالِ نافعٌ إذا بلغ الدّرجة التي ندركُ فيها المبادئ الميتافيزيقيّة والرّوحيّة البعيدة. وبما إنّ الحقيقة أو الواقع الممثل أو المصور أبعد من أن يناله الطّفل، فإنّ الرّمز المفترض لا يراه رمزاً على الإطلاق، لأنّه يراه ببسرٍ شيئاً إيجابياً قائماً بنفسه، ولأنّ أغلب ما يناله منه بصورةٍ عمليّةٍ هو معناه المادّي والحسيّ، تضافُ إلى ذلك في الغالب سهولةٌ جاريةٌ في التّعليم والاتّجاهات التي يتعلّمها الطّفل ويتوقّعها من المعلّم من دون مقاومةٍ على الإطلاق.

يتناول ديوي المادّة الدّراسيّة معتبراً أنّ حياة البيت بما فيها من بناءٍ وأثاثٍ وأواني وغيرها، بالإضافة إلى المهن المتخذة في البيوت، تقدّمُ بحالتها أهمّ مادّة ذات علاقات مباشرة وواقعيّة للطّفل، لذا من الطّبيعي أن يميل لإعادة صنعها بشكلٍ تخيّلِي. ومما يدلُّ دلالةً كافيةً على العلاقة الخلقية، والواجبات الأدبيّة الموحية أن نهىً للجانب الخلقِي في شخصيّة الطّفل غذاءً واقياً. كما إنّ المنهج البيتي غير واسع نسبياً إذا قيس بمناهج كثيرة من رياض الأطفال. ثمّ يشير ديوي إلى أنّ الطّالب أصبح متخماً وقد أضاع تعطّشه الطّبيعيّ إلى الأشياء اليسيرة ذات الخبرة، وأخذ يتناول المواد الدّراسيّة في الصّفوف الأولى من المدرسة الابتدائيّة وهو يشعرُ أنّه قد سبق له أن أخذَ المواد كلّها. لذا للسّنين الأخيرة من حياة الطّفل حقوقها الخاصّة، ومن المحتمل أن تعجلاً سطحياً وعاطفيّاً في الأشياء يوقع بالطّفل إصابةً سلبيةً، وقد يسبّبُ إضافةً إلى ذلك عادةً عقليّةً هي القفْزُ سريعاً من موضوعٍ إلى آخر.

ويحدّد ديوي لتجاوزِ هذا كلّهُ طريقة عملِ المعلّم في وضع منهجٍ سنويٍّ أو نصف سنويٍّ أو شهريٍّ أو حتّى أسبوعيٍّ، وينبغي أن يوضع على أساس تقدير كمّيّة المادّة الدّراسيّة التي يمكنُ أن يفرغَ منها في تلك المدّة، لا على أساس مبادئ عقليّةٍ أو خلقيةٍ، فهذه تجمعُ كلّاً من الثّبات والمرونة. ثمّ يبحثُ ديوي الطّريقة ويقول إنّ المشكلة الغريبة في الصّفوف الأولى هي بالطبع مشكلة الهيمنة على غرائز الطّفل الفكرية ودوافعه، وتجب الإفادة منها حتّى يؤخذ بيد الطّفل إلى مستوى أعلى من الإدراك والحكم، وليزودَ بعباداتٍ أكثر لكي ينمو شعوره ويعمّقه ويزيدَ من سيطرته على قوى التّعرف. ويعارض ديوي أسلوب التّقليد في أنشطة المدرسة المختلفة، مؤكّداً

كمبدأ عامّ أنّه يجب ألاّ تنشأ فعاليّة على التقليد، فالواجب أن تأتي البداية من الطّفل. أما التّمطّ المحتذى به فربّما يساعد الطّفل في تخيلٍ محدّدٍ أكثر لما يريده فعلاً، فقيمتُهُ ليست متأتيةً من كونه نمطاً يحتذى به، بل بوصفه دليلاً إلى الوضوح والمتانة في الإدراك، ويبقى الطّفل معتمداً غير نامٍ إلى أن يستطيع التّخلص منه إلى تخيله أو تصوّره الخاص، وعندما يحين أو أن التّفيز يؤتى بالتقليد للتقوية والمساعدة لا للابتكار، فهنا يؤكّد ضرورة ألاّ تنشأ فعاليّة الطّفل على التقليد، وليس من أساس الشكّ في الرّأي القائل إنّ على المعلّم ألاّ يوحي بأيّ شيء للطّفل لكي يعبّر بصورةٍ واعيةٍ عن حاجاته في اتّجاه معيّن، لأن من المحتمل جدّاً أنّ المعلّم الذي يشارك الطّفل في عواطفه يعرف بصورةٍ واضحةٍ غرائز الطّفل الخاصّة ومراميها أكثر ممّا يعرف الطّفل نفسه. أخيراً، وبنظرةٍ عامّةٍ إلى هذه الآراء التي ركّز عليها جون ديوي في تصوّره المدرسة ودورها الأساسي في جعل العمليّة التّربويّة التّعليميّة عمليّة تحاكي نموّ وتطوّر الأطفال، وتركّز على نموّ الغرائز والدوافع لديهم لتكوّن عمليّة التّعليم عمليّة محفّزة تحاكي عمليّة التّطور والنموّ، وكذلك فهي من الاكتشافات المميّزة التي أسهمت في الواقع التّعليميّ إسهاماتٍ كبرى، كانت خلافاً لأنماط التّقليديّة، وأظهرت الأسلوب الأنجح لتقدّم الطّرائق والأساليب التّعليميّة تقدّماً ملموساً كانت نتائجه معكوسةً على المؤسّسات التّعليميّة كلّها التي استفادت من هذا النّمط ومن هذه الأساليب في التّعليم. وأصبحت هذه النظريّات والأساليب وإسهاماتها غير مخفيّة في تقدّم العمليّة التّربويّة، وابتعدت من النّمط التّقليديّ الذي كان ينعكس سلبيّاً على نفسيّة المتعلّم ورغبته في التّعلّم وموت الدافع لديه.

ولقد عكس جون ديوي نظريته إلى الفلسفة القائمة على رفض الفلسفات التّربويّة التّقليديّة المحكومة بالنظرة الأحاديّة والثبات والمعتمدة على التّوجيه، فنجح في هجومه على فلسفة التّعليم التّمطيّة التّقليديّة، وأسهم في دفع عجلة التّعليم إلى مسارٍ مختلفٍ إذ نادى بأهميّة الخبرة في التّعليم، وانتقد أسلوب التّلقين وأنكر الاعتماد الكليّ على الاعتماد المدرسيّ. ولفت إلى نقطةٍ محوريّةٍ أساسيّةٍ تتمثّل في كون الطّفل محور العمليّة التّعليميّة وشمس التّربية ونقطة ارتكازيّة في العمليّة التّعليميّة، ولن يتعلّم بشكلٍ أمثلٍ إلا من خلال الخبرات الحيّاتيّة. كما وشدّد على ربط المدرسة بالمجتمع، ونادى بحريّة المتعلّم، واعتبر أنّ الهدف من التّربية والتّعليم يجب أن يخدم الأغراض العلميّة والأهداف الواقعيّة التي تنفع الفرد.

لقد كان جون ديوي فيلسوفًا ومفكرًا، خلق ثورة تربويّة تعليميّة انطلقت من نظريته الفلسفيّة نحو الممارسة العمليّة التي كان لها أثرٌ واضحٌ وإيجابيٌّ على مسار العمليّة التعليميّة في عصرنا الحاضر، لمحاكاتها حاجات الفرد وتماشيها مع دوافعه، محقّقةً نتائجًا إيجابيًا.

الهوامش:

- 1 - محمّد لبيب النّجّحي، مقدّمة في فلسفة التّربية، الطّبعة الثّانية، مطبعة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1967، ص 20.
- 2 - محمّد الهادي العفيفي، التّربية والتّغيير الثقافيّ، الطّبعة الرّابعة، مطبعة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1975، ص 202.
- 3 - Emmanuel Kant: Reflexions sur l'education: Traduction, introduction et note par A. Philonenko, Paris, Vrin, 1980, P. 73.
- 4 - منير مرسي سرحان، في اجتماعات التّربية، الطّبعة الثّالثة، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، 1981، ص 42. نقلًا عن: John Dewey: Democracy and Education. N. Y. Macmillan Co. 1957, P. 7.
- 5 - الخوري، أنطوان، أعلام التّربية حياتهم وآثارهم، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت، 1964، ص 197.
- 6 - ديويرنت، ويل، قصّة الفلسفة، تر. فتح الله المشعشع، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 2004، ص 381.
- 7 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، تر. أحمد حسن الرّحيم مراجعة محمد ناصر، منشورات دار مكتبة الحياة، ط2، بيروت، 1978، ص 14.
- 8 - الأهواني، أحمد، نوابغ الفكر الغربيّ 11، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1968، ص 55.
- 9 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 50.
- 10 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 31.
- 11 - محمّد عبد الحفيظ، الفلسفة والنّزعة الإنسانيّة «الفكر البرغماتي نموذجًا»، دار الوفاء لنديا الطّباعة والنّشر، الإسكندريّة، ط1، 2006، ص 77.
- 12 - جون ديوي، الدّيمقراطيّة والتّربية، تر. منى عفراوي وزكريا ميخائيل، مطبعة لجنة التّأليف والنّجمة والنّشر، القاهرة، ط3، 1954، ص 84.
- 14 - الأهواني، أحمد، نوابغ الفكر الغربيّ 11، م.ن.، ص 45-46.
- 15 - جون ديوي، الدّيمقراطيّة والتّربية، م.ن.، ص 369.
- 16 - جديدي، محمد، فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجًا، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، 2004، ص 265.

- 17 - جون ديوي، مدارس المستقبل، تر. عبد الفتاح المنياوي، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، 1962، ص 334.
- 18 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 56.
- 19 - جون ديوي، الديمقراطيّة والتربية، م.ن.، ص 136.
- 20 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 62.
- 21 - جون ديوي، الديمقراطيّة والتربية، م.ن.، ص 41.
- 22 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 81.
- 23 - جديدي، محمد، فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجاً، م.ن.، ص 236.
- 24 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 86.
- 25 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 86.
- 26 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 94.
- 27 - جون ديوي، الديمقراطيّة والتربية، م.ن.، ص 114.
- 28 - جون ديوي، الديمقراطيّة والتربية، م.ن.، ص 139.
- 29 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 101.
- 30 - الأهواني، أحمد، نوابغ الفكر الغربي 11، م.ن.، ص 62.
- 31 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 108.
- 32 - جون ديوي، المجتمع والمدرسة، م.ن.، ص 117.
- 33 - جون ديوي، الديمقراطيّة والتربية، م.ن.، ص 60.

المصادر والمراجع:

العربيّة:

- الأهواني، أحمد (1968). نوابغ الفكر الغربي 11 (ط3). القاهرة: دار المعارف.
- جديدي، محمّد (2004). فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجاً. المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع.
- الخوري، أنطوان (1964). أعلام التربية حياتهم وأثارهم. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- ديوي، جون (1954). الديمقراطيّة والتربية (ط3)، تر. منى عفراوي وزكريا ميخائيل. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- _____ (1962). مدارس المستقبل، تر. عبد الفتاح المنياوي. القاهرة: مكتبة النهضة المصريّة.

- _____ (1978). **المجتمع والمدرسة (ط2)**، تر. أحمد حسن الرّحيم مراجعة محمّد ناصر. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
- ديويرنت، ويل (2004). **قصّة الفلسفة (ط1)**، تر. فتح الله المشعشع. بيروت: منشورات مكتبة المعارف.
- سرحان، منير مرسي (1981). **في اجتماعات التّربية (ط3)**. بيروت: دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر.
- عبد الحفيظ، محمّد (2006). **الفلسفة والنّزعة الإنسانيّة «الفكر البرغماتي نموذجًا» (ط1)**. الإسكندريّة: دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر.
- العفيفي، محمّد الهادي (1975). **التّربية والتّغير الثقافيّ (ط4)**. القاهرة: مطبعة الأنجلو المصريّة.
- النّجحي، محمّد لبيب (1967). **مقدّمة في فلسفة التّربية (ط2)**. القاهرة: مطبعة الأنجلو المصريّة.
- الأجنبيّة:**

- Kant, Emmanuel (1980). **Reflexions sur l'education: Traduction, introduction et note par A. Philonenko**. Vrin: Paris.

التَّعَلُّمُ عن بُعْدٍ وعلاقته بالتَّحْصِيلِ الدَّرَاسِيِّ عند التَّلَامِيذِ رنا ربحان

الملخّص:

تهدف الدّراسة الحاليّة إلى الوقوف على واقع التّعلّم عن بُعْدٍ وانعكاسه على المتعلّمين من حيث دافعيّة الإنجاز والتّحصيل الدّراسيّ لديهم. من حيث المنهجية، اعتمدنا المنهج الوصفي الاستقصائي والمنهج السيكمومتري؛ فالأول يتناول جمع المعلومات حول التلاميذ وحول المعلّم من خلال إعداد استمارات خاصّة بذلك، أمّا المنهج الثاني فيتعلّق بتطبيق بعض الرّوائز أو المقاييس العلميّة العالميّة، والهدف من ذلك هو رصد تأثير التّعلّم عن بُعْدٍ في أداء المتعلّمين. أعدنا الاستمارة لجمع البيانات الديمغرافيّة، إضافةً إلى اعتمادنا مقياس المشكلات السلوكيّة، حيث تضمّنت استمارة المعلومات الشّخصيّة واستمارة معلومات عن المؤسّسة. وقد تناولت هذه الاستمارات بيانات شخصيّة متعلّقة بالمتعلّم وأسئلة تتعلّق بعملية التّعلّم عن بُعْدٍ، عبارات تصف سلوك الأطفال، بيانات شخصيّة متعلّقة بالمعلّم، وأسئلة حول فاعليّة ومواقف المعلّم/ة في عمليّة التّعليم عن بعد.

المقدّمة:

تعرّض العالم بأسره إلى أزمة جرّاء جائحة كورونا التي أثارت حالة من الذّعر والقلق، وهذا ما أدّى إلى إغلاق المدارس في كلّ أنحاء العالم منعاً لتفاقم الأزمة وازدياد أعداد الإصابات، وقد تمّ استحداث منصّة تعليميّة بواسطة الانترنت يتلقّى من خلالها المتعلّم الحصص الصّفيّة عن بعد، وأصبح المعلّمون على مستوى العالم ملزمين بتطوير مهاراتهم على مستوى التّكنولوجيا، وبات عليهم أن يكونوا قادرين على تنمية القدرات الإبداعيّة لدى المتعلّمين. وبناءً عليه، فقد يشاع استخدام أجهزة الحاسوب والهواتف النّقالة متعدّدة الوسائط ومؤشّرات الفيديو التّفاعليّة والأقراص المدمجة وشبكات الحاسوب المحليّة والعالميّة، ويعدّ ذلك تحوُّلاً من العصر الصّناعيّ إلى عصر المعلوماتيّة أو عصر المعرفة في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وقد انتشرت الأجهزة الإلكترونيّة والهواتف النّقالة بسرعة فائقة وبأعداد كبيرة في العالم أجمع.

الوضع الراهن والاشكالية:

لدى دراستنا لموضوعنا وجدنا مجموعة من الدراسات التي تتعلّق بالتعلّم عن بعد وعلاقته بالتّحصيل الأكاديمي للمتعلّمين، أبرز هذه الدراسات نذكر:

التعليم عن بعد وتأثيره على التّحصيل الدّراسي لدى الطالب (دراسة ميدانيّة) نوقشت عام 2015، لحنان بن خدّة وعائشة بن خدّة، هدفت هذه الدراسة إلى معرفة دور التعليم عن بعد في التأثير على التّحصيل الدّراسي لدى الطالب، وحاولت الكشف على العلاقة الارتباطية بين التعليم عن بعد والتّحصيل الدّراسي.

أثر استخدام التعلّم الإلكتروني في تدريس العلوم على التّحصيل الدّراسي لدى دارسي جامعة القدس المفتوحة (2012) لوفاء أبو عقل، هدفت الدراسة إلى التعرف على أثر استخدام طريقة التعلّم الإلكتروني على التّحصيل الدّراسي.

لذا فالتعلّم عن بعد وانعكاساته على التّحصيل التعليمي والأكاديمي للمتعلّمين، وعلى مدى فاعليّة المعلّمين، تبادر إلى ذهننا تساؤلات عديدة شكّلت لنا إشكاليّة لبحثنا أبرزها:

التساؤل الأول: ما مدى تأثير التعلّم عن بعد في التّحصيل الأكاديمي لدى المتعلّمين؟
التساؤل الثاني: ما مدى تأثير التعلّم عن بعد على مدى فاعليّة المعلّمين؟

الإشكاليّة:

إنّ انتشار وباء كورونا قد أحدث صدمة في مجال التعليم لم يشهد لها مثيلاً في العالم من قبل. هناك حوالي مليار و200 مليون طالب حجروا أنفسهم في منازلهم وتابعوا دراستهم بواسطة الانترنت. لقد تمّ إغلاق المدارس في مختلف دول العالم، وهذا الوضع أدّى إلى تبديل سريع وقسري في أسلوب الحياة اليوميّة وفي عمليّة التعلّم والتعليم، كذلك في المجالات الاقتصادية والاجتماعيّة والأكاديميّة.

تعدّ اليوم إعادة فتح المدارس والعودة إلى التعليم الحضوري ضرورة تربويّة، ولا بدّ من مواجهة هذا التحدي. ولا يمكننا أن ننكر ما قدّمه التعلّم عن بعد من فوائد كثيرة للمعلّمين والمتعلّمين معاً. لقد اكتسبوا بعض المهارات التقنيّة واستعمال بعض الأجهزة الإلكترونيّة وتقنيّات التعلّم الحديثة.

غير أنّ الوضع في لبنان يبدو أكثر تعقيداً نظراً لطغيان الأزمة الاقتصادية الشديدة وانقطاع التيار الكهربائي باستمرار، فضلاً عن ضعف الانترنت.

إنّ الانتقال الفجائي من التعليم الحضوري إلى التعليم عن بعد طرح الكثير من

التحديات منها ضرورة تدريب المعلمين والمتعلمين على حسن استحصال مستجدات التعليم والتعلم الرقمية، في دراسة استقصائية تناولت 916 فرداً، منهم 582 تلميذاً معلماً (التعليم العام) (Hammoud, M. shuayb M. 2021, the Impact of covid-19 Lovkdownmn on access and actuality of education ((LAU, CLS

تبين أن 83% من المعلمين يشكون وضعهم الاقتصادي المتدني والذي انعكس سلباً على دافعيتهم للعمل وعلى حياتهم العائلية، وهناك 30% من التلاميذ أفادوا بأنهم يعانون من مشكلة دائمة في متابعة التعلّم عن بعد بسبب ضعف شبكة الانترنت وانقطاع التيار الكهربائي، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المتعلمين. حوالي 25% توقفوا عن متابعة التعلّم عن بعد لعدم توافر الأجهزة لديهم فضلاً عن الحالة الاقتصادية التعيسة. ومعظم التلاميذ يفيدون أنّ جودة التعليم انخفضت جداً بسبب الحجر المنزلي (50% في المدارس الخاصة مقابل 72% في المدارس الحكومية)، بعض التلاميذ أفادوا أنّ مدارسهم لا تتوفر فيها الأجهزة اللازمة للتعلم عن بعد (25%).

بات 78% من اللبنانيين يعيشون تحت خطر الفقر، بحسب الأمم المتحدة، بسبب الأزمة الاقتصادية الحادة التي بدأت قبل أكثر من سنتين وفاقمتها تداعيات وباء كورونا والأزمة السياسية في البلاد، ونبّهت منظمات عدّة بينها "Save the chil-dren" إلى أنّ الفقر يشكّل عائقاً حاداً أمام حصول الأطفال على التعلّم، محدّرة من «كارثة تربوية» ومن خطر انقطاع الأطفال من الفئات الأضعف نهائياً عن التعلّم. وأعلنت وزارة التربية في 23 آب (2021) عزمها على فتح المدارس الرسمية بدءاً من 27 أيلول، رغم انقطاع الكهرباء لساعاتٍ طويلة في اليوم وشحّ المازوت والبنزين ما يعيق التنقل والحصول على وقود للمولّدات الكهربائيّة. وبحسب إحصاءات وزارة التربية، انتقل أكثر من 90 ألف متعلّم منذ العام 2019 إلى المدارس والثانويّات الرسميّة، بينهم قرابة 55 ألف العام الماضي وحده، وتوقّعت الوزارة زيادة أخرى هذا العام بنسبة 14% في مرحلة التعلّم الأساسي و9% في المرحلة الثانويّة. (info, 2021)

ولمواجهة النّزوح من التعلّم الخاصّ إلى التعلّم الرسميّ الذي يضمّ أكثر من 383 ألف متعلّم، تحاول السّلطات إدارة الأزمة غير المسبوقة عبر الاعتماد على مساعدات وهبات من المجتمع الدوليّ والجهات المانحة، وفي المقابل يخشى القيمون

على التّعليم الخاصّ من الأسوأ في حال استمرّ الانهيار على وقع هجرة العديد من المتعلّمين والمتعلّمين، إذ يتحدّث نقيب المتعلّمين في المدارس الخاصّة عن نزيف في الهيئة التّدرسيّة مع هجرة آلاف المدرّسين من أصل 43 ألف مدرّس متفرّغ ومتعاقد بعد أن تدنّت قيمة رواتبهم التي تدفع بالليرة اللبنانيّة، وقد أغلقت بعض المدارس أبوابها، واعتمد بعضها سياسات تقشّفيّة لتخفيف الأعباء، في حين اضطرتّ أخرى إلى رفع أقساطها بنسبة تراوحت بين 30 % إلى 35 % . (info, 2021)

أسهمت الأزمة الاقتصاديّة في لبنان في ازدياد الأعباء الاقتصاديّة على الطّبقّة الوسطى، ما أثر على العمليّة التّعليميّة. فنزوح المتعلّمين من المدارس الخاصّة إلى المدارس الرّسميّة زاد الضّغط على المدارس الرّسميّة التي تعاني كثافة في عدد المتعلّمين في الفصول الدّراسيّة، وقد كشفت تقارير عن ظاهرة حصلت في لبنان في السنتين الماضيتين نتيجة ارتفاع تكاليف التّعليم في المدارس الخاصّة، ما جعل العديد من العائلات تلجأ إلى الاستدانة لسدّ أقساط المدارس.

يبلغ عدد المدارس الرّسميّة في لبنان حوالي 1261 مدرسة، في الوقت الذي لم يعتد أن يتوجّه إليها (المدارس الرميّة) إلا ما يقارب الـ 30% من الطلاب وفق آخر دراسة لوزارة الشؤون الاجتماعيّة في العام الدّراسيّ 2019-2018 وبحسب التقرير الخاص بوزارة التربية والتّعليم العالي في لبنان تراجع عدد الطلاب في المدارس الخاصّة مقابل ارتفاع طفيف في المدارس الرّسميّة بنحو 15% طالب بين عامي 2017-2019.

في الوقت الذي بدأت فيه بعض المدارس التحضير لموازنتها السنويّة للعام الدّراسيّ 2021-2022 تبين أنّها تصطدم بتحدّيات هي: نزوح حوالي 20% من متعلّمي المدارس الخاصّة نحو المدارس الرّسميّة، تدهور سعر صرف الليرة، الزّرع التّدرجي للدّعم عن المحروقات، حاجات التّعقيم الإضافيّة نظراً للوضع الصحي وعدم قدرة الأهالي على دفع الأقساط.

لمواجهة هذه التحدّيات، تحاول هذه المدارس العمل على تخفيض الكلفة التّشغيليّة وإعادة هيكلة الموارد البشريّة، وعمدت بعض المدارس إلى تخفيض كلفتها التّشغيليّة غير المرتبطة بسعر الصّرف، وحاولت تخفيض عديد العاملين لديها ضمن ضوابط ديمومة خدماتها التّربويّة، إلا أنّ التّدهور الكبير لسعر الصّرف والحاجات المضاعفة لتنظيف وتعميم المباني المدرسيّة خلال فترة الدّمج، وتسرب نسبة من المتعلّمين

سينتج عنه زيادة في القسط المدرسي مقارنة بالعام الماضي وارتفاع كلفة النقل. إذاً نحن أمام مشكلة تربوية هامة تستحق البحث والدراسة. هنا نطرح السؤال الرئيس للبحث:

«هل هناك علاقة بين التعلم عن بعد والتّحصيل الدّراسي عند التلاميذ؟»

هدف البحث:

- التّحقّق من مدى فعالية التّعلّم عن بعد المستخدم في إطار جائحة كورونا وتأثيره على أداء المتعلّمين وإنجازهم.
- محاولة تأصيل الجوانب النّظريّة والمفاهيم المتعلّقة بدافعية الانجاز، وتوضيح نمط العلاقة المفترضة بما يُساعد على وضع آليات مقنّنة لتطبّق هذه المفاهيم في جوانب التّعلّم المختلفة.
- أن يدخل هذا البحث في إحدى المعايير المهمّة والأساسيّة في اختيار المعلّمين للعمل في مادة التّعليم خصوصاً في مرحلة التّعليم الأساسي.
- التّحقّق من مدى تأثير دافعيّة الانجاز في أداء المعلم الصّفي وتقديمه للمادّة التعليميّة.

التّعلّم عن بُعد:

التّعريف:

يُعدّ التّعلّم عن بُعد نوعاً من أنواع التّعلّم التي تعتمد الوسائط الالكترونيّة في الاتّصال، واكتساب المهارات، واستقبال المعلومات، والتّفاعل بين المعلّم والمتعلّم والتّفاعل بين المتعلّم والمدرسة، ولا يستلزم هذا النوع من التّعليم وجود مبانٍ مدرسيّة أو صفوف دراسيّة، بل إنّهُ يلغي وجود المكوّنات الماديّة الافتراضيّة بوسائلها، ويرتبط بالوسائل الالكترونيّة. (عبود، 2008)

تعريف المنصة الالكترونية

أنشأت وزارة التربية اللبنانية منصة للتّعلّم الرقمي وذلك لتسهيل التّعلّم عن بعد عند المتعلّمين. إنّ نظام إدارة التّعلّم الالكترونيّ هو مشروع طموح يسعى إلى الاستفادة من دمج التّقنيّة في التّعليم ويسهم في تحقيق أهداف التّحوّل الرّقميّ وإيصال التّعليم إلى المتعلّمين بأنماطه المتعدّدة (تزامنيّ، غير تزامنيّ) عبر نظام الكترونيّ واحد. (الالكترونية2020)

أهداف التعلّم عن بُعد:

هناك العديد من الأهداف للتعلّم عن بعد، إلاّ أنّه يمكن تلخيصها بالنقاط الآتية: «إكساب المتعلّمين المهارات والكفايات التي تلزم لاستخدام ثقافة المعلومات والاتّصالات.

- تخريج أجيال جديدة من المعلّمين والمتعلّمين قادرين على التّعامل مع متطلّبات العصر الحديث.

- سدّ النقص الحاصل في الكوادر الأكاديميّة في بعض القطاعات التعلّميّة عن طريق توفير صفوف افتراضيّة.

- خَلُقَ شبكات تعليميّة لتنظيم عمل المؤسّسات التعلّميّة وإدارتها.» (اليمين وصدراي، 2019)

- الإعتدال على التقنيّات التكنولوجيّة في تطوير بيئة تفاعليّة للمعلّمين والمتعلّمين من أجل تحقيق أهداف التعليم.

- الاعتماد على الوسائل التكنولوجيّة لتطوير نظام للتواصل بين المعلّم والمتعلّمين في مكان واحد لتتمّ العمليّة التعلّميّة.

- إكساب المعلّم مهارات لتطوير عملية التعلّم لديهم من خلال الاعتماد على المعلومات عبر التقنيّات التكنولوجيّة.

- توسيع آفاق تفكير الطّلاب لعدم الإكتفاء بالمعلّم كمصدر وحيد للمعلومات. الأزرمة الاقتصاديّة:

حذّرت منظمة «أنقذوا الأطفال» (Save The Children) من حدوث كارثة تربيويّة في لبنان بسبب جائحة كورونا فضلاً عن الأزرمة الاقتصاديّة الخانقة، وقدّرت المنظمة عدد الأطفال الموجودين خارج مدارسهم بأكثر من مليار و 200 مليون طفل. فعلى غرار دول كثيرة، في لبنان فُرض إغلاق شامل للمدارس، ما أجبر المتعلّمين على ملازمة منازلهم واعتماد التعلّم عن بُعد، إلاّ أنّ هذه الإجراءات لم تمرّ بسلاسة في بلد يشهد انهياراً اقتصادياً، ولا تتوافر فيه للطبقات الفقيرة والأكثر هشاشة المقومات الأساسيّة لضمان التعلّم عن بعد، وأبسّطها الحواسيب والانترنت. «(الأزرمة الاقتصاديّة وصعوبة التعلّم عن بعد تهدّدان مصير تلامذة لبنان، 2021)

التعلّم عن بُعد وانعكاسه على أداء المعلّمين

للتعلّم عن بُعد انعكاسات سلبية عديدة على أداء المعلّمين أبرزها عدم إتقان بعض

المعلمين لوسائل التكنولوجيا، ضعف التواصل البصري بين المعلمين والمتعلمين، عدم قدرة بعض المدارس على تغطية مستلزمات التعلم عن بعد، المساكن التقنية المتمثلة بصعوبة الوصول للمعلومات وانقطاع شبكة الانترنت بكثرة وانقطاع التيار الكهربائي، وعدم قدرة أولياء الأمور على تأمين أكثر من حاسوب لأولادهم إذ أنّ كلفة الحاسوب مرتفعة، كذلك عدم قدرة بعض المعلمين على شراء حاسوب لمتابعة الفصل الدراسي بسبب كلفته الباهظة... وغيرها من العوائق والسلبيات التي تقف حاجزاً أمام نجاح المعلمين في مهمتهم وأدائهم.

بالمقابل، يُسهم التدريب عن بُعد في إكساب المعلمين مهارات في:

- التطور المعرفي والتقدم التقني وضرورة مواكبته.
- تطور الأنظمة التعليمية، ما يستدعي تطوراً في أداء المعلمين ومهاراتهم.
- فضلاً عن أنه يُسهم في استيعاب عدد أكبر من المتدربين.

التعلم عن بُعد وانعكاسه على التحصيل الدراسي لدى المتعلمين

يرى حميد أنّ التحصيل الدراسي هو المعرفة والمهارات المكتسبة من قبل المتعلمين نتيجة لدراسة موضوع أو وحدة تعليمية محددة، وقد أثبتت البحوث والدراسات أنّ مفهوم التحصيل الدراسي لا يعني تنمية سلوك المتعلم وإكسابه الثقة بنفسه والقيم والمبادئ فحسب، بل يعني أيضاً الكفاية التعليمية التي تنتج من خلال تنفيذ الاستراتيجية في العملية التربوية وتحقيق الأهداف المطلوبة لنمو المجتمع. (حميد، 2010)

وينظر فريق من الباحثين إلى أنّ التحصيل الدراسي هو وجه من أوجه الإنجاز الدراسي، وهو الكفاءة في الأداء مقاساً باختبار مقنن.

ويُتجه فريق آخر من العلماء في تحديدهم للتحصيل الدراسي بأنه العلامة التي يحصل عليها المتعلم في امتحانات نهاية العام الدراسي في امتحان معين من قبل معلمين، سواء كان هذا الامتحان شفهيّاً أو تحريريّاً أو كليهما. (الجلالي، 2011)

ويرى فتّي أنّ «التحصيل بمعنى خاصّ يشير إلى التحصيل الأكاديمي، وهو في هذه الحالة الخاصة يستخدم ليشير إلى القدرة على أداء متطلبات النجاح المدرسيّ سواء في التحصيل، بمعناه العامّ أو النوعي، لمادة دراسية معينة». (فني، 2005)

ونظراً لأهمية التحصيل الدراسي والمكانة التي يحظى بها في الميدان التربوي، كان محطّ اهتمام الباحثين، وذلك من أجل تشخيص الوضع الراهن والوصول إلى معرفة علمية موضوعية، يمكننا من خلالها فهمه بصورة دقيقة وصحيحة.

يمكن تحقيق التّقييم عن بُعد من خلال:

- الامتحانات الزّمنية قصيرة المدى.
- ملقّات الإنجاز.
- تقويم الأداء.
- المقابلات.
- الامتحانات اليومية القصيرة كما هي معروفة ب drop quiz.

وقد يتأثر تحصيل المتعلّم بعوامل داخلية مثل الدافعية الذاتية أو خارجية كوسائل التّعليم المعتمدة حول تأثير التعلّم عن بعد على التّحصيل الدّراسي، إذ إنّ التّحصيل الدّراسي له مفهوم سببه عوامل داخلية في ذات المتعلّم، وفي الوقت عينه عوامل خارجية بعيدة عن المتعلّم. فالتّحصيل كنتيجة للتّعليم مرتبط في مجال التعلّم بكلّ ما هو نفسي وفيزيولوجي، وتحدث عدّة تداخلات في عملية التعلّم عن بعد أبرزها نفسي يؤثّر على التّحصيل سلبيًا أو إيجابًا، وقد يتأثر تحصيل الفرد بعوامل داخلية وخارجية منها فطريّ ومنها ما هو مكتسب.

في ظل التّطوّر التكنولوجي، برزت مستحدثات تكنولوجية حديثة مثل الحاسوب والبرمجيات التّعليمية وشبكات الانترنت والفيديو التفاعلي والأقمار الصناعية والشبكات المحلية وغيرها ممّا يمتاز بالشمولية والتّفاعل، وهذا ما هيأ لارتباط الممارسات التّعليمية بها وظهور التعلّم عن بُعد، التّعليم الإلكتروني، الصّفوف الإلكترونية أو الافتراضية، الكتب والموسوعات الحديثة.

أصبح مفهوم العملية التّعليمية مرتبطًا باستخدام شبكات الانترنت ومواقع التّواصل الاجتماعيّ ما جعل التّحصيل الدّراسي لدى المتعلّمين يتحقّق بظروف مختلفة، فينخطى بذلك كلّ الحواجز المكانية، ليصبح التّحصيل الدّراسي عن طريق هذه المواقع بديلاً للصّفوف والمكتبات الورقية بسبب الأوضاع الصحيّة الراهنة في البلاد. وانتقلت المدارس من مفهوم التربية والتّعليم الأكاديمي إلى مفهوم التربية الافتراضية والتعلّم عن بعد والتّحصيل الدّراسي الإلكتروني من خلال استخدام شبكة الانترنت كمقرّر بديل للتّدرّيس ورفع مستوى تحصيل المتعلّمين. فالتعلّم عن بُعد يساعد المتعلّمين على اكتساب المهارات الإلكترونية، والانترنت مجال خصب لتفعيل هذه المهارات.

من هنا أصبحت برامج التعلّم عن بعد وتطبيقاتها الشغل الشاغل للمؤسّسات التّعليمية التي تسعى إلى تفعيلها وتطبيقها بصورها وأشكالها المختلفة. وقد كان للتّعليم

الإلكترونيّ فوائد جمة على العمليّة التّربويّة، نذكر منها: (علي، العريشي، والسيد، 2013)

- توليد القدرة على تغيير حالة المتعلّمين من السّماع إلى المشاركة والقدرة على الاستيعاب.
- تمكين المتعلّمين من الاستذكار والمراجعة الذاتيّة والقضاء على الدّروس الخصوصيّة.
- التّواجد مع المتعلّمين في أيّ وقت وخلال 24 ساعة، سواء على الانترنت أو عن طريق الأقراص المضغوطة.
- شغل أوقات المتعلّمين بالنّافع المفيد وجعل حوارهم علمياً في مجال التّعليم.
- إعداد نموذج مسانِدٍ ومكمّلٍ لجوانب القصور والعيوب في التّعليم التّقليديّ.
- تشويق المتعلّم وإثارة دافعيّته من خلال مؤثّرات اللّون والصّوت والصّورة والرّسومات.

التّعلّم عن بعد وانعكاسه على دافعيّة الإنجاز لدى المتعلّمين

يُردُّ استخدام مصطلح دافع الإنجاز في علم النّفس من النّاحية التّاريخيّة إلى «أدлер» الذي أشار إلى أنّ الحاجة إلى الإنجاز هي دافع تعويضيّ مستمدّ من خبرات الطّفولة، كذلك يُردُّ إلى «ليفن» الذي عرض هذا المصطلح في ضوء تناوله لمفهوم الطّموح وذلك قبل استخدام «موراي» لمصطلح الحاجة للإنجاز. (انجلر، 1991)

ويمكن تعريفه على أنّه «مجموعة من القوى والجهود التي يبذلها الفرد من أجل التّغلب على الصّعوبات بالسرّعة الممكنة» (نشواتي، 1417)، ويمثّل الدّافع للإنجاز أحد الجوانب المهمّة في نظام الدّوافع الإنسانيّة، وبرز كأحد المعالم المميّزة لدراسته والبحث في ديناميّات الشّخصيّة والسلوك، بل يمكن اعتباره أحد منجزات الفكر النّفسيّ المعاصر. (الصّافي، 2001)

في ظلّ انتشار وباء كورونا، تناولت دراسات عدّة موضوع التّعلّم عن بُعد وعلاقته بكلّ من التّحصيل العلميّ والدّافعيّة والإنجاز لدى المتعلّمين، ومن أبرز الدّراسات التي تناولت موضوع التّعلّم عن بُعد دراسة علي بن حبني محمد الزّهراي تحت عنوان «معوّقات استخدام التّعليم الإلكترونيّ في المرحلة التّأنيوية بمحافظة القنفذة من وجهة نظر المعلّمين» بتاريخ 2011. وقد تناولت الدّراسة مشكلة التّعليم عن بعد والتّحدّيات التي تواجه المعلّمين والمعلّّمات في مجال التّكنولوجيا، حيث استخدم الكاتب المنهج

الوصفي لجمع البيانات ومناقشتها وتفسيرها، وأخذ آراء عينة عشوائية من معلّمي المرحلة الثانوية في المحافظة.

كذلك، دراسة تحت عنوان «فاعلية التّعليم الافتراضيّ في التّحصيل الدّراسيّ لدى متعلّمي التّعليم عن بُعد» قام بها طاهر العربيّ بتاريخ 2014 كرسالة ماجستير، وهدفت إلى التّعرّف إلى أثر استخدام التّعليم الافتراضيّ في التّحصيل الدّراسيّ لدى المتعلّمين. استخدم الباحث المنهج الوصفيّ، إذ قام بتحديد مجتمع دراسيّ يتكوّن من 3 مراكز في الغرب الجزائريّ، واختار 404 متعلّمًا ومتعلّمة قسّمهم إلى فئتين، وتلخّص مشكلة الدراسة في الحاجة إلى معرفة نتائج التجربة التي خاضتها وزارة التربية الوطنيّة في مجال دمج الوسائل والمعدّات الإلكترونيّة كوسائط تعليميّة عن بعد، كما هدفت إلى التّعرّف على مدى فاعليّة التّعليم الافتراضيّ في تحصيل المتعلّمين، إضافة إلى التّعرّف إلى أثر دمج الوسائل الإلكترونيّة في التّعليم على تحصيلهم.

نذكر أيضًا دراسة تحت عنوان «الأثار التعليميّة لاستخدامات الانترنت» من قبل طلبة الجامعة العربيّة المفتوحة، فرع الأردن لخالد إبراهيم العجلوني التي ذكرت في مجلة العلوم التربويّة، المجلد 41، العدد 2، بتاريخ 2014 والتي هدفت إلى تعرّف الأثار التعليميّة لاستخدامات الانترنت من قبل طلبة الجامعة عينها. وقد تكوّن مجتمع الدراسة من جميع طلبة الجامعة والبالغ عددهم (2300) متعلّمًا ومتعلّمة موزّعين إلى أربعة تخصصات، وأظهرت نتائج الدراسة أنّ هناك آثارًا تعليميّة لاستخدامات الانترنت بدرجة مرتفعة على الدّرجة الكليّة.

قامت حنان بن خدة وعائشة بن خدة بدراسة تحت عنوان «التّعليم عن بُعد وتأثيره على التّحصيل الدّراسيّ لدى المتعلّم» عام 2015، حيث هدفت إلى معرفة دور التّعليم عن بُعد في زيادة التّحصيل الدّراسيّ لدى المتعلّم. وقد تمّ تطبيقها على عيّنة من متعلّمي الديوان الوطنيّ للتّعليم، وحاولت الكشف عن العلاقة الارتباطيّة بين التّعليم عن بعد والتّحصيل الدّراسيّ. هذه الدراسة تناولت تعريف مفهوم التّعلّم عن بُعد وما يقّمه للمتعلّم ومدى الإقبال عليه مقارنةً بالتّعليم التقليديّ ومدى إسهامه في تحسين التّحصيل العلميّ لدى المتعلّمين. استخدمت الباحثتان المنهج الوصفيّ الاستطلاعيّ الذي يُستخدم في دراسة الأوضاع الرّاهنة للظواهر من حيث خصائصها وأشكالها وعلاقتها والعوامل المؤثّرة في ذلك، كما اعتمدتا على العيّنة العشوائية البسيطة إذ اختارتا مجتمع عيّنة مكوّنًا من 60 مفردة (فرد) موزّعة على جميع

التخصّصات المتوفّرة في الدّيوان الوطني للتعليم والتّكوين عن بُعد. دراسة فاعليّة التّعلّم النّشط باستخدام التّعليم عن بُعد في تنمية التّحصيل الدّراسي في مقرّر تقنيّات التّعلّم في كليّة التّربية الرّياضيّة لوائل السّيد والعبد خليفة في جامعة حلوان هدفت إلى التّعرّف إلى فاعليّة استخدام التّعلّم عن بُعد في تنمية الاتّجاه نحو تعلّم مقرّر تقنيّات التّعلّم في التّربية والاتّجاه نحو التّعلّم عن بُعد، وقد استخدم الباحثان المنهج التّجريبيّ باتّباع التّصميم التّجريبيّ لمجموعتين من المتعلّمين، واختاروا عيّنة البحث بالطريقة العمدية العشوائية، وكانت أهمّ الاستنتاجات تقوّد متعلّمي المجموعة التّجريبية والتي درست من خلال استراتيجيّة التّعلّم النّشط القائمة على استخدام التّعلّم عن بُعد على المجموعة الضابطة في القياس البعدي لمستوى التّحصيل الدّراسي لمقرّر تقنيّات التّعليم في التّربية الرّياضيّة.

دراسة مدى فاعليّة استخدام معلّمي الصّف الثامن ومتعلّمي برنامج الهاتف النّقّال واتجاهات المعلّمين نحو استخدامه كوسيلة تعليميّة للتّعلّم عن بُعد في ظلّ جائحة كورونا لهبة محمد حسن العدوان، كشفت أثر الهاتف النّقّال واستخدامه في الغرفة الصّفية والغرفة الإلكترونيّة في تحصيل متعلّمي الصّف الثامن من مرحلة التّعليم الأساسي في مادّة الرّياضيّات واتّجاهات معلّميهم نحو استخدامه كوسيلة تعليميّة في التّعليم عن بُعد، وأوضحت أنّ البحث عن طرق تدريس فعّالة تُسهم في تقديم خبرات منظّمة ومؤثّرة في تعلّم الرّياضيّات، وإيجاد وسائل تعليميّة مساعدة وتوظيفها تُعين المعلّم في تثبيت المفاهيم والحقائق والتّعميمات في ذاكرة المتعلّم طويلة الأمد، وتسهم في رفع مستوى تحصيل المتعلّمين في الرّياضيّات في ضوء الدّراسات التي تؤكّد تدني مستوى التّحصيل أثناء جائحة كورونا.

دراسة أثر الدّمج بين أساليب التّعلّم عن بُعد واستراتيجيّة التّساؤل الدّاتيّ في كتابة موادّ التّعلّم في دافعية المتعلّمين ومهاراتهم في إعداد خطّة البحث من إعداد العجب محمّد العجب وزينب عادل منصور السّتري هدفت إلى تقصي أثر تصميم موادّ التّعلّم وفق الدّمج بين أساليب التّعلّم عن بُعد واستراتيجيّة التّساؤل الدّاتيّ في دافعية المتعلّمين ومهاراتهم في إعداد خطّة البحث في مقرّر طرق البحث. وقد اعتمدت الدراسة المنهج التّجريبيّ بتصميم شبه تجريبيّ مع استخدام تصميم المجموعة الضابطة وقياس بعدي للتحقّق من صحّة الفرضيات الآتية: الدّمج بين أساليب التّعلّم عن بعد واستراتيجيّة التّساؤل الدّاتيّ في كتابة موادّ التّعلّم يؤدّي إلى تحسين دافعية المتعلّمين للتّعلّم وإلى

تحسين مهاراتهم في إعداد خطة البحث، وهو المطلب الأساس للحصول على درجة ماجستير. تكوّنت عيّنة الدّراسة من ٣٣ متعلّماً ومتعلّمةً ملتحقين بالسّنة الأولى في برامج الدّراسات التّقنيّة في كليّة الدّراسات العليا في جامعة الخليج في مملكة البحرين، وأظهرت نتائج الدّراسة وجود فروق دالّة إحصائيّاً وعمليّاً بين متوسّط المجموعتين التّجريبية والضّابطة في فئات الدّافعية مجتمعة، وذلك لصالح المجموعة التّجريبية، كما أظهرت النتائج أيضاً وجود فروق دالّة إحصائيّاً بين متوسّط المجموعتين في مهارات إعداد خطة البحث مجتمعة لصالح المجموعة التّجريبية.

دراسة فاعلية التّعلّم الإلكتروني في ظلّ انتشار جائحة كورونا من وجهة نظر متعلّمي المرحلة الثّانوية في منطقة الفروانية في دولة الكويت ليدر غازي سحبي المطيري هدفت إلى التّعرّف إلى فاعلية التّعليم الإلكتروني في ظلّ إنتشار جائحة كورونا من وجهة نظر متعلّمي المرحلة الثّانوية. اعتمدت الدّراسة المنهج الوصفيّ التّحليلي، وتكوّنت العيّنة من 70 متعلّماً ومتعلّمة من الصّف الثّاني عشر في المنطقة، وتمّ استخدام أداة الاستبانة حيث تكوّنت من 20 فقرة وزّعت على ثلاثة مجالات وهي: استمرارية التّعليم الإلكتروني في ظلّ انتشار جائحة كورونا، تفاعل المعلمين مع التّعليم الإلكتروني في ظلّ انتشار جائحة كورونا، وتفاعل المتعلّمين مع التّعليم الإلكتروني في ظلّ انتشار جائحة كورونا. وتمّ توزيع الاستبانة الكترونياً، وقد أشارت نتائج الدّراسة إلى تقدير فاعلية التّعليم الإلكتروني في ظلّ إنتشار جائحة كورونا من وجهة نظر متعلّمي المرحلة الثّانوية في المنطقة بدرجة متوسّطة، وإلى عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية تعزى لأثر الجنس في جميع المجالات وفي الدّرجة الكلية، أو وجود دلالات تعزى لأثر التّخصّص في جميع المجالات وفي الدّرجة الكلية.

الدّراسة الميدانية:

دراستنا الميدانية كانت من خلال خمسة استمارات:

الاستمارة الأولى: مقياس فاعلية المعلم:

هدفت في البداية التّعرّف إلى جنس المعلم، الشّهادة الجامعية، المادّة التي يدرّسها، والمدرسة التي يدرّس فيها. ثمّ هدفت إلى معرفة إلى أيّ حدّ يستطيع تحفيز المتعلّمين، وإلى أيّ حدّ يستطيع ضبط سلوك المخالفين وإقناعهم بضرورة الالتزام بقواعد الصّف، وإدارة عملية التّعليم، فضلاً عن سبل تطبيق استراتيجيات متنوّعة في التّعليم

والتقويم، والطرق المعتمدة لتقديم تفسير بديل أو إعطاء دليل محسوس لإيصال الفكرة، يضاف إليها آلية التواصل مع عائلات المتعلمين لتحفيزهم.

الاستمارة الثانية: استمارة المتعلم

هدفت الاستمارة إلى التعرف إلى جنس المتعلم، عمره، صفه، مدرسته، مستوى تحصيله، مهنة الوالد ومستواه العلمي، مهنة الوالدة ومستواها العلمي، هل يجد صعوبة في التعلم عن بُعد؟ من يساعده في دروسه وواجباته المنزلية؟ ما الذي يجعله يشعر بالملل أثناء عملية التعليم عن بُعد؟ هل يحب أن يكون مشاركاً في عملية التعلم عن بُعد؟ ما الذي يحفزه للمشاركة في عملية التعلم عن بُعد؟ هل يحب أن يشارك بعض الأنشطة عن بُعد مع رفاقه؟

الاستمارة الثالثة: استمارة المعلم

هدفت الاستمارة إلى دراسة حالة المعلم اقتصادياً، الشعور بالرّضا تجاه عمله، شعوره بالقلق بسبب الظروف المالية والصّحية السيئة، يجد صعوبة في التدريس بسبب كورونا، أمله في المستقبل.

الاستمارة الرابعة: قياس سلوك المتعلم

هدفت الاستمارة إلى دراسة سلوك المتعلم: يناقش المعلم حول القواعد والتعليمات، يتقبل النقد، يتبع القواعد المدرسية، يغضب عندما لا تجري الأمور كما يريد، يتصرف بعدائية، يخاطب الآخرين بوقاحة، يهمل كتبه وممتلكاته، يثير ضجة في الصف، يتصرف بسلطوية، يتشاجر مع الآخرين، يعاني صعوبة في التأقلم في مجموعة، غير متعاون في النشاطات الجماعية، يتشتت انتباهه بسرعة....

الاستمارة الخامسة: معلومات عن مستوى تحصيل المتعلم

هدفت الاستمارة إلى التعرف إلى معدّلات نتائج تحصيل المتعلم، المعدّل العام للنجاح، مجموع علاماته.

الخلاصة:

يتضح مما سبق أنّ التعليم في لبنان في خطر محقق بسبب الأزمة الاقتصادية الراهنة في البلاد، وبسبب ظهور نسبة جديدة من الفقراء يمكن تسميتهم بالفقراء الجدد، الذين لم يعد بمقدورهم تسجيل أبنائهم في المدارس الخاصة نظراً للغلاء الفاحش في البلاد في مقابل تدني قيمة الرواتب، ولأنّ المدارس شهدت ارتفاعاً غير مسبوق في أقساطها لتلبية احتياجاتها الفنيّة واللّوجيستية ومتطلّبات المعلّمين والمتعلّمين، لذلك نشهد نزوحاً غير مسبوق للانتساب إلى المدارس والثّانويّات الرّسميّة، لا سيّما أنّ التّعليم عن بعد أدّى إلى زيادة الأعباء على الأهل والمعلّمين لناحية تأمين أجهزة الحواسيب والانترنت حتّى يتسنى لهم مواكبة عمليّة التّعليم، فضلاً عن هجرة عدد لا يستهان به من المعلّمين لمهنة التّعليم لتدني رواتبهم وعدم تلبية حاجاتهم وطموحاتهم.

المراجع والمصادر:

- (2021, اغسطس 31). نزوح ابناء الفقراء الجدد الى المدارس الرسمية في s, info, Retrieved from <https://www.swissinfo.ch/ara/afp46909264/>, 29 ايلول 2021, لبنان .
- الالكترونية, ص. ع. (2020). «التعليم» تحدد موعد تدريب قادة المدارس والمعلمين والمشرّفين على استخدام منصة «مدرستي». Retrieved from [478213/https://1asir.com](https://1asir.com/478213/)
- الجاللي, ل. م. (2011). التّحصيل الدّراسي. عمان: دار الميسرة للنشر والتوزيع.
- الصافي, ع. ط. (2001). المناخ الدّراسي وعلاقته بدافعية الانجاز ومستوى الطموح لدى طلبة المرحلة الثانوية بمدينة أبها. أبها: رسالة الخليج العربي، العدد 79 .
- اليمين, ف., & صدراتي, ف. (2019). عوائق استخدام التعليم الالكتروني في تدريس طلبة الماستر بالجامعة الجزائرية . الجزائر: المجلة العربية للاعلام وثقافة الطفل.
- انجلر, ب. (1991). مدخل الى نظريات الشخصية، ترجمة فهد الداليم. الطائف: دار الحارثي للطباعة والنشر.
- ايت علي, ع. ا., & التركي, أ. ا. (2021). التعليم عن بعد بالوسط المدرسي الفروي بالمغرب، الوسائل والعوائق «حالة المديرية الاقليمية سيدي بنور». المغرب: المجلة المغربية للتقييم والبحث التربوي، العدد الخامس.
- بركة, ز. (2014). تصميم المناهج وإنتاج مواد تعليم الكبار. السودان: المكتبة الوطنية أثناء النشر.

- حميد, ع. ع. (2010). التّحصيل الدّراسيّ وعلاقته بالقيم الاسلامية التربوية. لبنان: مكتبة حسين العصرية للطباعة والنشر، ط1.
- سالم, ا. م. (2004). تكنولوجيا التعليم والتعلم الإلكتروني . الرياض: مكتبة الرشد.
- عبود, س. (2008). واقع التعليم الإلكتروني ونظم الحاسبات وأثره في التعليم في العراق . بغداد: مجلة كلية بغداد للعلوم الاقتصادية .
- علي, ع. ع., العريشي, ج. ب., & السيد, ف. ا. (2013). اتجاهات حديثة في طرائق واستراتيجيات التدريس، خطوة على طريق تطوير إعداد المعلم. عمان: دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع.
- فني, غ. (2005). التغيرات التنظيمية وأثرها على التّحصيل الدّراسيّ في الجامعة الجزائرية: دراسة حالة قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة باتنة. الجزائر: رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الاسلامية، جامعة الحاج خضر.
- موسوعة التعليم والتدريب. (2010, نوفمبر 13). Retrieved from <https://edutrapedia.com> موسوعة: موسوعة
- نشواتي, ع. ا. (1417). علم النفس التربوي . بيروت: عالم الكتب.

كورونا والإعلام المتحوّر مهى محمد مراد (1)

مدخل

شكّل فيروس كورونا مع متحوّراته المتعدّدة، هاجساً مخيفاً لجميع الأفراد في كافة أنحاء العالم. فهو قد «وُلِد» وانتشر بشكل سريع، حتى وصل تقريباً إلى كافة أجزاء الكرة الأرضية، وهزّ كافة القطاعات على اختلاف أنواعها كالقطاع الصناعي والزراعي والسياحي والصّحيّ والتّعليمي، بسبب القيود التي فرضتها الدول على السفر، ليس فقط منها وإليها، بل أيضاً بسبب حظر السفر بين مدن البلد الواحد، وحتى حظر التجوّل في الأحياء، ومنع التجمّعات. فقد ضرب هذا الفيروس اقتصاد الدول كافة، وألحق خسائر فادحة بالاقتصاد العالمي.

هذا «الفيروس المستجدّ»، كما يُسمّى، ظهر لأول مرة في مدينة ووهان الصينية، بلغ ذروته خلال أشهر قليلة، وأصاب الملايين من الأفراد حول العالم، وقد بدأ بالانتشار السريع، ولم يتوقّف حتى يومنا هذا!

وقد كان من الطبيعي جدّاً، أن تتصدّر أخبار كورونا جميع الوسائل الإعلامية المحلية والدولية، المسموعة منها والمقروءة وحتى المكتوبة، بالإضافة إلى وسائل التواصل الاجتماعي التي لم تتفكّ تتكلم عن تطورات فيروس كورونا. وقد لعبت وسائل الإعلام هذه دوراً إيجابياً أحياناً، وسلبياً أحياناً آخر، في التأثير على الرأى العامّ الذي يستمع إليها ويتابعها.

فيروس كورونا

ينتمي فيروس كورونا إلى عائلة الفيروسات التاجية التي تسبّب المرض للإنسان والحيوان على حدّ سواء. وهي تسبّب التهابات في الجهاز التنفسي، تتراوح بين الأمراض الخفيفة مثل نزلات البرد، إلى تلك الأشدّ خطورة على صحة الإنسان مثل متلازمة الشرق الأوسط التنفسية، (MERS) ومتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم (SARS).⁽²⁾ وقد اكتُشف نوع جديد من فيروسات كورونا في مدينة ووهان في الصين. وأطلق عليه اسم «

(1) طالبة دكتوراه في الترجمة وعلوم اللغة والتواصل - الجامعة اللبنانية.

(2) مرض فيروس كورونا. منظمة الصحة العالمية. (12/10/2020). <https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/question-and-answers-hub/q-a-detail/coronavirus-disease-covid-19>

فيروس المتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة كورونا 2»، ويُعرف أيضًا بالرمز (SARS-CoV-2). ويُسمّى المرض الناتج عن هذا الفيروس «مرض فيروس كورونا 2019» المعروف بالرمز عالميًا باسم **كوفيد 19 "COVID-19"**.

وقد اشتقت التسمية، وفق ما نشرته منظمة اليونسيف التابعة للأمم المتحدة، من أول حرفين «CO» من كلمة (CORONA) وأول حرفين «VI» من كلمة (VIRUS)، وأول حرف «D» من كلمة (DISEASE)، بالإضافة إلى رقم السنة التي ظهر فيها (1)2019.

في شهر آذار 2020، أعلن المدير العام لمنظمة الصحة العالمية أن عدوى كوفيد 19 يعتبر جائحة، بسبب سرعة تفشي المرض ووخامته، والتقاوس المخيف عن إجراء ما يلزم⁽²⁾. ويُعتبر هذا الوباء أكبر أزمات القرن العشرين الصحيّة؛ بالرغم من ظهور العديد من الأوبئة الأخرى في مرحلة سابقة، مثل وباء إيبولا وسارس وإنفلونزا الطيور «إتش 5 إن 1» وإنفلونزا الخنازير «إتش 1 إن 1» وغيرها، التي انتشرت ضمن نطاق جغرافيّ محدّد، وأدّت إلى وفاة أعداد كبيرة من البشر. فقد أثر وباء «كورونا» على دول العالم أجمع، النامية منها والمتطورة، وطال مختلف فئات المجتمع وشرائحه. فلم يسلم منه كائنٌ من كان؛ الكبير والصغير، والغني والفقير، والقوي والضعيف، والمريض والمُعافى....

ظهور فيروس كورونا

بعد ما يُقارب سنتين من انتشار جائحة كورونا، توصل تقرير صادر عن منظمة الصحة العالمية، أعدّه خبراء منظمة الصحة العالمية مع خبراء صينيين، إلى استنتاجات أولى بشأن Covid-19، بعد قضاء أربعة أسابيع في التحقيق في مدينة ووهان التي انطلق منها الفيروس للمرة الأولى. وقد اعتبرت فرضية انتقال الفيروس عن طريق حيوان وسيط، أي أنّ هذا الفيروس انتقل من حيوان أول ثم ثانٍ قبل أن تنتقل العدوى إلى البشر، «محتملة إلى محتملة جدًا» من دون التعرف على هذا الحيوان بعد. وقد رجّح التقرير انتقال الفيروس من حيوان مصدر هو الخفاش، على

(1) مرض فيروس كورونا (كوفيد-19) - كل ما تحتاجون لمعرفته لحماية أنفسكم وأطفالكم- اليونسيف. <https://www.unicef.org/sop/ar/covid19>

(2) الملاحظات الافتتاحية التي أدلى بها المدير العام لمنظمة الصحة العالمية في الإحاطة الإعلامية بشأن مرض كوفيد-19 في 11 آذار/ مارس 2020. منظمة الصحة العالمية. <https://www.who.int/ar/director-general/speeches/detail/who-director-general-s-opening-remarks-at-the-media-briefing-on-covid-19---11-march-2020>

الأرجح، عبر حيوان وسيط لم يتمّ تحديده. ومن بين الحيوانات الوسيطة المشتبه بها الهزّ والأرنب، أو حتى أكل النمل الحرشفي أو النمّس. واعتبرت فرضية الانتقال المباشر للفيروس من حيوان مصدر إلى الإنسان «ممكّنة إلى مرجّحة». واعتبرت فرضية انتقال الفيروس عبر اللحوم المجلّدة التي ترجّحها بكين «ممكّنة». وقد استبعدت بالكامل فرضية تسرّب الفيروس من مختبر في ووهان⁽¹⁾.

لقد طالّت هذه الجائحة العالمية كافة نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية وغيرها؛ وفرضت على سكان العالم واقعاً جديداً مليئاً بالخوف والفرع من الموت والمرض، وعانى معظمهم من القلق والإحباط. وكانت مهمة وسائل الإعلام تكمن في التوعية على كيفية التعامل مع الوباء، والحدّ من التهويل والتهوين الذي يسهم في تصاعد حالة الخوف والهلع، ومن الأجدر الاستعانة بأهل التخصص، وإعطاؤهم المجال للمشاركة في تصحيح وتقديم المعلومة الطبيّة، من خلال تسخير الشاشات والصفحات لهم، كونهم خطّ الدفاع الأوّل أمام هذا الوباء الخطير.⁽²⁾

عصر الاتصال والتكنولوجيا:

العصر الذي نعيشه اليوم هو عصر الاتصال، فيه قرّبت المسافات، وتلاشت الحدود، وبات العالم أشبه بقريّة صغيرة، على حدّ تعبير المفكر الكندي مارشال ماكلوهان، إذ أصبح بإمكان الفرد في أقصى الشرق أن يطلّع على ما يحدث في أقصى الغرب، وكلّ هذا بفضل تطور وسائل الإعلام وانتشارها.

ولهذا يُطلق مصطلح الإعلام على جميع الوسائل والتقنيات والمنظّمات، إضافة إلى المؤسسات؛ سواء التجارية أم غير التجارية، العامة أم الخاصة، الرسميّة أم غير الرسميّة، التي تتمحور مهمّتها ووظيفتها الأساس حول نشر الأخبار والمعلومات المختلفة ونقلها بدقة، وحالياً تعدّت وظيفة الإعلام هذه الأمور، فأصبحت، بالإضافة إلى ذلك، تتضمّن الترفيه والتسلية، وتحديدأ بعد انتشار التلفاز ووجوده في كافة البيوت، وتسمّى التكنولوجيا التي تقوم بهذا كلّها بوسائل الإعلام⁽³⁾.

ويمثّل الاعلام عبر مختلف وسائله ومستوياته أداة ووسيلة أساسية لا يمكن الاستغناء

(1) قلق دولي إزاء تقرير خبراء الصحة العالمية حول منشأ فيروس كورونا. (30/3/2021). DW العربية.

(2) دالقي. ي. (02/04/2020). الإعلام في زمن الوباء.. كيف أبلت الصحافة العربية والدولية في أزمة كورونا. موقع

نون بوست. <https://www.noonpost.com/content/36549>

(3)

عنها، أو تهميش دورها بالنسبة إلى كافة المجتمعات المتقدمة والنامية على حد سواء، في أوقات الرخاء والاستقرار، وفي أوقات الأزمات والمنازعات. فالإعلام بطبيعته له دوره المؤثر في حركة المجتمع، وحركة الانسان داخل المجتمع، ومع التقدم الهائل لوسائل الإعلام كمًّا وكيفًا، تضاعف الوقت الذي يخصصه الفرد للتعامل مع مخرجات وسائل الإعلام أو بعضها، حتى صارت وسائل الإعلام في عصرنا الحالي جزءًا من حياة المواطن⁽¹⁾.

أعطني إعلاماً بلا ضمير، أعطك شعباً بلا وعي... (جوزيف جوبلز، وزير الإعلام النازي)

يلعب الإعلام دوراً مهماً وخطيراً في الوقت ذاته، في تأثيره المباشر وغير المباشر على الرأي العام. وقد احتلت الوسائل الإعلامية بأنواعها المختلفة أهمية بالغة في عصرنا الحالي، وأصبحت مصدراً مهماً في تشكيل الرأي العام، والتغيير في مجرى الأحداث. فقد تنامت قوة الوسائل الإعلامية في كافة مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والسياسية والإنسانية، وأصبح باستطاعتها، عبر أدواتها المختلفة، التوجّه إلى شرائح المجتمع كافة، المتباينة وغير المتجانسة على صعد عدّة. وعلى الرغم من تطوّر التقنيات الإعلامية، وانتشار الفضائيات العربية والأجنبية، ماتزال وسائل الإعلام المحلية بكافة أنواعها، والجنبية والوالفي كالصحف والقنوات الإذاعية والتلفزيونية، هي الأساس الذي يلجأ إليه المواطن للتعرف على آخر الأخبار، كونها تعبّر عن مجتمع هذا المواطن، وهي صوته الذي ينشر من خلالها استغاثاته وحاجاته ومتطلباته وطموحاته. ولن تستطيع أي وسيلة إعلامية غريبة أن تحلّ محلّها، وأن تمنح هذا المواطن المساحة التي يحتاجها للتعبير عن مكنوناته، سلباً أو إيجاباً، خصوصاً إن تعدّدت الوسائل الإعلامية في البلد الواحد. وكانت كل وسيلة إعلامية تعبّر عن مجتمع ما داخل هذا البلد، فيعتبر نفسه، أي هذا المواطن، لصيقاً بقناة دون الأخرى. وتطمح هذه الوسائل الإعلامية أن تكون عبارة عن إعلام بديل، يصفه رفائل رنكغليولو (Rafael Rancagliolo) قائلاً: «إن البديل هو ما يدافع عن الهوية الثقافية ضد صيرورة أحداث التجانس الكوني الذي يُشيد في كلّ مكان من المعمورة؛

(1) سويقات. ل. (2009/2010). الإعلام المحلي وأبعاده التنموية في المجتمع. دراسة وصفية تحليلية للخطاب الإعلامي.

شهادة الماجستير في علوم الإعلام والاتصال. كلية العلوم الاجتماعية في جامعة وهران في الجزائر. ص 1

(قرية ماك لوهان العالمية) التي تختفي وراءها السوق الشاملة⁽¹⁾.
إذًا، لعب الإعلام، في ظل عصر الأزمات الذي يعيشه العالم، دورًا مهمًا في
جائحة كورونا. وقد تضاعفت مسؤولية الإعلام، وأصبح من أهم الأطراف الفاعلة
والمؤثرة في إدارة هذه الأزمات.

ولكن السؤال الذي يطرح: كيف تعامل الإعلام مع جائحة كورونا؟
الإعلام في ظل أزمة كورونا:

بذل العديد من الأطراف جهودهم في مكافحة فيروس كورونا؛ وقد شكّل الإعلام
الحجر الأساس في إدارة هذه الأزمة، ودعم جهود الدولة في محاولة احتوائها، والحدّ
من عدد الإصابات والتبغات المترتبة عليها. وقد ازدادت أهمية التغطية الإعلامية
للوباء مع ازدياد نطاقه، سواء محليًا أو دوليًا. حيث يتابع الجمهور على اختلاف
مبادئه وانتماءاته، أكان مواطنًا بسيطًا أو سياسيًا نافذًا، تطورات الوباء عبر وسائل
الإعلام.

ومن الجدير ذكره، أنّ الإعلام يلعب، في وقت الأزمات وفي حالات الطوارئ، دورًا
حاسمًا في نشر المعلومات اللازمة للمساعدة في احتواء الأزمة. ومن الضروري توفير
المعلومات الموثوقة لمساعدة وسائل الإعلام على نشرها في أسرع وقت ممكن. فقد
يسمح نقص المعلومات الموثوقة «للأخبار الكاذبة»، والمعلومات المضلّلة، بالتأثير
على الرأي العام، وزيادة حالة الارتباك والغموض التي يعيشها المواطن، وبالتالي،
تؤثر سلبيًا على حياته.

ففي وقت الأزمة، على وسائل الإعلام أن تبقى على أهبة الاستعداد لمواجهة كافة
سيناريوهات الوباء، والاستجابة سريعًا للتحديات والأحداث التي تتوجب ردة فعل
فورية، من خلال تفعيل الوظائف التالية: التحذير، كسب التأييد، التعاطف، محاربة
الشائعات، طمأننة الجمهور، مناقشة وتقييم جهود إدارة الأزمة، والكشف عن جوانب
القصور، وتحديد الدروس المستفادة بعد انحسار الأزمة⁽²⁾.

وتساهم الإدارة الإعلامية الجيدة في إدارة الأزمات بالشكل المناسب، وعلى وسائل
الإعلام أن تقدّم للجمهور المعلومات الموثوقة بطريقة مناسبة، وتعمل وفق ضوابط

(1) د. نصر الدين العياضي، إشكالية المحلي في علاقة وسائل الاتصال بالمجتمع، المجلة الجزائرية
للإعلام، ع15، الجزائر، 1997، ص40.

(2) مصطفى. هـ. (2018). الإعلام ومواجهة الإرهاب: استراتيجية إعلامية ودليل ممارسة مهنية. دار العربي. القاهرة.

محدّدة(1):

- مدّ الرأي العام بالمعلومات الدقيقة عن الأزمة والحقائق ذات الصلة.
- التعامل بموضوعية مع الأزمة وعدم تغليب العاطفة.
- نشر المعلومات المؤكدة بسرعة لمواجهة الشائعات واحتواء الآثار الناجمة عنها.
- عدم حجب المعلومات أو إخفائها عن الرأي العام، بحيث تكون وسائل الإعلام هي صلة الوصل بين المسؤولين والرأي العام.
- الإحاطة بكافة المعلومات الممكنة عن الأزمة، وتناولها من زوايا مختلفة، بهدف تكامل المعلومات المقدمة.
- متابعة تطوّرات الأزمة، وتسليط الضوء على المعلومات الجديدة وعلى تداعياتها في كلّ مرحلة.
- عرض التقارير والنشرات والتحليلات لرصد الأزمة وتطوّراتها.
- السماح للجمهور بالتعبير عن رأيه في الأزمة، وتلبية حاجته إلى فهمها ومعرفة أبعادها المختلفة.
- عرض وجهات النّظر المختلفة من دون تحييز، مع إتاحة الفرصة للحوار والنفاش. ويؤدي الإعلام في وقت الأزمات وظيفتين(2):
- الوظيفة الأولى: أن يكون الإعلام انعكاسًا لمجتمع الأزمة: يعني أن يعكس الإعلام نبض المجتمع واحتياجاته، ويعبّر عن آماله وتطلعاته وهمومه وقضاياها بصدق وشفافية، مما يجعله محل الاهتمام والانجذاب، ويصبح مصدرًا موثوقًا للمعلومات يمكن التعويل عليه، والتسليم بما يعرضه.
- الوظيفة الثانية: أن يكون الإعلام موجّهًا لمجتمع الأزمة: يعني أن يعكس آراء قادة المجتمع، ويلبي طموحاتهم وتطلعاتهم. فيتماهى الفرد مع صورة القائد التي يُصورها الإعلام، ويصبح الفرد أكثر من متلقٍ للرسائل الإعلامية، بل يتفاعل معها محقّقًا الهدف المرجو منها؛ كالاتمرار في سلوك معين أو الامتناع عن سلوك آخر. وبالتالي، يصبح المجتمع موحّدًا حول أفكار محددة، من دون أي تناقض بينه وبين قيادته.

(1) العك. ش. (2019). دور الإعلام في مواجهة الأزمات السياسية.

(2) مصطفى. هـ. (2018). الإعلام ومواجهة الإرهاب: استراتيجية إعلامية ودليل ممارسة مهنية. دار العربي. القاهرة.

وقد تحوّلت الوسائل الإعلامية مؤخراً، وبالتحديد مع انتشار جائحة كورونا، إلى منابر توعوية تؤدي دوراً بارزاً ومبالغا فيه، في الوقت عينه، في تشكيل اتجاهات الرأي العام في دول العالم كافة حول فيروس كورونا، وطرق مكافحته والوقاية منه، خصوصاً مع التطورات التي رافقت الفيروس يوماً بعد يوم، بعد أن كانت أغلب الوسائل الإعلامية، اللبنانية منها على الأقل، نادراً ما تهتمّ بالتوعية الصحيّة، وتخصّص لها مساحات صغيرة ودقائق معدودة. فمع إعلان أول حالة إصابة بالفيروس، دق ناقوس الخطر في العالم أجمع، وجنّدت وسائل الإعلام الكثير من برامجها ومساحاتها الإعلانية لتوعية المواطنين، من خلال الإعلانات الإرشادية الخاصة بتعليم سبل الوقاية من هذا الوباء، واستضافة أهل الاختصاص للتكلم على مخاطر الاستهتار بهذا الوباء القاتل. هذا وقد استحوذت أخبار كورونا على حيّز واسع من مقدمات نشرات الأخبار ومضمونها.

وقد كشف استطلاع أجره معهد إدلمان، من السادس إلى العاشر من آذار/مارس، أنّ أكثر من تسعين بالمئة من الإيطاليين واليابانيين والكوريين يطّلعون مرة واحدة في اليوم على الأقل على التطورات المرتبطة بالفيروس، وأكثر من نصفهم يقومون بذلك أكثر من مرة يومياً.⁽¹⁾ وبالتالي، كانت وسائل الإعلام مفيدة إلى درجة كبيرة في الحدّ من انتشار المرض، وتقليل عدد الإصابات بالفيروس بين المواطنين، من خلال التركيز على الإعلانات المتعلقة بسبل الوقاية. ولكن في المقابل، كانت وسائل إعلام أخرى تثير الرعب في نفوس المواطنين، وذلك من خلال التركيز على عدد الوفيات، والأعراض المصاحبة للفيروس، وعلى حالات الإصابة بين أفراد المجتمع، وعلى الخطر المحدق بالبشر.

على الصعيد العالمي، وبعد أن اتّهمت الصين بالمساهمة في انتشار المرض، وعدم التحذير منه منذ البداية، عمدت وسائل الإعلام الصينية إلى إبراز مدى قدرة الصين على مكافحة هذا الوباء، واتخاذ الإجراءات المناسبة للحدّ منه، مثل عزل مدينة ووهان التي انتشر منها الفيروس بالكامل، وبناء المستشفيات في سرعة قياسية لمعالجة المصابين.

أمّا على الصعيد اللبناني، فركّز الإعلام اللبناني على المواطن، وحملته مسؤولية انتشار الفيروس في ظل غياب الدولة وأجهزتها. فوجهت محطة «أل بي سي» على

(1) أزمة كورونا تشكّل اختباراً لوسائل الإعلام في العالم أيضاً. (28 آذار 2020). وزارة الإعلام في الجمهورية اللبنانية

سبيل المثال، مقدّمتها إلى المواطنين «بلا مخ» الذين لا ينفع معهم الحكمي⁽¹⁾. وفي السياق نفسه، توجهت قناة «أم تي في» إلى الشعب اللبناني بـ «إعلان حالة الطوارئ طوعاً». فقد كانت محطة Mtv السبّاقة في إعلان حالة الطوارئ في البلاد، بعد أن ارتفع عدد الإصابات إلى الآلاف، وهي لم تنتظر، أي المحطة، أن يقوم وزير الداخلية اللبناني بهذا الإعلان، وسمحت لنفسها بلعب دور هذا الأخير، مما أثار الرعب والخوف الشديد بين اللبنانيين؛ ولكن معظمهم التزم بحظر التجول غير الرسمي، إلى أن أعلن الوزير المختصّ حالة الطوارئ في البلاد بشكل رسمي وقانوني.

وفي النهاية، لا يزال فيروس كورونا هو المحور الرئيس الذي يحتل الوسائل الإعلامية، ووسائل التواصل الاجتماعي كافة، كما لا زالت قوّته تضرب بلا رحمة الاقتصاد العالمي وكل المجالات دون استثناء، ولا بوادر، حتى اللحظة، لإزالة هذا الفيروس من الوجود، كما أن «الحرب مستمرة» إلى أجل غير مسمّى، حيث عدد الضحايا في ارتفاع متزايد، ولا أحد يعلم متى تنتهي هذه الأزمة، والجميع في حالة تأهب دائم.

(1) أل بي سي. مقدمة النشرة المسائية. الشعب الـ«بلا مخ». 15 آذار 2020.

المراجع

- مرض فيروس كورونا. (٢٠٢٠/١٠/١٢). منظمة الصحة العالمية.
<https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/question-and-answers-hub/q-a-detail/coronavirus-disease-covid-19>
- مرض فيروس كورونا (كوفيد-19) كل ما تحتاجون لمعرفته لحماية أنفسكم وأطفالكم-اليونسيف.
<https://www.unicef.org/sop/ar/covid19>
- الملاحظات الافتتاحية التي أدلى بها المدير العام لمنظمة الصحة العالمية في الإحاطة الإعلامية بشأن مرض كوفيد-19 في 11 آذار/ مارس 2020. منظمة الصحة العالمية.
<https://www.who.int/ar/director-general/speeches/detail/who-director-general-s-opening-remarks-at-the-media-briefing-on-covid-19---11-march-2020>
- قلق دولي إزاء تقرير خبراء الصحة العالمية حول منشأ فيروس كورونا. (30/3/2021). DW-العربية.
- دالاتي. ي. (02/04/2020). الإعلام في زمن الوباء.. كيف أبلت الصحافة العربية والدولية في أزمة كورونا. موقع نون بوست. <https://www.noonpost.com/content/36549>
- سويقات. ل. (2009/2010). الإعلام المحلي وأبعاده التتموية في المجتمع. دراسة وصفية تحليلية للخطاب الإعلامي. شهادة الماجستير في علوم الإعلام والاتصال. كلية العلوم الاجتماعية في جامعة وهران في الجزائر. ص 1.
- د. نصر الدين العياضي، إشكالية المحلي في علاقة وسائل الاتصال بالمجتمع، المجلة الجزائرية للاتصال، ع15، الجزائر، 1997، ص40.
- مصطفى. ه. (2018). الإعلام ومواجهة الإرهاب: استراتيجية إعلامية ودليل ممارسة مهنية. دار العربي. القاهرة. ص 66.
- العك. ش. (2019). دور الإعلام في مواجهة الأزمات السياسية.
- أزمة كورونا تشكل اختبارا لوسائل الإعلام في العالم أيضا. (28 آذار 2020). وزارة الإعلام في الجمهورية اللبنانية.
- أل بي سي. مقدمة النشرة المسائية. الشعب ال«بلا مخ». 15 آذار 2020.

مراكب الموت
رانية مرعي

أيها السّففر
أعدهم إليّ
أولئك الذين لم يودّعوا الفجرَ
حملوا حقائب الفقر
وضاعوا في سراب الليل ..
لملم صدى عتابهم
وأنيبَ عبراتهم المهاجرة
واحفظ وجوهًا صامتة
ضاعت ملامحها في الغياب ..

أيها السّففر
انتظرهم على مفارق الرحيل
أخبرهم عن دروب الندم الوعرة
وأنّ العودة ستصيرُ كابوسًا
يزلزلُ مضاجع الأحلام ..
هدئ روع القدر
واتركهم يحلمون
أولئك الذين حفروا قبورهم
ودفنوا فيها أسرار العذاب ..

أَيُّهَا السَّفَرُ
سَرَقْتَ أَهْلِي بِتَأْشِيرَةٍ مَزُورَةٍ
وَتَرَكْتَنِي عَلَى شَاطِئِ الْإِنْتِظَارِ
أَوَاجُهُ زَمَنًا بِلَا قَمَرٍ
يَتَسَتَّرُ عَلَى جَرِيمَةٍ سَوْدَاءٍ ..
إِرْحَلْ عَنِ انْكَسَارَاتِنَا
وَلَا تَعْدُنَا بِالْأَسَاطِيرِ
إِرْحَلْ وَحَدِّكَ فِي مَرَاقِبِ الْمَوْتِ
وَإَتْرِكْ لَنَا أَكْفَانَنَا الْبَيْضَاءَ ..

عساك تصيرُ في يومِ يسوعي
غدير نصرالدين

تفيضُ عليّ مُعلنةً خُضوعي
تُذَلُّ إذا طُرِدَتْ بلا رجوعِ
كَمَا يُجْرِي الْفَتِيلُ دَمَ الشُّمُوعِ
بمَلْعَبِ عَابِثٍ، لَاهٍ، خَتُوعِ
وَشَيْخٍ مَدَّعٍ بَيْنَ الْجُمُوعِ
وَبَاكِ دَارَ عِبَلَةٍ فِي وُلُوعِ
وَيَا لِلْعَارِ مِنْ وَصْمِ الْخُنُوعِ
وَفِي الْعَهْدِ، رَبِّ لِلْخُشُوعِ
سَتَلْقَى الْعُصْنَ، مُزْدَجِمَ الْفُرُوعِ
سَأَكُلُ لَوْعَتِي، وَأَسُدُّ جُوعِي
دِمَاكَ جَرَعْتُهَا نَخَبَ الْوَقُوعِ
عَسَاكَ تَصِيرُ فِي يَوْمِ يَسُوعِي

دُمُوعِي بَيْنَ جُدرَانِ الصُّلُوعِ
أَلَا يَا قَلْبُ مَا يُعْيِيكَ حَتَّى
وَمَا بَالُ الْعَيُونِ إِذَا أَهْيَلَتْ
كَمَا لَوْ أَنَّ رُوحِي قَدْ أُبِيحَتْ
بِشَّوَانِ يَعْبُ الخَمْرَ سِرًّا
بِعَنْتَرَةِ المَرْوَجِ مِنْ ثَمَانٍ
فِيَا أَسْفِي عَلَيَّ وَيَا هَوَانِي
تَرَاهُ كَأَنَّهُ حَمَلٌ وَدِيْعٌ
وَلَكِنْ لَوْ تَبَدَّى طَيْفُ أَنْثَى
وَأَلْقَانِي إِذَا هَا جَ إِشْتِيَاقِي
عَلَيْكَ رَمِيْتُ مِنْ كَيْدِي وَغَيْظِي
صَلَبْتُ الحُبَّ، رَفَعْتُ الحَطَايَا

عطش الأمانى
د دلال مهنا الحلبي

لحظة خالية
خالية ممن أحب
خالية ممن أكره
أرغب بلحظة اللا شيء
في داخلي ازدحام مضمّن
يسرق مني ذاتي، يحتلني
أشعر لوهلة أني اختفيت
هناك ، في ازدحام الطلب
وسرداب العطاء
أرغب بقبولة بعيدة في جوف الليل
اسامر فيها غفوة الحياة
الحياة التي وجدت لها متسعاً للراحة بعد غفوة الشمس
أرغب أن أسير على رؤوس أصابعي
أختلس بريق نجمة
وأترحلق على قوس القمر
والأمس بقدمي نعومة السماء

- 2 -

قلمي
قلمي يحب الرقص
مرة غاضباً... مرة بائساً
مرة فرحاً... مرة ثائراً
قلمي حرّ ، حلوّ، مرّ
قلمي قبعته عنيدة
تخشى عليه ضوء الشمس

قلمي تلاحقه ممحاة
تأكل في جوفها عذب الكلمات
بينهما علاقة غريبة
قلمي يصرخ
ممحاته لا تشيع
رمى الممحاة ومشى فوق نعشه
قلمي خلع قبعته
وحدق في عين الشمس

- 3 -

هدنة
زمن الاستسلام هدنة الحياة
استريح فيها وأتأمل...
أراقب وأتعلم...
لا أبذل الجهد ولا أتألم...
زمن الاستسلام غفوة بذرة في جوف الأرض
تنمو وتعتشوشب
زمن الاستسلام محطة انتظار
هي رحلة انتظار، استمتع بها وأتأمل

- 4 -

رمادي صوت الحنين!
في ركن الذاكرة يقطن بيت
بيت بابه مفتوح...
طفلة تقف هناك
أمام دُرج رمادي...
طفلة لم تودع دفاترها الصغيرة
ولا قلم الرصاص ولا أقلام التلوين...
هناك في الزاوية فراش صغير
يأخذ قيلولته بجوار جدار زهري

جدار مثقوب بنافذة صغيرة
تتسلل منها خيوط الشمس الدافئة...
طفلة ما زالت هناك،
لم تودع دُرَجها الرمادي ولا غرفتها الوردية...
لم تودع دَرَج البيت
طفلة لم تودع دراجتها الهوائية ...
دراجتها مركونة هناك
على كتف صور السطح العالي،
طفلة تقف هناك ، تلعب فرحة ..
شعرها الناعم القصير يراقص عينيها خجلا...
سافرت عبر المكان خلسة من عيني الزمن
شربت حماس الأب وحبه للوطن،
لم تعي أنها تفقد أشياءها الصغيرة...
غرقت في لهفة العودة...
غافلة عما تركت...
ما تركت تعفن في أدراج ذاكرة الزمن
أعيها انتظار العودة... ولم تعد!
أصبح فقدان يختبئ في لا وعي الصغيرة
والصغيرة تغفو في لا وعي الشابة الكبيرة
صوت الحنين يخفي ألم فقدان...
فقدان المسرح الجميل،
فقدان جعل الطفلة مراهقة حاملة ورومانسية..
تائهة مشتتة في عالمها الجديد...
اليوم كشفت سر الرمادي
اليوم أقفل باب البيت العتيق
و بدأت رحلة جديد!!!


قصيدة «يا أناي»
ناصرية بغدادية العرجة

(كل عام يا وطن ..
وأنت العمر المدار/ المشتهى
رغم قهر المسافات وقلق المبتغى ..!)

ياااا...«واو» الوسم المزكى
في وحشة رسمه المعمم
حين الشهادة وبعد القر
ويااا...«طاء» طواف القبلة المشتاة
لحظة الضم وشهقة القبر
ويا «نون» نقط المنتهى
حين تماهت في نقش الرحم
تحرصها عين عباءة «كاف» المبتدى
كلما أبكاها ماء دمي ..
ويااا... «ياءط يد المدد المصفي
التي زينتي في المسمى
فازدان بها وسامة معصمي ..
كم اشتأقك كلما دق ملح الروح
مائه المعشوق من زمزم
وكفكت القلب جرحه
مكلومًا في السر أو في العلن..»

يا همس السنون الباقيات
وخفق البون المعتنق في فمي
يسألونني عنك..
وعني من أكون
كلما حضرت أو غبت أنت
في جلال الهجر وزهو السكون..
ويلبسونني فيك
ثوب السؤال في قمم..»

أنا ما خنتك أبدا..حاشا..
أو هاتفتني دونك العيون..
وما رقصت على غير
وصاياك قدمي..
خذ مني ما رغبت وما شئت
ولك فوقه فاكهة السلام
قبل ان تخنقها مسلة الظنون..
انا مملوكة لك ومليكة صرت
اترك لي فقط عبقا من ربحك
وبعضا من فمي
أفنى بهما..
ناصريتك / نيويورك 2021



Impact de la pandémie de COVID 19 sur l'émergence du Burn out chez les professionnels de santé à l'hôpital gouvernemental à Ftouh Keserwan

Dr Rita Haykal Hassoun Atallah

Abstract

Le but fondamental de notre article est de dépister le burn out chez les infirmiers diplômés et les aides-soignants qui travaillent dans le service spécialisé de malades atteints de virus covid-19 à l'hôpital gouvernemental à Ftouh Keserwan et de comparer les scores du burn out physique, psychique et cognitif entre les infirmiers âgés de plus de 35 ans qui ont une durée de travail supérieure à 5ans et les infirmiers âgés de moins de 35 ans qui ont une durée de travail inférieure à 5 ans.

Matériel et méthode

Notre échantillon est formé de 19 candidats âgés de 27 à 55 ans. Cette population a répondu à 3 questionnaires qualitativement ordonnés qui sont diffusés à l'équipe sanitaire durant une semaine selon leur programme de travail.

- Questionnaire Melamed Shirom Burnout Measurement (SMBM).
- Test d'inventaire de Burnout de Maslach (MBI).
- Echelle Hospital Anxiety and Depression Scale (HAD)

Résultat

Le résultat statistique indique que le test d'indépendance, test de Chi² X² avec un risque de 0,05 a montré que le degré de liberté $x^2 > 5,991$ pour le HAD et $x^2 > 11,07$ pour le BMI et SMBM ce qu'on va montrer au cours de notre étude.

Mots clés : coronavirus, stress, coping, burn out, professionnel de la santé.

ملخص

ان تفشي وباء الكورونا ساهم في الانهيار وفي تقادم الضغوطات المعيشية والنفسلائية والشخصانية لدى اللبنانيين وخاصة الممرضين العاملين في قسم الكورونا. ان دراستنا هذه تهدف الى تحليل نسبة الاحتراق العاطفي لدى ممرضين قسم الكورونا في مستشفى البوار الحكومي وذلك من خلال المقابلة واجراء ثلاث روائز مقننة ومتخصصة بالاحتراق النفسي.

- مقياس ماسلاش للاحتراق النفسي

- مقياس الاحتراق المهني (شيروم)

- مقياس القلق والاكتئاب في المستشفى

أظهرت نتائج التحاليل الإحصائية عن تأثير العمر ومدة العمل لدى الممرضين العاملين في قسم الكورونا في مستشفى البوار الحكومي وعلاقتهم في نسبة معاناتهم من الاحتراق العاطفي.

1- Objectif

L'objectif de cet article est d'évaluer la prévalence du burn out chez les infirmiers qui travaillent à l'hôpital gouvernemental à Ftouh Keserwan durant la pandémie de COVID-19.

2- Introduction

Le début de l'apparition de la pandémie de COVID 19 était le 16 novembre 2019 à Wuhan avant son évacion dans le monde entier.

D'ailleurs la réponse psychologique face à cette pandémie a déjà été abordée par plusieurs études, on en cite quelques unes :

A- Le vécu de la pandémie COVID-19 par les infirmiers des urgences et des soins intensifs et son impact sur la volonté d'y travailler à nouveau lors d'une prochaine pandémie.

B- Rôle de l'IDEC dans la gestion de la crise sanitaire de COVID -19 en EHPAD.

C- Impact de la crise sanitaire COVID -19 sur le rôle de l'infirmier coordinateur en SSIAD auprès du proche aidant.

La famille du coronavirus est le coronaviridae, ce virus provoque des infections respiratoires et digestives qui se développent en forme de couronne.

Les virions éjectés sont constitués d'une capsid renfermée d'un tissu et



ayant un diamètre qui varie entre 80 à 150 nm.

A l'intérieur de ces sphères il y a l'ARN (acide ribonucléique) qui se réplique dans la cellule et qui renferme le cytoplasme, la membrane plasmique et tous les organites comme le réticulum endoplasmique, les mitochondries, l'appareil de golgi, les ribosomes...

Le coronavirus peut provoquer des pathologies plus ou moins graves allant de rhume qui se développe à la période d'incubation arrivant à un syndrome respiratoire aigu et sévère (SRAS) qui peuvent aboutir à la mort des patients à cause d'un arrêt respiratoire ou d'une détresse respiratoire sévère.

En fait l'organisation mondiale de la santé (OMS) a déclaré l'accélération du nombre des malades atteints du coronavirus et même l'apparition d'un virus plus contagieux qui est le variant indien B.1.617 qui a apparu déjà au sud Afrique, Brésil et Inde.

Au Liban, en raison de la dégradation de la situation économique, politique, sociale et sanitaire avec l'accélération rapide et incontrôlable des prix y compris les médicaments, le pain, les produits combustibles c'est-à-dire tous les produits nécessaires pour la vie sociale avec dignité.

Ce choc systémique déclenché par l'épidémie internationale et vitale qui a infecté tous les niveaux politiques, économiques, sociaux, sanitaires, vitaux au Liban surtout après la catastrophe de 4 août 2020 causé par l'explosion de 2700 tonnes de nitrate d'ammonium avec le nombre de blessés et de mortalité qui a excédé la 6000 victimes.

Les professionnels de la santé sont des héros qui sont censés d'être toujours présents, en bonne santé mentalement, physiquement, cognitivement, économiquement, socialement, environnementalement et même familialement, forts, concentrés, maîtrisent les situations quelque soit la dangerosité, compétents, en contact direct et risqué avec les malades contaminés.

Notre Problématique est la suivante : quel est l'influence de l'épidémie internationale du coronavirus sur le coping des infirmiers qui travaillent à l'hôpital gouvernemental à Ftouh Keserwan ?

La première hypothèse est :

- La pandémie de COVID-19 peut émerger un épuisement professionnel chez les infirmiers qui travaillent à l'hôpital gouvernemental à Ftouh Keserwan.

La deuxième hypothèse est :

- Le non-ajustement de l'infirmier résultant d'une situation stressante peut mener à un état du burn out.

La troisième hypothèse est :

- Le stress perçu qui excède les mécanismes de défense de l'infirmier provoque un épuisement professionnel.

La relation entre le burn out et le stress

Herbert Freudenberger (1975) est le premier psychanalyste qui a décrit le terme burn out dans le sens d'épuisement professionnel lié au stress du travail.

Christina Maslach (1986) a décrit l'état d'épuisement et les attitudes cynique de point de vue psychosocial.

Selon les théories psychanalytiques le terme burn out se caractérise par quatre étapes : enthousiasme, stagnation, frustration et apathie. Cette manifestation apparaît sous forme de « 4 D » desenagement (détachement), distancing (distanciation), dulling (émoussement), et deadness (vide).

Maslach (1986) a défini le burn out comme un épuisement émotionnel chez les individus. Selon Maslache le burn out provoque une diminution de la performance et de dépersonnalisation.

Cet épuisement est généralisé, il envahie les professionnels de la santé dont leur travail exige des relations interhumaines dans des situations qui sont énormément stressantes.

Le terme burn out selon Maslach (1986) désigne aussi :

- Un épuisement physique : fatigue chronique avec des psychosomatismes et des faiblesses généralisées.
- Un épuisement émotionnel : des sentiments d'impuissance et un désespoir.

- Un épuisement mental : attitude négative envers le sujet, le travail et même la vie des professionnels de la santé.

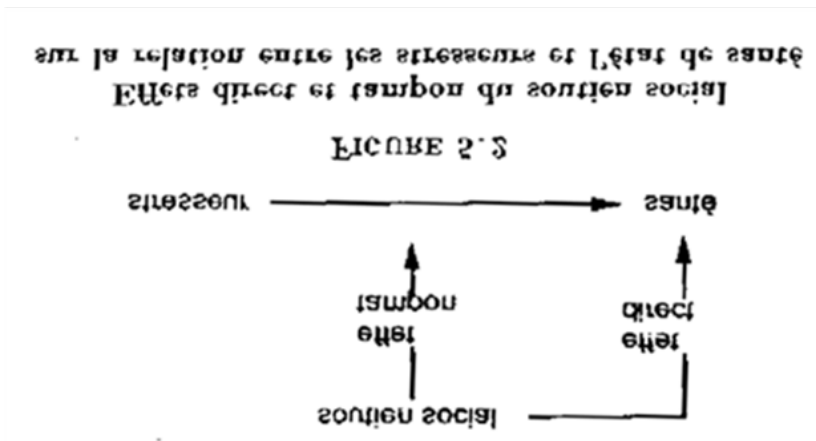
Le burn out apparaît dans les travaux des professionnels de la santé à l'hôpital gouvernemental à Ftouh Kesewan à cause de la discordance entre leur travail sous une tension émotionnelle excessive et la fatigue physique énorme liée au travail intra hospitalier.

Ce travail nécessite des compétences biologiques, neurologiques, mentales et psychologiques (le profil de ces professionnels) mais les situations de travail stressantes ont causé des traumatismes multiples et successives mènent à l'apparition des traces des dysfonctions causées par des détresses psychologiques vécus.

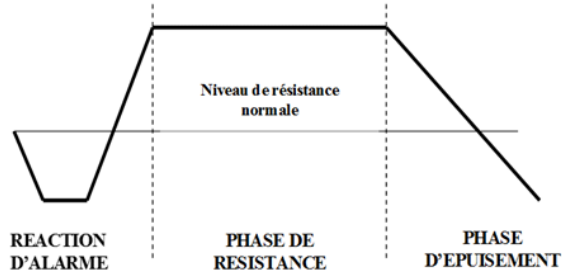
La maturité biologique de ces professionnels de santé est accomplie ainsi que la maturité neuropsychologique où ils doivent être capable de s'engager par des contrats de travail et ils doivent être responsables de ses comportements, ses attitudes, ses relations et ses interactions avec les patients atteints du coronavirus et ses relations inter et intra hospitalières.

Cependant, le prolongement des troubles vécus, qui ont produit des altérations psychiques se manifestant par des symptômes du burn out.

Selon Hans Selye (1956), le soutien social familial a un effet tampon de soutien sur la capacité du sujet de supporter les facteurs stressants.



Si le soutien social est insuffisant le sujet selon Selye (1956) tombe dans la phase d'épuisement

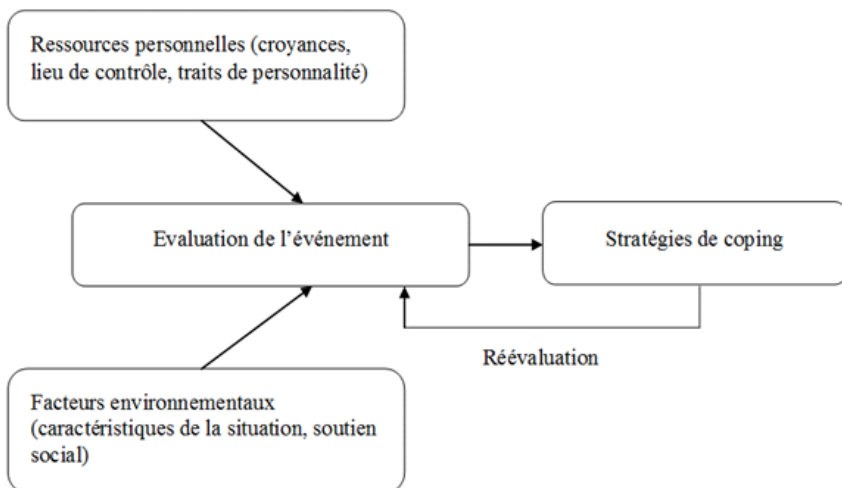



Les 3 stades du syndrome général d'adaptation (D'après Hans Selye, 1956)
Plus les sujets sont soutenus moins les pathologies mentales apparaissent.

Le coping est une méthode créée par la neuropsychologie qui analyse la réaction du sujet face à un facteur de vie négatif.

Le coping prend en considération tous les facteurs individuels (biologique, caractériels, sociales, environnementales, lieu de contrôle.)

Le schéma des facteurs de coping :





La séquence évaluation–action–réévaluation détermine l'efficacité des stratégies de coping.

Rahe et Arthur (1978) ont identifié trois filtres principaux.

Difficultés sur le plan professionnel et relationnel

Les professionnels de la santé qui présentent du burn out sont devenus désaffiliés de façon importante de leur réseau, sur les plans social, affectif et familial. Ils présentent des troubles de santé mentale. Donc, leurs compétences sociales sont réduites qui est associée à plus de difficultés d'autocritique dans les relations interpersonnelles et même familiales. Ces situations stressantes qui excèdent les réserves émotionnelles des professionnels de la santé se traduisent chez eux par un état de dysphorie et de dysfonction et exigent une aide extérieure.

Les différentes étapes du burn out chez les professionnels de la santé

- La première étape se manifeste par un déséquilibre entre les capacités du professionnels et les exigences du travail ce qui provoque des sensations de stress.
- La deuxième étape apparait par des réactions au milieu de travail (hôpital) qui est stressant. Ces réactions sont : une tension émotionnelle, une fatigue physique et corporelle et un épuisement émotionnel.
- La troisième étape est l'apparition des behaviors et des attitudes inadaptées mécaniques et automatiques.

L'accumulation de stress perçu peut émerger et provoquer un état du burn out causé par une discordance entre les attentes, les idées, les facteurs d'une part et les situations perçues stressantes d'autre part.

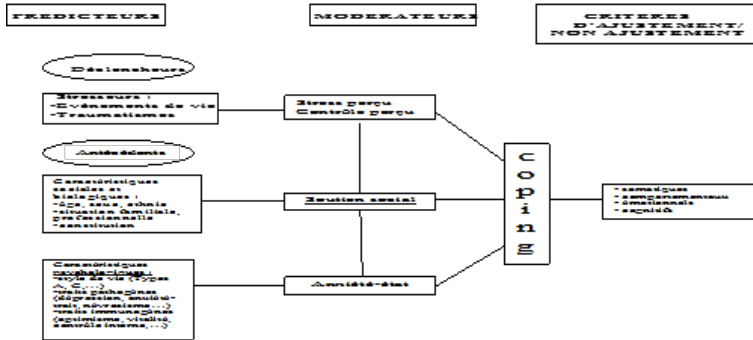
Les professionnels de la santé qui sont atteints du burn out peuvent avoir des symptômes d'agressivité et d'anxiété, une intolérance à la frustration, une irritabilité, behavior inadapté et hostile, peuvent arriver à des troubles de la concentration.

Le lien entre le stress et le coping chez les professionnels de la santé

Selon Lazarus et Folkman (1984) le coping est un ensemble de modifications comportementales et cognitives d'un individu afin de gérer une situation

perçue stressante qui excède les ressources de l'être humain.

Le coping exige une réévaluation de la situation perçue stressante des expressions affectives, d'anxiété, de peur et de colère et des comportements d'ajustements ou même de non-ajustement.



Lazarus and Folkman, stress, appraisal and coping 1984

3- Méthode

Notre étude statistique est faite le premier septembre 2021, après le consentement, l'anonymat et la confidentialité des réponses des participants. La recherche est mise en place par moi-même l'auteur de cet article.

Notre échantillon est formé de 19 personnels divisés en quatre groupes :

- Premier groupe formé de 7 staff nurses leurs âges >35 ans et leur durée de travail >5 ans
- Deuxième groupe formé de 7 staff nurses leurs âges <35 ans et leur durée de travail <5ans
- Troisième groupe formé de 2 aides-soignants leurs âges <35 ans et leur durée de travail <5ans
- Quatrième groupe formé de 3 aides-soignants leurs âges>35 ans et leur durée de travail >5 ans

Instruments_

- Le SMBM indique la fréquence de différents genres de fatigues provoqués par le vécu dur d'un travail intra hospitalier. Il contient des indices de fatigues psychique, physique, cognitif et d'apathie.
- Le MBI indique la perception qualitative du travail sanitaire, le degré d'épuisement professionnel (SEP) la capacité de gérer les relations interpersonnelles dans le milieu sanitaire, le score de dépersonnalisation (SD) et le degré d'accomplissement personnel (SAP).
- L'échelle HAD permet de montrer les troubles anxieux et dépressifs.
- **Analyse statistique**

Les 3 questionnaires sont qualitativement ordonnés, l'analyse effectuée est l'analyse comparative des moyennes (ni , n.j) selon le test d'indépendance, test de Chi2 avec un risque de 5% et analyse de degré de liberté.

Résultats et tableaux

Notre échantillon est composé de 19 participants âgés de 27 à 55 ans les moyennes et les écart types totaux sont : **Shirom** (M=56,73 ET=10,23) **Maslach** (M=79,90 ET=18,71) **HAD** (M=49,21 ET=6,22). L'échantillon totale est divisé en deux groupes : le premier groupe est formé de 10 infirmiers leurs âges > 35 ans et leurs années de travail > 5 ans les moyennes de ce groupe sont les suivantes : test de Shirom (M=32,92 ET=7,8) test de Maslach (M=43 ET=10,68) test de HAD (M=26,28 ET=5,02) , le deuxième groupe est formé de 9 infirmiers leurs âgés< 35 ans et leurs années de travail < 5 ans leurs moyennes sont : Shirom (M=23,21 ET=4,09) Maslach (M=36,9ET=9,04) HAD (M=22,92 ET=2,84).

Les moyennes de chaque participant du G1 (10 infirmiers âges > 35 ans et leurs années de travail > 5 ans) sont :

Moyenne de chaque participant	SMBM	MBI	HAD
1	3,28	4,09	2,85
2	4	4,63	2,28
3	4,57	5	2,57
4	5,35	5,68	2,92
5	3,42	4,45	2,42
6	2,42	3,31	2,85
7	4,21	4,81	3
8	1,14	3,45	3
9	1,57	3,63	2,35
10	2,21	3,86	3,57

Courbes des moyennes individuelles de chaque participant (SMBM) (MBI) (HAD) G1

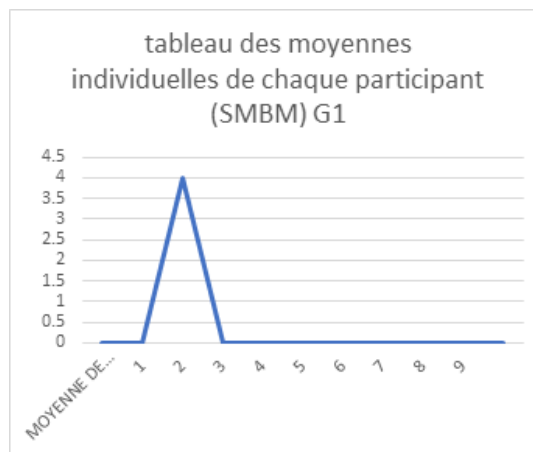
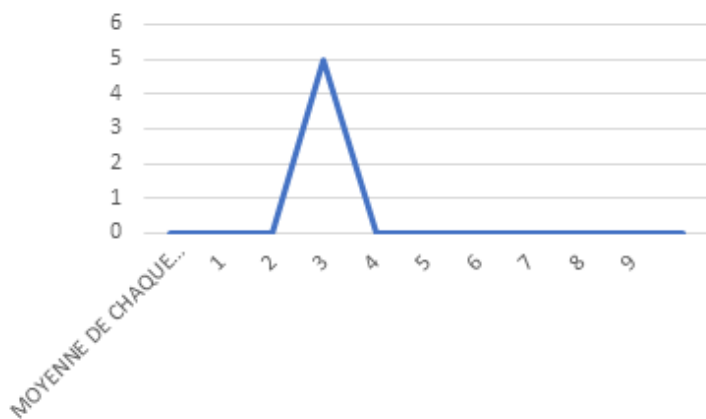


tableau des moyennes individuelles de chaque participant (MBI)



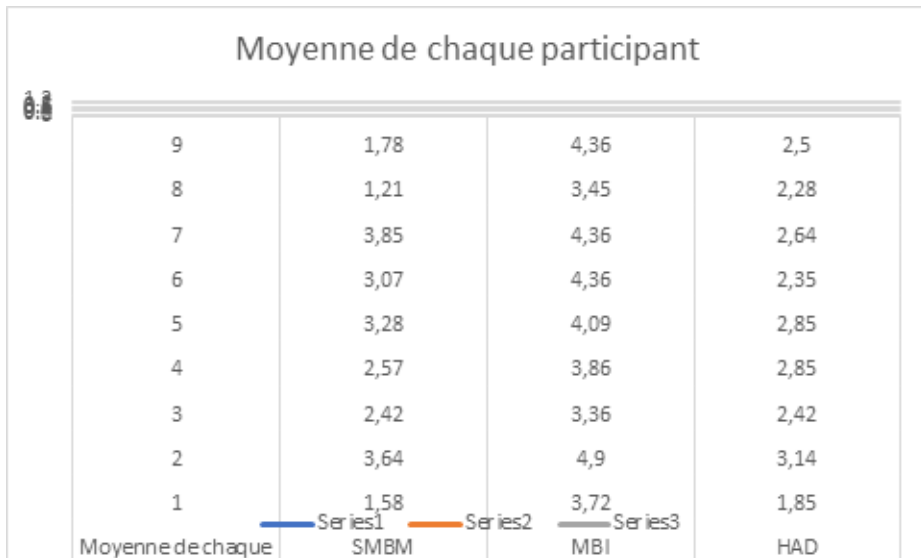
les moyennes de chaque participant
HAD



Les moyennes individuelles de chaque participant du G2 (9 infirmiers âges < 35 ans et leurs années de travail > 5 ans) sont :

Moyenne de chaque participant	SMBM	MB1	HAD
1	1,58	3,72	1,85
2	3,64	4,9	3,14
3	2,42	3,36	2,42
4	2,57	3,86	2,85
5	3,28	4,09	2,85
6	3,07	4,36	2,35
7	3,85	4,36	2,64
8	1,21	3,45	2,28
9	1,78	4,36	2,5

Tableaux G2 indiquant les valeurs des moyennes individuelles



Les résultats obtenus pour le SMBM sont présentés dans le tableau 1, pour le MBI sont présentés dans le tableau 2 et pour le HAD sont présentés dans le tableau 3 ceux qui montrent les différences significatives entre les deux échantillons.

Tableau 1-a : SMBM Groupe 1 (>35 ans et durée de travail > 5ans)

Questionnaire "MELAMED SHIROM BURNOUT MEASUREMENT"							
	Jamais 1	Tres peu fréquemment 2	Peu fréquemment 3	Parfois 4	Souvent 5	Tres souvent 6	Toujours 7
1- Je me sens fatigué (e)		6	6	4	10	6	7
2- Je n'ai aucune énergie pour aller au travail le matin	2	4	3	12		12	
3- Je me sens physiquement vidé (e)	1	4	6	12	5	6	7
4- J'en ai par-dessus la tête	2		6	8	10		14
5- J'ai l'impression que mes batteries sont à plat	2	2	3	4	10	12	7
6- Je me sens épuisé (e)	1		12			24	7
7- Je peine à réfléchir rapidement	4			12	15		
8- J'ai du mal à me concentrer	3		9	4	10	6	
9- J'ai l'impression de ne pas avoir les idées claires	3	2	3	4	10	12	

10- J'ai l'impression que je n'arrive pas à concentrer mes pensées	4	2	6	8	5		
11- J'éprouve de la difficulté à réfléchir à des choses complexes	1	4	9		20		
12- Je me sens incapable de ressentir les besoins de mes collègues et des patients	4	8	6				
13- Je sens que je ne peux pas m'investir émotionnellement avec les collègues et les patients	3	2		8	10		7
14- Je me sens incapable d'être proche de mes collègues et des patients	2	2		8	10		7

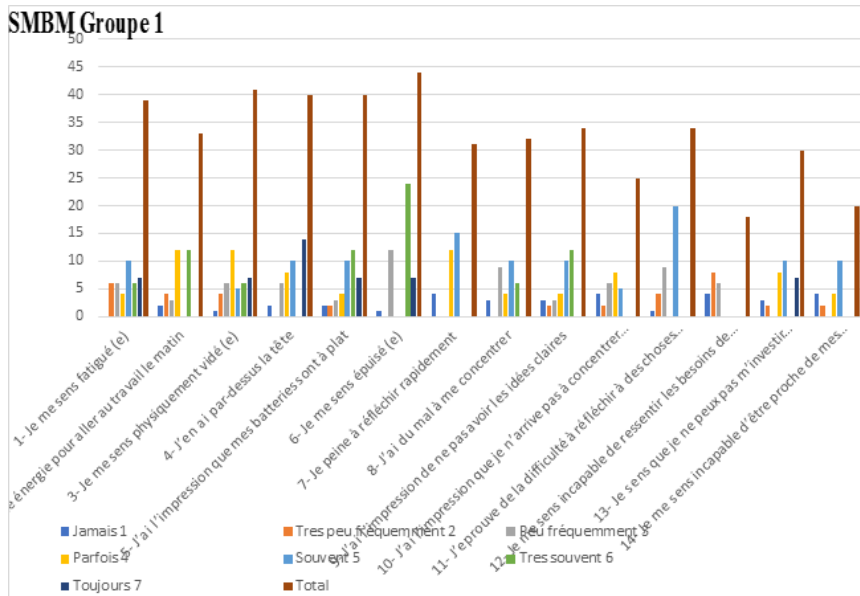


Tableau 1-b : SMBM Groupe 2 (<35 ans et durée de travail< 5ans)

Questionnaire "MELAMED SHIROM BURNOUT MEASUREMENT"							
	Jamais 1	Tres peu fréquemment 2	Peu fréquemment 3	Parfois 4	Souvent 5	Tres souvent 6	Toujours 7
1- Je me sens fatigué (e)	1	2	6	8	15		
2- Je n'ai aucune énergie pour aller au travail le matin	1	2	12	12			
3- Je me sens physiquement vidé (e)		4	9	8	5		
4- J'en ai par-dessus la tête	2	6	3	8	5		
5- J'ai l'impression que mes batteries sont à plat	5		3	12			
6- Je me sens épuisé (e)	1	4	6	10	5		
7- Je peine à réfléchir rapidement	2	2	9	8	5		
8- J'ai du mal à me concentrer	2	8	6		5		
9- J'ai l'impression de ne pas avoir les idées claires	3	2	12	4			
10- J'ai l'impression que je n'arrive pas à concentrer mes pensées	2	4	6	12			

11- J'éprouve de la difficulté à réfléchir à des choses complexes	2	6	6	8			
12- Je me sens incapable de ressentir les besoins de mes collègues et des patients	4	4	6	4			
13- Je sens que je ne peux pas m'investir motionnellement avec les collègues et les patients	3	6	3	4			
14- Je me sens incapable d'être proche de mes collègues et des patients	2	6	6	8			

SMBM Groupe 2

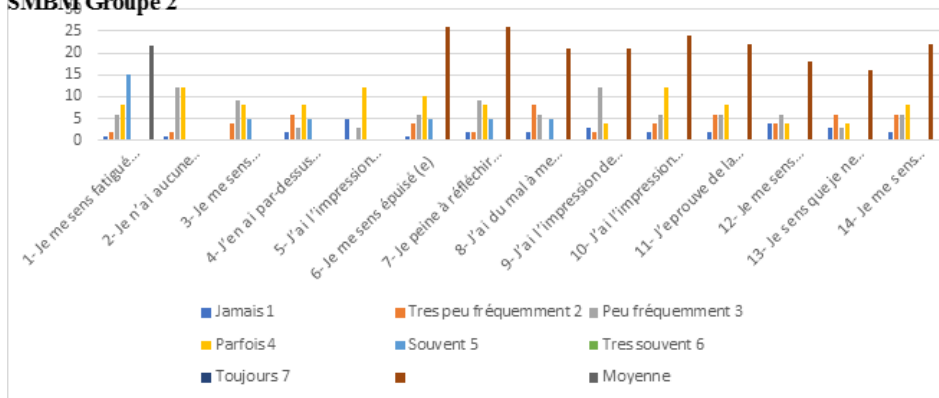


Tableau 2-a : MBI Groupe 1 (>35 ans et durée de travail > 5ans)

Test d'inventaire de Burnout de Maslach- MBI	Jamais 1	Quelques fois pas an, au moins 2	Une fois par mois au moins 3	Quelques fois par mois 4	Une fois par semaine 5	Quelques fois par semaine 6	Chaque jour 7
1- Je me sens émotionnellement vidé(e) par mon travail	2	2	3		15	6	14
2- Je me sens à bout à la fin de ma journée de travail	1	2	3		10		35
3- Je me sens fatigué(e) lorsque je me lève le matin et que j'ai à affronter une autre journée de travail	3	2	3	4		18	7
4- Je peux comprendre facilement ce que mes collègues/ supérieurs ressentent		2	3		5	12	35
5- Je sens que je m'occupe de certains clients/ collègues de façon impersonnelle, comme s'ils étaient des objets	6	4			5		7
6- travailler avec des gens tout au long de la journée me demande beaucoup d'effort	3	2	6	4		6	21

7- Je m'occupe très efficacement des problèmes des autres personnes		2		4	5		42
8- Je sens que je craque à cause de mon travail	3			4	20	6	7
9- J'ai l'impression, à travers mon travail, d'avoir une influence positive sur les gens	1			4	15	6	28
10- Je suis devenu(e) plus insensible aux gens depuis que j'ai ce travail	5	2			15	6	
11- Je crains que ce travail ne m'endurcisse émotionnellement	3		3	4	20		7
12- Je me sens plein(e) d'énergie	1	2	3		5	18	21
13- Je me sens frustré(e) par mon travail	3	2	3	4		6	21
14- Je sens que je travaille "trop dur" dans mon travail	3		3	4	10	6	14
15- Je ne me soucie pas vraiment de ce qui arrive à certains de mes collègues	4	6			5		7
16- Travailler en contact direct avec les gens me stress beaucoup	3	2	3		15		14
17- J'arrive facilement à créer une atmosphère détendue avec mon entourage professionnel		4	3	4	5	6	28

18- Je me sens ragaillardi(e) lorsque dans mon travail j'ai été proche de mes collègues		2	6	4		12	28
19- J'ai accompli beaucoup de choses qui en valent la peine dans ce travail			6			18	35
20- Je me sens au bout du rouleau	2		6		5	18	14
21- Dans mon travail, je traite les problèmes émotionnels très calmement		2	3	4		18	28
22- J'ai l'impression que mes collègues/ collaboratrices- teurs me rendent responsable de certains de leurs problèmes	5			4	5	6	14

MBI Groupe 1

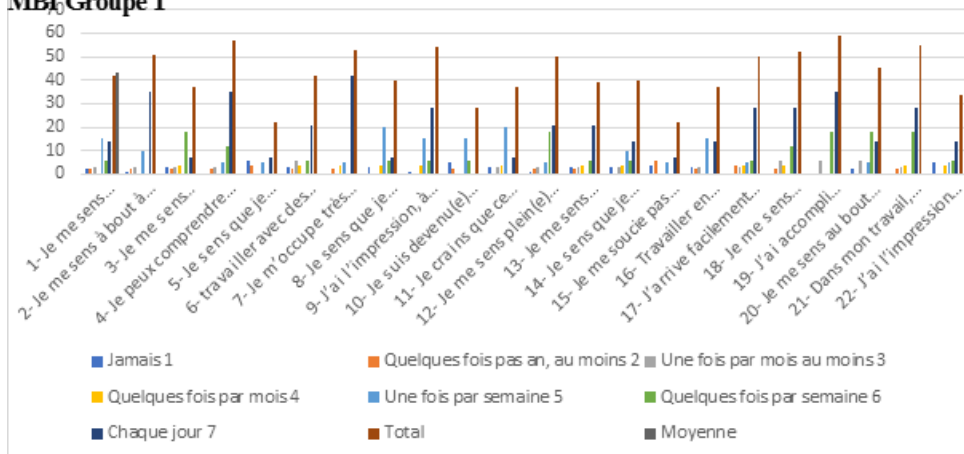


Tableau 2-b : MBI Groupe 2 (<35 ans et durée de travail< 5ans)

Test d'inventaire de Burnout de Maslach- MBI							
	Jamais 1	Quelques fois pas an, au moins 2	Une fois par mois au moins 3	Quelques fois par mois 4	Une fois par semaine 5	Quelques fois par semaine 6	Chaque jour 7
1- Je me sens motionnellement vidé(e) par mon travail	2		6	8	10	6	
2- Je me sens à bout à la fin de ma journée de travail	2		6	8	10	6	
3- Je me sens fatigué(e) lorsque je me lève le matin et que j'ai à affronter une autre journée de travail	1	2	3	12	5	12	
4- Je peux comprendre facilement ce que mes collègues/ supérieurs ressentent			3		10	12	28
5- Je sens que je m'occupe de certains clients/ collègues de façons impersonnelle, comme s'ils étaient des objets	6			4	5		7
6- travailler avec des gens tout au long de la journée me demande beaucoup d'effort	2			16	5		14

7- Je m'occupe très efficacement des problèmes des autres personnes	1				20		28
8- Je sens que je craque à cause de mon travail	2	2	9		5	6	7
9- J'ai l'impression, à travers mon travail, d'avoir une influence positive sur les gens				4	20	6	21
10- Je suis devenu(e) plus insensible aux gens depuis que j'ai ce travail	3	2		4	5	12	7
11- Je crains que ce travail ne m'endurcisse émotionnellement	2	2	3	8	10		7
12- Je me sens plein(e) d'énergie	1		3	8	5	12	14
13- Je me sens frustré(e) par mon travail	2		9	4	5	12	
14- Je sens que je travaille "trop dur" dans mon travail	2	2	3	12	5	6	
15- Je me soucie pas vraiment de ce qui arrive à certains de mes collègues	2	6	6	4	5		
16- Travailler en contact direct avec les gens me stress beaucoup	1		6		15	6	14

17- J'arrive facilement à créer une atmosphère détendue avec mon entourage professionnel		2	3	4	10	12	14
18- Je me sens ragaillardi(e) lorsque dans mon travail j'ai été proche de mes collègues			3	12	5	6	21
19- J'ai accompli beaucoup de choses qui en valent la peine dans ce travail		2	3	3	5		35
20- Je me sens au bout du rouleau	4		3	4	10	6	
21- Dans mon travail, je traite les problèmes émotionnels très calmement		6	3		10	12	7
22- J'ai l'impression que mes collègues/ collaboratrices- teurs me rendent responsable de certains de leurs problèmes	2	2	6	4	10	6	

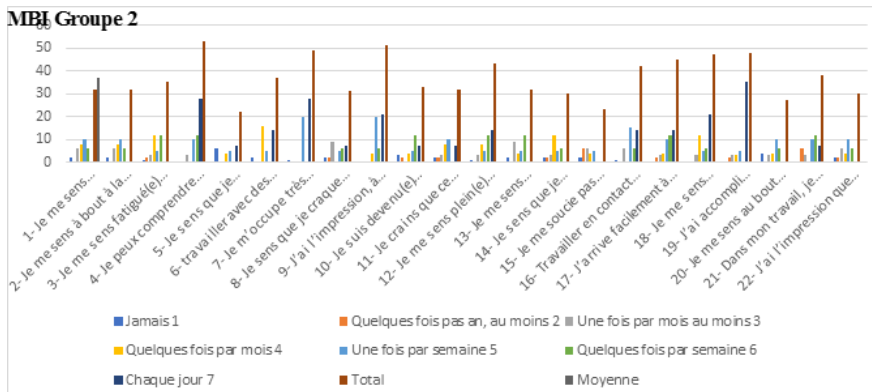


Tableau 3-a : HAD Groupe 1 (>35 ans et durée de travail> 5ans)

Questionnaire HAD: Hospital Anxiety and Depression scale				
	Très souvent 1	Assez souvent 2	Parfois 3	Jamais 4
1- Je me sens tendu (e) ou enervé (e)	2	2	9	16
2- Je prends plaisir aux mêmes choses qu'autrefois		8		24
3- J'ai une sensation de peur comme si quelque chose d'horrible allait m'arriver	1	6	9	12
4- Je ris facilement et vois le bon côté des choses		2	9	24
5- Je me fais du souci	3	4	15	
6- Je suis de bonne humeur		4	12	16
7- Je peux rester tranquillement assis (e) à ne rien faire et me sentir décontracté (e)	1	6	12	8
8- J'ai l'impression de fonctionner au ralenti	2	8	6	8
9- J'éprouve des sentiments de peur et j'ai l'estomac noué	3	6	9	4

10- Je ne m'intéresse plus à mon apparence		2	12	16
11- J'ai la bougeotte et n'arrive pas à tenir en place	4	2	6	8
12- Je me réjouis d'avance à l'idée de faire certaines choses		6	9	12
13- J'éprouve des sensations soudaines de panique	2	4	9	4
14- Je peux prendre plaisir à un bon livre ou à une bonne émission de radio ou de télévision	1	4	12	4

HAD Groupe 1

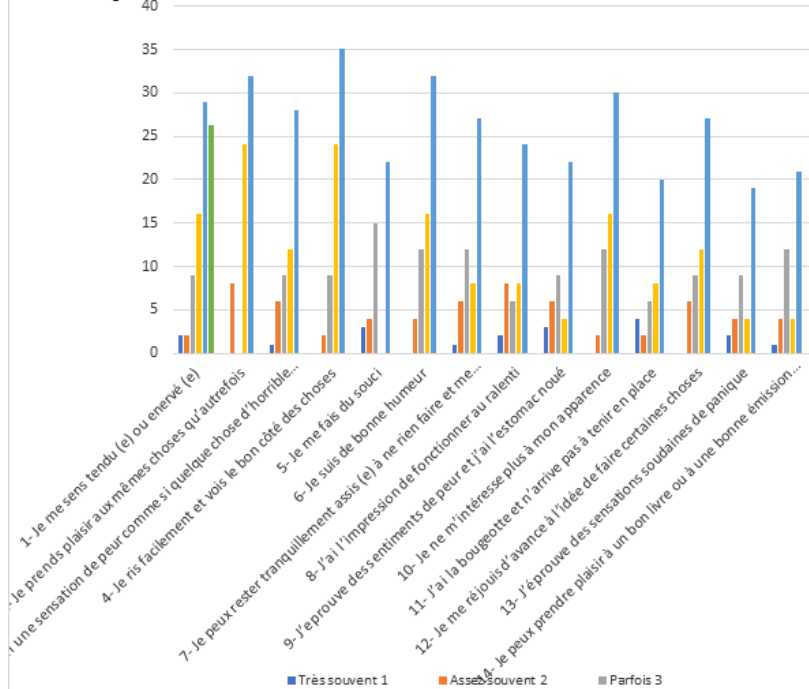
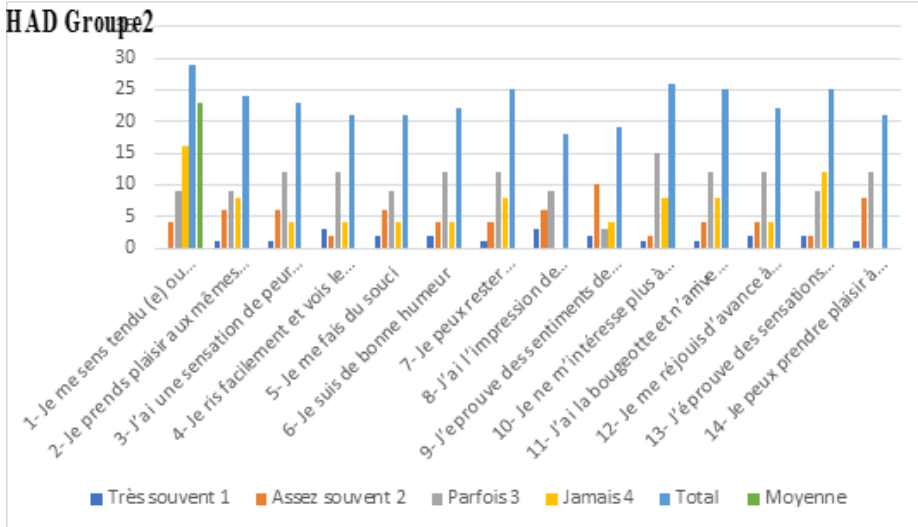


Tableau 3-b : HAD Groupe2 (<35 ans et durée de travail< 5ans)

Questionnaire HAD : Hospital Anxiety and Depression scale				
	Très souvent 1	Assez souvent 2	Parfois 3	Jamais 4
1- Je me sens tendu (e) ou enervé (e)		4	9	16
2- Je prends plaisir aux mêmes choses qu'autrefois	1	6	9	8
3- J'ai une sensation de peur comme si quelque chose d'horrible allait m'arriver	1	6	12	4
4- Je ris facilement et vois le bon côté des choses	3	2	12	4
5- Je me fais du souci	2	6	9	4
6- Je suis de bonne humeur	2	4	12	4
7- Je peux rester tranquillement assis (e) à ne rien faire et me sentir décontracté (e)	1	4	12	8
8- J'ai l'impression de fonctionner au ralenti	3	6	9	
9- J'éprouve des sentiments de peur et j'ai l'estomac noué	2	10	3	4
10- Je ne m'intéresse plus à mon apparence	1	2	15	8
11- J'ai la bougeotte et n'arrive pas à tenir en place	1	4	12	8
12- Je me réjouis d'avance à l'idée de faire certaines choses	2	4	12	4
13- J'éprouve des sensations soudaines de panique	2	2	9	12
14- Je peux prendre plaisir à un bon livre ou à une bonne émission de radio ou de télévision	1	8	12	



4- Conclusion

Cette étude apporte de nouvelles données sur l'impact psychologique de la COVID sur l'émergence du burnout dans les deux échantillons qui ont des caractéristiques spécifiques. Les différences observées indiquent que les infirmiers les plus exposés (durée de travail) et les plus âgés (âges >35 ans) peuvent avoir un épuisement psychologique, physique, cognitif et émotionnel beaucoup plus que les infirmiers plus jeunes qui ont des années de travail < 5ans. Le degré de liberté 2 a un $x^2 > 5,991$ pour le test de HAD et le degré de liberté 5 a un $x^2 > 11,07$ pour les deux test (MBI et SMBM) donc on accepte la dépendance avec un risque de 0,05. On conclut que nos hypothèses sont vérifiées et les soignants les plus touchés doivent être identifiés pour une prise en charge adéquate.

Enfin, on pose une question pour des études statistiques plus étendues concernant les soignants de la sante au Liban. Quelles sont donc les conséquences de cette pandémie sur la santé mentale de tous les personnels dans tous les hôpitaux du Liban ?

5-Bibliographie

Ouvrages généraux

EY H. (1987), Manuel de Psychiatrie, Paris, Masson.

WIDLOCHER D et all, (1994), Traité de psychopathologie, Paris, PUF.
 Dictionnaires

BERNARD GOLSE SOPHIE DE MIJOLLA, DE MIJOLLA,–MELLOR,
 ROGER PERRON.,(2005), Dictionnaire International de la Psychanalyse,
 Paris, Hachette, Vol. I,II.

LAPLANCHE.J ET PONTALIS,J–B.,(1998),Vocabulaire de la psychanalyse,
 Paris, PUF.

REY A, LE ROBERT., Dictionnaire Historique de la Langue Française.
 THUILLIER J.,(1997), La folie, histoire et dictionnaire, éditions Robert
 Laffont, collection bouquins, 1996, Hachette Livre.

Histoire

FOUCAULT,M.,(1972), Histoire de la folie, Paris, Gallimard. p.50
 FOUCAULT,M.,(1980), Histoire de la clinique, Paris, PUF. p. 128–133

Ouvrages introductifs

ALFRED , BINET, Ecrits populaire de psychologie (2012).Paris, Harmattan.
 p. 38

LAGACHE,D .,(1962), l'unité de la psychologie, Paris, PUF. p. 155– 184
 M.R. MORO, C. LACHAL.,(1997) Introduction aux psychothérapies,
 éditions Nathan Université, collection 128. p. 197

MASLACH,C et col. (2006). Burn–out:l'épuisement professionnel.
 Presses du belvédère. p. 142

PERRON,R,(1997),La pratique de la psychologie clinique, Paris, Dunod.
 p. 33

Ouvrages sur l'entretien.

COLLETTE CHILAN,(1983) ,l'entretien clinique, Paris, PUF. p. 251–264

Ouvrages majeurs à consulter

ABRAHAM, K, (1907–1925), Œuvres complètes I,et II,Paris,Payot, 1965–
 1966.p. 101

ABRAHAM, MASLOW, Motivation and Personality.,(1954) Trad. : Devenir
 le meilleur de soi–même : besoins fondamentaux, motivation et personnalité,
 Eyrolles, coll. « Éditions d'Organisation », 2008. p. 15–16

SAMI-ALI,S(2003) Corps et âme, Pratique de la théorie relationnelle, Paris Dunod. p.48

ANZIEU. D, (1984)., Le groupe et l'inconscient. L'imaginaire groupal.. Collection Psychismes, Editions Dunod. p.170-171

ANZIEU. D, (1988)., Le Psychodrame: Une approche psychanalytique, et al. Dunod. p. 421-443

ANZIEU. D et J.Y. Martin(2004) ., La dynamique des groupes restreints. p. 230

BALINT MICHAEL, (1980.) Le Médecin, son Malade et la Maladie, Paris-Payot.p.51-57

BERGERET J, (1972).,Psychologie pathologique, théorique et cliniques, Paris, Masson. p. 95

BERNARD BRUSSET (2005) .Les Psychothérapies, éd. PUF, coll. Que sais-je. p.79

BURLOUX G,(2004) , Le corps et sa douleur, Paris, Dunod.p. 88

CHICAUD, M,B(1998), La crise de la maladie grave, Paris, Dunod.p.30

COTTRAUX J,(2007).,Thérapies cognitives et émotions, Paris , Masson. p. 69-83

COTTRAUX J., (2009).,TCC et neurosciences, Paris Masson. p. 209-212

ELLENBERGER H F, (1995) Médecines de l'âme, éd. Fayard. p.12

ELLENBERGER H F, (1994) Histoire de la découverte de l'inconscient, éd. Fayard, 2001. p. 449

ELLENBERGER H F,.(1955),« Psychothérapie de la schizophrénie », Traité de psychiatrie, Paris. Éd. Techniques. p.13

MAC DOUGALL, J, (1992) Corps et langage. Du langage du soma aux paroles de l'esprit, Revue française de psychosomatique, Paris, Payot. p. 69-96

MARTY, P. (1976) Les mouvements individuels de vie et de mort, Essai d'économie psychosomatique, Paris Payot. p. 18

MIERMONT, J, (2000).,Psychothérapies contemporaines : histoire,

évolution, perspective, éd. l'Harmattan, coll. Psychologiques. p. 72

MYERS DAVID G., (2004). Psychologie 7^{ème} édition –Flammarion. p. 26

NAISMITH, J., GRANT, S (2007).,The Psychotherapies, Royal College of psychiatrists, UK. p. 31

ROGERS C., ROLLO M., ALPORT G. (1971)., Psychologie Existentielle, Paris, Epi Editeurs, p.87–104

ROGERS. C., (1996)., Relation d'aide et psychothérapie, Esf. p. 143–160

ROGERS. C (2005)., On Becoming a Person: A Therapist's View of Psychotherapy (1961). Trad. : Le développement de la personne, Dunod. p. 66

ROGER M., (2009)., L'entretien de face à face dans la relation d'aide,Paris,ESF. p. 75

ROUSSILLON R., (1991)., Paradoxes et situations limites de la psychanalyse, PUF, Paris.

STORA J,B . (2006) ., La Neuro–psychanalyse, PUF. p.88

WOLF FEDIDA,M .,(2008).Théorie de l'action psychothérapeutique. Essai, Paris, p. 114

SIGMUND FREUD., (.1992.) Œuvres complètes, vol, XV, XVII, XX,Paris : P.U.F. p. 379

SIGMUND F ET BREUER.J., (1895), Études sur l'hystérie éd. PUF, 2002, p.217–310

ROBINE J.M., (1998)., Gestalt– thérapie, Paris, l'Harmattan, p. 56

SARRON C. (1993). Précis de thérapie cognitive, Paris. Dunod, p.12

Le cheminement initiatique d'une jeunesse perdue dans Beyrouth la nuit de Diane MAZLOUM

Dr Ghina EL SAYED¹

Université Libanaise

INTRODUCTION

Diane Mazloum, écrivaine d'origine libanaise, est née à Paris et a grandi à Rome où elle y a fait toute sa scolarité dans une école française. En 2009, elle publie un récit graphique, *Nucléus en plein cœur de Beyrouth City*, puis elle publie, aux éditions Stock, son premier roman intitulé *Beyrouth la nuit*. L'auteure nous fait pénétrer dans un univers étrange, onirique, où évoluent six personnages bercés par la lumière des néons et la musique de la nuit beyrouthine. Beyrouth, ville à mille visages, est à l'image du Phénix qui renaît de ses propres cendres. Cette ville qui a subi des guerres et des périodes agitées a connu simultanément des moments de résurrection. La mort et la vie s'y mêlent pour lui attribuer une identité ambiguë, intensifiant son mystère et sa particularité. Dans le roman de Diane MAZLOUM, *Beyrouth la nuit*, Beyrouth est le cadre spatial où la vie des protagonistes va changer durant une nuit singulière, animée par la coupe du monde 2010. Les personnages principaux sont des jeunes désorientés, dans leur trentaine : Marylou, Kamal, Anis, Zalfa, Olivia et Osman. Ils sont des âmes errantes qui cherchent à s'incarner dans une identité rassurante. L'agitation de la ville, allant d'une sécurité précaire à une vie nocturne faite de soirées interminables dans les bars de Gemmayzeh, ou du centre-ville, ou simplement passée au clair de lune dans les ruelles de l'Achrafieh, reflète la perturbation identitaire de chacun des protagonistes. Chacun d'eux cherche à franchir le seuil de la maturité dans la quête d'une nouvelle destinée. Dans ce but, l'initiation s'effectue de plusieurs manières. Entre l'errance dans le passé, l'errance interne, l'errance dans l'espace urbain et l'errance onirique, les protagonistes vivent des expériences qui leur permettent de fouiller au plus profond de leur psyché pour permettre la réémergence d'un nouveau « moi ».

Dans ce roman de Diane MAZLOUM, nous étudierons la quête identitaire des personnages dans l'espace d'une nuit initiatique où plusieurs éléments servent dans le processus de l'initiation. Comment chacun des personnages effectue-t-il son chemin libérateur ? L'aboutissement de la quête identitaire aide-t-il à retrouver le « moi » originel ? Nous essayerons, en recourant à une approche thématique, d'analyser le parcours initiatique

(1) Professeur de littérature française à l'Université Libanaise, section V

emprunté par les personnages et les éléments qui les aident à dépasser leurs attaches égotiques pour libérer leur identité. Nous n'hésiterons point à nous recourir aux travaux de l'anthropologue Sélim Abou pouvant éclaircir l'évolution identitaire.

1. Identités perdues

Les protagonistes appartiennent à une société aisée et l'espace de l'action se déroule entre le centre-ville, Gemayzé et Achrafieh. Les personnages sont issus d'un milieu social plutôt favorisé, représentatif d'une société caractérisée par « *un mélange d'ouverture d'esprit, valeurs traditionnelles, culte de la liberté individuelle et d'esprit de famille* »¹. Durant une seule nuit toutes les destinées changent. Chacun fouille dans différents espaces pour se retrouver et édifier un nouveau « moi ».

1.1. Les images de l'intimité dans un espace nocturne

Les personnages appartiennent à une jeunesse menant une vie frivole et essayant de se mouvoir dans le vaste monde sans attaches et sans soucis. Ils s'agrippent à une vie nocturne rutilante dans les rooftop bars de Beyrouth « *le Skylounge* »², « *le Tek ou le Red* »³ ou dans les bars enfumés de Gemmayzeh où se trouve « *cette enfilade de pubs et de restos-bars (...) de la techno, de la pop arabe* »⁴. Beyrouth, avec son foisonnement est le centre autour duquel gravite la vie des personnages. Anis, vivant seul dans son appartement, comble la solitude de la nuit par des sorties nocturnes. Il éprouve le besoin d'« *aller se perdre dans la ville, la nuit. Rejoindre la foule, les lumières et la musique. Envie de mouvement et d'alcool* »⁵. La ville est un centre animé. L'être humain a cette volonté de clarté qui tend à abolir la nuit. Si la lumière solaire « *meurt chaque soir* »⁶, l'homme perpétue la lumière durant la nuit et par conséquent le paysage urbain, éclairé artificiellement, permet de régénérer la vie. Dans cet espace éclairé, la musique est un élément vital: « *Bachelard voyait dans le rythme une promesse de libération inscrite*

(1) <https://www.agendaculturel.com>. Une nuit à Beyrouth : Plongeon dans la galaxie de Diane Mazloum, Lou Mamalet, Agenda culturel.

(2) MAZLOUM, Diane, Beyrouth la nuit, Le Livre de Poche, Paris, 2015, p.25

(3) Ibid, p.62

(4) Ibid., p.139

(5) Ibid., p.62

(6) CHEVALIER, Jean, GHEERBRANT, Dictionnaire des symboles, Alain, Ed. Robert Laffont/Jupiter, Bouquins, Paris, 2005, p.586

dans le « destin vertical » de l'être humain »¹. Tous les éléments sont les agents d'une euphorie recherchée par le personnage au sein de la ville.

L'espace nocturne de la ville est déclencheur d'une intimité qui rassure certains personnages. En traversant la ville le soir, Marylou entre en fusion avec l'espace : « À Beyrouth, quand le soir vient et que l'humidité monte (...) des pousses tendres jaillissent du bitume et de la terre, des éclaboussures de mousse perlent sur la façade des immeubles. Une légère brise passe, les plantes se dressent (...) et de jeunes palmiers sauvages surgissent entre les buildings »². Beyrouth, un espace d'intimité, se métamorphose la nuit pour passer de l'inanimé à l'animé. La ville devient la projection intérieure du personnage qui trouve en elle le prolongement de son existence. Les éléments qui composent le paysage « des pousses tendres », « des éclaboussures de mousse », « les plantes » et « de jeunes palmiers », donnent à la ville une énergie vitale par la présence végétale et reflètent une âme jeune qui fraie son chemin entre les formes rigides qui caractérisent la ville. La plante, comme « premier degré de la vie, symbolise la naissance perpétuelle »³, attribue à la ville le pouvoir de régénérescence. L'âme épuisée du personnage trouve dans cet espace nocturne un miroir de son âme qui se régénère avec l'émergence de la nuit qui, selon Durand, est « le royaume même de la substance, de l'intimité de l'être »⁴. La végétation, dans un espace synthétique, signe d'une vitalité, entre en fusion avec l'âme du personnage donnant un aspect tranquillisant et intime au paysage urbain nocturne. D'après Bachelard : « La vie végétale, si elle est en nous, nous donne la tranquillité du rythme lent, son grand rythme tranquille »⁵. Lorsque l'homme est dans l'espace, l'espace devient vivant, il s'anime par l'activité même de son occupant ; si l'homme le quitte, l'environnement se retrouve inanimé. Ainsi, l'homme et l'espace sont-ils inséparables, l'un ne peut vivre sans l'autre. Marylou a l'impression que « ce n'est pas la colline qui frissonne, c'est Beyrouth qui bruise à la tombée du soir »⁶. L'emploi de « frissonne » et « bruise » attribue une âme à la ville, reflet de l'énergie qui anime le personnage. L'évasion nocturne des personnages est en harmonie

(1) LASSUS, Marie-Pierre, *Gaston Bachelard musicien: Une philosophie des silences et des timbres*, Presses universitaires Septentrion, Paris, 2010, p. 74

(2) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.15

(3) CHEVALIER, Jean, GHEERBRANT, op.cit., p. 764

(4) DURAND, Gilbert, *Les Structures anthropologiques de l'imaginaire*, Dunod, Paris 2002, p.250

(5) BACHELARD, Gaston, *L'Air et les songes. Essai sur l'imagination du mouvement*, Librairie José Corti, Paris, 1990 p.257

(6) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.15

avec le rythme animé de la ville, elle reflète le besoin de s'élancer dans une vie d'insouciance et d'extase permanente.

1.2. L'illusion identitaire

La vie menée par les personnages jusqu'à la nuit du « 23 juin 2010 »¹ connaît un tournant à partir de cette date. La quête identitaire par les personnages commence lors de prise de conscience de la vanité de leur vie. Leur identité est à l'image de la ville souffrant d'une grande instabilité tout au long de son histoire. L'individu est le fruit de son milieu, il « est façonné, pour une part, par son entourage »². Durant l'errance spatiale, une errance temporelle a lieu. Beyrouth s'avère une ville où cohabitent le passé et le présent. De la fenêtre d'une chambre d'hôtel, le « Blue Grey », Yves, l'ami de Marylou, contemple le paysage extérieur l'emportant dans un voyage panoramique dans l'histoire du Liban : « le front de mer avec un soleil couchant (...) la baie et la montagne (...) Le port, les ruines phéniciennes, les bâtisses de toutes les couleurs restaurées dans le style colonial hérité du mandat français (...) l'ossature figée de l'Holiday Inn à l'extrême gauche »³. Tous les éléments distinctifs du Liban y figurent, entre nature variée et histoire chargée de différentes civilisations, « phéniciennes » et « français[e] », créant la diversité culturelle chez les libanais qui se répartissent sur « trois niveaux d'ethnicité nettement distincts et analysables en termes d'héritages culturels déterminés »⁴. Cette diversité a été pervertie, causant l'éclatement de la guerre civile dont « l'ossature de l'Holiday Inn » est le témoin. Cet hôtel qui garde les traces de la guerre « reste une coquille vide, offrant aux touristes le triste spectacle de ses murs parsemés d'impacts de balles »⁵. La société est encore marquée par l'ombre de la guerre civile planant toujours et la situation sécuritaire reste précaire: « Ils cherchent à semer la zizanie entre chiites et sunnites... Les chrétiens ne sont pas plus à l'abri. Ça ne suffisait pas, la vague d'assassinats politiques et d'attentats ciblés, il faut aussi qu'ils s'en prennent aux civils (...) ça peut exploser n'importe où, n'importe

(1) Ibid., p.12

(2) ABOU, Sélim, *L'identité culturelle, relation interethnique et problèmes d'acculturation*, Ed. Anthropos, Paris, 1980, p.46

(3) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.30

(4) ABOU, Sélim, op.cit., p.47

(5) <https://www.lejournalinternational.fr>, Salomé, IETTER, *Beyrouth : Cicatrices de guerre (1/2)*, Le Journal International, Archives, 1 Septembre 20015

quand »¹. L'insécurité dans laquelle vivent les personnages fait partie de leur quotidien. Une histoire d'insécurité crée des personnages désorientés, perdus affectivement. L'imaturité affective chez les personnages est le reflet d'une identité qui se cherche dans une ville où le passé désastreux pèse sur leur présent. Ces jeunes « font partie de (...) la génération de ceux qui sont nés pendant la guerre. (...) Ils en portent tous les séquelles:(...) identité plurielle et manque de sentiment d'appartenance, manque de repères, manque de confiance en l'avenir, ils vivent dans des bulles »². Chez chacun des personnages, l'échec affectif se manifeste différemment. Marylou est tourmentée par des relations amoureuses qui n'ont pas pu avoir une heureuse clôture : « Quand je pense à l'énergie gaspillée à couvrir [mes amours mortes] ... Et le temps ! Ne parlons même pas du temps perdu à fignoler cette boîte [contenant les souvenirs de ses amours] et à radoter en secret. Cette nécessité de les posséder...»³. L'attachement à ses amours révèle le besoin qu'avait Marylou à donner un sens à sa vie et à exister à travers ses relations amoureuses. L'image du lien associé au temps se manifeste à travers les verbes: «couvrir», « fignoler », « radoter » et « posséder ». Le lien est, selon Durand, « l'image directe des « attachements » temporels, de la condition humaine liée à la conscience du temps »⁴. L'attachement à ses amours passées a enchaîné Marylou dans les mailles d'un temps qui n'évolue pas. C'était vivre dans l'illusion qui a mené à la prise de conscience du « temps perdu ». Pour Osman, un des amoureux anciens de Marylou, son amour obsessionnel pour Sévine, jeune ballerine de grande renommée, le rend prisonnier de cette relation : « Aimanté par une force implacable, il la frôlait de tout son corps sans vraiment la toucher. Elle, pas un mot, pas un geste »⁵. Sévine apparaît sous l'image de la femme fatale qui enchaîne Osman dans les mailles de sa séduction au point de lui extirper l'âme : « Il trouve soudain la chair, molle, presque visqueuse tel le corps gélatineux d'une créature du fond des mers, un genre de monstre à tentacules, méduse géante, diaphane, qui vous happe de ses filaments brûlants pour vous blesser aussi »⁶. La femme

MAZLOUM, Diane, op.cit., p.140 (1)

(2) <http://www.lorientlitteraire.com/NAJJAR>, Alexandre, *Diane Mazloum en quête de sens*, L'Orient Littéraire, N°166, 04/2020.

(3) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.21

(4) DURAND, Gilbert, op.cit., p.117

(5) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.16

(6) Ibid., p.101

fatale, créature infernale créée pour entraîner l'homme et l'humanité dans sa chute, se révèle à travers les images nyctomorphes : les « filaments » et les « tentacules » reprennent l'image du lien qui enchaîne Osman. La présence féminine de Sévine est incarnée devant lui sous la forme d'une « méduse » qui le blesse, évoquant « la féminité sanglante et négativement valorisée, archétype de la femme fatale »¹. La précarité d'Osman est évidente dans son rapport à Sévine. Son besoin de lui appartenir est son seul espoir d'exister.

La vacuité de l'existence se manifeste aussi chez Kamal qui mène avec les filles des relations frivoles, passant d'une relation à l'autre pour vivre des aventures passagères juste pour satisfaire son besoin sexuel. Zalfa, sa cousine, avertit Olivia, une jeune fille qui est tombée amoureuse de lui : « Il accomplit sa tâche avec les filles comme un gangster sans âme (...) De toute façon tout le monde couche avec tout le monde dans cette ville »². Les propos de Zalfa reflètent la situation de la société libanaise aisée et libérée des tabous. Kamal se montre qu'il préfère une bulle confortable de relations sans lendemain, et évite le tourment de la passion. Le changement qu'il recherche est une forme de « fuite devant le Destin »³. Zalfa connaît à son tour l'errance amoureuse. Le déracinement sentimental est dû à une fuite des exigences sociales. Fille d'un ministre, elle est empêchée d'épouser Peter qu'elle aime à cause de son appartenance à une classe sociale inférieure. Elle refuse également de se plier aux exigences sociales et familiales en acceptant de succomber à un mariage arrangé. Sa fuite dans diverses relations amoureuses la conduit à son échec affectif : « L'expérience tirée de chacune d'entre elles lui soufflait de poursuivre, « ça ira mieux avec le suivant » (...) [Elle] survolait finalement la relation en mode touriste. Pas la moindre intimité ne prenait le dessus, et une immense distance persistait »⁴. « Une imagination aérienne »⁵ s'impose par l'emploi de « survolait » connotant la légèreté de l'être qui, d'après Bachelard, « nous donne l'impression d'un mouvement libérateur. Il semble que ce mouvement partiel libère en nous une puissance de mobilité »⁶. Aimer sans attachement, sans développer de dépendance, c'est partager l'amour où personne ne perd, où l'identité n'est pas assujettie à l'autre. C'est la quête de la liberté permanente.

(1) DURAND, Gilbert, op.cit., p.113

(2) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.79

(3) DURAND, Gilbert, op.cit., p.78

(4) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.159

(5) BACHELARD, Gaston, , *L'Air et les songes. Essai sur l'imagination du mouvement*, op.cit., p.77

(6) Ibid., p.77

Au bout d'une nuit, la vie de chacun des personnages se bouleverse pour permettre une renaissance donnant un nouveau sens à leur vie. La plupart des espaces assurant ce changement sont des espaces clos où une reprise de conscience permet la libération intérieure de l'être.

2. La nuit initiatique

Dans l'espace d'une nuit toutes les destinées des personnages changent. Dans un monde tourbillonnant, entraînant en son sein des âmes perdues qui se cherchent dans le noir, les personnages évoluent dans différents espaces de la ville pour voir clair en eux-mêmes. Entre espace extérieur et espace intérieur, la quête aboutit à une renaissance grâce à l'intervention de plusieurs éléments initiatiques. Cette nuit voit la naissance de nouvelles vies.

2.1. Le paradoxe des espaces


L'espace est l'un des éléments qui constituent et définissent le personnage. Le besoin de se refermer dans un espace clos montre un besoin de retrouver un coin d'intimité où l'on peut méditer sur sa condition pour trouver une issue à son instabilité affective. Les personnages trouvent dans l'espace clos un refuge, un espace intime où « l'on rêve au repos de l'être, à un repos enraciné, à un repos qui a une intensité »¹. Cette intimité peut les aider à se retrouver en fouillant au fond d'eux-mêmes. L'initiation à une nouvelle étape de la vie passe par des moments décisifs qui changent la voie de chacun des personnages.

Anis vit seul dans un appartement de « deux-pièces du temps de ses études. (...) [qui offre] une vue sur les toits de Beyrouth »². Il attend l'achèvement du projet de la construction du gigantesque immeuble dans lequel il travaille comme architecte pour déménager et vivre dans l'un de ses appartements. Il veut passer la nuit avec ses amis et sortir dans la ville. Personne ne répond à ses messages. C'est à ce moment qu'il saisit sa solitude, un « vide sidéral (...) Il se rappelle soudain qu'il y a d'autres personnes à côté de lui (...) il prend conscience que ces êtres humains habitent des cubes de bétons empilés les uns aux autres (...) [De la fenêtre] une forêt de grues noires et géantes »³. La prise de conscience du vide intérieur conduit Anis à faire face à la solitude qui ronge sa vie. Les images nyctomorphes emplissent l'espace extérieur puis envahissent son âme :

(1) BACHELARD, Gaston, *La Terre et les rêveries du repos*, Paris, Librairie José Corti, 1982, 343 pp, p.14

(2) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.62

(3) Ibid., p.82-83



Les « cubes de béton », créant autour de lui un espace hostile et la « forêt de grues » inspirent un paysage ténébreux et une « ambiance terrifiante motivée par cet archétype (...) si négativement valorisé chez l'homme et que constituent les ténèbres »¹. Le paysage nocturne devient de plus en plus angoissant lorsque le courant électrique est coupé et que « la ville vacille une seconde, deux secondes, et puis meurt, avalée par le noir »². L'agonie de la ville entraîne avec elle l'âme du personnage. Le symbolisme de l'avalage, « avalée », associé au « noir », évoque l'image du gouffre. Selon Durand : « l'avalage néfaste (...) vient renforcer la crainte du gouffre (...) la teinte sombre des grands archétypes de la peur »³. Ce moment initiatique où Anis découvre l'impact de la solitude sur sa vie provoque la chute de l'homme en lui-même, le vouant à sa propre individualité. Le mode de vie qui l'a détourné de l'essentiel en cherchant la distraction dans une vie sociable, l'avait éloigné de lui-même. Le refus d'assumer sa solitude pousse l'individu à se réfugier dans le divertissement, comme l'explique Maurice Blanchot : « Les hommes ont reculé devant la part obscure d'eux-mêmes, ils l'ont repoussée et exclue, et ainsi elle leur est devenue étrangère, puissance mauvaise à laquelle ils se dérobaient par un constant divertissement »⁴. La prise de conscience de sa solitude angoisse Anis et le pousse à faire face à la réalité vécue dans ce monde moderne qui « est dans la situation d'un homme englouti par un monstre et qui se débat dans les ténèbres de son ventre (...) et ne voit autour de lui aucune issue que les ténèbres »⁵.

Si l'espace extérieur est révélateur d'une solitude profonde pour Anis, c'est l'espace intérieur qui permet à Osman de prendre conscience de sa propre solitude. Dans son appartement, il passe une partie de la nuit avec Sévine, qui doit voyager le lendemain : « on se voit trois jours tous les deux mois »⁶. Osman se trouve recroquevillé dans le monde de Sabine. L'espace qui les regroupe forme l'espace de vie pour lui. La nuit ambiante fait plonger l'espace dans une obscurité mortuaire : « Osman scanne les petits carrés blanchâtres et bleuâtres des immeubles devant lui. Passés aux rayons X, il verrait une grille de corps allongés, inanimés, horizontaux (...) chacun dans

(1) DURAND, Gilbert, op.cit., p.97

(2) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.84

(3) DURAND, Gilbert, op.cit., p.132

(4) BLANCHOT, Maurice, *L'espace littéraire*, Paris, Gallimard, 1955, p. 163.

(5) ELIADE, Mircea, *Mythes, rêves et mystères*, Folio essais, Paris, 2012, p.67

(6) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.89

son cercueil temporaire »¹. La mort qui envahit l'espace extérieur, « corps inanimés », « cercueil temporaire », est le reflet de l'indifférence d'Osman à tout ce qui l'entoure. Seule Sévine est pour lui le cœur qui bat dans les ténèbres. Son regard ne voit que Sabine qui est au centre de l'éclairage faible diffusé dans la chambre : « une faible luminescence dévoile le profil de la jeune femme (...) Osman guette les expressions de son visage (...) Il perçoit un bruit de gorge (...) [Des figures secrètes] Conviées par les phares des voitures en contrebas, elles s'allongent, languides, audacieuses parfois, jusqu'à toucher la gorge de Sévine où elles oscillent, traquées par le regard d'Osman »². Le regard d'Osman est centré sur Sabine, spécifiquement sur sa « gorge » qui « symbolise la défense, la protection, mais aussi la communication »³. La vie d'Osman dépend de l'approbation de Sévine de rester avec lui. Son regard fixé sur sa gorge marque une attente d'un mot qu'elle pourrait prononcer et être le tranchant entre la vie et la mort. L'espace dans lequel existe Osman est celui de la femme aimée.

Pour Marylou, l'amour est la force centripète qui la tire vers l'espace clos de ses amours passées, l'empêchant d'avancer. Pour se libérer du passé, Marylou choisit une chambre d'un hôtel, le Blue Grey, où elle a l'intention de détruire tous les souvenirs gardés la rattachant à son passé. Elle demande à son ami Yves de l'accompagner parce qu'elle n'a pas « le courage de le faire toute seule »⁴. Le choix d'une chambre d'un hôtel lui permet de se déposséder de ses souvenirs dans un « espace impersonnel (...) dépouillé de toute charge émotionnelle »⁵. Elle se renferme dans la chambre et elle se livre à fouiller dans sa mallette contenant tous ses souvenirs : « une série d'échantillons de parfum, flacons, vaporisateurs, tubes de crème et morceaux de savon »⁶. Marylou cherche à se libérer du cocon de ses souvenirs qui l'enchaînent dans l'« intimité de l'enceinte coquillaire »⁷. Tout son passé est gardé dans cet espace bourré par des objets divers. Elle s'en débarrasse en jetant le contenu dans l'eau dans la salle de bain : « Le mélange de couleurs rappelle le dernier rayon de soleil couchant qu'on

(1) Ibid, p.104

(2) Ibid., p.90-91

(3) <https://www.estelledaves.com>, DAVES, Estelle, Signification psychosomatique de la gorge.

(4) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.20

(5) Ibid., p.20

(6) Ibid., p.32

(7) DURAND, Gilbert, op.cit., p.289

aperçoit par la fenêtre »¹. La teinture est, dans le régime nocturne, « une qualité intime, substantielle »². Comme Marylou cherche à se débarrasser du contenu de sa mallette, la disparition des couleurs dégagées de tous les objets jetés dans l'eau évoque la disparition du trouble intérieur qui l'agite. D'après Bachelard, l'imagination peut rejeter « toute la teinture comme une malpropreté, comme une sorte de mensonge »³. Marylou fuit l'espace intérieur qui l'emprisonne dans un monde d'une intimité erronée.

Dans l'espace d'une nuit initiatique, les personnages s'agitent dans des espaces oscillant entre la recherche d'une intimité rassurante et la fuite d'une intimité accablante. Les différents espaces déclenchent une quête du « moi ».

2.2. Les éléments de l'initiation

Le changement initiatique qu'apporte la nuit prépare chacun des personnages à une nouvelle étape où l'initiation est « un engagement, un envoûtement (...) transmutation d'un destin »⁴. Elle prend plusieurs formes et mène l'initié à une illumination intérieure. Chacun des personnages connaît un processus de métamorphose qui « le rend capable de voir dans le noir »⁵, et à voir plus clair en lui-même. L'espace onirique, l'eau purificatrice, la mort, la transcendance temporelle sont les différents moyens qui servent à franchir le seuil d'une nouvelle existence.

2.2.1. Le voyage onirique

Plusieurs personnages se livrent à un voyage onirique qui les mène au plus profond de leur psyché. « Dans le règne de l'imagination, selon Bachelard, à toute immanence s'adjoint une transcendance. (...) Pour l'être qui réfléchit, elle est un mirage. Mais ce mirage fascine. Il entraîne une dynamique spéciale, qui est déjà une réalité psychologique indéniable »⁶. Pour Anis, un rai de lumière l'attire pour le faire plonger dans sa rêverie. Anis suit le signal lumineux qu'il aperçoit dans les ténèbres de la ville enfouie dans l'obscurité. Le signal le conduit à son lieu de travail où le bâtiment en construction prend la nuit une allure irréelle : « La lune se lève,

(1) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.49

(2) DURAND, Gilbert, op.cit., p.251

(3) BACHELARD, Gaston, *La Terre et les rêveries d repos*, op.cit., p.42

(4) DURAND, Gilbert, op.cit., p.351

ELIADE, Mircea, op.cit., p.107 (5)

(6) BACHELARD, Gaston, *L'Air et les songes*, José Corti, Paris, 1990, p.15

elle sera pleine dans deux jours. De son regard, il embrasse l'ossature dressée tout entière devant lui dans le noir (...) On dirait un cylindre de lumière pâle, presque irréel, flottant au ras du sol en silence, comme une chose volante »¹. Les éléments composant le paysage contemplé par Anis le transportent à un monde emporté par les désirs, reflet de la vie frivole qu'il mène. La « lune », liée au temps, croît, décroît, disparaît et réapparaît, évoquant la fécondité, la croissance, le éclin, la mort et la renaissance. Par son changement d'aspect, elle est le symbole de l'errance de l'Homme nomade qui « modifie continuellement ses itinéraires »². Pour le nomade l'espace est plus qu'un lieu. Pour l'homme en mouvement, l'espace se crée dans le parcours de plusieurs lieux. La vie d'Anis, sans attaches, s'incarne dans son voyage onirique où l'emploi des mots « flottant » et « volant », donne une légèreté évoquant les images du vol « axe vertical. [Les images] sont essentiellement aériennes »³. La légèreté et le vol sont le reflet de l'esprit nomade d'Anis qui rêve des « espaces ouverts tant qu'il fait nuit (...) se chevauchant d'une zone à l'autre. (...) Vagabonder de point vert en point vert à la longueur de nuit »⁴. L'esprit nomade d'Anis se heurte à une scène traumatisante qui soulève les rideaux sur son drame intérieur : « un reflet, quelque chose ou une ombre, a bougé à la hauteur de son futur appartement »⁵. C'est une invasion de son espace intime qui le perturbe. Il « ressent une certaine inquiétude (...) parce que cette petite scène domestique, (...) va hanter sa mémoire »⁶. En croyant trouver six personnes veillant dans sa future chambre dans l'immeuble en voie de construction, Anis observe une existence qui naît au sein de son intimité. La chambre représente « le réduit obscur (...) l'image de l'intimité reposante (...) de « siège » définitif dans l'illumination intérieure »⁷. La transgression de l'espace intérieur, espace de son intimité l'aide à faire face à la vacuité de cet intérieur. La vie qui naît dans sa chambre renvoie à son besoin d'un monde intime dans lequel il peut blottir : « Une jouissance se peint sur la figure de ces six personnes en symbiose, blotties les unes contre les

(1) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.94

(2) CHEVALIER, Jean, GHEERBRANT, op.cit., p.592

(3) BACHELARD, Gaston, *L'Air et les songes*, op.cit., p.54

(4) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.p.96-97

(5) Ibid., p.97

(6) Ibid., p.119

(7) Ibid., p.278

autres, vivant et bourdonnant au cœur de la nuit »¹. Les images de l'intimité sont récurrentes : « en symbiose », « blotties ». Ainsi l'imagination d'Anis l'aide-t-elle à découvrir le besoin de trouver la stabilité et l'équilibre dans sa vie intérieure. L'imagination, d'après Bachelard, « invite non seulement à rentrer dans notre coquille, mais à nous glisser dans toute coquille pour y vivre la vraie retraite, la vie enroulée, la vie repliée sur soi-même, toutes les valeurs du repos »². La quête onirique d'Anis l'aide à mieux se reconnaître pour se fixer de nouveaux objectifs dans sa vie et emprunter la voie qui l'emmène vers une véritable entente intérieure.

Le monde onirique constitue également pour Osman un espace qui lui permet de fouiller dans le plus profond de sa psyché. Son attachement obsessionnel à Sabine rend son monde intérieur centré sur elle. Son incapacité de la garder à côté de lui ou de mener une vie stable avec elle le jette dans le précipice de l'hallucination : « une mer lisse et bleuie baigne dans la rue sur un mètre de hauteur. Le niveau de l'eau continue de monter et sa surface sombre brouillée de flaques lumineuses menace le premier étage »³. L'eau qui envahit son imagination est une eau impure, « sombre » et « brouillée », elle est « pour l'inconscient, un réceptacle du mal, un réceptacle ouvert à tous les maux ; c'est une substance du mal »⁴. L'eau prend une allure mortuaire qui reflète l'effroi du personnage et son inquiétude sur son avenir avec sa bien-aimée. L'eau qui monte évoque aussi l'image de la noyade accompagnée selon Durand « d'un sentiment d'incomplétude (...) [elle] se confond avec le gouffre par excellence »⁵. Les images cauchemaresques englobent Osman dans des profondeurs mortuaires. Sévine est à ses côtés sans qu'il puisse la saisir. Impossible de se l'approprier, Osman se perd dans les flots de la femme aimée : « Dans son rêve, elle avait le goût de la mer, et sa langue et sa salive étaient tellement salées qu'elle lui avait desséché la gorge en l'embrassant »⁶. Le sel envahit le rêve d'Osman. Cette substance qui « entrave une rêverie »⁷ symbolise, dans le monde onirique dans lequel plonge Osman, l'amertume : « Tout ce qui est salé

(1) Ibid., p.122

(2) BACHELARD, Gaston, *La Terre et les rêveries du repos*, op.cit., p.25

(3) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.104

(4) BACHELARD, Gaston, *L'Eau et les rêves*, José Corti, Paris, 1983, p.163

(5) DURAND, Gilbert, op.cit., p.107

(6) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.110

(7) BACHELARD, Gaston, *L'Eau et les rêves*, op.cit., p.181

est amer, l'eau salée est donc une eau d'amertume »¹. Avec son baiser, Sabine lui extirpe l'âme. Elle l'épuise. Elle est la femme insaisissable qui détient entre ses mains la vie et la mort. Son départ est décisif de la vie d'Osman qui cède à sa fin tragique. Il va comme hypnotisé vers sa fin : « Osman titube. Il lève la tête vers la lune, à l'opposé de la rue. Pâle, pleine et docile, elle se reflète dans ses pupilles qui se dilatent, pendant que les phares d'un véhicule lancé à toute vitesse brillent sur le relief de son sourire béat, « pleine et docile comme un Ovule »². L'isomorphisme de la lune et l'ovule est une féminisation de la lune. Cette lune ayant « une puissance maléfique »³ ensorcelle Osman et l'aveugle et provoque sa mort. La rêverie se mêle à la réalité entraînant la perte et la désorientation d'Osman qui périt dans sa quête amoureuse.

Le rêve emporte aussi Olivia dans ses flots pour l'aider dans sa vie affective à fouiller à l'intérieur de son être et voir clair en elle-même. Eprise par Kamal, mais incapable de révéler ses sentiments envers lui par peur de devenir un amour passager dans sa vie comme les autres femmes qu'il fréquente pour le plaisir sexuel, Olivia se livre à ses fantasmes pour récupérer sa soif d'amour : « Elle préfère planquer, en bas de chez lui, pour l'apercevoir quand il rentre de soirée avec une autre (...) Epier un garçon pour décrocher un orgasme au moment où il en baise une autre ? »⁴. Son attachement incontrôlable pour Kamal la retire de la réalité pour qu'elle se perde dans le labyrinthe de son imagination hantée par lui. Durant cette nuit initiatique, Kamal ne rentre pas au moment prévu à sa maison, Olivia quitte le lieu mais toujours aveuglée par son obsession pour lui. Elle heurte quelqu'un dans la rue. La vraie tragédie, pour elle, est de ne pas pouvoir traquer Kamal : « Pas de Kamal ce soir. Et demain ? Olivia déglutit. Une brusque nausée lui soulève le cœur. Elle tremble, claque des dents, ses prunelles tournoient en tous sens et des larmes presque phosphorescentes, glissent le long de sa gorge »⁵. Olivia expérimente une mort symbolique incarnée par la régression physique qui apparaît dès que l'idée que Kamal ne figurera pas dans sa vie hante son esprit. Le vertige qui se manifeste par la perturbation physique reflète un « mouvement de chute intime, (...) cette chute est déjà de l'ordre de l'évanouissement, de l'ordre

(1) CHEVALIER, Jean, GHEERBRANT, op.cit., p.858

(2) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.169

(3) DURAND, Gilbert, op.cit., p.112

(4) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.164

(5) Ibid., p.185

de la mort »¹. Pour se distraire de la réalité angoissante, Olivia trouve par la rêverie un moyen d'accéder à la vie désirée. Cette épreuve initiatique permet au personnage de « réintégrer une existence immaculée, ouverte »². Dans le poste de la police, un officier entre dans la salle où Olivia est soumise à un interrogatoire. Il s'introduit directement dans son monde onirique où les images thériomorphes envahissent sa rêverie. L'agent de police, le faucon noir « doit avoir l'âge de Kamal environ »³. « Apparition du faucon noir. A peine posé au sol, il ouvre grandes ses ailes. Sauvages et moirées, elles dégagent un flux d'air puissant (...) le faucon replie ses ailes dans un claquement sec et se tourne vers elle »⁴. L'image du faucon qui s'impose devant Olivia révèle l'image de virilité qu'elle voit dans cet homme incarnant Kamal sous ses yeux. Le « faucon », « dont le type symbolique est toujours solaire, ouranien, mâle, diurne, est un symbole ascensionnel »⁵. Les ailes renforcent l'image de la verticalité. L'aile est « l'outil ascensionnel par excellence »⁶. La virilité masculine associée au symbolisme de l'ascension extirpe Olivia de son existence invisible pour faire ressortir les désirs refoulés dans son inconscient qui est, selon Jung, la part d'ombre qui est en nous-mêmes et difficilement accessible. Comme tout archétype, l'ombre possède une charge émotionnelle qui peut influencer le « moi », via des complexes psychiques et que Jung appelle le numineux : « L'ombre est la personnification de tout ce que le sujet refuse de reconnaître et d'admettre en lui. Se mêlent en elle les tendances refoulées du fait de la conscience morale, des choix qu'il a faits pour sa vie ou d'accéder à des circonstances de son existence, et les forces vitales les plus précieuses qui n'ont pas pu ou pas eu l'occasion d'accéder à la conscience »⁷. Olivia fait éveiller en elle les pulsions et les désirs cachés. Elle arrive à libérer la femme passionnée : « Assise à la coiffeuse de sa loge, elle est vêtue d'une longue robe rouge. On frappe à la porte. « Entrez », lâche-t-elle d'une voix grave et alanguie. Un inspecteur (...) referme la porte (...) Elle passe un peigne dans sa chevelure rousse et vaporeuse »⁸. Olivia,

(1) BACHELARD, Gaston, *L'Air et les songes*, op.cit., p.120

(2) ELIADE, Mercia, op.cit., p.274

(3) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.196

(4) Ibid, p.197

(5) CHEVALIER, Jean, GHEERBRANT, op.cit., p.429

(6) DURAND, Gilbert, op.cit., p.144

(7) LEBLANC, Elysabeth, *la psychanalyse jungienne*, Collection Essentialis, éd. Bernet-Danilot, avril 2002, p. 34

(8) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.200

dans cette scène imaginaire, est en train de se mirer, donc, de regarder au plus profond de sa psyché car « le miroir non seulement procédé de redoublement des images du moi, et par là symbole du doublet ténébreux de la conscience, mais encore se lie à la coquetterie »¹. Olivia s'incarne dans la femme séduisante, coquette et irrésistible. Avec les couleurs « rouge » et « roux » qui « caractérise le feu impur (...) infernal dévorant, la passion du désir »², elle renaît sous une nouvelle identité lui donnant le courage de donner libre cours à sa féminité. Elle est prête à prendre l'initiative : « demain c'est décidé, elle couche avec ui »³.

2.2.2. L'eau purificatrice

L'eau est un élément purificateur. Bachelard considère que l'eau est « une puissance intime, qu'elle peut purifier l'être intime, qu'elle peut redonner à l'âme pécheresse la blancheur de la neige. Est lavé moralement celui qui est aspergé physiquement »⁴. Marylou décide de détruire ses souvenirs en faisant plonger dans l'eau tous les objets qui lui rappellent de ses amours passées : « A mesure que chacune des feuilles blanchit, l'eau se colore d'un noir violet, lumineux, comme si le ciel strié de bandes mauves s'était répandu dans le baignoire »⁵. L'eau est purifiante, elle est utilisée pour laver et pour faire disparaître les impuretés. Par l'immersion des papiers et des photos dans l'eau, Marylou tente de se guérir du passé qui accable sa vie. Cette eau purificatrice a le pouvoir de guérir. Ceci se manifeste à travers l'emploi de « blanchit » qui évoque la pureté de la couleur blanche symbolisant une nouvelle naissance. La valorisation positive du blanc est « liée au phénomène initiatique. Elle est l'attribut du candidat (...) qui se relève, qui renaît »⁶. La fusion entre le ciel et l'eau brouillée est le reflet de l'agitation intérieure du personnage. Les couleurs qui se dégagent des souvenirs sont des couleurs sombres, « noir violet » et « mauves ». Elles sont associées aux couleurs du ciel lui donnant une lourdeur qui traduit l'accablement vécu par Marylou sous le poids des relations passées. Un nouveau chapitre dans la vie de Marylou voit le jour : « Tout s'engouffre en

(1) DURAND, Gilbert, op.cit., p.109

(2) CHEVALIER, Jean, GHEERBRANT, op.cit., p.833-834

(3) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.201

(4) BACHELARD, Gaston, *L'Eau et les rêves*, op.cit., p.167

(5) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.51

(6) CHEVALIER, Jean, GHEERBRANT, op.cit., p.127

un gargouillis dans les méandres de la canalisation»¹. L'image du gouffre est révélée à travers les termes « s'engouffrent » et « méandres ». Ce gouffre extérieur reflète le gouffre intérieur de Marylou, son inconscient où elle rejette à jamais un passé qu'elle fuit.

2.2.3. La mort, la vie

Kamal est le type de personnes qui aiment vivre dans une irresponsabilité. Il mène une vie libre et insouciant. Le moment décisif qui change le cours de sa vie est la nouvelle de la mort de Nara, l'amante d'un soir, morte suite à la chute de l'avion éthiopienne. Nara est une jeune fille qui a pu perturber l'équilibre intérieur de Kamal. C'est elle qui prend l'initiative et invite Kamal chez elle, puis elle prend le contrôle de la relation sexuelle : « A travers les mèches qui lui tombaient sur les yeux, elle lui avait paru insistante, mystérieuse, avec un fond d'urgence dans sa manière de s'accrocher à lui, le noir de son regard farouche et implorant »². Kamal est sous le charme du regard qui « est l'instrument des ordres intérieurs : il tue, fascine, foudroie, séduit, autant qu'il exprime »³. C'est un regard assoiffé qui envahit l'âme de Kamal. Associé au « noir », il reflète des « forces obscures »⁴ qui le perturbent le poussant à prendre la fuite : « Il avait laissé une femme qui l'avait choisi dans une pulsion vitale (...) pour pénétrer son âme en se donnant à lui (...) Elle l'incitait à basculer vers lui-même et il avait eu peur. De perdre ou de se perdre »⁵. Le court rapport avec Nara est capable de montrer à Kamal ses propres ombres et de mettre à nu ce qui se cache en lui. Nara lui sert, tout simplement, d'un miroir qui lui reflète sa vraie image. L'appréhension éprouvée par Kamal est révélée par l'emploi du verbe, « pénétrer », qui renverse les rôles en attribuant à Nara la virilité. Prendre la fuite sans la satisfaire crée chez lui un sentiment de culpabilité, surtout lorsqu'il apprend sa mort : « La lumière blanche qui filtre dans la pièce est aussi terne et poussiéreuse que cette matinée plongée dans un silence mort »⁶. Le silence est un espace de sérénité. Ce silence extérieur est un accès au silence intérieur qui permet à Kamal d'effectuer une réflexion méditative, de s'abandonner à lui-même pour mieux se reconnaître. La tristesse domine le paysage reflétant la souffrance du personnage. C'est

(1) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.53

(2) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.60

(3) CHEVALIER, Jean, GHEERBRANT, op.cit., p.803

(4) Ibid., p.804

(5) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.73

(6) Ibid, p.43

une phase initiatique où « les mutilations initiatiques »¹ sont de l'ordre psychologique et « sont chargées d'un symbolisme de la mort »². La couleur « blanche » de la lumière, « c'est la couleur du linceul, de tous les spectres (...) du départ vers la mort »³. Avec la mort de Nara, l'âme de Kamal périt. Celui-ci se détache de l'extérieur pour s'emprisonner dans le plus obscure de sa psyché : « Kamal ne dit rien. Il n'écoute plus. Il a mal au sexe (...) Ses lèvres sont pâles et serrées (...) les traits de son visage se contractent, il fléchit. Une main passée entre les jambes, il cherche mais ne trouve plus. Le sexe de Kamal a disparu avec Nara »⁴. La mutilation va jusqu'à la castration symbolique. Nara devient la figure de castration qui inflige angoisse et crainte à Kamal provoquant sa chute.

Si la mort symbolique de Kamal n'aboutit pas à sa fin ou à une renaissance, débouchant sur une castration symbolique, chez Zalfa, l'ablation du col de son utérus, suite à un cancer, est le motif à la quête de la vie. Elle a recours à une insémination artificielle. Même son échec affectif ne l'a pas empêchée de se créer une vie : « Elle tremble et balbutie. Ses épaules sont secouées de sanglots quand Peter la serre à son tour dans ses bras. Et quand il rouvre les yeux, c'est pour se retrouver dans une pièce aménagée pour un nourrisson »⁵. La mort corporelle n'est pas une fin pour Zalfa, elle est « suivie par un nouveau commencement. On meurt à un mode d'être afin de pouvoir accéder à un autre »⁶. Le « nourrisson » est le moyen de passage à une nouvelle vie.

Chacun des personnages connaît une déviation dans sa vie le menant vers une nouvelle étape. On arrive à retrouver la quiétude qui permet l'accès à une vie plus mature, comblant l'insécurité intérieure dans laquelle on vivait.

CONCLUSION

Le roman Beyrouth la nuit est une fenêtre ouverte sur une ville qui grouille l'espace d'une nuit. Les personnages sont des jeunes sans attaches, menant une vie frivole. Durant cette nuit, ils fuient les espaces ouverts pour aller dans une quête identitaire. Leurs âmes perdues se cherchent dans des espaces clos, favorisant l'intimité. Chacun d'entre eux se recroqueville dans

(1) ELIADE, Mircea, op.cit., p.244

(2) Ibid., p.244

(3) CHEVALIER, Jean, GHEERBRANT, op.cit., p.125

(4) MAZLOUM, Diane, op.cit., p.133

(5) Ibid., p.192

(6) ELIADE, Mircea, op.cit., p.68

son monde intérieur pour y fouiller, cherchant à se reconnaître. Plusieurs d'entre eux souffrent de l'échec amoureux, reflétant leur instabilité affective. La quête initiatique durant une nuit leur permet de traverser des épreuves menant à une nouvelle naissance où le « moi » est libéré des chaînes d'une vie trébuchante, à l'image d'une ville qui a connu, tout au long de son histoire, l'insécurité et l'instabilité. Diane Mazloum nous mène dans une aventure où l'on explore l'espace intime dans lequel blottissent ses personnages dans leur quête d'un monde rassurant, propice à l'épanouissement intérieur. Les personnages sont à l'image de la ville mutilée par les guerres et l'instabilité politique et ouverte à toutes les possibilités. La nuit s'avère, donc, un passage vers la lumière qui éclaire la voie de chaque personnage. Le roman nous montre une jeunesse qui a besoin d'un point d'ancrage qui leur assure la quiétude et la paix intérieure.

BIBLIOGRAPHIE

I- Ouvrage étudié :

– MAZLOUM, Diane, Beyrouth la nuit, Le Livre de Poche, Paris, 2015

II- Ouvrages mentionnés :

– ABOU, Sélim, L'identité culturelle, relation interethnique et problèmes d'acculturation, Ed. Anthropos, Paris, 1980

– BACHELARD, Gaston, La Terre et les rêveries du repos, Paris, Librairie José Corti, 1982, 343 pp

L'Air et les songes. Essai sur l'imagination du mouvement, Librairie José Corti, Paris, 1990, 307 pp.

L'Eau et les rêves, Librairie José Corti, Paris, 1990.

La psychanalyse du feu, Éditions Gallimard, Collection : Folio/Essais, Paris, 1992, 192 pp.

– BLANCHOT, Maurice, L'espace littéraire, Paris, Gallimard, 1955

– CHEVALIER, Jean, ALAIN, GHEERBRANT, Dictionnaire des symboles, Éd. Robert Laffont /Jupiter, Bouquins, Paris, 2005, 1059 pp.

– DURAND, Gilbert, Les Structures anthropologiques de l'imaginaire, Dunod, Paris, 2002, 536 pp.

– ELIADE, Mircea, Mythes, rêves et mystères, folio essais, Paris 2002, 285 pp.

– LASSUS, Marie-Pierre, Gaston Bachelard musicien: Une philosophie des silences et des timbres, Presses universitaires Septentrion, Paris, 2010

– LEBLANC, Elisabeth, la psychanalyse jungienne, Collection Essentialis,

éd. Bernet–Danilot, avril 2002

III– Sites consultés :

- <https://www.agendaculturel.com>. Une nuit à Beyrouth : Plongeon dans la galaxie de Diane Mazloum, Lou Mamalet, Agenda culturel.
- <https://www.lejournalinternational.fr>., Salomé, IETTER, Beyrouth : Cicatrices de guerre (1/2), Le Journal International, Archives, 1 Septembre 20015
- <http://www.lorientlitteraire.com/NAJJAR>, Alexandre, Diane Mazloum en quête de sens, L'Orient Littéraire, N°166, 04/2020.
- <https://www.estelledaves.com>, DAVES, Estelle, Signification psychosomatique de la gorge.

هذا البحث يعرض مشكلة الشباب النائه لذي يعاني من عدم استقرار عاطفي ونفسي في الرواية الفرنكوفونية Beyrouth la nuit للكاتبة الفرونكوفونية اللبنانية ديان مظلوم. تعالج الرواية مشاكل الشباب اللبناني المعاصر الذي يتخبط في مدينة تتسم بالمتناقضات. خلال ليلةٍ تتقلب الموازين حيث تختبر كل شخصية تجربة تجعلها تبحث في داخلها عن الإستقرار الداخلي كي تُصبح هويتها أكثر تلبوراً. تركز دراسة الرواية على النقد الموضوعاتي استناداً إلى أعمال Durand و Bachelard ومن خلال الدراسة يظهر تفاعل الشخصية مع محيطها الذي يلعب دوراً في تشكيل الهوية. كما تظهر حاجة الشباب اللبناني إيجاد الإستقرار الداخلي. كيف يتجلى الصراع الداخلي عند الشباب اللبناني المعاصر؟ وكيف يتفاعل مع محيطه في مهمة البحث عن الإستقرار الداخلي والعاطفي؟ هذا ما سنعالجه دراسة الرواية.

الدكتورة غنى علي السيد، أستاذة محاضرة في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الخامس



Digital Architecture: A New Era that Leads the Future

Hadil Chazbek ¹

ABSTRACT

The architect's task, in the first place, is to produce buildings capable of meeting the needs of their habitants and users. Similarly, in a digital society, this means the necessity of different typology that the society needs. Since the core of the digital revolution has the direct impact on life activities, its impact has directly affected architecture through its impact on the humans associated with each type of buildings. Therefore, it is necessary to analyze the extent of digital contribution on architectural development, as this development is permanent and evolve with the course of human life, taking the advantage of the technology in the field of construction, and changing the architectural ideology to rhythm with each era development.

INTRODUCTION

Digital design technology and its impact on contemporary architecture

There are many signs of the emergence of informatics technology on our life in general and on architecture in particular. In both cases, it is affected directly and clearly, as it is responsible for achieving human needs.

These signs appear on both architecture and urbanism, as the cultural and social boom caused by communications and information technology revolution directly affected architects and engineers. This prompted architects, urban designers and planners to reconsider and scrutinize many theories and applications directly related to this technical development, which resulted in a change of concepts and theories

We find, for example, that the applications of information technology and virtual reality reduced the need to move from one place to another. It also helped to fade the difference between reality and imagination, and between what is tangible and what is intangible, in which what was considered a fantasy has become believable and transformed into reality. In this context, there are many experiments and contributions from scientists, architects and artists with the common goal of combining the **material** with the **immaterial**. A final goal that is certainly possible thanks to technological innovation, but which requires an epistemic investigation on the abstract concept of the 4th industrial revolution, or rather an artistic interpretation of a new digital language. (Magliozzi, 2021)

(1) Architect, PhD student at Doctoral School of Literature, Humanities & Social Sciences, Lebanese University

At the end of the twentieth century, the information revolution became an influential factor in changing the nature of architecture in terms of thinking and creativity. This opens the door to experimenting with unusual shapes and formations, in which modern scientific discoveries became a response to architectural ideology. It led to the development of the architectural work system in the practice of design processes, to eventually turn into a digital system. (Claypool, 2021)

Moreover, contemporary architecture has also developed at the level of designing tools, process, production, manufacturing and implementation. As for the building level, the experimental architects developed the user's relationship with the building by interacting with the building's elements to meet its basic and recreational needs.

Examples of such types are interactive virtual reality museum buildings, which help provide information through visitors' interaction with the architectural elements (walls, ceilings, floors) that have been combined with electronic elements connected to the computer in order to provide information through it. (Roussou, 2021)

The role of the architect has also evolved to enter into the stages of software preparation, and he has also developed the building's performance through databases that are kept in control units to be referenced.


These programs and data, when applied to the architectural design, directly generate changes in its shape which led to the birth of new types of architecture that did not exist before such as Blob, Neo-futurism, Folding, Deconstructivism, Parametric, and Digital... (Shendurnikar, 2021)

1-The mental reality of the place

In the mental reality of the place, the dialectic of the relationship between abstraction and reality, between theory and practice, is raised, as this topic is related to the concepts of contemporary architecture.

As architects, we constantly try to maintain the strength of the original concept's unity in the final composition of the project. While the most powerful concepts and ideas may weaken or sometimes even fall in front of reality. These ideas and theories that generate compositional patterns become radical for the sake of realism, logical and materialistic for the architectural product. If we are unaware of the deepening role of these concepts and the detailing of their authority over the course of the composition process.

The contradiction that prevails in the dialectic between abstraction and realism may sometimes make us feel that modern architecture is unreal. Indeed, many years ago, the famous modernist Swiss architect Le Corbusier made the intriguing suggestion that architectural forms "work physiologically upon our senses." (Spence, 2020). It is preserved to just some thoughts and ideas that do not compromise to the extent of materialism in volumetric



expression. However, the presence of the digital revolution confirmed the ability to crystallize these concepts of thinking and elevate architecture to a level of intellectual complexity that is simplified and translated through physical and spatial clarity lived through the tools of development. This is confirmed by contemporary architecture that we have reached today.

2– Virtual Reality and Architecture

The first roots of the idea of virtual reality and the first human attempts to simulate reality are ancient in human history, and the development of the architectural perspective was mainly in the way of simulating three-dimensional shapes through a two-dimensional area.

2–1–Virtual reality capabilities

Virtual reality is the ultimate display technique that aims to depict and simulate reality so that our perception replaces our perception of the real environment. It is a computer-generated world in which one or more human senses are involved and is generated and produced in real time depending on the participant's actions. What distinguishes virtual reality applications from others, is the dynamics of the zone of study in addition to the interactions with the viewer (Fei Tao, 2019). The synchronization of the computer's response to the participant's actions distinguishes virtual reality from other types of productive visual representations.

Recent years have witnessed a tremendous shift in the media used in architecture and interior design, whether as a system or as a practice that works from manifestation to design. At the design process, which until recently seemed unaffected by the intrusion of electronic means, now appears ready to redefine its methodology to integrate and unite with the computer and use it to the extreme. Virtual reality is considered one of the most important dimensions of the digital revolution which has its effect and vital impact on the architectural design process. It is a self-directed, multipath, interactive visualization (architectural product activation of a form identical to reality) that computer systems produce to show us an artificial form of a three-dimensional environment. (Claypool, 2021)

This reality constitutes of a mixture of techniques that have exceeded the capabilities of its components and open up horizons among users of all disciplines, including architecture. In this way, it helps to explore, examine and study their creations in a semi-realistic and real way through this system. It also works in an experimental manner for the project to survey the areas of creativity and to correct what may resemble shortcomings that only appear through the embodiment of the mass and the semi-realistic interaction with it.

Its importance and reasons for its spread are due to its ease of use and its direct tendency to work in the same way that the natural human senses

work to achieve a high degree of similarity with nature and compatibility with the way humans perceive and understand natural scenes.

3- Technical systems for the digital revolution

The architect Nicholas Negroponte (Howarth, 2017) stated regarding the evolving digital architecture “This is a dematerialized architecture, a filter or membrane intervening and responding with enough presence to allow the occupants environmental control.(Atoms to bits) principle the digital , electronic, virtual side is increasingly taking over from the physical.” After discussing what information technology has been available in terms of design tools and how the tool (computer and architectural software) has turned into an ideology of thinking, and how it opened the way to achieve difficult ideas and complex shapes, which helped architects to take into account new dimensions during the design process, there is no room for limitations related to difficulty or inability to implement any sort of ideas. It opens the way for them to a new world and new theories that emerged as a result of four factors that were the outcome of the designer’s interaction with what was provided by the tool (Husein, 2015):

–Digital representation and simulation of reality with the realization of its dimensions:


- Generate ideas and configurations.
- The possibility to evaluate ideas in the early stages of design.
- The possibility of measuring the performance of the building and determining the extent to which the design achieves the desired goal.

By clarifying the important role of information technology on the design process, which did not stop at this limit, but it continued to the process of production, manufacturing and digital implementation, it reached the stage of the integration of both currencies together through the tools of the digital revolution.

3-1- Construction Technology and Implementation:

This stage is expected to develop remarkably in the twenty-first century, as it is considered one of the most prominent influences of the digital revolution. The automation cluster is integrated with construction, information technology, visualization and artificial intelligence. The concept of automation began in the last decade with the aim of reducing manpower and time (Manzoor, 2021) especially with the great capabilities and tremendous applications provided to the field of building technology with the help of computers. It was able to shorten the time required to implement any building, and it was able to efficiently assist in the manufacturing and implementation process of any project regardless of the difficulty resulting from its form.

We note the importance of the development in the implementation



process as an example which can be noticed between the beginnings of the construction phase of the pyramids and the construction of the tallest tower in the world, whose height exceeded 800 m, which expressed the advanced stage that the implementation process has reached. (Ghosh, 2021)

The impact of this digital revolution was evident in the elements of building technology, represented by the rapid development of construction systems, implementation processes, and building materials.

3-10- Build systems

The usual view of construction systems has changed beyond imagination, as the use of digital revolution techniques is no longer limited to the usual construction calculations. On the contrary, with what the technical capabilities made possible, it was possible to create any block, no matter how impossible it seemed, through a simple simulation through 3D printing (Jiquan Yang, 2021).

Modern construction systems begin by transferring shapes first from the physical field to the digital one, and their stages and techniques have evolved the three-dimensional scanning techniques that can be used to monitor physical models in a digital way. Furthermore, the existing and surrounding conditions of the physical model such as landscapes, topography and terrain. Laser scanning technology, which is based on different measurement techniques, is used in a common way in surveying construction sites all over the world. This technology is characterized by accuracy, speed, and timely detection of standard deviations that may occur during the survey or in the construction phase. (Watts, 2001)

Implementations

Implementation of buildings has evolved with the development of the digital revolution. We have reached an era that uses the most advanced technologies, as it has transcended giant construction operations, and tremendous speed techniques in building construction. It dazzled the world at the time, to reach techniques based on 3D printing and manufacturing machines, The so-called manufacturing process by thermosetting, which is used to obtain products or architectural elements (walls, ceilings or tiles), by heating the material to a point below the melting point, and thus the atoms of the material stick to each other (Jiquan Yang, 2021). This method goes through two stages, the first is the addition by pouring a large block of used materials, and the second is the subtraction process by making the machine arm pass over the large block and then sculpt it. This technique can be used in the design of complex shapes or blocks, which have irregular curved shapes in the process of their implementation as well (Sutrisna, 2021).

From the above it is clear to us that the architectural and construction

work systems have transformed from a traditional system that depends only on human and mental effort to a digital system used at all levels of design and execution that was used by architects and engineers to achieve their goals and ideas. This appeared in the form of high-tech architecture, and in forms with unprecedented configurations, to be a witness to the enormous development of architecture and the transformation of the work systems in the era of information technology and digital systems.


3-12-Building materials

This section deals with the impact of information technology on the material defining the space. It aims to study the development of the concept of using materials in the construction process. This led to the emergence of new forms of materials, the most important of which are smart materials, which were integrated with control systems and communication systems; This opened the way for the emergence of the so-called "smart architecture" and its various applications. Therefore, the use of smart materials in architecture is the example that best illustrates the extent to which information technology affects materials and thus architecture. (Shahinpoor, 2020)

Materials play a major role in developing and making shifts that separate one era from another. The discovery of iron and concrete in the era of the Industrial Revolution affected buildings through wide seas, high-rise towers, ease of formation and formation of surfaces, and with this continuous development of materials through the ages, and with the progress made by chemistry and physics on the properties of materials; This led to the term intelligence starting to appear on a lot of products (Jiquan Yang, 2021).

These smart materials have changed the constants of traditional materials, where the building can be in more than one color, effect or shape, for example, what you can see in a form during the day, it can change at night, or the shape of the external composition may change according to its use. Among the smart applications of the materials, too, is the production of tissues that are easy to clean and even clean themselves automatically, and this technology has been used in the facade glass of high-rise buildings.

It must be noted that the word "intelligence" used to express smart materials does not necessarily require that the materials in themselves be smart, but what is meant is that these materials give a reaction and response to the surrounding environmental factors, or according to the requirements of the user or his movement. These changes can be received by pre-programmed control devices so that their natural characteristics in the interior space of the building interact with these materials, and then give a signal to control the elements to be employed according to what the designer wants (Olabi, 2021).



There are many types of smart materials, as thermal ones, and these materials, when exposed to thermal energy, change their molecular structure and form to a new one, in which their structure is characterized by different reflections as a result of radiations that are reflected on the visible range which changes the color of the material. There are also luminous materials. It is one of the smart materials that change its properties when exposed to rays of light.

The capabilities and characteristics of smart materials were clarified, with their positive interaction with the surrounding environment, and the resulting change in their direct properties, light, heat, and electricity, which leads to benefiting from these characteristics and adapting them in an automatic control system to be smart systems. These systems may change all aspects of human life due to the change they cause in the patterns of use of architectural facilities and urban communities. They are systems with a lot of details and complexities (Olabi, 2021).

In conclusion, these are the systems that receive or be affected by changing their properties and convert them into data that can be processed according to pre-prepared programs and output this data in the form of operating orders for the elements in the building. In which there is an interrelationship between information technology and materials. Technology has benefited from the development of smart materials, and at the same time integrated with them to build an electronic mind for materials, which led to the emergence of modern trends for the design of public facilities for smart buildings, smart homes, and smart interfaces.

4- Digital Architecture

“Change” is a feature that accompanied every revolution when it took place. The rise of the industrial revolution and the technological revolution was accompanied by effects on aspects of economic, political, literary, artistic, architectural and urban life. With the advent of the information age, it seemed a prelude to a new revolution, the digital revolution. Here we saw the inevitability of change imposed by revolutions on the various aspects of life in thoughts, art and architecture, which are the interface of civilization and progress.

The digital revolution and globalization have produced the ideology and philosophy of what is now known as digital forms, which have spread widely in various fields. It can also be clarified that the inclusion of these thoughts and philosophy of digital forms within the concept of modern theories, have responded to the requirements of this era with all its orientations and new theories (Magliozzi, 2021). Digital architecture refers to computer-based processes for the purpose of organizing the shape and effecting transformations in it, whether in the case of static or moving shapes, which,

through the use of software techniques, can create kinetic procedures in a virtual reality that brings them closer to the natural reality, to enable the designer to do some tests for the purpose of developing them and make modifications thereto

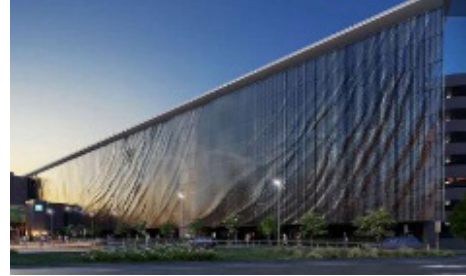


Figure 1: Dynamic shapes in modern digital architecture elevations

Source: Brisbane Airport's car park to get kinetic façade from Ned Kahn
www.designcurial.com

4.1 Contemporary Digital Architecture

Architecture in the era of the digital revolution and information technology went through stages of development similar to the developments that affected architecture in the era of the industrial revolution, from the emergence of new styles of buildings and the emergence of theories and ideas that express the variables of urban life. Where the boundaries between reality and imagination faded and helped immaterial exchange and direct communication, new innovations had returned to architecture and urbanism, and digital technologies to help the production of forms, which opened the way for architectural concepts to design and spatial formation much more freely.

The era of digital architecture is an expression intended for the era we live in today. It began with the direction of architect Frank Gehry in the process of developing techniques to help him achieve his ideas, which were characterized by many complexities in blocks, spaces and construction processes, where Dr. Ali Raafat(2011) says: "Architecture no longer needs Linking to horizontal planes or sectors, heights and facades only, to replace the traditional methods of dealing with the building from a two-dimensional image, to dealing with the entire building through a three-dimensional model, which led to the interdependence of the design stages.

In this regard, Gibson (1995) says, "We are now living in the age of the machine, but with the advent of information technology, it seems that architectural thought is able to take advantage of contemporary science, and employ it to meet the necessary needs of life."

When we see one of Frank Gehry's (Groenendijk, 2019) works in the era of the digital revolution, it comes to our mind that there is an architectural language that differs in its expression from the traditional method of using materials and building configurations. This expression is called digital expression, which is related to digital technology because it is used in its formation. Among the creative architectural works of Frank Gehry is the Walt Disney Concert Hall project, and many of his recent projects that have taken digital expression, whether in manufacturing or the process of implementation and formation, to a whole new digital level (Jones, 2008)



Figure 2: Walt Disney Concert Hall by Frank Gehry

Source: Brisbane Airport's car park to get kinetic façade from Ned Kahn

We also find that the work of the architect "Antoni Gaudi" in this era and his ability to form and create sculptural forms characterized by the use of curved surfaces at the outskirts of the building, in order to express his approach to borrowing forms of nature to make it compatible with his design. (staff, 2021)

In the context of talking about contemporary digital expression, the following question arises, which was directed to the international architect "Hani Rashid" in New York in 2002: does form still follow function? To which he answered that form in the era of the digital revolution has become following the tool, and the tool, in return, has become available for what the human wants adding: "we should design things that evaluate our senses of what it is to be human."(Marray,2021).

Through a common understanding of digital expression related to what the computer has made available. It transformed from generating three-dimensional and two-dimensional models that help analysis during the design process, the possibility of controlling surfaces and blocks and generating complex shapes from simple and primary objects, to identifying the characteristics of shapes and the possibility of giving the architectural

model the final shape that the architect wants.

4-2- Digital Design Tools

With the advent of the era of information technology, new tools have been developed in design, the most important of which are computers with design auxiliary programs, but without affecting the design process in the development of design ideas. However, what differed was the use of the computer in the stage of developing and testing ideas.

For many designers, designing tools are the link between the designer's thought and the final product. The designer is the controller of the design process with his thought, culture and information, and the computer is nothing but a new tool. That has taken over the designers' thought because of its possibilities that differ from the traditional tool, to help them crystallize their ideas, and put them on the path of reality and implementation, without replacing the architect in his ideas and his designs.

With the development of this type of digital architecture, computer-assisted programs were prepared to facilitate the representation and realization of curved surfaces, and architect Frank Gehry (1990) found the beginning of the solution in the "CATIA" program, which means the computer-aided three-dimensional interactive application, which was later developed to be compatible with the design and construction and structural analysis, and in return to be a source of construction and building information (Adams, 2016).

With the continuation of the development of information technology, the software industry developed and entered the architectural field in the form of preparing and developing design-assistive software. It went through two generations:

The first generation represented in two-dimensional graphics, approaching the process of drawing . It also has a three-dimensional models, which allowed new features of accuracy and ease of scanning, modification, copying and repetition. It helped to speed up the completion and save time, as a result of the computer's ability to store and process information to produce the final element.

The second generation contributed to the formation of digital models that addressed the problems of the first generation, and facilitated the project development stages. The designer designs in the form of a model simulating reality, and in the same surrounding environmental conditions, so that he can monitor the movement of users through simulation and experimentation programs which enabled the designer to stand on the performance of the building and evaluate it according to his design ideas, in the available environment. (ArchDaily, 2021)

4-3- Evolution of new architectural currents

Richard Riggs (1990) said: “The standards of beauty that were prevalent in the past or even at the beginning of the twentieth century must change and be subject to new foundations with the scientific and technological progress that is being achieved every day.”

With the emergence and development of the path of the digital world, many complex streamlined formations emerged in light of the capabilities provided by the digital revolution, which led to the emergence of new currents and schools that keep pace with time and exploit the technologies it offers.

In her vision of contemporary architecture, Zaha Hadid(2004) says: “It should have an impact on street life and lead people to it. It happened because of mass production, but now we don’t need that.”



Figure 3: Heydar Aliyev Centre in Baku, Azerbaijan by Zaha Hadid

Source: architecturaldigext.com

4-4- Digital Architecture Trends

What brings together all the trends of digital architecture is the focus on the formal aspect of the building. In these interactions with digital architecture, opinions differ. Some adopted the change that affected the concepts of architecture from its roots, and some adhered to the principles that prevailed, but the importance of technology and the capabilities it provided to architects, imposed itself in the imperative of its use.

Architecture continued to advance in parallel with contemporary technology, resulting in different architectural styles. Deconstructivism is one of those styles, which appeared in the early eighties of the last century at the hands of the French thinker and artist of Algerian origin, “Jacci Darrida” (Derrida,

1997). It is the renewal of postmodern architecture without reference to the past, and therefore it can be said that it is a continuation of modernity (Pellitteri, 2014). The architects of deconstructivism see that it is a natural reaction to the changes taking place in society, such as progress and technological development. It is the emotion of human with the surrounding reality, that matters and since the most important thing in human life in the building where they live. Thus, it is necessary to move to that architecture from being an expression of a reaction, to a living verb.

Opinions differed about Deconstructivism and the way to achieve its goals, within four groups, starting towards deconstruction and interdependence, as “Frank Gehry” (Rose, 2018) says in this context: “I have found in art something new that I have always searched for in architecture, I have discovered the importance of giving a feeling and spirit to composition trying to find an entity to my own understanding. This trend calls for the dismantling of the whole into parts and re-combined in an unconventional artistic style. Among the most important work of Jerry Frederick Weisman is museum of Art–Washington–1993, as well as Guggenheim museum–2004.



Figure 4: Museum of contemporary Art
Source : <http://www.designmagazin.cz>



Figure 5: Jewish museum, Berlin, 1989

Source: <http://www.designmagazin.cz>

As for the second trend, it is the abstract, and it is led by its pioneer “Peter Eisenman” who believes that the parade is the goal of architecture, and his architecture is characterized by extreme abstraction despite the introduction of some traditional elements. (DiCrescenzo, 2021)

This is followed by the trend of complexity and chaos, where architecture in this direction is characterized by strength in expression and sharpness, and it shows boldness in the prominent specific formation. As sharpness and strength appear in all the architectural elements, not only in the mass, the internal formation and openings are also affected. The most important pioneer of this trend is “Daniel Libeskind”, whose designs were distinguished by the anatomy style and sharp angles, and his projects in this style were the Jewish Museum– in Berlin, as well as the style of sharpness with fluidity that appeared in the project of the Museum of contemporary art in Milan (Pellitteri, 2014).

Finally, (Constructivism , n.d.) the modern constructivist trend led by “Rem Koolhaas” calls for the transformation of large slabs into colorful and dispersed perspective formations. In his works, he adopted the grid system and showed the structural elements used in the design, in contrast to the usual system that was popular in the twentieth century. One of the most prominent pioneers of this trend was also “Zaha Hadid”, a student of Rem Koolhaas, and one of her projects in that era was the Vitra Fire Station (1993).

The areas of development of digital architecture did not stop at deconstruction, but continued on its path to reach the production of streamlined, less sharp forms such as fluid architecture, which started from sharp lines with

the engineer Zaha Hadid, and soon changed in light of the availability of technologies into streamlined formations called Fluid architecture with flexible shapes and smooth lines that we have never seen before (Ramanathan, 2014).

In the light of working in an immaterial digital environment, and away from the solid components of blocks and projections, where the void is formed with unlimited freedom, the pioneers of this current were able to form blocks that exceed the limited space of the architectural process

In terms of forming, taking advantage of the development of flexible materials, this enabled them to produce light facilities. This architecture appears on the Birmingham–Selfridges building project as well as Gateshead–the Sage gateshead.



Figure 6: Gateshead – The sage Gateshead

Source: <http://www.designmagazin.cz>



Figure 7: Birmingham–Selfridges building

Source: <http://www.designmagazin.cz>

And with the continuous development, and as an expression of countries' ability and desire to embody their economic strength, or as a result of their confidence in the components of their society, the passion appeared in the construction of high buildings for the borders of the towers to form architectural symbols and slogans (Ramanathan, 2014). With the tools and standards of the digital revolution, architecture can increase the flexibility and dynamism of these buildings. In the echoing of the talk about the architecture of the towers, the architect Raheef Fayyad (Alghani, 2019) was asked about the purpose of building such high-rise, and he replied:

“We will be lenient, or we will be optimistic if you like, and we see that the designers of the towers and their builders aim to confirm confidence in the components of this society and to establish confidence in its values as well... The passion for towers is at its height today.”

The technical expression remains the basis in the conceptual formulation of the architecture of the towers, for example, the dynamic tower in Dubai, which clearly shows the connection of its final form with technology, as well as the case for many towers that have not yet been built such as the Floating Observatories tower, which confirms the extent to which the dynamic tower architecture is linked to development of technologies.



Figure 8: Shaper of Parametric design

Source: <https://www.arch2o.com/>

THE CONCLUSION:

Parametric Architecture

Not a day passed without architecture continuing to develop, taking advantage of the achievements in the field of technology and its tools. This contributed to the increase in the progress of architecture, and the increase in architectural styles based on flexibility and fluidity.

Organic architecture expresses an architectural philosophy that seeks compatibility and harmony between nature and architecture, to become a part that already exists in nature. Architect Frank Lloyd Wright (BRITTON, 2014) describes it as an ideal idea and teachings that must be followed if we want to understand life as a whole, and to serve the meaning of life. Common sense or higher sense if we want...

In the context of talking about digital architecture, we arrive at what is known as parametric architecture, which is not reduced to non-standard architecture, but rather is a digitally based architecture on the principle of the function and of settings and data. Measurements, dimensions, and areas of space and construction all depend on the definition of data that can be manipulated in real time according to multiple data entries, after the architect completes his role in the design process. Therefore, it cannot be considered as creating forms based on technical steps, data and determinants of the built of urban fabric, and the ecological environment only, but rather it is a wonderful creation for the integration of many settings together.

Parametric architecture begins with the development of the design idea that the architect puts in the digital environment, often with the help of ideas provided by dynamic practical means, due to the possible directness in the design manipulation of the model

We note the importance of adopting digital designs in parametric architecture by creating virtual spaces, integrating natural organic forms and digital

geometries, with relationships similar to biochemical connections to generate free forms that represent the contemporary style

The sources of inspiration for digital shapes can be classified into three categories, the first of which is shapes inspired by digital physical components (such as shapes of devices and digital tools themselves), followed by shapes inspired by models that can be produced by digital software, especially 3D software (Jiquan Yang, 2021). Finally, those inspired by another vital field such as nature, for example, meaning that the metaphor is from the digital medium, whether the component or form is graphically or from outside this digital medium.

All these developments and architectural styles produced a dramatic change in the direction of architecture, as the penetration of digital technology into our daily lives is a must and there is no point in resisting it. Its use in the design process adds a new dimension to architecture, and enables us to embody our ideas that are always difficult to fully express.

References

- Adams, G. A. (2016). Digital Tools For Architects.
- Alghani, R. A. (2019). *تجنياسنا تَغلب قرامعلا بتاكا*. al-akhbar.
- ArchDaily. (2021, September 8). Digital Tools, Innovation and Sustainability. (H. Larsen, Interviewer)
- BRITTON. (2014, July 29). Frank Lloyd Wright's Organic Architecture. Retrieved from BRITTON: <https://www.brittonmdg.com/blog/frank-lloyd-wrights-organic-architecture-green-design-before-its-time/>
- Claypool, M. (2021). The Digital in Architecture: Then, Now and in the Future. SPACE10, 1-6. Retrieved from space10.com: <https://space10.com/project/digital-in-architecture/>
- Constructivism . (n.d.). Retrieved from hisour.com: <https://www.hisour.com/constructivism-28931/>
- Derrida, J. (1997). The Architecture of Deconstructivism .
- DiCrescenzo, J. (2021). The Case for a Feeling Architecture. ArchDaily, 1.
- Fei Tao, M. Z. (2019). Digital Twin and Virtual Reality and Augmented Reality/Mixed Reality. In Digital Twin Driven Smart Manufacturing (pp. 219-241).
- Ghosh, I. (2021). These are the world's tallest structures throughout history. Retrieved from weforum.org: <https://www.weforum.org/agenda/2019/09/tallest-historical-structures/>
- Gibson, L. H. (1995). Beautiful houses : a study in house-building. NY.
- Groenendijk, R. (2019). THE DIGITAL INFLUENCE ON ARCHITECTURE.
- Howarth, D. (2017). "Biotech is the new digital" . dezeen, 1.
- Husein, H. A. (2015, October). Reflections of Digital Revolution on Archi-

- ecture. International Journal of Engineering Technology, Management and Applied Sciences, 3(10), 75–78.
- Jiquan Yang, L. N. (2021). Multimaterial 3D Printing Technology. Beijing : Academic Press 2021.
- Jones, R. (2008). AD Classics: Walt Disney Concert Hall / Frank Gehry. ArchDaily, 1.
- Magliozzi, A. (2021, Feb 07). <https://worldarchitecture.org>. Retrieved from <https://worldarchitecture.org/article-links/egmzv/the-augmented-vision-of-architecture-in-the-digital-age.html>
- Manzoor, B. (2021). Digital Technologies in the Architecture, Engineering and Construction (AEC) Industry—A Bibliometric—Qualitative Literature Review of Research Activities. International Journal of Environmental Research and Public Health , 11.
- MARRAY, D. (2021, April 9). arabnews.com. Retrieved from arabnews.com: <https://www.arabnews.com/node/1839436/lifestyle>
- Olabi, A.-G. (2021). Encyclopedia of Smart Materials. Scotland.
- Pellitteri, G. (2014). New digital trends in current architecture: A comprehensive critical examination. eCAADe, 251–256.
- Ramanathan, R. (2014). Handbook of Research on Architectural Trends in Service-Driven Computing . USA.
- Rose, J. (2018). TECTONIC ARTS: Frank Gehry talks with Julian Rose. ARTFORUM, 7.
- Roussou, M. (2021). Immersive Interactive Virtual Reality in the Museum. Athens.
- Shahinpoor, M. (2020). General Introduction to Smart Materials. In M. Shahinpoor, Fundamentals of Smart Materials (pp. 6–11).
- Shendurnikar, S. (2021). Latest innovative styles in architecture, after modernism. Retrieved from <https://re-thinkingthefuture.com>: <https://www.re-thinkingthefuture.com/rtf-fresh-perspectives/a2075-latest-innovative-styles-in-architecture-after-modernism/>
- Spence, C. (2020, Sep 18). Senses of place: architectural design for the multisensory mind. Cognitive Research: Principles and Implications.
- staff, M. (2021). Antoni Gaudí: A Guide To Antoni Gaudí’s Architectural Style. MASTERCLASS.
- Sutrisna, A. O. (2021, July 9). Facilitating Digital Transformation in Construction—A Systematic Review of the Current State of the Art. frontiers in Built Environment, pp. 1–7.
- Watts, A. (2001). Modern Construction Handbook. Springer; 1st edition.